مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

المتوفى سنة ٥٤٨ هـ ق

مع تعاليق

العلامة المفسر أبو الحسن الشعراني

المتوفى سنة ١٣٩٣ هـ ق

وتعاليق جديدة



المكتبة الرضوية لإحياء الآثار الجعفرية

مجمع البيان

في تفسير القرآن

مجمع البيان

في تفسير القرآن

تأليف

أمين الإسلام أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي

مع تعاليق

العلامة المير زا أبو الحسن الشعراني

الجزء السادس

الرعد - مريم



حققه وعلق عليه وأشرف على تصحيحه

حامد الفقوي الأردستاني

تحرير ووضع العلامات

أحمد درايتي

سرشناسه : طبرسی، فضل بن حسن ۳۵۸ ـ ۵۴۸ ق.
عنوان و نام پدیدآور : مجمع البیان فی تفسیرالقرآن/تألیف امین‌الاسلام ابی علی الفضل بن الحسن الطبرسی؛ مع تعالیق ابوالحسن الشعرانی؛ حققه و علق علیه حامد الفدوی‌الاردستانی؛ محرر احمد درایتی.
مشخصات نشر : تهران: المکتبه‌المرتضویه‌لاحیاء الآثارالجعفریه: مرتضوی، ۱۴۳۱ق.=۱۳۸۸ـ۱۳۸۹.
مشخصات ظاهری : ۱۰ ج.
شابک : دوره: 978-964-2965-11-3؛ ج.۱: 978-964-2965-12-0
: ج.۲ 978-964-2965-13-7؛ ج.۳: 978-964-2965-14-4؛ ج.۴: 978-964-2965-15-1
: ج.۵ 978-964-2965-16-8؛ ج.۶: 978-964-2965-17-5؛ ج.۷: 978-964-2965-18-2
: ج.۸ 978-964-2965-19-9؛ ج.۹: 978-964-2965-20-5؛ ج.۱۰: 978-964-2965-12-2
وضعیت فهرست نویسی: فیپا
یادداشت : عربی.
یادداشت : کتابنامه.
موضوع : تفاسیر شیعه ـ قرن ۶ق
شناسه افزوده : شعرانی، ابوالحسن، ۱۲۸۱ ـ ۱۳۵۲.
شناسه افزوده : فدوی اردستانی، حامد
شناسه افزوده : درایتی، احمد، ویراستار
رده بندی کنگره : ۱۳۸۹ ۳م۲ط / BP۹۴/۵
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۲۶
شماره کتابشناسی ملی : ۲۰۲۹۴۹۲





هوية الكتاب

الكتاب: مجمع البيان في تفسير القرآن ج٦
المؤلّف: أمين الاسلام الفضل بن الحسن الطبرسي رحمه الله
تعليق: العلاّمة الميرزا أبو الحسن الشعراني رحمه الله
تحقيق: حامد الفدوي الأردستاني
تحرير ووضع العلامات: احمد درايتي
الناشر: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية
بالتعاون مع انتشارات مرتضوي
التنضيد والاخراج الفني: كومبيوتر المجتبى عليه السلام
المطبعة: ستارة ـ قم ـ الكميّة: ٢٢٠٠ نسخة
الطبعة: الأولى ـ منقّحة ومصحّحة ـ ١٤٣١ هـ. ق . ١٣٨٩ هـ. ش
ردمك: 5 - 17 - 2965 - 964 - 978 :ISBN
شابك الدورة: 3 - 11 - 2965 - 964 - 978 :ISBN

العنوان: طهران ـ شارع ناصر خسرو ـ فرع حاج نائب ـ سوق المجيدي
هاتف: ٣٣١١٦٤٨١ ـ ٠٢١ ـ فاكس ٤٤٨١٤٧٧٢ ـ ٠٢١


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة
للمكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفريّة ايران ـ طهران
ويحظر طبع أو تصوير أو ترجمة أو إعادة تنضيد الكتاب كاملاً أو
مجزاً أو تسجيله على أشرطة كاسيت أو إدخاله على الكمبيوتر
أو برمجته على اسطوانات ضوئية إلاّ بموافقة الناشر خطيّاً

طهران: شارع ناصر خسرو ـ فرع حاج نائب ـ سوق المجيدي
الطابق الثاني ـ الرقم ١١ ـ هاتف: ٣٣١١٦٤٨١ ـ ٠٢١

البريد الالكتروني
info@mortazavi-pub.ir

الانترنت
www.mortazavi-pub.ir

سورة الرعد

مكّيّة كلّها، ـ عن ابن عباس، وعطاء ـ. وقال الكلبي[1]، ومقاتل: مكّيّة إلاّ آخر آية منها ـ نزلت في عبدالله بن سلام ـ. وقال سعيد بن جبير: كيف تكون هذه الآية نزلت في عبدالله بن سلام والسورة كلها مكّيّة؟ وقال الحسن، وعكرمة، وقتادة: إنّها مدنيّة، إلاّ آيتين، نزلتا بمكّة: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ وما بعدها.

عَدَدُ آيِها: أربعون وسبع آيات، شاميّ. وخمس بصريّ. أربع حجازيّ. ثلاث كوفيّ.

اِخْتِلافُها: خمس آيات: ﴿لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿اَلظُّلَمَاتِ وَالنُّور﴾ غير كوفيّ ﴿الأَعْمىٰ وَالبَصِيرِ﴾ و ﴿سُوءَ الْحِسَاب﴾ شاميّ. ﴿مِنْ كُلِّ بَاب﴾ عراقيّ شاميّ.

فَضْلُها: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: من قرأ سورة الرعد، أُعطي من الأجر عشر حسنات، بعدد كل سحاب مضى، وكل سحاب يكون إلى يوم القيامة، وكان يوم القيامة من الموفين بعهد الله تعالى. وقال أبو عبدالله عليه السلام: من أكثر قراءة

---

(١) المراد بالكلبي: هنا محمّد بن السائب، وهو وإبنه هشام، من مشاهير العلماء النسابين، وكانا من الشيعة الإماميّة، مع إكثارهم الرواية عن العامّة، وقد يطلق الكلبي في الرواة على الحسين بن علوان، وأخيه الحسن. وأكثرا الرواية عن أئمّتنا عليهم السلام، وهما من العامّة، ولذلك ربما يتوهّم الأمر بالعكس.

الرعد، لم يصبه الله بصاعقة أبداً، وإن كان مؤمناً أُدخل الجنّة بغير حساب، وشفع في جميع من يعرفه من أهل بيته، وإخوانه.

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه سورة يوسف بذكر قصص الأنبياء، إفتتح هذه السورة بأنّ جميع ذلك آيات الكتاب، وأنَّ الذي أنزله هو الحقّ تعالى، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓرٰ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾

ولم يعدّ أحد «الٓمٓرٰ» آية. وعدَّ الكوفيون «طه وحم» آية؛ لأن «طه» مشاكلة لرؤس الآي التي بعدها بالألف، مع أنّه لا يشبه الإسم المفرد، كما أشبه صاد وقاف ونون؛ لأنّها بمنزلة باب ونوح.

اللغة: العُمُد، والعَمَد، جميعاً بمعنى واحد، وهما: جميع عمود وعماد، إلاّ أنّ «عُمُداً» جمع عمود، و«عماد وعَمَداً» اسم للجمع. ومثله: أديم وأُدم، واهاب وأُهب، وافيق وأفق.

﴿الإعراب﴾: الذي أُنزل: يجوز أن يكون موضعه رفعاً على الإبتداء، ويجوز أن يكون موضعه بالعطف على «آيات الكتاب»، ويكون «الحقّ» مرفوعاً؛ على إضمار «هو». ويجوز أن يكون في موضع جرّ؛ بالعطف على «الكتاب»، وتقديره: تلك آيات الكتاب، وآيات الذي أُنزل اليك من ربّك. ويكون «الحقّ» مرفوعاً على الإضمار. ويجوز أن يكون «الحقّ» مجروراً صفة لـ«الذي» إذا جعلته عطفاً على «الكتاب»، ولكنّه لم يقرأ به أحد من القرّاء.

﴿المعنى﴾: ﴿الٓمٓر﴾ قد فسّرناه في أوّل البقرة، وبيّنا ما قيل فيه، وروي أنّ معناه: أنا الله أعلم وأرى. ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ﴾ أي: هذه السورة هي آيات الكتاب التي تقدَّم الوعد بها، ليست بمفتريات، وبسحر، و ﴿الْكِتَابِ﴾: القرآن، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. وقيل: إنّ الكتاب عبارة عن التوراة والإنجيل، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ، ويكون تقديره: تلك الأخبار التي قصصتها عليك آيات التوراة والإنجيل، والكتب المتقدّمة. والآيات: الدلالات العجيبة المؤدّية إلى المعرفة بالله سبحانه، وأنّه لا يشبه الأشياء، ولا تشبهه.

﴿وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ يعني: وهذا القرآن الذي أُنزل إليك من ربّك هو الحقّ، فإعتصم بالله، وإعمل بما فيه. وعلى القول الأوّل فإنّه وصف القرآن بصفتين، إحداهما: بأنّه كتاب، والأُخرى: بأنّه منزل. ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: لا يصدقون بأنّه منزل، وأنّه حقّ مع وضوحه.

﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ لمّا ذكر الله سبحانه أنّهم لا يؤمنون، عرف الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق، ويريد بالعمد: السواري والدعائم. وقيل: فيه قولان:

أحدهما: إنّ المراد رفع السماوات بغير عمد، وأنتم ترونها كذلك، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، والجبائي، وأبي مسلم ـ. وهو الأصحّ. قال ابن عباس:

يعني: ليس من دونها دعامة تدعمها، ولا فوقها علاقة تمسكها. قال الزجّاج: وفي ذلك من القدر [القدرة] والدلالة، ما لا شيء أوضح منه؛ لأنّ السماء، محيطة بالأرض، متبرّية منها بغير عمد.

والآخر: أن يكون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ من نعت العمد، فيكون المعنى: بغير عمد مرئيّة. فعلى هذا تعمدها [بعمدها] قدرة الله عزّوجلّ، وروي ذلك عن ابن عباس، ومجاهد[١].

﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ قد مضى تفسيره. وإذا حملنا الإستواء على معنى الملك والإقتدار، فالوجه في إدخال ﴿ثُمَّ﴾ فيه ـ ولم يزل سبحانه كذلك ـ: أنّ المراد: إقتداره على تصريفه وتقليبه. وإذا كان كذلك، فلا يكاد القديم سبحانه يوصف به، إلاّ وقد وجد نفس العرش ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلّلهما لمنافع خلقه، ومصالح عباده.

﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: كل واحد منهما يجري إلى وقت معلوم، وهو فناء الدنيا، وقيام الساعة التي تكوّر عندها الشمس، ويخسف القمر، وتنكدر النجوم، ـ عن الحسن ـ. وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمّى: درجاتهما، ومنازلهما التي ينتهيان إليها، ولا يجاوزانها[٢]، وللشمس مائة وثمانون منزلاً،

---

(١) مرّ في الجزء الأوّل، عن عليّ بن عيسى الرمانيّ أنّ السموات في القرآن غير الأفلاك التي يقول بها الحكماء؛ بقرائن مرّت الإشارة إليها، ويزيد ذلك بياناً إنّ الظاهر من الآية أنّ السموات مرئيّة، وعمدها غير مرئيّة، وأفلاك الحكما غير مرئيّة؛ لشفافتها، وعدم منعها عن رؤية ماورائها، مع تراكمها آلاف فرسخ، فالسموات: هي الكواكب ومجاريها، والعمد: هنا هي القوّة المانعة عن تجاذبها.

(٢) يعني: إنّ حركاتهما لها ضبط معلوم، وحساب ثابت، إستخرجها المنجّمون، ودوّنوها في الجداول والزيجات، يحاسبون بها الشهور والسنين، والخسوف والكسوف، والتحاويل، وغير ذلك.

تنزل كل يوم [يومان] منزلاً، حتى تنتهي إلى آخر المنازل، فلا تجاوزه، وترجع إلى أوّل المنازل، وينزل القمر كل ليلة منزلاً، حتى ينتهي إلى آخر منازله.

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ أي: يدبّر الله كل أمر من أمور السماوات والأرض، وأمور الخلق، على وجه توجبه الحكمة، وتقتضيه المصلحة. ﴿يُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ أي: يأتي بآية في أثر آية، فصلاً فصلاً، مميّزاً بعضها عن بعض؛ ليكون أمكن للإعتبار والتفكّر. وقيل: معناه: يبيّن الدلائل بما يحدثه في السماوات والأرض.

﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أي: لكي توقنوا بالبعث والنشور، وتعلموا أنّ القادر على هذه الأشياء قادر على البعث بعد الموت. وفي هذا دلالة على وجوب النظر المؤدّي إلى معرفة الله تعالى، وعلى بطلان التقليد، ولولا ذلك لم يكن لتفصيل الآيات معنى.

وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ ۚ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

القراءة: قد ذكرنا الإختلاف في قوله: ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ في سورة الأعراف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمر، ويعقوب، وحفص: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ جميعاً بالرفع. والباقون: بالجرّ في الجميع. وقرأ حفص: ﴿صُنْوَانٌ﴾ ـ بضمّ الصاد ـ، وكذلك رواية الحلوانيّ عن القواس. وقرأ الباقون:

بكسر الصاد. وفي الشواذّ، قراءة الحسن، وقتادة: صَنوان. وقرأ: يسقى ـ بالياء ـ: ابن عامر، وزيد، ورويس، عن يعقوب. وقرأ الباقون: تُسقى ـ بالتاء ـ. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم، وروحٌ، عن يعقوب: ويفضل ـ بالياء ـ. والباقون: بالنون.

الحجّة: قال أبو عليّ: من رفع قوله: ﴿وَزَرْعٌ﴾: فتقديره: وفي الأرض زرع ونخيل صنوان، فجعله محمولاً على قوله: ﴿وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ﴾، ولم يجعله محمولاً على ما في «الجنّات من الأعناب». و«الجنّة»، على هذا تقع على الأرض التي فيها الأعناب دون غيرها، كما تقع على الأرض التي فيها الأعناب والنخيل، دون غيرهما. ويقوّي ذلك قول زهير:

كَأَنَّ عَيْنَيَّ فِي غَرْبَيْ مُقَتَّلَةٍ ... مِنَ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقا[1]

فالمعنى: تسقي نخيل جنّة. فأمّا من قرأ: بالجرّ، فإنّه حمل النخيل والزرع على الأعناب، فكأنّه قال: جنّات من أعناب ومن زرع ونخيل. والدليل على أنّ الأرض إذا كان فيها النخل والكرم والزرع سمّيت جنّة: قوله: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾. فكما سمّيت الأرض ذات العنب والنخل والزرع: جنّة، كذلك يكون النخيل والزرع محمولين على الأعناب، فتكون الجنّة من هذه الأشياء. ويقوّي ذلك قوله:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ ... يَحْرِدُ حَرْدَ الْجَنَّةِ الْمُغِلَّه[2]

والغلّة: إنّما هي ما يكال بالقفيز في أكثر الأمر. قال: والصنوان ـ فيما يذهب إليه أبو عبيدة ـ صفة للنخيل، والمعنى: أن يكون من أصل واحد، ثمّ يتشعّب من

---

(١) يشبه عينيه بدلوين عظيمتين، ملاوين ماء يوم فراق الأحبّة في كثرة الدمع. والناضحة: البعير التي تسقى الماء. والمقتّلة: الكثيرة العمل، وهي إذا سقت لاتهريق الماء بالإضطراب، فتخرج الدلو ملاى، وتسقى النخيل متواترة متوالية. والسحق: جمع سحوق، وهي النخلة الطويلة.

(٢) يعني: نحى نحوها كذا، في الصحاح.

الرؤوس، فيصير نخلاً ونخلين قال: وقال ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾؛ لأنّها تشرب من أصل واحد. ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ وهي التمر. وأجاز غيره أن يكون «الصنوان» من صفة «الجنّات»، وكأنّه يكون يراد به في المعنى: ما في الجنّات، وإن جرى على لفظ «الجنّات». وعلى هذا يجوز أن ترفع، وإن جررت النخيل؛ لأنّ «الجنّات» مرفوعة، ولم يحك هذا في قراءة السبعة. وأمّا الكسرة التي في ﴿صِنْوَانٌ﴾ فليست التي كانت في «صنو»، كما أنّ الكسرة التي في «قنو» ليست في «قنوان»؛ لأنّ تلك قد حذفت في التكسير، وعاقبتها الكسرة التي يجتلبها التكسير، وكذلك الكسرة التي في «هجان»، وأنت تريد الجمع، ليست الكسرة التي كانت في الواحد، ولكنّه مثل الكسرة التي في «ظراف» إذا جمعت عليه ظريفاً.

وأمّا من ضمّ الصاد من «صُنوان» فإنّه جعله مثل: ذئب وذؤبان، وربما تعاقب «فِعلان وفُعْلان» على البناء الواحد نحو: حش وحُشان وحِشان. وأمّا «صَنوان» ـ بفتح الصاد ـ فليست من أمثلة الجمع المكسّر، فإن صحَّ ذلك فإنّه يكون إسماً للجمع، لا مثالاً له من أمثلة التكسير، فيكون بمنزلة الجامل والسامر، ومثله: قولهم: السَعدان والضَمران في الجمع. ومن قرأ: تسقى ـ بالتاء ـ فالمراد: تسقى هذه الأشياء. ومن قرأ: بالياء، حمله على الزرع وحده.

المعنى: لمّا ذكر سبحانه وتعالى في الآية من نعمائه وآلائه على عباده في رفع السماوات، وتسخير الشمس والقمر، ودلّ بذلك على وحدانيّته، عقّبه بذكر الأرض وما فيها من الآيات، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ﴾ أي: بسطها طولاً وعرضاً؛ ليتمكّن الحيوانات من الثبات فيها، والإستقرار عليها.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابت لتمسّك الأرض. ولو أراد أن يمسّكها من غير جبال لفعل، إلاّ أنّه أمسكها بالرواسيّ؛ لأن ذلك أقرب إلى أفهام

الناس، وأدعى لهم إلى الإستدلال والنظر ﴿وَأَنْهَاراً﴾ أي: وشقّ فيها أنهاراً تجري فيها المياه. ولولا لأنهار لضاع أكثر المياه، ولما أمكن للشرب والسقي.

﴿وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: وجعل في الأرض من كل الثمرات لمأكولهم ومطعومهم صنفين: أسود وأبيض، وحلواً وحامضاً، وصيفيّاً وشتويّاً، ورطباً ويابساً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: الزوج قد يكون واحداً، وقد يكون إثنين، يقال: زوج نعل، وزوج نعلين، ـ عن أبي عبيدة ـ. وإنما قال إثنين للتأكيد. والزوج في الحيوانات: عبارة عن الذكر والأنثى، وفي الثمار: عبارة عن لونين. وقال الماوردي: واحد الزوجين ذكر وأُنثى كفحول النخل وإناثها، وكذلك كل جنس من النبات، وإن خفي الزوج الآخر[1] حلو وحامض، أو عذب ومالح، أو أبيض وأسود، أو أحمر وأصفر، فإنّ كل جنس من النبات ذو نوعين، فصارت كل ثمرة زوجين هما أربعة أنواع.

﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾ أي: يلبس ظلمة الليل وضياء النهار، ـ عن الحسن ـ. وقيل: يدخل الليل في النهار، والنهار في الليل، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: يأتي بالليل؛ ليذهب بضياء النهار، ويستره؛ ليسكن الحيوانات فيه، ويأتي بضياء النهار؛ ليمحو ظلام الليل، وينصرف الناس فيه لمعايشهم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: فيما سبق ذكره (الآيات) أي: لدلالات واضحات على وحدانيّة الله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، فيستدلون منها على أنّ لهم صانعاً.

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ أي: أبعاض متقاربات مختلفات في

---

(١) الذي ذكره الماوردي ممّا أيّده أهل عصرنا، ممّن هو عالم بهذا الشأن، فإنّهم يقولون: في كل نبات ذكر وأنثى، اما مبائن أحدهما عن الآخر في الساق، أو في الزهر، أو في بعض أجزاء الزهر، وبالجملة الذكورة والأنوثة ثابتتان في جميع أنواع النبات، لكنّه ظاهر في النخل، خفيّ في غيرها، وتفصيل ذلك في علم النبات، وهو من معجزات النبوّة.

التفاضل، منها: جبل صلب ولا ينبت شيئاً. ومنها: سهل حر، ينبته. ومنها: سبخة لا تنبت، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، والضحّاك ـ. بيَّن الله سبحانه بإختلاف هذه الأرضين، مع تجاورها، وتقارب بعضها من بعض في الهيئة والمنظر، أنّه قادر على كل شيء من الأصناف المختلفة، والمؤتلفة وقيل: أنّها متجاورات، بعضها عامر، وبعضها غير عامر، ـ عن الزجّاج ـ. ﴿وَجَنَّاتٌ﴾ أي: بساتين ﴿مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾ أي: نخلات من أصل واحد.

﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ أي: نخلات من أُصول شتّى، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ـ. والصنو: الأصل، يقال: هذا صنوه أي: أصله، ـ عن ابن الأنباري ـ. وقيل: إنّ الصنوان: النخلة تكون حولها النخلات، وغير صنوان: النخل المتفرّق، ـ عن البرّاء بن عازب، وسعيد، بن جبير ـ. وقيل: الصنو: المثل، والصنوان: الأمثال. ومنها: قوله ﷺ: «عمُّ الرجل صنو أبيه» ـ عن الجبائي ـ.

﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ أي: يسقى ما ذكرناه من القطع المتجاورة والجنّات والنخيل المختلفة بماء الأنهار، أو بماء السماء ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ أي: ويفضّل الله. ومن قرأ: بالنون، فالمعنى: نفضّل نحن بعضها على بعض في الطعم، واللون، والطبع، مع أنّ البئر واحدة، والشرب واحد، والجنس واحد، حتى يكون بعضها حامضاً، وبعضها حلواً، وبعضها مرّاً، فلو كانت بالطبع، لما أختلف ألوانها وطعومها، مع كون الأرض، والماء، والهواء واحداً. وفي هذا أوضح دلالة على أنّ لهذه الأشياء صانعاً قادراً، أحدثها، وأبدعها، ودبّرها على ما تقتضيه حكمته. والأُكل: الثمر الذي يؤكل.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ أي: في إختلاف ألوانها وطعومها، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّ فيما تقدّم ذكره.

﴿لَآيَاتٍ﴾ أي: حججاً ودلالات ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ دلائل الله تعالى،

ويتفكّرون فيها، ويستدلّون بها. وروي عن جابر قال: سمعت النبيّ ﷺ يقول لعليّ عليه السلام: الناس من شجر شتّى، وأنا وأنت من شجرة واحدة، ثمّ قرأ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ﴾ الآية.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ
جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ
فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن
قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ
أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: إذا كنّا ـ بغير إستفهام ـ إنّا ـ بهمزة واحدة مطولة ـ، وكذلك يفعل بكل إستفهامين يجتمعان في القرآن، يستفهم بالثاني، ولا يستفهم بالأوّل إلاّ في سورة الصافّات، والواقعة. وأمّا نافع، ويعقوب، وسهل، فإنّهم يستفهمون بالأوّل بهمزة واحدة غير مطولة، ولا يستفهمون بالثاني إلاّ في سورة النمل والعنكبوت، إلاّ أنّ قالون عن نافع، وزيداً عن يعقوب يمدّان الهمزة، مثل: أبي جعفر، والكسائي أيضاً، يستفهم بالأوّل، ولا يستفهم بالثاني، إلاّ في سورة النمل، غير أنّه يهمز بهمزتين. وابن عامر مثل أبي جعفر، لا يستفهم في «إذا» كل القرآن، إلاّ في سورة الواقعة، فإنّه يستفهم في «أئذا وأئنّا» جميعاً بهمزتين بينهما مدّ «آإنا» يهمز، ثمّ يمدّ، ثمّ يهمز على وزن «عاعنا»، ولا يجمع بين إستفهامين إلاّ

هيهنا، وفي سورة النمل يستفهم «أإذا» بهمزتين «إنّنا» بنونين، والكسائي مثله في هذا الموضع. وأبو عمرو يستفهم فيهما جميعاً، وفي جميع أشباههما بهمزة واحدة مطولة. وابن كثير يستفهم فيهما جميعاً، بهمزة واحدة غير مطولة. وعاصم، وحمزة، وخلف، يستفهمون فيهما بهمزتين همزتين، كل القرآن. وخالف ابن كثير، وحفص عن عاصم، في حرف واحد في العنكبوت. وسنذكره هناك إن شاء الله.

الحجة: قال أبو عليّ: من إستفهم في الجملتين، فموضع ﴿إِذَا﴾ نصب بفعل مضمر يدلّ عليه قوله: ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؛ لأنّ هذا الكلام يدلّ على «نبعث ونحشر»، فكأنه قال: أنبعث إذا كنّا تراباً. ومن لم يدخل الإستفهام في الجملة الثانية كان موضع «إذا» أيضاً نصباً؛ بما دلَّ عليه قوله: ﴿أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فكأنّه قال: أنبعث إذا كنّا تراباً. وما بعد «أن» في «أنّه» لايجوز أن يعمل فيما قبله بمنزلة الإستفهام، فكما قررت هذا الناصب لإذا مع الإستفهام؛ لأنّ الإستفهام لايعمل فيما قبله، كذلك تقدره في «ان»؛ لأنّ ما بعدها أيضاً لا يعمل فيما قبلها. ومن قرأ: ﴿إِذَا كُنَّا﴾ من غير إستفهام (أئنّا) ينبغي أن يكون على مضمر، كما حمل من تقدّم على ذلك، لأنّ ما بعد الإستفهام منقطع ممّا قبله.

اللغة: العجب، والتعجّب: هجوم ما لا يعرف سببه على النفس. والغلّ: طوق تشدُّ به اليد إلى العنق، والإستعجال: طلب التعجيل بالأمر. والتعجيل: تقديم الأمر قبل وقته. والسيّئة: خصلة تسوء النفس، ونقيضها الحسنة: وهي خصلة تسرُّ النفس. والمثلات: العقوبات، واحدها: مَثُلة ـ بفتح الميم وضم الثاء ـ. ومن قال في الواحد: مُثْلة ـ بضمّ الميم و سكون الثاء ـ قال في الجمع: مُثُلات ـ بضمّتين ـ، نحو: غرفة وغرفات. وقيل: في جمعها: مُثَلات و مثلات أيضاً، قال الشاعر:

وَلَـــمّا رَأَوْنـــا بـــادِياً رُكَـــباتنا عَلىٰ مَوْطِنٍ لاٰ يُخْلَطُ الْجِدُّ بِالْهَزْلِ[١]

رووه بفتح الكاف في «ركبات».

المعنى: لمّا تقدّم ذكر الأدلّة على أنّه سبحانه قادر على الإنشاء والإعادة، عقّبه بالتعجّب من تكذيبهم بالبعث والنشور، فقال: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ﴾ يا محمّد من قول هؤلاء الكفّار في إنكارهم البعث، مع إقرارهم بإبتداء خلق الخلق، فقد وضعت التعجّب موضعه؛ لأن هذا قول عجب، ومعناه: عجب للمخلوقين. فإنّ معنى العجب في صفات الله لا يجوز؛ لأنّ العجب أن يشتبه عليه سرّ أمره فيستطرفه.

﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ أي: فقولهم عجب ﴿أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: أنبعث ونعاد بعدما صرنا تراباً، هذا ممّا لا يمكن! وهذا منهم نهاية في الأعجوبة فإنّ الماء إذا حصل في الرحم إستحال علقة، ثمّ مضغة، ثمّ لحماً، فإذا مات ودفن إستحال تراباً. فإذا جاز أن يتعلّق الإنشاء بالإستحالة الأولى فلِمَ لايجوز تعلّقه بالإستحالة الثانية، وسمّى الله تعالى الإعادة خلقاً جديداً[٢].

وإختلف المتكلّمون فيما يصحّ عليه الإعادة، فقال بعضهم: كلّما يكون مقدوراً للقديم سبحانه خاصّة، ويصحّ عليه البقاء يصحّ عليه الإعادة، ولايصحّ الإعادة على ما لايقدر على جنسه غيره تعالى وهذا قول أبي علي الجبائي.

وقال آخرون: كلّما كان مقدوراً له وهو ممّا يبقى يصحّ عليه الإعادة، وهو قول أبي هاشم، ومن تابعه. فعلى هذا يصحّ إعادة أجزاء الحياة.

ثمّ إختلفوا فيما يجب إعادته من الحيّ، فقال أبو القاسم البخلي: يعاد جميع

---

(١) بادياً ركباتنا: كناية عن تشمير الذيل، وعدم خلط الجدّ بالهزل، في أمر هامّ كالحرب.

(٢) لاينعدم الجسم ولا النفس، بل الأعراض فقط.

أجزاء الشخص. وقال أبوهاشم: يعاد الأجزاء التي بها يتميّز الحيّ من غيره، ويعاد التأليف، ثمّ رجع عن ذلك، وقال: تعاد الحياة مع البنية [البينة]: وقال القاضي أبو الحسن: تعاد البنية وما عدا ذلك يجوز فيه التبديل. وهذا هو الأصحّ.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ المنكرون للبعث ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ أي: جحدوا قدرة الله تعالى على البعث ﴿وَأُوْلَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ في الآخرة: وقيل: أراد به أغلال الكفر أي: كفرهم اغلال في أعناقهم ﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مضى تفسيره.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي: يستعجلك يا محمّد هؤلاء المشركون ﴿بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: بالعذاب قبل الرحمة، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ، أي: بالعقاب الذي توعّدوا به على التكذيب، قبل الثواب الذي وعدوا به على الإيمان، وذلك حين قالوا: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وقيل: يستعجلونك بالعذاب الذي توعّدهم به قبل الإحسان بالإنظار، فإنّ إنظار من وجب عليه العقاب، إحسان إليه، كإنذار من وجب عليه الدّين. وسمّاها سيّئة؛ لأنّها جزاء السيّئة.

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أي: مضت من قبلهم ﴿الْمَثُلَاتُ﴾ أي: العقوبات التي يقع بها الإعتبار، وهو ما حلَّ بهم من المسخ، والخسف، والغرق، وقد سلك هؤلاء طريقتهم فكيف يتجاسرون على إستعجالها. وقيل: هي العقوبة الفاضحة التي تسير بها الأمثال، وتقديره: وقد خلت المثلات بأقوام، أو خلا أصحاب المثلات، فخذف المضاف.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ قال المرتضى ﷺ: في هذه الآية دلالة على جواز المغفرة للمذنبين من أهل القبلة؛ لأنّه سبحانه دلَّنا على أنّه يغفر

لهم مع كونهم ظالمين؛ لأنّ قوله: ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ إشارة إلى الحال التي يكونون عليها ظالمين، ويجرى ذلك مجرى قول القائل: أنا أودُّ فلاناً على غدره، وأصله على هجره.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن إستحقّه. وروي عن سعيد بن المسيّب قال: لمّا نزلت هذه الآية، قال رسول الله ﷺ: لولا عفو الله وتجاوزه، ما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيد الله وعقابه، لاتكل كل واحد. وتلا مطرف هذه الآية، فقال: لو يعلم الناس قدر رحمة الله، وعفو الله، وتجاوز الله، لقرّت اعينهم، ولو يعلم الناس قدر عذاب الله، وبأس الله، ونكال الله، ونقمة الله، ما رقألهم دمع، ولا قرّت أعينهم بشيء.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ مثل الناقة والعصا، ـ عن ابن عباس ـ. وقال الزجّاج: طلبوا غير الآيات التي أتي بها، فإلتمسوا مثل آيات موسى و عيسى، فأعلم الله أنّ لكل قوم هاد، والمعنى أنّه سبحانه بيّن سوء طريقتهم في إقتراح الآيات، كما في قوله: ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾. وكما قالوا: إجعل الصفا لنا ذهباً حتّى نأخذ منه ما نشاء، وإنّما لم يظهر الله تعالى تلك الآيات؛ لأنّه لو أجاب أولئك، لإقترح قوم آخرون آية أخرى، وكذلك كل كافر، فكان يؤدّي إلى غير نهاية[1].

---

(١) والأظهر أنّ الآية التي طلبوها هي العذاب الذي نزل على الأمم السالفة، كالطوفان، والصيحة، والخسف، طلبوها تعجيزاً، فأجاب تعالى بأنّ النبيّ ﷺ مأمور بالإنذار من العذاب، أمّا نزوله فبأمر الله تعالى على مايقضيه الحكمة، وليس المراد طلب المعجزة؛ اذ لايرتبط به الجواب حينئذ.

﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إنّ معناه: إنّما أنت منذر أي: مخوّف، وهاد لكل قوم، وليس إليك إنزال الآيات، ـ عن الحسن، وأبي الضحى، وعكرمة، والجبائي ـ. وعلى هذا فيكون ﴿أَنْتَ﴾ مبتدأ، و ﴿مُنذِرٌ﴾ خبره، و ﴿هَادٍ﴾ عطف على «منذر». وفصّل بين الواو والمعطوف بالظرف.

والثاني: إنّ المنذر هو محمّد، والهادي هو الله تعالى، عن ابن عبّاس وسعيد بن جبير والضحّاك، ومجاهد ـ.

والثالث: انّ معناه: إنّما منذر يا محمّد، ولكل قوم نبيّ يهديهم، وداع يرشدهم، ـ عن ابن عباس في رواية أخرى، وقتادة، والزجّاج، وابن زيد ـ.

والرابع: إنّ المراد بالهادي: كل داع إلى الحقّ. وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: لمّا نزلت الآية قال رسول الله: «أنا المنذر وعليّ الهادي من بعدي، يا عليّ! بك يهتدي المهتدون». وروى الحاكم أبو القاسم الحسكاني، في كتاب شواهد التنزيل، بالإسناد عن إبراهيم بن الحكم بن ظهير، عن أبيه عن حكم بن جبير، عن أبي بردة الأسلمي، قال: دعا رسول الله ﷺ بالطهور، وعنده عليّ بن أبي طالب، فأخذ رسول الله بيد عليّ بعد ما تطهر، فألزمها بصدره، ثمّ قال: إنّما أنت منذر، ثمّ ردّها إلى صدر عليّ، ثمّ قال: ولكل قوم هاد، ثمّ قال: «إنّك منارة الأنام، وغاية الهدى، وأمير القرى، وإشهد على ذلك أنّك كذلك». وعلى هذه الأقوال الثلاثة يكون «هاد» مبتدأ و«لكلّ قوم» خبره على قول سيبويه، ويكون مرتفعاً بالظرف على قول الأخفش.

← العذاب، أمّا نزوله فبأمر الله تعالى على مايقضيه الحكمة، وليس المراد طلب المعجزة؛ اذ لايرتبط به الجواب حينئذ.

ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ (١) ﴿١١﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة أبيَ البَرَهْسَم[٢] ﴿لَهُ مَعَاقِيب مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَرُقَبَاء مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ ٱللهِ﴾. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ خَلْفِهِ ورَقِيبٌ مِن بَيْنَ يَدَيْهِ يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ ٱللهِ﴾. وروي عن عليّ عليه السلام، وابن عباس، وعكرمة، وزيد بن عليّ: ﴿يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ ٱللهِ﴾.

الحجة: يجب أن يكون «معاقيب» تكسير «مُعَقِّبَة»، غير أنّه لمّا حذف أحد القافين، عوّض منها الياء. وقوله: «يحفظونه بأمر الله» فمعناه: يحفظونه ممّا يحاذره بأمر الله، والمعفول هنا محذوف. قال ابن جنّي: وأمّا قراءة الجماعة ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللهِ﴾ فتقديره: له معقّبات من أمر الله، يحفظونه ممّا يخافه.

---

(١) أثبت الياء في «هاد، والمتعال، ووال» وقفاً ابن كثير.

(٢) أبو البرهسم، كسفرجل: عنوان بن عثمان الزبيديّ الشاميّ، صاحب القراآت الشاذّة، كذا في القاموس.

فـ«مِنْ» على هذا مرفوعة الموضع؛ لأنّها صفة للمرفوع الذي هـو ﴿مُـعَقِّبَاتٌ﴾، وليس هذا على معنى: يحفظونه من أمر الله أن ينزل به؛ لأنه لو كان كذلك، لكانت منصوبة الموضع، كقولك: حفظت زيداً من الأسد، والذي ذكرته رأي أبي الحسن. فإن قلت: فهلاّ كان تقديره على يحفظونه من أمر الله بأمر الله. ويستدلّ على إرادة الباء هنا: بقراءة عليّ عليه السلام: يحفظونه بأمر الله، وجاز أن يكون يحفظونه بأمر الله؛ لأنّ هذه المصائب كلّها في علم الله، وبإقداره فاعليها عليها، فيكون هذا كقولك: هربت من قضاء الله بقضاء الله. قيل: تأويل أبي الحسن أذهب في الإعتداد عليهم، وذلك لأنّه سبحانه وكّل بهم من يحفظهم من حوادث الدهر، ومخاوفه التي لا يعتدّ عليهم بتسليطها عليهم، فهذا أسهل طريقاً، وأرسخ في الإعتداد بالنعمة عليهم، عرفاً.

اللغة: الغيض: ذهاب المائع في جهة العمق. وغاضت المياه: نـقصت. وغَيَّضْته: نقصته. قال:

غَيَّضْنَ مِنَ عَبَراتِهِنَّ، وَقُلْنَ لى؟ مٰاذٰا لَقَيْتَ مِنَ الهَوٰى، وَلَقينا[١]

المتعالي و العالي واحد. و تعالى أي: جلَّ عن كل ثناء. وقـيل: المـتعالي: المقتدر على وجه يستحيل أن يساويه غيره. والسارب: الساري الجاري بسرعة. والسَرَب ـ بفتح السين والراء ـ: الماء السائل من المزادة. قال ذو الرمة:

مٰا بٰالُ عَيْنِكَ مِنْها الْمٰاءُ يَنْسَكِبُ كَأَنَّـهُ مِـنٌ كُـلَى مَـفْرِيَّةٍ سَـرَبُ

وقيل: السارب: الذاهب في الأرض، ومنه: قول قيس بـن الحـطيم «انّـي سربت، وكنت غير سروب». ويقال: خلَّ سربه أي: طريقه. والمعقّبات: المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه، ويكون بدلاً منه. وأصل التعقيب: أن يكـون الشيء عقيب آخر. والمعقّب: الطالب دينه مرّة بعد مرّة. قال الشاعر:

---

[١] غَيَّضْن: أي سَيَلْنَ دموعهنّ حتى غاضت.

حَتّى تَهَجَّرَ في الرَّواحِ، وَهاجَها طَلَبَ الْمُعَقِّبِ حَقَّهُ الْمَظْلُومُ[١]

ومنه: العقاب؛ لأنّه يستحقّ عقيب الجرم، والعقاب؛ لأنّها تعقّب الصيد: تطلبه مرّة بعد مرّة. وقيل: إنّ واحد المعقّبات: معقّب، والجمع: معقّبة. ومعقّبات: جمع الجمع، كما قالوا: رجالات، ـ عن الفرّاء ـ.

الإعراب: «ما» في قوله: ما تحمل، وما تغيض، وما تزداد، إستفهاميّة، وموضعها نصب بالفعل الذي بعدها، معناه: أيّ شيء تحمل، والجملة معلّقة بـ«يعلم». قال الزجّاج: ﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ موضع «مَن» رفع بـ«سواء»، وكذلك «مَن» الثانية يرتفعان جميعاً بسواء؛ لأنّ «سواء» يطلب إثنين، تقول: سواء زيد وعمرو في معنى: ذو سواء؛ لأن «سواء» مصدر، فلا يجوز أن يرتفع ما بعده إلاّ على الحذف، تقول: عدل زيد وعمرو، والمعنى: ذو عدل زيد وعمرو؛ لأنّ المصادر ليست بأسماء الفاعلين، وإنّما ترفع الأسماء أوصافها. فإذا رفعتها المصادر فهي على الحذف، كما قالت الخنساء:

تَرْتَعُ ما رَتَعَتْ حَتّى إذا ادَّكَرَتْ فَإِنَّما هِيَ إقْبالٌ وَإِدْبارُ[٢]

أي: ذات إقبال وإدبار، وكذلك: زيد إقبال وإدبار. وهذا ممّا كثر إستعماله أعني سواء، فجرى مجرى أسماء الفاعلين. ويجوز أن يرتفع، على أن يكون في موضع «مستوى»، إلاّ أنّ سيبويه يستقبح ذلك، لا يجيز: مستو زيد وعمرو؛ لأنّ أسماء الفاعلين عنده إذا كانت لا يبتدأ بها لضعفها عن الفعل، فلا يبتدأ بها، ولا يجريها مجرى الفعل.

---

(١) البيت للبيد، يصف حماراً واتانه. والتهجّر: السير في الهاجرة. وضمير المفعول في «هاجها» يرجع الى الأتان. والمظلوم: صفة لمعقّب، ومع ذلك مرفوع على المعنى. وكأنّه خبر مبتدأ محذوف.

(٢) الشعر في جامع الشواهد.

المعنى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: يعلم ما في بطن كل حامل من ذكر أو أُنثى، تامّ أو غير تامّ، ويعلم لونه وصفاته ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ أي: يعلم الوقت الذي تنقصه الأرحام من المدّة التي هي تسعة أشهر ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ على ذلك، ـ عن أكثر المفسّرين ـ. وقال الضحّاك: الغيض: النقصان من الأجل. والزيادة: ما يزداد على الأجل، وذلك أنّ النساء لا يلدن لأجل واحد. وقيل: يعني بقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾: الولد الذي تأتي به المرأة لأقلّ من ستّة أشهر، وما تزداد: الولد الذي تأتي به المرأة لأقصى مدّة الحمل، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: ما تنقص الأرحام من دم الحيض، وهو إنقطاع الحيض، وما تزداد بدم النفاس بعد الوضع، ـ عن ابن عباس بخلاف، وابن زيد ـ.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ أي: وكل شيء من الرزق، أو الأجل، أو ما سبق ذكره من الحمل ﴿عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ أي: بقدر واحد لا يجاوزه، ولا يقصر عنه، على ما توجبه الحكمة.

﴿عَالِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ أي: عالم بما غاب عن حسّ العباد، وبما يشاهده العباد لا يغيب عنه شيء. وقيل: عالم بالمعدوم والموجود. والغيب هو المعدوم. وقيل: عالم السرّ والعلانية، ـ عن الحسن ـ. والأولى أن يحمل على العموم، ويدخل في هاتين الكلمتين كل معلوم. نبّه سبحانه بذلك على أنّه عالم بجميع المعلومات، الموجودات منها، والمعدومات منها ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ و هو السيّد الملك القادر على جميع الأشياء. و قيل: هو الذي كل شيء دوّنه؛ لكمال صفاته؛ ولكونه عالماً لذاته، قادراً لذاته، حيّاً لذاته. وقيل: هو الذي كبر عن شبه المخلوقين ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾: وهو الذي علا كل شيء بقدرته، فلا يساويه قادر. وقيل: هو المنزّه عمّا لا يجوز عليه في ذاته وفعله، وعمّا يقوله المشركون.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ معناه: سواء عندالله وفي علمه،

من أسرَّ القول في نفسه وأخفاه، ومن أعلنه وأبداه، ولم يضمره في نفسه.

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِالَّيْلِ وَسَارِبُ بِالنَّهَارِ﴾ أي: ومن هو مستتر متوار بالليل، ومن هو سالك في سربه أي: في مذهبه، ماض في حوائجه بالنهار، معناه: إنّه يرى ما أخفته ظلمة الليل، كما يرى ما أظهره ضوء النهار، بخلاف المخلوقين الذين يخفي عليهم الليل أحوال أهله. وقال الحسن: معناه: ومن هو مستتر بالليل، ومن هو مستتر بالنهار، وصحّح الزجّاج هذا القول؛ لأنّ العرب تقول: إنسرب الوحش: إذا دخل في كناسه.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ أختلف في الضمير الذي في ﴿لَهُ﴾ على وجوه: أحدها: أنّه يعود إلى ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ والآخر: أنّه يعود إلى إسم الله تعالى، وهو عالم الغيب والشهادة. وثالثها: أنّه يعود إلى النبيّ ﷺ في قوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ﴾، ـ عن ابن زيد ـ.

وأختلف في «المعقّبات» على أقوال:

أحدها: أنّها الملائكة يتعاقبون، تعقب ملائكة الليل ملائكة النهار، وملائكة النهار ملائكة الليل، وهم الحفظة يحفظون على العبد عمله، ـ عن الحسن، وسعيد ابن جبير، وقتادة، ومجاهد، والجبائي ـ. وقال الحسن: هم أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر، وهو معنى قوله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾، وقد: روي ذلك عن أئمّتنا عليهم السلام أيضاً.

والثاني: أنّهم ملائكة يحفظونه من المهالك، حتى ينتهوابه إلى المقادير، فيحيلون بينه وبين المقادير، ـ عن عليّ عليه السلام وابن عباس ـ. وقيل: هم عشرة أملاك على كل آدميّ يحفظونه.

والثالث: أنّهم الأمراء والملوك في الدنيا، الذين يمنعون الناس عن المظالم، وتكون لهم الأحراس والشرط والمواكب، يحفظونه، ـ عن عكرمة، والضحّاك ـ،

وروي أيضاً عن ابن عباس، وتقديره: ومن هو سارب بالنهار، له أحراس وأعوان قدر أنّهم يحرسونه، ولم يتجه أحراسه من الله.

﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: يطوفون به كما يطوف الموكّل بالحفظة. وقيل: يحفظون ما تقدّم من علمه، وما تأخّر، إلى أن يموت، فيكتبونه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: يحفظونه من وجوه المهالك والمعاطب، ومن الجنّ والإنس والهوام. وقال ابن عباس: يحفظونه ممّا لم يقدر نزوله، فإذا جاء المقدر، بطل الحفظ. وقيل: من أمرالله أي: بأمر الله، ـ عن الحسن، ومجاهد، والجبائي وروي ذلك عن ابن عباس ـ. وهذا كما يقال: هذا الأمر بتدبير فلان، ومن تدبير فلان وقيل: معناه: يحفظونه عن خلق الله، فتكون «من» بعمنى «عَنْ»، كما في قوله: ﴿وَآمَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾ أي: عن خوف، قال كعب: لولا أنّ الله وكّل بكم ملائكة، يذبّون عنكم في مطعمكم، ومشربكم، وعوراتكم، لتخطفنّكم الجنّ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمة [والحال الجميلة]، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الطاعة، فيعصون ربهم، ويظلم بعضهم بعضاً، قال ابن عباس: إذا أنعم الله على قوم، فشكروها، زادهم، وإذا كفروها سلبهم إيّاها. وإلى هذا المعنى أشار أميرالمؤمنين عليه السلام بقوله: «إذا أقبلت عليكم أطراف النعم، فلا تنفروا أقصاها بقلّة الشكر».

﴿فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾ أي: لا مدفع له. و قيل: معناه: إذا أراد الله بقوم بلاءً من مرض وسقم، فلا مردّ لبلائه ﴿وَمَا لَهُم مِن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ يلي أمرهم، ويمنع العذاب عنهم.

النظم: إتّصلت الآية الأولى بقوله: ﴿وَإِنْ تُعْجِبْ﴾ الآية. فإنّه احتجاج للبعث، والمعنى: ان من كان بهذه الصفة في القدرة والعلم، فإنّه يقدر على البعث. وقيل: إنّها إتّصلت بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ وقوله: ﴿لَوْلاَ

﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ﴾ يعني: إن من يعلم غوامض الأمور، فهو أعلم بالمصالح، ولو علم الصلاح في أنزال العذاب، أو الآية، لفعل، ـ عن البلخي، وأبي مسلم ـ. وقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ﴾ يتّصل قوله: ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: يتّصل بقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ و ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: كما يعلمهم، جعل عليهم حفظة يحفظونهم. وقيل: يتّصل بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ يعني: إنّه ﷺ محفوظ بالملائكة. واتّصل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ إلى آخره، بقوله: ويستعجلونك بالعذاب، يعني: إنّه لا ينزل العذاب إلاّ بمن يعلم من جهته التغيّر حتى لو علم أنّ فيهم من يؤمن في المستقبل، أو يعقب مؤمناً،لا ينزل العذاب. وقيل: بل إتّصلت بالسارب، بمعنى أنّه إذا أتى بالمعصية، بطل به حفظه، وحاق به عقابه. وقيل: بل هو الإطلاق و العموم.

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة الأعرج: ﴿شَدِيدُ المَحَال﴾ ـ بفتح الميم ـ.

وقراءة أبي مجلز: ﴿بِالْغُدوِّ وَالْإِيصَالِ﴾.

الحجة: قال ابن جنّي: المحال: مفعل، من الحيلة، قال أبو زيد: يقال: ما له حيلة، ولا محالة، فيكون تقديره: شديد الحيلة. وتفسيره قوله سبحانه: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾. والإيصال: مصدر «آصلنا» أي: دخلنا في وقت الأصيل، ونحن موصلون.

اللغة: يقال: أراه يريه إراءة: وهو أن يجعله على صفة الرؤية بإظهار المرئيّ له، أو يجعله على صفة يرى. والسحاب: جمع سحابة، وكذلك قال: الثقال. ولو قيل: الثقيل، لجاز. والصواعق: جمع صاعقة، وهي نار تسقط من السماء. والرعد والبرق ذكرنا معناهما في أوّل البقرة. والمحال: الأخذ بالعقاب هيهنا، فقال: مَاحَلَه مماحلة ومحالاً: إذا قاواه حتى يتبيّن أيّهما أشدّ، ومحلت به محلاً. قال الأعشى:

فَرْعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ في غُصْنِ الْمَجْدِ ... غَزِيرِ النَّدى، شَدِيدِ الْمِحالِ[1]

والإستجابة والإجابة بمعنى، غير أنّ في الإستجابة معنى الطلب، قال: «فلم يستجبه عند مجيب»[1]. والظلال: جمع الظلّ، وهو ستر الشخص ما بإزائه. والظلّ الظليل: وهو ستر الشمس اللازم. وأمّا الفيء، فهو الذي يرجع بعد ذهاب ضوئه، ومنه: الظلّة؛ لسترها. والآصال: جمع أُصُل. وأُصُل: جمع أصيل، فهو جمع الجمع، مأخوذ من الأصل، فكأنّه أصل الليل الذي ينشأ منه، وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس، وقد يقال في جمعه: اصائل. قال أبو ذؤيب:

لَعَمْري لأَنْتَ الْبَيْت أكرَمُ أَهْلِهِ ... وَأَقْعَدُ في أَفْنَائِهِ بِالأصَائِلِ

---

(١) النبع: نوع من الأشجار، يصنع منه القوس والسهم.

[١] قائله: كعب بن سعد الغنوي يرثي أخاه أبي المغوار، وقبله: (وداعٍ دعا يا من يجيب إلى النّدى).

الإعراب: خوفاً وطمعاً لا ينتصبان على الغرض؛ لأنّ ما ينتصب لذلك يجب أن يكون فاعله وفاعل الفعل الأوّل واحداً. وهيهنا الخائف والطامع ليسا بالذي يرى البرق، وهما في قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ ينتصبان على الغرض؛ لأنّ الخائف و الطامع هناك هو الداعي فإنه جيد مفيد. والمعنى هيهنا: يخوّفكم بما يريكم خوفاً، ويطمعكم طمعاً. فالمصدر وقع موقع الحال. ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ﴾ جاز أن تكون هذه الواو واو الحال أي: يصيب بها من يشاء في حال جدالهم في الله؛ لأنّه جاء في التفسير أنّ رجلاً جاء إلى النبيّ ﷺ فجادله، فقال: يا محمّد! ممَّ ربّك، أمن نحاس، أم من حديد، أم من لؤلؤ، أم من ياقوت، أم من ذهب، أم من فضّة، فأرسل الله عليه صاعقة، ذهبت بقحفه[١]، وهو قول أنس بن مالك، ومجاهد. ويجوز أن يكون لما تمّم الله أوصاف ما يدلّ على توحيده وقدرته، قال بعد ذلك: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ﴾ والكاف من قوله: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ يتعلّق بصفة مصدر، تقديره: إلاّ إستجابة كائنة كإستجابة باسط كفّيه إلى الماء، هذا إذا كان الكاف حرفاً. وإذا كان إسماً محضاً، فالتقدير: إلاّ إستجابة مثل إستجابة باسط كفّيه إلى الماء، فلا يكون في الكاف ضمير، أي: كما يستجيب الماء باسط إليه. واللام في قوله: ﴿لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ يتعلّق بباسط كفّيه. ﴿وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾ أي: ما الماء ببالغ فاه. وقيل: ما فوه ببالغ الماء. وقيل: ما باسط كفّيه إلى الماء ببالغ الماء. و ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾: مصدران وضعا موضع الحال.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن كمال قدرته، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً﴾ أي: تخويفاً واطماعاً، فأقام الخوف والطمع مقام التخويف والإطماع. وذكر فيه وجوه أحدها: إن المعنى: خوفاً من الصواعق التي يكون معها،

---

[١] القحف ـ بالكسر ـ: ما انفلق من الجمجمة.

وطمعاً في الغيث الذي يزيل القحط، ـ عن الحسن، وأبي مسلم ـ.

الثاني: خوفاً للمسافر من أن يضلّ الطريق، فلا يمكنه المسير، وطمعاً للمقيم في نموّ الزرع والخير الكثير، ـ عن قتادة، والضحّاك، والجبائي ـ.

والثالث: خوفاً لمن يخاف ضرّ المطر؛ لأنّه ليس كل بلد ينتفع فيه بالمطر، وطمعاً لمن يرجو الإنتفاع به، ـ عن الزجّاج ـ.

﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ أي: ويخلق السحاب الثقال بالماء، يرفعها من الأرض، فيجريها في الجوّ.

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ تسبيح الرعد دلالته على تنزيه الله تعالى، ووجوب حمده، فكأنّه هو المسبّح. وقيل: إنّ الرعد هو الملك الذي يسوق السحاب، ويزجره بصوته، وهو يسبّح الله تعالى ويحمده. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «إنّ ربّكم سبحانه يقول: لو أنّ عبادي أطاعوني، لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولم أسمعهم صوت الرعد». وكان ﷺ إذا سمع صوت الرعد قال: «سبحان من يسبّح الرعد بحمده». وكان ابن عباس يقول: سبحان الذي سبحتَ له. وروى سالم بن عبدالله، عن أبيه، قال: «كان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق، قال: أللهمّ لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك». وقال ابن عباس: من سمع صوت الرعد، فقال: سبحان الذي يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، وهو على كل شيء قدير، فإن أصابته صاعقة فعليّ ديته.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ أي: ويسبّح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته. قال ابن عباس: إنّهم خائفون من الله تعالى، ليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه، ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله طعام، ولا شراب، ولا شيء.

﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾ ويصرفها عمّن يشاء، إلاّ أنّه حذف. وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: إنّ الصواعق تصيب المسلم، وغير المسلم، ولا تصيب ذاكراً.

﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ﴾ يعني: إنّ هؤلاء الجهّال مع مشاهدتهم لهذه الآيات، يخاصمون أهل التوحيد، ويحاولون فتلهم[١] عن مذاهبهم بجدالهم؛ لأنّ معنى الجدال: قتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج. روى الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عبّاس أنّه عني بذلك أربد [زيد] بن قيس، أخا لبيد بن ربيعة العامري لأمّه، وعامر بن طفيل، وذلك أنّهما أتيا النبيّ صلى الله عليه وآله يجادلانه، ويريدان ألفتك به، وكان عامر أوصى إلى زيد، إذا رأيتني أكلّمه فدر من خلفه فإضربه بالسيف. فجعل عامر يخاصم رسول الله صلى الله عليه وآله ويراجعه الكلام، فدار أربد [زيد] خلف رسول الله صلى الله عليه وآله ليضربه، فإخترط[٢] من سيفه شبراً، ثمّ حبسه الله عنه، فلم يقدر على سلّه، وجعل عامر يومىء إليه.

فإلتفت رسول الله صلى الله عليه وآله فرأى أربداً [زيدا] وما يصنع بسيفه، فقال: اللهمّ إكفنيهما بما شئت! فأرسل الله على أربد [زيد] صاعقة في يوم صاح، صائف، فأحرقته، وولى عامر هارباً، وقال: يا محمّد! دعوت ربّك فقتل زيدا، والله لأملأنّها عليك خيلاً جرداً، وفتياناً مرداً، ولأربطنّ بكل نخلة فرساً. فقال صلى الله عليه وآله: الله يمنعك من ذلك، فنزل بيت إمرأة من سلول، وخرج على ركبتيه في الوقت غدّة عظيمة، فكان يقول غدّة كغدّة البعير، وموت في بيت سلولية، حتى قتلته. وفي ذلك يقول لبيد بن ربيعة يرثي أخاه أربداً:

أَخْشىٰ على أَرْبَدِ [زَيْدٍ] الْحُتُوفَ، وَلاٰ أَرْهَبُ نَـوْءَ السِّماكِ، والأَسَدِ

---

[١] أي: صرفهم.

[٢] اخترط سيفه: أي شهره.

فَـجَّعَنِي الْـبَرْقُ، والصَّـوَاعِـقُ بـالـ ـــفَارِسِ يَـوْمَ الْكَـرِيهَةِ النَّـجدِ[١]

﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أي: شديد الأخذ، ـ عن عليّ عليه السلام ـ. وقيل: شديد القوّة، ـ عن قتادة، ومجاهد ـ. وقيل: شديد النقمة، ـ عن الحسن ـ. وقيل: شديد القدرة والعذاب، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: شديد الكيد للكفّار، ـ عن الجبائي ـ.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ أي: لله سبحانه دعوة الحقّ. وأختلف في معنى دعوة الحقّ على أقوال: أحدها: إنّها كلمة الإخلاص: شهادة أن لا إله إلّا الله، ـ عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد ـ. والثاني: إنّ الله تعالى هو الحقّ، فدعاؤه دعوة الحقّ، ومن دعاه دعا الحقّ، ـ عن الحسن ـ. والثالث: إنّها الدعوة التي يدعى بها الله على إخلاص التوحيد، ـ عن الجبائي ـ. والمعنى: أنّ من دعاه جهة الإخلاص، فهو يجيبه، فله سبحانه من خلقه دعوة الحق. ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: والذين يدعوهم المشركون من دون الله لحاجاتهم من الأوثان وغيرها.

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ﴾: هذا مثلٌ ضربه الله لكل من عبد غير الله، ودعاه؛ رجاء أن ينفعه، يقول: إنّ مثله كمثل رجل بسط كفّيه إلى الماء من مكان بعيد؛ ليتناوله، ويسكن به غلته، وذلك الماء لا يبلغ فاه؛ لبعد المسافة بينهما، فكذلك ماكان يعبده المشركون من الأصنام، لا يصل نفعها إليهم، ولا يستجيب دعاءهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ﴾ أي: كالذي يدعو الماء بلسانه ويشير إليه بيده، فلايأتيه الماء، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: كالذي يبسط كفّيه إلى الماء؛ ليبلغ فاه فمات قبل أن

---

(١) السماك: كوكب من القدر الأول في برج السنبلة على يد العذراء، وهما سما كان رامح واعزل وما ذكر رامح. والأسد: برج معروف، وقلبه كوكب من القدر الأول أيضاً، وهو المراد. والنوء في إصطلاحهم: هو النجم، وكانوا يستدلّون به على الامطار. والنجد: الماضي في الأمر الشجاع.

يبلغ الماء فاه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: إنّه تمثيل العرب لمن يسعى فيما لا يدركه، فيقول: هو كالقابض على الماء، ـ عن أبي عبيدة، والبلخي، وأبي مسلم ـ. قال الشاعر:

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مِنَ الْوُدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءَ بِالْيَدِ

و قال الآخر:

فَإِنِّي، وَإِيَّاكُمْ، وَشَوْقاً إِلَيْكُمُ كَقَابِضِ ماءٍ لَمْ تَسَعْهُ أَنَامِلُهُ[١]

﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي: ليس دعاؤهم الأصنام من دون الله إلّا في ذهاب عن الحقّ والصواب. وقيل: في ضلال عن طريق الإجابة والنفع.

ثمّ بيّن سبحانه كمال قدرته، وسعة مملكته، فقال: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني: الملائكة وسائر المكلّفين ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ أختلف في معناه على قولين: أحدهما: إنّ معناه: أنّه يجب السجود لله تعالى، إلاّ أنّ المؤمن يسجدله طوعاً، والكافر يسجدله كرهاً بالسيف، ـ عن الحسن، وقتادة، وابن زيد ـ. والثاني: إنّ المعنى: ولله يخضع من في السماوات والأرض إلاّ أنّ المؤمن يخضع له طوعاً، والكافر يخضع له كرهاً؛ لأنّه لا يمكنه أن يمتنع من الخضوع لله، لما يحلّ به من الآلام والأسقام، ـ عن الجبائي ـ. ﴿وَظِلَالُهُمْ﴾ أي: ويسجد ظلالهم لله ﴿بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ أي: العشيّات. قيل: إنّ المراد بالظلّ: الشخص، فإنّ من يسجد يسجد ظله معه. قال الحسن: يسجد ظلّ الكافر، ولا يسجد الكافر. ومعناه: عند أهل التحقيق: إنّه يسجد شخصه دون قلبه؛ لأنّه لا يريد بسجوده عبادة ربّه من حيث إنّه يسجد للخوف. وقيل: إنّ الظلال على ظاهرها[١]، والمعنى في سجودها: تمايلها من جانب إلى جانب، وإنقيادها بالتسخير بالطول والقصر.

---

(١) تعبير عن كل موجود، وجميع ما يتعلّق به.

[١] قائله: ضابىء بن الحارث البرجمي.

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم(١) مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير حفص: ﴿أَمْ هَلْ يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ﴾ ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء.

الحجة: من قرأ بالتاء، فإنّه مسند إلى مؤنّث، لم يفصل بينه وبين فاعله بشيء، كقوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُود﴾، ﴿وَقَالَتِ الْأَعْرَاب﴾. وقد جاء في مثل ذلك التذكير كقوله: ﴿وقال نسوة﴾. ومن قرأ بالياء، فإنّه مؤنّث غير حقيقيّ.

المعنى: لمّا بيّن سبحانه في الآية الأولى أنّه المستحقّ للعبادة، وأنّ له من في السماوات والأرض، عقّبه بما يجري مجرى الحجّة على ذلك، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار ﴿مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: من مدبّرهما و مصرّفهما على ما فيهما من البدائع؟ فإذا أستعجم عليهم الجواب، ولا يمكنهم أن يقولوا الأصنام فـ﴿قُلْ﴾ انت لهم: رب السماوات و الأرض، وما بينهما، من أنواع الحيوان، والنباتات، والجماد ﴿الله﴾ فإذا أقرّوا بذلك ﴿قُلْ﴾ لهم على وجه التبكيت والتوبيخ لفعلهم ﴿أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ توجّهون عبادتكم إليهم. فالصورة صورة الإستفهام، والمراد به التقريع.

---

(١) أظهر الذال من «إتّخذتم» ابن كثير وحفص.

ثمّ بيّن أنّ هؤلاء الذين إتّخذوهم من دونه أولياء ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً﴾ ومن لا يملك لنفسه ذلك، فالأولى والأحرى أن لا يملك لغيره، ومن كان كذلك، فكيف يستحقّ العبادة. وإذا قيل: كيف يكون هو السائل والمجيب والملزم بقوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾. فالجواب: أنّه إذا كان القصد بالحجاج ما يُبَيِّنُه من بعد لم يمتنع ذلك، فكأنّه قال: الله الخالق، فلماذا إتّخذتم من دون الله أولياء؟ لأنّ الأمر الظاهر الذي لا يجيب الخصم إلاّ به، لا يمتنع أن يبادر السائل إلى ذكره، ثمّ يورد الكلام عليه تقا[تفا]دياً من التطويل، ويكون تقدير الكلام: أليس الله ربّ السماوات والأرض، فلِمَ إتّخذتم من دونه أولياء؟.

ثمّ ضرب لهم سبحانه مثلاً بعد إلزام الحجّة، فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ﴾ أي: كما لا يستوي الأعمى والبصير، كذلك لا يستوي المؤمن والكافر؛ لأنّ المؤمن يعمل على بصيرة، ويعبد الله الذي يملك النفع والضرّ. والكافر يعمل على عمى، ويعبد من لا يملك النفع والضرّ.

ثمّ زاد في الإيضاح، فقال: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ أي: هل يستوي الكفر والإيمان، أو الضلالة والهدى، أو الجهل والعلم ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ أي: هل جعل هؤلاء الكفّار لله شركاء في العبادة، خلقوا أفعالاً مثل خلق الله تعالى من الأجسام، والألوان، والطعوم، والأرابيح [يح]، والقدرة، والحياة، وغير ذلك من الأفعال التي يختصّ سبحانه بالقدرة عليها ﴿فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فإشتبه لذلك عليهم ما الذي خلق الله، وما الذي خلق الأوثان، فظّنوا أنّ الأوثان تستحقّ العبادة؛ لأنّ أفعالها مثل أفعال [افعل] مثل أفعال الله. فإذا لم يكن ذلك مشتبهاً، إذ كان ذلك كله لله تعالى، لم يبق شبهة أنّه الآله لا يستحقّ العبادة سواه.

فـ ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يستحقّ به العبادة منأصول النعم

وفروعها ﴿وَهُوَ الْوَاحِدُ﴾ ومعناه: أنّه يستحقّ من الصفات ما لا يستحقّه غيره، فهو قديم لذاته حيّ لذاته، غنيّ لا مثل له، ولا شبه. وقيل: الواحد: هو الذي لا يتجزّأ، ولا يتبعّض. وقيل: هو الواحد في الإلهيّة لا ثاني له في القدم. ﴿الْقَهَّارُ﴾: الذي يقهر كل قادر سواه، ولا يمتنع عليه شيء.

وإستدلّت المجبرة بقوله: ﴿اللهُ تَعَالَى خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ على أنّ [أفعال] العباد مخلوقة لله؛ لأنّ ظاهر العموم يقتضي دخول أفعال العباد فيه. وبقوله: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ قالوا: لأنّه أنكر أن يكون خالق خلق كخلقه. وأجيب عن ذلك: بأنّ الآية وردت حجّة على الكفّار؛ إذ لو كان المراد ما قالوا، لكان فيها حجّة لهم على الله؛ لأنّه إذا كان الخالق لعبادتهم الأصنام هو الله، فلا يتوجّه التوبيخ إلى الكفّار، ولا يلحقهم اللوم بذلك، بل يكون لهم أن يقولوا إنّك خلقت قينا [فينا] ذلك، فلم توبّخنا على فعل فعلته فينا؟ فيبطل حينئذ فائدة الآية.

وأيضاً فإنّ أكثر أصحابنا لا يطلقون على غيره سبحانه أنّه يخلق أصلاً، فضلاً عن أن يقولوا: إنّه يخلق كخلق الله، ولكن يقولون: إنّ العباد يفعلون ويحدثون. ومعنى الخلق عندهم الإختراع، ولا يقدر العباد عليه. ومن جوّز منهم إطلاق لفظ الخلق في أفعال العباد، فإنّه يقول: إنّه سبحانه إنّما نفى أن يكون أحد يخلق مثل خلقه، ونحن لا نقول ذلك؛ لأنّ خلق الله إختراع وإبداع، وأفعال غيره مفعولة في محلّ القدرة عليها، مباشراً أو متولّداً في الغير، بسبب حال في محلّ القدره ولا يقدر على إختراع الأفعال في الغير على وجه من الوجوه إلاّ الله سبحانه، الذي أبدع السماوات والأرض وما فيهما، وينشىء الأجناس من الأعراض التي لا يقدر عليها غيره، فكيف يشبه الخلق مع هذا التمييز الظاهر، على أنّ عندهم كل حركة هي كسب للعبد، وفعل الله تعالى، ولا يتميز، فقد حصل التشابه هنا، ونحن نقول: إنّ أحدنا يفعل بقدرة محدثة، يفعلها الله تعالى فيه، والله

يفعل لكونه قادراً لذاته، فالفرق والتمييز ظاهر، فعلمنا أنّ المراد بقوله: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ما قدّمناه من أنه خالق كل شيء، يستحقّ لخلقه العبادة.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا
رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ
يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا
يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾
لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ
لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، إلاّ أبابكر: ﴿يُوقِدُونَ﴾ ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ بالتاء؛ فلما قبله من الخطاب، وهو قوله: ﴿قُلْ أفاتّخذتم﴾ ويجوز أن يكون خطاباً عامّاً يراد به الكافّة، كأنّ المعنى: وممّا توقدون عليه أيّها الموقدون زبد مثل زبد الماء الذي يحمله السيل. ومن قرأ بالياء؛ فلأنّ ذكر الغيبة قد تقدّم في قوله: ﴿أم جعلوا لله شركاء﴾، ويجوز أن يراد به: جميع الناس. ويقوي ذلك قوله: ﴿وأمّا ما ينفع الناس﴾، فكما أنّ الناس يعمّ المؤمنين والكافرين، كذلك الضمير في ﴿يُوقِدُونَ﴾. وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ فجعل الظرف متعلّقاً بيوقدون؛ لأنّه قد يوقد على ما ليس في النار كقوله: ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ فهذا إيقاد يقال على ما ليس في النار، وإن كان يلحقه

وهجها، ولهبها.

اللغة: الوادي: سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر، ومنه إشتقاق الدية؛ لأنّه جمع المال العظيم الذي يؤدّى عن القتيل. والقدر: إقتران الشيء بغيره من غير زيادة ولا نقصان. والوزن: يزيد وينقص، فإذا كان مساوياً فهو القدر. وقرأ الحسن: ﴿بقدْرها﴾ ـ بسكون الدال ـ، وهما لغتان. يقال: أعطى قدر شبر، وقدر شبر، والمصدر بالتخفيف لا غير، وهم يختصمون في القدر والقَدَر معاً بالسكون والحركة. قال:

أَلا يٰـــالَقَوْم لِـــلنَّوائِبِ وَالْـــقَدْرِ
وَلِلأمْرِ يَأْتي المَرْءَ مِنْ حَيْثُ لا يَدْرِي[1]

والإحتمال: رفع الشيء على الظهر بقوّة الحامل له. ويقال: علا صوته على فلان فاحتمله، ولم يغضبه، والزبد: وضر الغليان، وهو خبث الغليان، ومنه: زبد القدر، وزبد السيل. والجفاء: ممدود، مثل: الغثاء، وأصله: الهمز. يقال: جفا الوادي جفاء. قال أبو زيد: يقال: جفأت الرجل: إذا صرعته، وأجفأت القدر بزبدها إذا ألقت زبدها عنها. قال الفرّاء: كل شيء ينضمّ بعضه إلى بعض، فإنّه يجيء على «فعال»، مثل: الحطام، والقماش، والغثاء، والجفاء. والإيقاد: إلقاء الحطب في النار وإستوقدت النار، وإتّقدتّ، وتوقّدت. والمتاع: ما تمتّعت به. والمكث: الكون في المكان على مرور الزمان. يقال: مكَث ومكُث وتمكث أي: تلبث.

الإعراب: قال جامع العلوم البصير: قوله: ﴿فِي النَّار﴾ متعلّق بمحذوف، في موضع الحال من الضمير المجرور بقوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ أي: وممّا توقدون عليه ثابتاً في

---

(١) يعني ليس كلمة القدر في قولهم: القضاء والقدَر ـ بفتح الدال ـ تعييناً، بل قد يجيء بسكون الدال بهذا المعنى، فيقال: يختصمون في القْدر ـ بسكون الدال ـ وكذلك في الشعر جاء بهذا المعنى ـ بسكون الدال ـ أيضاً.

النار. ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: مبتغين حلية، فهو مصدر في موضع الحال من الضمير في ﴿يُوقِدُون﴾ ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ من صلة ﴿يُوقِدُونَ﴾؛ لأنّ المعنى ليس على ذلك، فالمعنى: أنّهم يوقدون على الذهب في حال كونه في النار فافهمه من كلام أبي عليّ، ولم يهتد إليه غيره. وقوله: ﴿زَبَدٌ﴾ مبتدأ، و ﴿مِثْلُهُ﴾ نعت له، والظرف الذي هو قوله: ﴿مِمَّا تُوقِدُونَ﴾ خبره، على قول سيبويه، وهو مرتفع بالظرف، على قول الأخفش. وموضع ﴿جُفَاءً﴾ نصب؛ على الحال، أي: يذهب على هذه الحالة، قال الشاعر:

إذا أكَلْتُ سَمَكاً وَفرْضاً ذَهَبْتُ طُولاً، وَذَهَبْتُ عَرْضاً

أي: ذهبت على هذه الحالة. والفرض: نوع من التمر.

المعنى: ثمّ ضرب سبحانه مَثَلين للحقّ والباطل: أحدهما: الماء وما يعلوه من الزبد.

والآخر: ما يوقد عليه النار من الذهب والفضّة وغيرهما، وما يعلوه من الزبد على ما رتّبه، فقال: ﴿أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ يعني: فإحتمل الأنهار الماء كل نهر بقدره الصغير على قدر صغره، والكبير على قدر كبره، فسالت كل نهر بقدره، ـ عن الحسن، وقتادة، والجبائي ـ. وقيل: بقدرها: بما قدر لها من مائها، ـ عن الزجّاج ـ.

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً﴾ أي: طافياً عالياً فوق الماء، شبّه سبحانه الحقّ والإسلام، بالماء الصافي النافع للخلق، والباطل بالزبد الذاهب باطلاً. وقيل: إنّه مثل القرآن النازل من السماء، ثمّ تحتمل القلوب حظّها من اليقين والشكّ على قدرها. فالماء مثل: اليقين، والزبد مثل: الشكّ، ـ عن ابن عبّاس ـ.

ثم ذكر المثل الآخر، فقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ وهو الذهب، والفضّة، والرصاص، وغيره ممّا يذاب ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: طلب زينة يتّخذ منه

كالذهب والفضّة ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ معناه: أو إبتغاء متاع ينتفع به، وهو مثل جواهر الأرض، يتّخذ منها الأواني وغيرها ﴿زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ أي: مثل زبد الماء، فإنّ هذه الأشياء التي تستخرج من المعادن، وتوقد عليها النار ليتميّز الخالص من الخبيث، لها أيضاً زبد، وهو خبثها.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أي: مثل الحقّ والباطل. وضرب المثل تسييره في البلاد حتى يتمثّل به في الناس ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أي: باطلاً متفرّقاً بحيث لا ينتفع به ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ هو الماء الصافي، والأعيان التي ينتفع بها ﴿فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ فينتفع به الناس، فمثل المؤمن وإعتقاده، كمثل هذا الماء المنتفع به في نبات الأرض، وحياة كل شيء به، وكمثل نفع الذهب والفضّة، وسائر الأعيان المنتفع بها، ومثل الكافر وكفره، كمثل هذا الزبد الذي يذهب جفاء، وكمثل خبث الحديد، وما تخرجه النار من وسخ الذهب والفضّة الذي لا ينتفع به.

﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾ للناس في أمر دينهم. قال قتادة: هذه ثلاثة أمثال، ضربها الله تعالى في مَثَل واحد، شبّه نزول القرآن، بالماء الذي ينزل من السماء، وشبّه القلوب، بالأودية والأنهار، فمن إستقصى في تدبّره، وتفكّر في معانيه، أخذ حظّاً عظيماً منه، كالنهر الكبير الذي يأخذ الماء الكثير، ومن رضي بما أدّاه إلى التصديق بالحقّ على الجملة، كان أقلّ حظّاً منه، كالنهر الصغير، فهذا مثل. ثمّ شبّه الخطوات [الخطرات] ووساوس الشيطان بالزبد، يعلو على الماء، وذلك من خبث التربة، لا عين الماء. كذلك ما يقع في النفس من الشكوك فمن ذاتها، لا من ذات الحقّ. يقول: فكما يذهب الزبد باطلاً، ويبقي صفوة الماء، كذلك يذهب مخايل الشكّ هباء باطلاً، ويبقى الحقّ، فهذا مَثَل ثانٍ. والمثل الثالث: قوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ إلى آخره، فالكفر: مثل هذا الخبث الذي لا ينتفع به،

والإيمان: مثل الماء الصافي الذي ينتفع به. وتمّ الكلام عند قوله: ﴿يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ﴾.

ثمّ إستأنف بقوله: ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ ـ عن الحسن والبلخي ـ. وقيل: بل يتّصل بما قبله؛ لأنّ معناه: إنّ الذي يبقي، مثل الذين إستجابوا لربّهم، والذي يذهب جفاء، مثل الذي لا يستجيب. والمراد به للذين إستجابوا [أجابوا] دعوة الله، وآمنوا به، وأطاعوه الحسنى، وهي الجنّة، ـ عن الحسن والجبائي ـ. وقيل: معناه الخصلة الحسنى والحالة الحسنى، وهي صفة الثواب والجنّة أيضاً، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أي: الله، فلم يؤمنوا به ﴿لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ أي: جعلوا ذلك فدية أنفسهم من العذاب، لم يقبل ذلك منهم ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: إنّ سوء الحساب أخذهم بذنوبهم كلّها من دون أن يغفر لهم شيء منها، ـ عن إبراهيم النخعي ـ. ويؤيّد ذلك ما جاء في الحديث: «ومن نوقش الحساب عذب»، فيكون سوء الحساب المناقشة.

والثاني: هو أن يحاسبوا للتقريع والتوبيخ، فإنّ الكافر يحاسب على هذا الوجه، والمؤمن يحاسب ليسرّ بما أعدّ الله تعالى له، ـ عن الجبائي ـ.

والثالث: هو أن لا يقبل لهم حسنة، ولا يغفر لهم سيّئة، ـ عن الزجّاج، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. والرابع: إنّ سوء الحساب هو سوء الجزاء، فسمّي الجزاء حساباً؛ لأنّ فيه إعطاء المستحقّ حقّه ﴿وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ أي: مصيرهم إلى جهنّم ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ أي: وبئس ما مهدّوا لأنفسهم. والمهاد: الفراش الذي يوطأ لصاحبه، وتسمّي النار مهاداً؛ لأنّها موضع المهاد لهم.

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ
﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ
بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا
وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

(اللغة): الألباب: العقول. ولبّ الشيء: أجلّ ما فيه، وأخلصه وأجوده. ولبّ الإنسان: عقله؛ لأنّه أجلّ ما فيه. ولبّ الخلّة [النخلة]: قلبها. والميثاق: العهد الواقع على إحكام. والوصل: ضمّ الثاني إلى الأوّل من غير فاصلة. والخوف، والخشية، والفزع، نظائر، وهو إنزعاج النفس بما لا يأمن منه من الضرر. والسوء: ورود ما يشقّ على النفس. والحساب: إحصاء ما على العامل وله، وهو هيهنا إحصاء ما على المجازى وله. والسرّ: هو إخفاء المعنى في النفس، ومنه: السرور؛ لأنّه لذّة تحصل للنفس، ومنه: السرير؛ لأنّه مجلس سرور. والدرء: الدفع والعدن: الإقامة الطويلة. وعدن بالمكان يعدن عدناً. ومنه: المعدن. والصلاح: إستقامة الحال. والمصلح: من فعل الصلاح الذي يدعو إليه العقل والشرع. والصلاح [الصالح]: المستقيم الحال في نفسه. والعقبي: فُعلى، من العاقبة، وهو الإنتهاء الذي يؤدّي إليه الإبتداء من خير، أو شرّ.

الإعراب: موضع ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ﴾: رفع؛ لأنّه صفة لقوله: ﴿أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ وقيل: إنّه صفة لـ«من يعلم». و﴿ابْتِغَاءَ﴾: نصب؛ لأنّه مفعول له. و﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: بدل من ﴿عُقْبَى﴾. ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾: موضعه رفع؛ عطفاً على الواو في قوله: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾. وجائز أن يكون نصباً؛ بأنّه مفعول معه، كما تقول: قد دخلوا وزيداً أي: مع زيد. والباء في قوله: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾: يتعلّق بمعنى ﴿سَلَامٌ﴾؛ لأنّه دلّ على السلامة لكم بما صبرتم، ويحتمل أن يتعلّق بمحذوف، على تقدير: هذه الكرامة لكم بما صبرتم. وما في قوله: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾: مصدريّة، تقديره: بصبركم، وقيل: إنّه بمعنى «الذي»؛ كأنّه قال: بالذي صبرتم على فعل طاعاته، وتجنّب معاصيه.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه الفرق بين المؤمن والكافر، فقال: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ عنه أخرج الكلام مخرج الإستفهام، والمراد به الإنكار أي: لا يكونان مستويين، فإنّ الفرق بينهما هو الفرق بين الأعمى والبصير؛ لأنّ المؤمن يبصر ما فيه رشده فيتبعه، والكافر يتعامى عن الحقّ، فيتبع ما فيه هلاكه.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: إنّما يتفكّر فيه، ويستدلّ به ذوو العقول والمعرفة. قال عليّ بن عيسى: وفي هذا حثّ على طلب العلم، وإلزام له؛ لأنّه إذا كانت حال الجاهل كحال الأعمى، وحال العالم كحال البصير، وأمكن هذا الأعمى أن يستفيد بصراً، فما الذي يقعده عن طلب العلم الذي يخرجه عن حال العمى بالجهل إلى حال البصير.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ أي: يؤدّون ما عهد الله إليهم، وألزمهم إيّاه، عقلاً وسمعاً، فالعهد العقلي: ما جعله في عقولهم من إقتضاء صحّة أمور وفساد أمور أخر، كإقتضاء الفعل للفاعل، وأنّ الصنائع لا بدّ أن ترجع إلى صانع غير مصنوع، وإلاّ أدّى إلى ما لا يتناهى. وأنّ للعالَم مدبّراً لا يشبهه.

والعهد الشرعي: ما أخذه النبيّ ﷺ على المؤمنين من الميثاق المؤكّد باليمين، أن يطيعوه ولا يعصوه، ولا يرجعوا عمّا إلتزموه من أوامر شرعه و نواهيه. وإنّما كرّر ذكر الميثاق، وإن دخل جميع الأوامر والنواهي في لفظ العهد؛ لئلاّ يظنّ أنّ ذلك خاصّ فيما بين العبد وربّه، فأخبر أنّ ما بينه وبين العباد من المواثيق، كذلك في الوجوب واللزوم. وقيل: إنّه كرّره تأكيداً.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قيل: المراد به: الإيمان بجميع الرسل والكتب، كما في قوله: ﴿لانُفرّق بَينَ أحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ وقيل: هو صلة محمّد ﷺ، وموازرته، ومعاونته، والجهاد معه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هو صلة الرحم، ـ عن ابن عبّاس ـ.

وروى أصحابنا أنّ أبا عبدالله عليه السلام لمّا حضرته الوفاة، قال: أعطوا الحسن بن الحسين بن عليّ بن الحسين، وهو الأفطس، سبعين ديناراً، فقالت له أمّ ولد له: أتعطي رجلاً حمل عليك بالشفرة؟ فقال لها: ويحك! أما تقرئين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ الآية، وقيل: هو ما يلزم من صلة المؤمنين بأنّ يتولّوهم، وينصروهم، ويذبّوا عنهم، ويدخل فيه صلة الرحم، وغير ذلك، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ. وروى جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «برّ الوالدين، وصلة الرحم، يهوّنان الحساب» ثمّ تلا هذه الإية.

روى محمّد بن الفضيل[١]، عن موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، في هذه الآية قال: صلة آل محمّد ﷺ معلّقة بالعرش، تقول: أللهمّ صلّ من وصلني، وإقطع من قطعني، وهي تجري في كلّ رحم. وروى الوليد بن أبان، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال: قلت له: هل على الرجل في ماله سوى الزكاة؟ قال: نعم، أين ما قال الله:

---

[١] محمّد بن الفضيل الزرقي أو الرزقي.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا﴾ الآية.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: ويخافون عقاب ربّهم في قطعها ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ قد بيّنّا ما قيل فيه. وروى هشام بن سالم[١]، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: سوء الحساب أن يحسب عليهم السيّئات، ولا يحسب لهم الحسنات، وهو الإستعصاء [الإستقصاء].

وروى حمّاد بن عثمان، عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال لرجل: يا فلان! مالك ولأخيك. قلت: جعلت فداك لي عليه شيء فإستقصيت حقّي عنه. قال أبو عبدالله عليه السلام: أخبرني عن قول الله سبحانه: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ أتراهم خافوا أن يجور عليهم، أو يظلمهم، لا والله ولكن خافوا الإستقصاء والمداقّة.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: الذين صبروا على القيام بما أوجبه الله عليهم، وعلى بلاء الله من الأمراض، والعقوبة، وغير ذلك، وعن معاصي الله سبحانه، لطلب ثواب الله تعالى؛ لأنّ إبتغاء وجه الله، هو إبتغاء الله، وإبتغاء الله يكون إبتغاء ثوابه، تقول العرب في تعظيم الشيء: هذا وجه الرأي، وهذا نفس الرأي،للرأي المعظم،فكذلك وجه ربّهم،هو نفسه المعظم، فلاشيء أعظم منه،ولاشيء يساويه في العظم. وقيل: إنّ ذكر الوجه هنا عبارة عن الإخلاص، وترك الرياء[١].

---

(١) إبتغاء وجه الله يدلّ على وجوب النيّة في العبادات، وأنّ الثواب متوقّف على التقرّب، كما يدلّ عليه العقل أيضاً. ونيّة الوجه في إصطلاح أهل الكلام: أن يكون الداعي إلى الفعل جهة حسنة مثلاً: الإنفاق على المرأة الفقيرة حسن، إن كان داعي المنفق رفع ضرّها، فلو كان داعيه جلبها للزنا بها كان الإنفاق قبيحاً، والداعي إلى الفعل هو الغاية في إصطلاحهم، وهذا معنى إعتبار الوجه بمعنى الغاية، وتصوّره بديهيّ يمكن التكليف به، وإن كان التعبير عنه أشكل على بعضهم حتى قال بعض الفقهاء: لايمكن التكليف به، ولم يفت بوجوبه. والحقّ وجوبه، وهو مذهب أكثر المحصلين.

[١] هشام بن سالم الجواليقي الجعفي.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدّوها بحدودها. وقيل: داموا على فعلها ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ أي: ظاهراً وباطناً ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بفعل الطاعة المعصية. قال ابن عباس: يدفعون بالعمل الصالح السيّء من العمل، كما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال لمعاذ بن جبل: «إذا عملت سيّئة فإعمل بجنبها حسنة تمحها». وقيل: معناه: يدفعون إساءة من أساء إليهم بالإحسان والعفو، ولا يكافئون كقوله سبحانه: ﴿إِدفَع بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ﴾، ـ عن قتادة، وابن زيد، والقتيبي ـ. قال الحسن: إذا حرموا أعطوا، وإذا ظلموا عفوا، وإذا قطعوا وصلوا. وقيل: معناه: يدفعون بالتوبة معرة الذنب، ـ عن ابن كيسان ـ.

﴿أُوْلَئِكَ﴾: يعني: أنّ هؤلاء الذين هذه صفاتهم ﴿لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: ثواب الجنّة. فالدار: الجنّة، وثوابها: عقباها التي هي العاقبة المحمودة، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. ثمّ وصف الدار فقال: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي: بساتين إقامة تدوم ولا تفنى. وقيل: هي الدرجة العليا، وسكّانها: الشهداء والصدّيقون ـ. عن ابن عباس ـ. وقيل: قصر من ذهب، لا يدخله إلاّ نبيّ، أو صديق، أو شهيد، أو حاكم عدل، ـ عن الحسن، وعبد الله بن عمر ـ.

ثم بيّن سبحانه ما يتكامل به سرورهم، من إجتماع قومهم معهم، فقال: ﴿يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ أي: أولادهم، يعني: من آمن منهم، وصدّق بما صدّقوا به، وذلك أنّ الله سبحانه جعل من ثواب المطيع سروره بما يراه في أهله، من إلحاقهم به في الجنّة، كرامة له، كما قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ من أبواب الجنّة الثمانية. وقيل: من كل باب من أبواب البّر كالصلاة، والزكاة، والصوم. وقيل: من أبواب قصورهم [قبورهم] وبساتينهم بالتحيّة من الله سبحانه، والتحف والهدايا، ـ عن ابن عبّاس ـ.

ويقولون: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ و«القول» محذوف؛ لدلالة الكلام عليه والسلام والتحيّة والبشارة منهم بالسلامة والكرامة، وإنتفاء كل أمر تشوبه مضرّة أي: سلمكم الله من الأهوال والمكاره، بصبركم على شدائد الدنيا ومحنها في طاعة الله تعالى ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: نعم عاقبة الدار ما أنتم فيه من الكرامة.

﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ[1] مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ ﴿٢٩﴾

(اللغة): الإنابة: الرجوع إلى الحقّ بالتوبة، إنتاب فلان القوم: أتاهم مرّة

---

(١) عهد الله: يشمل النذر واليمين مع ساير الأحكام، فلايجوز نقضه. وورد في رواية زرارة: أنّ كل يمين كان نقضها خيراً لك في الدين أو الدنيا يجوز نقضها، وهذا بإطلاقه يوجب جواز نقض اليمين مطلقاً؛ إذ لايترك أحد يميناً الاّ لمنفعة دينيّة أو دنيويّة، فظاهر الرواية متروك العمل. والقدر المعلوم أنّ العمل إن كان راجحاً في نظر الحالف، ثمّ تبيّن خطاؤه، أو طرأ عليه مايوجب مرجوحيّته شرعاً بعد أن كان راجحاً جاز تركه، وإلاّ فلا، وإن كان فيه نفع دنيويّ.

بعد مرّة. ويقال: ناب ينوب نوبة: إذا رجع مرّة بعد مرة، وطوبى: فُعلى، من الطيب، وهو تأنيث «الأطيب»، ولم يغيّروا «طوبى» بأن يقولوا: طيبى، كما قالوا: ضيزى، فقلبوا الواوياء، والضمّة كسرة؛ لأنّ «طوبى» إسم، و«ضيزى» صفة، فرّقوا بين الإسم والصفة.

﴿الإعراب﴾: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في موضع نصب رداً على «مَن». المعنى: يهدي إليه الذين آمنوا. وألا: حرف تنبيه وإبتداء. وحسن مآب: عطف على «طوبى»، لأن (طوبى) في موضع رفع.

﴿المعنى﴾: لمّا ذكر سبحانه الذين يوفون بعهد الله، ووصفهم بالصفات التي يستحقّون بها الجنّة، عقّبه بذكر من هو على خلاف حالهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ قد ذكرنا معنى عهد الله وميثاقه، وصلة ما أمر الله به أن يوصل.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالدعاء إلى غير الله، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: لقتال النبيّ ﷺ والمؤمنين، ـ عن الحسن ـ. وقيل: بالعمل فيها بمعاصي الله، والظلم لعباده وإخراب بلاده، وهذا أعمّ ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ وهي الإبعاد من رحمة الله، والتبعيد من جنّته ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي: عذاب النار، والخلود فيها.

﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسّع الرزق على من يشاء من عباده، بحسب ما يعلم من المصلحة، ويضيقه على آخرين إذا كانت المصلحة في التضييق ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: فرحوا بما أوتوا من حطام الدنيا فرح البطر، ونسوا فناءه وبقاء أمر الآخرة، وتقديره، وفرح الذين بسط لهم في الرزق في الحياة الدنيا ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي: ليست هذه الحياة الدنيا بالإضافة إلى الحياة الآخرة إلاّ قليل ذاهب؛ لأنّ هذه فانية، وتلك دائمة باقية، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: إنّه مذكور على وجه التعجّب أي: عجباً لهم أن فرحوا

بالدنيا الفانية، وتركوا النعيم الدائم، والدنيا في جنب الآخرة متاع لا خطر له، ولا بقاء له، مثل: القدح والقصعة والقدر يتمتّع به زماناً ثمّ ينكسر، ـ عن ابن عبّاس ـ.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ أي: هلاّ أنزل على محمّد معجزة[1] من ربّه يقترحونها، ويجوز أنّهم لم يتفكّروا في الآيات المنزلة، فإعتقدوا أنّه لم ينزل عليه آية، ولم يعتدّوا بتلك الآيات، فقالوا هذا القول جهلاً منهم بها ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ عن طريق الجنّة بسوء أفعاله، وعظم معاصية. وقد مضى القول في وجوه الإضلال والهدى، فلا معنى لإعادته.

﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: رجع اليه بالطاعة ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ معناه: الذين إعترفوا بتوحيد الله على جميع صفاته، ونبوّة نبيّه، وقبول ما جاء به من عند الله، وتسكن قلوبهم بذكر الله، وتأنس إليه. والذكر: حصول المعنى للنفس، وقد يمسى العلم ذكراً. والقول: الذي فيه المعنى الحاضر للنفس أيضاً يسمّي ذكراً. وقد وصف الله المؤمن هيهنا: بأنّه يطمئنّ قلبه إلى ذكر الله، ووصفه في موضع آخر: بأنّه إذا ذكر الله وجل قلبه؛ لأنّ المراد بالأوّل: أنّه يذكر ثوابه وأنعامه وآلاءه التي لا تحصى، وأياديه التي لا تجازى[رى]، فيسكن إليه، وبالثاني: أنّه يذكر عقابه وإنتقامه، فيخافه، ويوجل قلبه.

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ وهذا حثّ للعباد على تسكين القلب إلى ما وعد الله به من النعيم والثواب، والطمأنينة إليه، فإنّ وعده سبحانه صادق، ولا شيء تطمئنّ النفس إليه أبلغ من الوعد الصادق، وهو إعتراض وقع بين الكلامين، إذا

---

(١) كأنّهم أرادوا هنا من المعجزات ما به يصير المعقول محسوساً، وهذا جهالة، نظير أن يقول من هو فاقد حاسّة الشمّ: انّي لا أؤمّن بوجود الروائح الطيّبة حتى أراها ببصري، فأجاب تعالى بأنّه يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء، وبذكر الله تطمئنّ القلوب ولايمكن رؤية الله والملائكة والآخرة في الدنيا، كما لايرى الروائح.

كان قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ﴾ في موضع رفع بالإبتداء، ويكون قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ بدلاً منه. وقوله: ﴿طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ جملة في موضع الرفع؛ بأنه خبر المبتدأ. وإذا كان الذين آمنوا الأوّل في موضع نصب، على ما تقدّم ذكره، فيكون: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ مبتدأ مستأنفاً، ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ خبره، ومعناه: أنّ الذين يؤمنون بالله، ويعملون ما يجب عليهم من الطاعات. ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ وفيه أقوال:

أحدها: إنّ معناه: فرح لهم، وقرّة عين، ـ عن ابن عبّاس ـ. **والثاني**: غبطة لهم، ـ عن الضحّاك ـ. **والثالث**: خير لهم وكرامة، ـ عن إبراهيم النخعي ـ. **والرابع**: الجنّة لهم، ـ عن مجاهد ـ. **والخامس**: معناه: العيش المطيب لهم، ـ عن الزجّاج ـ. والحال المستطابة لهم، ـ عن ابن الأنباري ـ؛ لأنّه فُعلى، من الطيب. وقيل: أطيب الأشياء لهم وهو جنّة. ـ عن الجبائي ـ. **والسادس**: هنيئاً بطيب العيش لهم. **السابع**: حسنى لهم، ـ عن قتادة ـ. **الثامن**: نعم ما لهم، ـ عن عكرمة ـ. **التاسع**: طوبى لهم دوام الخير لهم. **العاشر**: أنّ «طوبى» شجرة في الجنّة، أصلها في دار النبيّ ﷺ، وفي دار كل مؤمن منها غصن، ـ عن عبيد بن عمير، ووهب، وأبي هريرة، وشهر بن حوشب، ورواه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً ـ، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «لو أنّ راكباً مجداً سار في ظلّها مائة عام ما خرج منها، ولو أنّ غراباً طار من أصلها، ما بلغ أعلاها حتى يبيض هرماً، ألا في هذا فإرغبوا، إنّ المؤمن، نفسه منه في شغل، والناس منه في راحة، إذا جنّ عليه الليل، فرش وجهه، وسجد الله، يناجي الذي خلقه في فكاك رقبته، ألا فهكذا فكونوا.

وروى عليّ بن إبراهيم عن أبيه، عن الحسن بن محبوب[١]، عن عليّ بن رئاب[٢]، عن أبي عبيدة الحذّاء، عن أبي عبدالله عليه السلام: كان رسول الله صلى الله عليه وآله يكثر تقبيل فاطمة عليها السلام، فأنكرت عليه بعض نسائه ذلك، فقال صلى الله عليه وآله: إنّه لمّا أسري بي إلى السماء، دخلت الجنّة وأدناني جبرائيل عليه السلام من شجرة طوبى، وناولني منها تفاحة، فأكلتها، فحوّل الله ذلك في ظهري ماء، فهبطت إلى الأرض، وواقعت خديجة، فحملت بفاطمة، فكلّما اشتقت إلى الجنّة قبّلتها، وما قبّلتها إلاّ وجدت رائحة شجرة طوبى، فهي حوراء إنسيّة.

وروى الثعلبي بإسناده عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: طوبى: شجرة أصلها في دار عليّ عليه السلام في الجنّة، وفي دار كل مؤمن منها غصن. ورواه أبو بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام. وروى الحكم [الحاكم] أبو القاسم الحسكاني، بإسناده عن موسى بن جعفر عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: سئل رسول الله صلى الله عليه وآله عن «طوبى» قال: شجرة أصلها فى داري، وفرعها على أهل الجنّة، ثمّ سئل عنها مرّة أخرى، فقال: في دار عليّ عليه السلام، فقيل في ذلك، فقال: إنّ داري ودار علي في الجنّة بمكان واحد ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ أي: ولهم حسن مآب أي: مرجع.

[النظم]: وجه إتّصال قوله: ﴿اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ الآية بما قبله: أنّه بيّن أن نقضهم للعهد، إنّما كان لحبّ الرئاسة والمنافسة في الدنيا، وزهدهم في المنافسة. وأخبر بأنّه يبسط الرزق لمن يرى صلاحه فيه، ويرزق مقدار الكفاية من علم أنّ صلاحه فيه، ثمّ لمّا ذكر سبحانه سوء عاقبة الكفّار، عقّب ذلك بذكر ما إقترحوه من الآيات، وترك تفكّر هم فيما أنزل من الآيات الخارقة للعادات، فقال:

---

[١] الحسن بن محبوب بن وهب البجلي الكوفي أبو علي الزراد.

[٢] علي بن رئاب أبو الحسن الطحان الكوفي.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ ولمّا إستعجلوا العذاب، بيّن سبحانه أنّه يضلّ من يشاء أي: يهلك من يشاء معجّلاً، ويؤخّر عذاب من يشاء، عن أبي مسلم قال: والمراد بقوله: ﴿آيَةٌ﴾ آيات العذاب. وقيل: إنّهم لمّا إقترحوا الآيات، بيّن أنّهم إنّما لم يجابوا إلى ذلك؛ لأنّ في المعلوم أنّهم لا يؤمنون، وأنه يهلكهم.

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟
عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ
قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾
وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ
بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ
وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

القراءة: قرأ عليّ عليه السلام، وابن عبّاس، وعليّ بن الحسين عليهما السلام، وزيد بن عليّ، وجعفر بن محمّد عليه السلام، وابن أبي مليكة، وعكرمة، والجحدري، وأبو يزيد [زيد] المزني: ﴿أَفَلَمْ يَتَبَيَّنَ﴾[1] والقراءة المشهورة: ييأس.

---

(١) خطأ ابن عبّاس كتابة «يايئس». وبيانه: أنّ الهمزة في غالب الأمر لم تكن مكتوبة بصورة في مصاحف الأولين، وكانت مكتوبة نادراً بصورة الواو، أو الياء، أو الألف، والقاعدة في كلمة «ييئس» أن تكتب بيائين، وسين متّصلات بلا همزة، فتصير مشابهة لكلمة، «يتبيّن» في ←

الحجة: قال ابن جنّي: هذه القراءة فيها تفسير قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْئَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وروي عن عليّ بن عياش أنّها لغة فَخذٍ من النّخع، قال:

أَلَمْ يَيْأَسِ الأَقْوامُ أَنِّي أَنَا ابْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِياً

وقال سحيم بن وثيل:

أَقُولُ لأَهْلِ الشِّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي أَلَمْ يَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمٍ[١]

وروي: إذ ييسرونني أي: يقسمونني أي: ألم يعلموا. قال: ويشبه عندي أن يكون هذا أيضاً راجعاً إلى معنى اليأس، وذلك أنّ المتأمّل للشيء، المتطلّب لعلمه، ذاهب بفكره في جهات تعرفه إيّاه، فإذا ثبت نفسه على شيء إعتقده، وأضرب عمّا سواه، فلم ينصرف إليه، كما ينصرف اليائس عن الشيء عنه، ولا يلتفت إليه، هذا طريق الصنعة فيها.

اللغة: المتاب: التوبة، تاب يتوب توباً ومتاباً. والتوبة: الفعلة الواحدة، والتسيير: تصير الشيء بحيث يسير. يقال: سار يسير سيراً، وسيّره غيره. والتقطيع: تكثير القطع. والقطع: تفصيل المتّصل. والحلول: حصول الشيء في الشيء، كحصول العرض في الجوهر، وحصول الجوهر في الوعاء، والأصل الأوّل، والثاني: مشبّه به. والقارعة: الشديدة من شدائد الدهر، ومنه: سمّيت القيامة: قارعة، وأصله من القرع: وهو الضرب. ومقارعة الأبطال: ضرب بعضهم بعضاً. وقوارع القرآن: الآيات التي من قرأها أمن من الشيطان، كأنّها تضرب الشياطين إذا قرئت.

← صورة الكتابة، بلا نقطة على عادتهم، لكنّهم كتبوا بياء ثمّ ألف، ثمّ ياء وسين، فلايمكن أن يقرء «يتبيّن» لفصل الألف.

[١] زهدم: اسم فرس. وقيل: اسم فرس سحيم. وقائل البيت: ولده جابر بن سحيم. وروي: «أني ابن قاتل زهدم». وزهدم: رجل من عبس. فعليه يصح أن يكون الشعر لسحيم. وفي رواية أُخرى: «أني ابن فارس لازم».

النزول: نزلت الآية الأولى في صلح الحديبيّة، حين أرادو كتاب الصلح، فقال رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام: أكتب بسم الله الرحمن الرحيم. فقال سهيل بن عمرو والمشركون: ما نعرف الرحمن إلاّ صاحب اليمامة، يعنون مسيلمة [مسليمة] الكذّاب، أكتب بإسمك أللهمّ. وهكذا كان أهل الجاهليّة يكتبون. ثمّ قال رسول الله ﷺ: أكتب هذا ما صالح عليه محمّد رسول الله. فقال مشركو قريش: لئن كنت رسول الله، ثمّ قاتلناك وصددناك، لقد ظلمناك، ولكن أكتب: هذا ما صالح محمّد بن عبد الله ﷺ فقال أصحاب رسول الله ﷺ: دعنا نقاتلهم؟ قال: لا، ولكن أكتبوا كما يريدون، فأنزل الله عزّوجلّ: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ﴾ الآية، ـ عن قتادة، ومقاتل، وابن جريج ـ. وقيل: نزلت في كفّار قريش، حين قال لهم النبيّ ﷺ: أسجدوا للرحمن. قالوا: وماالرحمن؟ ـ عن الضحّاك، عن ابن عبّاس ـ.

ونزلت الآية الأخرى في نفر من مشركي مكّة، منهم: أبوجهل بن هشام، و عبد الله بن أميّة المخزومي، جلسوا خلف الكعبة، ثمّ أرسلوا إلى النبيّ ﷺ فأتاهم، فقال له عبد الله بن أميّة: إنْ سرّك أن نتّبعك، فسيّر لنا جبال مكّة بالقرآن، فأذهبها عنّا، حتى تنفسح، فإنّها أرض ضيّقة، وإجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً، حتى نغرس ونزرع، فلستَ كما زعمتَ أهون على ربّك من داود عليه السلام، حيث سخّر له الجبال تسبح معه، أو سخّر لنا الريح فنركبها إلى الشام، فنقضي عليها مسير [مير]تنا وحوائجنا، ثمّ نرجع من يومنا، فقد كان سليمان سخّرت له الريح، فكما زعمتَ لنا، فلستَ أهون على ربّك من سليمان. وأحي لنا جدّك قصيّاً، أو من شئت من موتانا، لنسأله: أحقّ ما تقول أم باطل؟ فإنّ عيسى عليه السلام كان يحيي الموتى، ولستَ بأهون على الله منه، فأنزل الله سبحانه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً﴾ الآية.

المعنى: لمّا ذكر سبحانه النعمة على من تقدّم ذكره بالثواب وحسن

المآب، عقّبه بذكر النعمة على من أرسل إليه النبيّ ﷺ، فقال: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ أي: كما أنعمنا على المذكورين بالثواب في الجنّة، أنعمنا على المرسل إليهم بإرسالك. وقيل: إنّ معنى التشبيه: أنّا كما أرسلنا الأنبياء في الأمم قبلك، أرسلناك ﴿فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أي: في جماعة قد مضت من قبلها قرون، وجماعات ﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ بيّن الغرض في إرساله، وهو أن يقرأ عليهم القرآن ليتدبّروا آياته، ويتّعظوا بها ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أي: وقريش يكفرون بالرحمن، أي: ويقولون قد عرفنا الله، ولا ندري ما الرحمن، كما أخبر عنهم بأنّهم قالوا: وما الرحمن؟ أنسجد لما تأمرنا؟ ـ عن الحسن، وقتادة ـ. وقيل: معناه: أنّهم يجحدون بالوحدانيّة.

﴿قُلْ﴾ يامحمّد ﴿هُوَ رَبِّي﴾ أي: الرحمن الذي أنكرتموه ربّي أي: خالقي، ومدبّري ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي: إليه فوّضت أمري، متمسّكاً بطاعته، راضياً بحكمه. ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: مرجعي. وقيل: معناه: إلى الرحمن توبتي.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي: تجعل به الجبال سائرة، فأذهبت من مواضعها، وقلعت من أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أي: شقّقت فجعلت أنهاراً، وعيوناً ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾ أي: أحيي به الموتى حتى يعيشوا ويتكلّموا. وحذف جواب «لو»؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه، والتقدير: لكان هذا القرآن لعظم محلّه، وعلوّ أمره، وجلالة قدره، قال الزجّاج: والذي أتوهم، وقد قاله بعضهم إنّ المعنى: لو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال، أو قطّعت به الأرض، أو كلّهم به الموتى، لما آمنوا، ودليله قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ وحذف جواب «لو» يكثر في الكلام. قال إمرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ سَوِيَّةً وَلٰكِنَّهَا نَفْسٌ تُسَاقِطُ أَنْفُساً[١]

وهو آخر القصيدة وقال:

وَجَدِّكَ لَوْ شَيْءٌ أَتَانَا رَسُولُهُ سِواكَ، وَلٰكِنْ لَمْ نَجِدْلَكَ مَدْفَعاً[٢]

﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً ﴾ معناه: إنّ جميع ما ذكر من تسيير الجبال، وتقطيع الأرض، وإحياء الموتى، وكل تدبير يجري هذا المجرى لله؛ لأنّه لا يملكه سواه، ولا يقدر عليه غيره، ولكنّه لا يفعل؛ لأنّ فيما أنزل من الآيات مقنعاً وكفاية للمنصفين. والأمر: مايصحّ أن يؤمر به، وينهى عنه، وهو عامّ، وأصله: الأمر، نقيض النهي.

﴿أَفَلَمْ يَيْئَسْ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: أفلم يعلموا ويتبيّنوا، ـ عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وسعيد بن جبير، وأبي مسلم ـ. وقيل: معناه: أفلم يعلم الذين آمنوا علماً ييأسوا معه من أن يكون غير ما علموه، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: معناه: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الذين وصفهم الله عزّوجلّ، بأنّهم لا يؤمنون، عن الزجّاج قال: لأنّه قال: ﴿أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً ﴾ أي: إنّ الله لو أراد أن يهدي الخلق كلّهم إلى جنّته لهداهم، لكنّه كلّفهم لينالوا الثواب بطاعاتهم على وجه الإستحقاق. وقيل: أراد به مشيئة الإلجاء أي: لو أراد أن يلجئهم إلى الإهتداء، لقدر على ذلك، لكنّه ينافي التكليف، ويبطل الغرض به.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا ﴾ من كفرهم وأعمالهم الخبيثة ﴿قَارِعَةٌ﴾ أي: نازلة وداهية تقرعهم، ومصيبة شديدة من الحرب، والجدب، والقتل، والأسر عليهم، على جهة العقوبة للتنبيه والزجر، وقيل: أراد بالقارعة: سرايا النبيّ ﷺ، كان يبعثها إليهم. وقيل: أراد بذلك: ما مرّ ذكره من حديث

---

(١) مضى الاختلاف في معنى البيت.

(٢) وجواب «لو» محذوف أي: لو أتانا غيرك رسولاً لدفعناه.

زيد وعامر.

﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دَارِهِمْ﴾ وقيل: إنّ التاء في ﴿تحلّ﴾ للتأنيث، والمعنى: أو تحلّ تلك القارعة قريباً من دارهم، فتجاورهم حتى يحصل لهم المخافة منه، ـ عن الحسن، وقتادة، وأبي مسلم، والجبائي ـ. وقيل: إنّ التاء للخطاب، والمعنى: أو تحلّ أنت يا محمّد بنفسك قريباً من دارهم.

﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ﴾ أي: ما وعد الله من فتح مكّة، عن ابن عباس، قال: وهذه الآية مدنيّة، وقيل: حتى يأتي يوم القيامة، ـ عن الحسن ـ. ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ظاهر المعنى.

النظم: إتّصلت الآية الأخيرة بقوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ لَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ﴾ والتقدير: إنّ مثل هذا القرآن أنزل عليهم، وهم يطلبون آيات أخر، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إتّصلت بقوله: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ﴾ الآية؛ لأنّ المفهوم من قوله: ﴿لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمْ﴾ أنّه قرأ عليهم القرآن، وأنّهم كفروا به.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ۚ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، ويعقوب: وصُدّوا ـ بضمّ الصاد ـ. وكذلك في

حتم المؤمن، والباقون: وصَدّوا ـ بفتح الصاد ـ[١].

(الحجة): قال أبو الحسن: صدّ وصددته: مثل رجع ورجعته، قال:

صَدَّتْ كَما صَدَّ عَمّا لا يَحِلُّ لَهُ ... ساقي نَصارىٰ قُبَيْلَ الْفَصْحِ صُوّام[٢]

قال عمرو بن كلثوم:

صَدَدْتِ الْكَأْسَ عَنّا أُمَّ عَمْرٍو ... وَكانَ الْكَأْسُ مَجْراهَا الْيَمِينا[٣]

وحجّة من أسند الفعل إلى الفاعل: قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ وفي موضع آخر: ويصدّون عن سبيل الله، وصدّوكم عن المسجد الحرام. فلمّا أسند الفعل إلى الفاعل في هذه الآية، فكذلك في هذه الآية، أي: صدّوا الناس عن النبيّ ﷺ. ومن بنى الفعل للمفعول به، جعل فاعل الصدّ غواتهم، والعتاة منهم في كفرهم، وقد يكون على نحو ما يقال: صدّ فلان عن الخير، وصدّ عنه، بمعنى: أنّه لم يفعل خيراً، ولا يراد به أن مانعاً منعه.

(اللغة): الإستهزاء: طلب الهزؤ. والهزؤ: إظهار خلاف الإضمار للإستصغار. والإملاء: التأخير، وهو من الملاوة. والملوان: الليل و النهار، قال ابن مقبل:

أَلا يا دِيارَ الحَيِّ بِالسُّبُعانِ ... أَلَحَّ عَلَيْها بِالبِلَى الْمِلَوانِ[٤]

وقال في التهنئة: إلبس جديداً وتملّ حبيباً أي: لتطل أيّامك معه. والواقي: المانع، فاعل، من الوقاية، وهو الحجر بما يدفع الأذى، والمكروه.

---

(١) لم يثبت ياء «عقاب» أحد من السبعة. وإختلفوا في ضمّ دال «لقد أستهزى» وفتحها. وأظهر الذال من «أخذتهم» حفص وابن كثير. وأدغم لام «بل زيّن» الكسائي. ووقف ابن كثير على «هاد وواق» بالياء.

(٢) الفصح: عيد للنصارى، يصومون فيه، ويمنعون من اللحوم وغيرها.

(٣) يعني: إنّي جالس عن يمين المجلس، وكان على الساقي أن يدور من اليمين الى اليسار فيسقيني أولاً فغلطت.

(٤) السُبعان: ـ بضمّ الباء ـ: موضع ببلاد قيس.

المعنى: ثمّ عزّى سبحانه نبيّه ﷺ، فقال: ﴿وَلَقَدْ اسْتُهْزِءَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾ كما إستهزأ هؤلاء بك ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: فأمهلتهم، وأطلت مدتهم ليتوبوا، ولتتمّ عليهم الحجّة ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أي: أهلكتهم، وأنزلت عليهم عذابي، ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف حلّ عقابي بهم، وهو إشارة إلى تفخيم ذلك العقاب وتعظيمه.

ثم عاد سبحانه إلى الحجاج مع الكفّار ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ معناه: أفمن هو قائم بالتدبير على كل نفس، وحافظ على كل نفس أعمالها، يجازيها. وقيل: أفمن هو قائم عليها برزقها، وحفظها، والدافع عنها، كمن ليس بهذه الصفات من الأصنام التي لا تنفع، ولا تضرّ، ويدلّ على هذا المحذوف: قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ يعني: أنّ هؤلاء الكفّار جعلوا لله شركاء في العبادة من الأصنام التي لا تقدر على شيء ممّا ذكرنا.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿سَمُّوهُمْ﴾ أي: سمّوهم بما يستحقّون من الصفات، وإضافة الأفعال إليهم، إن كانوا شركاء لله، كما يوصف الله بالخالق، والرازق، والمحيي والمميت، ويعود المعنى إلى أنّ الصنم لو كان إلهاً، لتصوّر منه أن يخلق ويرزق، فيحسن حينئذ أن يسمّي بالخالق والرازق. وقيل: سمّوهم بالأسماء التي هي صفاتهم، ثمّ أنظروا هل تدلّ صفاتهم على جواز عباداتهم، وإتّخاذهم آلهة. وقيل: معناه: أنّه ليس لهم إسم له مدخل في إستحقاق الإلهيّة، وذلك استحقار لهم. وقيل: سمّوهم ماذا خلقوا، وهل ضرّوا أو نفعوا، وهو مثل قوله: أروني ماذا خلقوا الأرض، ـ عن الحسن ـ.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ هذا إستفهام منقطع ممّا قبله أي: بل أتخبرون الله بشريك له في الأرض، وهو لا يعلمه على معنى أنّه ليس، ولو كان لعلم ﴿أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي: أم تقولون مجازاً من القول، وباطلاً لا حقيقة له، ـ

عن مجاهد، وقتادة، والضحّاك ـ، وعلى هذا فالمعنى: أنّه كلام ظاهر ليس له في الحقيقة باطن ومعنى، فهو كلام فقط. وقيل: أم بظاهر كتاب أنزل الله تعالى سمّيتم الأصنام آلهة، فبيّن أنّه ليس هيهنا دليل عقليّ ولا سمعيّ، يوجب إستحقاق الأصنام الإلهيّة، ـ عن الجبائيّ ـ.

ثم بيّن سبحانه بطلان قولهم، فقال: ﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ ﴾ أي: دع ذكر ما كنّا فيه زين الشيطان لهم الكفر؛ لأنّ مكرهم بالرسول كفر منهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: بل زيّن لهم الرؤساء والغواة كذبهم، وزورهم ﴿وَصُدُّوا عَنْ السَّبِيلِ﴾ أي: وصدّوا الناس عن الحقّ، أو صدّوا بأنفسهم عن الحقّ، وعن دين الله.

﴿وَمَنْ يُضْلِلْ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ سبق معناه في مواضع ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل، والسبي، والأسر. وقيل: بالمصائب، والأمراض ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ﴾ أي: أغلظ وأبلغ في الشدّة على النفس؛ لدوامه، وخلوصه، وكثرته ﴿ وَمَا لَهُمْ مِنْ اللهِ مِنْ وَاقٍ﴾ أي: ما لهم من دافع يدفع عنهم عذاب الله تعالى.

۞ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

(اللغة): الأنهار: جمع نهْر. ونهْر: كفرد وأفراد، وجمل وأجمال. والنهر:

المجرى الواسع من مجاري الماء على وجه الأرض، وأصله: الإتّساع، ومنه: النهار؛ لإتّساع الضياء فيه، وأنهرت الدماء: وسعت مجراها. وقال:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَانْهَرتُ فَتْقَها[١]

أي: وسّعته. والأُكل ـ بضمّ الهمزة ـ: المأكول، والأحزاب: جمع الحزب، وهم الجماعة التي تقوم بالنائبة، يقال: تحزّب القوم: إذا صاروا حزباً. وحزبهم الأمر يحزبهم أي: نالهم بمكروه.

الإعراب: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي﴾ فيه أقوال: **أحدها:** إنّه بمعنى الشبه، وخبره محذوف، وتقديره: مثل الجنّة التي هي كذا أجلٌّ مَثَل. **والثاني:** إنّ تقديره: فيما نقص عليكم مثل الجنّة، أو مثل الجنّة فيما نقص عليكم، فهو مرفوع أيضاً على الإبتداء، وخبره محذوف. وهو قول سيبويه، وإختاره أبو عليّ الفارسيّ. **والثالث:** إنّ معناه: صفة الجنّة التي وعد المتّقون ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فتجري من تحتها الأنهار مع ما بعده: خبر المبتدأ الذي هو: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾. قالوا: وقوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ معناه: الصفة العليا، ولم يرتض أبو عليّ هذا القول.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر ما أعدّ الله للكافرين، عقّبه سبحانه بذكر ما أعدّه للمؤمنين، فقال: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أي: شبهها، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: صفتها وصورتها، ـ عن الحسن ـ. قال ابن قتيبة: المثل: الشبه في أصل اللغة، ثمّ قد يصير بمعنى: صورة الشيء وصفته. يقال: مثّلت لك كذا، أي: صوّرته ووصّفته. وقيل: إنّ مثل مقحم، والتقدير: الجنّة التي وعد المتّقون.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ﴾ يعني: أنّ ثمارها لا تنقطع كثمار الدنيا، وظلّها لا يزول، ولا تنسخه الشمس، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: نعيمها لا

---

[١] قائله: قيس بن الحطيم، يصف طعنة وبعده: (يرى قائم من دونها ما ورائها).

ينقطع بموت، ولا آفة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: لذّتها في الأفواه باقية، ـ عن إبراهيم التيميّ ـ. ﴿وَظِلُّهَا﴾ أيضاً دائم، لا يكون مرّة شمساً، ومرّة ظلاً، كما يكون في الدنيا.

﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي: تلك الجنّة عاقبة المتّقين، فالطريق إليها التقوى ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي: وعاقبة أمر الكفّار النار.

ولمّا تقدّم ذكر الوعد والوعيد أخبر سبحانه عن المتّقين والكافرين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يريد أصحاب النبيّ ﷺ الذين آمنوا به، وصدّقوه، أعطوا القرآن، وفرحوا بإنزاله.

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ يعني: اليهود، والنصارى، والمجوس، أنكروا بعض معانيه، وما يخالف أحكامهم، ـ عن الحسن، وقتادة، ومجاهد ـ. وقيل: الذين آتيناهم الكتاب، هم الذين آمنوا من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام و أصحابه فرحوا بالقرآن؛ لأنّهم يصدّقون به. والأحزاب: بقيّة أهل الكتاب، وسائر المشركين، عن ابن عبّاس قال: لأنّ عبدالله بن سلام وأصحابه، أساءهم قلّة ذكر الرحمن في القرآن، مع كثرة ذكره في التوراة، فأنزل الله: ﴿قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ﴾ ففرحوا بذلك، وكفر المشركون بالرحمن، وقالوا: ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة. ويريد بالأحزاب، الذين تحزبوا على رسول الله ﷺ، بالمعاداة، ومن ينكر بعضه يعني: ذكر الرحمن، وهو قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ أي: أمرت أن أوجّه عبادتي إلى الله، ولا أشرك به في عبادته أحداً ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو﴾ يعني: إلى الله، أو إلى الإقرار بتوحيده وصفاته، وتوجيه العبادة إليه وحده أدعو ﴿وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾[1]

---

(١) لم يثبت ياء «مآب» أحد من السبعة. وقرأ «أكلها» بسكون الكاف الحرميان وأبو عمرو.

أي: إليه مرجعي ومصيري أي: أرجع وأصير إلى حيث لا يملك الضرّ والنفع إلاّ هو وحده، فإنّه لا يملك يوم القيامة الأمر أحداً من عباده، كما ملكهم في الدنيا.

﴿وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْماً عَرَبِيّاً﴾ أي: كما أنزلنا الكتب إلى من تقدّم من الأنبياء بلسانهم، أنزلناه إليك حكمة عربيّة أي: جارية على مذاهب العرب في كلامهم، يعني القرآن. فالحكم هيهنا بمعنى الحكمة كما في قوله: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ وَالنُّبُوَةَ﴾ وقيل: إنّما سمّاه حكماً؛ لما فيه من الأحكام في بيان الحلال و الحرام، وسمّاه عربيّاً؛ لأنّه أتى به نبيّ عربيّ.

﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ خطاب للنبيّ ﷺ والمراد به: الأمّة أي: لئن وافقت وطلبت أهواء الذين كفروا. والأهواء: جمع الهوى، وهو ميل الطباع إلى شيء بالشهوة ﴿بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنْ الْعِلْمِ﴾ بالله تعالى؛ لأنّ ما آتيناك من الدلالات والمعجزات موجب للعلم الذي يزول معه الشبهات. ﴿مَا لَكَ مِنْ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: ناصر يعينك عليه، ويمنعك من عذابه. ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يقيك منه ﴿مِنْ وَلِيٍّ﴾ في موضع رفع، ومِن: مزيدة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾

القراءة: قرأ أهل البصرة، وابن كثير، وعاصم: يثبت ـ بالتخفيف ـ. وقرأ

الباقون: يثّبت ـ بالتشديد ـ[١].

﴿الحجّة﴾: قال أبو عليّ: المعنى: يمحو ما يشاء ويثبته، فاستغني بتعدية الأوّل من الفعلين، عن تعدية الثاني، ومثل ذلك: ﴿وَٱلْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَافِظَاتِ وَٱلذَّاكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيراً وَٱلذَّاكِرَاتِ﴾. وزعم سيبويه أنّ من العرب من يعمل الأوّل من الفعلين، ولا يعمل الثاني في شيء من كلامهم، كقولهم: متى رأيت، أو قلت: زيداً منطلقاً. قال الكميت:

بِأَيِّ كِتَابٍ، أَمْ بِأَيَّةِ سُنَّةٍ ... تَرىٰ حُبَّهُمْ عاراً عَلَيَّ، وَتَحْسَبُ[٢]

فلم يعمل الثاني. وهذا والله أعلم فيما يحتمل النسخ و التبديل من الشرائع الموقوفة على المصالح، على حسب الأوقات. فأمّا غير ذلك، فلا يمحى، ولا يبدّل. وحجّة من قال: يُثَبّت، قوله: وأشدّ تثبيتاً. وحجّة من قرأ: يُثْبت: ما روي عن عائشة: كان رسول الله ﷺ، إذا صلّى صلاة أثبتها، وقوله: ثابت حيث قال: يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، لأنّ ثبت مطاوع أثبت.

﴿النزول﴾: قال ابن عباس: عيّروا رسول الله ﷺ، بكثرة تزويج النساء، وقالوا: لو كان نبيّاً لشغلته النبوّة عن تزويج النساء، فنزلت الآية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ﴾.

﴿المعنى﴾: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمّد ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً﴾ أي: نساء وأولاداً أكثر من نسائك وأولادك، وكان لسليمان عليه السلام ثلاث مائة إمرأة مهيرة، وسبعمائة سرية، ولداود عليه السلام مائة إمرأة، ـ عن ابن عباس ـ. أي: فلا ينبغي أن يستنكر منك أن تتزوّج، ويولد لك، وروي أنّ أبا عبدالله عليه السلام قرأ هذه

---

(١) إتّفقوا على قطع «إنْ» الشرطيّة عن «ما» في «ان ما نرينّك» ووصل ماسوى ذلك من مثله في هذه السورة.

(٢) البيت لكميت، ومضى مراراً.

الآية، ثمّ أومى إلى صدره، فقال: نحن والله ذريّة رسول الله ﷺ.

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ﴾ أي: لم يكن لرسول يرسله الله أن يجيء بآية ودلالة، إلاّ بعد أن يأذن الله في ذلك، ويطلق له فيه.

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ ذكر فيه وجوه: **أحدها**: إنّ معناه: لكل أجل مقدّر كتاب أثبت فيه، ولا تكون آية إلاّ بأجل قد قضاه الله في كتاب، على وجه ما يوجبه التدبير. فالآية التي إقترحوها لها وقت أجله الله، لا على شهواتهم وإقتراحاتهم، ـ عن البلخي ـ.

والثاني: لكل أمر قضاه الله كتاب كتبه فيه، فهو عنده كأجل الحياة، والموت، وغير ذلك، ـ عن أبي عليّ الجبائيّ ـ. **والثالث**: إنّه من المقلوب والمعنى: لكل كتاب ينزل من السماء أجل ينزل فيه، ـ عن ابن عباس، والضحّاك ـ، ومعناه: لكل كتاب وقت يعمل به، فللتوراة وقت، وللإنجيل وقت، وكذلك القرآن[1].

﴿ يَمْحُوا اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ قيل في المحو والإثبات أقوال:

أحدها: إنّ ذلك في الأحكام من الناسخ والمنسوخ، ـ عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وابن جريج، وهو اختيار أبي عليّ الفارسيّ ـ.

والثاني: إنّه يمحو من كتاب الحفظة المباحات، وما لا جزاء فيه، ويثبت ما فيه الجزاء من الطاعات والمعاصي، ـ عن الحسن، والكلبي، والضحّاك، عن ابن عباس، والجبائي ـ.

والثالث: إنّه يمحو ما يشاء من ذنوب المؤمنين فضلاً، فيسقط عقابها، ويثبت ذنوب من يريد عقابه عدلاً، ـ عن سعيد بن جبير ـ.

---

(١) وقته إلى الساعة.

الرابع: إنّه عامّ في كل شيء، فيمحو من الرزق، ويزيد فيه، ومن الأجل، ويمحو السعادة والشقاوة، ويثبتهما، ـ عن عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأبي وائل، وقتادة ـ. وأمّ الكتاب: أصل الكتاب الذي أثبت فيه الحادثات والكائنات.

وروى أبو قلابة عن ابن مسعود، أنّه كان يقول: أللهمّ إن كنت كتبتني في الأشقياء، فأمحني من الأشقياء، وأثبتني في السعداء. فإنّك تمحو ما تشاء، وتثبت وعندك أم الكتاب. وروي مثل ذلك عن أئمّتنا [عليهم السلام] في دعواتهم المأثورة. وروى عكرمة عن ابن عباس، قال: هما كتابان، كتاب سوى أمّ الكتاب، يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وأمّ الكتاب لا يغيّر منه شيء. ورواه عمران بن حصين، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وروى محمّد بن مسلم، عن أبي جعفر قال: سألته عن ليلة القدر، فقال: ينزل الله فيها الملائكة والكتبة إلى السماء الدنيا، فيكتبون ما يكون من أمر السنة، وما يصيب العباد، وأمر ما عنده موقوف له سبحانه فيه المشيئة، فيقدّم منه ما يشاء، ويؤخّر ما يشاء، ويمحو ويثبت، وعنده أمّ الكتاب.

وروى الفضيل قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: العلم علمان: علم علّمه ملائكته ورسله وأنبياءه، وعلم عنده مخزون لم يطّلع عليه أحد، يحدث فيه ما يشاء[1]. وروى زرارة عن حمران، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: هما أمران: موقوف ومحتوم، فما كان من محتوم أمضاه، وما كان من موقوف فله فيه المشيئة، يقضي

---

(١) وعلى ذلك ينبغي أن يحمل ماورد في الأحاديث من البداء، لا على المعنى الذي يتبادر من هذه الكلمة، وأنكرنا القول به فيما مضى، وذلك لأنّ الله تعالى لايندم على شيء، ولايظهر له شيء بعد الخفا، ولايخبر بشيء على لسان أوليائه وحججه فيكذبهم، فإنّ ذلك كلّه نقص عليه وعلى حججه، وتكذيب حججه فيما أخبروا به ينافي اللطف؛ لأنّه يوجب تزلزل إيمان الناس بهم، كماورد في الكافي فما يمحوه يمحوه قبل أن يعلم به أحداً. وحديث إسماعيل، وإمامته، خبر واحد لاحجّية فيه، مناف لتعيين الأئمّة بأسمائهم من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كما ورد.

فيه ما يشاء.

والخامس: إنّه في مثل تقتير الأرزاق، والمحن، والمصائب، يثبته في أمّ الكتاب، ثمّ يزيله بالدعاء والصدقة، وفيه حثّ على الإنقطاع إليه سبحانه.

والسادس: إنّه يمحو بالتوبة جميع الذنوب، ويثبت بدل الذنوب حسنات، يبيّنه قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولٰئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ ـ عن عكرمة ـ.

والسابع: إنّه يمحو ما يشاء من القرون، ويثبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ﴾ وقوله: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ وروي ذلك عن عليّ عليه السلام.

والثامن: إنّه يمحو ما يشاء يعني: القمر، ويثبت يعني: الشمس، وبيانه: ﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ ٱللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ـ عن السدّي ـ. وأمّ الكتاب: هو اللوح المحفوظ الذي لا يغيّر ولا يبدّل؛ لأنّ الكتب المنزلة إنتسخت منه، فالمحو والإثبات إنّما يقع في الكتب المنتسخة، لا في أصل الكتاب، ـ عن أكثر المفسّرين ـ.

وقيل: إن إبن عباس سأل كعباً عن أمّ الكتاب، فقال: علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون فقال لعلمه: كن كتاباً، فكان كتاباً. وقيل: إنّما سمّي أمّ الكتاب؛ لأنّه الأصل الذي كتب فيه أولاً سيكون كذا وكذا لكل ما يكون، واذا وقع، كتب أنّه قد كان ما قيل أنّه سيكون. والوجه في ذلك ما فيه من المصلحة والإعتبار لمن تفكّر فيه من الملائكة، الذين يشاهدونه إذا قابلوا ما يكون بما هو مكتوب فيه، وعلموا أنّ ما يحدث على كثرته، قد أحصاه الله تعالى وعلمه، قبل أن يكون. مع أنّ ذلك أهول في الصدور، وأعظم في النفوس، حتى كان من تصوّره وفكّر فيه شاهداً له.

﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمّد ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أي: نعد هؤلاء الكفّار من نصر المؤمنين عليهم بتمكينك منهم بالقتل والأسر، واغتنام الأموال ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ أي: ونقبضنّك إلينا قبل أن نريك ذلك. وبيّن بهذا أنّه يكون بعض ذلك في حياته، وبعضه بعد وفاته، أي: فلا تنتظر أن يكون جميع ذلك في أيّام حياتك، وأن يكون ممّا لا بدّ أن تراه.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي: عليك أن تبلغهم ما أرسلناك به إليهم، وتقوم بما أمرناك بالقيام به، وعلينا حسابهم ومجازاتهم، والإنتقام منهم، إمّا عاجلاً، وإمّا آجلاً. وفي هذه دلالة على أنّ الإسلام سيظهر على سائر الأديان، ويبطل الشرك في أيّامه، وبعد وفاته. وقد وقع المخبر به على وفق الخبر.

﴿النَّظْمُ﴾: إتّصلت الآية الأولى بما تقدّمها من قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِن رَبِّهِ﴾ فبيّن سبحانه أنّه بشر، كما أنّ الرسل الذين كانوا قبله كانوا بشراً، والبشر لا يقدر على الآيات، بل إنّما يأتي الله سبحانه بها إذا إقتضت المصلحة ذلك، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّه لمّا تقدّم ذكر إرساله، بيّن سبحانه أنّه أرسل قبله بشراً، كما أرسله، فحاله مثل حالهم، ـ عن القاضي ـ. وإنّما إتّصلت الآية الثانية بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾؛ لأنّ الظاهر إقتضى أن يكون كل مكتوب لا يجوز محوه، فبيّن سبحانه أنّه يمحو ما يشاء ويثبت؛ لئلاّ يتوهّم أنّ المعصية مثبتة مع التوبة، كما أنّما كذلك قبل التوبة، ـ عن عليّ بن عيسى ـ. وقيل: لمّا نزلت: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ قالت قريش: ما نراك يا محمّد تملك شيئاً، فلقد فرغ من الأمر؟ فأنزل هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم، إنّا لو شئنا أحدثنا من أمرنا ما شئنا، ونمحو ونثبت في ليلة القدر ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم، ـ عن مجاهد ـ. وإنّما إتّصل قوله: ﴿وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ﴾ الآية، بما قبله من وعيد الله بالعذاب، فبيّن سبحانه أنّه يفعل ذلك لا محالة، إمّا في حياته، أو بعد وفاته، بشارة له، وقيل: إنّه لمّا

تقدّم أنّ لكلّ أجل كتاباً، بيّن أنّ لعذابهم وقتاً سيفعله فيه لا محالة، إمّا في حياته، أو بعد وفاته.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

القراءة: قرأ أهل الحجاز، وأبو عمرو: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكافِرُ﴾ ـ على لفظ الواحد ـ. والباقون: ﴿الْكُفَّارُ﴾ ـ على الجمع ـ. وفي الشواذّ، قراءة النبيّ صلى الله عليه وآله، وعليّ[1]، وابن عباس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وابن أبي إسحاق، والضحّاك، والحكم بن عيينة: ﴿وَمِنْ عِنْدِهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ـ بكسر الميم والدال ـ. وقراءة عليّ عليه السلام، والحسن، وابن السميفع: ﴿وَمَنْ عِنْدَ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

الحجة: قال أبو عليّ: العلم في قوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ﴾ هو المتعدّي إلى

---

(١) فإن قيل: كيف تركوا قرائة النبيّ صلى الله عليه وآله وأخذوا بقرائة السبعة. قلنا: نسبة هذه القرائة إليه صلى الله عليه وآله مشكوكة لنقلها بطريق الآحاد، ولا يثبت القرآن إلاّ بالتواتر. فإن قيل: قرائة القرّاء السبعة أيضاً لم ينقل إلينا متواتراً عن النبيّ صلى الله عليه وآله، بل هي متواترة عنهم فقط. قلنا: يكفي التواتر منهم إلينا، بعدما علمنا كونهم متصدّرين للاقراء في عصر الأئمة عليهم السلام، وأخذ الناس منهم من غير نكير، ونقل القرائة إليهم من الصحابة متواتراً، أو مقروناً بقراين موجبة لليقين لهم.

مفعولين، بدلالة تعليقه، ووقوع الإستفهام بعده، تقول: علمت لمن الغلامُ، فتعلّقه مع الجارّ، كما تعلّقه مع غيره في نحو: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدّارِ﴾، وموضع الجارّ مع المجرور نصب، من حيث سدّ الكلام الذي هو فيه مسدّ المفعولين، لا من حيث حكمت في نحو: مررت بزيد، بأنّ موضعه نصب. ولكن اللام الجارّة كانت متعلّقة في الأصل بفعل، فكان مثل: علمت بمن تمرّ، في أنّ الجارّ يتعلّق بالمرور، والجملة التي هي منها في موضع نصب، وقد علّق الفعل عنها، فأمّا من قرأ: الكافر، فإنّه جعل «الكافر» إسماً شائعاً، كالإنسان في قوله: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾. وزعموا أنَّ لا ألف فيه[1]، وهذا الحذف إنّما يقع في كل فاعل نحو: خالد وصالح، ولا يكاد الحذف في «فُعّال». وزعموا أنّ في بعض الحروف: وسيعلم الذين كفروا، فهذا يقوي الجمع. وقد جاء فاعل، يراد به إسم الجنس. أنشد أبو زيد:

إنْ تَبْخَلي يا جُمْلُ، أوْ تَعْتَلِّي ... وَتُصْبِحِي فِي الظَّاعِنِ المُوَلِّي[2]

فهذا إنّما يكون في الكثرة، وليس المراد: على كافر واحد. والجمع الذي هو الكفّار المراد في الآية، لا إشكال فيه. فأمّا من قرأ: ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ فمعناه: ومن فضله ولطفه علم الكتاب. ومن قرأ: ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ فالمعنى مثل ذلك، إلاّ أنّ الجارّ هيهنا يتعلّق بعلم وفي الأوّل بمحذوف. وعلم الكتاب: مبتدأ ومرفوع؛ بالظرف، على ما تقدّم ذكره في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾.

(اللغة): النقص: أخذ الشيء من الجملة، ثمّ يستعمل في نقصان المنزلة. والطرف: منتهى الشيء، وهو موضع من الشيء ليس وراءه ما هو منه. وأطراف الأرض: نواحيها. والتعقيب: ردّ الشيء بعد فصله، ومنه: عقب العقاب على صيده:

---

(١) في الكتابة.

(٢) جمل: علم إمرأته.

إذا ردّ الكرور عليه بعد فصله عنه، ومنه: قول لبيد:

طلب المعقّب حقّه المظلوم

والمكر: الفتل عن البغية بطريق الحيلة. والشهيد والشاهد واحد، إلاّ أنّ في شهيد مبالغة. والشهادة: البيّنة على صحّة المعنى من طريق المشاهده.

﴿الإعراب﴾: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾: جملة منصوبة الموضع؛ على الحال، وكذلك قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ والباء في قوله: ﴿كَفَى بِاللهِ﴾ زائدة. قال عليّ بن عيسى: دخلت لتحقيق الإضافة من وجهين: جهة الفاعل، وجهة حرف الإضافة، وذلك أنّ الفعل لمّا جاز أن يضاف إلى غير فاعله، بمعنى أنّه أمر به، أزيل هذا الإحتمال بهذا التأكيد، ونظيره في تأكيد الإضافة: قوله: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾.

﴿المعنى﴾: ثمّ ذكر سبحانه ما يكون للكفّار كالبينة على الإعتبار، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا﴾ أي: نقصدها ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ وأختلف في معناه على أقوال:

أحدها: أو لم ير هؤلاء الكفّار أنّا ننقص أطراف الأرض بإماتة أهلها ومجازه ننقص أهلها من أطرافها كقوله: ﴿واسأل القرية﴾. أي: أفلا يخافون أن نفعل مثل ذلك بهم، ـ عن ابن عباس، وقتادة، وعكرمة ـ.

وثانيها: ننقصها بذهاب علمائها وفقهائها، وخيار أهلها، ـ عن عطا، ومجاهد، والبلخي، وروي نحو ذلك عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وعن أبي عبد الله عليه السلام ـ. وقال عبد الله بن مسعود: «موت العالم ثلمة في الإسلام لا يسدّها شيء ما أختلف الليل والنهار».

وثالثها: إنّ المراد: نقصد الأرض، ننقصها من أطرافها بالفتوح على المسلمين، معناه: فننقص من أهل الكفر، ونزيد في المسلمين، يعني ما دخل في الإسلام من بلاد الشرك، ـ عن الحسن، والضحّاك: ومقاتل ـ. قال الضحّاك أو لم ير

أهل مكّة أنّا نفتح لمحمّد ﷺ، ما حولها من القرى.

وقال الزجّاج: علم الله تعالى أنّ بيان ما وعد المشركون من قهرهم قد ظهر أي: أفلا يخافون أن نفتح لمحمّد ﷺ أرضهم، كما فتحنا له غيرها، وقد روي ذلك أيضاً عن ابن عباس. قال القاضي: وهذا القول أصحّ؛ لأنّه يتّصل بما وعده من إظهار دينه، ونصرته.

ورابعها: إنّ معناه: أو لم يروا ما يحدث في الدنيا من الخراب بعد العمارة، والموت بعد الحياة، والنقصان بعد الزيادة، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَاللهُ يَحْكُمُ﴾ أي: يفصل الأمر ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ ولا رادّ لقضائه، ـ عن ابن عباس ـ، ومعناه: لا يعقّب أحد حكمه بالردّ والنقض ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: سريع المجازاة على أفعال العباد على الطاعات بالثواب، وعلى المعاصي بالعقاب.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ مكرهم يضمحلّ عند نزول العذاب بهم، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يريد أنّ الكفّار الذين كانوا قبل هؤلاء، قد مكروا بالمؤمنين، وإحتالوا في كفرهم، ودبّروا في تكذيب الرسل بما في وسعهم، فأبطل الله مكرهم، كذلك يبطل مكر هؤلاء.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعاً﴾ أي: له الأمر والتدبير جميعاً، فيردّ عليهم مكرهم بنصب الحجج لعباده. وقيل: معناه: فالله يملك الجزاء على المكر، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: يريد بالمكر: ما يفعل الله تعالى بهم من المكروه، ـ عن الجبائي ـ.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فلا يخفى عليه ما يكسبه الإنسان من خير وشرّ؛ لأنّه عالم بجميع المعلومات. وقيل: يعلم ما يمكرونه في أمر الرسول ﷺ، فيبطل أمرهم، ويظهر أمره ودينه ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ هذا تهديد لهم بأنّهم سوف يعلمون من تكون له عاقبة الجنّة، حين يدخل المؤمنون الجنّة،

والكافرون النار، وقيل: معناه: وسيعلمون لمن العاقبة المحمودة لكم أم لهم، إذا أظهر الله دينه.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لك يا محمّد ﴿لَسْتَ مُرْسَلاً﴾ من جهة الله تعالى إلينا ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: كفى الله شاهداً بيني وبينكم بما أظهر من الآيات، وأبان من الدلالات على نبوّتي.

﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: قيل فيه أقوال:

أحدها: إنّ من عنده علم الكتاب هو الله، ـ عن الحسن، والضحّاك، وسعيد بن جبير ـ. وإختاره الزجّاج، قال: ويدلّ عليه قراءة من قرأ: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

والثاني: إنّ المراد به: مؤمنو أهل الكتاب، منهم: عبدالله بن سلام، وسلمان الفارسيّ، وتميم الداري، ـ عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وإختاره الجبائي ـ. وأنكر الأوّلون هذا القول بأن قالوا: السورة مكّيّة، وهؤلاء أسلموا بعد الهجرة.

والثالث: إنّ المراد به: عليّ بن أبي طالب، وأئمّة الهدى عليهم السلام، ـ عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام ـ.

وروي عن ير[بر]يد بن معاوية، عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال: إيّانا عني، وعليّ عليه السلام أوّلنا، وأفضلنا، وخيرنا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله. وروى عنه عبد الله بن كثير، أنّه وضع يده على صدره، ثمّ قال: عندنا والله علم الكتاب كمّلاً. ويؤيّد ذلك ما روي عن الشعبي أنّه قال: ما أحد أعلم بكتاب الله بعد النبيّ من عليّ بن أبي طالب عليه السلام ومن الصالحين من أولاده. وروى عاصم بن أبي النجود[1]، عن أبي عبد الرحمن

---

(١) عاصم بن أبي النجود بهدلة: هو الذي فاق جميع القرّاء شهرة، والقرائة المعروفة هي القرائة المنقولة عن حفص عنه، وهي راجحة على قرائة غيره بجهات، وأخذ عن زر بن حبيش، عن ←

السُلَمي قال: ما رأيت أحداً أقرأ من عليّ بن أبي طالب عليه السلام للقرآن. وروى أبو عبدالرحمن أيضاً عن عبد الله بن مسعود قال: لو كنت أعلم أنّ أحداً أعلم بكتاب الله منّي لأتيته. قال: فقلت له: فعليّ؟ قال: أو لم آته؟!

← أبي عبدالرحمن السلمي، عن أمير المؤمنين عليه السلام. ويحقّ لذلك أن نقول هذه القرائة المشهورة هي قرائة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام. وقال العلاّمة في التذكرة: ويجب أن يقرء بالمتواتر من الآيات، وما تضمّنه مصحف عليّ عليه السلام؛ لأنّ أكثر الصحابة إتّفقوا عليه، وحرق عثمان ماسواه، إنتهى. ولاشكّ أنّ أبا عبدالرحمن أخذ قرائته عنه عليه السلام من هذا المصحف الموجود بأيدينا فعلاً.

سورة إبراهيم

قال ابن عباس، وقتادة، والحسن: هي مكّيّة إلاّ آيتان نزلتا في قتلى بدر من المشركين ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ ٱللهِ كفراً﴾ إلى قوله: ﴿فَبِئْسَ الْقَرَار﴾.

عَدَدُ آيِهَا: خمس وخمسون آية شاميّ، أربع حجازيّ، آيتان كوفيّ، آية بصريّ.

اخْتِلَافُهَا: سبع آيات إلى النور في الموضعين حجازيّ وشاميّ، وعاد وثمود: حجازيّ بصريّ، وخلق جديد: كوفيّ شاميّ، والمدنيّ الأوّل. وفرعها في السماء: غير المدنيّ الأوّل. والليل والنهار: غير البصريّ، عمّا يعمل الظالمون: شاميّ.

فَضْلُهَا: أبيّ ابن كعب قال: رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة إبراهيم عليه السلام والحجر، أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من عبد الأصنام، وبعدد من لم يعبدها». وروى عيينة [عنبسة] بن مصعب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «من قرأ سورة إبراهيم والحجر في ركعتين جميعاً في كل جمعة، لم يصبه فقر، ولا جنون، ولا بلوى».

تَفْسِيرُهَا: لمّا ختم الله سورة الرعد بإثبات الرسالة، وإنزال الكتاب، إفتتح هذه السورة ببيان الغرض في الرسالة والكتاب، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد ﴿١﴾ الله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد ﴿٢﴾ الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا أولئك في ضلال بعيد ﴿٣﴾

ثلاث آيات عراقيّ وأربع آيات حجازيّ شاميّ.

القراءة: ﴿الله الذي﴾ ـ بالرفع ـ، مدنيّ شاميّ. والباقون: بالجرّ.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ بالجرّ، جعله بدلاً من ﴿الحميد﴾، ولم يكن صفة؛ لأنّ الإسم وإن كان مصدراً في الأصل، والمصادر يوصف بها كما يوصف بأسماء الفاعلين، فكذلك كان هذا الإسم في الأصل الإله، ومعناه: ذو العبادة أي: العبادة تجب له. قال أبو زيد: التألّه: التنسّك. وأنشد لرؤبة.

سبّحن وإسترجعن عن تألّهى

فهذا في أنّه في الأصل مصدر قد وصف به مثل: السلام والعدل، إلاّ أنّ هذا الإسم غلب حتى صار في الغلبة لكثرة إستعمال هذا الإسم كالعلم، وقد يغلب ما

أصله الصفة فيصير بمنزلة العلم، قال:

وَنَـابِغَةُ الْـجَعْدِيُّ بِـالرَّمْلِ بَـيْتُهُ عَلَيْهِ صَفِيحٌ مِنْ تُرَابٍ وَجـنْدَلِ[١]

والأصل: النابغة، ولمّا غلب، نزع منه الألف واللام، كما ينزع من الأعـلام نحو: زيد وجعفر، وربما أستعمل في هذا النحو الوجهان، قال:

تُـقَعِّدُهُمْ أَعْـرَاقُ حِـذْيَمَ بَـعْدَمَا رَجَا الهُتْمُ إدْرَاكَ الْعُلىٰ وَالْمَكَارِمِ(١)

وقال:

وجلت عن وجوه الأهاتم

ومن قرأ بالرفع، قطعه من الأوّل، وجعل الذى الخبر، أو جعله صفة، وأضمر الخبر. ومثل ذلك في القطع: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ﴾. ومـن قـطع ورفع، جعل قوله: ﴿لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ﴾ خبراً لقوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾. ومن جرّ أجرى ﴿عالم الغيب﴾ صفة على الأوّل، وعلى هذا يجوز ﴿مَـنْ بَـعَثَنَا مِـن مَّرْقَدِنَا هٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ﴾ أي: إن شئت جعلت هذا صفة لقوله: ﴿مِنْ مَّرْقَدِنَا﴾ وأضمرت خبراً لقوله: ﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ﴾. وان شئت جعلت قوله: ﴿هٰذَا﴾ إبتداء، و﴿مَا وَعَدَ الرَّحْمٰنُ﴾ خبراً.

العزيز: القادر الأشياء، الممتنع بقدرته من أن يضام. والحميد: المحمود على كل حال. والإستحباب: طلب محبّة الشيء بالتعرّض لها، والمـحبّة إرادة مـنافع المحبوب، وقد يستعمل بمعنى: ميل الطباع والشهوة. والبغية والإبتغاء: الطلب.

---

(١) الأهتم: مكسور الثنايا، والهتم: جمعه. أراد به قوماً بأعيانهم يقول يـريدون إدراك العـلى، لكن يقعدهم عنه نسبتهم الى حذيم، رجل لئيم. وقوله: جلت عن وجوه الاهلتم، شطر من بيت للفرزدق مضى.

[١] الجندل: الحجارة.

المعنى: ﴿الر﴾ قد ذكرنا معاني الحروف المقطّعة في أوائل السور، وذكرنا إختلاف الأقاويل فيه في أوّل البقرة ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن، نزل به جبرائيل عليه السلام من عند الله تعالى، أي: هذا كتاب منزل إليك يا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، ليس بسحر، ولا بشعر.

﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ﴾ أي: جميع الخلق ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ أي: من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بإطلاق الله ذلك وأمره به. وفي هذا دلالة على أنّه سبحانه يريد الإيمان من جميع المكلّفين؛ لأنّ اللام لام الغرض، ولا يجوز أن يكون لام العاقبة؛ لأنّه لو كان ذلك لكان الناس كلّهم مؤمنين، والمعلوم خلافه.

ثمّ بيّن سبحانه ما النور؟ فقال: ﴿إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ أي: يخرجهم من ظلمات الكفر، إلى طريق الله المؤدّي إلى معرفة الله المنيع في سلطانه، المحمود في فعاله ونعمه التي أنعم بها على عباده.

﴿اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي: له التصرّف فيهما على وجه لا إعتراض عليه. ﴿وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ أخبر أنّ الويل للكافرين الذين يجحدون نعم الله، ولا يعترفون بوحدانيّته، من عذاب تتضاعف آلامُهُ.

ثمّ وصف الكافرين بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ أي: يختارون المقام في هذه الدنيا العاجلة، على الكون في الآخرة، وإنّما دخلت ﴿عَلَى﴾ لهذا المعنى. وذمّهم سبحانه بذلك؛ لأنّ الدنيا دار إنتقال وفناء، والآخرة دار مقام وبقاء.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: يمنعون غيرهم من إتّباع الطريق المؤدي

إلى معرفة الله، ويجوز أن يريد أنّهم يعرضون بنفوسهم عن إتّباعها ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ أي: عدولاً عن الإستقامة. و«السبيل» يذكّر ويؤنّث. وقيل: معناه: يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأنّ نعمة الله لاتستمدّ إلاّ بطاعته دون معصيته ﴿أُوْلَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي: في عدول عن الحقّ، بعيد عن الإستقامة والصواب.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرۡهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿٥﴾ وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ﴿٦﴾

[اللغة]: التذكير: التعريض للذكر الذي هو خلاف السهو. والصبّار: كثير الصبر.

[الإعراب]: أنْ أخرِج: يحتمل أن تكون «أنْ» بمعنى «أي» على وجه التفسير، ويصلح أن تكون «أنْ» التي توصل بالأفعال، إلاّ أنّها وصلت هيهنا بالأمر،

والتأويل: الخبر، كما تقول: أنت الذي فعلت، والمعنى: أنت الذي فعل. ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾: جملة في موضع الحال.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أنّه إنّما يرسل الرسل إلى قومهم بلغتهم؛ ليكون أقرب إلى الفهم، وأقطع للعذر، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: لم يرسل فيما مضى من الأزمان، رسولاً إلاّ بلغة قومه، حتى إذا بيّن لهم فهموا عنه، ولا يحتاجون إلى من يترجمه عنه، وقد أرسل الله تعالى نبيّنا محمّداً ﷺ إلى الخلق كافّة بلسان قومه، وهم العرب بدلالة قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً﴾. قال الحسن: إمتنّ الله على نبيّه محمّد ﷺ أنّه لم يبعث رسولاً إلا إلى قومه، وبعثه خاصّة إلى جميع الخلق، وبه قال مجاهد، وقيل: إنّ معناه: أنّا كما أرسلناك إلى العرب بلغتهم؛ لتبيّن لهم الدين، ثمّ أنّهم يبيّنونه للناس، كذلك أرسلنا كل رسول بلغة قومه؛ ليظهر لهم الدين.

ثمّ إستأنف، فقال: ﴿فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ﴾ عن طريق الجنّة إذا كانوا مستحقّين للعقاب ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إلى طريق الجنّة، وقيل: يلطف لمن يشاء ممّن له لطف، ويضلّ عن ذلك من لا لطف له. فمن تفكّر وتدبّر، إهتدى وثبّته الله، ومن أعرض عنه خذله الله ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ظاهر المعنى.

ثمّ ذكر سبحانه إرسال موسى عليه السلام فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا﴾ أي: بالمعجزات، والدلالات ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ أي: بأن أخرج قومك ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ مرّ معناه أي: أمرناه بذلك. وإنّما أضاف الإخراج إليه؛ لأنّهم بسبب دعائه خرجوا من الكفر إلى الإيمان.

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: إنّ معناه: وأمرناه بأن يذكّر قومه وقائع الله في الأمم الخالية،

وإهلاك من أهلك منهم؛ ليحذروا ذلك ـ عن ابن زيد، والبلخي، ويعضده قول عمرو ابن كلثوم:

وَأَيَّـامٍ لَـنَا غُـرٍّ طِـوَالٍ عَصَيْنَا الْمَلْكَ فيها أنْ نَدِينا

فيكون المعنى: الأيّام التي إنتقم الله فيها من القرون الأولى.

والثاني: إنّ المعنى: ذكّرهم بنعم الله سبحانه في سائر أيّامه، ـ عن ابن عباس، وأبيّ بن كعب، والحسن، ومجاهد، وقتادة، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام.

والثالث: إنّه يريد بأيّام الله سننه وأفعاله في عباده من إنعام وإنتقام. وكّني بالأيّام عنهما؛ لأنّها ظرف لهما، جامعة لكل منهما، ـ عن أبي مسلم ـ. وهذا جمع بين القولين المتقدّمين.

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ التذكير ﴿ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أي: دلالات لكل من كان عادته الصبر على بلاء الله، والشكر على نعمائه، وإنّما جمع بينهما؛ لأنّ حال المؤمن لا يخلو من نعمة يجب شكرها، أو محنة يجب الصبر عليها، فالشكر والصبر من خصال المؤمنين، فكأنّه قال: لكل مؤمن. ولأنّ التكليف لا يخلو من الصبر والشكر.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ والتقدير: وأذكر يا محمّد إذ قال موسى لهم: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُمْ ﴾ أي: في الوقت الذي أنجاكم ﴿ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ ﴾ أي: يذيقونكم ﴿ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ﴾ أي: يستبقونهنّ أحياء؛ للإسترقاق ﴿وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾ والآية مفسّرة في سورة البقرة. قال الفرّاء: وإنّما دخلت الواو هنا للعطف؛ لأنّهم كانوا يعذبون أنواعاً من العذاب سوى الذبح، فجاز العطف، فإذا حذفت الواو كان ﴿يذبحون﴾ تفسيراً للعذاب.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ
إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ
مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن
بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ
فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم
بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ قَالَتْ
رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ
لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا
عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ (١)

(اللغة): التأذّن: الإعلام. يقال: أذن وتأذّن، ومثله: أوعد وتوعّد. قال الحارث بن حلزة:

آذَنَتْنا بِبَيْنِها أَسْماءُ ... رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّواءُ(٢)

---

(١) أدغم «إذ تأذّن» أبو عمرو وحمزة والكسائي وهشام وخلف. وأسكن سين «رسلهم» وباء «سبُلنا» أبو عمرو. وهمزة «نبؤ الذين» مكتوب بالواو في المصاحف كلّها. ويقف حمزة عليها بإبدالها ألفاً، أو واواً، وبالتسهيل، كالواو مع الروم.

(٢) يعني: ليس أسماء مّمن يمل أحد من إقامتها، والمعاشرة معها، وربّ مقيم غيرها يملّ منه.

والنبأ: الخبر عمّا يعظم شأنه. يقال: لهذا الأمر نبأ عظيم أي: شأن. ونبأ الله محمّداً. أو تنبأ مسيلمة الكذّاب: إدّعى النبوّة. والريب: أخبث الشكّ. والمريب: المتّهم، وهو الذي يأتي بما فيه التهمة. يقال: أراب يريب: إذا أتى بما يوجب الريبة.

الإعراب: قوم نوح ومابعده مجرور؛ بأنّه بدل من قوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ و﴿فَاطِرِ﴾: مجرور؛ بأنّه صفة الله في قوله: ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾. و﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾: للتبعيض. وقيل: إنّ «مِنْ» زائده، ـ عن أبي عبيدة ـ. وأنكر سيبويه زيادتها في الإيجاب.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر النعمة، أتبعه سبحانه بذكر ما يلزم عليها من الشكر، فقال: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ التقدير: وأذكر إذ أعلم ربّكم، ـ عن الحسن، والبلخي ـ. وقيل: معناه: وإذ قال لكم ربّكم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: أخبر ربّكم، ـ عن الجبائي ـ. ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم لي على نعمي، لأزيدنكم في النعم ﴿وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ﴾ أي: جحدتم نعمتي ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ لمن كفر نعمتي. وقال أبو عبد الله عليه السلام في هذه الآية: «أيّما عبد أنعمت عليه نعمة، فأقر بها بقلبه، وحمد الله عليها بلسانه، لم ينفد كلامه حتى يأمر الله له بالزيادة».

﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا﴾ أي: تجحدوا نعم الله سبحانه ﴿أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ من الخلق، لم تضرّوا الله شيئاً، وإنّما يضرّكم ذلك بأن تستحقّوا عليه العقاب ﴿فَإِنَّ اللهَ﴾ سبحانه ﴿لَغَنِيٌّ﴾ عن شكركم ﴿حَمِيدٌ﴾ في أفعاله. وقد يكون كفر النعمة بأن يشبّه الله بخلقه، أو يجور في حكمه، أو يردّ على نبيّ من أنبيائه، فإنّ الله سبحانه قد أنعم على خلقه في جميع ذلك، بأن أقام الحجج الواضحة، والبراهين الساطعة على صحّته، وعرض بالنظر فيها للثواب الجزيل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ قيل: إنّ هذا الخطاب متوجّه إلى أمّة نبيّنا ﷺ، فذكرت بأخبار من تقدّمها من الأمم. وقيل: إنّه من قول موسى عليه السلام؛ لأنّه متّصل به في الآية المتقدّمة، والمعنى: ألم يجئكم ﴿نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ أي: أخبار من تقدّمكم.

﴿قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ﴾ أي: لا يعلم تفاصيل أحوالهم، وعددهم، وما فعلوه وفعل وهل بهم من العقوبات، إلا الله. قال ابن الأنباري: إنّ الله تعالى أهلك أمماً من العرب وغيرها، فإنقطعت أخبارهم، وعفت آثارهم، فليس يعرفهم أحد إلاّ الله. وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسّابون. وقيل: إنّ النبيّ ﷺ كان لا يجاوز في إنتسابه معد بن عدنان. فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ﴾ مبتدأ وخبراً.

﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: بالأدلّة والحجج والأحكام، والحلال والحرام. ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ إختلفوا في معناه على أقوال:

أحدها: إنّ معناه: عضّوا على أصابعهم من شدّة الغيظ؛ لأنّه ثقل عليهم مكان الرسل، ـ عن ابن مسعود، وابن عباس، والجبائي ـ.

وثانيها: إنّ معناه: جعلوا أيديهم في أفواه الأنبياء؛ تكذيباً لهم، وردّاً لما جاؤوا به. فالضمير في «أيديهم» للكفّار، وفي «أفواههم» للأنبياء، فكأنّهم لمّا سمعوا وعظ الأنبياء وكلامهم، أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل تسكيتاً لهم، ـ عن الحسن ومقاتل ـ.

وثالثها: إنّ معناه: ومنعوا أيديهم على أفواههم مُؤمين بذلك إلى الرسل أن أسكتوا عمّا تدعوننا إليه، كما يفعل الواحد منا مع غيره إذ أراد تسكيته، ـ عن الكلبي ـ. فيكون على هذا القول الضميران للكفّار.

ورابعها: إنّ كلا الضميرين للرسل أي: أخذوا أيدي الرسل، فوضعوها على أفواههم؛ ليسكتوهم، ويقطعوا كلامهم، فيسكتوا عنهم؛ لمّا يئسوا منهم، هذا كله إذا حمل معنى «الأيدي والأفواه» على الحقيقة. ومن حملها على التوسّع والمجاز، فإختلفوا في معناه: فقيل: المراد باليد: ما نطقت به الرسل من الحجج، والمعنى: فردّوا حججهم من حيث جاءت؛ لأنّ الحجج تخرج من الأفواه، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّ المعنى: ردّوا ما جاءت به الرسل، وكذّبوهم، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. وقيل: معناه: تركوا ما أمروا به، وكفروا عن قبول الحقّ، ـ عن أبي عبيده، والأخفش ـ. قال القتيبي: ولم يسمع أحد أنّ العرب تقول: ردّ يده في فيه، بمعنى: ترك ما أمر به، وإنّما المعنى: أنّهم عضّوا على الأيدي؛ حنقاً وغيظاً، كقول الشاعر:

يردّون في فيه عشر الحسود

يعني: أنّهم يغيظون الحسود حتى يعضّ على أصابعه العشر. وقال آخر:

قَدْ أَفْنىٰ أَنَامِلَهُ أَزْمَةً ... فَأَضْحىٰ يَعَضُّ عَلَيَّ الْوَظِيفا[1]

وقيل: المعنى: ردّوا بأفواههم نعم الرسل أي: وعظهم وبيانهم، فوقع في موقع الباء، ـ عن مجاهد ـ. قال الفرّاء: أنشدني بعضهم:

وَأَرْغَبُ فيها عَنْ لَقيطٍ وَرَهْطِهِ ... وَلَكِنَّني عَنْ سِنْبِسٍ لَسْتُ أَرْغَبُ[2]

قال: أراد أرغب بها يعني: بنتاً له يقول: ارغب بها عن لقيط وقبيلته.

﴿وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا﴾ أي: جحدنا ﴿بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ﴾ أي: برسالاتكم ﴿وَإِنَّا

---

(١) يعني: عضّ أنامله من شدّة المصيبة، حتى لم يبق منها شيء، فعضّ على وظيفه، وهو الموضع الدقيق حيث يتّصل الذراع بالكّف، أو الساق بالقدم.

(٢) سنبس: قبيلة. واللقيط: لايعرف له نسب. ورغب عنه: أعرض.

﴿لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ﴾ من الدين ﴿مُرِيبٍ﴾ متّهم أي: يوقعنا في الريب بكم أنّكم تطلبون الرئاسة، وتفترون الكذب.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ﴾ حينئذ لهم ﴿أَفِي اللهِ شَكٌّ﴾ مع قيام الأدلّة على وحدانيّته وصفاته ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومنشئهما لا يقدر على ذلك غيره، فوجب أن يعبد وحده، ولا يشرك به من لا يقدر على إختراع الأجسام.

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ أي: يدعوكم إلى الإيمان به؛ لينفعكم، لا ليضرّكم. وقال: من ذنوبكم، بمعنى: ليغفر لكم بعض ذنوبكم؛ لأنّه يغفر ما دون الشرك، ولا يغفر الشرك. وقال الجبائي: دخلت «مِن» للتبعيض، ووضع البعض موضع الجميع توسّعاً.

﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي: يؤخّركم إلى الوقت الذي ضربه الله لكم أن يميتكم فيه، ولا يؤاخذكم بعاجل العقاب ﴿قَالُوا﴾ أي: قال لهم قومهم ﴿إِنْ أَنْتُمْ﴾ أي: ما أنتم ﴿إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ أي: خلق مثلنا ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا﴾ أي: تمنعونا ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ من الأصنام والأوثان.

﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ﴾ أي: بحجّة واضحة على صحّة ما تدعونه، وبطلان ما نحن فيه، وإنّما قالوا ذلك؛ لأنّهم إعتقدوا أنّ جميع ما جاءت به الرسل من المعجزات، ليست بمعجزة، ولا دلالة. وقيل: إنّهم طلبوا معجزات مقترحات سوى ما ظهرت فيما بينهم.

وفي هذه الآية دلالة على أنّه سبحانه لا يريد الكفر والشرك. وإنّما يريد الخير والإيمان، وأنّه وإنّما بعث الرسل إلى الكفّار رحمة وفضلاً وإنعاماً عليهم؛ ليؤمنوا، فإنّه قال: يدعوكم ليغفركم.

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ
يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم
بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ
﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ۚ
وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا ۚ (١) وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

﴿المعنى﴾: ثمّ حكى سبحانه جواب الرسل للكفّار، فقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ في الصورة والهيئة، ولسنا ملائكة ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي: ينعم عليهم بالنبوّة، وينبئهم بالمعجزة، فلقد منّ الله علينا وإصطفانا، وبعثنا أنبياء.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ﴾ أي: بحجّة على صحّة دعوانا ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ أي: بأمره وإطلاقه لنا في ذلك ﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ المصدّقون به، وبأنبيائه ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ﴾ معناه: وأيُّ شيء لنا إذا لم نتوكّل على الله، ولم نفوّض أمورنا إليه، وعلى هذا تكون ﴿مَا﴾ للإستفهام. وقيل: إنّ معناه: ولا وجه لنا، ولا عذر لنا في أن لا نتوكّل على الله، ولا نثق به، فتكون ﴿مَا﴾ للنفي. وإذا كانت للإستفهام، فمعناه: النفي أيضاً.

﴿وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ أي: عرفنا طريق التوكّل. وقيل: معناه: هدانا إلى سبيل الإيمان، ودلّنا على معرفته، ووفّقنا لتوجيه العبادة إليه، وأن لا نشرك به شيئاً، وضمن لنا على ذلك جزيل الثواب، والمراد: أنّا إذا كنّا مهتدين، فلا ينبغي لنا أن لا نتوكّل على الله ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾ فإنّه تعالى يكفينا أمركم،

---

(١) أسكن سين «رسلهم» وباء «سبلنا» أبو عمرو.

وينصرنا عليكم.

﴿وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ وإنّما قصّ هذا وأمثاله في القرآن على نبيّنا؛ ليقتدي بمن كان قبله من المرسلين في تحمّل أذى المشركين، والصبر على ذلك، والتوكّل. وروى الواقدي بإسناده عن أبي مريم، عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا آذاك البراغيث، فخذ قدحاً من الماء، فإقرأ عليه سبع مرّات ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ﴾ الآية. وقل: فإن كنتم آمنتم بالله، فكفّوا شرّكم، وأذاكم عنّا، ثمّ ترشّ الماء حول فراشك، فإنّك تبيت تلك الليلة آمناً من شرّها.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ
أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِى وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُوا۟
وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ
مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ
وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن
وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ
أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ
مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن محيصن:

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾. وقراءة ابن أبي إسحاق: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ بالإضافة[١].

الحجة: قوله: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ معطوف على ما سبق من قوله: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ﴾ أي: وقال لهم: إستفتحوا أي: إستنصروا الله عليهم، وإستقضوه بينكم. وفي الحديث: كان ﷺ يستفتح بصعاليك[١] المهاجرين أي: يستنصر بهم. وقيل: معناه: أنّه يقدمهم. ويبدأ أمره بهم، وكأنّهم إنّما سمّوا القاضي فتاحاً؛ لأنّه يفتح باب الحقّ الذي هو مسند، فيعمل عليه، وأمّا قوله: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ فمعناه: في يوم ريح عاصف، فخذف الموصوف، وأقيمت الصفة مقامه، وكذلك في قراءة الجماعة ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ هو الريح، لا اليوم.

اللغة: الإستفتاح: طلبت الفتح بالنصر. والخيبة: إخلاف ما قدر به المنفعة، وضدّه: النجاح: وهو إدراك الطلبة. والجبريّة: طلب علوّ المنزلة بما ليس له غاية في الوصف، و إذا وصف العبد بأنّه جبّار، كان ذمّاً. وإذا وصف الله سبحانه به، كان مدحاً؛ لأنّ له علوّ المنزلة بما ليس وراءه غاية في الصفة. والعنيد: مبالغة العاند. والعناد: الإمتناع من الحقّ، مع العلم به كبراً و بغياً، قال:

إذا نَزَلْتُ فَاجْعَلاْنِي وَسَطاً ... إِنّي كَبِيرٌ لاْ أُطِيقُ الْعَنَدا

والوراء والخلف واحد: وهو الجهة المقابلة لجهة القدّام، وقد يكون وراء بمعنى: قدّام. قال:

أَيَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعي وَ طَاعَتي ... وَقَوْمِي تَمِيمٌ، وَالْفَلاَةُ وَرَائِيا

قال الزجّاج: الوراء: ما يوارى عنك، وليس من الأضداد. قال النابغة:

حَلَفْتُ وَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسي اَلِيَّةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبٌ

---

(١) أثبت ياء «وعيد» وصلاً ورش، وفي الحالين يعقوب. وقرائة ابن محيصن: واستفتِحوا ـ بكسر التاء بصيغة الأمر ـ. وقرأ «الرياح» بالجمع، نافع وأبو جعفر.

[١] الصعاليك: جمع صعلوك وهو الفقير.

والصديد: القيح يسيل من الجرح، أخذ من أنّه يصدّ عنه تكرّهاً له. والقيح: دم مختلط بمدّةٍ[١]، وقوله: ﴿صَدِيدٍ﴾ بيان «الماء الذي يسقون»، فلذلك أعرب بإعرابه. والتجرّع: تناول المشروب جرعة جرعة على الإستمرار. والإساغة: إجراء الشراب في الحلق، يقال: ساغ الشيء وأسغته أنا. والإشتداد: الإسراع بالحركة على عظم القوّة، يقال: إشتدّ به الوجع من هذا؛ لأنّه أسرع إليه على قوّة ألمه. ويوم عاصف: شديد الريح. والعصف: شدّة الريح، وإنّما جعل العصف صفة اليوم، لأنه يقع فيه كما يقال: ليل نائم، ويوم ماطر. ويجوز أن يكون المراد يوم عاصف ريحه، ومثله: جحر ضب خرب أي: خرب جحره.

﴿الإعراب﴾: ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ بمعنى «إلاّ أن»، كما يقال: لا أكلّمك أو تدعوني. وقال الفرّاء: لا يكاد يستعمل فيما يقع، وفيما لا يقع، فما يقع، مثل قوله: ﴿وَلاَ يَكَادُ يسيغه﴾ وما لم يقع، مثل قوله: ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا﴾؛ لأنّ المعنى: لم يرها. ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تقديره: فيما يتلى عليكم، مثل الذين كفروا بربّهم، فيكون رفعاً بالإبتداء، ويجوز أن يكون مثل مقحماً، كأنّك قلت: الذين كفروا بربّهم، فيكون رفعاً بالإبتداء. و﴿أَعْمَالُهُمْ﴾: رفع؛ على البدل، وهو بدل الإشتمال. و﴿كَرَمَادٍ﴾ الخبر.

﴿المعنى﴾: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ أي: من بلادنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ أي: إلاّ أن ترجعوا إلى أدياننا، ومذاهبنا التي نحن عليها ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ أي: فأوحى الله إلى رسله، لمّا ضاقت صدورهم، بما لقوا من قومهم: إنّا نهلك هؤلاء الظالمين الكافرين ﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ أي: نسكننّكم أرضهم من بعدهم، يريد:

---

[١] المدة: ما يجتمع في الجرح من القيح.

إصبروا فإنّي أهلك عدوّكم، وأورثكم أرضهم، وفي معناه: ما جاء في الحديث: «من آذى جاره ورثه الله داره».

﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي ﴾ أي: ذلك الفوز لمن خاف وقوفه للحساب والجزاء، بين يدي، في الموضع الذي أقيمه فيه، وأضاف المقام إلى نفسه؛ لأنّهم يقومون بأمره ﴿وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ أي: عقابي. وإنّما قالوا: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ وهم لم يكونوا على ملّتهم قطّ، إمّا لأنّهم توهموا على غير حقيقة أنّهم كانوا على ملّتهم، وإمّا لأنّهم ظنّوا بالنشوء أنّهم كانوا عليها.

﴿وَاسْتَفْتَحُوا﴾ أي: طلبت الرسل الفتح والنصر من قبل الله تعالى، على الكفّار ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. وقيل: هو سؤالهم أن يحكم الله بينهم و بين أممهم؛ لأنّ الفتح: الحكم، والفتّاح: الحاكم، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي: خسر كل متكبّر معاند مجانب للحقّ، دافع له. وقيل: معناه: واستفتح الكفّار العذاب الذي توعّدهم به الأنبياء على جهة التكذيب لهم ﴿ مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ ﴾ أي: جهنّم بين يدي هذا الجبّار، ـ عن الزجّاج ـ، أي: له مع الخيبة نار جهنّم بين يديه. وقيل: معناه: من خلفه، وإنّما جاز في الزمان أن يسمّي الأمام: وراء، وإن لم يجز في غيره؛ لأنّ الزمان المستقبل كأنّه خلفهم، لانه يأتي فيلحقهم كما يلحق الإنسان من خلفه.

﴿ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ أي: ويسقى ممّا يسيل من الدم والقيح من فروج الزواني في النار، ـ عن أبي عبدالله عليه السلام، وأكثر المفسّرين ـ. أو لونه لون الماء، وطعمه طعم الصديد. وروى أبو أمامة عن النبيّ صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴾ قال: يقرب إليه فيكرهه، فإذا أدني منه شوى وجهه، ووقعت فروة رأسه[١]، فإذا شرب قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره، يقول الله عزّوجلّ: ﴿وَسُقُوا

---

[١] الفروة: جلدة الرأس.

مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ ويقول: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ وقال رسول الله ﷺ: «من شرب الخمر، لم تقبل له صلاة أربعين يوماً، فإن مات وفي بطنه شيء من ذلك، كان حقّاً على الله أن يسقيه من طينة خبال[١]، وهو صديد أهل النار، وما يخرج من فروج الزناة، فيجتمع ذلك في قدور جهنّم، فيشربه أهل النار، فيصهر به ما في بطونهم والجلود». رواه شعيب بن واقد، عن الحسين بن زيد، عن الصادق عليه السلام عن آبائه عليهم السلام عنه ﷺ.

﴿ يَتَجَرَّعُهُ ﴾ أي: يشرب ذلك الصديد جرعة جرعة ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ أي: لا يقارب أن يشربه تكرّهاً له، وهو يشربه، والمعنى: أنّ نفسه لاتقبله لحرارته ونتنه، ولكن يكره عليه ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ﴾ أي: تأتيه شدائد الموت وسكراته، من كل موضع من جسده، ظاهره وباطنه، حتى تأتيه من أطراف شعره، ـ عن إبراهيم التيمي، وابن جريج ـ. وقيل: يحضره الموت من موضع، ويأخذه من كل جانب، من فوقه، ومن تحته، وعن يمينه و شماله، ومن قدّامه وخلفه، ـ عن ابن عباس، والجبائي ـ.

﴿ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ أي: ومع إتيان أسباب الموت والشدائد، التي يكون معها الموت من كل جهة، وأنواع العذاب التي كان يموت بدونها في الدنيا، لا يموت فيستريح. وهذا كقوله: ﴿لاَ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾.

﴿وَمِنْ وَرَائِهِ﴾ أي: وراء هذا الكافر ﴿عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وهو الخلود في النار. وقيل: معناه: ومن بعد هذا العذاب الذي سبق ذكره، عذاب أشدّ وأوجع ممّا تقدّم، ـ عن الكبي ـ.

ثمّ أخبر سبحانه عمّا ينال الكفّار من الحسرة فيما تكلّفوه من الأعمال،

---

[١] الخبال: عصارة أهل النار ذكره في (النهاية). وفي (اللسان) وطينة الخبال: ما سال من جلود أهل النار.

فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ وقيل: إنّ معناه: مثل أعمال الذين كفروا بربّهم، فحذف المضاف إعتماداً على ذكره بعد المضاف إليه، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: معناه: ممّا نقص عليك مثل الذين كفروا، ـ عن سيبويه ـ. ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ في قلّة إنتفاعهم بها ﴿كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾ أي: ذرته ونسفته ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ أي: شديد الريح، فكما لا يقدر أحد على جمع ذلك الرماد المتفرّق، والإنتفاع به، فكذلك هؤلاء الكفّار ﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ أي: لا يقدرون على الإنتفاع بأعمالهم، ومثل قوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً﴾.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ يعني: أنّ عملهم ذلك هو الذهاب البعيد عن النفع. وقيل: الخطأ البعيد عن الصواب، ـ عن ابن عباس ـ. وفي هذه الآية دلالة واضحة على بطلان قول المجبرة؛ لأنّه أضاف العمل إليهم، ولو كان مخلوقاً له سبحانه، لما صحّ إضافته إليهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾

القراءة: قرأ: خالق السماوات هيهنا. وفي النون [النور]: أهل الكوفة غير عاصم. والباقون: ﴿خَلَقَ﴾

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿خَلَقَ﴾: فلأن ذلك فعل ماض، فأخبر عنه بلفظ الماضي. ومن قرأ: ﴿خَالِقُ﴾ على إسم الفاعل، جعله مثل: ﴿فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ﴾؛ لأنّ «فاطر» بمعنى «خالق».

اللغة: البروز: خروج الشيء عمّا كان ملتبساً به إلى حيث يقع عليه الحسّ، يقال: برز للقتال: إذا ظهر له الضعفاء. جمع ضعيف. والضعف: نقصان القوّة، يقال: أضعفه فضعف. والإستكبار، والتكبّر، والتجبّر، واحد: وهو رفع النفس فوق مقدارها في الوصف، والتبع: جمع تابع، كالغَيَب: جمع غائب. قال الزجّاج: ويجوز أن يكون مصدراً وصف به، فيكون بمعنى: ذوي تبع. وأغنى عنه: أي: دفع عنه، فأغناه أي: نفى الحاجة عنه بما فيه كفايته. وحاص يحيص حيصاً وحيوصاً مثل: حاد. والحيد: الزوال عن المكروه. والجزع: إنزعاج النفس بورود ما يغمّ، ونقيضه: الصبر. قال:

فَإنْ تَصْبِرا فَالْصَّبْرُ خَيْرُ مَغَبّة[١] وَإنْ تَجْزَعا فَالأمْرُ مٰا تَرَيٰانِ

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أنّه إنّما خلق الخلق ليعبدوه، وليؤمنوا به، لا ليكفروا، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: ألم تعلم؛ لأنّ الرؤية قد تكون بمعنى العلم، كما تكون بمعنى الإدراك بالبصر، وهيهنا لا يمكن أن يكون بمعنى الرؤية بالبصر. والخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد به: الأمّة ﴿أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ على ما تقتضيه الحكمة. والخلق: فعل الشيء على تقدير، وترتيب ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بقوله الحقّ. وقيل: أراد للحقّ أي: للغرض الصحيح، والأمر الحقّ، وهو الدين والعبادة أي: ليعبدوه فيستحقّوا به الثواب، ـ عن ابن عباس، والجبائي ـ.

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: إن يشأ يهلككم، ويفنكم،

---

[١] مغبة الأمر: عاقبته وقد مضى البيت.

ويخلق قوماً آخرين مكانكم؛ لأنّ من قدر على بناء الشيء، كان على هدمه أقدر؛ إذا لم يخرج عن كونه قادراً ﴿وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ﴾ أي: وما إهلاككم، والإتيان بخلق جديد بممتنع، ولا متعذّر على الله تعالى.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً﴾ أخبر سبحانه أنّ الخلق يبرزون يوم القيامة لله أي: يظهرون من قبورهم، ويخرجون منها لحكم الله. فاللفظ للماضي، والمراد به: الإستقبال للتحقيق، وصحّة الوقوع. وقيل: معناه: سيبرزون لله جميعاً القادة والأتباع، ـ عن ابن عباس ـ. وهو يتّصل بقوله: ﴿ولا يكاد يسيغه﴾.

لمّا تقدّم ذلك الوعيد، بيّن صفة ذلك اليوم، وما يجري بين الأتباع والمتبوعين من المجادلة، وقال: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تكبّروا عن الإيمان، فلم يؤمنوا، وهم القادة في الدنيا الذين هم الأكابر، والرؤساء، والقادة في الدين الذين هم علماء السوء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً﴾ في الكفر على وجه التقليد ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: هل أنتم دافعون عنّا شيئاً من عذاب الله الذي قد نزل بنا، إن لم تقدروا على دفع الكلّ. ومِنْ: للتبعيض.

﴿قَالُوا لَوْ هَدَيْنَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ أي: قال المتبوعون للأتباع: لو هدانا الله إلى طريق الخلاص من العقاب، والوصول إلى النعيم والثواب، لهديناكم إلى ذلك، والمعنى: لو خلصنا لخلّصناكم أيضاً، لكن لا مطمع فيه لنا ولكم، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ. وقيل: معناه: لو هدانا الله إلى الرجعة إلى الدنيا، فنصلح ما أفسدناه، لهديناكم. وقيل: معناه: لو هدانا الله بإجابتنا إلى الطلب، لهديناكم بالمسألة له سبحانه، ذكر هذين الوجهين القاضي عبدالجبّار[١] في تفسيره.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ يعني: إنّ الصبر والجزع

---

[١] القاضي عبدالجبار: أحد علماء المعتزلة.

سيّان مثلان، ليس لنا محيص، ولا مهرب من عذاب الله، أي: إنقطعت حيلتنا، ويئسنا من النجاة. حثّ الله سبحانه في هذه الآية على النظر، وحذّر من التقليد. وإلى هذا أشار أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام في قوله للحارث الهمداني: «يا حار الحقّ لا يعرف بالرجال، إعرف الحقّ، تعرف أهله»[١].

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم ۖ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

القراءة: قرأ حمزة وحده[١]: ﴿بِمُصْرِخِيَّ﴾ ـ بكسر الياء ـ. والباقون: بفتحها.

الحجة: قال أبو عليّ: قال الفرّاء في كتابه في التصريف: هو قراءة الأعمش، ويحيى بن وثاب، قال: وزعم القاسم بن معن أنّه صواب، قال: وكان ثقة بصيراً، وزعم قطرب أنّه لغة من بني يربوع يزيدون على ياء الإضافة ياء. وأنشد:

ماضٍ إذا ما هَمَّ بِالمُضِيِّ ... قال لَهَا هَلْ لَكَ يا نَاقِيِّ

---

(١) يعني من القرّاء السبعة أو العشرة. وقال في الاتحاف: إنّه قرائة يحيى بن وثاب، وحمران بن أعين، وجماعة من التابعين. وحمران بن أعين: أخو زرارة ـ من أصحاب الصادق عليه السلام ـ كان نحويّاً قارئاً، وهو استاد حمزة. وأثبت ياء «أشركتمون» وصلاً أبو عمرو وأبو جعفر. وفي الحالين يعقوب. وفتح الياء من «لي عليكم» حفص وحده.

[١] رواه الشيخ المفيد في أماليه ٥ ضمن حديث قال: إنّ دين الله لا يُعرف بالرجال بل آية الحقّ، فاعرف الحقّ تعرف أهله.

قَالَتْ لَهُ مَا أَنْتَ بِالْمَرْضِيِّ

وأنشده الفرّاء ذلك أيضاً. ووجه ذلك من القياس: أنّ الياء ليست تخلو من أن تكون في موضع النصب، أو الجرّ، فالياء في النصب والجرّ، كالهاء فيهما، وكالكاف في أكرمتك، وهذا لك. فكما أنّ الهاء قد لحقتها الزيادة في هذا كهو، وألحقت أيضاً الكاف الزيادة في قول من قال: أعطيتكاه، وأعطتيكه [أعطتكيه]، فيما حكاه سيبويه، وهما أختا الياء، كذلك ألحقوا الياء الزيادة في المدّ، فقالوا: فيّ. ثمّ حذفت الياء الزائدة على الياء، كما حذفت الزيادة من الهاء في قول من قال: له أَرقان[1]. وزعم أبو الحسن أنّها لغة، فكما حذفت الزيادة من الكاف في قول من قال: أعطيتكيه [أعطيتكه]، وأعطيتكه، كذلك حذفت الياء اللاحقة للياء.

وبالجملة حذفت الزيادة من الياء، كم حذفت من أختيها، وأقرّت الكسرة التي كانت تلي الياء المحذوفة، فبقيت الياء على ما كانت عليها من الكسرة، وكما لحقت الكاف، والهاء، والياء الزياده، كذلك لحقت التاء الزيادة نحو قولك: «رميتيه فأصبتيه، وما أخطأت الرمية». فإذا كانت هذه الكسرة في الياء على هذه اللغة، وإن كان غيرها أفشى منها، وعضده من القياس، ما ذكرنا، لم يجز لقائل أن يقول: إنّ القراءة بذلك لحن؛ لإستفاضة ذلك في السماع والقياس. قال البصير: كسر الياء ليكون طبقاً لكسرة همزة قوله: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ﴾، لأنّه أراد الوصل دون الوقف، والإبتداء بإنّي كفرت؛ لأنّ الإبتداء بأنّي كفرت محال، فلمّا أراد هذا المعنى، كان كسر الياء أدلّ على هذا من فتحها.

(اللغة): الإصراخ: الإغاثة بإجابة الصارخ، ويقال: إستصرخني فلان فأصرخته أي: إستغاث بي فأغثته.

---

(١) هذا شطر من بيت مر.

المعنى: لمّا تقدّم وعيد الكافر، وصفة يوم الحشر، وما يجري فيه من الجدال بين الأتباع و المتبوعين، عقّب ذلك سبحانه بكلام الشيطان في ذلك اليوم، فقال: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ﴾ وهو إبليس بإتّفاق المفسّرين، يقول لأوليائه الذين إتّبعوه: ﴿لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: فرغ من الحكم بين الخلائق، ودخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار، عن ابن عباس، والحسن، وقالا: إنّه لم يخاطبهم بذلك، قال الحسن: وهو أحقر وأذلّ من أن يخاطب، لولا أنّ الله أذن فيه توبيخاً لأهل النار. وقيل: إنّه يوضع له منبر في النار فيرقاه، ويجتمع الكفّار عليه باللائمة، ـ عن مقاتل ـ. ﴿إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ﴾ من البعث والنشور والحساب والثواب والعقاب ﴿وَوَعَدْتُكُمْ﴾ أن لا بعث، ولا نشور، ولا جنّة، ولا نار. وقيل: ووعدتكم الخلاص من العقاب بإرتكاب المعاصي ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ أي: كذبتكم. وقيل: لم أوف لكم بما وعدتكم.

﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ أي: وما كان لي عليكم سلطان بالإكراه والإجبار على الكفر والمعاصي، وإنّما كان لي سبيل الوسوسة والدعوة ﴿فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ بسوء إختياركم. وقيل: معناه: ما أظهرت لكم حجّة أحتجّ بها عليكم إلاّ أن دعوتكم، فيكون هذا من الإستثناء المنقطع، ومعناه: لكن دعوتكم إلى الضلال، وأغويتكم فصدّقتموني، وأجبتموني، وقبلتم مقالتي بسوء إختياركم لأنفسكم. ﴿فَلَا تَلُومُونِي﴾ على ما حلّ بكم من العقاب بسوء إختياركم ﴿وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ حيث عدلتم عن أمر الله إلى إتّباعي من غير دليل وبرهان.

﴿مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ﴾ أي: ما أنا بمغيثكم، ولا معينكم، وما أنتم بمغيثيّ، ولا معيني ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: كفرت الآن بما كان من إشراككم إيّاي مع الله في الطاعة أي: جحدت أن أكون شريكاً لله تعالى

فيما أشركتموني فيه من قبل هذا اليوم. وقال الفرّاء وجماعة: تقديره: إنّي كفرت بما أشركتموني به أي: بالله، ويعني بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾: في وقت آدمعليه السلام، حين أمر بالسجود فأبى وإستكبر ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قيل: إنّه من تمام قبول الشيطان لأهل النار. وقيل: إنّه إبتداء وعيد من الله تعالى لهم، وهو الأظهر. وفي هذه الآية دلالة على أنّ الشيطان لا يقدر على أكثر من الدعاء والإغواء، وأنّه ليس عليه إلاّ عقاب الدعوة فحسب.

وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ
تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ
فِيهَا سَلَٰمٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً
كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾
تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ
كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾

أربع آيات في الكوفيّ والبصريّ، وثلاث آيات عند الباقين، وتمام الثانية في السماء.

القراءة: في الشواذّ، قراءة الحسن: ﴿وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ـ برفع اللام ـ.

الحجة: قال ابن جنّي: هذه القراءة على أن أدخل من كلام الله، كأنّه قطع الكلام وأستؤنف، فقال الله، وأنا أدخل المؤمنين جنّات، وعلى هذا فقوله: ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ أي: بإذني. إلاّ أنّه أعاد ذكر الربّ؛ ليضيفه إليهم، فيكون أذهب في الإكرام

والتقريب منه لهم.

اللغة: التحيّة: التلقّي بالكرامة في المخاطبة. وأمّا قوله: التحيّات الله، فإنّ في ذلك ثلاثه أقوال: أوّلها: المعنى: أنّ الملك لله، يقال: حيّاك الله أي: ملكك. وثانيها: البقاء لله، يقال: حيّاك الله أي: أبقاك الله، فيكون بمعنى: أحياك الله، كما يقال: وصى وأوصى، ومهّل وأمهل. وثالثها: إنّ ذلك بمعنى السلام. قال القتيبي: وإنّما جمع؛ لأنّه كان في الأرض ملوك يحيّون بتحيّات مختلفة، فيقال لبعضهم: أبيت اللعن، ولبعضهم: أسلم وأنعم، ولبعضهم: عضّ [عش] ألف سنة. فقيل لنا: قولوا التحيّات الله أي: كل الألفاظ التي يحيّا بها الملوك هي لله، والإجتثاث: إقتلاع الشيء من أصله، يقال: جثّه وإجتثّه. والجثة، أُخذَت منه.

المعنى: لمّا تقدّم وعيد الكافرين، عقّبه سبحانه بالوعد للمؤمنين، فقال: ﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي: صدّقوا الله ورسوله ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ أي: الطاعات: ﴿ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ قد سبق معناه ﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴾ أي: بأمر ربّهم وإطلاقه ﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴾ مرّ تفسيره في سورة يونس.

ثمّ ضرب الله سبحانه مثلاً يقرب من أفهام السامعين، ترغيباً للخلق في إتّباع الحقّ، فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ أي: ألم تعلم يا محمّد ﴿ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً ﴾ أي: بيّن الله شبهاً، ثمّ فسّر ذلك المثل، فقال: ﴿ كَلِمَةً طَيِّبَةً ﴾ وهي كلمة التوحيد، شهادة أن لا إله إلاّ الله، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هي كلّ كلام أمر الله تعالى به من الطاعات، ـ عن أبي عليّ ـ، قال: وإنّما سمّاها طيّبة؛ لأنّها زاكية نامية لصاحبها بالخيرات والبركات.

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴾ أي: شجرة زاكية، أصولها في الأرض، عالية أغصانها، وثمارها في السماء، وأراد به: المبالغة في

الرفعة، والأصل سافل، والفرع عال، إلاّ أنّه يتوصّل من الأصل إلى الفرع. وروى أنس عن النبيّ ﷺ أنّ هذه الشجرة الطيّبة هي النخلة. وقيل: إنّها شجرة في الجنّة، ـ عن ابن عباس ـ. وروى ابن عقدة عن أبي جعفر عليه السلام أنّ الشجرة رسول الله ﷺ، وفرعها عليّ عليه السلام، وعنصر الشجرة فاطمة، وثمرتها أولادها، وأغصانها وأوراقها شيعتنا، ثمّ قال عليه السلام: إنّ الرجل من شيعتنا ليموت فيسقط من الشجرة ورقة، وإنّ المولود من شيعتنا ليولد، فيورق مكان تلك الورقة ورقة[١].

وروي عن ابن عباس قال: قال جبريل عليه السلام للنبيّ: أنت الشجرة، وعليّ غصنها، وفاطمة ورقها، والحسن والحسين ثمارها، وقيل: أراد بتلك شجرة هذه صفتها، وإن لم يكن لها وجود في الدنيا، لكن الصفة معلومة. وقيل: إنّ المراد بالكلمة الطيّبة: الإيمان، وبالشجرة الطيّبة: المؤمن.

﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا﴾ أي: تخرج هذه الشجرة ما يؤكل منها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ أي: في كل ستّة أشهر[٢]، ـ عن ابن عباس، وأبي جعفر عليه السلام ـ. وقال الحسن، وسعيد بن جبير: أراد بذلك أنّه يؤكل ثمرها في الصيف، وطلعها في الشتاء، وما بين صرام النخلة إلى حملها ستّة أشهر[٣]. وقال مجاهد، وعكرمة: كل حين أي: كل سنة؛

---

(١) هذا وأمثاله محمول على التمثيل والتشبيه، لا على تعيين المراد.

(٢) الحين في اللغة، وإطلاق كلام الله تعالى: مطلق الزمان. قال تعالى: لتعلمنّ نبأ بعد حين. والمراد: القيمة. وقال: فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون. وأمّا قوله تعالى: تؤتى أكلها كل حين، فالمتبادر إلى الذهن منها، كلّ مدّة زمان جرت العادة يكون [بكون] الثمرة مأكولة في تلك المدّة، وهي مختلفة بإختلاف الثمار، ويبقى ثمر النخل من أوّل ظهور الطلع إلى الصرام ستّة أشهر.

(٣) قال العلاّمة في القواعد، في نذر الصوم: لو نذر حيناً وجب ستّة أشهر، وإستدلّ في كشف اللثام بخبر السكوني، عن أمير المومنين عليه السلام مستشهداً بهذه الآية، وخبر أبي الربيع الشاميّ، عن الصادق عليه السلام وإستشهد بالآية أيضاً. وعن تفسير العياشي، عن الحلبي، عن الصادق عليه السلام

←

لأنّها تحمل في كل سنة مرّة.

وقال سعيد بن المسيّب: في كل شهرين؛ لأنّ من وقت يطعم النخل إلى صرامه، يكون شهرين. وقيل: لأنّ من وقت أن يصرم النخل إلى حين يطلع، يكون شهرين. وقال الربيع بن أنس: كل حين أي: كل غدوة وعشيّة، وروي ذلك عن ابن عباس أيضاً، وقيل: معناه: في جميع الأوقات؛ لأن ثمر النخل يكون أوّلاً طلعاً، ثمّ يصير بلحاً، ثمّ بسراً، ثمّ تمراً، فيكون ثمره موجوداً في كل الأوقات، ويدلّ على أنّ الحين بمنزلة الوقت: قول النابغة في صفة الحيّة، والملدوغ:

يُبادِرُهَا الرَّاقُونَ مِنْ سُوءِ سُمِّها تُطَلِّقُهُ حِيناً، وَحِيناً تُرَاجِعُ[١]

يعني: أنّ السمّ يخفّ ألمه وقتاً، ويعود وقتاً. وقيل: إنّه سبحانه شبّه الإيمان بالنخلة؛ لثبات الإيمان في قلب المؤمن، كثبات النخلة في منبتها، وشبّه إرتفاع علمه إلى السماء بإرتفاع فروع النخلة، وشبّه ما يكسبه المؤمنون من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت وحين، بما ينال من ثمرة النخلة في أوقات السنة كلّها من الرطب والتمر. وقيل: إنّ معنى قوله: تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها: ما يفتي به الأئمّة من آل محمّد ﷺ، وشيعتهم، في الحلال والحرام.

﴿ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي: لكي يتدبّروا، فيعرفوا الغرض بالمثل ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ ﴾ وهي كلمة الكفر والشرك، ـ عن ابن عباس وغيره ـ. وقيل: هو كل كلام في معصية الله تعالى، ـ عن أبي عليّ ـ. ﴿ كَشَجَرَةٍ

← قال وعمل بها الأصحاب، وقال الجصّاص ـ من الحنفيّة ـ: قال أصحابنا فيمن حلف أن لايكلّم فلاناً حيناً: أنّه على ستّة أشهر؛ اذ لم يرد به أقصر الأوقات، ومعلوم أنّه لم يرد به أربعين سنة؛ لأنّ من أراد ذلك حلف على التأبيد، إنتهى. ومقتضى القاعدة في جميع ذلك، الإكتفاء بالصوم وغيره مدّة يعتدّ بها، وستّة أشهر فرد من أفراد الحين، يبر به النذر والحلف قطعا. ويحتمل الرواية إختيار هذا الفرد للسائل، بقرينة الإستشهاد، لا التعيين التعبّدي، ولذلك تتمّة ومرّ مثله.

[١] رقى الراقي رُقيةً: إذا عَوّذَ ونَفَثَ في عوذته.

﴿خَبِيثَةٍ﴾ غير زاكية، وهي شجرة الحنظل، ـ عن ابن عباس، وأنس، ومجاهد ـ. وقيل: إنّها شجرة هذه صفتها وهو لاقرار لها في الأرض ـ عن الحسن ـ وقيل: إنّها الكشوث[١] ـ عن الضحّاك ـ. وروى أبو الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام: إنّ هذا مثل بني أميّة.

﴿اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ﴾ أي: إقتطعت وأستؤصلت، وإقتلعت جثّته من الأرض ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ أي: ما لتلك الشجرة من ثبات، فإنّ الريح تنسفها، وتذهب بها، فكما أنّ هذه الشجرة لا ثبات لها، ولا بقاء، ولا ينتفع بها أحد، فكذلك الكلمة الخبيثة، لا ينتفع بها صاحبها، ولا يثبت له منها نفع، ولا ثواب، وروي عن ابن عباس أيضاً: أنّها شجرة لم يخلقها الله بعد، وإنّما هو مثل ضربه بهذا. وهذا القول حسن؛ لأنّ الحنظل وغيره، قد ينتفع بذلك في الأدوية

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ[١] كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

[اللغة]: الإحلال: وضع الشيء في محلّ، إمّا بمجاورة، إن كان من قبيل

---

(١) نعمت الله: كتبت بالتاء، ولكن وقف الحرميان وأبو عمرو عليه بالهاء. وليضلّو عن سبيله: ـ بفتح الياء ـ أبو عمرو وابن كثير.

[١] الكَشُوث: كلّ نبات مُحبتثّ مقطوع الأصل. وهو أصفر يتعلّق بأطراف الشوك.

الأجسام، أو بمداخلة، إن كان من قبيل الأعراض. والبوار: الهلاك. يقال: بار الشيء يبور بوراً: إذا هلك. ورجل بور أي: هالك. وقوم بور أيضاً. قال ابن الزبعرى:

يا رَسُولَ الْمَليكِ إِنَّ لِساني ... راتِقٌ ما فَتَقْتُ إِذْ أنا بُورُ[1]

والأنداد: الأمثال المنادّون. قال:

تُهْدىٰ رُؤُوسُ الْمُتْرَفينَ الأَنـدادِ ... إِلىٰ أَمِـير الْمُؤْمِنِينِ الْمُمْتادِ[2]

الإعراب: ﴿جهنّم﴾: إنتصب؛ على البدل من قوله: ﴿دَارَ الْبَوَارِ﴾ و ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ في موضع نصب؛ على الحال من «قومهم». وإن شئت كان حالاً من ﴿جهنم﴾، وإن شئت فمنعها [فمنهما] كقوله: ﴿تحمله﴾ بعد قوله: ﴿فأتت به قومها﴾.

المعنى: لمّا قدّم سبحانه ذكر الكلمة الطيّبة عقّبه بذكر مايحصل لصاحبها من المثوبة والكرامة، فقال: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ أي: يثبّتهم في كرامته وثوابه بالقول الثابت الذي وجد منهم، وهو كلمة الإيمان؛ لأنّه ثابت بالحجج والأدلّة. وقيل: معناه: يثبّت الله المؤمنين بسبب كلمة التوحيد وحرمتها في الحياة الدنيا حتى لا يزلّوا، ولا يضلّوا عن طريق الحقّ، ويثبّتهم بها في الآخرة حتى لا يزلّوا، ولا يضلّوا عن طريق الجنّة. وقيل: معناه: يثبّتهم بالتمكين في الأرض، والنصرة والفتح في الدنيا، وبإسكانهم الجنّة في الآخرة، ـ عن أبي مسلم ـ. وقال أكثر المفسرين: إن المراد بقوله: ﴿في الآخرة﴾: في القبر، والآية وردت في سؤال القبر، و هو قول ابن عباس، وابن مسعود، وهو

---

(١) يعتذر من هجائه القديم.

(٢) [مر البيت الممتاد:] المسئول منه العطاء.

المرويّ عن أئمتنا عليهم السلام.

وروى محمّد بن يعقوب الكليني، في كتاب الكافي، بإسناده عن سويد بن غفلة، عن أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام قال: إنّ ابن آدم إذا كان في آخر يوم من الدنيا، وأوّل يوم من الآخرة، مثّل له ماله، وولده، وعمله، فيلتفت إلى ماله، فيقول: والله إنّي كنت عليك لحريصاً شحيحاً، فما لي عندك؟ فيقول: خذ مّني كفنك. فيلتفت إلى ولده، فيقول: والله إنّي كنت لكم لمحبّاً، وعليكم لمحامياً، فماذا لي عندكم؟ فيقولون: نؤديك إلى حفرتك، نواريك فيها. قال: فيلتفت إلى عمله، فيقول: والله إنّي كنت فيك لزاهداً، وإن كنت عليّ لثقيلاً، فماذا لي عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك، ويوم نشرك أُعرَض أنا وأنت على ربّك.

قال: فإذن كان لله وليّاً، أتاه أطيب الناس ريحاً، وأحسنهم منظراً وأحسنهم رياشاً، فقال: أبشر بروح وريحان، وجنّة نعيم، ومقدمك خير مقدم، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، أرتحل من الدنيا إلى الجنّة، وإنّه ليعرف غاسله، ويناشد حامله أن يعجّله، فإذا أدخل قبره، أتاه ملكا القبر، يجران أشعارهما، ويخدان الأرض بأنيابهما، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، فيقولان له: من ربّك؟ وما دينك ومن نبيّك؟ فقيول: الله ربّي، وديني الإسلام، ونبيّ محمّد صلى الله عليه وآله فيقولان: ثبّتك الله فيما تحبّ وترضى، وهو قوله سبحانه: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، ثمّ يفسحان له في قبره مدّ بصره. ثمّ يفتحان له باباً إلى الجنّة، ثمّ يقولان له نم قرير العين نوم الشابّ الناعم، فإنّ الله يقول: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرّاً وَأَحْسَنُ مَقِيلاً﴾.

قال: وإذا كان لربّه عدوّاً، فإنّه يأتيه أقبح خلق الله زيّاً، وأنتنه ريحاً، فيقول: أبشر بنزل من حميم، وتصلية جحيم، وإنّه ليعرف غاسله، ويناشد حملته أن يحتبسوه. فإذا أدخل القبر، أتاه ملكا القبر، فألقيا أكفانه، ثمّ يقولان له: من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فيقول: لا أدري! فيقولان له: لا دريت ولا هديت! فيضربان يافوخه بمرزبة معهما [معها] ضربة، ما خلق الله من دابّة إلاّ تذعر لها، ما خلا الثقلين. ثمّ يفتحان له باباً إلى النار، ثمّ يقولان له: نم بشرّ حال فيه من الضيق، مثل ما فيه القناة من الزجّ، حتى أنّ دماغه ليخرج من بين ظفره ولحمه، ويسلّط الله عليه حيّات الأرض، وعقاربها، وهوامها، فتنهشه حتى يبعثه الله من قبره، وإنّه ليتمنّي قيام الساعة ممّا هو فيه من الشرّ، نعوذ بالله من عذاب القبر.

﴿وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ﴾ أي: ويضلّهم عن هذا التثبيت في الدنيا وفي الآخرة ﴿وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ﴾ من الإمهال، والإنتقام، وضغطة القبر، ومساءلة منكر ونكير، لا إعتراض عليه في ذلك، ولا قدرة لأحد على منعه، وهذا من تمام الترغيب والترهيب.

ثمّ خاطب سبحانه نبيّ ﷺ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً﴾ يحتمل أن يكون المراد: ألم تر إلى هؤلاء الكفّار عرفوا نعمة الله بمحمّد ﷺ أي: عرفوا محمّداً، ثمّ كفروا به، فبدّلوا مكان الشكر كفراً.

وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: «نحن والله نعمة الله التي أنعم بها على عباده، وبنا يفوز من فاز». ذكره عليّ بن إبراهيم في تفسيره. ويحتمل أن يكون المراد: جميع نعم الله على العموم، بدّلوها أقبح التبديل، إذ جعلوا مكان شكرها الكفر بها. وأختلف في المعنى بالآية، فروي عن أمير المومنين عليّ عليه السلام وابن

عباس وسعيد بن جبير والضحّاك ومجاهد أنّهم كفّار قريش، كذبوا نبيّهم، ونصبوا له الحرب والعداوة، وسأل رجل أمير المؤمنين عليّاً عليه السلام عن هذه الآية، فقال: هم الأفجران من قريش: بنو أميّة، وبنو المغيرة فأمّا بنو أُميّة فمتّعوا إلى حين، وأمّا بنو المغيرة فكفيتموهم يوم بدر. وقيل: إنّهم جبلة بن الأيهم، ومن إتّبعوه من العرب، تنصروا ولحقوا بالروم.

﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ أي: أنزلوا قومهم دار الهلاك، بأن أخرجوهم إلى بدر. وقيل: معناه: أنزلوهم دار الهلاك، وهي النار بدعائهم إيّاهم إلى الكفر بالنبيّ صلى الله عليه وآله وإغوائهم إياهم ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ وهذا تفسير لدار البوار، أنّ تلك الدار هي جهنّم، يدخلونها وبئس القرار، مَن قراره النار.

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً﴾ أي: وجعل هؤلاء الكفّار الذين بدّلوا نعمة الله نظراء وأمثالاً في العبادة، زيادة على كفرهم وجحدهم ﴿لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: ليكون عاقبة أمرهم إلى الضلال الذي هو الهلاك، وليست هذه اللام لام الغرض؛ لأنّهم لم يعبدوا الأوثان من دون الله، وغرضهم أن يهلكوا. ومن قرأ: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ ـ بضمّ الياء ـ، فمعناه: ليضلّوا الناس عن سبيل الله.

ثم قال سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿قُلْ﴾ لهؤلاء الكفّار، الذين وصفناهم ﴿تَمَتَّعُوا﴾ وإنتفعوا بما تهوون من عاجل هذه الدنيا. والمراد به: التهديد، وإن كان بصورة الأمر ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ﴾ أي: مرجعكم ومآلكم ﴿إِلَى النَّارِ﴾ والكون فيها، وكان قد يكون.

قُل لِّعِبَادِيَ(١) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ ﴿٣١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

القراءة: قرأ زيد عن يعقوب: ﴿مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ـ بالتنوين ـ، وهو قراءة ابن عباس و الحسن، ومحمّد بن عليّ الباقر عليه السلام، وجعفر بن محمّد الصادق عليه السلام، والضحّاك، وعمرو بن قائد. وقرأ سائر القرّاء: ﴿مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ ـ بالإضافة ـ.

الحجة: أمّا القراءة بالتنوين، فإنّ المفعول فيها ملفوظ به، أي: وآتاكم ما سألتموه من كل شيء لم تسأ[سأ]لتموه أن يؤتيكم منه. وقال الضحّاك: إنّ ﴿ما﴾ للنفي، معناه: وآتاكم من كل شيء لم تسألوه إيّاه، أمّا القراءة على الإضافة، فالمفعول فيها محذوف أي: وآتاكم سؤالكم من كل شيء سألتموه.

اللغة: الخلال: مصدر خاللته مخالة وخلالاً أي: صادقته. قال إمرؤ القيس:

---

(١) فتح الياء من «لعبادي» الحرميان وأبو عمرو وعاصم.

صَرَفْتُ الْهَوىٰ عَنْهُنَّ مَنْ خَشْيَةِ الرَّدىٰ
وَلَسْتُ بِمَقْلِيّ الْخِلالِ، وَلاٰ قَالِ[1]

وقد يكون «الخلال» جمع «خلّة» ويكون مثل: قلّة وقلال. والدؤوب: مرور الشيء [في الشيء] في العمل على عادة جارية فيه. يقال: دأب يدأب دأباً ودؤوباً، فهو دائب.

﴿الإعراب﴾: يقيموا: جزم ثلاثة أوجه: أحدها: إنّه جواب الأمر الذي هو «قل»؛ لأنّ المعنى في ﴿قُلْ﴾: أن تقل لهم يقيموا الصلاة. والثاني: إنّه جواب أمر محذوف، وتقديره: قل لعبادي أقيموا الصلاة، يقيموا الصلوة.

والثالث: إنّه على حذف لام الأمر كأنّه قال: قل لعبادي ليقيموا الصلوة وإنّما جاز حذف اللام هنا؛ لأنّ في الكلام دليلاً على المحذوف، ألا ترى أنّ لفظ الأمر بقل، قد دلّ على الغائب. تقول: قل لزيد ليضرب عمراً، وإن شئت قلت: قل لزيد يضرب عمرواً، ولا يجوز أن تقول: يضرب زيد عمرواً ـ بالجزم ـ، حتى تقول: ليضرب؛ لأنّ لام الغائب ليس هنا عوض منها إذا حذفتها. وقوله: لا بيع فيه ولا خلال: إن شئت رفعت «البيع والخلال» جميعاً، وإن شئت فتحتهما، وإن شئت فتحت أحدهما ورفعت الآخر، وقد شرحنا ذلك فيما مضى.

﴿المعنى﴾: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: إعترفوا بتوحيد الله وعدله، عني به أصحاب النبيّ ﷺ، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: أراد به جميع المؤمنين، ـ عن الجبائي ـ ﴿يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: يؤدّوا الصلوات الخمس لمواقيتها، فإنّ الصلاة لا تصير قائمة إلاّ بإقامتهم. ﴿وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً﴾ أي: وقل لهم ينفقوا من أموالهم في وجوه البرّ من الفرائض والنوافل،

---

(١) المقلى: المبغوض. والقالي: الباغض.

ينفقون في النوافل سرّاً؛ ليدفعوا عن أنفسهم تهمة الرياء، وفي الفرائض علانية؛ ليدفعوا تهمة المنع.

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ﴾ يعني: يوم القيامة، والمراد بالبيع: إعطاء البدل ليتخلّص به من النار، لا أنّ هناك مبايعة ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ أي: ولا مصادقة. وهذا مثل قوله: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه المستحقّ للإلهيّة، فقال: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: أنشأهما من غير شيء، وبدأ بذكرهما لعظم شأنهما في القدرة، والنعمة ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: غيثاً ومطراً ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ﴾ أي: بذلك الماء ﴿مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ يعني: أنّ الغرض في ذلك أن يؤتيكم أرزاقكم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: السفن والمراكب ﴿لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ أي: بأمره الله؛ لأنّها تسير بالرياح، والله هو المنشىء للرياح ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ التي تجري بالمياه التي ينزلها من السماء ويجريها في الأودية، وينصب منها في الأنهار.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أي: ذلّل لمنافعكم الشمس والقمر في سيرهما؛ لتنتفعوا بضوء الشمس نهاراً، وبضوء القمر ليلاً، وليبلغ بها الثمار والنبات في النضج، الحدّ الذي عليه تتمّ النعمة فيهما ﴿دَائِبَيْنِ﴾ أي: دائمين لا يفتران في صلاح الخلق والنباتات، ومنافعهم.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ أي: ذلّلهما لكم، ومهّدهما لمنافعكم؛ لتسكنوا في الليل، ولتبتغوا في النهار من فضله ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ معناه: إنّ الإنسان قد يسال الله العافية فيعطى، ويسأله النجاة فيعطى، ويسأله الغنى فيعطى، ويسأله الولد والعزّ فيعطى، ويسأله تيسير الأمورّ وشرح الصدور فيعطى، فهذا في الجملة حاصل في الدعاء الله تعالى ما لم يكن فيه مفسدة في الدين، أو على غيره،

فأين يذهب به مع هذه النعم التي لا تحصى كثرة عن الله الذي هو في كل حال محتاج إليه، وهو مظاهره بالنعم عليه. ودخلت ﴿مِنْ﴾ للتبعيض؛ لأنّه لو قال: وآتاكم كل ما سألتموه، لإقتضى أنّ جميع ما يسأله العبد يعطيه الله تعالى، والأمر بخلاف؛ لأنّ ما فيه مفسدة لا يعطيه الله إيّاه، وتقديره: وآتاكم من كل ما سألتم شيئاً. وقيل: معناه: وآتاكم من كل ما بكم إليه حاجة، فما من شيء يحتاج إليه العباد إلّا وهو موجود فيما بينهم، وهو كقوله: ﴿خَلَقَ لَكُم مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾. ولم يخصّص كل واحد من الخلق بإيتاء كل ما سأله. وقيل: معناه: وآتاكم من كل شيء سألتموه، ولم تسألوه، فما: هيهنا موصوفة، والجملة: صفة له، وحذف الجملة المعطوفة، وهي لم تسألوه، كقوله: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ والمعنى: وتقيكم البرد، وإنّ فيما أبقى دليلاً على ما ألقى.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ أي: لا تقدروا على إحصائها؛ لكثرتها، والنعمة هنا: إسم أقيم مقام المصدر، ولذلك لم يجمع. فبيّن سبحانه أنّه هو المنعم على الحقيقة، وأنّه المستحقّ للعبادة، ويروى عن طليق بن حبيب أنّه قال: إنّ حقّ الله تعالى أثقل من أن يقوم به العباد، فإنّ نعم الله أكثر من أن تحصيها العباد، ولكن أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ﴾ أي: كثير الظلم لنفسه ﴿كَفَّارٌ﴾ أي: كثير الكفران لنعم ربّه. وقيل: معناه: ظلوم في الشدّة، يشكو ويجزع، كفّار في النعمة يجمع ويمنع. ولم يرد بالإنسان هيهنا العموم، بل هو مثل ما في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ * إِنَّ ٱلْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾.

﴿النظم﴾: إتّصل قوله سبحانه: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا ٱلصَّلَاةَ﴾ بما تقدم من قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ فإنّه عقّب ذلك بالأمر للمؤمنين بما يوجب النعيم المقيم، ومرافقة الأبرار؛ ليكون قد عقّب الوعيد بالوعد،

والعقاب بالثواب، وإتّصلت الآية الثانية بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَاداً﴾ فإنّه سبحانه لمّا ذكر ما هم عليه من إتّخاذ الأنداد لله سبحانه، بيّن بعده أنّ واجب الوجود المستحقّ للإلهيّة الذي يحقّ له العبادة، هو الله الذي خلق السماوات والأرض. الآية.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ
أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ
فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾
رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ[1] مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ
ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ
تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾
رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ
فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى
عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾
رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ
دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

القراءة: في الشواذّ قرائة الجحدري، والثقفي، وأبي الجحجاح: وأجنبني ـ

(١) فتح الياء من «إنّي أسكنت» الحرميان وأبو عمرو.

بقطع الهمزة. وقرأ أميرالمؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وأبو جعفر الباقر عليه السلام، وجعفر بن محمّد عليه السلام، ومجاهد: تهوَى إليهم ـ بفتح الواو ـ. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وهبيرة، عن حفص: وتقبل دعائي ربّنا ـ بإثبات الياء في الوصل ـ. وفي رواية البزي، عن ابن كثير أنّه يصل ويقف بياء. وقال قنبل: إنّه يشمّ الياء في الوصل، ولا يثبتها، ويقف عليها بالألف، والباقون: ﴿دُعَاءً﴾ ـ بغير ياء ـ. وقرأ الحسن بن عليّ عليه السلام، وأبو جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام، والزهري، وإبراهيم النخعي: ولولَدَيَّ. وقرأ يحيى بن يعمر: ولوُلدي. وقرأ سعيد بن جبير: ﴿وَلِولِدَيَّ﴾.

الحجّة: يقال: جنبت الشيء أجنبه جنوباً، ومن العرب من يقول: أجنبته أجنبه أي: تجنّبته عن الشيء، وكأنّ معنى قوله: (أجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام): إصرفني وإيّاهم عن عبادة الأصنام. ومعنى «أجنبني»: إجعلني كالجنيب عن ذلك. وأمّا قوله: تهوى إليهم ـ بفتح الواو ـ فهو من هويت الشيء أهواه: إذا أحببته، وإنّما جاز تعديته بإلى؛ لأنّ معنى هويت الشيء: ملت إليه، فكأنّه قال: تميل إليهم، فهو محمول على المعنى، ومثله: قوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ فعدّى الرفث بإلى، وأنت لا تقول: رفثت إلى فلانة، وإنّما تقول: رفثت بها، أو معها، ولكنّه لمّا كان معنى الرفث هنا معنى الإفضاء، عدّاه بإلى، فكأنّه قال: أحلّ لكم الإفضاء إلى نسائكم.

قال ابن جنّي: المعنى في قراءة الجماعة: تهوى إليهم: تميل إليهم أي: تحبّهم، فهذا في المعنى كقولهم: وهو ينحطّ في هواك أي: يخلد إليه، ويقيم عليه، وذلك أنّ الإنسان إذ أحبّ الشيء، أكثر من ذكره، وأقام عليه، وإذا كرهه خف إلى سواه. وقولهم: هويت فلاناً: من لفظ هوى إلى الشيء يهوي، إلاّ أنّهم خالفوا بين المثالين لإختلاف ظاهر الأمرين، وإن كانا على معنى واحد متلاقيين. وأمّا من وصل ﴿دُعَائِيّ﴾ ـ بياء ـ فهو القياس من شمّ الياء في الوصل، ولا يثبتها؛ فلدلالة

الكسرة على الياء، قال أبو عليّ: حذف الياء في الوقف أقيس من حذفها في الوصل؛ لأنّ الوقف موضع تغيير يغيّر فيه الحرف الموقوف عليه كثيراً. قال الأعشى:

فَهَلْ يَمْنَعَنِّي اِرْتِيادِي البِلادَ ... مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ أَنْ يَأْتِيَنْ

وقال:

وَمِنْ شانِيءٍ كاسِفٍ وَجْهُهُ ... إذا مَا انْتَسَبْتُ لَهُ أَنْكَرَنْ[١]

ومن قرأ: لَولَدَيّ، فإنّه يعني: إسماعيل وإسحاق. ومن قرأ: لوُلدي: فإنّ الولد قد يكون واحداً وجمعاً، تقول العرب: ولدك من دمّى عقبيك، ومعناه: ولدك من ولدته فسال دمك على عقبيك عند ولادته، لا من إتّخذته ولداً. وإذا كان جمعاً فيجوز أن يكون جمع ولد فهو: كأسد وأسد، ويجوز أن يكون جمع وُلد أيضاً، فيكون مثل: الفُلك، في أنّه جمع الفُلك.

(اللغة): الوادي: سفح الجبل العظيم، ومنها: قيل للأنهار العظام: أودية؛ لأنّ حافاتها كالجبال لها، ومنه: الدية؛ لأنّه مال عظيم يحتمل في أمر عظيم.

(المعنى): ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ معناه: واذكر يا محمّد إذ قال إبراهيم ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ يعني: مكّة وما حولها من الحرم. وقيل: إنّ إبراهيم عليه السلام لمّا فرغ من بناء الكعبة، دعا بهذا الدعاء، وقد تقدّم تفسيره في سورة البقرة. وإنّما قال هناك: ﴿بَلَداً أَمِناً﴾ وقال هنا: ﴿هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ معرفاً؛ لأنّ النكرة إذا تكرّرت وأعيدت، صارت معرفة، ومثلة في التنزيل ﴿فِيهَا مَصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ﴾ فإستجاب الله دعاء إبراهيم عليه السلام حتى كان الإنسان يرى قاتل أبيه فيها، فلا يتعرّض له، ويدنو الوحش فيها من الناس فيأمن منهم.

---

[١] الشانئ: المُبغض. الكسف: ذهاب الضوء والإسوداد.

﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي: والطف لي ولبنيّ لطفاً نتجنّب به عن عبادة الأصنام، ودعاء الأنبياء لا يكون إلاّ مستجاباً. فعلى هذا يكون سؤله ذلك مخصوصاً بمن علم الله من حاله أن يكون مؤمناً لا يعبد إلاّ الله، ويكون الله سبحانه قد أذن له في الدعاء لهم، وإستجاب دعاءه فيهم ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنْ النَّاسِ﴾ معناه: ضلّ بسببهنّ وعبادتهنّ كثير من الناس، كما يقال: فتنتني فلانة يعني: إفتتنت بحبّها، لا لأنّها علمت [عملت] شيئاً، وكما في قول الشاعر:

هَبُوني امْرَأً مِنْكُم أَضَلَّ بَعيرهُ ... لَهُ ذِمَّةٌ، إِنَّ الذِّمامَ[١] كَبيرُ

وإنّما أراد ضلّ بعيره؛ لأنّ أحداً لا يضلّ بعيره قاصداً إلى إضلاله ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ يريد: فمن تبعني من ذرّيّتي الذين أسكنتهم هذا البلد على ديني في عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام، فإنّه من جملتي، وحاله كحالي ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ساتر على العباد معاصيهم، رحيم بهم في جميع أحوالهم، منعم عليهم.

ثمّ حكى سبحانه تمام دعاء إبراهيم عليه السلام وأنّه قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أي: أسكنت بعض أولادي، ولا خلاف أنّه يريد إسماعيل عليه السلام مع أمّه هاجر، وهو أكبر ولده. وروي عن الباقر عليه السلام أنّه قال: نحن بقيّة تلك العترة. وقال: كانت دعوة إبراهيم عليه السلام لنا خاصّة ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ يريد وادي مكّة، وهو الأبطح، وإنّما قال: ﴿غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾؛ لأنّه لم يكن بها يومئذ ماء، ولا زرع، ولا ضرع. ولم يذكر مفعول ﴿أَسْكَنْتُ﴾؛ لأنّ ﴿مِنْ﴾ يفيد بعض القوم، كما يقال: قتلنا من بني فلان، وأكلنا من الطعام، وكما قال سبحانه: ﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ وتقديره: أسكنت من ذرّيّتي أناساً، أو ولداً، ـ عن البلخي ـ.

---

[١] الذِّمام: كلّ حُرمة تَلْزمك إذا ضَيّعتَها المذمَّةُ

﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إنّما أضاف البيت إليه سبحانه؛ لأنّه مالكه، لا يملكه أحد سواه، وما عداه من البيوت قد ملكه غيره من العباد. ويسأل فيقال: كيف سمّاه بيتاً، ولم يبنه إبراهيم عليه السلام بعد؟ والجواب من وجهين: أحدهما: إنّه لمّا كان من المعلوم أنّه يبنيه، سمّاه بيتاً، والمراد: عند بيتك الذي مضى في سابق علمك كونه والثاني: إنّ البيت قد كان قبل ذلك، وإنّما خربه طسم وجديس[١]. وقيل: إنّه رفعه الله إلى السماء أيّام الطوفان، وإنّما سمّاه المحرّم؛ لأنّه لا يستطيع أحد الوصول إليه إلاّ بالإحرام. وقل: لأنّه حرم فيه ما أحلّ في غيره من البيوت من الجماع والملابسة بشيء من الأقذار والدماء، وقيل: معناه: العظيم الحرمة.

﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ أي: أسكنتهم هذا الوادي ليداوموا على الصلاة، ويقيموا بشرائطها. واللام تتعلّق بقوله: أسكنت وفصل بينه وبين ما تعلّق بقوله: ربّنا؛ لأنّ الفصل بالنداء مستحبّ في هذا، وإذا جاء نحو قوله:

عَلَىٰ حِينَ أَلْهَى النَّاسَ جُلُّ أُمُورِهِمْ فَنَدْلاً زُرَيْقُ الْمَالَ نَدْلَ الثَّعَالِبِ[١]

أي: أندل المال يا زريق، ففصل بالنداء بين المصدر، وما تعلّق به كان هذا أولى.

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ هذا سؤال من إبراهيم عليه السلام أن يجعل الله قلوب الخلق تحنّ إلى ذلك الموضع؛ ليكون في ذلك أُنس لذرّيّته بمن يرد عليهم من الوفود، وليدرّ أرزاقهم على مرور الأوقات، ولولا لطفه سبحانه بإمالة قلوب الناس إليه، إمّا للدين كالحجّ والعمرة، وإمّا للتجارة، لما صحّ أن يعيش ساكنوه.

---

(١) يقال: ندل الخبز أخذه بكفّه يذمّ رجلاً بأن همّه المال، ولا يهمّه أمر غيره. وزريق: منادي أي: خذ يا زريق المال بكفّك كالثعلب، يأخذ طعمة، ولا يبالي بغيره.

[١] طسم وجديس: قبيلتان من العرب كانوا سكّان مكّة ثمّ انقرضوا.

قال سعيد بن جبير: لو قال: أفئدة الناس، لحجّت اليهود والنصارى والمجوس، ولكنّه قال: ﴿مِنْ النَّاسِ﴾، فهم المسلمون. وروى مجاهد أنّه قال: إنّ ابراهيم عليه السلام لو قال: أفئدة الناس، لإزدحمت عليه فارس والروم، وروى الفضل [الفضيل] بن يسار و غيره، عن الباقر عليه السلام أنّه قال: إنّما أمر الناس أن يطوفوا بهذه الأحجار، ثمّ ينفروا إلينا فُيعلمونا ولايتهم، ويعرضوا علينا نصرهم، ثمّ قرأ هذه الآية. وقيل: إنّ معنى: تهوي إليهم: ينزع إليهم، ويميل، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وقيل: معناه: وينزل، ويهبط إليهم؛ لأنّ مكّة في غور، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿وَارْزُقْهُمْ مِنْ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُون﴾ أي: لكي يشكروا لك، ويعبدوك ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ هذا إعتراف من إبراهيم عليه السلام لله سبحانه، بأنّه يعلم ما يبطن الخلق، وما يظهرونه، وأنّه لا يخفى عليه شيء ممّا في الأرض والسماء. وقيل: إنّ قوله: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ إنّما هو إخبار منه سبحانه بذلك، وإبتداء كلام من جهته لا على سبيل الحكاية عن إبراهيم عليه السلام، بل هو إعتراض، عن الجبائي قال: ثمّ عاد إلى حكاية كلام إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ وهذا إعتراف منه بنعم الله سبحانه، وحمد له على إحسانه، بأن وهب له على الكبر، كبر سنه، ولدين. قال ابن عباس: ولد له إسماعيل، وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق، وهو ابن مائة وإثنتي عشرة سنة. وقال سعيد بن جبير: لم يولد لإبراهيم عليه السلام إلاّ بعد مائة وسبع عشرة سنة. ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ أي: قابله ومجيبه، ـ عن ابن عباس ـ. ويؤيّده قوله: سمع الله لمن حمده.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ تقديره: واجعل من ذرّيّتي مقيم الصلاة، فحذف الفعل؛ لأنّ ما قبله يدلّ عليه. وهذا سؤال من إبراهيم عليه السلام من الله تعالى بأن يلطف له اللطف الذي عنده، يقيم الصلاة، ويتمسّك بالدين، وأن يفعل

مثل ذلك بجماعة من ذرّيّته، وهم الذين أسلموا منهم، فسأل لهم مثل ما سأل لنفسه.

﴿رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ﴾ أي: وأجِبْ دعائي، فإنّ قبول الدعاء إنّما هو الإجابة، وقبول الطاعة الإثابة.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ وإستدلّ أصحابنا بهذا، على ما ذهبوا إليه من أنّ أبوي إبراهيم عليه السلام لم يكونا كافرين؛ لأنّه إنّما يسأل المغفرة لهما يوم القيامة، فلو كانا كافرين لما سأل ذلك؛ لأنّه قال: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾، فصحّ أنّ أباه الذي كان كافراً، إنّما هو جدّه لأمّه، أو عمّه على الخلاف فيه. ومن قال: إنّما دعا لإبيه؛ لأنّه كان وعده أن يسلم، فلمّا مات على الكفر تبرّأ منه، ـ على ما روى الحسن ـ. فقوله فاسد؛ لأنّ إبراهيم عليه السلام إنّما دعا بهذا الدعاء بعد الكبر، وبعد أن وهب له إسماعيل وإسحاق، وقد تبيّن له في هذا الوقت عداوة أبيه الكافر لله، فلا يجوز أن يقصده بدعائه.

﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ أي: وإغفر للمؤمنين أيضاً يوم يقوم الخلق للحساب. وقيل: معناه: يوم يظهر وقت الحساب، كما يقال: قامت السوق.

﴿النَّظْمُ﴾: إتّصلت الآيات بما قبلها؛ لأنّ النهي عن عبادة الأصنام، والأمر بعبادة الله سبحانه، قد تقدّم، فبيّن الله سبحانه عقيب ذلك ما كان عليه إبراهيم عليه السلام من التشدّد في إنكار عبادة الأصنام، والدعاء بما دعا به. وقيل: إنّه معطوف على ما تقدّم من قوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا﴾. إنّه لمّا قال: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾، بيّن عقيبه ما دعا به إبراهيم عليه السلام، وسأله إيّاه، وإجابته لدعائه وسؤاله.

وَلَا تَحْسَبَنَّ[1] ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ
إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ
مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ
هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ
ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم
مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟
أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا
لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾

(اللغة): الإهطاع: الإسراع. قال:

فِـي مُـهْطِعٍ سَـرَعٍ كَأَنَّ زِمَـامَهُ ... فِي رَأْسِ جِذْعٍ مِنْ أَرَاكٍ مُشَذَّبِ[2]

وقال آخر:

بِـدَجْلَةَ أَهْـلُها، وَلَـقَدْ أَرَاهُـمْ ... بِدِجْلَةَ مُـهْطِعينَ إِلَـى السِّـماعِ

أي: مسرعين. وقيل: إنّ «الإهطاع» مدّ العنق، والهطع: طول العنق. قال أحمد بن يحيى: المهطع: الذي ينظر في ذلّ وخشوع لا يقلع بصره، والإقناع: رفع الرأس. وقال الزجّاج: المقنع: الرافع. والمقنع: المرتفع. قال الشماخ:

---

(١) إختلفوا في كسر السين وفتحها من «لاتحسبنّ».

(٢) المشذّب من الغصن: مانزع عنه جلده. شبّه بعيره في طوله وإرتفاعه بجذع الأراك.

يُبَاكِرْنَ الْعِضَاهَ بِمُقْنِعَاتٍ نَوَاجِذُهُنَّ كَالْحَدَإِ الْوَقِيعِ[١]

أي: كالفؤوس المحدّبة، يصف إبلاً ترعى الشجر. والطرف: مصدر طرفت عين فلان: إذا نظرت، وهو أن ينظر ثمّ يغمض. والطرف: العين أيضاً. وأفئدتهم هواء أي: متجوّفة لا تعي شيئاً للخوف والفزع، شبّهها بهواء الجوّ. قال حسان:

ألا أَبْلِغْ أَبَا سُفْيَانَ عَنِّي فَأَنْتَ مُجَوَّفٌ نَخْبٌ هَوَاءُ[٢]

وقال زهير:

كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَعْلٍ مِنَ الظِّلْمَانِ جُؤْجُؤُهُ هَوَاءُ[٣]

والأجل: الوقت المضروب لإنقضاء الأمد.

الإعراب: ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ نصب؛ على أنّه مفعول به، والعامل فيه: ﴿أَنْذِرِ﴾ ولا يكون على الظرف؛ لأنّه لم يؤمر بالإنذار في ذلك اليوم. ﴿فَيَقُولُ﴾: عطف على ﴿يَأْتِيهِمْ﴾، وليس جواب الأمر؛ لأنّه لو كان جواباً له، لجاز فيه النصب والرفع، فالنصب مثل قول الشاعر:

يَا نَاقَ سِيرِي عَنَقاً فَسِيحاً إِلَى سُلَيْمَانَ فَنَسْتَرِيحَا[٤]

والرفع على الإستئناف. ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾: فاعل ﴿تَبَيَّنَ﴾ محذوف أي: تبيّن لكم فعلنا بهم، ولا يكون الفاعل «كيف»؛ لأنّ الإستفهام لا يعمل فيه ما قبله، ولأنّ «كيف» لا يخبر عنه، وإنّما يخبر به. و﴿كَيْفَ﴾: هنا منصوب بقوله: ﴿فَعَلْنَا﴾.

---

(١) عضاه: واحدته: عضاهة، شجر. وفم مقنع: أي أسنانه إلى الباطن. والحداة: الفأس ذو الرأسين. والوقيع: الحديد بالمسن والمبرد.

(٢) رجل نخب: أي جبان.

(٣) الظلمان: جمع الظلم [الظليم] ذكر النعامة والصعل: دقيق العنق والراس من الظليم والنخل يصف ناقة بسرعة ويشبهما بظليم فرع [فزع].

(٤) العنق ضرب من السير. وناق: مرخّم ناقة.

المعنى: لمّا ذكر سبحانه يوم الحساب، وصفه وبيّن أنّه لا يمهل الظالمين عن غفلة، لكن لتأكيد الحجّة، قال: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ وفي هذا وعيد للظالم، وتعزية للمظلوم، ومعناه: ولا تظنّنّ الله ساهياً عن مجازاة الظالمين على أعمالهم. وقيل: إنّ تقديره ولا تحسبنّ الله لا يعاقب الظالمين على أفعالهم، ولا ينتصف للمظلومين منهم.

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ﴾ ومعناه: إنّما يؤخّر عقابهم ومجازاتهم إلى يوم القيامة، وهو اليوم الذي تكون فيه الأبصار شاخصة عن مواضعها، لا تغمض لهول ماترى في ذلك اليوم، ولا تطرف، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: تشخص أبصارهم إلى إجابة الداعي حين يدعوهم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: تبقى أبصارهم مفتوحة لا تنطبق؛ للتحيّر، والرعب.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين، ـ عن الحسن، وسعيد بن جبير، وقتادة ـ. وقيل: يريد دائمي النظر إلى ما يرون، لا يطرفون، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ أي: رافعي رؤوسهم إلى السماء، حتّى لا يرى الرجل مكان قدمه؛ من شدّة رفع الرأس، وذلك من هول يوم القيامة. وقال مؤرج: معناه: ناكسي رؤوسهم بلغة قريش.

﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُ﴾ أي: لا ترجع إليهم أعينهم، ولا يطبقونها، ولا يغمضونها، وإنّما هو نظر دائم ﴿وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾ أي: قلوبهم خالية من كل شيء، فزعاً وخوفاً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: خالية من كل سرور وطمع في الخير؛ لشدّة ما يرون من الأهوال، كالهواء الذي بين السماء والأرض. وقيل: معناه: وأفئدتهم زائلة عن مواضعها، قد إرتفعت إلى حلوقهم، لا تخرج ولا تعود إلى أماكنها، بمنزلة الشيء الذاهب في جهات مختلفة، المتردّد في الهواء، ـ عن ابن سعيد بن جبير، وقتادة ـ. وقيل: معناه: خالية عن عقولهم، ـ عن الأخفش ـ.

﴿وَأَنذِرْ النَّاسَ﴾ معناه: ودم يا محمّد على إنذارك الناس، وهو عام في كل مكلّف، ـ عن الجبائي وأبي مسلم ـ. وقيل: معناه: وخوّف أهل مكّة بالقرآن، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ﴾ وهو يوم القيامة، أو يأتيهم العذاب الإستئصال في الدنيا، وقيل: هو يوم المعاينة عند الموت. والأوّل أظهر.

﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ نفوسهم بإرتكاب المعاصي ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ﴾ أي: ردّنا إلى الدنيا، وإجعل ذلك مدّة قريبة، نجب دعوتك فيها ﴿وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ﴾ أي: نتّبع رسلك فيما يدعوننا إليه، فيقول الله تعالى مخاطباً لهم، أو يقول الملائكة بأمره: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ﴾ أي: حلفتم ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ في دار الدنيا.

﴿مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ﴾ أي: ليس لكم من إنتقال من الدنيا إلى الآخرة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: من زوال من الراحة إلى العذاب، ـ عن الحسن ـ. وفي هذه دلالة على أنّ أهل الآخرة غير مكلّفين، خلافاً لما يقول النجار وجماعة؛ لأنّهم لو كانوا مكلّفين لما كان لقولهم: ﴿أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ وجه، ولكان ينبغي لهم أن يؤمنوا فيتخلّصوا من العقاب إذا كانوا مكلّفين.

﴿وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ هذا زيادة توبيخ لهم، وتعنيف أي: وسكنتم ديار من كذب الرسل قبلكم، فأهلكهم الله، وعرفتم، فأنزل بهم من البلاء، والهلاك، والعذاب المعجّل، ـ عن ابن عباس والحسن ـ. ومساكنهم: دورهم وقراهم. وقيل: إنّهم عاد و ثمود. وقيل: هم المقتولون ببدر.

﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ وبيّنا لكم الأشباه، وأخبرناكم بأحوال الماضين قبلكم؛ لتعتبروا بها، فلم تعتبروا، ولم تتّعظوا. وقيل: الأمثال: ما ذكر في القرآن ممّا يدّل على أنّه تعالى قادر على الإعادة، كما هو قادر على الإنشاء والإبتداء. وقيل:

هي الأمثال المنبهة على الطاعة، الزاجرة عن المعصية، ـ عن الجبائي ـ. وفي هذه الآيات دلالة على أنّ الإيمان من فعل العبد؛ إذ لو كان من فعل الله تعالى، لم يكن لتمنّي العود إلى الدنيا معنى.

وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

القراءة: قرأ الكسائي وحده: ﴿لَتَزُولُ﴾ ـ بفتح اللام الأولى؛ ورفع الثانية ـ. والباقون: ﴿لِتَزُولَ﴾ ـ بكسر اللام الأولى، ونصب الثانية ـ. وفي الشواذّ، عن عليّ عليه السلام، وعمرو بن مسعود، وأُبيّ بن كعب: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ﴾. وقرأ زيد، عن يعقوب: ﴿من قَطِرَانٍ﴾ ـ على كلمتين منوّنتين ـ، وهو قراءة أبي هريرة، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والكلبي، وقتادة، وعيسى الهمداني، والربيع. وقرأ سائر القرّاء: ﴿قَطِرَانٍ﴾.

الحجة: قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿لِتَزُولَ﴾ ـ بالنصب ـ فإنّ ﴿إِنْ﴾ هي

النافية، فيكون مثل قوله: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ﴾ فمعناه: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، والجبال كأنّه أمر النبيّ ﷺ، وإعلامه، ودلائله أي: ما كان مكرهم لتزول منه ما هو مثل الجبال في إمتناعه، ممّن أراد إزالته. ومن قرأ: ﴿لِتَزُولُ﴾: كانت ﴿إِنْ﴾ هي المخفّفة من الثقيلة، على تعظيم أمر مكرهم، بخلاف القراءة الأولى، فيكون كقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً كُبَّاراً﴾ أي: قد كان مكرهم لعظمه وكبره، يكاد يزيل ما هو مثل الجبال في الإمتناع على من أراد إزالتها، وثباتها. ومثل هذا في التعظيم للأمر، قول الشاعر:

أَلَمْ تَرَ صَدْعاً فِي السَّمٰاءِ مُبَيَّناً عَلَى ابْنِ لُبَيْنَى الْحٰارِثِ بْنِ هِشَامِ[1]

وقال:

بَكَى الْحارِثَ الجَوْلانُ مِنْ مَوْتِ رَبِّهِ
وَحَوْرٰانُ مِنْهُ خٰاشِعٌ مُتَضٰائِلُ[2]

وقال أوس:

أَلَمْ تَكْسِفِ الشَّمْسُ شَمْسُ النَّهٰارِ
مَعَ النَّجْمِ والقَمَرِ الوٰاجِبِ[3]

ويدلّ على أنّ الجبال يعني بها أمر النبيّ ﷺ: قوله بعد: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أي: فقد وعد الظهور عليهم، والغلبة لهم في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ وقوله: للذين كفروا ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ وقد أستعمل لفظ «الجبال» في غير هذا الموضع في تعظيم الشيء وتفخيمه. قال ابن مقبل:

---

(١) لبينى: علم إمرأة.

(٢) الجولان: موضع بالشام. وحوران: بلد بها.

(٣) الواجب: الساقط. والغارب كناية عن حزن القمر على موت من يرثيه.

إِذَا مِتُّ عَنْ ذِكْرِ الْقَوَافِي فَلَنْ تِرَىٰ لَهَا شَاعِراً مِثْلِي أَطَبَّ، وَأَشْعَرَا[١]
وَأَكْثَرَ بَيْتاً شَاعِراً ضَرَبت بِهِ بُطُونُ جِبَالِ الشِعْرِ حَتّىٰ تَيَسَّرَا

ومن قرأ: ﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ﴾: فهي مخفّفة من الثقيلة أيضاً، فتقديره: وأنّه كاد مكرهم لتزول منه الجبال. قال ابن جنّي: القطر: الصفر والنحاس، وهو أيضاً الفلزّ، رويناه عن قطرب، وهو أيضاً الصاد، ومنه: قدور الصاد أي: قدور الصفر، والآني: الذي قد أني وأدرك. أنى الشيء يأني أنيا، وأناً مقصور، ومنه: قوله عزّ سبحانه: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ أي: بلوغه وإدراكه. قال أبو عليّ: ومنه: الإناء؛ لأنّه الظرف الذي قد بلغ غايته المرادة منه، من حرز وصياغة، ونحو ذلك. قال أميّة:

وَسُلَيْمَان إِذْ يَسيلُ لَهُ القِطْ رُ عَلَىٰ مُلْكِهِ ثِلاثَ لَيَالٍ[٢]

وأمّا القطران: ففيه ثلاث لغات: قَطِران على «فَعِلان»، وقَطْران ـ بفتح القاف وإسكان الطاء ـ، وقِطْران ـ بكسر القاف وإسكان الطاء ـ. والأصل فيه: قطران، فأسكنا على ما يقال كَلِمة: كَلْمة، وكِلْمة تميمية. قال أبو النجم:

جَوْنٌ كَأَنَّ العَرَقَ الْمَنْتُوحاً أَلْبَسَهُ الْقَطْرَانَ وَالْمُسُوحا[٣]

وقال:

كَأَنَّ قَطْرَاناً إِذَا تَلاهَا تَرْمِي بِهِ الرِّيحُ إِلَى مَجْرَاهَا

---

(١) أطبّ أي: أمهر وأحذق بالشعر. و«ضرّبت» مشدّداً بمعنى «ضربت» مخفّفاً. وشاعر في البيت الثاني بدل منه في الأوّل. والمراد: أنّه حنكته الاشعار حتى مهر فيها، وتيسّر له افواعها.

(٢) البيت لأميّة بن أبي الصلت، من قصيدة يشير فيها إلى قضية إبراهيم عليه السلام وغيرها، وفي البيت إشارة إلى قوله تعالى: وأسلنا له عين القطر، وفيها البيت المعروف ربما تكره النفوس من الأمر له فرجة كحل العقال.

(٣) الجون: الفرس الأسود. والمنتوح: الجاري من العرق.

اللغة: البروز: الظهور. والأصفاد: جمع الصفد، وهو الغلّ الذي يقرن به اليد إلى العنق، ويجوز أن يكون السلسلة التي يقع بها التقرين. والتقرين: جمع شيء إلى نظيره. والقران: الحبل يقرن به شيئان. يقال: صفدته بالحديد، وأصفدته. وصفّدته، قال عمرو بن كلثوم:

فَآبوا بِالنِّهابِ، وَبَالسَّبايا وَأُبْنا بِالمُلُوكِ مصَفَّدِينا

ومنه: أصفدته إصفاداً: إذا أعطيته مالاً. والصفد: العطيّة، وهو من الأوّل؛ لأنّ العطّية تصفد المودّة وتقيّدها، وإلى هذا المعنى أشار المتنبّي بقوله:

ومن وجد الإحسان قيداً تقيّدا

والإختيار في الحديد: صفدته، وفي العطيّة: أصفدته. قال الأعشى:

تَضَيَّفْتُهُ يَوْماً فَقَرَّبَ مَجْلِسي وَأَصْفَدَنِي عَلَى الزَّمانَةِ قائِداً

ومعناه: وأعطاني قايداً. وقال النابغة في الصفد الذي هو العطيّة:

هٰذَا الثَّناءُ، فإنْ تَسْمَعْ لِقائِلِه فَمَا عَرَضْتُ أَبَيْتَ اللَّعْنَ لِلصَّفَدِ

والسربال: القميص. قال إمرؤ القيس:

وَمِثْلِكَ بَيْضاءُ العَوارِضِ طِفْلَةٍ لَعُوبُ تُنَسِّيني إذا قُمْتُ سِرْبالي

والبلاغ: الكفاية، ومنه: البلاغة: وهو البيان الكافي. والبليغ: هو الذي يبلغ بلسانه كنه ما في ضميره.

الإعراب: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلِهِ﴾: إضافة ﴿مُخْلِفَ﴾ إلى ﴿وَعْدِهِ﴾ إضافة غير محضة؛ لأنّها في تقدير الإنفصال. و﴿وَعْدِهِ﴾ وإن كان مجروراً في اللفظ، فإنّه منصوب في المعنى؛ لأنّه مفعول، فإنّ «الإخلاف» يقتضي مفعولين. يقال: أخلفت زيداً وعده، فعلى هذا يكون تقديره: مُخْلِفاً وعده رسله وقيل: إنّه قرأ في الشواذّ ﴿مُخْلِفَ وَعْدَهُ﴾ ـ بالنصب ـ، ﴿رُسُلِهِ﴾ ـ بالجرّ ـ، وهي رديئة؛ للفصل بين المضاف والمضاف إليه. وأنشدوا في ذلك فَزَجَجْتُها بِمَزجَّةٍ زَجَّ الْقَلوصَ أبي

مَزَادَه[١].

ومعناه: فزججتها زجّ أبي مزادة القلوص. والعامل في قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾: قوله: ﴿مُخْلِفَ وَعْدِهِ﴾ أو إنتقام أي: ينتقم ذلك اليوم، أو بكون محذوفاً على تقدير. واذكر يوم تبدّل الأرض، وإن شئت جعلته نعتاً لقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ والأرض: مرفوعة على ما لم يسمّ فاعله، وغير منصوب؛ على أنّه مفعول ما لم يسمّ فاعله، تقول بدل الخاتم خاتماً آخر، إذا كسر وصيغ صيغة أخرى، وقد تقول بدل إذا تغيّر حاله.

المعنى: ثمّ أبان سبحانه عن مكر الكفّار، ودفعه ذلك عن رسله عليهم السلام، تسلية لنبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أي: وقد مكروا بالأنبياء قبلك ما أمكنهم من المكر، كما مكروا بك، فعصمهم الله من مكرهم، كما عصمك. وقيل: عني به كفّار قريش، الذين دبّروا في أمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، وإحتالوا عليه، ومكروا بالمؤمنين وخدعوهم.

﴿وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: جزاء مكرهم، فحذف المضاف كما حذف من قوله: ﴿تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ أي: جزاؤه يريد وقد عرف الله مكرهم، فهو يجازيهم عليه.

﴿وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ أي: ولم يكن مكرهم ليبطل حجج القرآن، وما معك من دلائل النبوّات، فإنّ ذلك ثابت بالدليل والبرهان. والمعنى: لا تزول منه الجبال، فكيف يزول منه الدين الذي هو أثبت من الجبال. وعلى القراءة الأخرى فالمعنى: إنّ مكرهم، وإن بلغ كل مبلغ، فلا يزيل دين الله تعالى، على ما تقدّم بيانه، ولا يضرّ ذلك أنبياءه، ولا يزيل أمرهم، ولا سيّما أمر محمّد صلى الله عليه وآله وسلم، فإنّه

---

(١) مزجّة: الرمح الصغير.

أثبت من الجبال.

وقد قيل: إنّ المراد به: نمرود بن كوش بن كنعان، حين أخذ التابوت، وأخذ أربعة من النسور، فأجاعها أيّاماً، وعلّق فوقها لحماً، وربط التابوت إليها، وطارت النسور بالتابوت، وهو ووزيره فيه، إلى أن بلغت حيث شاء الله تعالى، وظنّ أنّه بلغ السماء، ففتح باب التابوت من أعلاه، فرأى بُعد السماء منه، كبُعدها حين كان في الأرض، وفتح باباً من أسفل التابوت، فرأى الأرض قد غابت عنه، فهاله الأمر، فصوب النسور، وسقط التابوت، وكانت له وجبة، ـ عن ابن عباس، وابن مسعود، وجماعة ـ.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أي: فلا تظنّنّ الله عزّ إسمه مخلفاً رسله ما وعدهم به من النصر والظفر بالكفّار، والظهور عليهم ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ﴾ أي: ممتنع بقدرته من أن ينال بإهتضام، وهوان من الكفّار ﴿ذُو انتِقَامٍ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ قيل فيه قولان:

أحدها: إنّ المعنى: تبدّل صورة الأرض وهيئتها، ـ عن ابن عباس ـ. فقد روي عنه أنّه قال: تبدّل آكامها، وآجامها وجبالها، وأشجارها، والأرض على حالتها، وتبقى أرضاً بيضاء كالفضّة لم يسفك عليها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، وتبدّل السماوات، فيذهب بشمسها وقمرها ونجومها. وكان ينشد:

فَمَا النَّاسُ الَّذِينَ عَهَدْتُهُمْ ... وَلاَ الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتي كُنْتُ أَعْرِفُ

ويعضده ما رواه أبو هريرة عن النبيّ ﷺ قال: يبدّل الله الأرض غير الأرض، والسماوات، فيبسطها، ويمدّها مدّ الأديم العكاظي، لاترى فيها عوجاً ولا أمتاً، ثمّ يزجر الله الخلق زجرة، فإذا هم في هذه المبدلة مثل مواضعهم من الأولى، ما كان في بطنها كان في بطنها، وما كان على ظهرها كان على ظهرها.

والآخر: إنّ المعنى تبدّل الأرض، وتنشأ أرض غيرها، والسماوات كذلك

تبدّل بغيرها، وتفنى هذه، ـ عن الجبائي، وجماعة من المفسّرين ـ.

وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام بالإسناد عن زرارة، ومحمّد بن مسلم، وحمران بن أعين، عن أبي جعفر، وأبي عبد الله عليهما السلام، قالا: تبدّل الأرض خبزة نقيّة، يأكل الناس منها، حتى يفرغ من الحساب، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لاَ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ وهو قول سعيد بن جبير، ومحمّد بن كعب، وروى سهل بن سعد الساعدي، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد. وروي عن ابن مسعود أنّه قال: تبدّل الأرض بنار، فتصير الأرض كلّها يوم القيامة ناراً، والجنّة من ورائها يرى كواعبها وأكوابها، ويلجم الناس العرق، ولم يبلغو الحساب بعد. وقال كعب: تصير السموات جناتاً[نا]، ويصير مكان البحر النار، وتبدّل الأرض غيرها.

وروي عن أبي أيّوب الأنصاري قال: أتى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حبر من اليهود، فقال: أرأيت إذ يقول الله تعالى في كتابه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ فأين الخلق عند ذلك؟ فقال: أضياف الله، فلن يعجزهم ما لديه، وقيل: تبدّل الأرض لقوم بأرض الجنّة، ولقوم بأرض النار. وقال الحسن: يحشرون على الأرض الساهرة، وهي أرض غير هذه، وهي أرض الآخرة، وفيها تكون جهنّم، وتقدير الكلام: وتبدّل السماوات غير السماوات، إلاّ أنّه حذف؛ لدلالة الظاهر عليه.

﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ﴾ أي: يظهرون من ارض قبورهم للمحاسبة، لا يسترهم شيء، وجعل ذلك بروزاً لله؛ لأنّ حسابهم معه، وإن كانت الأشياء كلّها بارزة له، لا يسترها عنه شيء ﴿الْوَاحِدِ﴾ الذي لا شبه له، ولا نظير ﴿الْقَهَّارِ﴾: المالك الذي لا يضام يقهر عباده بالموت الزؤام[١].

---

[١] موت زؤام: عاجل. وقيل: سريع مجهز. وقيل: كريه.

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِين﴾ يعني: الكفّار، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ، وهو الظاهر؛ لأنّه تقدّم ذكرهم ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ أي: يوم القيامة ﴿مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ أي: مجمعين في الأغلال، قرنت أيديهم بها إلى أعناقهم. وقيل: يقرن بعضهم إلى بعض، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: مشدودين في قرن أي: حبل من الأصفاد والقيود، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: يقرن كل كافر مع شيطان كان يضلّه في غلّ من حديد، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. ويبيّنه قوله تعالى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجِهُمْ﴾ أي: قرناءهم من الشياطين. وقوله: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾.

﴿سَرَابِيلَهُمْ﴾ أي: قميصهم ﴿مِن قَطِرَانٍ﴾ وهو ما يطلى به الإبل، شيء أسود لزج منتن، يطلون به، فيصير كالقميص عليهم، ثمّ يرسل النار فيهم؛ لتكون أسرع إليهم، وأبلغ في الإشتعال، وأشدّ في العذاب، ـ عن الحسن، والزجّاج ـ. وقيل: نحاس أو صفر مذاب قد إنتهى حرّه، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ـ. وجوّز الجبائي على القراءتين أن يسربلوا سربالين: أحدهما: من القطران، والآخر: من القطر الآني.

﴿وَتَغْشَى وُجُوهَهُمْ النَّارُ﴾ أي: وتصيب وجوههم النار، لا قطران عليها ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ اللام تعلّقت بما تقدّم، أخبر سبحانه أنّه إنّما فعل ذلك بهم؛ لتجزى كل نفس بما كسبت، إن كسبت خيراً، بأن آمنت وأطاعت، أثابها الله بالنعيم المقيم، وإن كسبت شرّاً، بأن كفرت وجحدت، عاقبها بالعذاب الأليم في نار الجحيم.

﴿إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ أي: سريع المجازاة، وقد سبق بيانه ﴿هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ﴾ هو اشارة إلى القرآن، ـ عن ابن عباس، والحسن، وابن زيد، وغيرهم ـ. أي: هذا القرآن عظة للناس بالغة كافية. وقيل: هو إشارة إلى ما تقدّم ذكره أي: هذا الوعيد كفاية لمن تدبّره من الناس. والأوّل هو الصحيح.

﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ أي: أنزل؛ ليبلغوا، وينذروا به، وليخوفوا بما فيه من الوعيد ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له بالنظر في أدلّة التوحيد التي بيّنها الله في القرآن ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: وليتّعظ به أهل العقول، وذوو النهى. وفي هذه الآية دلالة على أنّ القرآن كاف في جميع ما يحتاج الناس إليه في أمور الدين؛ لأنّ جميع أمور الدين جملها وتفاصيلها، يعلم القرآن، إمّا بنفسه، أو بواسطة، فيجب على المؤمن المجتهد المهتمّ بأمور الدين، أن يشمر عن ساق الجدّ في طلب أمور القرآن، ويصدق عنايته بمعرفة ما فيه من بدائع الحكمة، ومواضع البيان، مكتفياً به عمّا سواه؛ لينال السعادة في دنياه وعقباه.

وفي قوله: ﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ دلالة على أنّه سبحانه أراد من الناس علم التوحيد، خلافاً لأهل الجبر في قولهم: إنّه سبحانه أراد من النصارى إثبات التثليث، ومن الزنادقة القول بالتثنية، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. وفي قوله: ﴿لِيَذَّكَّرَ﴾ دلالة على أنّه أراد من الجميع التدبّر والتذكّر، وعلى أنّ العقل حجّة؛ لأنّ غير ذوي العقول لا يمكنهم الكفر، والإعتبار.

﴿النَّظْمُ﴾: إتّصلت الآية الثانية بقوله: ﴿وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ﴾ أي: فلا تحسبوا أنّ الله يخلف وعده. بل يجازيهم، وينصر رسله، وقيل: إتّصلت بقوله: ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ﴾ أي: فلا تحسبوه مخلف وعده في العقوبة للكفّار، بل إن شاء أخّر، وإن شاء عجّل، وإتّصل قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ بقوله: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ أي: لا يخلفهم وعده، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: المراد به: أنّه ذو إنتقام من الكفّار، ذلك اليوم، وإتّصل قوله: ﴿لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾ بقوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ﴾.

سورة الحجر

مكّيّة في قول قتادة، ومجاهد. وقال الحسن: إلاّ قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْآنَ ٱلْعَظِيمَ﴾ وقوله: ﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ * ٱلَّذِينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ وهي تسع وتسعون آية بالإجماع(١).

فضلها: أبيّ بن كعب عن النبيﷺ: قال من قرأها أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار، والمستهزئين بمحمّدﷺ.

تفسيرها: لمّا ختم الله سبحانه سورة إبراهيمعليه السلام بذكر القرآن، وأنّه بلاغ وكفاية لأهل الإسلام، إفتتح هذه السورة بذكر القرآن، وأنّه مبيّن للأحكام، فقال:

---

(١) معنى الإجماع هنا إتّفاق جميع من تصدّى لعدّ الآيات، لا ما يعلم به ر أي المعصوم عليه السلام. وللإجماع ثلث مراحل: الأولى: أن يعلم من إتفاق جماعة نعرفهم إتّفاق الجميع، وينكره أهل الحديث. الثانية: أن يعلم من إتّفاق الجميع قول المعصوم عليه السلام، وقسمه بعضهم إلى الدخولي، واللطفي، والحدسي. والدخولي أولى. والثالثة: الإحتجاج بقوله عليه السلام فيما يؤخذ من الشرع، وفيما لايؤخذ من الشرع، كالنحو واللغة له مرحلتان: الأولى أن يعلم من إتّفاق جماعة من النحاة مثلاً إتّفاق جميعهم. الثانية: أن يحصل من إتّفاق جميعهم العلم بصدق مدعاهم. والإجماع حجّة مطلقاً.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤﴾ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٥﴾

القراءة: قرأ أهل المدينة، وعاصم: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ﴾ ـ خفيفة الباء ـ. والباقون: بالتشديد. وروى محمّد بن حبيب الشموني، عن الأعشى، عن أبي بكر: ربتما ـ بالتاء ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: أنشد أبو زيد:

مَاوِيَّ بَلْ رُبَّتَما غَارَةٌ شَعْواءُ كَاللَّذْعَةِ بِالميسمِ[1]

وأنشد أيضاً:

يَا صَاحِبا رُبَّتَ إِنْسَانٍ حَسَنٍ يَسْأَلُ عَنْكَ الْيَوْمَ أَوْ تَسأَلُ عَنْ

وقال السكري: ربَّما، وربَّتما، وربَما، وربَتما، ورُبَّ، وربَ، ستّ لغات. قال سيبويه: رب: حرف، ويلحقها «ما» على وجهين: أحدهما: أن يكون نكرة بمعنى «شيء»، وذلك كقوله:

---

(١) الميسم: آلة الوسم.

رُبَما تَكْرَهُ النُّفُوسُ مِنْ الأَمْرِ لَـهُ فَـرْجَةٌ كَـحَلّ العِـقَالِ[١]

فما في هذا البيت إسم لما يقدر من حذف الضمير إليه من الصفة، والمعنى: رب شيء تكرهه النفوس، وإذا عاد إليه الهاء، كان إسماً، ولم يجز أن يكون حرفاً، كما أنّ قوله: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِن مَالٍ وَبَنِينَ﴾ لما عاد إليه الذكر، علمت بذلك انه إسم، وقوله: فرجه: يرتفع بالظرف في قول النـاس جـميعاً، ولا يـرتفع بالإبتداء. وقد يقع أيضاً لفظة «مَن» بعد «ربّ» في مثل قوله:

ألاَ رُبَّ مَنْ تَغْتَشُّهُ لَكَ نَاصِحٍ وَمُؤْتَمَنٍ بِالغَيْبِ غَيْرِ أَمِينِ[١]

فكما دخلت «ربّ» على «مَن»، وكانت نكرة في معنى «شـيء»، كـذلك تدخل على «ما»، والآخر: أن تدخل كافّة، كما في الآية. ونحو قال الشاعر:[٢]

رُبَـما أَوْفَـيْتُ فـي عَـلَمٍ تَرْفَعَنْ ثَوْبي شِمالاتُ[٢]

والنحويّون يسمّون «ما» هذه كافّة، يريدون أنّها بدخولها كفّت الحرف عن العمل الذي كان له، وهيّأته لدخوله على ما لم يكن يـدخل عـليه، ألا تـرى أنّ «ربّ» إنّما تدخل على الإسم المفرد، نحو: ربّ رجل كريم يقول ذلك، وربّه رجلاً يقول ذلك، ولا يدخل على الفعل، فلمّا دخلت «ما» عليها، سوّغت لها الدخـول على الفعل. فمن ذلك قوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فوقع الفعل بعدها في الآية، وهو على لفظ المضارع، ووقع في قوله: ربما أوفيت في علم ـ على لفظ الماضي ـ وهكذا ينبغي في القياس؛ لأنّها تدلّ على أمر قد مضى، وإنّما وقع في الآية على لفظ المضارع؛ لأنّه حكاية لحال آتية، كما أنّ قـوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَـيَحْكُمُ بَـيْنَهُمْ﴾

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

(٢) الشعر في جامع الشواهد.

[١] قوله تغتشه أي: تظن به الغش. وفي قوله «ناصح» يجوز الرفع والجر، فالرفع على الخبرية، والجر على أنه صفة لمن، ويتبعه في الوجهين «مؤتمن» وكذا «غير».

[٢] قائله: جذيمة الأبرش.

حكاية لحال آتية، ومن حكاية الحال قول القائل:

جارِيَةٌ في رَمَضانِ الْماضِي تُقَطِّعُ الْحَدِيثَ بِالإيماضِ

ومن زعم أنّ الآية على إضمار «كان»، وتقديره: ربما كان يودّ، فقد خرج بذلك عن قول سيبويه. ألا ترى أنّ «كان» لا يضمره، ولم يجز: عبد الله المقتول، وأنت تريد: كن عبد الله المقتول. فأمّا إضمارها بعد «إن» في قولهم: إن خيراً فخير، فإنّما جاز ذلك لإقتضاء الحرف له، فصار إقتضاء الحرف له كذكره، فأمّا ما أنشده ابن حبيب لنبهان بن مسور:

لَقَدْ رُزِيَتْ كَعْبُ بْنُ عَوْف، وَرُبَّما فَتىً لَمْ يَكُنْ يَرْضى بِشَيْءٍ يَضيمُهُ

فإنّ قوله: فتى في «ربما فتى» يحتمل ضروباً: أحدها: أن يكون لما جرى ذكر «رزيت»، إستغنى بجري ذكره من ان يعيده، فكأنّه قال: ربما رزيت فتى، فيكون إنتصاب «فتىً» بـ«رزيت» هذه المضمرة، كقوله: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾، فاستغنى بذكر «آمنت له» المتقدّم، عن إظهاره بعد، وقد يجوز أن ينتصب «فتىً» بـ«رزيت» هذه المذكورة، كأنّه قال: لقد رزيت كعب بن عوف فتى، وربما لم يكن يرضى أي: رزئت فتى لم يكن يضام، ويكون هذا الفصل في أنّه أجنبيّ بمنزلة قوله:

أبو أمّه حيّ أبوه يقاربه[1]

وقد يجوز ان يكون مرتفعاً بفعل مضمر، كأنّه قال: ربما لم يرض فتى كقوله: «وَقلّما وصال على طول الصدود يدوم». ويجوز أن يكون «ما» نكرة بمنزلة «شيء»، فيكون «فتى» وصفاً لها؛ لأنّها لمّا كانت كالأسماء المبهمة في إبهامها، وصفت بأسماء الأجناس، كأنّه قال: ربّ شيء فتى، لم يكن كذا، فهذا الأوجه كلّها

(١) أوّله: وما مثله في الناس إلاّ مملكاً، وهو في جامع الشواهد.

ممكنة. ويجوز في الآية أن يكون ﴿مَا﴾ بمنزلة «شيء»، و﴿يَوَدُّ﴾ صفة له؛ لأنّ ﴿مَا﴾ لعمومها يقع على كل شيء، فيجوز أن يعني بها الودّ، كأنّه قال: ربّ ودٍّ يودّه الذين كفروا، ويكون «يودّ» في هذا الوجه أيضاً حكاية حال. ألا ترى أنّه لم يكن بعد، وهذه الآية في المعنى كقوله: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾، وكقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ وكتمنّيهم الردّ في قوله: يا ليتنا نردّ ولا نكذّب. وأمّا قول من قال: ﴿ربما﴾ ـ بالتخفيف ـ؛ فلأنّه حرف مضاعف، والحروف المضاعفة قد تحذف، وإن لم يحذف غير المضاعف، فمن المضاعف الذي حذف: أن، وإن، ولكن، وليس كل المضاعف يحذف. لم أعلم الحذف في «ثمّ». وأمّا دخول التاء في «ربتما»: فإنّ من الحروف ما يدخل عليه حرف التأنيث، نحو: ثمّ، وثمّت، ولا، ولات. قال:

ثُمَّتَ لاْ يَجْزُونَني عِنْدَ ذاكُمُ وَلٰكِنْ سَيَجْزِينِي الْمَلِيكُ فَيَعْقبا

فكذلك ألحقت التاء في قولهم: ربتما. وأنشد الزجّاج في تخفيف «ربّ» قول الحادرة:

أَسُمَيَّ ما يدْرِيكِ أَنْ رُبَ فِتْيَةٍ بٰاكَرْتُ لَذَّتَهُمْ بأَدكَنَ مُتْرِعِ[١]

قال: وقد يسكنون في التخفيف، يقولون: رب رجل جاءني. وأنشدوا بيت الهذلي:

أزُهَيْرُ إِنْ شَبَّ القَذالُ فَإِنَّني رُبَ هَيْضَلٍ مَرْسٍ لَفَفْتُ بِهَيْضَلِ(١)

ويقولون: ربت رجل، وربت رجل، بفتح الراء. ورب رجل، وربما رجل

---

(١) الهيضل: الجيش. ومرس: أي حاذق ممارس وادكن مترع، كناية عن الجيش الكثير. والدكنة: السواد. وسمّى: مرخّم سميّة، علم إمرئة. وشبّ القذال: إبيضاض شعر القفا، كناية عن الشيخوخة.

[١] الأدكن: كلون الخزّ الذي يضرب إلى الغُبرة بين الحُمرة والسواد.

جاءني، وربتما رجل، فيفتحون، حكى ذلك قطرب.

الإعراب: «قرآن»: عطف على «الكتاب»، وإنّما عطفه عليه، وإن كان الكتاب هو القرآن؛ لإختلاف اللفظين وما فيهما من الفائدتين، وإن كانا لموصوف واحد؛ لأنّ وصفه بالكتاب يفيد أنّه ممّا يكتب ويدوّن، ووصفه بالقرآن يفيد أنّه ممّا يؤلف ويجمع بعض حروفه إلى بعض، كما قال الشاعر:

إلَى الملِكِ الْقرْمِ، وابْنِ الهِمَامِ ... وَلَيْثِ الْكَتيبَةِ في الْمُزْدَحَمِ

وذي الرَّأْيِ حينَ تَغُمُّ الأُمُورُ ... بِذَاتِ الصَّليلِ، وَذاتِ اللُّجمِ[1]

ويقال: لِمَ جاز ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ و«ربّ» للتقليل؟ وجوابه: على وجهين: أحدهما: إنّه أبلغ في التهديد، كما تقول: ربما ندمت على هذا، وأنت تعلم أنه يندم ندماً طويلاً أي: يكفيك قليل الندم، فكيف كثيره. والثاني: إنّه يشغلهم العذاب عن تمنّي ذلك إلاّ في أوقات قليلة.

المعنى: ﴿الر﴾ قد تقدّم الكلام في هذه الحروف، وأقوال العلماء فيها ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ أي: هذه آيات الكتاب، وآيات قرآن مميّز بين الحقّ والباطل. وقيل: المبين البيّن الواضح، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: هو المبيّن للحلال والحرام، والأوامر والنواهي، والأدلّة وغير ذلك. وقيل: المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: المراد به: الكتب المنزلة قبل القرآن، ـ عن قتادة ـ. ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ أي: ربما يتمنّى الكفّار الإسلام في الآخرة، إذا صار المسلون إلى الجنّة، والكفّار إلى النار، ويجوز أن يتمنّوا ذلك وقت اليأس.

وروى مجاهد، عن ابن عباس، قال: ما يزال الله يدخل الجنّة، ويرحم، ويشفع، حتى يقول من كان من المسلمين فليدخل الجنّة، فحينئذ يودّ الذين كفروا

---

(١) والصليل: صوت اللجام. وذات الصليل: الخيل.

لو كانوا مسلمين. وقال الصادق عليه السلام: ينادي مناد يوم القيامة يسمع الخلائق: إنّه لا يدخل الجنّة إلاّ مسلم، فثمّ يودّ سائر الخلائق أنّهم كانوا مسلمين. وروي مرفوعاً عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: إذا إجتمع أهل النار في النار، ومعهم من يشاء الله من أهل القبلة، قال الكفّار للمسلمين: ألم تكونوا مسلمين؟ قالوا: بلى. قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم، وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب، فأخذنا بها. فيسمع الله عزّوجلّ ما قالوا، فأمر من كان في النار من أهل الإسلام، فأخرجوا منها، فحينئذ يقول الكفّار: يا ليتنا كنّا مسلمين.

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا ﴾ معناه: دعهم يأكلوا في دنياهم أكل الأنعام، ويتمتعوا فيها بما يريدون. التمتّع: التلذّذ، وهو طلب اللذّة حالاً بعد حال ﴿وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ﴾ أي: وتشغلهم آمالهم الكاذبة عن إتّباع النبي صلى الله عليه وآله والقرآن يقال: ألهاه الشيء أي: شغله وأنساه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ وبال ذلك فيما بعد، حين يحلّ بهم العذاب يوم القيامة، وصاروا إلى ما يجحدون به. وفي هذه الآية إشارة إلى أنّ الإنسان يجب أن يكون مقصور الهمّة على أمور الآخرة، مستعدّاً للموت مسارعاً إلى التوبة، ولا يأمل الآمال المؤدّية إلى الصدّ عنها. وقد روي عن أميرالمؤمنين عليه السلام أنّه قال: إنّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان: إتّباع الهوى، وطول الأمل، فإنّ إتّباع الهوى يصدّ عن الحقّ، وطول الأمل ينسي الآخرة.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ معناه: ولم نهلك أهل قرية فيما مضى على وجه العقوبة، إلاّ وكان لهم أجل مكتوب لابدّ أن سيبلغونه. يريد: فلا يغرّنَّ هؤلاء الكفّار، إمهالي إيّاهم، إنّما ينزل العذاب بهم في الوقت المكتوب المقدّر لذلك.

﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي: لم تكن أمّة فيما مضى تسبق أجلها، فتهلك قبل ذلك، ولا تتأخّر عن أجلها الذي قدّر لها، بل إذا استوفت أجلها أهلكها الله.

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر: ﴿مَا نُنَزِّلُ﴾ ـ بنونين ـ ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ ـ بالنصب ـ. وقرأ أبو بكر عن عاصم: ما تُنَزَّلُ ـ بضمّ التاء ـ، ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ ـ بالرفع ـ. وقرأ الباقون: ما تَنَزَّلُ ـ بفتح التاء والزاي ـ ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾ ـ بالرفع ـ. وقرأ ابن كثير: ﴿سُكِرَتْ﴾ ـ بالتخفيف ـ. والباقون: بالتشديد. وفي

(١) أدغم «قد خلت سنّة» حمزة والكسائي وخلف وهشام، وكذلك «لقد جعلنا».

الشواذّ، قراءة الزهري: ﴿سَكَرَتْ﴾.

الحجّة: قال أبو عليّ: حجّة من قرأ: ﴿تَنَزَّلُ﴾: قوله: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا﴾. وحجّة من قرأ: ﴿تُنَزِّلُ﴾ قوله: ﴿وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً﴾. وحجّة من قرأ: ﴿نُنَزِّلُ﴾: قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نزّلنا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ﴾ ووجه التثقيل في ﴿سُكِّرَتْ﴾: أنّ الفعل مسند إلى جماعة، فهو مثل: مفتّحة لهم الأبواب. ووجه التخفيف: أنّ هذا النحو من الفعل المسند إلى جماعة قد يخفّف. قال: «مازلت أفتح أبواباً وأغلقها».

اللغة: الشيع: الفرق، ـ عن الزجّاج ـ، وكل فرقة شيعة، وأصله من المشايعة، وهي المتابعة. يقال: شايع فلان فلاناً على أمره أي: تابعه عليه، ومنه: شيعة عليّ عليه السلام: وهم الذين تابعوه على أمره، ودانوا بإمامته، وفي حديث أمّ سلمة، عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: شيعة عليّ هم الفائزون يوم القيامة. وسلك وأسلك بمعنى. والمصدر: السلك والسلوك. قال عدي بن زيد:

وَكُنتُ لِزازَ خَصْمِكَ لَمْ أُعَرِّدْ[1] وَقَدْ سَلَكُوكَ فِي يَوْمٍ عِصِيب

وقال آخر:

حَتَّى إذا سَلَكُوهُمْ فِي قُتَائِدَةٍ[2] شَلاًّ كَمَا تَطْرُدُ الْجَمالَةُ الشُّرُدا[1]

والعروج: الصعود في الدرج، والمضارع: يُعرج ويعرِج أبو عبيدة. سكّرت أبصارنا: غشيت. قال أبو عليّ: فكأنّ معناه: لا ينفذ نورها، ولا يدرك الأشياء على حقيقتها. ومعنى الكلمة: إنقطاع الشيء عن سننه الجاري، فمن ذلك سكر الماء وهو ردّه عن سننه في الجري. وقالوا التسكير في الرأي قبل أن يعزم على الشيء، وإذا

---

(١) لزاز خصمك: أي ملازمهم. ولم أعرّد: أي لم أفرّ.

(٢) قتائدة: تلّ، ومصعد صعب العبور.

[١] قائله: عبد مناف ابن ربيع الهذليّ. قُتائدة: ثنية معروفة؛ وقيل: اسم عقبة. يقال للجمل الشرود والشرد والشِّراد إذا استعصى وذهب على وجهه.

عزم على أمر ذهب التسكير، ومنه: السكر في الشراب: إنّما هو أن ينقطع عمّا هو عليه في المضاء في حال الصحو، فلا ينفذ رأيه ونظره على حد نفاذه في صحوه. وقالوا سكران لا يثبت، فعبروا عن هذا المعنى فيه، قال الزجاج: فسروا سكرت أغشيت، وسَكَرت تحيرت، وسكنت عن ان تنظر، والعرب تقول سَكَرت الريح سكنت، وكذلك سكر الحرّ، قال الشاعر:

جاءَ الشِّتاءُ، وإجْتَأَلَّ القُبَّرُ[١] وَجَعَلَتْ عَيْنُ الحَرُورِ تَسْكُرُ[١]

والبرج: اصله الظهور، ومنه البرج من بروج السماء، وبرج الحصن، ويقال: تبرجت المرأة: إذا أظهرت زينتها. والرجيم: المرجوم. والرجم: الرمي بالشيء بالإعتماد من غير آلة مهيأة للإصابة، فإن القوس يرمي عنها، ولا يرجم بها ورجمته: شتمته. والشهاب: القطعة من النار. قال الزجّاج: والشهب النقضة [المنقضّة] من آيات النبي ﷺ، والدليل على أنّها كانت بعد مولد النبيّ ﷺ، أنّ شعراء العرب الذين كانوا يمثلون في السرعة بالبرق، وبالسيل، وبالأشياء المسرعة، لم يوجد في أشعارهم بيت واحد فيه ذكر الكواكب المنقضّة[٢]، فلمّا

---

(١) إجتألّ الطائر: إنتفخ بريشه.

(٢) قال الإمام الرازي: إن قيل: كانت هذه الشهب موجودة قبل المبعث لأمور: الأوّل إنّ قدماء الفلاسفة تكلّموا في أسبابها، والثاني: إنّ وصفها جاء في أشعار الجاهليّة، وذكر منها أبياتاً. والثالث: رواية الزهري عن زين العابدين عليه السلام بينا رسول الله ﷺ جالس في نفر من الأنصار، إذ رمى بنجم، فإستنار، فقال ﷺ: ما كنتم تقولون في مثل هذا في الجاهليّة، فقالوا: كنّا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم، الحديث. وإختار في الجواب أنّ هذه الشهب كانت موجودة، إلاّ أنّها زيدت بعد المبعث، وجعلت أكمل وأقوى، ويدلّ عليه قوله تعالى: فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً، إنتهى بتلخيص. وقد يتّفق كثرة الانفضاض [الإنقضاض]، ويسمّى تناثر النجوم كل سنة يكثر فيها، وإتّفق في سنة ٣٢٩، ومات فيها الكليني، وجماعة من العلماء.

[١] قائله: المثنى الطهوي. والحرور: الريح الحارة.

حدثت بعد مولد النبيّ ﷺ، استعملت الشعراء ذكرها. قال ذو الرمة:

كَأَنَّــهُ كَــوْكَبٌ فــي إِثْـرِ عِـفرِيَةٍ مُسَوَّمٌ في سَوادِ اللَّيْلِ مُـنْقَضِبِ[١]

الإعراب: ﴿لَوْ مَا﴾ دعاء إلى الفعل، وتحريض عليه، وهـو بـمعنى: لولا، وهلاّ، وقد جاءت «لو ما» في معنى «لولا» التي لها جواب. قال ابن مقبل:

لَوْمَا الحَياءُ، وَلَوْلا الدينُ عِبْتُكُما بِبَعْضِ ما فيكُما، إذْ عِبْتُما عَورَى

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾: إستثناء منقطع، والمعنى: لكن من استرق السمع يتبعه شهاب. وقال الفرّاء: هو إستثناء صحيح؛ لأنّ الله تعالى لم يحفظ السماء ممّن يصعد إليها ليسترق السمع، لكن إذا سمعه وأداه إلى الكهنة، أتبعه شهاب.

المعنى: ﴿وَقَالُوا﴾ أي: قال المشركون للنبيّ ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّـذِي نُـزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي: القرآن في زعمه، ودعواه ﴿إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ في دعواك أنّه نزّل عليك، وفي توهّمك أنّا نتّبعك، ونؤمن بك ﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ يشهدون لك على صدق قولك ﴿إِنْ كُنْتَ مِنْ الصَّادِقِينَ﴾ فيما تـدّعيه، ـ عـن ابـن عـباس، والحسن ـ.

ثمّ أجابهم سبحانه بالجواب المقنع، فقال: ﴿مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لا ننزّل الملائكة إلاّ بالحقّ الذي هو الموت، لا يقع فيه تقديم وتأخير فيقبض أرواحهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: لا ينزلون إلاّ بعذاب الإستئصال إن لم يؤمنوا، ـ عن الحسن، ومجاهد، والجبائي ـ. وقيل: ما ينزلون في الدنيا إلاّ بالرسالة، عن مجاهد ـ ﴿وَمَا كَانُوا إِذاً﴾ أي: حين ننزّل الملائكة ﴿مُنظَرِينَ﴾ مؤخّرين ممهلين أي: لا يمهلون ساعة.

ثمّ زاد سبحانه في البيان، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ﴾ أي: القرآن. ﴿وَإِنَّا

---

[١] يصف ثوراً وحشيّاً. وعفرية: حيث منكر. وقوله منقضب: أي: منقض من مكانه.

﴿لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ عن الزيادة والنقصان، والتحريف والتغيير، ـ عن قتادة، وابن عباس ـ. ومثله: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾. وقيل: معناه: متكفّل بحفظه إلى آخر الدهر على ما هو عليه، فتنقله الأمّة وتحفظه، عصراً بعد عصر، إلى يوم القيامة؛ لقيام الحجّة به على الجماعة، من كل من لزمته دعوة النبيّ ﷺ، ـ عن الحسن ـ[1]. وقيل: يحفظه من كيد المشركين، ولا يمكنهم إبطاله، ولا يندرس، ولا ينسي، ـ عن الجبائي ـ. وقال الفرّاء: يجوز أن يكون الهاء في «له»، كناية عن النبيّ ﷺ، فكأنّه قال: إنّا نزّلنا القرآن، وإنّا لمحمّد ﷺ لحافظون.

وفي هذه الآية دلالة على أنّ القرآن محدث؛ إذ المنزل والمحفوظ لا يكون [تكون إلاّ] محدثاً ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ يا محمّد رسلاً، ـ عن ابن عباس ـ، فحذف المفعول؛ لدلالة الإرسال عليه ﴿فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: في فرق الأوّلين، ـ عن الحسن، والكلبي ـ. وقيل: في الأمم الأوّلين، ـ عن عطا، عن ابن عباس ـ.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ وهذا تسلية للنبيّ ﷺ؛ إذ أخبره أنّ كل رسول كان مبتلى بقومه، وإستهزاؤهم بالرسل، إنّما حملهم على ذلك إستبعادهم ما دعوهم إليه، وإستيحاشهم منه، وإستنكارهم له، حتى توهّموا أنّه ممّا لا يكون، ولا يصحّ. مع مخالفته لما وجدوا عليه أسلافهم.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فيه قولان:

أحدهما: إنّ معناه: إنّا نسلك الذكر الذي هو القرآن في قلوب الكفّار بإخطاره عليها، وإلقائه فيها، وبأن نفهمهم إيّاه، وإنّهم مع ذلك ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ ماضين على سنّة من تقدّمهم في تكذيب الرسل، كما سلكنا دعوة الرسل في قلوب

---

(١) ولاينافي ذلك تعدّد القرآآت المجوّزة من النبيّ ﷺ.

من سلف من الأمم، ـ عن البلخي، والجبائي ـ. والمراد: أنّ إعراضهم عن القرآن، لا يمنعنا من أن ندخله في قلوبهم، تأكيداً للحجّة عليهم.

والآخر: إنّ المعنى: نسلك الإستهزاء في قلوبهم عقوبة لهم على كفرهم. والأوّل هو الصحيح.

وقد رووا عن جماعة من المفسّرين أنّ المراد: نسلك الشرك في قلوب الكفّار، وذلك لا يصحّ؛ لأنّه لم يجر للشرك ذكر، وقد جرى ذكر الذكر وهو القرآن؛ ولأنّه قال: ﴿لاَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾. و لو عاد الضمير في قوله: ﴿بِهِ﴾ إلى الشرك، لكان الكفّار محمودين، إذا كانوا لا يؤمنون بالشرك، ولا خلاف أنّ الآية وردت على سبيل الذمّ لهم. ولو كان الله سبحانه قد سلك الكفر في قلوبهم، لسقط عنهم الذمّ، ولما جاز أن يقول لهم: كيف تكفرون وأنتم نتلى عليكم آيات الله. لقد جئتم شيئاً إدّاً. تكاد السماوات يتفطّرن منه. وكيف ينكر عليهم هذا الإنكار، وهو الواضع لذلك في قلوبهم؟ وكيف يأمرهم بإخراجه من حيث وضعه فيه، تعالى وتقدّس عن ذلك.

﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مضت طريقة الأمم المتقدّمة، بأن كانت رسلهم تدعوهم إلى كتب الله المنزلة، ثمّ لا يؤمنون. وقيل: مضت سنّة الأوّلين بأن عوجلوا بعذاب الإستئصال عند الإتيان بالآيات المقترحة مع إصرارهم على الكفر، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: مضت سنّتهم في التكذيب، كما أنّ قومك كذّبوك، ـ عن ابن عباس ـ.

ثمّ قال بعد ما تقدّم ذكر إقتراحهم الآيات (وَلَوْ فتحنا عليهم) أي: على هؤلاء المشركين ﴿بَاباً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ينظرون إليه ﴿فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾ أي: فظلّت الملائكة تصعد و تنزل في ذلك الباب، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وقيل: فظلّ هؤلاء المشركون يعرجون إلى السماء من ذلك الباب، وشاهدوا ملكوت

السماوات، ـ عن الحسن، والجبائي، وأبي مسلم ـ.

﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾ أي: سدّت و غطّيت، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: أغشيت وعميت، ـ عن ابن عباس، والكلبي، وأبي عمرو، والكسائي ـ. وقيل: تحيّرت وسكنت عن أن تنظر ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ سحرنا محمّد ﷺ فلا ننظر ببصر، ويخيل الأشياء إلينا على خلاف حقيقتها.

ثم ذكر سبحانه دلالات التوحيد، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا﴾ أي: خلقنا، وهيّأنا ﴿فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً﴾ أي: منازل الشمس و القمر ﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ بالكواكب النيّرة، عن أبي عبد الله عليه السلام، وهي إثنا عشر برجاً. وقيل: البروج: النجوم، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة ـ.

﴿وَحَفِظْنَاهَا﴾ أي: وحفظنا السماء ﴿مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ أي: مرجوم مرمي بالشهب، ـ عن أبي عليّ الجبائيّ، وأبي مسلم ـ. وقيل: رجيم: ملعون مشؤوم، ـ عن ابن عباس ـ. وحفظ الشيء: جعله على ما ينفى عنه الضياع، فمن ذلك حفظ القرآن بدرسه حتى لا ينسى، وحفظ المال بإحرازه حتى لا يضيع، وحفظ السماء من الشيطان بالمنع حتى لا يدخلها، ولا يبلغ الى موضع يتمكّن فيه من إستراق السمع بما أعدّ له من الشهاب.

﴿إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ﴾ والسرقة عند العرب أن يأتي الإنسان إلى حرز خفية، فيأخذ ما ليس له. والمراد بالسمع هنا: المسموع، والمعنى: إلاّ من حلول أخذ المسموع من السماء في خفية ﴿فَأَتْبَعَهُ﴾ أي: لحقه ﴿شِهَابٌ مُبِينٌ﴾ أي: شعلة نار ظاهر لأهل الأرض، بيّن لمن رآه، ونحن في رأي العين نرى كأنّهم يرمون بالنجوم، والشهاب عمود من نو،ر يضيء ضياء النار؛ لشدّة ضيائه.

وروي عن ابن عباس أنّه قال: كان في الجاهليّة كهنة. ومع كل واحد شيطان، فكان يقعد من السماء مقاعد للسمع، فيستمع من الملائكة ما هو كائن في

الأرض، فينزل ويخبر به الكاهن، فيفشيه الكاهن إلى الناس، فلمّا بعث الله عيسى عليه السلام، منعوا من ثلاث سماوات. ولمّا بعث محمّد صلى الله عليه وآله وسلم منعوا من السماوات كلّها، وحرست السماء بالنجوم. فالشهاب من معجزات نبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنّه لم يرقبل زمانه. وقيل: إنّ الشهاب يحرق الشياطين ويقتلهم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: إنّه يخبل و يحرق، ولا يقتل، ـ عن ابن عباس ـ.

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ[1] وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾

القراءة: قرأ حمزة وحده: الريح لواقح. والباقون: ﴿الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾.

الحجّة: قال أبو عبيدة: لا أعرف لذلك وجهاً إلاّ أن يريد أنّ الريح تأتي مختلفة من كل وجه، فكانت بمنزلة الرياح. وحكى الكسائي أرض اغفال، وأرض سباسب. قال المبرّد: يجوز ذلك على أن يجعل الريح جنساً، وليس بجيّد؛ لأنّ

---

(١) معايش: بالياء إتّفاقاً، ومضى في سورة الأعراف.

الرياح ينفصل بعضها عن [معروفة] بعض، ومعرفة كل واحدة منها، والأرض ليست كذلك؛ لأنّها بساط واحد.

(اللغة): الرواسي: الثوابت، واحدها: راسية. والمراسي: ما يثبت به. والوزن: وضع أحد الشيئين بإزاء الآخر على ما يظهر به مساواته في المقدار وزيادته. والمعايش: جمع معيشه، وهي طلب أسباب الرزق مّدة الحياة، وقد يطلبها الإنسان لنفسه بالتصرّف والتكسّب، وقد يطلب له فإن أتاه أسباب الرزق من غير طلب، فذلك العيش الهنيء. واللواقح: الرياح التي تلقح السحاب حتى يحمل الماء أي: يلقي إليه ما يحمل به الماء. يقال: لقحت الناقة: إذا حملت، وألقحها الفحل. فاللواقح في معنى الملقحات. وقيل: في [علّة] ذلك قولان:

أحدهما: إنّه في معنى: ذات لقاح، ومثله: همّ ناصب أي: ذونصب. قال النابغة.

كِليني لِهَمّ يا أُمَيْمَةُ ناصِبٍ ... وَلَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطيء الْكواكِبِ

أي: منصب: وقال نهشل بن جري:

لِيُبْكَ يَزيدُ ضارعٌ لِخُصُومَةٍ ... وَمُخْتَبِطٌ مِمّا تُطِيحُ الطَّوَائِحُ[1]

أي: المطاوح.

والآخر: إنّ الرياح لا قحة بحملها الماء، ملقحة بإلقائها إيّاه إلى السحاب. ويقال: سقيته فيما يشربه بشفته، واستقيت [أسقيته] ـ بالألف ـ فيما تشربه ارضه. قال عليّ بن عيسى: وقد يجيء أحدهما بمعنى الآخر، كقوله: ﴿نُسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾. وقال ذوالرمة:

وَقَفْتُ عِلىٰ رَبْعٍ لِمَيَّةَ ناقَتي[1] ... فمازلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأُخاطِبُهُ

---

(١) الشعران في جامع الشواهد.

[١] الربع: الدار.

وَأَسْقيه حَتَّى كَاد مِمّا أَبُثُّهُ تُكَلِّمُني أَحْجارُهُ، وَمَلاعِبُهُ

[الإعراب]: ﴿وَالْأَرْضِ﴾: منصوب بفعل مضمر، تقديره: ومددنا الأرض ﴿مَدَدْنَاهَا﴾، كقوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ أي: وقدّرنا القمر قّدرناه. ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ مَن: في موضع نصب؛ عطفاً على ﴿مَعَايِشَ﴾. والمراد به: العبيد والإماء، والأنعام والدوابّ، ـ عن مجاهد ـ. وقال الفرّاء: العرب لا تكاد تجعل ﴿مَنْ﴾ إلاّ في الناس خاصّة، فإن كان مع الدوابّ العبيد حسن حينئذ، قال: وقد يجوز أن يكون ﴿مَن﴾ في موضع جرّ؛ عطفاً على الكاف والميم في ﴿لَكُمُ﴾. وقال المبرّد: والظاهر المخفوض لا يعطف على المضمر المخفوض، نحو: مررت بك وزيد، إلاّ أن يضطرّ شاعر. وأنشد الفرّاء:

نُعَلِّقُ في مِثْلِ السَّوارِي سُيُوفَنا وما بَيْنَها، والْكَعْبِ غَوْطُ نَفانِفُ[1]

فرد الكعب على الهاء في بينها، وقال:

هــــلاَّ سَأَلْتَ بِــذي الْــجَماجِمِ عَــنْهُمُ

وَأَبي نَعِيم ذي اللِّواءِ الْمُحْرِقِ[1] [الْمُحْدِقِ]

فرد «ابا نعيم» على «هم» في «عنهم» قال: ويجوز أن يكون ﴿مَن﴾ في موضع رفع؛ لأنّ الكلام قد تمّ، ويكون التقدير على قوله: ولكم فيها من لستم له برازقين. قال الزجّاج: والأجود من الأقوال الأوّل. وجاز أن يكون عطفاً على تأويل لكم؛ لأنّ معنى قوله: ولكم فيها معايش أعشناكم، ومن لستم له برازقين أي: رزقناكم ومن لستم له برازقين. ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿مِن﴾: مزيدة، وشيء مبتدأ،

---

(١) شبّه مراكبه بالسوارى في الطول. والغوط: الأرض المطمئنّة: والنفنف الفضاء بين الجبلين. والكعب: إسم رجل، وهو أبو قبيلة.

[١] ذي الجماجم: موضع. وأبو نعيم: هو النعمان بن المنذر، وسمي المحرق ـ كمحدث ـ لأنه كان يحرقه العرب في ديارهم واسكن الراء في الشعر للضرورة.

و﴿عِندَنَا﴾ خبر له. و﴿خَزَائِنُهُ﴾ مرفوع بالظرف؛ لأنّ الظرف جرى خبراً على المبتدأ، لا خلاف في هذا بين سيبويه، والأخفش.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر السماء، وما فيها من الأدلّة والنعم، أتبعه بذكر الأرض، فقال: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ أي: بسطناها، وجعلنا لها طولاً و عرضاً ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: طرحنا فيها جبالاً ثابتة ﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا﴾ أي: في الأرض ﴿مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ أي: مقدّر معلوم، ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد ـ. وقيل: من كل شيء يوزن في العادة كالذهب والفضّة، والصفر والنحاس، ونحوها، ـ عن الحسن ـ. وقيل: يعني بذلك كل ما تخرجه الأرض، عن أبي مسلم قال: وإنّما خصّ الموزون بالذكر دون المكيل لوجهين:

أحدهما: إنّ غاية المكيل تنتهي إلى الوزن؛ لأنّ جميع المكيلات إذا صار طعاماً دخل في الوزن، فالوزن أهم.

والآخر: إنّ في الوزن معنى الكيل؛ لأنّ الوزن هو طلب المساواة، وهذا المعنى ثابت في الكيل، فخصّ الوزن بالذكر؛ لإشتماله على معنى الكيل. وردّ عليه السيّد الأجلّ المرتضى قدس الله روحه، فقال: ظاهر لفظ الآية يشهد بغير ما قاله، فإنّ المراد بالموزون: المقدار الواقع بحسب الحاجة، فلا يكون ناقصاً عنها، ولا زائداً عليها زيادة مضرّة داخلة في باب العبث، ونظير ذلك قولهم: كلام فلان موزون، وأفعاله موزونة، والمراد ما ذكرناه. وعلى هذا المعنى تأوّل المفسّرون ذكر الموازين في القرآن المساواة أحد التأويلين، وإنّها التعديل والمساواة بين الثواب والعقاب.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ﴾ أي: خلقنا لكم في الأرض معايش من زرع أو نبات، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. وقيل: معايش أي: مطاعم ومشارب، تعيشون بهما. وقيل: هي التصرّف في أسباب الرزق مدّة الحياة ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾

يعنى: العبيد والدوابّ، يرزقهم الله ولا ترزقونهم، ومعناه: يدور على ما تقدّم ذكره في الإعراب، وأتى بلفظه «مَن» دون لفظة «ما»؛ لأنّه غلب العقلاء على غيرهم.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: وليس من شيء ينزّل من السماء، وينبت من الأرض. ﴿إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ معناه: إلاّ ونحن مالكوه، والقادرون عليه. وخزائن الله سبحانه. مقدوراته؛ لأنّه تعالى يقدر أن يوجد ما شاء من جميع الأجناس، ويقدر من كل جنس على ما لا نهاية له. وقيل: المراد به: الماء الذي منه النبات، وهو مخزون عنده إلى أن ينزله، ونبات الأرض وثمارها إنّما تنبت بماء السماء. وقال الحسن: المطر خزائن كل شيء.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ﴾ أي: وما ننزّل المطر ﴿إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ تقتضيه الحكمة. وقيل: إنّه سبحانه إستعار الخزائن للقدرة على إيجاد الأشياء، وعبّر من الإيجاد بالإنزال؛ لأنّ الإنزال في معنى الإعطاء والرزق، والمعنى: أنّ الخير كله عند الله، لا يوجد ولا يعطي إلاّ بحسب المصلحة والحاجة.

ثم بيّن سبحانه كيفيّة الإنزال، فقال: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ أي: أجرينا الرياح لواقح، أي: ملقحة للسحاب محملة بالمطر[1] ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ أي: فأسقيناكم ذلك الماء، ومكّناكم منه ﴿وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ أي: وما أنتم أيّها الناس له بحافظين، ولا محرزين، بل الله يحفظه، ثمّ يرسله من السماء، ثمّ يحفظه في الأرض، ثم يخرجه من العيون بقدر الحاجة، ولا يقدر أحد على إحراز ما يحتاج اليه من الماء في موضع ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾: أخبر سبحانه أنّه يحيي الخلق إذا شاء، ويميتهم إذا أراد. ﴿وَنَحْنُ

---

(١) وربما يقال: إنّ الرياح تلقح النباتات، فإنّ في زهرها ذكراً وأنثى والرياح تنقل ذرّات من الذكران إلى الإناث، فتلقحها. والذكورة والأنوثة ظاهرتان في النخل، والناس يوبرون الإناث بطلع الذكور.

﴿الْوَارِثُونَ﴾ الأرض ومن عليها. أخبر أنّه يرث الأرض؛ لأنّه أفنى الخلق، ولم يبق أحد، كانت الأشياء كلها راجعة إليه، يتفرّد بالتصرّف فيها.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ قيل فيه أقوال: أحدها: إنّ معناه: ولقد علمنا الماضين منكم، ولقد علمنا الباقين، ـ عن مجاهد والضّحاك، وقتادة ـ. وثانيها: علمنا الأوّلين منكم والآخرين، ـ عن الشعبي ـ. وثالثها: علمنا المستقدمين في صفوف الحرب، والمتأخّرين عنها، ـ عن سعيد بن المسيّب ـ. ورابعها: علمنا المتقدّمين في الخير، والمبطئين عنه، ـ عن الحسن وخامسها: علمنا المتقدّمين إلى الصفّ الأوّل في الصلاة، والمتأخّرين عنه، فإنّه كان يتقدّم بعضهم إلى الصفّ الأوّل، ليدركوا فضيلته، وكان يتأخّر بعضهم؛ لينظروا إلى أعجاز النساء، فنزلت الآية فيهم، ـ عن ابن عباس ـ.

وسادسها: إنّ النبيّ ﷺ حثّ الناس على الصّف الأول في الصلاة، وقال: «خير صفوف الرجال أوّلها. وشرّها آخرها، وخير صفوف النساء آخرها، وشرّها أوّلها». وقال ﷺ: «إنّ الله وملائكة يصلّون على الصفّ المتقدّم». فإزدحم الناس، وكانت دور بني عذرة بعيدة عن المسجد، فقالوا: لنبيعنّ دورنا ولنشترين دوراً قريبة عن [من] المسجد، حتى ندرك الصفّ المقدّم فنزلت هذه الآية ـ عن الربيع بن أنس ـ فعلى هذا يكون المعنى: إنّا نجازي الناس على نيّاتهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ﴾ معناه: إنّ ربّك يا محمّد، أو أيّها السامع، هو الذي يجمعهم يوم القيامة، ويبعثهم بعد إماتتهم للمجازاة، والمحاسبة ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في أفعاله ﴿عَلِيمٌ﴾ بما إستحق كل منهم.

﴿النظم﴾: إنّما إتّصل قوله: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ وما بعده، بما ذكره فيما قبل من أنواع النعم، فبيّن سبحانه أنّه يرثهم كل ما خولهم من ذلك، تزهيداً في الدنيا، وترغيباً في الآخرة، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّه لمّا بيّن أنواع نعمه، عرّفهم

بعد أنّه لم يخلق ذلك للبقاء، وإنّما أنعم به عليهم؛ ليكون طريقاً إلى نعم الآخرة، ـ عن القاضي ـ. وقيل: إنّه لمّا ذكّرهم نعم الدنيا، نبّه بالإحياء والإماتة، وعلّمه بجميع الأشياء، وحشر الخلق على وجوب الإنقطاع إليه والعبادة والطاعة له.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

اللغة: الصلصال: الطين اليابس، أخذ من الصلصلة: وهي القعقعة، ويقال لصوت الحديد، ولصوت الرعد: صلصلة، وهي صوت شديد متردّد في الهواء. وصلّ يصلّ: إذا صوّت. قال:

رَجَعْتُ إلى صَوْتٍ كَجَرَّةِ حَنْتَمٍ إذا قَرَعَتْ صُفْراً مِنَ الماءِ صَلَّتِ(١)[١]

---

(١) الجرّة: إناء للماء. والحنتم: الأسود منها.

[١] قائله: عمرو بن شأس.

ويقال: الصلصال: المنتن، أخذ من صلّ اللحم وأصلّ: إذا أنتن. والحمأ: جمع حمأة، وهو الطين المتغيّر إلى السواد. يقال: حمئت البئر وأحمأتها انا. والمسنون: المصبوب، من سننت الماء، على وجهه أي: سببته. ويقال: سننت ـ بالسين غير معجمه ـ: أرسلت الماء وشننت ـ بالشين معجمة ـ: صببت. وقيل: إنّه المتغيّر من قولهم: سننت الحديد على المسنّ: إذا غيّرتها بالتحديد، وأصلها الإستمرار في جهة من قولهم: هو على سنن واحد. والسنّة: الطريقة، وسنّة الوجه: صورته. قال ذو الرمة:

تُـريكَ سُـنَّةَ وَجْـه غَـيْر مُـقْرَفَةٍ مَلْسـاءُ لَيْسَ بِهٰا خالٌ، وَلاٰ نَدَبٌ(١)

قال سيبويه: جمع الجانّ: جنان، فهو مثل: حائط وحيطان، وراع ورعيان والسموم: الريح الحارّة أخذ من دخولها بلطفها في مسامّ البدن، ومنه: السمّ القاتل، يقال: سمّ يومنا يسمّ: إذا هبت فيه ريح السموم.

الإعراب: من جعل ﴿الْجَانَّ﴾ جمعاً، قال: ولم يقل: خلقناها، كما قال: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ ولم يقل: و ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهَا﴾. وقوله: ﴿مَالَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾: ما: مبتدأ، ولك: خبره، والتقدير: أيّ شيء ثابت لك، وألاّ تكون: تقديره: في أن لاتكون، فحذف «في» وهي متعلّقة بالخبر أيضاً، فلمّا حذفت «في» انتصب موضع «أن لا تكون» على قول سيبويه، وبقي على الجرّ على قول الخليل. وأبوالحسن حمل «أن» على الزيادة، ولاتكون في موضع الحال، قال: وتقديره: مالك خارجاً عن الساجدين.

المعنى: لمّا ذكر سبحانه الإحياء والإماتة، والنشأة الثانية، عقّبه ببيان النشأة الأولى، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ يعني: آدم ﴿مِنْ صَلْصَالٍ﴾ أي: من

---

(١) غير مقرفة: صفة «سنّة». وأقرفه: نسبه إلى عيب.

طين يابس، يسمع له عند النقر صلصلة أي: صوت، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وأكثر المفسّرين ـ. وقيل: طين صلب يخالطه الكثيب، ـ عن الضحّاك ـ. وقيل: منتن، ـ عن مجاهد، وإختاره الكسائي ـ. ﴿مِنْ حَمَإٍ﴾ أي: من طين متغيّر ﴿مَسْنُونٍ﴾ أي: مصبوب، كأنّه أفرغ حتّى صار صورة كما يصبّ الذهب والفضّة، وقيل: إنّه الرطب، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: مسنون: مصوّر، عن سيبويه، قال: أخذ من سنّة الوجه.

﴿وَالْجَانَّ﴾ وهو ابليس، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. وقيل: هو أبو الجنّ، كما أنّ آدم أبو البشر، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هم الجنّ نسل إبليس، وهو منصوب بفعل مضمر، معناه: وخلقنا الجانّ ﴿خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل خلق آدم ﴿مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾ أي: من نار لها ريح حارّة، تقتل. وقيل: هي نار لا دخان لها، والصواعق تكون منها. وروى أبو روق، عن الضحّاك، عن ابن عباس، قال: كان ابليس من حيّ من أحياء الملائكة، يقال لهم الجنّ، خلقوا من نار السموم، من بين الملائكة، وخلق الجنّ الذين ذكروا في القرآن من مارج من نار. وقيل: السموم: النار الملتهبة، ـ عن أبي مسلم ـ.

وفي هذا إشارة إلى أنّ الإنسان لا يفضل بأصله، وإنّما يفضل بدينه وعلمه وصالح عمله. وأصل آدمعليه السلام كان من تراب[1]، وذلك قوله: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾ ثمّ جعل التراب طيناً، وذلك قوله فـ خلقته من طين، ثمّ ترك ذلك الطين حتى تغيّر وإسترخى، وذلك قوله: ﴿مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾، ثمّ ترك حتى جفّ، وذلك قوله: ﴿مِنْ

---

(١) وإن حملناه على نوع الانسان كان صحيحاً، فإنّ هذا النوع مخلوق جسده من التراب، ويرجع تراباً بعد الموت. وأمّا الجنّ فمخلوق من النار. والطريق إلى إثبات وجود الجنّ وخلقه الشرع ،فهم خلق مستقلّ عن الإنس، يشبه وجودهم وجود الأرواح السارية في العروق الموجدة للحرارة في الإنسان، ولايرون بالبصر؛ للطافتهم، ومع ذلك تعلّق نفس بأبدانهم اللطيفة، وهم يكلّفون، ولانعلم من تفاصيل أمورهم شيئاً.

﴿صَلْصَالٍ﴾. فهذه الأقوال لا تناقض فيها؛ إذ هي إخبار عن حالاته المختلفة.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ﴾ تقديره: وأذكر يا محمّد إذ قال ربّك للملائكة ﴿إِنِّي خَالِقٌ﴾ أي: سأخلق ﴿بَشَراً﴾ أي: آدم، وسمّي بشراً؛ لأنّه ظاهر الجلد، لا يواريه شعر، ولا صوف ﴿مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ مرّ معناه.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ﴾ بإتمام خلقته، وإكمال خلقه، وقيل: معناه: عدلت صورته ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ والنفخ: إجراء الريح في الشيء بإعتماد، فلمّا أجرى الله سبحانه الروح في آدم على هذه الصفة، كان قد نفخ الروح فيه، وإنّما أضاف روح آدم إلى نفسه؛ تكرمة له وتشريفاً، وهي اضافة الملك ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ أي: أسجدوا له. قال الكلبي: أي فخرّوا له ساجدين.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ هذا توكيد بعد توكيد عند سيبويه. وقال المبرّد: ويدلّ قوله: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ على إجتماعهم في السجود، أي: فسجدوا كلّهم في حالة واحدة. قال الزجّاج: وقول سيبويه أجود؛ لأنّ ﴿أَجْمَعُونَ﴾ معرفة، فلا يكون حالاً.

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: إمتنع أن يكون معهم، فلم يسجد معهم، وقد سبق القول في أنّ إبليس هل كان من الملائكة أو لم يكن وإختلاف العلماء فيه، وما لكل واحد من الفريقين من الحجج، وذكرنا ما يتعلّق بذلك من الكلام في سورة البقرة، فلا معنى للإعادة. وأن يكون: في محلّ نصب أي: أبي الكون مع الساجدين.

﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ قال الزجّاج: معناه: أيّ شيء يقع لك في أن لا تكون مع الساجدين؟ فموضع ﴿أَن﴾ نصب بإسقاط «في» وإفضاء الناصب إلى «أن». وهذا خطاب من الله سبحانه لإبليس، ومعناه: لِمَ لا تكون مع الساجدين فتسجد كما سجدوا، وإنّما قال سبحانه بنفسه على جهة

الإهانة له، كما يقال لأهل النار: إخسأوا فيها ولا تكلّمون. وقال الجبائي: إنّما قال سبحانه ذلك على لسان بعض رسله؛ لأنّه لا يصحّ أن يكلّمه الله بلا واسطة في زمان التكليف.

﴿قَالَ﴾ أي: قال إبليس مجيباً لهذا الكلام ﴿لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ﴾ أي: ما كنت لأسجد. وقيل: معناه: ما كان ينبغي أن أسجد ﴿لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ لأنّي أشرف أصلاً منه، ولم يعلم أنّ التفاضل بالدين والأعمال لا بالأصل. ﴿قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا﴾ أي: من الجنة.

﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي: مشؤوم مطرود ملعون. وقيل: معناه: أخرج من السماء، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: من الأرض فألحقه بالبحار، لا يدخل الأرض إلاّ كالسارق. وقيل: رجيم: مرجوم أي: إن رجعت إلى السماء، رجمت بمثل الشهب التي يرجم به الشياطين، ـ عن الجبائي ـ. ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾ أي: وإنّ عليك مع ذلك اللعنة أي: الإبعاد من رحمة الله، وكذلك لا يجوز أن يعلن بهيمة ﴿إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي: يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، والمراد أنّ الله سبحانه قد لعنك، وأهل السماء والأرض يلعنونك لعنة لازمة لك إلى يوم القيامة. ثمّ يحصل بعد ذلك على الجزاء بعذاب النار، وفيه بيان أنّه لا يؤمن قطّ. وقال بعض المحقّقين إنّما قال سبحانه هن: وإنّ عليك اللعنة ـ بالألف واللاّم ـ وقال في سورة صّ: ﴿لَعْنَتِي﴾ بالإضافة؛ لأنّ هناك يقول: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ مضافاً، فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي﴾ على المطابقة. وقال هنا. ما لك ألا تكون مع الساجدين، وساق الآية على اللام في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾، وقوله: ﴿وَالْجَانَّ﴾ فأتى باللام أيضاً في قوله: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ﴾.

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ
الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا
أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (١) ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ
مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ
اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

القراءة: قرأ يعقوب ﴿صِرَاطٌ عَلَيَّ﴾ بالرفع، وهي قراءة أبي رجاء، وابن سيرين، وقتادة، والضحّاك، ومجاهد، وقيس بن عبادة، وعمرو بن ميمون، وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام(٢). والباقون من القرّاء، قرؤوا: ﴿عَلَيَّ﴾.

الحجة: قال ابن جنّي: عَلِيٌّ هنا كقولهم: كريم شريف(٣)، وليس المراد

---

(١) قرأ الكوفيّون ونافع: المخلَصين ـ بفتح اللام ـ. والباقون من السبعة: بكسرها.

(٢) وقال في فصل الخطاب: إنّ قرائته عليه السلام: صراط عليّ ـ بجرّ «على» وإضافة «صراط» إليه ـ. وهو غلط؛ لأنّ قرائة يعقوب بالرفع مشهورة قريبة من التواتر، أو متواتر. ويؤيّده قرائة الجماعة الذين ذكرهم المصنّف، وقرائة أهل البيت موافقة لقرائة بعض القراء غالباً بشهادة التتبّع، ونقل المصنّف حجّة؛ لإطّلاعه على كتب وأقوال ليس لأهل زماننا سبيل إليها، كما نرى أنّه روى في قرائتهم عليهم السلام ماليس في كتبنا في الحديث في زماننا، فلاريب ان قرائته عليه السلام على ـ بالرفع ـ كسائر القرّاء.

(٣) ذهب صاحب فصل الخطاب هنا مذهباً بعيداً عن الصواب، وخطا المصنف وإحتجّ بروايات ليس فيها تصريح، ولا اشارة الى كون «على» مجروراً وليست القرائة مما يثبت بالحدس ←

به علو الشخص والنصبة. وقال أبوالحسن: في الجماعة ﴿هَـٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾. هو كقولك: الدلالة اليوم عليّ أي: هذا صراط في ذمّتي، وتحت ضماني، كقولك: صحّة هذا المال عليّ، وتوفية عدته عَلَيَّ، وليس معناه عنده: مستقيم عليّ، كقولنا: قد إستقام على الطريق، وإستقّر على كذا. وما أحسن ما ذهب إليه أبو الحسن فيه.

اللغة: الاغواء: الدعاء إلى الغيّ، والإغواء: خلاف الإرشاد، وهذا أصله، وقد يكون بمعنى الحكم بالغيّ على وجه الذمّ. والتزيين: جعل الشيء متقبّلاً في النفس من جهة الطبع، أو العقل، بحقّ أو بباطل. وإغواء الشيطان، تزيينه الباطل حتى يدخل صاحبه فيه.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه ما سأله إبليس عند إياسه من الآخرة، فقال عزّ إسمه: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي﴾ أي: فأمهلني وأخّرني ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي: يحشرون للجزاء، إستنظره إبليس إلى يوم القيامة؛ لئلاّ يموت؛ إذ يوم القيامة لا يموت فيه أحد، فلم يجبه الله تعالى إلى ذلك، بل ﴿قَالَ﴾ له ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ الذي هو آخر أيّام التكليف، وهو النفخة الأولى حين يموت الخلائق، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: الوقت المعلوم: يوم القيمة، أنظره الله

← والتخمين، وروى السياري أنّ في القرآن ذكر إسم «علي» عليه السلام في هذه الآية، ولايدلّ كلامه أيضاً على أنه مجرور اذ لعله حمل المرفوع عليه صلوات الله عليه، كأنه بدل من «الصراط» وهذا من باب التأويل على خلاف الظاهر الذي لايستلزم سلاسة العبارة، كتأويل الشهور الإثنى عشر بالائمة عليهم السلام، وقوله تعالى: ان من شيعته لابراهيم، بان إبراهيم من شيعة عليّ عليه السلام، وأمثال هذه التأويلات ليست ممّا يحمل عليها ظاهر كلام رب العالمين، حتى يخرج عن الفصاحة، بل عن الصحة، وان كان ماورد من ذلك صحيحاً، فليس المراد انها المعنى المستعمل فيه اللفظ، أو أنها مرادة من الكلام، بل هي امور حقيقية، يجب أن يتنبّه لها عند قرائة الآية.

سبحانه في رفع العذاب عنه إلى يوم القيامة، عن الحسن، والجبائي، وأبي مسلم ـ. وقيل: هو الوقت الذي قدّر الله أجله فيه، وهو معلوم لله سبحانه، غير معلوم لإبليس، فأبهم، ولم يبيّن، لأنّ في بيانه إغراء بالمعصية، ـ عن البلخي ـ.

واختلف في تجويز إجابة دعاء الكافر: وقال الجبائي: لا يجوز؛ لأنّ في إجابة الدعاء تعظيماً له. وقال ابن الأخشيد: يجوز ذلك؛ لأن الإجابة كالنعمة في إحتمالها أن يكون ثواباً وتعظيماً، وأن يكون إستصلاحاً ولطفاً.

﴿قَالَ﴾ إبليس ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: إنّ الإغواء الأوّل والثاني بمعنى الإضلال، أي: كما أضللتني لأضلّنّهم، وهذا لا يجوز؛ لأنّ الله سبحانه لا يضّل عن الدين إلاّ أن يحمل على أنّ إبليس كان معتقداً للخير [للجبر].

وثانيها: إنّ الإغواء الأوّل والثاني بمعنى التخييب أي: بما خيّبتني من رحمتك، لأخيّبنّهم بالدعاء إلى معصيتك، ـ عن الجبائي ـ.

وثالثها: إنّ معناه: بما أضللتني عن طريق جنّتك، لأضلّنّهم بالدعآء إلى معصيتك.

ورابعها: بما كلّفتني السجود لآدم الذي غويت عنده، فسمّي ذلك غواية، كما قال: فزادتهم رجساً إلى رجسهم لمّا ازدادوا عندها، ـ عن البلخي ـ. والباء في قوله: ﴿بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ قيل: إنّ معناها: القسم هيهنا، ـ عن أبي عبيدة ـ. وقيل: هي بمعنى السبب أي: بكوني غاوياً لأزيّننّ، كما يقال بطاعته: لندخلنّ الجنّة، وبمعصية: لندخلنّ النار. ومفعول التزيين محذوف، وتقديره: لأزّيننّ الباطل لهم أي: لأولاد آدم، حتى يقعوا فيه.

ثمّ أستثنى من جملتهم، فقال: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ﴾ وهم الذين

أخلصوا عبادتهم لله، وإمتنعوا عن عبادة الشيطان، وإنتهوا عمّا نهاهم الله عنه. ومن قرأ: ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ ـ بفتح اللام ـ، فهم الذين أخلصهم الله بأن وفّقهم لذلك، ولطف لهم فيه، ليس للشيطان عليهم سبيل ﴿قَالَ﴾ الله سبحانه: ﴿هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ قيل فيه وجوه:

أحدها: إنّه على وجه التهديد له، كما تقول لغيرك: إفعل ما شئت، وطريقك عليّ أي: لا تفوتني، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. ومثله: قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾.

وثانيها: معناه: إنّ ما نذكره من أمر المخلصين والغاوين، طريق ممره عليّ أي: ممر من مسلكه [سلكه] عليّ مستقيم، لا عدول فيه عني، وأجاز لي[ى] كلاّ من الفريقين بما عمل.

وثالثها: إنّ معناه: هذا دين مستقيم عليّ بيانه، والهداية إليه.

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ هذا إخبار منه تعالى، بأنّ عباده الذين يطيعونه، وينتهون إلى أوامره، لا سلطان للشيطان عليهم، ولا قدرة له على أن يكرههم على المعصية، ويحملهم عليها، ولكن من يتّبعه، فإنّما يتّبعه بإختياره. قال الجبائي: وذلك يدلّ على أنّ الجنّ لا يقدرون على الإضرار ببني آدم؛ لأنّه على عمومه.

ثمّ إستثنى سبحانه من جملة العباد من يتّبع إبليس على إغوانه، وينقاد له، ويقبل منه، فقال: ﴿إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِينَ﴾ لأنّه إذا قبل منه، صار له عليه سلطان بعدوله عن الهدى إلى ما يدعوه إليه من إتّباع الهوى. وقيل: إنّ الإستثناء منقطع، والمراد: لكن من إتّبعك من الغاوين، جعل لك على نفسه سلطاناً ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: موعد إبليس، ومن تبعه.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ فيه قولان: أحدهما: ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنّ جهنّم لها سبعة أبواب، أطباق بعضها فوق بعض، ووضع إحدى يديه على الأخرى، فقال: هكذا، وإنّ الله وضع الجنان على العرض، ووضع النيران بعضها فوق بعض،

فأسفلها: جهنّم، وفوقها: لظى، وفوقها: الحطمة، وفوقها: سقر، وفوقها: الجحيم، وفوقها: السعير، وفوقها: الهاوية، وفي رواية الكبي: أسفلها: الهاوية، وأعلاها: جهنّم. وعن ابن عباس: إنّ الباب الأوّل: جهنّم، والثاني: سعير، والثالث: سقر، والرابع: جحيم، والخامس: لظى، والسادس: الحطمة، والسابع: الهاوية. إختلف الروايات في ذلك كما ترى، وهو قول مجاهد، وعكرمة، والجبائي، قالوا: إنّ أبواب النيران كإطباق اليد على اليد.

والآخر: ما روي عن الضحّاك قال: للنار سبعة أبواب، وهي سبعة ادراك، بعضها فوق بعض، فأعلاها: فيه أهل التوحيد، يعذّبون على قدر أعمالهم و أعمارهم في الدنيا، ثمّ يخرجون. والثاني: فيه اليهود، والثالث: فيه النصارى، والرابع: فيه الصابئون، والخامس: فيه المجوس، والسادس: فيه مشركو العرب، والسابع: فيه المنافقون، وذلك قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ وهو قول الحسن، وأبي مسلم، والقولان متقاربان ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ﴾ أي: من الغاوين ﴿جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ أي: نصيب مفروض، ـ عن ابن عباس ـ.

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾

(اللغة): الغلّ: الحقد الذي ينغلّ في القلب، ومنه: الغلّ الذي يجعل في

---

(١) عِيون: بكسر العين ابن كثير وابن ذكوان وحمزة والكسائي. ويقف حمزة على «نبي» بالتبديل. وإختلفوا في فتح اليائين من «عبادي أنّي أنا».

العنق، والغلول: الخيانة التي يطوق عارها صاحبها. والسرير: المجلس الرفيع موطأ للسرور. وجمعه: الأسرة والسرر. والنصب: التعب والوهن الذي يلحق من العمل، مشتقّ من الإنتصاب؛ لأنّ صاحبه ينتصب بالإنقطاع عن العمل للوهن الذي يلحقه.

المعنى: لمّا ذكر سبحانه عباده المخلصين، عقّبه بذكر حالهم في الآخرة، فقال: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتّقون عقاب الله بإجتناب الله معاصيه ﴿فِي جَنَّاتٍ﴾ أي: في بساتين خلقت لهم ﴿وَعُيُونٍ﴾ من ماء، وخمر، وعسل، يفور من الفوّارة، ثمّ يجري في مجاريها ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ﴾ أي: يقال لهم: أدخلوا الجنّات بسلامة من الآفات، وبراءة من المكاره والمضرّات ﴿آمِنِينَ﴾ من الإخراج منها، ساكني النفس إلى إنتفاء الضرر فيها.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾ أي: وأزلنا عن صدور أهل الجنّة ما فيها من أسباب العداوة من الغلّ أي: الحقد، والحسد، والتنافس، والتباغض ﴿إِخْوَاناً﴾ منصوب؛ على الحال أي: وهم يكونون إخواناً متوادين يريد مثل الإخوان فيصفوا لذلك عيشهم ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾ أي: كائنين على مجالس السرور ﴿مُتَقَابِلِينَ﴾ متواجهين ينظر بعضهم إلى وجه بعض. قال مجاهد: لا يرى الرجل في الجنّة قفا زوجته، ولاترى زوجته قفاه؛ لأنّ الأسرة تدور بهم كيف ما شاءوا، حتى يكونوا متقابلين في عموم أحوالهم. وقيل: متقابلين في الزيارة، إذا تزاوروا إستوت مجالسهم ومنازلهم، وإذا إفترقوا كانت منازل بعضهم أرفع من بعض.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا﴾ أي: في الجنّة ﴿نَصَبٌ﴾ أي: عناء وتعب؛ لأنّهم لا يحتاجون إلى إتعاب أنفسهم، لتحصيل مقاصدهم؛ إذ جميع النعم حاصلة لهم ﴿وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ أي: يبقون فيها مؤبّدين. ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ أن يخبر عباده بكثرة عفوه، ومغفرته، ورحمته لأوليائه، وشدّة عذابه لأعدائه، فقال:

﴿نَبِّئْ﴾ يا محمّد ﴿عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ﴾ أي: كثير الستر لذنوب المؤمنين ﴿الرَّحِيمُ﴾ كثير الرحمة لهم ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ فلا تعولوا على محض غفراني ورحمتي، وخافوا عقابي ونقمتي.

وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا
قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ
عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ
تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ
﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ
مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾
إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾

القراءة: قرأ نافع وحده ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ ـ خفيفة النون مكسورة ـ. وقرأ ابن كثير وحده: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونِّ﴾ ـ مشدّدة النون مسكورة ـ. وقرأ الباقون: تبشرونَ ـ مفتوحة النون خفيفة ـ. وروى أبو عليّ الضرير، عن روح وغيره، عن يعقوب: فبم تبشروني ـ بإثبات الياء ـ. وقرأ أبو عمرو والكسائي: يقنِط ويقنِطوا ـ بكسر النون حيث كان ـ. والباقون: بفتح النون. وقرأ: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ خفيفة، أهل الكوفة غير عاصم، ويعقوب. والباقون: بالتشديد. وقرأ: ﴿قَدَّرْنَا﴾ ـ بالتخفيف ـ

أبوبكر عن عاصم، وكذلك في النمل. والباقون: بالتشديد[١].

الحجة: قال أبو عليّ: الوجه في قراءة نافع: أنّه أراد تبشرونني، إلاّ أنّه حذف النون الثانية إستثقالاً؛ لأنّ التكرير بها وقع، ولم يحذف النون الأولى التي هي علامة الرفع، وقد حذفوا هذه النون في كلامهم؛ لأنّها زائده، ولأنّ علامة الضمير الياء من دونها، قال:

أَ بِالْمَوْتِ الَّذي لابُدَّ إنّي ... مُلاقٍ لا أَبَاكَ تُخَوفِيني

وقال:

تَراه كالثَّغامِ يَعَلُّ مِسْكاً ... يَسُوءُ الفالِيَاتِ إذا فَلَيْني[٢]

والوجه في تشديد ابن كثير النون: أنّه أدغم النون الأولى التي هي علامة الرفع، في الثانية المتصلة بالياء التي هي المضمر المنصوب المتكلّم. ومن فتح النون؛ فلأنّه لم يعدّ الفعل إلى المفعول به، كما عدّى غيره، وحذف المفعول به كثير، والنون علامة الرفع. وقِنط يقنَط وقنَط يقنِط، لغتان، وكان قنط يقنط أعلى، ويدلّ على ذلك: إجماعهم في قوله: قَنَطوا، وحكى أن يقنُط لغة. وهذا يدلّ على أنّ «يقنط» أكثر؛ لأنّ مضارع «فعَل» يجيء على يُفعل ويفعِل. وحجّة من قرأ: ﴿لَمُنَجُّوهُمْ﴾ قوله: ﴿وَنَجّيْنَا الَّذِينَ آمنُوا﴾. وحجّة من قرأ بالتخفيف: قوله: ﴿فَأَنْجَاهُ اللهُ مِنَ النَّارِ﴾. وقدرت ـ بالتخفيف ـ لغة في «قدرت»، يدلّ على ذلك: قول الهذلي:

وَمُفْرِهَةٍ عَنْسٍ قَدَرْتُ لِساقِها ... فَخَرَّتْ كَمَا تَتابَعَ الرّيحُ بِالقَفْلِ[٣]

---

(١) يقف حمزة على «نبّئهم» بالبدل. وأدغم «إذ دخلوا» أبو عمرو وحمزة والكسائي وابن ذكوان وهشام.

(٢) البيت في جامع الشواهد، ومضى أيضاً.

(٣) العنس: الناقة العظيمة. والمفرهة: التي تأتي بالسقب الفارة والقفل: الغصن اليابس. وتتابع: مستقبل من إتّابع، أصله: تتابع يتتابع.

المعنى: قدرت ضربتي لساقها، فضربتها. فحذف؛ لدلالة الكلام عليه، فمن قرأ: قدرنا ـ مخففاً ـ كان في معنى التشديد.

اللغة: الضيف: هو المنضوي إلى غيره لطلب القرى، وهو يقع على الواحد والإثنين والجمع؛ لأنّه في الأصل مصدر وصف به، وقد يجمع بالأضياف والضيوف والضيفان. والوجل: الخوف، يقال: وجل يوجل، ويا جَل، ويَيجَل، ويَيجِل: إذا خاف. والخطب: الأمر الجليل. ومنه: الخطبة، والخطبة. والمجرم: المنقطع عن الحقّ إلى الباطل، وهو القاطع لنفسه عن المحاسن إلى القبائح. والغابر: الباقي فيمن يهلك. قال الشاعر:

فَمَاوَنَى مُحَمَّدٌ مذُ أنْ غَفَر ... لَهُ الإلَهُ مَا مَضَىٰ، وَمَا غَبَرَ

الإعراب: ﴿سَلاماً﴾: منصوب على المصدر، كأنّهم قالوا: سلمنا ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾. قال الزجّاج: هو إستثناء ليس من الأول. وقوله: ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ إستثناء من الهاء والميم في قوله: ﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ﴾. وقوله: ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ في معنى: علمنا إنّها لمن الغابرين. قال أبو عبيدة: في الآية معنى فقهيّ، كان أبو يوسف يتأوّله فيها، وهو أنّ الله إستثنى آل لوط من المجرمين، ثمّ إستثنى إمرأة لوط من آل لوط، فرجعت إمرأته في التأويل إلى القوم المجرمين، وكذلك كل إستثناء في الكلام إذا جاء بعد إستثناء آخر، دعا المعنى إلى أوّل الكلام، كقول الرجل لفلان: عليّ عشرة دراهم إلاّ أربعة إلاّ درهماً، فإنّه يكون إقراراً بسبعة، وكذلك لو قال له: عليّ خمسة إلاّ درهماً إلاّ ثُلثاً، كان إقراراً بأربعة وثُلث.

المعنى: لمّا ذكر سبحانه الوعد والوعيد، عقّبه بذكر قصّة إبراهيم عليه السلام، وقوم لوط، مصدّقاً لما ذكره، وإرشاداً إلى الدلالة بالعاجل على الآجل، فقال: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: وأخبرهم عن أضياف إبراهيم ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ يعني الملائكة، وإنّما سمّاهم ضيفاً؛ لأنّهم جاؤه في صورة الأضياف ﴿فَقَالُوا سَلَاماً﴾

أي: سلموا عليه سلاماً على وجه الدعاء والتحيّة، وبشّروه بالولد، وبإهلاك قوم لوط ﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ أي: خائفون.

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ ﴾ أي: لا تخف ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ ﴾ أي: نخبرك بما يسرّك ﴿بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ أي: بولد يكون غلاماً إذا ولد، ويكون عليماً إذا بلغ.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي﴾ بالمولود ﴿عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ﴾ أي: في حال الكبر، يوجب اليأس عن الولد ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ أبأمر الله تعالى فأثق به، أم من جهة أنفسكم؟ ومعنى مسّني الكبر: غيّرني الكبر عن حال الشباب الذي يطمع في الولد إلى حال الهرم. وقيل: معناه: على رأس الكبر.

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: قالت الملائكة لإبراهيم: إنّا بشّرناك بذلك على وجه الحقيقة بأمر الله ﴿ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ﴾ أي: اليائسين.

فأجابهم إبراهيم عليه السلام بأن ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ أي: ومن الذي ييأس من رحمة الله، وحسن انعامه، إلاّ العادلون عن الحقّ، الضالّون عن طريق الهدى، الجاهلون بقدرته على خلق الولد من الشيخ الكبير. وهذا القول من إبراهيم عليه السلام يدلّ على أنّه لم يكن قانطاً، ولكنّه إستبعد ذلك، فظنّت الملائكة قنوطاً، فنفي ذلك عن نفسه.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام بعد ذلك للملائكة ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴾ أي: ما الأمر الجليل الذي بعثتم له، وما شأنكم؟ وسمّاهم مرسلين؛ لما علم أنهم ملائكة ﴿قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ﴾ أي: مذنبين. وقيل: كافرين، أخبروه بهلاكهم. واقتصروا على هذا؛ لأنّ من المعلوم أنّ الملائكة إنّما يرسلون إلى المجرمين للهلاك ﴿ إِلَّا آلَ لُوطٍ﴾ استثنى منهم آل لوط، وهم خاصّته وعشيرته، وإنّما إستثناهم منهم، وإن لم يكونوا مجرمين، من حيث كانوا من قوم لوط، وممّن بعث

إليهم. وقيل: إنّ معناه: لكن آل لوط.

﴿إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي: نخلصهم أجمعين من العذاب ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ استثنى إمرأة لوط من آل لوط؛ لأنّها كانت كافرة ﴿قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنْ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الباقين في المدينة مع المهلكين أي: قضينا أنّها تهلك كما يهلكون.

فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ (١) ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ
مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ
يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ
وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ
دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ
يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾

(اللغة): الإسراء: سير الليل: يقال: سرى يسري. سرىً وأسرى إسراء

---

(١) جاء آل لوط: من إجتماع الهمزتين، أسقط الأولى قالون والبزى وأبو عمرو، وسهّل الثانية بين بين ورش. وأختلف عن أبي عمرو في إدغام «آل لوط». واثبت الياء من «فلا تفضحون ولاتخزون» يعقوب من العشرة.

لغتان. قال إمرؤ القيس:

سَرَيْتُ بِهِمْ حَتَّى تَكِلَّ مَطِيُّهُمْ وَحَتَّى الْجِيادُ مَا يُقَدْنَ بِأَرْسانِ[١]

والقطع: كأنّه جمع قطعة مثل بسرة وبسر [يسرة ويسر]، وتمرة وتمر. والإتّباع: إقتفاء الأثر. والإتّباع في المذهب، والإقتداء بمعنى. وخلافه: الإبتداع. والأدبار: جمع دبر، هوجهة الخلف، والقبل: جهة القدّام، وقد يكنّى بهما عن الفرج. والدابر: الأصل، وقيل: إنّ الدابر: الآخر. وعقب الرجل: دابره. والعمر والعمر واحد، غير أنّه لا يجوز في القسم إلاّ بالفتح؛ لأنّ الفتح أخفّ عليهم، وهم يكثرون القسم بلعمري ولعمرك، فلزموا الأخفّ.

﴿الإعراب﴾: ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلاَءِ مَقْطُوعٌ﴾: موضع ﴿أَن﴾ نصب؛ بأنّه بدل من ذلك الأمر؛ لأنّه تفسيره. ويجوز أن يكون نصباً على حذف الجارّ، فكأنّه قال: وقضينا إليه بأنّ دابرهم مقطوع. وقوله: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ نصب على الحال. ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أيضاً في موضع نصب؛ على الحال. ﴿لَعَمْرُكَ﴾ مرفوع على الإبتداء، وخبره محذوف، والتقدير: لعمرك قسمي، أو لعمرك ما أقسم به، ولا يستعمل إظهار هذا الخبر. قال الزجّاج: إنّ باب القسم يحذف معه الفعل، تقول: والله لأفعلنّ، وبالله لأفعلنّ، والمعنى: أحلف بالله، فحذف الفعل للعلم به، فكذلك حذف خبر الإبتداء؛ لدلالة الكلام عليه.

﴿المعنى﴾: ثمّ أخبر سبحانه أنّ الملائكة لمّا خرجوا من عند إبراهيم عليه السلام، أتوا لوطاً عليه السلام يبشّرونه بهلاك قومه، فقال: ﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ وإنّما قال لهم لوط ذلك؛ لأنّهم جاؤه على صفة المرد على هيئة وجمال

---

[١] سَرَيْتُ وأسريْتُ: سِرْتُ ليلاً. الرّسن: الحبل، وما كان من الأزمّة على الأنف.

لم ير مثلهم قطّ، فأنكر شأنهم وهيأتهم. وقيل: إنّه أراد: إنّي أنكركم فعرّفوني أنفسكم ليطمئنّ قلبي ﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُون﴾ أي: بالعذاب الذي كانوا يشكّون فيه إذا خوّفتهم به ﴿وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالعذاب المستيقن به ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ فيما أخبرناك به. وقيل: معناه: وأتيناك بأمر الله تعالى، ولا شكّ أنّ أمره سبحانه حقّ.

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ ومعناه: سر بأهلك بعدما يمضي أكثر الليل، ويبقى قطعة منه ﴿وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ﴾ أي: إقتف أثرهم، وكن وراءهم لتكون عيناً عليهم، فلا يتخلّف أحد منهم ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ﴾ أي: لا يلتفت أحد منكم إلى ما خلف وارئه في المدينة. وهذا كما يقول القائل: إمض لشأنك، ولا تعرج على شيء. وقيل: لا ينظر أحد منكم وراءه؛ لئلاّ يروا العذاب فيفزعوا، ولا يحتمل قلبهم ذلك، ـ عن الحسن، وأبي مسلم ـ.

﴿وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ أي: إذهبوا إلى الموضع الذي أمركم الله بالذهاب إليه، وهو الشام، ـ عن السدّي ـ. ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ﴾ أي: أعلمنا لوطاً، وأخبرناه، وأوحينا إليه ما ننزّل به من العذاب ﴿أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ﴾ يعني: إنّ آخر من يبقى منهم يهلك وقت الصبح، وهو قوله: ﴿مُصْبِحِينَ﴾ أي: داخلين في وقت الصبح، والمراد: إنّهم مستأصلون بالعذاب وقت الصباح على وجه لا يبقى منهم أثر، ولا نسل، ولا عقب.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ يبشّر بعضهم بعضاً بنزول من هو في صورة الأضياف بلوط، وإنّما فرحوا طمعاً في أن ينالوا الفجور منهم: ﴿قَالَ﴾ لوط لهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِي﴾ فيهم، والفضيحة: إلزام العار والشنار بالإنسان، ومعناه: لا تلزموني فيهم عاراً بقصدكم إيّاهم بالسوء ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾

بإجتناب معاصيه ﴿وَلَا تُخْزُونِي﴾ في ضيفي. والخزي: الإنقماع بالعيب الذي يستحيي منه.

﴿قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ معناه: أولم ننهك أن تجير أحداً، أو تضيف أحداً. قال الجبائي: وهذا القول إنّما كان من لوط لقومه قبل أن يعلم أنّهم ملائكة بعثوا لإهلاك قومه، وإنّما ذكر مؤخّراً، وهو في المعنى مقدّم، كما ذكر في غير هذه الصورة ﴿قَالَ﴾ لوط لهم، وأشار إلى بناته لصلبه: ﴿هَـؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ فتزوّجوهنّ إن كان لكم رغبة في التزويج، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة ـ. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ كناية عن النكاح أي: إن كنتم متزوّجين. قيل: وإنّما قال ذلك للرؤساء الذين يكفّون الإتّباع، وقد كان يجوز تزويج المؤمنة من الكافر يومئذ، وقد كان ذلك أيضاً جائزاً في صدر شريعتنا، ثمّ حرّم، ـ عن الحسن، والجبائي ـ. وقيل: إنّهنّ كنّ بنات قومه، عرضهنّ عليهم بالتزويج، والإستغناء بهنّ عن الذكران. والأوّل أوضح.

﴿لَعَمْرُكَ﴾ أي: وحياتك يا محمّد، ومدّة بقائك حيّاً. وقال المبرّد: هو دعاء، ومعناه: أسأل الله عمرك. قال ابن عباس: ما خلق الله عزّوجلّ، ولا ذرأ، ولا برأ نفساً أكرم عليه من محمّد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد إلاّ بحياته، فقال: لعمرك ﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ ومعناه: إنّهم لفي غفلتهم يتحيّرون، ويتردّدون، فلا يبصرون طريق الرشد.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ
لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾
فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ
الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ
﴿٨١﴾ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ
الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

القراءة: قرأ جميع القرّاء: ﴿الْأَيْكَةِ﴾ هيهنا؛ لأنّها مكتوبة بالألف[1]، إلاّ ورشاً عن نافع، فإنّه يترك الهمزة، ويرد حركتها إلى اللام.

الحجّة: إذا خفّفت الهمزة في ﴿الْأَيْكَةِ﴾ وقد ألحقتها الألف و اللام، حذفتها، وألقيت حركتها على اللام، ويجوز فيه إذا استأنف لغتان، فمن قال: أَلحَمْرَ قال: أَلْيَكَة، ومن قال: لَحْمَر[2] قال: لَيْكَة.

اللغة: الأيكة: الشجر الملتف، وجمعها: أيك، مثل: شجرة وشجر.

---

(١) إعلم أنّ كلمة «الأيكة» وردت في أربع مواضع في القرآن الكريم، كتبت في موضعين منها بألفين قبل اللام وبعدها، أحدهما: هنا. والثاني: في سورة «ق»، وكتبت في موضعين: ليكة ـ بحذف الألفين جميعاً ـ. أحدهما: في الشعراء. والآخر: في ﷺ. وحفظ المتأخّرون هذا الرسم حفظاً لخطّ القرآن عن التغيير، ولا أدري كيف يدّعي الأخباريّون تحريف القرآن مع هذه الدقّة في ضبطه، ولايرون التحريف في الأحاديث المنقولة بطريق الآحاد.

(٢) بحذف همزة الوصل.

قال أمية:

كَبُكَا الحَمَامِ عَلىٰ فُرُو عِ الأيْكِ في الطَّيْرِ الجَوَانِحِ[١]

وقيل: الأيكة: الغيضة. والمتوسّم: الناظر في السمة الدالّة وهي العلامة. ويقال: وسمت الشيء وسماً: إذا أثرت فيه بسمة. ومنه: الوسمي: أوّل المطر، لأنّه يسم الأرض بالنبات. وتوسّم الرجل: طلب كلأ الوسمي. قال:

وَأَصْبَحْنَ كَالدَّوْمِ النَّواعِمِ غُدْوَةً عَلىٰ وِجْهَةٍ مِنْ ظاعِنٍ مُتَوَسِّمِ[٢]

وتوسّم فيه الخير: إذا عرف سمة ذلك فيه. والأمام: الطريق، والإمام المبين: اللوح المحفوظ. والإمام في اللغة: هو المتقدّم الذي يتبعه من بعده. والحجر: أخذ من الحجر الذي هو المنع. ومنه: سمّي العقل حجراً؛ لأنّه يمنع من القبائح.

الإعراب: إنتصب قوله: ﴿مُشْرِقِينَ﴾ و ﴿مُصْبِحِينَ﴾ على الحال، يقال: أشرقوا وهم مشرقون: إذا صادفوا شروق الشمس، وهو طلوعها، كما يقال: أصبحوا: إذا صادفوا الصبح، فمعنى مشرقين: مصادفين لطلوع الشمس، و﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ مخفّفة من الثقيلة ﴿آمِنِينَ﴾: منصوب؛ على الحال.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن كيفيّة عذاب قوم لوط، فقال: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ أي: أخذتهم الصوت الهائل في حال شروق الشمس ﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ مضى تفسيره في سورة هود ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ معناه: إنّ فيما سبق ذكره من إهلاك قوم لوط، لدلالات للمتفكرين المعتبرين، ـ عن قتادة، وابن زيد ـ. وقيل: للمتفرّسين، ـ عن

---

(١) البيت من قصيدة قالها في رثاء من قتل ببدر من قريش.

(٢) الدوم: شجر المقل. والنواعم: جمع ناعمة التي النعومة. والتوسّم: الذي يطلب الوسمى من الكلاء.

مجاهد ـ. وقد صحّ عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: «إتّقوا فراسة المؤمن، فإنّه ينظر بنور الله». وقال: «إنّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسّم» ثمّ قرأ هذه الآية. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: «نحن المتوسّمون، والسبيل فينا مقيم، والسبيل طريق الجنّة». ذكره عليّ بن إبراهيم في تفسيره.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ معناه: إنّ مدينة لوط لبطريق مسلوك يسلكها الناس في حوائجهم، فينظرون إلى آثارها، ويعتبرون بها؛ لأنّ الآثار التي يستدلّ بها مقيمة ثابتة بها، وهي مدينة سدوم. وقال قتادة: إنّ قرى قوم لوط بين المدينة والشام.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾ أي: عبرة دلالة ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ وخصّ المؤمنين؛ لأنّهم هم الذين إنتفعوا بها ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ وأصحاب الأيكة هم أهل الشجر الذين أرسل إليهم شعيب عليه السلام، وأرسل إلى أهل مدين، فأهلكوا بالصيحة. وأمّا أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلّة التي إحترقوا بنارها، ـ عن قتادة، وجماعة من المفسّرين ـ. ومعنى الآية: أنّه كان أصحاب الأيكة لظالمين في تكذيب رسولهم، وكانوا أصحاب غياض، فعاقبهم الله تعالى بالحر سبعة أيّام، ثمّ أنشأ سبحانه سحابة فإستظلّوا بها، يلتمسون الروح فيها، فلمّا إجتمعوا تحتها، أرسل منها صاعقة فأحرقتهم جميعاً.

﴿ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أي: من قوم شعيب، ومن قوم لوط أي: عذّبناهم بما إنتقمناه منهم. والإنتقام: هو المجازاة على جناية سابقة، وفرّق علي بن عيسى بين الإنتقام والعقاب: بأنّ الإنتقام: هو نقيض الإنعام، والعقاب: هو نقيض الثواب.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ معناه: وإن مدينتي قوم لوط وأصحاب الأيكة، بطريق يؤمّ ويتبع ويهتدى به، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة ـ. وسمّي الطريق إماماً؛ لأنّ الإنسان يؤمّه، وقيل: معناه: وإنّ حديث

مدينتيهما [مدينتيها] لمكتوب مذكور في اللوح المحفوظ، أو حديث لوط، وحديث شعيب، عن الجبائي، فيكون نظير قوله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ والمبين: الظاهر.

ثمّ أخبر سبحانه عن إهلاك قوم صالح، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجْرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ والحجر: إسم البلد الذي فيه ثمود، وإنّما سمّوا أصحاب الحجر؛ لأنّهم كانوا سكّانه، كما يسمّى الأعراب الذين يسكنون البوادي أصحاب الصحارى؛ لأنّهم كانوا يسكنونها. وقيل: إنّ الحجر إسم لواد كان يسكنها هولاء، ـ عن قتادة ـ. وإنّما قال تعالى: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ لأنّ في تكذيب صالح تكذيب المرسلين؛ لأنّه كان يدعوهم إلى ما دعا إليه المرسلون، وإلى الإيمان بالمرسلين، فكان في تكذيب أحدهم تكذيب الجميع. وقيل: بعث الله إليهم رسلاً منهم صالح، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا﴾ أي: آتينا أصحاب الحجر الحجج، والمعجزات، والدلالات الدالّة على صدق الأنبياء. وقيل: آتينا الرسل الآيات، ـ عن الحسن ـ ﴿فَكَانُوا عَنْهَا﴾ أي: عن الآيات ﴿مُعْرِضِينَ﴾ أعرضوا عن التفكّر فيها، والإستدلال بها.

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً آمِنِينَ﴾ أي: وكان قوم صالح في القوّة بحيث ينحتون من الجبال بيوتاً يسكنونها، وكانوا آمنين من خرابها وسقوطها عليهم. وقيل: كانوا آمنين من عذاب الله. وقيل: آمنين من الموت لطول أعمارهم ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أي: فأهلكوا بالصيحة في وقت دخولهم في الصباح.

﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ﴾ أي: فما دفع عنهم العذاب، ولم يغنهم ﴿مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: يجمعون من المال، والأولاد، وأنواع الملاذّ.

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (١) ﴿٩١﴾

(اللغة): عضين: جمع عضة. وأصله: عضوة، فنقصت الواو، ولذلك جمعت عضين ـ بالنون ـ، كما قال: عزة وعزون، والأصل: عزوة. والتعضية: التفريق، مأخوذ من الأعضاء، يقال: عضيت الشيء أي: فرقته وبعضته. قال رؤبة:

وليس دين الله بالمعضي

وقال آخر:

تِلْكَ دِيَارٌ تَازُمُ المَآزِما ... وَعِضَوَاتٌ تَقْطَعُ اللَّهَازِما(٢)

وقيل: أصل عضة: عضهة، فحذفت الهاء، كما حذفت من «شفة وشاة»، وأصلها: شفهة وشاهة، بدلالة أنّ الجمع شفاه وشياه بالهاء، والتصغير:

---

(١) إنّي أنا: ممّا إختلفوا في فتح يائه.

(٢) المآزم: المضابق من كل شيء والازم يجيء لمعان يجمعها كلّها الشدّة. واللهزمة: مضيغة في أسفل الأذن، فوق اللحى. وعضوات: جمع عضة، شجر. ويروى غضوات ـ بالغين المعجمة ـ جمع غضى، وهي الغيضة يصف الطريق بصعوبة العبور لإلتفاف الأشجار والغياض.

شفيهة وشويهة.

﴿المعنى﴾: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ معناه: وما خلقناهما عبثاً، بل لما إقتضته الحكمة، وهي أنّا قد تعبدنا أهلها، ثمّ نجازيهم بما عملوا ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ﴾ وهي يوم القيامة ﴿لَآتِيَةٌ﴾ أي: جائية بلا شكّ بعذابهم. وقيل: بمجازاة الخلائق كلّهم. وقيل: هو تفسير قوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. ﴿فَاصْفَحْ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أي: فأعرض يا محمّد عن مجازاة المشركين، وعن مجاوبتهم، وأعف عنهم عفواً جميلاً.

وأختلف في الآية فقيل: إنّها منسوخة بآية القتال، ـ عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والضحّاك ـ. وقيل: لا نسخ فيه، بل هو فيما بين النبيّ ﷺ وبينهم، لا فيما أمر به من جهة جهادهم. أمره بالصفح عنهم في موضع الصفح لقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ﴾، ـ عن الحسن ـ. قال القاضي: والصفح ممدوح التشديد في سائر الحالات، وهو كالحلم والتواضع، وقد يلزمنا الصفح الجميل مع لزوم التشديد في أمر الجهاد، وحكي عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: إنّ الصفح الجميل هو العفو عن [من] غير عتاب. وقيل: هو العفو بغير تعنيف، وتوبيخ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ﴾ للأشياء ﴿الْعَلِيمُ﴾ بتدبير خلقه، فلا يخفى عليه ما يجري بينكم. ويجوز أن يريد: إنّ ربّك هو الذي خلقكم، وعلم ما هو الأصلح لكم، وقد علم أنّ الصفح أصلح الآن إلى أن يؤمر بالسيف.

ثمّ ذكر سبحانه ما خصّ به نبيّه ﷺ، من النعم، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنْ الْمَثَانِي﴾ وقد تقدّم الكلام فيه، وإنّ السبع المثاني هي فاتحة الكتاب، وهو قول عليّ عليه السلام، وابن عباس، والحسن، وأبي العالية، وسعيد بن جبير، وإبراهيم، ومجاهد، وقتادة، وروي ذلك عن أبي عبد الله، وأبي جعفر عليهما السلام. وقيل: هي السبع الطوال، وهي السور السبع، من أوّل القرآن، وإنّما سمّيت مثاني؛ لأنّه يثتني [يثني] فيها

الأخبار والعبر، عن ابن عباس، في رواية أخرى، وابن مسعود، وابن عمر، والضحّاك. وقيل: المثاني: القرآن كله؛ لقوله: ﴿كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ﴾، عن أبي مالك، وطاوس. وروي نحو ذلك عن ابن عباس، ومجاهد.

و من قال: هي فاتحة الكتاب، إختلفوا في سبب تسميتها مثاني، فقيل: لأنّها تثنى قراءتها في الصلاة، ـ عن الحسن، وأبي عبد الله عليه السلام ـ. وقيل: لأنّها تثني بها مع ما يقرأ من القرآن، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: لأنّ فيها الثناء مرّتين، وهو الرحمن الرحيم، وقيل: لأنّها مقسومة بين الله وعبده، على ما روي في الخبر. وقيل: لأنّ نصفها ثناء، ونصفها دعاء. وقيل: لأنّها نزلت مرّتين تعظيماً وتشريفاً لها. وقيل: لأنّ حروفها كلّها مثناة، نحو: الرحمن الرحيم، وإيّاك وإيّاك، والصراط وصراط. وقيل: لأنّها تثني أهل الفسق عن الفسق. ومن قال المراد بالمثاني: القرآن كلّه، فإنّ «من» في قوله: ﴿مِنَ الْمَثَانِي﴾ يكون للتبعيض. ومن قال: إنّها الحمد، كان ﴿مِن﴾ للتبيين. وقال الراجز:

نَشَدْتُكُمْ بِمُنْزِلِ الْقُرْآنِ ... أُمِّ الْكتابِ السَّبْعِ مِنْ مَثانِي

ثِنْتَيْنِ مِنْ آيٍ مِنَ الْقُرْآنِ ... وَالسَّبْعِ سَبْعِ الطُولِ الدَوانِي

﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ تقديره: وآتيناك القرآن العظيم، وصفه بالعظيم؛ لأنّه يتضمّن جميع ما يحتاج إليه من أمور الدين، بأوجز لفظ، وأحسن نظم، وأتمّ معنى.

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ﴾ أي: لا ترفعنّ عينيك من هؤلاء الكفّار إلى ما متّعناهم، وأنعمنا عليهم به أمثالاً في النعم من الأموال، والأولاد، وغير ذلك من زهرات الدنيا، فإنّها في معرض الزوال والفناء، مع ما يتبعها من الحساب والجزاء. وعلى هذا فيكون ﴿أَزْوَاجاً﴾ منصوباً؛ على الحال، والمراد به: الأشباه والأمثال.

وقيل: إنّ معناه: لا تنظرنّ إلى ما في أيديهم من النعم التي هي أشباه يشبه

بعضها بعضاً، فإنّ ما أنعمنا عليك وعلى من إتّبعك، من أنواع النعم، وهي النبوّة، والقرآن، والإسلام، والفتوح، وغيرها، أكثر وأوفر ممّا آتيناهم. وقيل: إنّ معناه: ولاتنظرنّ ولا تعظمنّ في عينيك، ولاتمدّهما إلى ما متّعنا به أصنافاً من المشركين. والأزواج: الأصناف. ويكون على هذا مفعولاً به، نهى الله رسوله عن الرغبة في الدنيا، فحظر عليه أن يمدَّ عينيه إليها، وكان رسول الله ﷺ لا ينظر إلى ما يستحسن من الدنيا.

﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: على كفّار قريش، إن لم يؤمنوا، ونزل بهم العذاب، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: لا تحزن عليهم بما يصيرون إليه من عذاب النار بكفرهم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: لا تحزن لما أنعمت عليهم دونك، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ألن لهم جانبك، وارفق بهم، ـ عن ابن عباس ـ. والعرب تقول: فلان خافض الجناح، إذا كان وقوراً حليماً، وأصله: أنّ الطائر إذا ضمَّ فرخه إلى نفسه جناحه، ثمّ خفضه، فالمعنى: تواضع للمؤمنين لكي يتبعك الناس في دينك.

﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ معناه: وقل إنّي أنا المعلم بموضع المخافة ليتّقى المبين لكم ما تحتاجون إليه، وما أرسلت به إليكم ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ قيل: فيه قولان: أحدهما: إنّ معناه: أنزلنا القرآن عليك، كما أنزلنا على المقتسمين، وهم اليهود والنصارى.

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: فرّقوه وجعلوه أعضاء كأعضاء الجزور، فآمنوا ببعضه، وكفروا ببعضه، عن قتادة قال: آمنوا بما وافق دينهم، وكفروا بما خالف دينهم. وقيل: سمّاهم مقتسمين؛ لأنّهم إقتسموا كتب الله تعالى فآمنوا ببعضها، وكفروا ببعضها، ـ عن ابن عباس ـ. والآخر: إنّ معناه: إنّي أنذركم عذاباً كما أنزلنا على المقتسمين الذين إقتسموا طرق مكّة، يصدّون عن

رسول الله ﷺ، والإيمان به. قال مقاتل: وكانوا ستّة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيّام الموسم، يقولون لمن أتى مكّة: لا تغتروا بالخارج منا، والمدعي النبوّة، فأنزل الله بهم عذاباً، فماتوا شرّ ميتة. ثمّ وصفهم، فقال: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ أي: جزأوه أجزاء، فقالوا: سحر، وقالوا: أساطير الأوّلين، وقالوا: مفترى، ـ عن ابن عباس ـ.

النظم: وجه إتّصال الآية الأولى بما قبلها: هو أنّ الأمم لمّا خالفوا الحقّ أهلكوا؛ لأنّ الله تعالى ما خلق السماوات والأرض إلاّ بالحقّ، وإنّ الساعة آتية للجزاء، وإنّ جميع ما خلق الله يرجع إلى عالم يدبّره، وإتّصل قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِنْ الْمَثَانِي﴾ بقوله: ﴿فَاصْفَحِ الْصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ فإنّه سبحانه لمّا أمره بالصفح عن أذاهم، بيّن ما خصّه الله به من النعم، وما له من الحجّة عليهم، وإتّصل قوله: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَا﴾ على القول الأوّل بهذا أي: كما أنزلنا عليهم أنزلنا إليك القرآن، وعلى القول الثاني، يتّصل بقوله: ﴿أَنَا النَّذِيرُ﴾.

فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ
ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا
يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ
رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

اللغة: الصدع، والفرق، والفصل، نظائر. وصدع بالحقّ: إذا تكلّم به جهاراً. قال أبو ذؤيب:

وَكَأَنَّـــهُنَّ رِبْـــابَةٌ، وَكَأَنَّـــهُ يَسَرٌ يُفِيضُ عَلَى القِداحِ، وَيَصْدَعُ[١]

والصديع: الصبح، قال:

كَأَنَّ بَيَاض غُرَّتِهِ الصَّديعُ[١]

﴿الإعراب﴾: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ إن جعلت «ما» بمعنى «الذي»، كان العائد من الصلة إلى الموصول محذوفاً، ويكون تقديره على إستعمال الصيغة فيه: فاصدع بما تؤمر بالصدع به، ثمّ تحذف الباء التي في «به» فيصير بالصدعة، ولا يجوز الإضافة مع لام المعرفة، فتحذف لام المعرفة توصّلاً بحذفه إلى الإضافة، فيصير بما تؤمر بصدعه، ثمّ يحذف المضاف، ويقيم المضاف إليه مقامه، فيبقى بما تؤمر به. ثّم يحذف حرف الجرّ على حدّ قولك: أمرتك الخير في: أمرتك بالخير، فيصير بما تؤمره. ثمّ يحذف العائد المنصوب من الصلة على ما تكرّر بيانه في مواضع، فيصير بما تؤمر. وهذا من لطائف أسرار النحو. وإن جعلت «ما» مصدريّة كان على تقدير: فاصدع بالأمر، كما تقول: عجبت ممّا فعلت. والتقدير: عجبت من فعلك، ولا يحتاج هنا إلى عائد يعود إلى «ما» لأنّه حرف. وحكى يونس النحوي، عن رؤبة، أنّه قال: في هذه اللفظة أفصح ما في القرآن.

﴿المعنى﴾: لمّا بيّن سبحانه كفرهم بالقرآن، وتعضيتهم له، بيّن عقيب ذلك لنبيّه ﷺ، أنّه يسألهم عمّا فعلوه، ويجازيهم عليه، فقال: ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمّد ﴿لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أقسم بنفسه، وأضاف نفسه إلى نبيّه ﷺ، تشريفاً له، وتنبيهاً للخلق على عظيم منزلته عنده، لنسألنّ هؤلاء الكفّار سؤال توبيخ وتقريع، بأن

---

(١) يصف حماراً واتنه، ويشبه الحمار بالمقامر، والاتن أطرافه بالقداح التي يفيضها. والربابة: جعبة يجعل فيها القداح.

[١] قائله: عمرو بن معديكرب. وقبله: (ترى السرحان مفترشاً يديه). والسرحان الأسد.

نقول لهم: لمَ عصيتم؟ وما حجّتكم في ذلك؟ فيظهر عند ذلك خزيهم وفضيحتهم عند تعذّر الجواب ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ معناه: عمّا عملوا فيما عملوا، عن سفيان بن عيينة. وقيل: عن لا إله إلاّ الله، والإيمان برسله، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: عمّا كانوا يعبدون، وبماذا أجابوا المرسلين، ـ عن أبي العالية ـ. ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ أي: أظهر وأعلن، وصرح، بما أمرت به، غير خائف، ـ عن ابن عباس، وابن جريج، ومجاهد، وابن زيد ـ. وقيل: معناه: فافرق بين الحقّ والباطل بما أمرت به، ـ عن الجبائي، والأخفش ـ. وقيل: أبن ماتؤمر به، وأظهره، عن الزجّاج، قال: وتأويل الصدع في الزجاج وفي الحائط، أن تبيّن بعض الشيء عن بعض.

﴿وَأَعْرِضْ عَنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا تخاصمهم إلى أن تؤمر بقتالهم. وقيل: معناه: لا تلتفت إليهم، ولا تخف عنهم، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: وأعرض عن مجاوبتهم إذا آذوك، ـ عن الجبائي ـ.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ أي: كفيناك شرّ المستهزئين وإستهزاءهم، بأن أهلكناهم، وكانوا خمسة نفر من قريش: العاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، وأبو زمعة، وهو الأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحرث بن قيس، ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير ـ. وقيل: كانوا ستّة رهط، عن محمّد بن ثور، وسادسهم: الحارث بن الطلاطلة، وأمه عيطلة، قالوا: وأتى جبرائيل النبيّ ﷺ، والمستهزؤون يطوفون بالبيت، فقام جبرائيل ورسول الله إلى جنبه، فمرّ به الوليد بن المغيرة المخزومي، فأومئ بيده إلى ساقه، فمرّ الوليد على قين لخزاعة، وهو يجرّ ثيابه، فتعلقت بثوبه شوكة، فمنعه الكبر أن يخفض رأسه فينزعها، وجعلت تضرب ساقه فخدشته، فلم يزل مريضاً حتى مات، ومرّ به العاص بن وائل السهمي، فأشار جبرائيل إلى رجله، فوطيء العاص على شوكة، فدخلت في

أخمص رجله! فقال: لدغت! فلم يزل يحكها حتى مات، ومرّ به الأسود بن المطلب بن عبد مناف، فأشار إلى عينه فعمي. وقيل: رماه بورقة خضراء فعمي، وجعل يضرب رأسه على الجدار حتى هلك. ومرّ به الأسود بن عبد يغوث، فأشار إلى بطنه فإستسقى فمات. وقيل: أصابه السموم، فصار أسود، فأتى أهله. فلم يعرفوه، فمات وهو يقول: قتلني ربّ محمّد! ومرّ به الحارث بن الطلاطلة، فأومئ إلى رأسه فإمتخط قيحاً، فمات. وقيل: إنّ الحرث بن قيس، أكل حوتاً مالحاً، فأصابه العطش، فما زال يشرب حتى إنقدّ بطنه، فمات.

ثم وصفهم سبحانه بالشرك، فقال: ﴿الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ أي: اتخذوا معه إلّها يعبدونه ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ هذا وعيد لهم، وتهديد ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ﴾ يا محمّد ﴿يَضِيقُ صَدْرُكَ﴾ أي: قلبك ﴿بِمَا يَقُولُونَ﴾ من تكذيبك، والإستهزاء بك، وهذا تعزية من الله تعالى لنبيّه، وتطييب لقلبه.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: قل: سبحان الله وبحمده ﴿وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ أي: المصلّين، ـ عن الضحّاك، وابن عباس، قال: وكان رسول الله ﷺ، إذا حزنه أمر، فزع إلى الصلاة. وقيل: معناه: إحمد ربّك على نعمه إليك، وكن من الذين يسجدون لله، ويوجهون بعبادتهم إليه.

﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي: إلى أن يأتيك الموت، ـ عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد ـ. وقيل: حتى يأتيك اليقين من الخير والشرّ عند الموت، ـ عن قتادة ـ. وسمّي الموت يقيناً؛ لأنّه موقن به[1]، ويحتمل أن يكون

---

(١) اليقين قد يكون صفة مشبّهة كالشريف، وهو الأمر الواضح المتيقّن، وقد يكون مصدراً ويطلق على إسم المفعول، وهو إطلاق شائع، ومعنى قولهم: لاتنقض اليقين بالشكّ أي: لاتنقض الأمر المتيقّن بالأمر المشكوك، وقال بعض اهل عصرنا: لايجوز إطلاق اليقين على المتيقّن لاحقيقة ولا مجازاً، وهو سهو، بل يجوز حقيقة ومجازاً.

أراد: حتى يأتيك العلم الضروري بالموت، والخروج من الدنيا الذي يزول معه التكليف. قال الزجّاج: المعنى: أعبد ربّك أبد الآبدين، ولو قال: أعبد ربّك بغير توقيت، لجاز أن يكون الإنسان مطيعاً إذا عبد الله مرّة، فإذا قال: ﴿حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ فقد أمر بالإقامة على العبادة أبداً، مادام حيّاً.

سُورَةُ النَّحْلِ

أربعون آية من أوّلها مكّيّة، والباقي من قوله: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ إلى آخر السورة مدنيّة، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. وقيل: مكّيّة كلّها غير ثلاث آيات، نزلت في إنصراف النبيّ ﷺ من أحد ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا﴾ إلى آخر السورة، نزلت بين مكّة والمدينة ـ، عن ابن عباس، وعطا، والشعبي ـ. وفي إحدى الروايات عن ابن عباس: بعضها مكّيّ، وبعضها مدنيّ، فالمكّيّ من أولها إلى قوله: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، والمدنيّ قوله: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ إلى قوله: ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

عَدَدُ آيِهَا: مائة وثمان وعشرون آية، ليس فيها إختلاف.

فَضْلُهَا: أبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ، قال: من قرأها لم يحاسبه الله تعالى بالنعم التي أنعمها عليه في دار الدنيا، وأعطي من الأجر كالذي مات وأحسن الوصيّة، [وإن مات في يوم تلاها أو ليلة، كان له من الأجر، الذي مات فأحسن الوصيّة] وروى محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: من قرأ سورة النحل في كل شهر، كفي المغرم في الدنيا، وسبعين نوعاً من أنواع البلاء، أهونه الجنون، والجذام، والبرص، وكان مسكنه في جنّة عدن، وهي وسط الجنان.

تَفْسِيرُهَا: لمّا ختم الله سبحانه سورة الحجر بوعيد الكفّار، كان إفتتاح هذه

السورة بوعيدهم أيضاً، فقال:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢﴾

(القراءة): ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالتاء كوفيّ غير عاصم. والباقون: بالياء. ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ﴾ ـ بفتح التاء والزاي والتشديد ـ ورفع ﴿الْمَلائِكَةِ﴾ روح، وزيد عن يعقوب وسهل، وهي قراءة الحسن. والباقون ﴿ينزل﴾ بالياء. بكسر الزاي ونصب ﴿الْمَلائِكَةِ﴾ ـ. وابن كثير وأبو عمرو يخفّفان ﴿يُنْزل﴾ على أصلها، وكذلك رويس عن يعقوب. والباقون: يشدّدون[1].

(اللغة): قيل إنّ التسبيح بالتشديد في اللغة على أربعة أقسام: الأول: التنزيه كقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرىٰ﴾. والثاني: معنى الإستثناء، كقوله: ﴿لَوْ لاَ تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تستثنون بقولكم: إن شاء الله. والثالث: بمعنى: الصلاة، كقوله: ﴿فَلَوْ لاَ أَنَّهُ كان مِنَ الْمُسَبِّحِينَ﴾. والرابع: بمعنى: النور، كما جاء في الحديث: فلولا سبحات وجهه أي: نوره. والروح يأتي على عشرة أقسام: الروح: حياة النفوس بالإرشاد. والروح: الرحمة، كما ورد في القراءة: ﴿فَرُوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾. والروح:

---

(١) لم يثبت أحد من السبعة الياء من «فاتّقون».

النبوّة، كقوله: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾. والروح: عيسى روح الله؛ لأنّه خلق من غير بشر. وقيل: من غير فحل. وقيل: لكونه رحمة على عباده بما يدعوهم إلى الله. والروح: جبرائيل عليه السلام. والروح: النفخ. يقال: أحييت النار بروحي أي: بنفخي. قال ذو الرمة يصف الزند والزندة:

فَلَمّا بَدَتْ كَفَنْتُها وَهْيَ طِفْلَةٌ ... بِطَلْساءَ لَمْ تَكْمُلْ ذِراعاً وَلا شِبْراً

وَقُلْتُ لَهُ ارْفَعْها إِلَيْكَ وَأَحْيِها ... بِرُوحِكَ وَاقْتَتْهُ لَها قِيتَةً قَدْراً[1]

والروح: الوحي، في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾. وقيل: إنّه جبرائيل. والروح: ملك في السماء مِن أعظم مَن خلق الله، فإذا كان يوم القيامة وقف صفّاً، والملائكة كلّهم صفّاً. والروح: روح الإنسان. وقال ابن عباس: في الإنسان روح ونفس. فالنفس: هي التي يكون فيها التمييز والكلام. والروح: هو الذي يكون به الغطيط والنفس، فإذا نام العبد خرجت نفسه، وبقي روحه، وإذا مات خرجت نفسه وروحه معاً.

المعنى: ﴿أَتَى أَمْرُ اللهِ﴾ فيه أقوال: **أحدها**: إنّ معناه: قرب أمر الله تعالى بعقاب هؤلاء المشركين المقيمين على الكفر والتكذيب، ـ عن الحسن، وابن جريج. قال الحسن: إنّ المشركين قالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله: إئتنا بعذاب الله فقال سبحانه: إنّ أمر الله آت وكل ما هو آت قريب دان» **وثانيها**: إنّ أمر الله أحكامه وفرائضه، ـ عن الضحّاك ـ.

وثالثها: إنّ أمر الله هو يوم القيامة، ـ عن الجبائي، وروي نحوه عن ابن عباس، وعلى هذا الوجه فيكون «أتى» بمعنى «يأتي»، وجاء وقوع الماضي هيهنا

---

(١) الزند والزندة: خشبتان يحك إحديهما بالأخرى، فتشتعل، وإذا خرجت النار جعلوا عليها شيئاً سريع الإحتراق، ثمّ الحطب، وكانوا يحيونها بالنفح. وإقتت: فعل أمر من الإقتيات، وهو إلقاء الحطب في النار. والطلساء: مؤنّث الأطلس أي: البالي الخرق.

لصدق المخبر بما أخبر به، فصار بمنزلة ما قد مضى؛ ولأنّه سبحانه قرب أمر الساعة، فجعله أقرب من لمح البصر، وقال: إقتربت الساعة.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ خطاب للمشركين المكذّبين بيوم القيامة لعذاب الله، المستهزئين به، وكانوا يستعجلونه كما حكى الله سبحانه عنهم، قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ وتقديره: قل لهؤلاء الكفار: لا تستعجلوا القيمامة والعذاب؛ فإنّ الله سيأتي بكل واحد منهما في وقته وحينه، كما تقتضيه حكمته ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ هذه كلمة تنزيه لله تعالى، عمّا لا يليق به وبصفاته، وتنزيه له من أن يكون له شريك في عبادته أي: جلّ وتقدّس وتنزّه من أن يكون له شريك، تعالى وتعظّم وإرتفع من جميع صفات النقص ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ أي: ينزّل الله الملائكة، أو تنزّل الملائكة.

﴿بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: بالوحي، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: بالقرآن، ـ عن ابن زيد ـ. وهما واحد، وسمّي روحا؛ لأنّه حياة القلوب والنفوس بالإرشاد إلى الدين. وقيل: بالنبوّة، ـ عن الحسن ـ. وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي: بأمره، ونظيره: قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ أي بأمر الله؛ لأنّ أحداً لا يحفظه عن أمره.

﴿عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ ممّن يصلح للنبوّة والسفارة بينه وبين خلقه ﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِي﴾ هذا تفسير للروح المنزل، وبدل منه، فإنّ المعنى: تنزل الملائكة بأن أنذروا أهل الكفر والمعاصي، بأنّه لا إله إلاّ الله أي: مروهم بتوحيدي، وبأن لايشركوا بي شيئاً. ومعنى: ﴿فَاتَّقُونِ﴾: فاتّقوا مخالفتي. وفي هذا دلالة على أنّ الغرض من بعثة الأنبياء، الإنذار والدعاء إلى الدين.

النظم: وجه إتّصال قوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ بما تقدّم: أنّ الكفّار كانوا يستعجلون العذاب على وجه التكذيب به، ويكذبون البعث والقيمامة، فبيّن سبحانه أنّه منزّه عمّا يصفون به، فإنّ الحكيم إذا كلّف وجب أن يجازي المكلّف،

فترك المجازاة قبيح. وقيل: إنّهم كانوا ينكرون قدرة الله تعالى سبحانه على إعادة الخلق، فنزّه نفسه عن قولهم وإتّصل قوله: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ﴾ بما تقدّم، فإنّه سبحانه لمّا أوعدهم بالعذاب، بيّن أنّه ينزّل الملائكة للتخويف، وأنّه لا يأخذ أحداً من المشركين حتى يحتج عليه بالنذر. وقيل: إنّه سبحانه بيّن أنّ الحال حال التكليف، لا حال نزول العذاب، وأنّ الصلاح الآن إنزال الملائكة إلى النبيّ ﷺ، بالوحي والكتاب؛ للإنذار، وبيان الأدلّة، ولذلك أتبعه بذكر الأدلّة.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾
خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ
خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ
﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾
وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ
ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: ﴿بِشِقِّ الْأَنْفُسِ﴾ بفتح الشين. والباقون: بكسرها.

الحجة: الشَقّ، والشِق ـ بكسر الشين، وفتحها ـ بمعنى، وكلاهما: المشقّة. قال عمرو بن ملقط، وهو جاهلي:

وَالْخَيْلُ قَدْ تَجْشِمُ أَرْبَابَهَا ... الشَّقَّ وَقَدْ تَعْتَسِفُ الدَّوَّا[1]

والرواية بفتح الشين.

اللغة: الأنعام: جمع نعم، وهي الإبل والبقر والغنم، سمّيت بذلك؛ لنعمة

---

(١) الدوّ: الصحراء.

مشيها، بخلاف الحافر الحافر الذي يصلب مشيها. والدفء: ما إستدفأت به، ودفؤ يومنا دفأ فهو دفيء. والإراحة: ردّ الماشية بالعشي من مراعيها إلى مباركها، والمكان الذي يراح فيه مراحٍ. والسروح: خروج الماشية إلى المرعى بالغداة. يقال: سرحت الماشية سرحاً وسروحاً، وسرحها أهلها. قال:

كَأَنَّ بَقَايَا الإِثْرِ فَوْقَ مُتُونِهِ مَدَبُّ الدُّبا فَوْقَ النَّقا، وَهْوَ سارحُ[1]

والأثقال: جمع الثقل، وهو المتاع الذي يثقل حمله.

الإعراب: ﴿وَالْأَنْعَامَ﴾: منصوب بفعل مقدّر يفسّره ما بعده، والتقدير: وخلق الأنعام خلقها. وقوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ جملة منصوبة الموضع؛ على الحال من ﴿الْأَنْعَامَ﴾، والتقدير: كائنة بهذه الصفة.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر بعث الملائكة للإنذار، وبيان التوحيد وشرائع الإسلام، أتبعه سبحانه بالإحتجاج على الخلق بالخلق، وتعداد صنوف الأنعام، فقال: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ ومعناه: أنّه خلقهما ليستدلّ بهما على معرفته، ويتوصّل بالنظر فيهما إلى العلم بكمال قدرته وحكمته. وقيل: خلقهما لينتفع بهما في الدين والدنيا، وليعمل بالحقّ. ﴿تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تقدس عن أن يكون له شريك.

ثمّ بيّن سبحانه دلالة أخرى، فقال: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ والنطفة: الماء القليل، غير أنّه بالتعارف صار إسماً لماء الفحل. ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ إختصرها هنا ذكر تقلّب أحوال الإنسان لذكره ذلك في أمكنة كثيرة من القرآن، فالمعنى: أنّه خلق الإنسان من نطفه سيّالة، ضعيفة، مهينة دبرها، وصوّرها بعد أن قلبها حالاً بعد حال، حتى صارت إنساناً يخاصم عن نفسه، ويبيّن عمّا في ضميره، فبيّن سبحانه أنقص أحوال الإنسان وأكملها، منبّهاً على كمال قدرته وعلمه. وقيل:

---

(١) الدبا: صغار الجراد قبل أن تطير، ومسيرها على الأرض خطوط شبّه بها أثر الرحل على المركوب.

خصيم مجادل بالباطل، مبين ظاهر الخصومة، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. فعلى هذا يكون المعنى: أنّه خلقه ومكّنه. فأخذ يخاصم في نفسه، وفيه تعريض لفاحش ما إرتكبه الإنسان من تضييع حق نعمة الله عليه.

ثمّ بيّن سبحانه نعمته في خلق الأنعام، فقال: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا﴾ معناه: وخلق الأنعام من الماء، كما خلقكم منه، يدلّ عليه قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ﴾ وأكثر ما يتناول الأنعام، الإبل، ويتناول البقر، والغنم أيضاً. وفي اللغة: هي ذوات الأخفاف والأظلاف دون ذوات الحوافر.

﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ أي: لباس، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. قيل: ما يستدفأ به ممّا يعمل من صوفها ووبرها، وشعرها، ـ عن الحسن ـ. فيدخل فيه الأكسية، واللحف، والملبوسات، وغيرها. قال الزجّاج: أخبر سبحانه أنّ في الأنعام ما يدفئنا، ولم يقل: ولكم فيها ما يكنّكم من البرد؛ لأنّ ما ستر من الحرّ ستر من البرد. وقال في موضع آخر: ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ﴾ فعلم أنّها تقي البرد أيضاً، فكذلك هيهنا: وقيل: إنّ معناه: وخلق الأنعام لكم أي: لمنافعكم، ثمّ إبتدأ وأخبر، وقال: فيها دفء، ـ عن الحسن، وجماعة ـ.

﴿وَمَنَافِعُ﴾ معناه: ولكم فيها منافع أخر من الحمل، والركوب، وإثارة الأرض، والزرع، والنسل ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: ومن لحومها تأكلون ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: حسن منظر، وزينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾ أي: حين تردّونها إلى مراحها، وهي حيث تأوي إليه ليلاً.

﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ أي: حين ترسلونها بالغداة إلى مراعيها، وأحسن ما يكون النعم إذا راحت عظاماً ضروعها، ممتلئة بطونها، منتصبة أسنمتها، وكذلك إذا سرحت إلى المراعي رافعة رؤوسها، فيقول الناس هذه جمال فلان ومواشيه، فيكون له فيها جمال.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾ أي: أمتعتكم ﴿إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ

﴿الْأَنْفُسِ﴾ أي: وتحمل الإبل، وبعض البقر، أحمالكم الثقيلة إلى بلد بعيد، لا يمكنكم أن تبلغوه من دون الأحمال، إلاّ بكلفة ومشقّة تلحق أنفسكم، فكيف تبلغونه مع الأحمال لولا أنّ الله تعالى سخّر هذه الأنعام لكم، حتى حملت أثقالكم إلى أين شئتم. وقيل: إنّ «الشقّ» معناه: الشطر والنصف. فيكون المراد: إلاّ بأن يذهب شطر قوّتكم أي: نصف قوّة الأنفس. وقيل: معناه: تحمل أثقالكم إلى مكّة؛ لأنّها من بلاد الفلوات، ـ عن ابن عباس، وعكرمة ـ.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُفٌ﴾ أي: ذو رأفة ﴿رَحِيمٌ﴾ أي: ذو رحمة، ولذلك أنعم عليكم بخلق هذه الأنعام إبتداء منه بهذه الأنعام.

وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ
شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ
بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ
الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾
وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ وَالنُّجُومُ
مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ
﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

القراءة: قرأ حمّاد، ويحيى، عن أبي بكر، عن عاصم: ننبت ـ بالنون ـ.

والباقون: بالياء. وقرأ إبن عامر: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ﴿وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ﴾ كلّها بالرفع. وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ ـ بالنصب ـ ﴿وَالنُّجُومَ﴾ مسخّرات ـ بالرفع ـ. وقرأ الباقون: كل ذلك بالنصب.

الحجة: من قرأ: ﴿يُنْبِتُ﴾ ـ بالياء ـ فلما تقدّم من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ﴾ فالياء أشكل بما تقدّم من الإفراد، والنون لا يمتنع أيضاً، ويقال: نبت البقل، وأنبته الله. قال أبو عليّ: والنصب في قوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ أحسن؛ ليكون معطوفاً على ما قبله. وداخلاً في إعرابه، ألاترى أن ما في التنزيل من نحو قوله ﴿وَكُلّاً ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ يختار فيه النصب؛ ليكون مثل ما يعطف عليه، ومشاكلاً له، فكذلك هنا إذا حمل ذلك على التسخير، كان أشبه.

فإن قلت: فقد جاء ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ بعد هذه الأشياء المنصوبة المحمولة على سخر، فإنّ ذلك لا يمتنع؛ لأنّ الحال تكون مؤكّدة، ومجيء الحال مؤكّدة في التنزيل وغيره كثير، كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً﴾ وأنا [إبن] دارة[١] معروفاً «وكفى بالنأي من أسماء كاف» ويقوّي النصب قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ﴾، فكما حمل هنا على التسخير، كذلك في الأخرى، وكذلك النجوم قد حملت على التسخير في قوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومِ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ وكأن ابن عامر قطعة عن سخر؛ لئلاّ يجعل الحال مؤكّدة، فإبتدأ الشمس والقمر والنجوم، وجعل مسخّرات خبراً عنها. ويدلّ على جواز ذلك أنّه إذا جاء سخّر لكم الشمس والقمر والنجوم علم من هذا أنّها مسخّرات فجاز الأخبار بالتسخير عنها، لذلك، وأمّا حفص فإنّما رفع ﴿وَالنُّجُومُ

---

[١] ابن دارة: رجل من فرسان العرب.

﴿مُسَخَّرَات﴾؛ لأنّه لا يصحّ أن يقال: وسخّر النجوم مسخّرات، فقطعها ممّا قبلها. فعلى هذا يكون حجّة من نصب أن يقدر فعلاً آخر، وتقديره: وجعل النجوم مسخّرات.

اللغة: القصد: إستقامة الطريق، يقال: طريق قصد وقاصد: إذا قصد إلى ما يريد. والجائر: المائل عن الحقّ. والشجر: ما ينبت من الأرض، وقام على ساق، وله ورق. وجمعه: أشجار. ومنه: المشاجرة؛ لتداخل بعض الكلام في بعض، كتداخل ورق الشجر. قال الأزهري: الشجر ما ينبت من الأرض، قام على ساق أو لم يقم. ﴿تُسِيمُونَ﴾: من الإسامة. يقال: أسمت الإبل: إذا رعيتها وأطلقتها فترعى متصرّفة حيث شاءت. وسامت هي: إذا رعت، وهي تسوم، وإبل سائمة. ويقال: سمتها: إذا قصرتها على مرعى بعينه. وسمتها الخسف: إذا تركتها على غير مرعى، ومنه: قيل سيم فلان خسفاً: إذا ذل وإهتضم. قال الكميت في الإسامة:

رَاعِياً كَانَ مُسْجِحاً فَفَقَدْنَاهُ ... وَفَقْدُ الْمُسِيْمِ هُلْكُ السَّوَامِ[1]

وقال آخر:

وَأَسْكُنُ مَا سَكَنْتُ بِبَطْنِ وَادٍ ... وَأَظْعَنُ إنْ ظَعَنْتُ فَلاَ أَسِيمُ[1]

وذهب قوم إلى أنّ السوم في البيع من هذا؛ لأنّ كلّ واحد من المتبايعين يذهب فيما يبيعه من زيادة ثمن، أو نقصانه، إلى ما يهواه، كما تذهب السائمة حيث شاءت. وقد جاء في الحديث: لا سوم قبل طلوع الشمس، فحمله قوم على أنّ المواشي لا تسام قبل طلوع الشمس؛ لئلاّ تنتشر، وحمله آخرون على أنّ البيع في

---

(١) السَوام ـ بفتح السين ـ : الراعية يعنى: يهلك السائمة إذا فقد راعيها. وفي النسخ إختلاف في كلمة «مسجحاً».

[١] السائم: الذاهب على وجهه حيث يشاء.

ذلك الوقت مكروه؛ لأنّ المبيع لا تنتشر عيوبه، فيدخل في بيع الغرر المنهي عنه. والذرأ: إظهار الشيء بإيجاده، يقال: ذرأه، ويذرأه، وذرأه وفطره وأنشأه، نظائر. وملح ذرء أي: ظاهر البياض.

الإعراب: نصب ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ﴾: على أنّها مفعول في المعنى أي: وخلق الخيل والبغال والحمير. ونصب ﴿زِينَةً﴾، لأنّها مفعول لها، المعنى: وخلقها زينة. ﴿وَمَا ذَرَأَ﴾: «ما» بمعنى «الذي»، وموضعه نصب على تقدير: وخلق ما ذرألكم. وقيل: هو في موضع الجرّ، بالعطف على ذلك أي: أنّ في ذلك وفي ما ذرألكم. ﴿مُخْتَلِفاً﴾: نصب؛ على الحال. و ﴿أَلْوَانُهُ﴾: فاعله.

المعنى: ثمّ عطف سبحانه على ما عدّده من صنوف أنعامه، فقال: ﴿وَالْخَيْلِ﴾ أي: وخلق لكم الخيل ﴿وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا﴾ في حوائجكم، وتصرّفاتكم ﴿وَزِينَةً﴾ أي: ولتتزيّنوا بها. منَّ الله تعالى على خلقه بأن خلق لهم من الحيوان ما يركبونه، ويتجمّلون به، وليس في هذا ما يدلّ على تحريم أكل لحومها[1]. وقد روى البخاري في الصحيح مرفوعاً إلى أسماء بنت أبي بكر، قالت: أكلنا لحم فرس على عهد رسول الله ﷺ.

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنواع الحيوان والنبات والجماد، لمنافعكم ﴿وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ أي: بيان قصد السبيل، ـ عن ابن عباس ـ. ومعناه: واجب على الله في عدله بيان الطريق المستقيم، وهو بيان الهدى من الضلالة والحلال من الحرام ليتبع الهدى والحلال، ويجتنب الضلالة والحرام، وهذا مثل

---

(١) إستدلّ الجصاص بالآية على تحريم لحوم الخيل والبغال والحمير، وهي لاتدلّ على مطلوبهم؛ فإنّ ذكر الله تعالى بعض منافعها الظاهرة المعروفة، لاتدلّ على حرمة ماسواها، فالآية ساكتة عن الأكل، وحكمه؛ اذ ليس منفعة معتادة، والحديث يدلّ على الحلّ.

قوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدىٰ﴾ ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ معناه: من السبيل ما هو جائر أي: عادل من الحقّ.

﴿وَلَوْ شَاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِيْنَ﴾ إلى قصد السبيل بالإلجاء والقهر، فإنّه قادر على ذلك. وقيل: معناه: لهداكم إلى الجنّة والثواب تفضّلاً ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ. وقيل: إنّ معنى الآية: وعلى الله الممرّ. ومن الطريق التي الممرّ فيها على الله جائر، وكلاهما على الله، لا يخرج أحداً عن قبضته وحكمه، كقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرصَادِ﴾. وقيل: على الله ممرّ ذي السبيل القصد، والسبيل الجائر، إليه مرجع كل واحد منهما، لا يخرج واحد عن سلطانه، ولو أراد أن يحمل الجميع على الحقّ لفعل. ومن عدل عن الطريق المستقيم، فليس ذلك لعجز من الله تعالى.

ثمّ عدّ سبحانه نعمة أخرى دالّة على وحدانيّته، فقال: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي: مطراً ﴿لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ﴾ أي: لكم من ذلك الماء شراب تشربونه ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾ فيه وجهان أحدهما: أن يكون المراد: ومنه شرب شجر، أو سقي شجر، فحذف المضاف. والآخر: أن يكون المراد: ومن جهة الماء شجر، أو من سقيه وإنباته شجر، فحذف المضاف إلى الهاء في «منه» كما قال زهير:

أَمِنْ أُمّ أَوْفىٰ دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ ... بِحَوْمانة الدَّارجِ، فَالْمُتَثَلَّمِ[1]

أي: أمن ناحية أم أوفى. وقال أبو ذؤيب:

أمِنْكَ الْبَرْقُ أَرْقُبُهُ فَهاجا ... فَبِتُّ إخالُهُ دُهْماً خِلاجاً

أي: أمن جهتك. وقال الجعدي:

---

(١) حومانة الدراج، والمتثلم: موضعان، والبيت من المعلقة.

لِـمَنِ الدِّيَـارُ عَـفَوْنَ بِـالتَّهْطَالِ[١] بَـقِيتْ عَـلىٰ حِـجَجٍ خَـلَوْنَ طِـوالِ

أي: على مرّ حجج، والمعنى: وينبت منه شجر ونبات ﴿ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ أي: ترعون أنعامكم من غير كلفة وإلتزام مؤنة لعلفها.

﴿ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي: ينبت الله لكم بذلك المطر هذه الأشياء التي عدّدها؛ لتنتفعوا بها ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي: دلالة، وحجّة واضحة ﴿ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ فيه فيعرفون الله تعالى به. وخصّ المتفكّرين فيه؛ لأنّهم المنتفعون به.

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ قد مضى بيانه، والتسخير في الحقيقة للشمس والقمر؛ لأنّ النهار هو حركات الشمس من وقت طلوع الفجر إلى وقت غروب الشمس. والليل حركات الشمس تحت الأرض من وقت غروب الشمس إلى وقت طلوع الفجر، إلاّ أنّه سبحانه أجرى التسخير على الليل والنهار على سبيل التجوّز والإتّساع.

﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ﴾ مضى بيانه. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ التسخير ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ أي: دلالات ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ عن الله، وينبئون أنّ المسخّر لذلك على هذا، قادرٌ، عالم، حكيم ﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: سخّر لكم في الأرض أي: لقوام أبدانكم من الملابس، والمطاعم، والمناكح، من أنواع الحيوان، والنبات، والمعادن، وسائر النعم ﴿ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ﴾ لا يشبه بعضها بعضاً ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي: دلالة ﴿ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾ أي: يتفكّرون في الأدلّة، فينظرون فيها، ويتّعظون، ويعتبرون بها.

---

[١] الهطل: تتابع المطر والدمع وسيلانه.

وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا
وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ
وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١) ﴿١٤﴾
وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا
لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (٢)
﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن
تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾

القراءة: في الشواذّ قراءة الحسن ﴿وَبِالنَّجْمِ﴾ ـ بضمّ النون ـ.

الحجّة: هو جمع نجم مثل: سقف وسقف، ورهن ورهن.

اللغة: المخر: شقّ الماء من عن يمين وشمال. مخرت السفينة الماء تمخر مخراً، فهي ماخرة، والمخر أيضاً: صوت هبوب الريح إذا إشتدّ هبوبها. ومخر الأرض: شقّها للزراعة. ومخرها بالماء: إذا أرسل عليها الماء لتطيب. والميد: الميل يميناً وشمالاً، وهو الإضطراب، ماد يميد ميداً. والعلامة: صورة يعلم بها المعنى من خطّ، أو لفظ، أو إشارة، أو هيئة، وقد تكون وضعيّة. وقد تكون برهانيّة.

---

(١) يستدلّ بهذه الآية على أنّ السمك لحم، فإذا حلف أن لايأكل اللحم، وجب عليه إجتناب السمك أيضاً، وهذا قول الفاضل ابن إدريس، وأختلف فيه قول الشيخ، ولايبعد قول من يدّعى صيرورة اللحم مجازاً مشهوراً في عرف الناس، ينصرف الذهن منه إلى لحم البقر والغنم ومثلهما، لا لحم السمك فلايحنث به، ولا يبعد الحنث بأكل الشحوم التي لاتنفكّ عن اللحم غالباً، والمجاز المشهور مقدّم على الحقيقة.

(٢) قرأ «تذكرون» بتخفيف الذال، حفص وخلف وحمزة والكسائي.

[الإعراب]: قوله: ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ في موضع نصب؛ بأنّه مفعول له، وتقديره: كراهة أن تميد بكم. وإنتصب قوله: ﴿وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً﴾ بمحذوف، تقديره: وجعل لكم أنهاراً، لدلالة قوله: ﴿أَلْقَى﴾ عليه؛ لأنّه لا يجوز أن يكون عطفاً على ﴿أَلْقَى﴾. ومثله: قوله:

عَلَّفْتُها تِبْناً وَماءً بارِداً[١]

وقول الآخر:

تَسْمَعُ فِي أجْوافِهِنَّ غَرْداً ... وَفِي الْيَدَيْنِ جُسْأَةً، وَتَرْداً[٢]

أي: وترى فِي اليدين يبساً وتفرّقاً. و﴿عَلاَمَاتٍ﴾: منصوب عطف على قوله ﴿وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً﴾ وقيل: وخلق لكم علامات.

[المعنى]: ثمّ عدّد سبحانه نوعاً آخر من أنواع نعمه، فقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ أي: ذلّله لكم، وسهّل لكم الطريق إلى ركوبه، وإستخراج ما فيه من المنافع ﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً﴾ أي: لتصطادوا منه أنواع السمك، وتأكلوا لحمه ﴿طَرِيّاً﴾. ولا يجوز أن يهمز «طرياً»؛ لأنّه من الطراوة.

﴿وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً﴾ يعني: اللآلىء التي تخرج من البحر بالغوص. ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ وتتزيّنون بها، وتلبسونها نساءكم، ولولا تسخيره سبحانه ذلك لكم، لما قدرتم على الدنوّ منه، والغوص فيه.

﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ أي: وترى أيّها الإنسان السفن شواق في البحر، وقواطع لمائه، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: جواري، ـ عن ابن عباس ـ ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: ولتركبوه للتجارة، وتطلبوا من فضل الله تعالى ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: ولكي تشكروا الله على نعمه ليزيدكم منها، ويثيبكم. والواو إنّما دخلت في

---

[١] هذا المصراع يجعله بعض العلماء صدراً عجزه: (حتى شتت همالة عيناها) كما في «جامع الشواهد»، ويجعله بعضهم عجزاً، ويجعل صدره: (لما حططت الرحل عنها وارداً) كما في شرح الأشموني. والشاهد في قوله «وماءً» فإن معناه: وسقيتها ماء.

[٢] جسأ الشيء يجسأ: صَلُب وخَشُن. الصَّرْد والصَّرَد: البرد.

ذلك؛ للدلالة على أنّ الله سبحانه أراد جميع ما ذكره انعاماً منه على عباده.

﴿ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أي: جبالاً عالية ثابتة. واحدها: راسية ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ الأرض أي: كراهة أن تميد بكم، أو لئلاّ تميد بكم أي: تتحرّك وتضطرب ﴿وَأَنْهَارَاً﴾ أى: وجعل فيها أنهاراً ﴿وَسُبُلاً﴾ أي: طرقاً لكي تجروا الماء في الأنهار إلى بساتينكم، وحيث تريدون، وتهتدوا بالطرق إلى حيث شئتم من البلاد. وقيل: أراد بالأنهار النيل والفرات، ودجلة، وسيحان، وجيحان، وأمثالها ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ قد ذكرنا معناه. وقيل: لتهتدوا بها إلى توحيد الله.

﴿وَعَلَامَاتٍ﴾ وجعل لكم علامات أي: معالم تعلم بها الطرق. وقيل: العلامات الجبال يهتدى بها نهاراً ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ليلاً، ـ عن ابن عباس ـ. والمراد بالنجم: الجنس أي: جميع النجوم الثابتة. وقيل: تمّ الكلام عند قوله: ﴿وَعَلَامَاتٍ﴾. ثمّ إبتدأ ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾. وقيل: إنّ العلامات هي النجوم أيضاً؛ لأنّ من النجوم ما يهتدى بها، ومنها ما يكون علامات لا يهتدى بها، ـ عن قتادة، ومجاهد ـ. وقيل: أراد به: الإهتداء في القبلة. قال ابن عباس: سألت رسول الله ﷺ: عنه فقال الجدي علامة قبلتكم وبه تهتدون في برّكم وبحركم وقال أبو عبدالله عليه السلام: نحن العلامات، والنجم رسول الله ﷺ، وقال: إنّ الله جعل النجوم أماناً لأهل السماء وجعل أهل بيتي أماناً لأهل الأرض.

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ معناه: أفمن يخلق هذه الأشياء في إستحقاق العبادة والإلهيّة، كالأصنام التي لا تخلق شيئاً حتى يسوّى بينهما في العبادة، وبين خالق جميع ذلك ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تتذكّرون أيّها المشركون، فتعتبرون، وتعرفون أنّ ذلك من الخطأ الفاحش، وجعل ﴿مِن﴾ فيما لا يعقل لما إتّصل بذكر الخلق.

ثمّ عطف سبحانه على ذلك تذكر كثرة نعمه، فقال: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ معناه: وإن أردتم تعداد نعم الله سبحانه عليكم، ومعرفة تفاصيلها، لم يمكنكم إحصاؤها ولا تعديدها، وإنّما يمكنكم أن تعرفوا جملها بيّن سبحانه أنّ

من وراء النعم التي ذكرها نعماً له لا تحصى ﴿إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ﴾ لما حصل منكم تقصير في شكر نعمه ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم حيث لم يقطعها عنكم بتقصيركم في شكرها.

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ
أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ
فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ
﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ
لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

القراءة: ﴿ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ ﴾ بالياء، عن عاصم غير الأعشى والبرجمي، عن أبي بكر، ويعقوبُ. وسهلٌ. والباقون: بالتاء.

الحجة: من قرأ بالتاء؛ فلأنّ ما بعده وما قبله خطاب. ومن قرأ بالياء، وجه الخطاب إلى النبيّ ﷺ، ويكون الخبر عن المشركين.

المعنى: لمّا قدّم سبحانه الدعاء إلى عبادته بذكر نعمه، وكمال قدرته، عقّبه ببيان علمه بسريرة كل أحد، وعلانيته. ثمّ ذكر بطلان الإشراك في عبادته، فقال: ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ أخبر سبحانه أنّه يعلم ما يسرّونه، وما يظهرونه، فيجازيهم على أفعالهم؛ إذ لا يخفي عليه الجليّ والخفيّ من أحوالهم.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ إلهاً ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ يعني: الأصنام لا يمكنها خلق شيء بل هي مخلوقة مربوبة، منحوتة من الحجر والخشب ونحوهما، مما هو مخلوق الله تعالى، ثمّ قال: ﴿أَمْوَاتٌ﴾ أي: هي أموات ﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ أكّد كونها أمواتاً بقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾؛ لنفي الحياة عنها على الإطلاق. فإنّ

من الأموات من سبقت له حالة في الحياة، وله حالة منتظرة في الحياة، بخلاف الأصنام، فإنّه ليس لها حياة سابقة ولا منتظرة. وقال: ﴿أَمْوَاتٌ﴾، ولم يقل: موات، وإن كان الأموات جمع الميّت الذي كان فيه حياة فزالت؛ لأنّهم صور. والأصنام على صور العقلاء وهيئاتهم، وعاملوها معاملة العقلاء تسمية وإعتقاداً. ولذلك قال: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ معناه: وما تشعر هذه الأصنام حتى تبعث ـ عن الفرّاء ـ وقيل: في الآية إنّ معناه: هم أموات يعني: أنّ الكفّار في حكم الأموات لذهابهم عن الحقّ والدين، ولا يدرون متى يبعثون. وقيل: إنّ المعنى: ولا تدري الأصنام متى يبعث الخلق، ـ عن الجبائي ـ. و﴿أَيَّانَ﴾: في موضع نصب بـ﴿يُبْعَثُونَ﴾. وقرىء في الشواذّ: إيّان ـ بكسر الهمزة ـ، والفتح أفصح وأصحّ.

ثم خاطب سبحانه عباده، فقال: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا يقدر على ما يستحقّ به العبادة من خلق أصول النعم سواه، فاثبتوا على عبادته. ﴿فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ﴾ أي: جاحدة للحقّ، تستبعد ما يرد عليها من المواعظ ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الإنقياد للحقّ، ذاهبون عنه، دافعون له من غير حجّة. والإستكبار: طلب الترفّع بترك الإذعان للحقّ.

ثمّ قال سبحانه: ﴿لاَ جَرَمَ﴾ أي: حقّاً، وهو بمنزلة اليمين. قال الخليل: وهو كلمة تحقيق، ولا يكون إلاّ جواباً لقول: فعلوا كذا، فيقول السامع: لا جرم يندمون. وقال الزجّاج: معناه: حقّ أنّ الله، ووجبَ أنّ الله، ولا ردٌّ لفعلهم. قال الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً جَرَمَتْ فَزَارَةَ بَعْدَها أَنْ يَغْضَبُوا

المعنى: أحقت فزارة بالغضب. وقال أبو مسلم: أصله من الكسب، فكأنّه قال: لا يحتاج في معرفة هذا الأمر إلى إكتساب علم، بل هو معلوم.

﴿أَنَّ اللهُ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وهذا تهديد لهم، بأنّه عالم بجميع أحوالهم، فيجازيهم على أقوالهم، وأفعالهم ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ أي: المتعظّمين الذين يأنفون أن يكونوا أتباعاً للأنبياء، أي: لا يريد ثوابهم وتعظيمهم.

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ (١) قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ
أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا
يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ
مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ
كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ
ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُاْ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

القراءة: قرأ نافع وحده: ﴿تُشَاقُّونَ﴾ ـ بكسر النون ـ. والباقون: بفتحها.

---

(١) وروى في قرائة أهل البيت: ماذا أنزل ربّكم في عليّ؟ قالوا أساطير الأوّلين، ولم ينقله المصنّف، ويحتمل كونه من المدرج، وهو في القرائة أن يكون الكلمة من تفسير، أو تأويل ووهم الراوي، فجعلها قرائة وأمثال ذلك كثيرة حتى من العامّة، وذكره في الاتقان ويؤيّده أن السورة مكّية، ويبعد إختلافهم في عليّ عليه السلام مع كونهم مشركين، وتكذيب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وإنكار التوحيد أولى بهم، وإن ثبت مثل هذا التأويل من الأئمّة عليهم السلام فالمراد إلحاق إنكار عليّ عليه السلام بمدلول الآية؛ لإتّحاد المناط لا لشمول اللفظ.

وقرأ حمزة، وخلف في الموضعين: يتوفّاهم ـ بالياء ـ. والباقون: بالتاء. وفي الشواذّ قراءة مجاهد: ﴿عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ ـ بضمّ السين ـ. وروي عن أهل بيت عليهم السلام: فأتى بنيتهم من القواعد[1].

الحجّة: قد تقدّم الوجه في قراءة نافع في سورة الحجر، عند قوله: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ فأمّا قراءة حمزة: يتوفّاهم ـ بالياء ـ؛ فلأنّ الفعل مقدّم، والإمالة حسنة في هذا النحو من الفعل. ومن قرأ بالتاء، فلأنّ الجماعة مؤنّثة، كما جاء: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ﴾.

اللغة: قد مضى معنى الأساطير، والأوزار في سورة الأنعام. والقواعد: الأساس، والواحدة: القاعدة، وقواعد الهودج: خشبات أربع معترضات في أسفله. والشقاق: الخلاف في المعنى: وتشاقّون: تكونون في جانب، والمسلمون في جانب. ومن ثمّ قيل لمن خرج عن طاعة الإمام، وعن جماعة المسلمين: شقّ عصا المسلمين أي: صار في جانب عنهم، فلم يكن مجتمعاً معهم في كلمتهم، وهو مأخوذ من الشقّ: الذي هو النصف، كأنّه صار في شقّ غير شقّهم.

الإعراب: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ﴾: «ما»: مبتدأ، و«ذا»: بمعنى «الذي»، والمعنى: ما الذي أنزل ربكم. و﴿أَسَاطِيرُ﴾: مرفوعة على الجواب، كأنّهم قالوا: الذي أنزل أساطير الأوّلين، وتقديره: وإذا قيل لهم هذا القول، فالذي قام مقام فاعل قيل: هو المصدر، لا الجملة؛ لأنّ الجملة نكرة، والفاعل يجوز إضماره، والمضمر لا يكون قطّ نكرة، بل هو أعرف المعارف. وقوله: ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ﴾: «مِن»:

---

(١) وفي بعض نسخ كتب الحديث: «بيتهم» ـ واحد البيوت ـ. ولا استبعاد في إختلاف النسخ في الحديث؛ إذ لم يكن إعتناؤهم لضبط الفاظ الحديث نظير إعتنائهم بضبط الفاظ القرآن، فالتصحيف والتغيير فيها قريب جدّاً، ولذلك لايثبت القرآن والقرائة بخبر الواحد، والظنّ، والتخمين، ولم ينقل المصنّف هذه القرائة عن غير أهل البيت عليهم السلام، ومثله نادر، ولم يذكر في هذا الكتاب جميع القراآت المتواترة، فضلاً عن الشاذّة، فلعلّ لهم عليهم السلام موافقاً لم يذكره.

زيادة على قول الأخفش أي: وأوزار الذين يضلّونهم، وعلى قول سيبويه: هو صفة مصدر محذوف، وتقديره: وأوزاراً من أوزار الذين يضلّونهم. و﴿مَا يَزِرُونَ﴾: في موضع رفع، كما يرفع بعد بئس ونعم، وتقديره: وبئس الشيء وزرهم. فما حرف موصول، ويزرون: صلته. و﴿ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾: نصب؛ على الحال أي: في حال ظلمهم أنفسهم.

﴿المعنى﴾: ثمّ أبان سبحانه عن أحوال المشركين، وأقوالهم، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: لمشركي قريش ﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ﴾ على محمّد ﷺ ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: أجابوا، فقالوا: هذا المنزل في زعمكم هو عندنا أحاديث الأوّلين الكاذبة، ـ عن ابن عباس وغيره ـ. ويروى أنّها نزلت في المقتسمين، وهم ستّة عشر رجلاً، خرجوا إلى عقاب مكّة، أيّام الحجّ، على طريق الناس، على كل عقبة أربعة منهم؛ ليصدّوا الناس عن النبيّ ﷺ، وإذا سألهم الناس عمّا أنزل على رسول الله ﷺ قالوا: أحاديث الأوّلين وأباطيلهم، ـ عن الكلبي، وغيره ـ.

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ اللام للعاقبة، والمعنى: كان عاقبة أمرهم حين فعلوا ذلك أن حملوا أوزار كفرهم تامّة يوم القيامة ﴿وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: ويحملون من أوزار الذين أضلّوهم عن سبيل الله، وأغووهم عن إتّباع الحقّ، وهو وزر الإضلال والإغواء، ولم يحملوا وزر غوايتهم وضلالهم. وقوله: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ معناه: من غير علم منهم بذلك، بل جاهلين به. وعلى هذا ما روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: أيّما داع دعا إلى الهدى، فإتّبع، فله مثل أجورهم، من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، وأيّما داع دعا إلى ضلالة فإتبه عليه، فإنّ عليه مثل أوزار من إتّبعه، من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً. من أوزارهم شيئاً ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي: بئس الحمل حملهم، وهو ما يحملونه من الآثام؛ لأنّه إذا تحمّل إثمه، ودخل النار، كان سيّئاً، فكيف إذا تحمله بسبب

فعل غيره.

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أي: من قبل هؤلاء المشركين بأنبيائهم من جهة التكذيب وغيره. وهذا على سبيل التسلية لنبيّنا ﷺ، والوعيد لقومه، ﴿ فَأَتَى اللهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ ﴾ أي: أتى أمر الله بنيانهم التي بنوها من جوانب قواعدها، فهدمها، عن ابن عباس، قال: يعني: نمرود بن كنعان بنى صرحاً طويلاً، ورام منه الصعود إلى السماء؛ ليقاتل أهلها بزعمه، فأرسل الله ريحاً، فألقت رأس الصرح في البحر، وخرّ عليهم الباقي. وقال الزجاج: ﴿مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾ يريد: من أساطين البناء التي تعمّده. وقيل: هو بخت نصر. وقيل: إنّ هذا مثل ضربه الله سبحانه لإستئصالهم، ولا قاعدة هناك، ولا سقف، والمعنى: فأتى الله مكرهم من أصله أي: عاد ضرر المكر عليهم وبهم، ـ عن الزجّاج، وابن الأنباري ـ. وهذا الوجه أليق بكلام العرب، كما قالوا: أتي فلان من مأمنه أي: أتاه الهلاك من جهة مأمنه، وإنّما أسند سبحانه الإتيان إلى نفسه من حيث كان تخريب قواعدهم من جهته.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ إنّما قال: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾، مع حصول العلم بأنّ السقف لا يكون إلاّ من فوق؛ لأحد وجوه: منها: إنّه للتوكيد، كما تقول لمن خاطبته: قلت أنت كذا وكذا، وكما يقال: مشيت برجلي، وتكلّمت بلساني. ومنها: إنّما قال ذلك؛ ليدلّ على أنّهم كانوا تحته، فإنّ الإنسان قد يقول: بيتي قد تهدم عليّ، وإن لم يكن هو تحته. ومنها: أن يكون «على» في قوله: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمْ﴾، بمعنى «عن»، فيكون المعنى: فخرّ عنهم السقف من فوقهم، أي: خرّ عن كفرهم وجحدهم بالله وآياته. والمراد: من أجل كفرهم. كما يقال: اشتكى فلان عن دواء شربه، وعلى دواء شربه، أي: من أجل الدواء. قال الشاعر:

أرمي عليها وهي فرع أجمع[١]

أراد: أرمي عنها. ولو قال على هذا المعنى: فخرّ عليهم السقف، ولم يقل: من فوقهم، لجاز أن يتوهّم متوهّم أنّ السقف خرّ، وليس هم تحته. والعرب لا تستعمل لفظة «على» في مثل هذا الموضع، إلاّ في الشرّ، والأمر المكروه.

﴿ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي: جاءهم عذاب الإستئصال من حيث لا يعلمون؛ لأنهم ظنّوا أنّهم على حقّ، فكانوا لا يتوقّعون العذاب. وهذا مثل قوله: ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ معناه: ثمّ إنّه تعالى مع ذلك يذلّهم ويفضحهم يوم القيامة على رؤوس الخلائق، ويهينهم بالعذاب، أي: لا يقتصر بهم على عذاب الدنيا ﴿وَيَقُولُ﴾ على سبيل التوبيخ لهم، والتهجين: ﴿ أَيْنَ شُرَكَائِي ﴾ الذين كنتم تشركونهم معي في العبادة على زعمكم؟ ﴿ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ﴾ أي: تعادون المؤمنين على قراءة فتح النون. وعلى الكسر: تعادونني فيهم.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ بالله تعالى، وبدينه، وشرائعه من المؤمنين. وقيل: هم الملائكة، ـ عن ابن عباس ـ ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: إنّ الهوان اليوم، والعذاب الذي يسوء على الجاحدين لنعم الله، المنكرين لتوحيده، وصدق رسله.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾: الذين: في موضع جرّ؛ بأنّه بدل من الكافرين، أو صفة لهم، ومعناه: الذين يقبض ملك الموت وأعوانه أرواحهم، ففارقوا الدنيا وهم ظالمون لأنفسهم بإصرار هم على الكفر ﴿ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ ﴾ أي: استلموا [إستسلموا] للحقّ، وإنقادوا حين لا ينفعهم الإنقياد والإذعان.

---

(١) الفرع من القسى: أحسنها، أو هو المصنوع من فرع الشجر.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ أي: يقولون ما كنّا نعمل عند أنفسنا من سوء أي: من معصية، فكذبهم الله تعالى، وقال: ﴿بَلَى﴾ قد فعلتم. ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا من المعاصي وغيرها، وقيل: إنّه يقول لهم ذلك المؤمنون الذين أوتوا العلم والملائكة ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ أي: طبقات جهنّم، ودركاتها ﴿خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بئس منزل المتعظّمين عن قبول الحقّ، واللام للتوكيد.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَٰلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ (١) الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾

﴿الإعراب﴾: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾: ما، وذا هنا: كالشيء الواحد، وتقديره: أي

---

(١) تتوفّاهم الملائكة: وتأتيهم الملائكة: بالياء في قرائة حمزة، ووافقه الكسائي في الثاني: وأمال «حاق» حمزة وحده.

شيء أنزل ربّكم؟ ﴿وَخَيْراً﴾: منصوب على أنه جواب «ماذا» أي: أنزل خيراً، وقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ يجوز أن يكون تفسيراً لقوله: خيراً، ويجوز أن يكون ابتداء كلام. ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾: المخصوص بالمدح محذوف، المعنى: ولنعم دار المتّقين دار الآخرة. والمبين لقوله: ﴿دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ وتقديره: هي جنّات عدن، فيكون خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ مرتفعة بالإبتداء، وتكون المخصوصة بالمدح، والتقدير: جنّات عدن نعم دار المتّقين.

المعنى: لمّا قدّم سبحانه ذكر أقوال الكافرين فيما أنزله على نبيّه ﷺ، عقّبه بذكر أقوال المؤمنين في ذلك، فقال: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشرك والمعاصي، وهم المؤمنون ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْراً﴾ أي: أنزل الله خيراً؛ لأنّ القرآن كلّه هدى، وشفاء وخير ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ ويجوز أن يكون هذا إبتداء كلام من الله تعالى، معناه: للمحسنين في هذه الدنيا حسنة، مكافأة لهم، وهي الثناء والمدح على ألسنة المؤمنين، والهدى، والتوفيق للإحسان.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ أي: وما يصل إليهم من الثواب في الآخرة خير ممّا يصل إليهم في الدنيا، ويجوز أن يكون الجميع من كلام المتّقين، وأجاز الحسن والزجّاج كلا الوجهين. وقوله: ﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: والآخرة نعم دار المتّقين الذين إتقوا عقاب الله بأداء فرائضه، وإجتناب معاصيه. وقيل: معناه: ولنعم دار المتّقين الدنيا؛ لأنهم نالوا بالعمل فيها الثواب والجزاء، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: ولنعم دار المتّقين.

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ كما يقال: نعم الدار دار ينزلها ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا

﴿الْأَنْهَارُ﴾ سبق معناه ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي: يشتهون من النعم ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللهُ الْمُتَّقِينَ﴾ أي: كذلك يجازي الله الذين إتّقوا معاصيه.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ أي: طيّبي الأعمال، طاهري القلوب من دنس الشرك. وقيل: معناه: طيّبة نفوسهم بالمصير إليه؛ لعلمهم بما لهم عنده من الثواب. وقيل: طيّبين أي: صالحين بأعمالهم الجميلة: وقيل: بطيّب وفاتهم، فلا يكون صعوبة فيها ﴿يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي: تقول الملائكة: سلام عليكم أي: سلامة لكم من كل سوء.

﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قيل: إنّهم لمّا بشّروهم بالسلامة، صارت الجنّة كأنّها دارهم، وهم فيها، فقولهم: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾ بمعنى: حصلت لكم الجنّة. وقيل: إنّما يقولون ذلك عند خروجهم من قبورهم.

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ قد مضى تفسيره في سورتي البقرة والأنعام. ﴿كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ أخبر سبحانه انّ الذين مضوا من الكفّار، فعلوا مثل ما فعل هؤلاء من تكذيب الرسل، وجحد التوحيد، فأهلكهم الله فما الذي يؤمن هؤلاء من أن يهلكهم الله.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالمعاصي التي إستحقّوا بها الهلاك. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ أي: عقاب سيّئاتهم. فسمّى العقاب سيّئة، كما قال: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ مِثْلُهَا﴾. ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي: وحلّ بهم جزاء ﴿مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن
شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ
فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ (١)
وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ
حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة: ﴿لاَ يَهْدِي﴾ ـ بفتح الياء ـ. والباقون: بضمّ الياء وفتح الدال ـ. ولم يختلفوا في ﴿يُضِلُّ﴾ أنّها مضمومة الياء، مكسورة الضاد.

الحجة: قال أبو عليّ: الراجع على إسم «إنّ» هو الذكر الذي في قوله: يضلّ في قراءة من قرأ: ﴿يُهْدِي﴾ ومن قرأ: ﴿يَهْدي﴾. فمن جعل «يهدي» من «هديته»، جاز أن يعود الذكر الفاعل الذي فيه إلى اسم «إنّ». ومن جعل ﴿يُهْدَىٰ﴾ في معنى «يهتدي»، وجعل «من يضلّ» مرتفعاً به، فالراجع إلى إسم «أنّ» الذكر الذي في ﴿يُضِلُّ﴾ كما كان كذلك في قول من قال: يهدي. والراجع إلى الموصول الذي هو من الهاء المحذوفة من الصلة، وتقديره: يضلّه، والمعنى: إنّ من حكم بإضلاله لكفره وتكذيبه، فلا يهدى، ومثل هذا المعنى قوله: ﴿فَمَنْ يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ

---

(١) وضمّ نون «أن اعبدوا الله» على أصلهم ابن عامر والحرميان والكسائي.

﴿اللهِ﴾ تقديره من بعد إضلال الله إيّاه. والمفعول محذوف أي: من بعد حكمه بإضلاله. ومن قرأ: ﴿لاَ يَهْدِي﴾ فهو في المعنى كقوله: ﴿مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ﴾. وهذا كقوله: ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ فموضع «مَن» نصب بـ «يهدي». وقد قيل: إنّ «يهدي» في معنى «يهتدي»؛ بدلالة قوله: ﴿لاَ يَهِدِّي إِلاّ أَنْ يُهدَىٰ﴾ فموضع «مَن» على هذا رفع، كما أنّه لو قال: يهتدى، كان كذلك. وقوله: «لا يضلّ» من قولك: ضلّ الرجل، وأضلّه الله أي: حكم بإضلاله، كقولك: كفر زيد وأكفره الناس، أي: نسبوه إلى الكفر، فقالوا إنّه كافر، كما إن أسقيته قلت له: سقاك الله قال ذو الرمة:

وَأُسْقِيهِ حَتّى كادَ مِمّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُني أَحْجارُهُ، وَمَلاٰعِبُهُ

﴿اللغة﴾: البلاغ، والإبلاغ: إيصال المعنى إلى الغير. والحرص: طلب الشيء بجدّ وإجتهاد. يقال: حرص يحرص حرصاً. وحرِص يحرَص ـ بكسر الراء في الماضي، وفتحها في المستقبل ـ، لغة. وقد روي في الشواذّ عن الحسن، وإبراهيم ﴿إِن تَحْرِصْ﴾ بفتح الراء. والأوّل لغة أهل الحجاز، والأصل من السحابة الحارصة. وهي التي تقشر وجه الأرض. وشجة حارصة التي تقشر جلدة الرأس. وكذلك الحرص كان صاحبه ينال من نفسه لشدّة إهتمامه بما هو حريص فيه.

﴿المعنى﴾: ثمّ عاد سبحانه إلى حكاية قول المشركين، فقال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مع الله إلٰها آخر ﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: لو أراد الله ما عبدنا من دونه شيئاً من الأصنام، والأوثان ﴿نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا﴾ الذين إقتدينا بهم ﴿وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ من البحيرة والسائبة وغيرهما، بل شاء لذلك منا، وأراد بذلك فعلنا، فأنكر الله سبحانه هذا القول عليهم، وقال: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ذلك ﴿فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ من الكفّار والضلال، كذّبوا رسل الله، وجحدوا آياته، قالوا مثل قولهم، وفعلوا مثل فعلهم ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا

﴿ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ أي: ليس عليهم إلاّ إبلاغ الرسالة، وقد سبق بيان مثل هذه الآية في سورة الأنعام.

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ ﴾ أي: في كل جماعة، وقرن ﴿رَسُولاً﴾ كما بعثناك يا محمّد رسولاً إلى أمّتك ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللهَ﴾ أي: ليقول لهم أعبدوا الله ﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ أي: عبادة الطاغوت. و«أنْ» هذه هي المفسّرة. ويعني بالطاغوت: الشيطان، وكل داع يدعو إلى الضلالة.

﴿ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ ﴾ معناه: فمنهم من هداه الله، بأن لطف له بما علم أنّه يؤمن عنده فآمن، فسمّي ذلك اللطف هداية. ويجوز أن يريد: فمنهم من هداه الله إلى الجنّة بإيمانه، ولا يجوز أن يريد بالهداية هنا نصب الأدلّة، كما في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾؛ لأنّه سبحانه سوّى في ذلك بين المؤمن والكافر.

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ معناه: ومنهم من أعرض عمّا دعاه إليه الرسول ﷺ، فخذله الله، فثبتت عليه الضلالة، ولزمته، فلا يؤمن قطّ. وقيل: معناه: وجبت عليه الضلالة، وهي العذاب والهلاك. وقيل: معناه: ومنهم من حقّت عليه عقوبة الضلالة، ـ عن الحسن ـ. وقد سمّى الله سبحانه العقاب ضلالاً، بقوله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾. أي: أرض المكذّبين الذين عاقبهم الله ان لم تصدّقوني.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ أي: فأنظروا كيف حقّت عليهم العقوبة، وحلّت بهم، فلا تسلكوا طريقهم، فينزل بكم مثل ما نزل بهم ﴿ إِنْ تَحْرِصْ عَلَى هُدَاهُمْ ﴾ أي: على أن يؤمنوا بك ﴿ فَإِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ ﴾ هذا تسلية للنبيّ ﷺ في دعائه لمن لا يفلح بالإجابة؛ لإنهماكه في الكفر، وإشارة إلى أنّ ذلك ليس لتقصير وقع من جهته ﷺ وإعلام له أنّهم لا يؤمنون أبداً وإذا كانوا هكذا، فإنّ الله لا يهديهم، بل يضلّهم على المعنى الذي فسّرناه قبل.

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ أي: ليس لهم من ناصر ينصرهم، ويخلصهم من العقاب. وفي هذا بيان أنّ الإضلال في الآية، ليس المراد به ما ذكره أهل الجبر.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

القراءة: قرأ ابن عامر، والكسائي: ﴿فَيَكُونُ﴾ ـ بالنصب ـ، وفي يس مثله. والباقون: بالرفع.

الحجة: من نصب، فإنّه يحمله على «أنْ». قال الزجّاج: الرفع على، فهو يكون على معنى: أنّ ما أراد الله فهو يكون. فالنصب على ضربين:

أحدهما: أن يكون عطفاً على «أن نقول». والآخر: أن يكون نصباً على جواب ﴿كُنْ﴾. قال أبو عليّ: إعلم أنّ الذي أجازه من النصب على أن يكون جواب «كن». لم يجزه أحد من أصحابنا غيره؛ لأنّ «كن»، وإن كان على لفظ الأمر، فليس القصد به هنا الأمر، إنّما هو ـ والله أعلم ـ الإخبار عن كون الشيء، وحدوثه.

الإعراب: ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾: مصدر وضع موضع الحال، والتقدير: يجتهدون إجتهاداً في أيمانهم. وهذا مثل قولهم: طلبته جهدك أي: تجهد جهدك. ﴿وَعْداً﴾ منصوب لتوكيد المعنى، فإنّ المعنى: بلى يبعثهم الله، وَعَدَ الله ذلك وعداً. وقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ﴾ اللام فيه يتعلّق بالبعث أيضاً أي: يبعثهم ليبيّن لهم، وليعلم الذين

كفروا أنّهم كانوا كاذبين أنّهم كانوا كاذبين. ويجوز أن يتعلّق بقوله ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾ أي: ولقد بعثنا في كل أمّة رسولاً؛ ليبيّن لهم إختلافهم، و﴿قَوْلُنَا﴾: مرفوع بالإبتداء، وخبره: أن نقول. والمعنى: إنّما قولنا لكلّ مراد، قولنا له: كن.

النزول: قالوا: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين، فتقاضاه، فوقع في كلامه، والذي أرجوه بعد الموت أنّه لكذا. فقال المشرك: وإنّك لتزعم أنّك تبعث بعد الموت، وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت، فأنزل الله الآية، ـ عن أبي العالية ـ.

المعنى: ثمّ حكى سبحانه عن المشركين نوعاً آخر من كفرهم، فقال: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي: حلفوا بالله مجتهدين في أيمانهم، والمعنى: إنّهم قد بلغوا في القسم كل مبلغ. ﴿لَا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ﴾ أي: لا يحشر الله أحداً يوم القيامة، ولا يحيي من يموت بعد موته.

ثمّ كذّبهم الله تعالى في ذلك، فقال: ﴿بَلَى﴾ يحشرهم الله، ويبعثهم ﴿وَعْداً﴾ وعدهم به ﴿عَلَيْهِ﴾ إنجازه وتحقيقه من حيث الحكمة ﴿حَقّاً﴾ ذلك الوعد ليس له خلف؛ إذ لولا البعث لما حسن التكليف؛ لأنّ التكليف إنّما يحسن لإثابة من عوض به ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ صحّة ذلك لكفرهم بالله، وجحدهم نبوّة أنبيائه. وقيل: لا يعلمون وجه الحكمة في البعث، فلا يؤمنون به.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ هذا بيان من الله تعالى، أنّه إنّما يحشر الخلائق يوم القيامة؛ ليبيّن لهم الحقّ فيما كانوا يختلفون فيه في دار الدنيا؛ لأنّه يخلق فيهم العلم الضروري يوم القيامة، الذي يزول معه التكليف ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾ في الدنيا في قولهم إنّ الله لا يبعث أحداً بعد موته. وإذا تعلّق اللام بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ فالمعنى: بعثنا إلى كل أمّة رسولاً؛ ليبيّن لهم ذلك الرسول ما يختلفون فيه، ويهديهم إلى طريق الحقّ، وينبّههم عليه.

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قد ذكرناه تفسيره في

سورة البقرة، والمراد به هيهنا: بيان أنّه قادر على البعث، لا يتعذّر عليه ذلك، فإنّه إذا أراد شيئاً كوّنه.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

القراءة: قرأ حفص: ﴿نُوحِي﴾ ـ بالنون ـ. وقد تقدّم ذكره في سورة يوسف. وروي عن عليّ عليه السلام: ﴿لَنُثَوِّيَنَّهُمْ﴾ ـ بالثاء ـ. والقراءة: لنبوّءنّهم ـ بالباء ـ[1].

الإعراب: قال ابن جنّي: نصب ﴿حَسَنَةً﴾ هيهنا أي: نحسن إليهم إحساناً، ووضع حسنة موضع الإحسان، كأنّه واحد من الحسن دال عليه. ودلّ قوله: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ﴾ على ذلك الفعل؛ لأنّه إذا أقرهم على الفعل، بإطالة مدّتهم، فقد أحسن إليهم، كما قال: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وذلك ضدّ ما يعمل بالعاصين الذين يصطلمهم بذنوبهم، وجرائم أفعالهم.

النزول: الآية الأولى نزلت في المعذّبين بمكّة مثل: صهيب، وعمّار، وبلال، وخباب، وغيرهم مكّنهم الله بالمدينة، وذكر أنّ صهيبا قال لأهل مكّة: أنا

---

(١) ويقف حمزة على «نبوّئنّهم» بإبدال الهمزة ياء.

رجل كبير، إن كنت معكم لم ينفعكم، وإن كنت عليكم لم يضرّكم، فخذوا مالي ودعوني. فأعطاهم ماله وهاجر إلى رسول الله ﷺ. فقال له أبوبكر، ربح البيع يا صهيب. ويروى أنّ عمر بن الخطاب كان إذا أعطى أحداً من المهاجرين عطاء، قال له: خذ هذا ما وعدك الله في الدنيا، وما أخّره لك أفضل. ثمّ تلا هذه الآية.

المعنى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ معناه: والذين فارقوا أوطانهم وديارهم وأهليهم، فراراً بدينهم، وإتّباعاً لنبيّهم في الله أي: في سبيله لإبتغاء مرضاته من بعد ما ظلمهم المشركون، وعذّبوهم بمكّة، وبخسوهم حقوقهم.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: بلدة حسنة بدل أوطانهم، وهي المدينة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: لنعطينّهم حالة حسنة، وهي النصر والفتح. وقيل: هي ما إسْتَولَوْا عليه من البلاد، وفتح لهم من الولايات ﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ ممّا أعطيناهم في الدنيا ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لو كان الكفّار يعلمون ذلك. وقيل: معناه: لو علم المؤمنون تفاصيل ما أعدّ الله لهم في الجنّة، لإزدادوا سروراً وحرصاً على التمسّك بالدين.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذا وصف لهؤلاء المهاجرين أي: صبروا في طاعة الله على أذى المشركين، وفوّضوا أمورهم إلى الله تعالى، ثقة به.

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه ﷺ، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ إلى الأمم الماضية ﴿إِلَّا رِجَالاً﴾ من البشر[1] ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ أي: أوحينا إليهم كما أوحينا

---

(١) وإستدلّ بعضهم بقوله تعالى: «فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون»، على حجّية خبر الواحد. وهو ضعيف؛ لأنّ الأظهر في منطوق الآية، أنّ المراد بأهل الذكر: العلماء بأخبار الماضين، وموضوع السؤال كون الأنبياء بشراً، ومعلوم أنّ هذا من مسائل أصول الدين، لايكتفي بالظنّ، والمأمور بالسؤال هم المشركون، الذين كانوا ينكرون على النبيّ ﷺ وآله ←

إليك، وأرسلناهم إلى أممهم كما أرسلناك إلى أمّتك، وذلك أنّ مشركي مكّة كانوا ينكرون أن يرسل إليهم بشر مثلهم، فبيّن سبحانه أنّه لا يصلح أن يكون الرسل إلى الناس إلاّ من يشاهدونه، ويخاطبونه، ويفهمون عنه، وأنّه لا وجه لإقتراحهم إرسال الملك.

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إنّ المعني بذلك: أهل العلم بأخبار من مضى من الأمم، سواء أكانوا مؤمنين، أو كفّاراً. وسمّي العلم ذكراً؛ لأنّ الذكر منعقد بالعلم، فإنّ الذكر هو ضدّ السهو، فهو بمنزلة السبب المؤدّي إلى العلم في ذكر الدليل، فحسن أن يقع موقعه، وينبيء عن معناه إذا تعلّق به هذا التعلّق، ـ عن الرماني، والزجّاج، والأزهري ـ.

وثانيها: إنّ المراد بأهل الذكر: أهل الكتاب، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. أي: فاسألوا أهل التوراة والإنجيل.

﴿ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يخاطب مشركي مكّة، وذلك أنّهم كانوا يصدّقون اليهود والنصارى فيما كانوا يخبرون به من كتبهم؛ لأنّهم كانوا يكذبون النبيّ ﷺ لشدّة عداوتهم له.

وثالثها: إنّ المراد بهم: أهل القرآن[1]؛ لأنّ الذكر هو القرآن، ـ عن ابن زيد ـ. ويقرب منه، ما رواه جابر ومحمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: نحن أهل الذكر، وقد سمّى الله رسوله ذكراً في قوله: ﴿ذِكْرًا رَسُولًا﴾ على أحد الوجهين.

← كونه بشراً، ولا معنى لإيجاب التعبّد بالظنّ عليهم، بل المراد، السؤال حتى يحصل العلم من تواتر أهل الذكر، والقرائن الموجبة لليقين، كون الانبياء رجالاً لا ملائكة.

(١) ان كان المخاطبون بقوله: فاسئلوا: هم المشركين، فيبعد كل البُعد أن يكون المراد بأهل الذكر: أهل القرآن؛ لأنّ قول المسلمين لايصير حجّة على المشركين. قيل: ثبوت دين الإسلام لديهم. والمراد هنا الإحتجاج عليهم بما يتبيّن منه صحّة دين الإسلام، وإن ثبت هذا من الأئمّة عليهم السلام. فالمراد: رجوع الناس إليهم بإتّحاد المناط، لابشمول اللفظ.

وقوله: ﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ﴾ العامل فيه: قوله: ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾، والتقدير: وما أرسلنا بالبيّنات والزبر أي: بالبراهين والكتب إلاّ رجالاً نوحي إليهم. وقيل: إنّ في الكلام إضماراً وحذفاً، والتقدير: أرسلناهم بالبيّنات، كما قال الأعشى:

وَلَيْسَ مُجيراً إنْ الْحَيَّ خائِفٌ ... وَلاَ قَائِلاً إلاّ هُوَ الْمُتَعَيِّبا[1]

أي: أعني المتعيّبا. ونظير الأوّل: قول الشاعر:

نَبَّأْتُهُمْ عَذَّبوا بِالنَّارِ جارَتَهُمْ ... وَهَلْ يُعَذَّبُ إلاَّ اللهُ بِالنّارِ

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ ﴾ يعني: القرآن ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ فيه من الأحكام، والشرائع، والدلائل على توحيد الله ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ في ذلك ليعلموا أنّه حقّ. وفي هذا دلالة على أنّ الله تعالى أراد من جميعهم التفكّر والنظر المؤدّي إلى المعرفة، بخلاف ما يقول أهل الجبر.

النَّظْمُ: قيل في إتّصال الآية الأولى بما قبلها وجوه:

أحدها أنّها إتّصلت بقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ فيكون المعنى: ليبيّن لهم، وليعلم الكافرين كونهم كاذبين، وليجزي المؤمنين المهاجرين على ما فعلوه من الهجرة.

وقيل: لما تقدّم ذكر الكفّار، وما أعدّ لهم من الدمار، ودخول النار، عقّبه بذكر المؤمنين المهاجرين والأنصار؛ تحريضاً لغيرهم في الإقتداء بهم، فإتّصل به إتّصال النقيض بالنقيض.

وقيل: إنّه لماتقدّم ذكر البعث، بيّن بعده حكم يوم البعث، وأنّه ينتصف فيه للمظلوم من الظالم.

---

(١) والقياس أن يقول: هو المتعيّبُ، على أن يكون «المتعيّب» خبر المبتدأ. وفي نسخة مصحّحة: المتعيّنا ـ بالنون ـ.

أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ
أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ
فِى تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ
يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ
﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ
وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ
وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

(القراءة): قرأ: أولم تروا ـ بالتاء ـ أهل الكوفة، غير عاصم. والباقون: بالياء، وكذلك في العنكبوت. وقرأ أهل البصرة (تتفيؤا) ـ بالتاء ـ. والباقون: بالياء[1].

(الحجة): حجّة الياء: أنّ ما قبله غيبة، وهو قوله: ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾، ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ﴾ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾. ومن قرأ بالتاء، أراد جميع الناس. والتأنيث والتذكير في قوله: ﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ حسنان. وقد تقدّم ذكر ذلك في عدّة مواضع.

(اللغة): التخوّف: التنقّص، وهو أن يأخذ الأوّل فالأوّل، حتى لا يبقى منهم أحد، وتلك حالة يخاف معها الفناء، ويتخوّف الهلاك. يقال: تخوّفه الدهر. قال الشاعر:

---

(١) ويقف حمزة على «يتفيّؤا» بإبدال الهمزة ألفاً أو واواً بالروم والإشمام، وبالتسهيل بين بين مع الروم.

تَخَوّف السّيْر مِنْهَا تـامكاً قَـرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ[١]

أي: ينقص السير سنامها بعد تموكه. وقال آخر:

تَـخَوَّف عَـدْوُهُمْ مَـالي، وَأَهْـدىٰ سـلاسِلَ فـي الْـحُلُوقِ، لَـهَا صَـليلُ

قال الفرّاء: تحوّفته وتخوّفته بالحاء والخاء: إذا تنقّصته من حـافاته. قـال المبرّد: لا يقال: تحوّفته، وإنّما يقال: تحيّفته ـ بالياء ـ. والتفيّؤ: التفعّل، من الفيء، من يقال فاء الفيء يفيء: إذا رجع وعاد بعد ما كان ضياء الشمس نسخه. ومـنه: فيء المسلمين؛ لما يعود عليهم وقتاً بعد وقت من الخراج والغنائم ويـعدى فـاء بزيادة الهمزة نحو أفاءه، وبالتضعيف نحو: فاء الظلّ، وفيأه الله فتفيأ. والفيء: مـا نسخه ضوء الشمس. والظلّ: ما كان قائماً لم تنسخه الشمس. قال الشاعر:

فلا الظّل منْ بَرْد الضُّحىٰ تَسْتَطِيعُهُ وَلاَ الْفَيْءَ مِنْ بَرْدِ العَشِـي تَـذُوقُ

فجعل الظلّ وقت الضحى؛ لأنّ الشمس لم تنسخه في ذلك الوقت. وجمع الفيء: أفياء وفيؤ. قال:

أَرَى الْـمَالَ أَفْـيَاءَ الضَّـلاَل، فَـتَارَةً يَؤُوبُ، وَأُخْرىٰ يَحْبِل المَالَ حَابِلُهُ[٢]

وقال النابغة الجعدي:

فَسَـلاَمُ الإلَـه يَـغْدُو عَـلَيْهِمْ وَفُيُوءُ الفِرْدَوْسِ ذَاتُ الظِـلالِ

وإنّما قال: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾ ـ على التوحيد ـ ﴿وَالشَّمَائِلِ﴾ ـ على الجمع ـ؛ لأنّه أراد باليمين: الإيمان، كما قال الشاعر:

بِفِي الشَّامِتِينَ الصَّخْرُ إِنْ كَانَ هَدَّني رَزِيَّةُ شِبْلي مُخْدِرٍ فِي الضَّرَاغِـمِ[٣]

والمعنى: بأفواه. وقال آخر:

---

(١) السفن القدوم: آلة النجّارين.

(٢) حبله: صاده، وشدّه بالحبل.

(٣) الشبل: ولد الأسد. والمخدر: من الأسود الداخل في خدره أي: غيضته.

الوارِدُونَ، وَتَـــيمٌ فـــي ذرىٰ سَـــبَأٍ قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الجَوَامِيسُ (١)

والداخر: الخاضع الصاغر. قال:

فَـــلَمْ يَـــبْقَ إِلاّ دَاخِـرٌ فـي مُـخَيَّسٍ وَمُنْحَجِرٌ في غَيْرِ أَرْضِكَ في حُجْرِ (٢)

المعنىٰ: ثمّ أوعد سبحانه المشركين، فقال: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ﴾ فاللفظ لفظ الإستفهام، والمراد به: الإنكار، ومعناه: أيّ شيء أمنَ هؤلاء القوم الذين دبّروا التدابير السيّئة في توهين أمر النبيّ ﷺ، وإطفاء نور الدين، وإيذاء المؤمنين من ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ من تحتهم، عقوبة لهم كما خسف بقارون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾. قال ابن عباس: يعني: يوم بدر، وذلك أنّهم أهلكوا يوم بدر، وما كانوا يقدرون ذلك، ولا يتوقّعونه.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ يعني: أو أن يأخذهم العذاب في تصرّفهم في أسفارهم، وتجاراتهم. وقيل: يريد في تقلّبهم في كل الأحوال، ليلاً ونهاراً، فيدخل في هذا تقلّبهم على الفرش، يميناً وشمالاً، ـ عن مقاتل ـ. ﴿فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ أي: فليسوا بفائتين، وما يريده الله بهم من الهلاك لا يمتنع عليه.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ قال أكثر المفسّرين: معناه: على تنقّص إمّا بقتل أو بموت أي: بنقص من أطرافهم ونواحيهم. فيأخذ منهم الأوّل فالأوّل حتى يأتي على جميعهم. وقيل: معناه: في حال تخوّفهم من العذاب أي: يعذّب أهل قرية، ويخوّف به أهل قرية أخرى، فيتخوّفون أن ينزل بهم من العذاب ما نزل بالأولى، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: على تنقّص من الأموال والأنفس، بالبلايا والأسقام، إن لم يعذّبهم بعذاب الإستئصال، لينبّه غيرهم، ويزجرهم، ـ عن الجبائي ـ.

---

(١) كناية عن الإسارة.

(٢) المخيّس: سجن بناه أمير المؤمنين عليه السلام يعني: لم يبق من أعدائك إلاّ محبوس في سجن، أو خاف نفسه في بلاد بعيدة في الخبايا.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ بكم، ومن رأفته ورحمته بكم، أنّه أمهلكم لتتوبوا وترجعوا، ولم يعاجلكم بالعقوبة.

ثمّ بيّن سبحانه دلائل قدرته. فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ معناه: ألم ينظروا هؤلاء الكفّار الذين جحدوا وحدانيّة الله تعالى، وكذّبوا نبيّه ﷺ، إلى ما خلق الله من شيء له ظلّ، من شجر، وجبل، وبناء، وجسم قائم.

﴿يَتَفَيَّؤُ ظِلَالُهُ عَنْ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلّهِ﴾ أي: يتميّل ظلاله عن جانب اليمين، وجانب الشمال، وأضاف الظلال إلى مفرد، ومعناه: الإضافة إلى ذوي الظلال؛ لأنّ الذي يعود إليه الضمير واحد يدلّ على الكثرة، وهو قوله: ﴿مَا خَلَقَ اللهُ﴾ ومعنى «تفيّؤ الظلال يميناً وشمالاً»: أنّ الشمس إذا طلعت وأنت متوجّه إلى القبلة، كان الظلال قدّامك. وإذا إرتفعت كان عن يمينك. فإذا كان بعد ذلك كان خلفك فإذا كان قبل أن تغرب الشمس، كان عن يسارك. فهذا تفيؤه عن اليمين والشمائل، ـ عن الكلبي ـ. ومعنى سجود الظلّ لله. دورانه من جانب إلى جانب؛ لأنّه مستسلم منقاد مطيع للتسخير. وهذه الآية كقوله: ﴿وَظِلاَلُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ﴾[1]. وقد مرّ تفسيره. وقيل: إنّ المراد بالظلّ هو الشخص بعينه. ويدلّ على ذلك قول علقمة:

لَمَّا نَزَلْنا رَفَعْنا ظِلَّ أَخْبِيَةٍ ... وَفارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ المَراجِيلُ[2]

---

(١) الظلّ مماثل للشخص في صورته وهيئته وحركاته، ويستدلّ منه عليه. وإستدلّ المنجّمون على كون الأرض كرة: بكون ظلّها على وجه القمر في الخسوفات دائرة. ويستدلّ المهندسون بمقدار الظلّ على مقدار إرتفاع الأشخاص، التي لاطريق إلى ذرعها كالمنارات والجبال الشاهقة، ومن عجيب أمر الظلّ، أنّ سقوطه على الأرض ينبّه الإنسان على خشوع ذي الظلّ، وإفتقاره إلى الله، وسجوده له، فهذا في الصورة يمثل ذلك في المعنى، ويذكر الإنسان الإستدلال به عليه، وهذا معنى سجود الظلّ، وليس الظلّ نفسه شيئاً، ولكنّه دليل.

(٢) المراجيل ـ جمع المرجل ـ: القدر.

ألا ترى أنهّم لا ينصبون الظلّ، وإنّما ينصبون الأخبية. ويقوّي ذلك قول عمارة:

كَأَنَّهُنَّ الْفَتَيَاتُ اللَّعْسُ كَأَنَّ في أَظْلالِهِنَّ الشَّمسُ[1]

أي: في أشخاصهنّ. وقول الآخر:

يُتَبِّعَ أَفْيَاءَ الظِّلالِ عَشِيَّةً عَلىٰ طُرُقٍ كَأَنَّهُنَّ سُيُوفُ[2]

أي: أفياء الشخوص. فعلى هذا يكون تأويل الظلال في الآية، تأويل الأجسام التي عنها الظلا.

﴿وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ أي: أذلّة صاغرون. قد نبّه الله بهذا على أنّ جميع الأشياء تخضع له بما فيها من الدلالة على الحاجة إلى واضعها ومدبّرها. بما لولاه لبطلت، ولم يكن لها قوام طرفة عين، فهي في ذلك كالساجد من العباد بفعله، الخاضع بذلّه.

ثمّ قال سبحانه: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ ﴾ أي: يسجد لله جميع ما في السماوات، وجميع ما في الأرض. ومعنى ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ دَابَّةٍ﴾ تبيين الصفة أي: الذي هو دابّة تدبّ على وجه الأرض ﴿وَالْمَلائِكَةُ﴾ أي: وتسجد له الملائكة، وتخضع له بالعبادة، وإنّما خصّ الملائكة بالذكر؛ تشريفاً لهم؛ ولأنّ إسم الدابّة يقع على ما يدبّ ويمشي، وهم أولو الأجنحة، فضة الطيران أغلب عليهم.

﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ عن عبادة الله تعالى. وهذا من صفة الملائكة؛ لأنّه قال: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ وإنّما قال: ﴿مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ لوجهين: أحدهما: إنّ المراد: يخافون عقاب ربّهم، وأكثر ما يأتي العقاب المهلك إنّما يأتي من فوق. والآخر: إنّ الله سبحانه لمّا كان موصوفاً بأنّه عال متعال، بمعنى

---

(١) جارية لعساء: حمراء يضرب الى السواد.

(٢) وفي بعض النسخ: سبوب جمع سبب، ثوب. والسيوب ـ باليا ـ جمع السيب، مجرى الماء.

أنّه قادر على الكمال، حسنٌ أن يقال: من فوقهم؛ ليدلّ على أنّه في أعلى مراتب القادرين. وعلى هذا معنى قول ابن عباس في رواية مجاهد قال: ذلك مخافة الإجلال. وإختاره الزجّاج، فقال: يخافون ربّهم خوف معظمين مجلين. ومثله في المعنى، قوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ وقوله إخباراً عن فرعون: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾.

وذهب بعضهم إلى أنّ قوله: ﴿من فوقهم﴾ من صفة الملائكة، والمعنى: أنّ الملائكة من فوق بني آدم، وفوق ما في الأرض من دابّة، يخافون الله مع علوّ رتبتهم، فلأنْ يخافه من دونهم أولى. وقد صحّ عن النبيّ ﷺ أنّه قال: إنّ الله تعالى ملائكة في السماء السابعة، سجوداً منذ خلقهم إلى يوم القيامة، ترعد فرائصهم من مخافة الله تعالى، لا تقطر من دموعهم قطرة إلاّ صارت ملكاً، فإذا كان يوم القيامة، رفعوا رؤوسهم، وقالوا: ما عبدناك حقّ عبادتك، أورده الكلبي في تفسيره.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (١) ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

(اللغة): وصب الشيء وصوباً: إذا دام. ووصب الدين: وجب. وقال

(١) أثبت ياء «فارهبون» يعقوب فقط. ويقف حمزة على «تجأرون» بالنقل.

أبو الأسود:

لا أَبْتَغِي الْحَمْدَ الْقَليلَ بَقاؤُهُ يَوْماً بِذَمِّ الدَّهرِ أَجْمَعَ واصِبا

والوصب: الألم الذي يكون عن الإعياء بدوام العمل مدّة. قال:

لا يَغْمِزُ السَّاقَ مِنْ أَيْنٍ، وَمِنْ وَصَبٍ وَلا يَعَضُّ عَلىٰ شُرسُوفِهِ الصَّفَرُ[1]

والجؤار: الإستغاثة برفع الصوت. ويقال: جأر الثور يجأر جؤاراً: إذا رفع صوته من جوع، أو غيره. قال الأعشى:

وَمَا أَيْبُلِيٌّ عَلىٰ هَيْكَلٍ بَنَاهُ، وَصَلَّبَ فِيْهِ، وَصَارا[2]

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَواتِ الْمَليكِ طَوْراً سُجُوداً، وَطَوْراً جُؤاراً

وبناء الأصوات على فُعال وفعيل نحو: الصراخ والبكاء، والعويل والصغير. والفُعال أكثر.

﴿الإعراب﴾: ذكر ﴿اثْنَيْنِ﴾ توكيداً لقوله: ﴿إِلٰهَيْنِ﴾ كما ذكر الواحد في قوله: ﴿إِلٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿وَاصِباً﴾ نصب؛ على الحال. ﴿وَمَا بِكُمْ﴾: موصول، وصلة في موضع الرفع بالإبتداء. ودخلت الفاء في خبره، وهو قوله: ﴿فَمِنَ اللهِ﴾ تقديره: فهو من الله، ولا فعل هيهنا لأنّ قوله: ﴿بِكُمْ﴾ قد تضمّن معنى الفعل، فإنّه بمعنى: وما حلّ بكم من نعمة.

﴿المعنى﴾: لمّا بيّن سبحانه دلائل قدرته، وإلٰهيّته، عقّبه بالتنبيه على وحدانيّته، فقال: ﴿وَقَالَ اللهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ أي: لا تعبدوا مع الله إلٰهاً آخر، فتشركوا بينهما في العبادة؛ لأنّه لا يستحقّ العبادة سواه، وذكر إثنين كما يقال: فعلت ذلك لأمرين إثنين. وقيل: إنّ تقديره: لا تتّخذوا إثنين إلٰهين [الآلهين]،

---

(١) الصفر: وجع في البطن. وشرسوف طرف الأضلاع.

(٢) صلّب فيه: جعل فيه صليباً. وصار أي: صوت.

يريد به نفسه، وغيره.

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ وإنّما: لإثبات المذكور، ونفي ما عداه، فكأنّه قال: هو إله واحد لا إله غيره ﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِي ﴾ أي: إرهبوا عقابي وسطواتي، ولا تخشوا غيري. وورد عن بعض الحكماء أنّه قال: نهاك ربّك أن تتّخذ إلهين، فإتّخذت آلهة: عبدت نفسك، وهواك، ودنياك، وطبعك، ومرادك، وعبدت الخلق، فأنّى تكون موحّداً.

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ملكاً، ومِلكاً، وخلقاً ﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِباً ﴾ أي: وله الطاعة دائمة واجبة على الدوام، ـ عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقتادة ـ. ومعناه: إنّه سبحانه الذي يعبد دائماً وغيره إنّما يعبد في وقت دون وقت. وقيل: معناه: وله الدين خالصاً، ـ عن الفرّاء ـ. أي: يجب على العبد أن يطيعه مخلصاً. وقيل: معناه: وله الملك دائماً لا يزول.

﴿ أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ ﴾ أي: أفغير الله تخشون؟ وهو إستفهام فيه معنى التوبيخ أي: فكيف تعبدون غيره، ولا تتّقونه ﴿ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ معناه: إنّ جميع ما بكم وما لكم من النعم، مثل الصحّة في الجسم، والسعة في الرزق ونحوهما، فكل ذلك من عند الله، ومن جهته.

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ مثل: المرض، والشدّة، والبلاء، وسوء الحال ﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴾ أي: فإليه تتضرّعون في كشفه، وإليه ترفعون أصواتكم بالدعاء والإستغاثه لصرفه.

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ ﴾ معناه: ثمّ إذا دفع ما حلّ بكم من الضرّ، ودفع ما مسّكم من المرض، والفقر ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ أي: دعا طائفة منكم إلى الشرك بربّهم في العبادة، جهلاً منهم بربّهم، ومقابلة لنعمه بالكفران والعصيان، هذا عجب من فعل العاقل المميّز.

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ معنى اللام هيهنا هو البيان عن العلّة التي لأجلها وقع الفعل. والمعنى: إنّهم بمنزلة من أشرك في عبادة ربّه؛ ليكفر بما آتاه من النعمة، كأنّه كان لا غرض له في شركه إلاّ هذا، والمعنى: لأن يكفروا بأنعامنا عليهم، ورزقنا إيّاهم. وقيل: إنّ اللام للأمر على وجه التحديد أي: ليفعلوا ما شاؤوا، فإنّه ينزل الله بهم عاقبة كفرهم.

ويوافق هذا القول ما رواه مكحول، عن أبي رافع، قال: حفظت عن رسول الله ﷺ ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ بالياء فيهما، فإنّ «يمتعوا» يكون معطوفاً مجزوماً، ويجوز أيضاً أن يكون معطوفاً منصوباً، والمعنى: لأن يكفروا فيمتعوا، فقوله: ﴿ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يكون إبتداء خطاب لهم على التهديد والوعيد، يقول: فتمتّعوا أيّها الكفّار في الدنيا قليلاً، فسوف تعلمون ما يحلّ بكم في العاقبة من العقاب، وأليم العذاب، وحذف لدلالة الكلام عليه.

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ
تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ
﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ
﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ
أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

(اللغة): يقال: ظل يفعل كذا: إذا فعله صدر النهار. ويقال: ظللت أظلّ

ظلولاً. ومثله: أضحى، غير أنّه كثر حتى صار بمنزلة أخذ يفعل. والكظيم: المغموم الذي يطبق فاه، لا يتكلّم للغمّ الذي به، مأخوذ من الكظامة، وهي اسم لما يشدّ به فم القربة. والكظامة أيضاً: العقب على رؤوس القذذ. والكظامة أيضاً: البئر. ومنه: الحديث «أنّ النبيّ ﷺ أتى كظامة فتوضّأ، ومسح على قدميه». وجمعها كظائم. والهون: الهوان والمشقّة، وهي لغة قريش. قال الحطيئة:

فَلَمّا خَشيتُ الْهُونَ، وَالْـعَيْنُ مُـمْسِك عَلىٰ رَغْمِه مٰا أَثْبَتَ الخَيْلَ حٰافِرُهُ[1]

ودسست الشيء في التراب أدسّه دسّاً: إذا أخفيته. والدساسة: حية صماء تندس تحت التراب.

الإعراب: ﴿ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴾: إن شئت جعلت ﴿مَا﴾ في موضع نصب، بمعنى: يجعلون لهم البنين الذين يشتهون هم، ويكون قوله سبحانه إعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه. وإن شئت جعلته في موضع رفع على الإستئناف، فيكون مرفوعاً على الإبتداء. ﴿وَلَهُمْ﴾: خبره أو مرفوعاً، على أنّ الظرف عمل فيه على ما ذكرنا من الإختلاف فيه فيما مضى. والهاء في ﴿أَيُمْسِكُهُ﴾ يعود إلى قوله: ﴿مَا بُشِّرَ بِهِ﴾، فلذلك ذكّر. وقيل: معناه: ويجعلون للأصنام الذين لا يعلمون، [ولا يجعلون] نصيباً من الأنعام والزرع. فكنّي عن لفظة ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿لِمَا لاَ يَعْلَمُونَ﴾ بالواو؛ لأنّهم جعلوا الأصنام هنا بمنزلة العقلاء، ـ عن أبي عليّ الفارسي ـ. وقال أيضاً: يجوز أن يكون تقديره: ويجعلون لما لا يعلمونه إلهاً نصيباً، ويكون الضميران في ﴿يَجْعَلُونَ﴾ و ﴿يَعْلَمُونَ﴾ للمشركين، وحذف المفعولان.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه فعلاً آخر من أفعال المشركين، دالاً على جهلهم، فقال: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ والواو في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ تعود إلى المشركين أي:

---

(١) ما أثبت الخيل حافره: كناية عن الفرار يعني: لم يتمكّن الحافر أن يحمل الفرس. وأراد بالعين: نفسه يعني: أنّه لايرضى بالمقام. وعلى غمه أي: على خلاف رضاه.

لما لا يعلمون أنّه يضرّ، وينفع ﴿ نَصِيباً مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ﴾ يتقرّبون بذلك إليه كما يجب أن يتقرّب إلى الله تعالى، وهو ما حكى الله عنهم في سورة الأنعام، من الحرث، وغير ذلك، وقولهم هذا الله بزعمهم، وهذا لشركائنا، ـ عن مجاهد، وقتادة، وابن زيد ـ.

ثمّ أقسم تعالى فقال: ﴿ تَاللهِ لَتُسْأَلُنَّ ﴾ في الآخرة ﴿ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾ أي: تكذبون به في دار الدنيا، لتلزموا به الحجّة، وتعاقبوا بعد إعترافكم على أنفسكم.

ثم ذكر سبحانه نوعاً آخر من جهالاتهم، فقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلهِ الْبَنَاتِ ﴾ أي: ويثبتون لله البنات، ويضيفون إليه البنات، وهو قولهم: الملائكة بنات الله، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلاَئِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾. ثمّ نزّه سبحانه نفسه عمّا قالوا، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزيهاً له عن إتّخاذ البنات ﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ أي: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون، ويحبّونه من البنين دون البنات. وعلى الوجه الآخر، ولهم ما يحبّونه يعني: البنين.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَى﴾ أي: وإذا بشّر واحد منهم بأنّه ولد له بنت ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً﴾ أي: صار لون وجهه متغيّراً إلى السواد؛ لما يظهر فيه من أثر الحزن والكراهة، فقد جعلوا لله ما يكرهونه لأنفسهم. وهذا غاية الجهل.

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ أي: ممتلىء غيظاً وحزناً ﴿ يَتَوَارَى مِنْ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴾ يعني: إنّ هذا الذي بشّر بالبنت، يستخفي من القوم الذين يستخبرونه عمّا ولد له؛ استنكافاً منه، وخجلاً وحياء من سوء ما بشّر به من الأنثى، وقبحه عنده.

﴿أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ﴾ يعني: يميل نفسه، ويدبّر في أمر البنت المولودة له، أيمسكه على ذلّ وهوان، أم يخفيه في التراب ويدفنه حيّاً، وهو الوأد الذي كان من عادة العرب وهو أنّ أحدهم كان يحفر حفيرة صغيرة، وإذا ولد

له أنثى جعلها فيها، وحثّا عليها التراب حتى تموت تحته. وكانوا يفعلون ذلك مخافة الفقر عليهنّ، فيطمع غير الأكفاء فيهنّ.

﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ أي: بئس الحكم ما يحكمونه، وهو أن يجعلوا لنفوسهم ما يشتهون، ولله ما يكرهون. وقيل: معناه: ساء ما يحكمونه في قتل البنات مع مساواتهنّ للبنين في حرمة الولادة، ولعلّ الجارية خير من الغلام. وروي عن ابن عباس أنّه قال: لو أطاع الله الناس في الناس، لما كان الناس؛ لأنّه ليس أحد إلاّ ويحبّ أن يولد ذكراً ولو كان الجميع ذكوراً لما كان أولاد، فيفنى الناس.

ثمّ قال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي: لهؤلاء الكفّار الذين وصفوا الله بالولد صفة السوء أي: الصفة القبيحة التي هي سواد الوجه، والحزن، ولله الصفة العليا من السلطان والقدرة. وقيل: له صفات النقص من الجهل، والكفر، والضلال، والعمى، وصفة الحدوث، والضعف، والعجز، والحاجة إلى الأبناء، وقتل البنات خوف الفقر، ولله صفات الإلهيّة، والإستغناء عن الصاحبة والولد، والربوبيّة، وإخلاص التوحيد.

ويسأل فيقال: كيف يمكن الجمع بين قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾، وقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾؟ والجواب: إنّ المراد بالأمثال هناك: الأشباه أي: لا تشبهوا الله بشيء، والمراد بالمثل الأعلى هنا: الوصف الأعلى الذي هو كونه قديماً، قادراً، عالماً، حيّاً، ليس كمثله شيء. وقيل: إنّ المراد بقوله: المثل الأعلى: المثل المضروب بالحقّ، وبقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾: الأمثال المضروبة بالباطل.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ أي: القادر الذي لا يمتنع عليه شيء. ﴿الْحَكِيمُ ﴾ الذي يضع الأشياء مواضعها على ما هو حكمة وصواب.

وفي الآية دلالة على أنّه لا يضاف إلى الله تعالى الا دون، فإنّ الله سبحانه قد عاب المشركين بإضافتهم إليه ما لا يرضونه لأنفسهم، فإذا كره الإنسان إضافة القبيح إلى نفسه للنقص الذي فيه، فكيف يجوز أن يضيفه إلى الله تعالى؟.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۖ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

القراءة: قرأ نافع وقتيبة، عن الكسائي: ﴿مُفْرِطُونَ﴾ ـ ساكنة الفاء، مكسورة الراء، خفيفة ـ. وقرأ أبو جعفر عليه السلام: ﴿مُفَرِّطُونَ﴾ ـ مفتوحة الفاء، مسكورة الراء، مشدّدة ـ. والباقون: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ ـ ساكنة الفاء، مفتوحة الراء خفيفة ـ. وروي عن الأعراج [الأعرج]: بفتح الراء، وتشديده.

الحجة: قال الزجّاج: أمّا تفسير ﴿مُفْرَطُونَ﴾: فجاء عن ابن عباس

متروكون. وقيل: معجلون. ومعنى الفرط في اللغة: التقدّم، وقد فرط منّي قولٌ أي: تقدّم. فمعنى مُفْرطون: مقدَّمون إلى النار، وكذلك ﴿مُفْرَطُونَ﴾ ـ بالتشديد ـ. ومن فسّر «متروكون»: فهو كذلك أي: قد جعلوا مقدّمين في العذاب أبداً، متروكين فيه. ومن قرأ: مُفْرَطُونَ فالمعنى: أنّه وصفهم الله بأنّهم فرطوا في الدنيا، ولم يعملوا فيها للآخرة. وتصديقه قوله: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطتُ فِي جَنْبِ اللهِ﴾. ومن قرأ: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ فالمراد: أنّهم أفرطوا في معصية الله، كما تقول: أفرط أي: صار ذا فرط، فلان في مكروهي. وتأويله: أنّه آثر العجز وقدمه. قال أبو عليّ: وكأنّه من أفرط صار ذا فرط، مثل أقطف وأجرب فهو مقطف ومجرب، فمعناه: أنّهم ذوو فرط إلى النار، وسبق إليها.

﴿الإعراب﴾: ﴿الْكَذِبَ﴾ مفعول ﴿تَصِفُ﴾. و﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾: بدل من «الْكَذب»، وتقديره: وتصف ألسنتهم أنّ لهم الحسنى أي: تصفون أنّ لهم مع هذا الفعل القبيح الجزاء الحسن. و﴿أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ في موضع نصب بـ﴿جَرَمَ﴾، والمعنى: جرم فعلهم هذا أي: كسب أنّ لهم النار. وقيل: «إنَّ» أنّ في موضع، ـ رفع عن قطرب ـ. قال: معناه: أنّه وجب أنّ لهم النار. وأنّهم مفرطون فيها. ﴿لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾: أي: لأن تبيّن لهم. الجارّ والمجرور في محلّ النصب؛ بأنّه مفعول له وكذلك قوله: وهدى ورحمة، وكلاهما معطوف على ما قباله بأنّه مفعول له أيضاً، أي: أنزلنا عليك الكتاب بياناً ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ قال الزجاج: ويجوز في هذا الموضع ﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ بالرفع، فيكون المعنى: وما أنزلنا عليك الكتاب إلّا للبيان، وهو مع ذلك هدى ورحمة.

﴿المعنى﴾: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ أخبر سبحانه أنّه لو كان ممّن يؤاخذ الكفّار والعصاة بذنوبهم، ويعاجلهم بالعقوبة، لما

ترك على وجه الأرض أحداً ممّن يستحقّ ذلك من الظالمين، وإنّما قال: ﴿عَلَيْهَا﴾، ولم يجر ذكر للأرض في الظاهر؛ لأنّ الكلام يدلّ عليه، فإنّ العلم حاصل بأنّ الناس يكونون على ظهر الأرض، ومثله كثير في محاورات العرب، يقولون: ما بين لا بيتها [بتيها] مثل فلان، يعنون المدينة. وأصبحت باردة. يريدون الغداة، إذا [اذ] اللابتان بالمدينة، والإصباح لا يكون إلاّ غدوة.

وقوله: ﴿ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي: يمهلهم إلى وقت معلوم مسمّى، وهو يوم القيامة. وقيل: إلى وقت يعلمه الله تعالى أنّه لا يكون في بقائهم فيه مصلحة؛ لأنّهم لا يؤمنون، ولا يخرج من نسلهم مؤمن، وإنّما يؤخّرهم تفضّلاً منه سبحانه؛ ليراجعوا التوبة، أو لِما في ذلك من المصلحة

وإختلف أهل العدل في مَن المعلومُ مِن حاله أنّه لا يؤمن فيما بعد، هل يجوز إخترامه؟ فقال بعضهم: يجوز؛ لأنّ التكليف تفضّل، فلا تجب التبقية، وهو قول أبي هاشم، وإليه ذهب المرتضى قدس الله روحه. وقال آخرون: لا يجوز إخترامه، ويجب تبقيته، وهو قول البلخي، وأبي عليّ الجبائي[1]، وإن إختلفا في علّته، فقال الجبائي: لأنّه مفسدة. وقال البلخي: لأنّه الأصلح. وإليه ذهب الشيخ المفيد أبو عبد الله. وقيل: إنّ معنى الآية لو يؤاخذهم بذنوبهم لحبس المطر عنهم، حتى تهلك كل دابّة، ـ عن السدّي ـ، وعكرمة ـ.

سؤال: متى قيل: إنّ المكلّف الظالم يستحقّ العقوبة بظلمه، فما بال

---

(١) وهنا مسئلة معروفة أوجبت إفتراق المعتزلة والأشاعرة، وهي أنّه: لو مات صبيّ قبل البلوغ فاعترض عليه تعالى بأنّه إخترمه حتى لم يؤمن ولم يفز بالثواب. فأجاب أبو عليّ: بأنّه تعالى كان يعلم أنّه لايؤمن فإخترمه. فإعترض الأشعري: بأنّه لِمَ لم يخترم الكافر؟ والجواب. أنّ إخترام من يعلم أنّه يكفر، تفضّل غير واجب.

الحيوانات تؤخذ بغير جرم؟ فجوابه: إنّ العذاب للظالم عقوبة، ولغير الظالم عبرة ومحنة، فيكون كالأمراض النازلة بالأولياء، وغير المكلّفين، فيعوّضون عنها، وقيل: معناه: لو هلك الآباء بكفرهم، لم يوجد الأبناء. وقيل: إنّه إذا هلك الظلمة، ولم يبق مكلّف، لا يبقي غير هم من الحيوانات؛ لأنّها إنّما خلقت للمكلّفين، فلا فائدة في بقائها بعدهم[1] ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد سبق معناه فيما مضى.

ثمّ حكى سبحانه عن الكفّار، فقال: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ ﴾ يعني: البنات أي: يحكمون لله بما يكرهونه لأنفسهم ﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ ﴾ أي: وتخبر ألسنتهم بالكذب، وهو ما يقولون: ﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ وهي البنون، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: تصفون أنّ لهم مع قبيح قولهم من الله الجزاء الحسن، والمثوبة الحسنى، وهي الجنّة، ـ عن الزجّاج، وغيره ـ. فإنّ المشركين كانوا يقولون: إن كان ما يقوله محمّد من أمر البعث والآخرة حقّاً، فنحن من أهل الجنّة. وروي عن معاذ أنّه قرأ: وتصف ألسنتهم الكذُبُ ـ بضم الذال والباء ـ، فعلى هذا يكون «الكذب» وصفاً «للألسنة»، جمع كاذب، أو كذوب.

ثم ردّ سبحانه قولهم، فقال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أي: ليس الأمر على ما وصفوا جرم فعلُهم وقولُهم أي: كسب أنّ لهم النار. والمفسّرون يقولون معناه: حقّاً

---

(١) فرّق المصنّف بين العوض والثواب والتفضّل، وهو مذهب أهل العدل. فالثواب: مايستحقّ على الفعل الإختياري. والعوض: يستحقّ على غير الإختياري من الالام وغيرها. والتفضّل: مالايستحقّ أصلاً، كرفع العقوبة عن الأموات بدعاء الأحياء.

إنّ لهم النار، أو لابدّ أنّ لهم النار. ﴿ وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ ﴾ أي: مقدّمون أي: معجّلون إلى النار.

ثمّ أقسم سبحانه، فقال: ﴿ تَاللهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ يا محمّد ﴿فَزَيَّنَ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي: كفرهم، وضلالهم، وتكذيبهم الرسل.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ الْيَوْمَ﴾ معناه: إنّ الشيطان وليّهم اليوم في الدنيا، يتولّونه ويتبعون إغوائه، فأمّا يوم القيامة فيتبرّأ بعضهم من بعض، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: فهو وليّهم يوم القيامة أي: يَكِلهم الله تعالى إلى شيطان، أياساً لهم من رحمته ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي: وللتابع والمتبوع عذاب مؤلم، وجميع.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه قد أقام الحجّة، وأزاح العلّة، وأوضح المحجّة، فقال: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن ﴿ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ معناه: إلّا وقد أردنا منك أن تكشف لهم ما إختلفوا فيه من دلالة التوحيد والعدل، وتبيّن لهم الحلال والحرام ﴿وَهُدىً﴾ أي: وأنزلناه دلالة على الحقّ ﴿وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

ثمّ أخبر سبحانه عن نعمة على خلقه، فقال: ﴿ وَاللهُ أَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ أي: غيثاً، ومطراً ﴿ فَأَحْيَا بِهِ ﴾ أي: بذلك الماء ﴿ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ أحياها بالنبات بعد جدوبها [بها] وقحطها. ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي: حجّة ودلالة ﴿ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ أي: يستصغون أدلّة الله، ويتفكّرون فيها، ويعتبرون بها.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ
بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن
ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا
حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ
أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (١) ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي
مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا
شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ
يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ
ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

القراءة: قرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر، عن عاصم، ويعقوب، وسهل: ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ ـ بفتح النون ـ هيهنا، وفي المؤمنين. والباقون: ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ بضمّها في الموضعين. وقرأ أبو جعفر في المؤمنين: تسقيكم ـ بالتاء ـ.

الحجة: قيل: بين «سقيت»، و«أسقيت» فرق، وهو أنّ «سقيته» معناه: ناولته ليشرب. و«أسقيته» معناه: جعلت له ماء يشربه. وقيل: سقيته ماء وأسقيته، سألت الله أن يسقيه. وعليه بيت ذي الرمة:

وَأُسْقِيهِ حَتّى كَادَ مِمّا أَبُثُّهُ ... تُكَلِّمُني أَحْجَارُهُ، وَمَلاٰعِبُهُ

وقيل: إذا سقاه مرّة يقال: سقيته، وإذا سقاه دائماً يقال: أسقيته، ـ عن أبي

(١) إختلفوا في كسر الباء من «بيوتاً» وضمّها. وقرأ ابن عامر وأبو بكر: بضمّ الراء من «يعرشون».

عبيدة ـ. وقيل: هما بمعنى واحد، وأستدلّ ببيت لبيد:

سَقىٰ قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ، وَأَسْقي نُمَيْراً، وَالْقَبائِلَ مِنْ هِلالِ[1]

فإنّه أتى باللغتين.

اللغة: العبرة والعظة من النظائر، وهو ما يعتبر به. والفرث: الثفل الذي ينزل إلى الكرش. وساغ الطعام في الحلق وسوغته وأسغته. السكر في اللغة على أربعة أوجه: **الأول:** ما أسكر من الشراب. **والثاني:** ما طعم من الطعام. قال الشاعر: «جَعَلْت عَيْبَ الأكْرَمين سَكَرا» أي: جعلت ذمّهم طعماً لك. **والثالث:** السكون. ومنه: ليلة ساكرة أي ساكنة. قال الشاعر: «وَلَيْسَتْ بِطَلْقٍ وَلا سَاكِرَة»[1] ويقال: سكرت الريح: سكنت قال: «وجعلت عين الحرور تسكر» **والرابع:** المصدر من قولك: سكر سكراً. ومنه: التسكير: التحيير في قوله: ﴿**سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا**﴾. والذلل: جمع الذلول. يقال: دابة ذلول بيّن الذلّ، ورجل ذلول بيّن الذلّ. والذلّة والرذل: الدون الرديء. وكذلك الرذال. يقال: رذل الشيء يرذل رذالة، وأرذلته أنا.

الإعراب: الهاء في ﴿**بُطُونِهِ**﴾ إلى ماذا يعود؟ أختلف فيه، فقيل: إنّ الأنعام جمع، والجمع يذكّر ويؤنّث، فجاء هيهنا على لغة من يذكّر، وجاء في سورة المؤمنين على لغة من يؤنّث. وقيل: إنّه رد على واحد الأنعام. وأنشد للراجز: «وَطَابَ البَانُ اللِّقاحُ فَبَرَدْ» رده إلى اللبن، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: إنَّ الأنعام والنعم سواء، فحمل على المعنى، كما قال الصلتان العبدي:

إِنَّ السَّمَاحَةَ، وَالْمُرُوءَةَ، ضُمِّنَا قَبْراً بِمَرْوَ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ

فكأنّه قال: شيئان ضمنا. وقال الأعشى:

---

(١) وبنو مجد: أولاد مجد، بنت تميم بن غالب.

[١] قائله: أوس. ليلةٌ طَلْق: لا بردَ فيها.

فَـإِنْ تَـعْهَدِينِي وَلي لِـمَّةٌ فَإِنَّ الْحَوَادِثَ أَوْدَىٰ بِـها[١]

حمله على الحدثان. ويجوز أن يكون التقدير: نسقيكم ممّا في بطون المذكور. وقيل: إنّ ﴿مِنْ﴾ يدلّ على التبعيض، فكأنّه قال: نسقيكم ممّا في بطون بعض الأنعام؛ لأنّه ليس لجميعها لبن. وقوله: ﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ﴾ الضمير في «منه» إلى ماذا يعود؟ فيه وجهان: **أحدهما**: إنّه يعود إلى المذكور. **والثاني**: إنّه يعود إلى معنى الثمرات؛ لأنّ الثمرات والثمر سواء. وكذا الهاء في قوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ قيل: يعود إلى الشراب، وهو العسل. وقيل: يعود إلى القرآن، فإذا عاد الضمير إلى الشراب، إرتفع «شفاء» بالظرف على المذهبين، وتقديره: شراب ثابت فيه شفاء. وإذا عاد الضمير إلى القرآن ففي رفع شفاء خلاف، فإنّ الظرف لم يجر على مذكور قبله، ﴿لِكَيْ لاَ يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾: إن نصبت «شيئاً» بـ«علم»، ـ وهو مذهب سيبويه ـ كنت قد أعملت الثاني، وأضمرت المفعول في «يعلم» على شريطة التفسير. وإن أعملت يعلم، ـ وهو مذهب الفرّاء ـ أضمرت لعلم مفعولاً، وفصلت بين المعمول والعامل، فجمعت بين مجازين، بخلاف مذهب سيبويه.

المعنى: ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم من دلائل التوحيد، وعجائب الصنعة، وبدائع الحكمة بقوله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ﴾ يعني: الإبل، والبقر، والغنم ﴿لَعِبْرَةً﴾ أي: لِعظَةً واعتباراً ودلالة على قدرة الله تعالى.

﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾ وروى الكلبي عن ابن عباس قال: إذا إستقرّ العلف في الكرش، صار أسفله فرثاً، وأعلاه دماً، ووسطه لبناً[٢]، فيجري الدم في العروق واللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو، فذلك

---

(١) يخاطب إمرأة. واللمّة: الشعر الجعد خلف الأذن. وأودى بها أي: أهلكه،ا كناية عن الكبر، وفساد الشعر.

(٢) ولايخفى أنّ اللبن لايحصل في الكرش، وليس مثل هذا الأمر الواضح ممّا يخفى على ابن ←

قوله: ﴿ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً ﴾، لا يشوبه الدم، ولا الفرث.

﴿ سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾ أي: جائزاً في حلوقهم، والكبد مسلّطة على هذه الأصناف، فيقسمها على الوجه الذي إقتضاه التدبير الإلهي. بيّن سبحانه لمن ينكر البعث، أنّ من قدر على إخراج لبن أبيض سائغ، من بين الفرث والدم، من غير أن يختلط بهما، قادر على إخراج الموتى من الأرض، من غير أن يختلط شيء من أبدانهم بأبدان غيرهم.

ثمّ قال: ﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً ﴾ قيل: معناه: ولكم عبرة فيما أخرج الله لكم من ثمرات النخيل والأعناب، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: من ثمرات النخيل والأعناب ما تتّخذون منه سكراً. والعرب تضمر «ما» الموصولة كثيراً. قال سبحانه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً﴾ أي: ما ثمّ. وقيل: إنّ تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب شيء تتّخذون منه سكراً ﴿وَرِزْقاً حَسَناً﴾ فحذف الموصوف لدلالة الصفة عليه. ﴿وَالْأَعْنَابَ﴾: عطف على ﴿الثَّمَرَاتِ﴾ أي: ومن الأعناب شيء تتّخذون سكراً، وهو كل ما يسكر من الشراب كالخمر. والرزق الحسن: ما أحلّ منهما كالخلّ والزبيب، والربّ، والرطب، والتمر، ـ عن ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، ومجاهد، وغيرهم ـ.

وروى الحاكم في صحيحه، بالإسناد عن ابن عباس أنّه سئل عن هذه الآية

← عباس، ولا على غيره؛ إذ كانوا يذبحون الأنعام، ويخرجون كرشها، ويرون ما فيه، ولكن المقصود أنّ مايأكله الدوابّ، ويصير في كرشها فرثاً، فهو بعينه مادّة اللبن والدم؛ إذ يزيد اللبن بزيادة المأكول، وينقص بنقصانه، فيحصل من شيء واحد لبن خالص، وفرث منتن، ودم، وهذا من عجائب قدرة الله. وقال الجصاص: يدلّ الآية على طهارة لبن الميتة، وحلّيّته؛ لأنّه يلابس الدم وهو طاهر، فإذا لاقى جسد الميّت فهو طاهر أيضاً لافرق بينهما، وفي ذلك روايات من أئمّتنا عليهم السلام، وهكذا في الأنفحة.

فقال: السكر: ما حرم من ثمرها، والرزق الحسن: ما أحلّ من ثمرها. قال قتادة: نزلت الآية قبل تحريم الخمر، ونزل تحريمها بعد ذلك في سورة المائدة. قال أبو مسلم: ولا حاجة إلى ذلك سواء كان الخمر حراماً، أم لم يكن؛ لأنّه تعالى خاطب المشركين، وعدد إنعامه عليهم بهذه الثمرات، والخمر من أشربتهم، فكانت نعمة عليهم. وقيل: إنّ المراد بالسكر: ما يشرب من أنواع الأشربة، ممّا يحل. والرزق الحسن: ما يؤكل. والحسن: اللذيذ، ـ عن الشعبي، والجبائي ـ. فالمعنى: تتّخذون منه أصنافاً من الأشربة والأطعمة.

وقد اخطأ من تعلّق بهذه الآية في تحليل النبيذ؛ لأنّه سبحانه إنّما أخبر عن فعل كانوا يتعاطونه، فأي رخصة في هذا اللفظ. والوجه فيه: أنّه سبحانه أخبر أنّه خلق هذه الثمار لينتفعوا بها، فإتّخذوا منها ما هو محرّم عليهم، ولا فرق بين قوله هذا، وبين قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً﴾ أي: دلالة ظاهرة ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ عن الله تعالى ذلك، ويتفكّرون فيه. بيّن الله سبحانه بذلك أنّكم تستخرجون من الثمرات عصيراً يخرج من قشر قد إختلط به، فكذلك الله يستخلص ما تبدّد من الميّت، ممّا هو مختلط به من التراب.

﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ﴾ أي: ألهمها إلهاماً، ـ عن الحسن. وابن عباس، ومجاهد ـ. وقيل: جعل ذلك في غرائزها بما يخفى مثله عن غيرها، ـ عن الحسن ـ. قال أبو عبيدة: الوحي في كلام العرب على وجوه: منها: وحي النبوّة. ومنها: الإلهام، ومنها: الإشارة، ومنها: الكتاب، ومنها: الإسرار. فوحى النبوّة في قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ﴾. والإلهام في قوله: ﴿وَأَوْحَى ربّك إلى النّحل وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ﴾ والإشارة في قوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا﴾ قال مجاهد: معناه: أشار إليهم، وقال الضحّاك: كتب لهم. والإسرار في قوله: ﴿يُوحِي

﴿بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً﴾.

وأصل الوحي عند العرب: أن يلقي الإنسان إلى صاحبه شيئاً بالإستتار والإخفاء. وأمّا ما روي عن ابن عباس أنّه قال: لا وحي إلاّ القرآن، فإنّ المراد به أنّ القرآن هو الوحي الذي نزل به جبرائيل على محمّدﷺ، دون أن يكون أنكر ما قلناه. ويقال: أوحي له، وأوحي إليه، قال العجاج: «أوحي لها القَرار فَاسْتَقَرَّتْ»، والمعنى: أنّ الله تعالى ألهم النحل إتّخاذ المنازل والمساكن، والأوكار، والبيوت في الجبال، والشجر، وغير ذلك، وتقديره: ﴿أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً﴾ للعسل، ولا يقدر على مثلها أحد.

﴿وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ أي: ومن الكرم لأنّه الذي يعرش، ويتّخذ منه العريش، وفيه لغتان: يعرُشون ويعرِشون ـ بضمّ الراء وكسرها ـ، وقد قرىء بهما. وقيل: معنى يعرشون: يبنون. والعرش: سقف البيت، ـ عن الكلبي ـ. والمعنى: ما يبني الناس لها من خلاياها التي تعسل فيها، ولولا إلهام الله إيّاها، ما كانت تأوي إلى ما بني لها من بيوتها. وإنّما أتى بلفظ الأمر وإن كانت النحل لاتعقل الأمر ولاتكون مأمورة؛ لأنّه لمّا أتى بلفظ الوحي؛ أحرى عليه لفظ الأمر إتّساعاً.

﴿ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ أي: من أنواع الثمرات من أيّ ثمرة شئت ﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ أي: فأُدخلي سبل ربّك التي جعلها الله لك ﴿ذُلُلاً﴾ أي: مذلّلة موطأة للسلوك، واسعة يمكن سلوكها، فيكون قوله: ﴿ذُلُلاً﴾ صفة لـ «السبل»، وهي منصوبة على الحال، وهو قول مجاهد. وقيل: ذللاً أي: مطيعة لله، منقادة، مسخّرة، ويكون من صفة النحل، ـ عن قتادة ـ.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ وهو العسل، فإنّ ألوانه مختلفة، لأنّ منه ما هو شديد البياض. ومنه: ما هو أصفر. ومنه: ما يضرب إلى الحمرة، وذلك أنّ النحل تتناول ألواناً مختلفة من النبات والزهر، فيجعلها الله تعالى عسلاً

على ألوان مختلفة، يخرج من بطونها إلاّ أنّها تلقيه من أفواهها، كالريق الذي يخرج من فم ابن آدم. وإنّما قال سبحانه: ﴿مِنْ بُطُونِهَا﴾، ولم يقل: مِن فِيها؛ لئلاّ يظنّ أنّها تلقيه من فِيها، ولم يخرج من بطنها.

﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ من الأدواء، ـ عن قتادة ـ. وروي عن عبد الله بن مسعود أنّه قال: عليكم بالشفاءين: القرآن والعسل. وقيل: معناه: فيه شفاء للأوجاع التي شفاؤها فيه، ـ عن السدّي، والحسن ـ. وروي عن مجاهد: أنّ الهاء في ﴿فِيهِ﴾ راجعة إلى القرآن، أي: القرآن فيه شفاء للناس، يعني: ما فيه من الحلال والحرام، والفتيا والأحكام. والأوّل قول أكثر المفسّرين، وهو الأقوى؛ إذ لم يسبق للقرآن ذكر.

وفي النحل والعسل وجوه من الإعتبار: منها: إختصاصه بخروج العسل [العل] من فيه. ومنها: جعل الشفاء من موضع السمّ، فإنّ النحل يلسع. ومنها: ما ركّب الله من البدائع، والعجائب فيه، وفي طباعه. ومن أعجبها: أنْ جعل سبحانه لكل فئة يعسوباً هو أميرها، يقدمها، ويحامي عنها، ويدّبر أمرها، ويسوسها، وهي تتبعه، وتقتفي أثره. ومتى فقدته إنحلّ نظامها. وزال قوامها، وتفرّقت شذر مذر. وإلى هذا المعنى فيما قال أشار أميرالمؤمنين عليه السلام في قوله: أنا يعسوب المؤمنين.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1] معناه: إنّ فيما ذكرناه من بدائع صنع الله تعالى، دلالة بيّنة لمن تفكّر فيه.

ثمّ بيّن نعمته علينا في خلقنا، وإخراجنا من العدم إلى الوجود، فقال: ﴿وَاللهُ

---

(١) الإستدلال بأفعال الحيوانات، على قدرة الله وحكمته، بأن يقال: مايترتّب على أفعالها من مصالح نفسها وغيرها، أعظم بكثير من مقدار شعورها، فيدلّ ذلك على كونها في فعلها مسخّرة بأمر الله العالم بمصالح الخلق؛ إذ لايمكن أن يكون الأفعال العجيبة التي تصدر عن النحل، والنمل وغيرها صادرة، إلاّ عن فكرة، وروية، وعقل، وتجربة، وليست لهم ذلك، وإلاّ لاختلف فعالها نظير إختلاف أفعال الإنسان، وكذلك أفعال أطفال الإنسان، من البكاء، والخوف، والميل إلى ثدى الأم، وغير ذلك من مصالحهم، أعظم من فكرهم.

﴿خَلَقَكُمْ﴾ أي: أجدكم، وأنعم عليكم بضروب النعم الدينيّة والدنيويّة ﴿ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ﴾ ويقبضكم أي: يميتكم.

﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ﴾ أي: أدون العمر وأوضعه، أي: يبقيه حتى يصير إلى حال الهرم والخوف، فيظهر النقصان في جوارحه، وحواسّه، وعقله. ورووا عن عليّ عليه السلام: إنّ أرذل العمر خمس وسبعون سنة. وروي مثل ذلك عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم. وعن قتادة: تسعون سنة.

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً﴾ أي: ليرجع إلى حال الطفوليّة بنسيان ما كان علمه لأجل الكبر، فكأنّه لا يعلم شيئاً ممّا كان علمه. وقيل: ليقل علمه بخلاف ما كان عليه في حال شبابه ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿قَدِيرٌ﴾ على ما يشاء من تدبيرهم، وتقدير أحوالهم.

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۚ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي
رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ
اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا
وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ
الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾
وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ
إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

القراءة: قرأ أبوبكر عن عاصم: تجحدون ـ بالتاء ـ. والباقون: بالياء.

الحجة: الوجه في القراءة بالياء: أنّه يراد به غير المسلمين؛ لأنّه لا يخاطب المسلم بجحود نعم الله، والوجه في القراءة بالتاء: قل لهم: أفبنعمة الله التي تقدم إقتصاصها تجحدون. ويقوي الياء: قوله: ﴿وَبِنِعْمَتِ اللهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

اللغة: الحفدة جمع حافد. وأصل الحفد: الإسراع في العمل. ومنه: ما جاء في الدعاء: «وإليك نسعى ونحفد». ومرّ البعير يحفد حفداً [وحَفَداناً]: إذا مرّ يسرع في سيره. قال الراعي:

كَلَّفْتُ مَجْهُولَها نُوقاً يَمانِيَةً ... إذا الحُداةُ عَلىٰ أكْسائِها حَفَدُوا[1]

ومنه: قيل للأعوان: حفدة؛ لإسراعهم في الطاعة. قال جميل:

حَفَدَ الْوَلائِدُ حَوْلَها، وَاسْتَسْلَمَتْ ... بِأَكُفِّهِنَّ أَزِمَّةَ الأَجْمالِ

الإعراب: ﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾: جملة إسميّة، وقعت موقع جملة فعليّة، في موضع النصب؛ لأنّه جواب النفي بالفاء، والتقديره: فيستووا ﴿شَيْئاً﴾: إنتصب على أحد وجهين: إمّا أن يكون بدلاً من رزقاً، بمعنى: أنّه لا يملك لهم رزقاً قليلاً ولا كثيراً، وهو قول الأخفش. وإمّا أن يكون مفعولاً لقوله: ﴿رِزْقاً﴾ فكأنّه قال: ما لا يملك لهم أن يرزق شيئاً، وهو ممّا أعلم [أعمل] من المصادر المنوّنة.

المعنى: ثمّ عدَّد سبحانه نعمة منه أخرى، فقال: ﴿وَاللهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ فوسّع على واحد، وقتّر على آخر، على ما توجبه الحكمة ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ أختلف في

---

(١) الضمير في «مجهولها» للمفازة أي: سرت بالنوق في تلك المفازة. والحداة: جمع حادى. وأكساء جمع «كسى» مهموزاً: مؤخّر الشيء وأسفله. يقول: أسرعوا في المشي خلف النوق.

معناه على قولين: أحدهما: أنّهم لا يشركون عبيدهم في أموالهم وأزواجهم، حتى يكونوا فيه سواء، ويرون ذلك نقصاً، فلا يرضون لأنفسهم به، وهم يشركون عبيدي في ملكي وسلطاني، ويوجّهون العبادة والقرب إليهم، كما يوجّهونها إليّ، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ـ. قال ابن عباس: يقول إذا لم ترضوا أن يجعلوا عبيدكم شركاءكم، فكيف جعلتم عيسى إلهاً معه، وهو عبده؟ ونزلت في نصارى نجران. والثاني: إن معناه: فهؤلاء الذين فضّلهم الله في الرزق من الأحرار، لا يرزقون مماليكهم، بل الله تعالى رازق الملاّك والمماليك، فإنّ الذي ينفقه المولى على مملوكه، إنّما ينفقه ممّا رزقه الله تعالى، فالله رازقهم جميعاً، فهم سواء في ذلك.

﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي: أفبهذه النعمة التي عددتها وإقتصصتها، يجحد هؤلاء الكفّار؟ ثمّ عدّد سبحانه نعمة أخرى، فقال: ﴿ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً ﴾ أي: جعل لكم من جنسكم، ومن الذين تلدونهم، نساء جعلهنّ أزواجاً لكم؛ لتسكنوا إليهنّ، وتأنسوا بهن.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ يعني: من هؤلاء الأزواج ﴿بَنِينَ﴾ تسرّون بهم، وتزيّنون بهم.

﴿وَحَفَدَةً﴾ أختلف في معناه: فقيل: هم الخدم والأعوان، ـ عن ابن عباس، والحسن، وعكرمة ـ. وفي رواية الموالبي [الوالبي]: هم أَختانُ الرجل على بناته، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام، وعن ابن مسعود، وإبراهيم، وسعيد بن جبير. وقيل: هم البنون، وبنو البنين، ـ عن ابن عباس في رواية أخرى ـ. ونصّه عنه أيضاً: أنّهم بنو إمرأة الرجل من غيره، في رواية الضحاك. وقيل: البنون: الصغار من الأولاد، والحفدة: الكبار منهم، يسعون معه،

ـ عن مقاتل ـ.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: الأشياء التي تستطيبونها، قد أباحها لكم، وإنّما دخلت ﴿مِن﴾ لأنّه ليس كل ما يستطيبه الإنسان رزقاً له، وإنّما يكون رزقه ما له التصرّف فيه، وليس لأحد منعه منه.

﴿أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ يريد بالباطل: الأوثان، والأصنام، وما حرّم عليهم، وزيّنه الشيطان من البحائر، وغيرها أي: أفبذلك يصدّقون ﴿ وَبِنِعْمَةِ اللهِ ﴾ التي عدّدها ﴿ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ أي: يجحدون. ويريد بنعمة الله: التوحيد، والقرآن ورسول الله ﷺ، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقاً﴾ أي: لا يملك أن يرزقهم ﴿مِنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئاً وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ شيئاً ممّا ذكرناه. وقيل: إنّ رزق السماء: الغيث الذي يأتي من جهتها، ورزق الأرض: النبات، والثمار، وغير ذلك من أنواع النعم التي تخرج من الأرض.

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا لِلهِ الْأَمْثَالَ ﴾ أي: لا تجعلوا لله الأشباه والأمثال في العبادة، فإنّه لا شبه له. ولا مثل، ولا أحد يستحقّ العبادة سواه، وإنّما قال ذلك في إتّخاذهم الأصنام آلهة، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. ﴿ إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ ﴾ أن من كان إلهاً، فإنّه منزّه عن الشركاء ﴿ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ذلك بل تجهلونه، ولو تفكّر تم لعلمتم. وقيل: معناه: والله يعلم ما عليكم من المضرّة في عبادة غيره، وأنتم لا تعلمون، ولو علمتم لتركتم عبادتها.

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ (١)
وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا
وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ
أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ
أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن
يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ
أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

القراءة: في الشواذّ، قراءة ابن مسعود، وعلقمة، والحسن، ومجاهد: ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْ﴾، وروي عن علقمة: ﴿يوَجَّهْ﴾ ـ بفتح الجيم ـ.

الحجة: قال ابن جنّي: أمّا ﴿يُوَجِّهُّ﴾ ـ بكسر الجيم ـ فعلى حذف

---

(١) إستدلّ الجصاص وغيره بهذه الآية، على أنّ العبد لايملك شيئاً. وهو ضعيف؛ لأنّ «لايقدر على شيء» لايدلّ على لايملك شيئاً، كما قال تعالى: أحدهما أبكم لايقدر على شيء، وحمله على العبد الأبكم بعيد جدّاً. وكما قال تعالى: للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لايستطيعون حيلة. وأيضاً فإنّ الصغير والمجنون والمحبوس والجنين لايقدرون على شيء، ويملكون إجماعاً. فإنّ إستدلّ أحد، بما ورد في ذلك من النبيّ صلى الله عليه وآله أو الحجج المعصومين عليهم السلام، فهو إستدلال بالسنة، لا بالكتاب. وقول الجصاص ـ لافرق بين العبد والحرّ في القدرة ـ باطل؛ لأنّ العبد محبوس في خدمة المولى، والمحبوس غير قادر على الكسب لنفسه.

المفعول، أي: أينما يوجّه وجهه، فحذف؛ للعلم به. وأقول: إنّ نظيره ما جاء في المثل: «أينما أوجّه ألق سعداً» ومعناه: أينما أوجّه وجوه ركابي وسعد قبيلته، أي: كل الناس قبيلتي في التحاسد. وأمّا «يوجَّه» ـ فتح الجيم ـ، فمعناه: أينما يرسل، أو يبعث، لا يأت بخير.

اللغة: الأبكم: الذي يولد أخرس لا يفهم، ولا يفهم. وقيل: الأبكم الذي لا يمكنه أن يتكلّم. والكَلّ: الثقل. يقال كلّ عن الأمر يكلّ كلاً: إذا ثقل عليه، فلم ينبعث فيه. وكلّت السكين كلولاً: إذا غلظت شفرتها، وكلّ لسانه: إذا لم ينبعث في القول لغلظه، وذهاب حدّه. فالأصل فيه الغلظ المانع من النفوذ. والتوجيه: الإرسال في وجه من الطريق. يقال: وجّهته إلى موضع كذا، فتوجّه إليه.

الإعراب: ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾: رزقاً مفعول ثان لـ«رزقناه» وفي هذا دليل على أنّ «رزق» يتعدّى إلى مفعولين، ألا ترى أنّ قوله: ﴿رِزْقاً حَسَناً﴾ لو كان مصدراً، لما جاز أن يقول فهو ينفق منه؛ لأنّ الإنفاق إنّما يكون من المال، لا من الحدث الذي هو المصدر.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه للمشركين أمر ضلالتهم، فقال: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾[1] أي: بيّن الله مثلاً فيه بيان المقصود، تقريباً للخطاب إلى أفهامهم. ثمّ ذكر ذلك المَثَل، فقال: ﴿عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ﴾ من أمره ﴿عَلَى شَيْءٍ﴾. ﴿وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً﴾ يريد: وحرّاً رزقناه، وملكناه مالاً، ونعمة ﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً﴾ لا يخاف من أحد.

---

(١) ويدلّ هذه الآية على كون العبد محجوراً عن التصرّف، وإن قلنا بملكه، فلايصحّ منه عقد النكاح لنفسه، ولغيره، والبيع، والوكالة، واليمين، والعهد، إلاّ أن يثبت شيء بدليل، كالطلاق، وذلك لأنّ قوله تعالى: لايقدر على شيء، ليس قيداً إحترازيّاً، بل هو تأكيد؛ إذ ليس العبد على قسمين: عبد يقدر، وعبد لايقدر.

﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ ولم يقل: يستويان؛ لأنّه أراد بقوله: ﴿ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ ﴾ وقوله: ﴿ عَبْداً مَمْلُوكاً﴾: الشيوع في الجنس، لا التخصيص، يريد أنّ الإثنين المتساويين في الخلق، إذا كان أحدهما مالكاً قادراً على الإنفاق، والآخر عاجزاً عن الإنفاق، لا يستويان، فكيف يستوي بين الحجارة التي لا تعقل، ولا تتحرّك، وبين الله عز إسمه، القادر على كل شيء، الخالق الرازق لجميع خلقه؟ وهذا معنى قول المجاهد، والحسن. وقيل: إنّ هذا المثل للكافر والمؤمن، فإنّ الكافر لا خير عنده، والمؤمن يكسب الخير، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. نبّه الله سبحانه بذلك على إختلاف حاليهما، ودعا إلى حال المؤمن، وصرف عن حال الكافر.

﴿ الْحَمْدُ لِلّهِ ﴾ أي: الشكر لله نعمه، وفيه إشارة إلى أنّ النعم كلّها منه. وقيل: معناه: قولوا الحمد لله الذي دلّنا على توحيده ومعرفته، وهدانا إلى شكر نعمة، وأوضح لنا السبيل إلى جنّته ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ يعني: أنّ أكثر الناس وهم المشركون، لا يعلمون أنّ الحمد لي، وأنّ جميع النعمة منّي.

ثمّ ضرب سبحانه مثلاً آخر، فقال: ﴿ وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ من الكلام؛ لأنّه لا يفهم، ولا يُفهَم عنه. وقيل: معناه: لا يقدر أن يريد أن يدبر أمر نفسه ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ ﴾ أي: ثقل ووبال على وليّه الذي يتولّى أمره ﴿ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ﴾ معناه: أنّه لا منفعة لمولاه فيه، أينما يرسله في حاجة، لا يرجع بخير، ولا يهتدي إلى منفعة.

﴿ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ ﴾ أي: هذا الأبكم الموصوف بهذه الصفة ﴿ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ﴾ أي: ومن هو فصيح يأمر بالعدل والحقّ، ويدعواإلى الثواب والبرّ ﴿وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين قويم، وطريق واضح فيما يأتي به، ويذر. والمراد: أنّهما لا يستويان قطّ؛ لأنّه لا جواب لهذا الكلام، إلاّ النفي، وهذا كما قال: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لاَ يَسْتَوُونَ﴾.

وقيل: في معنى هذا المثل أيضاً قولان: أحدهما: أنّه مثل ضرب الله تعالى فيمن يؤمل الخير من جهته، ومن لا يؤمل منه. وأصل الخير كلّه من الله تعالى، فكيف يستوي بينه وبين شيء سواه في العبادة؟ والآخر: أنّه مثل للكافر والمؤمن، فالأبكم الكافر، والذي يأمر بالعدل: المؤمن ـ عن ابن عباس ـ وقيل: ارنّ الأبكم: أبي بن خلف، ومن يأمر بالعدل: حمزة وعثمان بن مظعون، ـ عن عطاء ـ. وقيل: إنّ الأبكم: هاشم بن عمر بن الحارث القرشيّ، وكان قليل الخير، يعادي رسول الله ﷺ، ـ عن مقاتل ـ.

ثمّ وصف سبحانه نفسه مؤكّداً لما قدّم ذكره من أوصاف الكمال، فقال: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ومعناه: أنّه المختصّ بعلم الغيب، وهو ما غاب عن جميع الخلائق، ممّا يصحّ أن يكون معلوماً. قال الجبائي: ويمكن أن يكون المعنى: ولله ما غاب عنكم ممّا في السماوات والأرض.

ثمّ قال: ﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ ﴾ في قدرته ﴿ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ ﴾ أي: كطرف العين. وقيل: كردّ البصر. قال الزجّاج: وما أمر إقامة الساعة في قدرته، إلاّ كلمح البصر أي: لا يتعذّر عليه شيء ﴿أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ من ذلك، وهو مبالغة في ضرب المثل به في السرعة. ودخول «أو» هنا لأحد أمرين: إمّا للإبانة على أنّه على إحدى هاتين المنزلتين، وإمّا لشكّ المخاطب. وقيل: معناه: بل هو أقرب ﴿ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ فهو قادر على إقامة الساعة، وعلى كل شيء يريده؛ لأنّ القدير مبالغة في صفة القادر.

النظم: وجه إتّصاله بما قبله: أنّ أمر القيامة من الأمور الغائبة، ومن أعظمها وأهمّها؛ لما فيه من الثواب والعقاب، والإنصاف. والساعة: إسم لإماتة الخلق، وإحيائهم.

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا (١) وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾

القراءة: قد ذكرنا القراءة في ﴿ أُمَّهَاتِكُمْ ﴾ في سورة النساء. وقرأ ابن عامر، وحمزة، ويعقوب، وسهل، وخلف: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ بالتاء. والباقون: بالياء. وقرأ أهل الكوفة، وابن عامر: ﴿ظَعْنِكُمْ﴾ ساكنة العين. والباقون: بفتح العين.

الحجة: من قرأ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا﴾ ـ بالتاء ـ، فإنّه يدلّ عليه ما قبله من قوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ﴾ و﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. ومن قرأ بالياء، فإنّه على وجه التنبيه لمن تقدّم ذكرهم من الكفّار والظعَن والظعْن ـ بفتح العين وسكونها ـ: لغتان. ومثله: النَّهْر، والنَّهر. والشَّمْع والشَّمع. قال الأعشى:

فَقَدْ أَشْرَبُ الرّاحَ قَدْ تَعْلَمِينَ ... يَوْمَ الْمَقامِ وَيَوْمَ الظَّعَنْ

قال أبو عليّ: ولا يجوز أن يكون الظعن مخفّفاً عن الظعن، كما أنّ «عَضْداً»

---

(١) ومضى الإختلاف في «بيوتكم».

مخفّف عن «عَضُد»، و«كتفاً» مخفّفاً عن «كتف»، ألا ترى أنّ من قال ذلك لم يخفّف نحو: جمل ورسن، كما أنّ الذي يقول: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾، و﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ لا يقول: والليل إذا يغش. وحرف الحلق وغيره في ذلك سواء.

(اللغة): الأمّهات: أصله الأمات، ولكن الهاء زيدت مؤكّدة، كما زادوها في أهرقت الماء، والأصل أرقت الماء. والأفئدة: جمع فؤاد، كما يقال: غراب وأغربة، ولم يجمع الفؤاد على أكثر العدد ولم يقل فيه: فئدان، كما قالوا: غربان. الجوّ: الهواء البعيد من الأرض، وأبعد منه: السُكاك واللّوح. وواحد السكاك: سكاكة، ـ عن الزجّاج ـ. قال الشاعر:[١]

وَيْلُمِّها فِي هَوْاءِ الجَوِّ طالِبَةً ... وَلا كَهٰذَا الَّذِي فِي الأَرضِ مَطْلُوبُ(١)

والسكن: كل ما يسكن إليه. والسكن أيضاً: المسكن. قال الفرّاء: السكَن ـ بفتح الكاف ـ: الدار، وبسكونها: أهل الدار. ومنه: الحديث: إنّ الرمانة لتشبع السكن. وأصله من السكون الذي هو ضدّ الحركة، وهما من جنس الأكوان التي يكون الجسم بها كائناً في الجهات. ومنه: السكين؛ لأنّه يسكن حركة المذبوح. والأثاث: متاع البيت الكثير، من قولهم: شعر أثيث أي: كثير. وأثّ النبت يأث أثّاً: إذا كثر وإلتفّ. وكذلك الشعر. ولا واحد لـ«الأثاث»، كما أنّه لا واحد لـ«المتاع»، قال الشاعر:

أَهٰاجَتْكَ الظَّعائِنُ يَوْمَ بانُوا ... بِذِي الرِّئِيِ[الزِّيّ] الْجَمِيلِ مِنَ الاَثاثِ[٢]

---

(١) يعني: إنّ ما يطير في السماء، ويطلب، ويظفر بمقصوده، ليس كالذي هو في الأرض مطلوب، ويظفر به.

[١] قائله: امرىء القيس.

[٢] قائله: محمّد بن نُمير الثقفي.

الإعراب: قوله: ﴿لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ في موضع نصب؛ على الحال، من الكاف والميم. وقوله: ﴿شَيْئاً﴾ يجوز أن يكون منتصباً على المصدر أي: لا تعلمون علماً، ويجوز أن يكون مفعولاً، ويكون ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بمعنى: تعرفون؛ لإقتصاره على مفعول واحد و ﴿أَثَاثاً وَمَتَاعاً﴾: نصب بيجعل أي: يجعل لكم أثاثاً ومتاعاً.

المعنى: ثمّ عدد سبحانه نعماً له أخر، فقال: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ منعماً عليكم بذلك، وأنتم ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ من منافعكم، ومضارّكم في تلك الحال.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ أي: تفضّل عليكم بالحواسّ الصحيحة، التي هي طرق إلى العلم بالمدركات، وتفضّل عليكم بالقلوب التي تفقهون بها الأشياء؛ إذ هي محلّ المعارف ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: لكي تشكروه على ذلك، وتحمدوه.

ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم من الدلائل بدلالة أخرى، فقال: ﴿أَلَمْ يَرَوْا﴾ أي: ألم تتفكّروا، وتنظروا ﴿إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ﴾ أي: كيف خلقها الله؟ خلقه يمكنها التصرّف في جوّ السماء، صاعدة ومنحدرة، وذاهبة وجائية، مذلّلات للطيران في الهواء بأجنحتها، تطير من غير أن تعتمد على شيء.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللهُ﴾ أي: ما يمسكهنّ من السقوط على الأرض من الهواء إلاّ الله، فيمسك الهواء تحت الطير، حتى لا ينزل فيه، كإمساك الماء تحت السائح في الماء، حتى لا ينزل فيه، فجعل إمساك الهواء تحتها، إمساكاً لها على التوسّع، فإن سكونها في الجوّ، إنّما هو فعلها. فالمعنى: ألم تنظروا في ذلك، فتعلموا أنّ لها مسخّراً ومدبّراً لا يعجزه شيء، [ولا يتعذّر عليه شيء] وإنّه إنّما خلق ذلك؛ ليعتبروا به، فيَصِلوا إلى الثواب الذي عرضهم له، ولو كان فعل ذلك لمجرّد الأنعام

على العبيد، لكان حسناً، لكنّه سبحانه وتعالى، ضمَّ إلى ذلك التعريض للثواب.

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ ﴾ أي: دلالات على وحدانيّة الله تعالى وقدرته ﴿ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنّهم الذين إنتفعوا به. ثمّ عدّد سبحانه نعماً أخر في الآية الأخرىٰ، فقال: ﴿وَاللَّهُ

جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً ﴾ أي: موضعاً تسكنون فيه، ممّا يتّخذ من الحجر والمدر، وذلك أنّه سبحانه خلق الخشب والمدر، والآلة التي يمكن بها تسقيف البيوت، وبناؤها.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ يعني: الإنطاع والأدم ﴿بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا﴾ أي: قباباً وخياماً يخفّ عليكم حملها في أسفاركم ﴿ يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ﴾ أي: إرتحالكم من مكان إلى مكان. وقيل: معنى الظعن: سير أهل البوادي لنجعة، أو حضور ماء، أو طلب مرتع. ﴿ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ) أي: اليوم الذي تنزلون موضعاً تقيمون فيه [أي:] لا يثقل عليكم في الحالتين.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ وهي للضأن ﴿ وَأَوْبَارِهَا ﴾ وهي للإبل ﴿ وَأَشْعَارِهَا ﴾ وهي للمعز ﴿أَثَاثاً﴾ أي: مالاً، ـ عن إبن عبّاس ـ. وقيل: نوعاً من متاع البيت من الفراش والأكسية. وقيل: طنافس وبسطاً، وثياباً وكسوة، والكلّ متقارب ﴿ وَمَتَاعاً﴾ تتمتّعون به، ومعاشاً تتّجرون فيه.

﴿ إِلَى حِينٍ ﴾ أي: إلى يوم القيامة، ـ عن الحسن ـ. وقيل: إلى وقت الموت، عن الكلبي. ويحتمل أن يكون أراد به: موت المالك، أو موت الأنعام. وقيل: إلى وقت البلى والفناء. وفيه إشارة إلى أنّها فانية، فلا ينبغي للعاقل أن يختارها على نعيم الآخرة.

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ
مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ
عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا
وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ
شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ
﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ[1] ﴿٨٥﴾

(اللغة): الأكنان: جمع كنّ، وهو الموضع الذي يستتر صاحبه فيه. ويقال: كننت الشيء في كنّه أي: خسة واكتنه أي: أخفيته، وكل ما لبسته من قميص، أو درع، أو جوشن، أو غيره، فهو كنّ. قال الزجّاج. والعتب الموجدة. يقال: عتب عليه يعتب: إذا وجد عليه، فإذا فاوضه ما عتب عليه، قالوا: عاتبه، وإذ رجع إلى مسرته، قيل: أعتب. والإسم: العتبى، وهو رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب. وإستعتبه: طلب منه أن يعتب. قال أبو مسلم: الإستعتاب مأخوذ من

---

(١) جعل لكم: ثمانيةٌ في هذه السورة، أدغمها أبو عمرو، ويقف حمزة على «أكناناً» بتحقيق الهمزة وإبدالها ياء. وكتبوا «نعمت» بالتاء، ووقف عليها عاصم وحمزة وإبن عامر ونافع. والباقون من السبعة: بالهاء، وهي ثلث في هذه السورة. والحكم في جميعها ماذكر؛ لكونها مكتوبة بالتاء.

العتاب، والعتب. وأصله: دبغ الأديم، وهو عتابه. وفي المثل: إنّما يعاتب الأديم ذو البشرة. يقال: عتبت على فلان، وإستعتبته: إذا أنكرت منه فعلاً، وإستنزلته عنه، وأردت إصلاحه. وأعتبك فلان: إذا صار لك إلى ما تحبّ، وزال عمّا تكره.

﴿الإعراب﴾: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: شرط، تقديره: فإن تولّوا لم يلزمك تقصير من أجل توليتهم، فإنّ الذي عليك هو البلاغ، إلاّ أنّه حذف الجزاء؛ لدلالة الكلام عليه. ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾: في محلّ الرفع؛ لوقوع الإذن عليه.

﴿المعنى﴾: ثمّ عدّد سبحانه نعماً أخر، أضافها إلى ما عدّده قبل من نعمه، فقال: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ﴾ من الأشجار، والأبنية ﴿ظِلاَلاً﴾ أي: أشياء تستظلّون بها في الحرّ والبرد.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَاناً﴾ أي: مواضع تسكنون بها من [كهوف] وثقوب، وتأوون إليها، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ﴾ أي: قميصاً من القطن البرد، والكتان والصوف ـ عن إبن عباس وقتادة ـ ﴿تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ ولم يقل: تقيكم البرد؛ لأنّ ما وقى الحرّ وقى البرد. وإنّما خصّ الحرّ بذلك، مع ـ أنّ وقايتها للبرد أكثر؛ لأنّ الذين خوطبوا بذلك أهل حرّ في بلادهم، فحاجتهم إلى ما يقي الحرّ أكثر، ـ عن عطا ـ. على أنّ العرب تكتفى بذكر أحد الشيئين عن الآخر؛ للعلم به، كما قال الشاعر:[١]

وَمَا أَدْرِي إِذَا يَمَّمْتُ أَرضاً ... أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهمَا يَلِينِي

فكنّي عن الشرّ، ولم يذكره؛ لأنّه مدلول عليه، ذكره الفرّاء.

﴿وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ﴾ يعني: دروع الحديد، تقيكم شدّة الطعن والضرب، وتدفع عنكم سلاح أعدائكم ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: مثل ما جعل لكم هذه

---

[١] قائله: المثقّب العبدي.

الأشياء، وأنعم بها عليكم ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ يريد نعمة الدنيا. ويدلّ عليه قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ قال إبن عباس: معناه: لعلّكم يا أهل مكّة تعلمون أنّه لا يقدر على هذا غيره. فتوحّدوه، وتصدّقوا رسوله.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ هذا تسلية للنبيّ ﷺ، ومعناه: فإن أعرضوا عن الإيمان بك يا محمّد، والقبول عنك، وعن التدبّر لما عدّدته في هذه السورة من النعم، وبيّنت فيها من الدلالات، فلا عتب عليك، ولا لوم؛ فإنّما عليك البلاغ الظاهر. وقد بلغت كما أمرت. والبلاغ: الإسم، والتبليغ: المصدر، مثل: الكلام والتكليم.

ثمّ أخبر سبحانه عن الكفّار، فقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ أي: يعرفون نعم الله تعالى عليهم، بما يجدونه من خلق نفوسهم، وإكمال عقولهم، وخلق أنواع المنافع التي ينتفعون بها لهم. ثمّ إنّهم مع ذلك ينكرون تلك النعم، أن تكون من جهة الله تعالى خاصّة، بل يضيفونها إلى الأوثان، ويشكرون الأوثان عليها، يقولون: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا، فيشركونهم معه فيها، وقيل: إنّ معناه: يعرفون محمّداً ﷺ، وهو من نعم الله سبحانه، ثمّ يكذبونه ويجحدونه، ـ عن السدّي ـ.

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ إنّما قال: أكثر هم؛ لأنّ منهم من لم تقم الحجّة عليه؛ إذ لم يبلغ حدّ التكليف لصغره، أو كان ناقص العقل مأوفاً، أو لم تبلغه الدعوة، فلا يقع عليه إسم الكفر. وقيل: إنّما ذكر الأكثر؛ لأنّه علم سبحانه أنّ فيهم من يؤمن. وقيل: إنّه من الخاصّ في الصيغة، العامّ في المعنى، ـ عن الجبائي ـ. وقريب منه: قول الحسن، أراد جميعهم الكافرون، وإنّما عدل عن البعض؛ إحتقاراً له أن يذكره.

وفي هذه الآية دلالة على فساد قول المجبرة: أنّه ليس لله تعالى على الكافر نعمة، وأنّ جميع ما فعله بهم، إنّما هو خذلان ونقمة، لأنه سبحانه نصّ في هذه الآية على خلاف قولهم.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ يعني: يوم القيامة، بيّن سبحانه أنّه يبعث فيه من كل أمّة شهيداً، وهم الأنبياء، والعدول عن كل عصر، يشهدون على الناس

بأعمالهم. وقال الصادق عليه السلام: لكل زمان وأمّة إمام، تبعث كل أمّة مع إمامها. وفائدة بعث الشهداء مع علم الله سبحانه بذلك: أنّ ذلك أهول في النفس، وأعظم في تصوّر الحال، وأشدّ في الفضيحة إذا قامت الشهادة بحضرة الملأ، مع جلالة الشهود وعدالتهم عند الله تعالى؛ ولأنّهم إذا علموا أنّ العدول عند الله يشهدون عليهم بين يدي الخلائق، فإنّ ذلك يكون زجراً لهم عن المعاصي. وتقديره: واذكر يوم نبعث.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: لا يؤذن لهم في الكلام والإعتذار ـ عن إبن عبّاس ـ كما قال: ولا يؤذن لهم فيعتذرون وقيل: معناه: لا يؤذن لهم في الرجوع إلى الدنيا. وقيل: معناه: لا يسمع منهم العذر. يقال: أذنت له أي: إستمعت، كما قال عدي بن زيد:

فِي سِمَاعٍ يَأْذَنُ الشَّيْخُ لَهُ ... وَحَدِيثٍ مِثْلِ مَاذِيٍّ مُشَارِ[1]

عن أبي مسلم: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: لا يسترضون، ولا يستصلحون. كما كان يفعل بهم في دار الدنيا؛ لأنّ الآخرة ليست بدار تكليف، ومعناه: لا يسألون أن يرضوا الله بالكفّ عن معصية يرتكبونها.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ معناه: إذا رأى الذين أشركوا بالله تعالى النار ﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾ العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ أي: لا يمهلون، ولا يؤخّرون، بل عذابهم دائم في جميع الأوقات، فإنّ وقت التوبة والندم قد فات.

النظم: وجه إتّصال قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ بما قبله: أنّه سبحانه أمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يذكرهم بهذه النعم، ويحتجّ عليهم بهذه الحجج، فإن أسلموا فذاك، وإن أعرضوا فلا شيء على الرسول، فإنّما عليه البلاغ المبين فقط.

ووجه إتّصال الآية الأخيرة بما قبلها، وهي قوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً﴾ أنّها تتّصل بقوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ لأنّ المعنى: أن

---

(١) يأذن أي: يسمع. والماذيّ: العسل الأبيض. والمُشار: المجنى.

نجازيهم على أعمالهم، يوم نبعث من كل أمّة شهيداً. وقال أبو مسلم. إنّه عطف على قوله: ﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَاكُمْ﴾ يريد: ثمّ يبعثكم يوم يبعث من كل أمّة شهيداً.

وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ (١) وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

(اللغة): تقول: ألقيت الشيء: إذا طرحته. واللقي: الشيء الملقى. وألقيت

---

(١) كتبوا: إيتاى ـ بياء بعد الألف. وحفظ المتأخّرون هذا الرسم، حتى لايتطرّق التغيير إلى القرآن الكريم، ولكن يفند الجاهل هذه التقيّدات؛ لعدم تفطّنه لمزايا الأمور. ويقف حمزة على أمثال هذه الهمزات المكتوبة بالياء بعد الألف، بإبدال الثانية ألفاً، أو ياء مع المدّ، والقصر، والتوسّط وبالتسهيل كالياء مع المدّ، والقصر، وبالياء والقصر مع روم حركتها فهذه تسعة. وفي الهمزة الأولى التحقيق وبين بين، لتوسّطها. ومضى الكلام في «تذكرون».

إليه مقالة أي: قلتها له. وتلقاها: إذا قبلها. والسَلَم: الإستسلام، والإنقياد. والتبيان والبيان، واحد. الأزهري قال: العرب تقول: بيّنت الشيء تَبييناً وتِبياناً.

المعنى: ثمّ أبان سبحانه عن حال المشركين يوم القيامة، فقال: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ﴾ يعني: الأصنام والشياطين الذين أشركوهم مع الله في العبادة. وقيل: سمّاهم شركاءهم لأنّهم جعلوا لهم نصيباً من الزرع والأنعام، فهم إذا شركاؤهم على زعمهم.

﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ﴾ أي: يقولون: هؤلاء شركاؤنا التي أشركناها معك في الإلهيّة والعبادة، وأضلّونَا عن دينك، فحملهم بعض عذابنا.

﴿فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ معناه: فقالت الأصنام، وسائر ما كانوا يعبدونه من دون الله بإنطاق الله تعالى إيّاهم لهؤلاء، إنّكم لكاذبون في أنّا أمرناكم بعبادتنا، ولكنّكم إخترتم الضلال بسوء إختياركم لأنفسكم. وقيل: إنّكم لكاذبون في قولكم: إنّا آلهة، وإلقاء المعنى إلى النفس: إظهاره لها حتى تدركه، متميّزاً عن غيره.

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾ معناه: وإستسلم المشركون، وما عبدوهم من دون الله، لأمر الله، وإنقادوا لحكمه يومئذٍ، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: إنّ المشركين زال عنهم نخوة الجاهليّة، وإنقادوا قسراً لا إختياراً، وإعترفوا بما كانوا ينكرونه من توحيد الله تعالى.

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أي: بطل ما كانوا يأملونه، ويتمنّونه من الأماني الكاذبة، من أنّ آلهتهم تشفع لهم، وتنفع ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: أعرضوا عن دين الله. وقيل: صدّوا غيرهم عن إتّباع الحقّ الذي هو سبيل الله. وقيل: [صدّوا] المسلمين عن البيت الحرام، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ أي: عذّبناهم على صدّهم عن دين الله زيادة على عذاب الكفر. وقيل: زدناهم الأفاعي والعقارب في النار، لها أنياب كالنخل الطوال، ـ عن إبن مسعود ـ. وقيل: هي أنهار من صفر مذاب كالنار، يعذّبون بها، ـ عن إبن عباس، ومقاتل ـ. وقيل: زيدوا حيات كأمثال الفيلة، والبخت، و[عقاب] كالبغال الدلم، ـ عن سعيد بن جبير ـ.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: من أمثالهم من البشر، ويجوز أن يكون ذلك الشهيد نبيّهم الذي أرسل إليهم. ويجوز أن يكون المؤمنون العارفون. يشهدون عليهم بما فعلوه من المعاصي. وفي هذا دلالة على أنّ كل عصر لا يجوز أن يخلو ممّن يكون قوله حجّة على أهل عصره، وهو عدل عند الله تعالى، وهو قول الجبائي، وأكثر أهل العدل. وهذا يوافق ما ذهب إليه أصحابنا، وإنّ خالفوهم في أن ذلك العدل والحجّة [من] هو.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾ يا محمّد ﴿شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ يريد على قومك وأمّتك. وإنّما أفرده بالذكر؛ تشريفاً له. وتمّ الكلام هيهنا.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يعني: القرآن ﴿تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بياناً لكل أمر مشكل، ومعناه: ليبيّن كل شيء يحتاج إليه من أمور الشرع، فإنّه ما من شيء يحتاج الخلق إليه في أمر من أمور دينهم، إلاّ وهو مبين في الكتاب، إمّا بالتنصيص عليه، أو بالإحالة على ما يوجب العلم من بيان النبيّ ﷺ والحجج القائمين مقامه، أو إجماع الأمّة[1]، فيكون حكم الجميع في الحاصل مستفاداً

---

(١) بقوله: ما آتيكم الرسول فخذوه وما نهيكم عنه فإنتهوا، وبقوله تعالى: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم. والأمر بمتابعة الاجماع عندنا، مرجعه إلى متابعة الحجج عليهم السلام وإنّما الإجماع طريق إلى العلم بأمرهم عليهم السلام، وذلك لأنّ العلم بإتّفاق جميع الأمّة الحاصل من إتّفاق من رأيناهم علم إجمالي بمذهب الإمام المعصوم عليه السلام.

من القرآن.

﴿وَهُدىً وَرَحْمَةً﴾ أي: ونزّلنا عليك القرآن؛ دلالة إلى الرشد، ونعمة على الخلق؛ لما فيه من الشرائع والأحكام؛ ولأنّه يؤدّي إلى نعم الآخرة ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: بشارة لهم بالثواب الدائم، والنعيم المقيم.

﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ وهو الإنصاف بين الخلق، و[التعامل] بالإعتدال الذي ليس فيه ميل، ولا عوج.

﴿وَالإِحْسَانِ﴾ إلى الناس، وهو التفضّل. ولفظ الإحسان جامع لكل خير. والأغلب عليه إستعماله في التبرّع بإيتاء المال، وبذل السعي الجميل. وقيل: العدل: التوحيد، والإحسان: أداء الفرائض، ـ عن إبن عبّاس، وعطاء ـ. وقيل: العدل: في الأفعال، والإحسان: في الأقوال، فلا يفعل إلا ما هو عدل، ولا يقول إلاّ ما هو حسن. وقيل: العدل: أن ينصف، وينتصف، والإحسان: أن ينصف، ولا ينتصف.

﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ أي: ويأمركم بإعطاء الأقارب حقّهم بصلتهم، وهذا عامّ. قيل: المراد بذي القربى: قرابة النبيّ ﷺ الذين أرادهم الله بقوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾ على ما مرّ تفسيره، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام قال: نحن هم.

﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ إنّما جمع بين الأوصاف الثلاثة في النهي، مع أنّ الكل منكر فاحش؛ ليبيّن بذلك تفضيل ما نهى عنه؛ لأنّ الفحشاء قد يكون ما يفعله الإنسان في نفسه من القبيح، ممّا لا يظهره. والمنكر: ما يظهره للناس ممّا يجب عليهم إنكاره. والبغي: ما يتطاول به من الظلم لغيره. وقيل: إنّ الفحشاء: الزنا، والمنكر: ما ينكره الشرع، والبغي: الظلم [والكفر] ـ عن إبن عبّاس ـ. وقيل: إنّ العدل: إستواء السريرة والعلانية، والإحسان: أن تكون السريرة أحسن من العلانية، والفحشاء والمنكر أن تكون العلانية أحسن من

السريرة، ـ عن سفيان بن عيينة ـ.

﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ معناه: يعظكم بما تضمّنت هذه الآية من مكارم الأخلاق؛ لكي تتذكّروا، وتتفكّروا، وترجعوا إلى الحقّ. قال عبدالله بن مسعود: هذه الآية أجمع آية في كتاب الله للخير والشرّ. قال قتادة: أمر الله سبحانه بمكارم الأخلاق، ونهاهم عن سفاسف[١] الأخلاق. وجاءت الرواية أنّ عثمان بن مظعون قال: كنت أسلمت إستحياء من رسول الله ﷺ لكثرة ما كان يعرض عليّ الإسلام، ولما يقرّ الإسلام في قلبي، فكنت ذات يوم عنده، حال تأمّله، فشخص بصره نحو السماء، كأنّه يستفهم شيئاً، فلمّا سري عنه، سألته عن حاله، فقال: نعم بينا أنا أحدثك، إذ رأيت جبرائيل في الهواء، فأتاني بهذه الآية: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ وقرأها عليّ إلى آخرها. فقرَّ الإسلام في قلبي.

وأتيت عمّه أبا طالب، فأخبرته، فقال: يا آل قريش! إتّبعوا محمّداً ﷺ ترشدوا، فإنّه لا يأمركم إلاّ بمكارم الأخلاق. وأتيت الوليد بن المغيرة، قرأت عليه هذه الآية، فقال: إن كان محمد قاله، فنعم ما قال، وإن قاله ربّه، فنعم ما قال. قال: فأنزل الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ﴾ يعني: قوله فنعم ما قال. ومعنى قوله: ﴿وَأَكْدَىٰ﴾: أنه لم يقم على ما قاله وقطعة. وعن عكرمة قال: إنّ النبيّ ﷺ قرأ هذه الآية على الوليد بن المغيرة، فقال: يابن أخي! أعِدْ. فأعاد، فقال: إنّ له لحلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّ أعلاه لمثمر، وإنّ أسفله لمغدق، وما هو قول البشر!!

﴿النَّظْمُ﴾: وجه إتّصال قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ بما

---

[١] السفساف: الرديء من كل شيء.

قبله: أنّه سبحانه لمّا بيّن أنّ الأنبياء تشهد على أممهم يوم القيامة، بيّن عقيبه أنّه سبحانه قد كلّف الجميع، وأزاح عللهم في التكليف، بأن أنزل القرآن بما فيه من البيان، والهداية، والرحمة، والبشارة لأهل الإيمان، وأنّهم إذا عوقبوا فإنّما أتوا في ذلك من قبل نفوسهم، وهذا كلّه ممّا يدخل في الشهادة. ووجه إتّصال قوله: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ الآية، بما قبله: أنّه سبحانه لمّا ذكر القرآن، بيّن عقيبه ما يأمر به وينهى عنه فيه. وقيل: إنّه يتّصل بقوله: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ﴾ كأنّه قال بعد ذكر القيامة والشهود، إنّه يأمر بالعدل، وينهى عن الظلم، فإعلموا أنّه سبحانه لا يظلم أحداً، بل يعدل ويتفضّل، ولذلك جاء بالشهود ليشهدوا على أممهم، أنّهم أتوا فيما لاقوه من العذاب من قبل أنفسهم.

وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ
بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ
غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا
بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ
ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾
وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن
يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا

وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١) ﴿٩٤﴾

اللغة: التوكيد: التشديد. وأوكد عقدك أي: شدّه، وهي لغة أهل الحجاز، وأهل نجد، يقولون: أكّدت تأكيداً. والأنكاث: الأنقاض، واحدها: نكث. والنكث: المصدر. وهذا قول لا نكثة فيه أي: لا خلف. وكل شيء نقض بعد الفتل، فهو انكاث، حبلاً كان أو غزلاً. والحبل منتكث أي: منتقّض. ومنه: سمّوا من تابع الإمام طائعاً، ثّم خرج عليه ناكثاً؛ لأنّه نقض ما وكد على نفسه بالإيمان والعهود، كفعل الناكثة غزلها. والدخل: ما أدخل في الشيء على فساد. وقيل: الدخل: الدغل والخديعة، وإنّما قيل: الدخل؛ لأنّ داخل القلب على ترك الوفاء، والظاهر على الوفاء. قال أبو عبيدة: كل أمر لم يكن صحيحاً، فهو دخل، وكل ما دخله عيب فهو مدخول. وأربي: أفعل، من الربا، وهو الزيادة. ومنه: الربوة، والربا في المال، وأربى فلان للزيادة التي [يزيدها] على عزيمة في رأس ماله. قال الشاعر:

وَأَسْمَرَ خَطِّيَّ كَأَنَّ كُعُوبَهُ نَوَى الْقَسْبِ قَدْ أَرْبَى ذِراعاً عَلَى الْعَشْرِ (٢)

الإعراب: ﴿أَنكَاثاً﴾: منصوب؛ لأنّه في معنى المصدر. ﴿دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾:

---

(١) والظاهر أنّ العهد واليمين كليهما واحد، والآيات تدلّ على وجوب الوفاء بالعهد واليمين بأبلغ وجه. ومضى ماذكره أصحابنا من عدم صحّة اليمين على فعل الحرام وترك الواجب، بل على فعل المكروه وترك المستحبّ أيضاً، وماورد من أنّ من حلف على شيء، ورأى غيره خيراً منه، جاز تركه. فالمراد منه ذلك، لا أنّ من حلف، أو عاهد الله على الحجّ مثلاً، ثمّ رأى أنّ الصدقة أفضل من الحجّ، فعل الصدقة، وكذا لو نذر صوم السبت، فرأى صوم الخميس أفضل.

(٢) القسب: نوع من التمر اليابس، شبّه كعوب الرمح بنواه: والضمير في «أربى» للأسمر، يصف الرمح بالطول.

منصوب؛ لأنّه مفعول له، والمعنى: تتّخذون أيمانكم للدخل والغشّ. وقوله: ﴿أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ﴾، على تقدير: بأن تكون أمّة. ﴿هِيَ أَرْبَىٰ﴾: موضع ﴿أَرْبَىٰ﴾ رفع، مبتدأ وخبر، وكلاهما في محلّ النصب؛ بأنّه خبر كان. وقال الفرّاء: إنّ موضع ﴿أربى﴾ نصب، وهي عماد. وهذا لا يجوز؛ لأنّ الفصل الذي يسمّيه الكوفيّون عماداً، لا يدخل بين النكرة وخبرها، وقد أخطأ أيضاً: بأن شبه ذلك بقوله: ﴿تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْراً﴾ فإنّ الهاء في «تجدوه» معرفة، وهيهنا ﴿أُمَّةً﴾ نكرة، فلا يشبه ذلك. ويجوز أن تكون الجملة صفة لـ«أمّة»، ولا يحتاج ﴿تَكُونَ﴾ إلى خبر؛ لأنّه بمعنى يحدث، ويقع، و﴿أُمَّةً﴾ فاعله، وتقديره: كراهة أن يكون، فهو مفعول له، ولئلّا يكون، عند الكوفيّين.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر الأمر بالعدل والإحسان، والنهي عن المنكر والعدوان، عقّبه سبحانه بالأمر بالوفاء بالعهد، والنهي عن نقض الأيمان، فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ قال إبن عبّاس: الوعد من العهد، وقال المفسّرون: العهد: الذي يجب الوفاء به. والوعد: هو الذي يحسن فعله، وعاهد الله ليفعلنّه، فإنّه يصير واجباً عليه.

﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾: هذا نهي منه سبحانه عن نكث الأيمان، وهو أن ينقضها بمخالفة موجبها، وإرتكاب ما يخالف عقدها. وقوله: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد عقدها، وإبرامها، وتوثيقها، بإسم الله تعالى. وقيل: بعد تشديدها وتغليظها بالعزم والعقد على اليمين، بخلاف لغو اليمين، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ أي: حسيباً فيما عاهدتموه عليه. وقيل: كفيلاً بالوفاء، وذلك أنّ من حلف بالله، فكأنّه أكفل الله بالوفاء بما حلف. وقيل: إنّه

قولهم: الله علي كفيل، أو وكيل. وقيل: أراد به: أنّ الكفيل بالشيء أن يكون حفيظاً له، والإنسان إنّما يؤكّد الأمر على نفسه بذكر إسم الله تعالى على جهة اليمين؛ ليحفظ سبحانه ذلك الأمر ﴿إِنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ من نقض العهد والوفاء به، فإيّاكم أن تلقوه، وقد نقضتم.

وهذه الآية نزلت في الذين بايعوا النبيّ ﷺ على الإسلام، فقال سبحانه للمسلمين الذين بايعوه: لا يحملنّكم قلّة المسلمين، وكثرة المشركين على نقض البيعة، فإنّ الله حافظكم أي: أثبتوا على ما عاهدتم عليه الرسول ﷺ، وأكّدتموه بالأيمان. وقيل: نزلت في قوم خالفوا قوماً، فجاءهم قوم، وقالوا: نحن أكثر منهم، وأعزّ، وأقوى، فأنقضوا ذلك العهد، وحالفونا.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ أي: لا تكونوا كالإمرأة التي غزلت، ثمّ نقضت غزلها، من بعد إمرار وفتل للغزل، وهي إمرأة حمقاء من قريش، كانت تغزل مع جواريها إلى إنتصاف النهار، ثمّ تأمرهنّ أن ينقضن ما غزلن، ولا يزال ذلك دأبها، وإسمها ريطة بنت عمرو بن كعب بن سعد بن تميم بن مرّة، وكانت تسمّى خرقاء مكّة، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: إنّه مثل ضربه الله تعالى، شبّه فيه حال ناقض العهد، بمن كان كذلك.

﴿أَنْكَاثاً﴾ جمع نكث: وهو الغزل من الصوف والشعر، يبرم، ثمّ ينكث، وينقض؛ ليغزل ثانية ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾ أي: [دغلاً] وخيانة ومكراً، وذلك أنّهم كانوا يخلفون في عهودهم، ويضمرون الخيانة. وكان الناس يسكنون [يسكنون]. إلى عهدهم، ثمّ ينقضون العهد، فقد إتّخذوا أيمانهم مكراً وخيانة ﴿أَنْ

﴿تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾[١] أي: لا تنقضوا العهد بسبب أن يكون قوم أكثر من قوم، وأمّة أعلى من أمّة. ولأجل ذلك، وتقديره: ولا نكثوا أيمانكم متّخذيها دغلاً، وغدراً، وخديعة؛ لمداراتكم قوماً هم أكثر عدداً ممّن حلفتم له، ولقلّتكم وكثرتهم، بل عليكم الوفاء بما حلفتم [والحفظ] لما عاهدتم عليه.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللهُ بِهِ﴾ أي: يختبركم الله بالأمر بالوفاء. والهاء في ﴿بِهِ﴾ عائدة على الأمر. وتحقيقه: أنّه يعاملكم معاملة المختبر؛ ليقع الجزاء بحسب العمل ﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ﴾ أي: وليفصّلنّ ﴿لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ﴾ أي: في صحّته ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾ وليظهرنّ لكم حكمه، حتى يعرف الحقّ من الباطل.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي: لجعلكم مهتدين، يعني: به مشيئة القدرة، كما قال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ عَلَى الْهُدَى لَجَمَعَهُم﴾.

﴿وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ﴾ بالخذلان، أو بالحكم عليه بالضلال ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ بالتوفيق، وبالحكم عليه بالهداية. وقد ذكرنا معاني الضلال والهدى في سورة البقرة. ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ من الطاعات والمعاصي، فستجازون على كل منهما بقدرة.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ﴾: نهى سبحانه عن الحلف على أمر يكون باطنه بخلاف ظاهره، فيضمر خلاف ما يظهر أي: يضمر الخلف والحنث فيه[٢].

---

(١) وروى في بعض الأحاديث عن أهل البيت عليهم السلام في هذه قرائة، لكنّها مختلفة، ففي بعضها: أن تكونوا ائمة أزكى. وفي بعضها: أن تكون أئمّة ولابدّ أن تكون ائمة في الرواية الأولى منصوبة، وفي الثانية مرفوعة. ولابدع في إختلاف الرواية في القرائة؛ فإنّها منقولة شفاهاً بطريق الآحاد. ثمّ بعد أن دوّنت في الكتاب، لم تكن مأمونة من التصحيف، ولذلك لايؤخذ القرائة من الخبر الواحد.

(٢) كلّما جعله الإنسان وثيقة على صحّة مايحكم، أو يأمر به، فهو يمين، مثل أن يقول: إن كنت ←

﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى، ومعناه: فتضلّوا عن الرشد بعد أن تكونوا على هدى. يقال: زلّ قدم فلان في أمر كذا: إذا عدل من الصواب. وقيل: معناه: فيسخط الله عليكم بعد رضاه عنكم؛ لأنّ ثبات القدم تكون برضا الله سبحانه، وزلّة القدم تكون بسخطه. وقيل: إنّها نزلت في الذين بايعوا رسول الله ﷺ على نصرة الإسلام وأهله، فنهوا عن نقض ذلك.

﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي: تذوقوا العذاب بما منعتم الناس عن إتّباع دين الله ﴿وَلَكُمْ﴾ مع ذلك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يريد عذاب الآخرة، وروي عن سلمان الفارسي رضي الله عنه، أنّه قال: تهلك هذه الأمّة بنقض مواثيقها. وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: نزلت هذه الآيات في ولاية عليّ عليه السلام. وما كان من قول رسول الله ﷺ: سلّموا على عليّ بإمرة المؤمنين!.

النظم: وجه إتّصال قوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية، بما قبله: أنّه أخبر في الآية المتقدّمة، أنّه يبيّن لهم في الآخرة الحقّ من الباطل، والمُحِقّ من المبطل؛ بيان ضرورة، فأخبر عقيب ذلك أنّه يقدر على ذلك أيضاً في الدنيا، ولكنّه لم يفعل ذلك؛ ليستحقّ الناس الثواب بأعمالهم.

← كاذباً فليمت ولدي، أو يكن مالي صدقة، أو زوجتي طالقاً، إلاّ أنّ المشروع منها مايجعل الله كفيلاً عليه، فيطلق اليمين على ما عاهد الله بوجه، فيثبت حكم اليمين على العهد. وقال كثير من الفقهاء. يجوز للوالد وللزوج، أن ينفضا نذر الولد والزوجة. وإستدلّوا بما ورد من أنّ لهما نقض يمينهما، وتدلّ الآيات الأربعة على إطلاق اليمين على العهد وبالعكس. وقال في كشف اللثام: إنّ أحدهما غير الآخر. ونقل عن الفخر، عن أبيه أيضاً: وإختار عدم ثبوت حكم اليمين للعهد.

وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ
خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ
وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ
مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ
أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ
أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ
فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ
عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا
سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن كثير، وعاصم: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ﴾ ـ بالنون ـ. والباقون: بالياء. وروى عياش، عن أبي عمرو: بالنون أيضاً[1].

الحجة: حجّة الياء ﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾: والنون في المعنى مثل الياء.

اللغة: النفاد: الفناء، ونفد الشيء ينفد نفاداً: إذا فني. وأنفد القوم: إذا فني زادهم. ونافدت الرجل مثل: حاكمته، ومعناه: يرجع إلى أنّ كل واحد من الخصمين يريد نفاد حجّة الآخر. ومنه: الحديث: إن نافدتهم نافدوك. ومن الناس من يرويه بالقاف. والمعنى: إن قلت قالوا لك. والباقي: هو الموجود المستمرّ

(١) وقف ابن كثير على الياء في «باقي». واتّفقوا على نون العظمة في «ولنجزينّهم»، وإن اختلفوا في و«لنجزينّ».

وجوده. وقيل: الموجود عن وجود من غير فصل. وضدّه: الفاني وهو المعدوم بعد الوجود.

وإختلف المتكلّمون في الباقي. فقال البلخي: إنّه يبقى بمعنى هو بقاء. وقال الأكثرون: لا يحتاج إلى معنى به يبقى، والبقاء: هو إستمرار الوجود. والإستعاذة: طلب المعاذ، إستفعال من العوذ والعياذ. والله سبحانه معاذ، من عاذ به. وقال النبيّ ﷺ للمرأة التي قالت له أعوذ بالله منك: لقد عذت بمعاذ، فألحقي بأهلك. وأصل السلطان: من التسلّط، وهو القهر، وإنّما سمّيت الحجّة سلطاناً؛ لأنّ الخصم به يقهر. وقيل: إشتقّ من السليط، وهو دهن الزيت. وسمّيت الحجّة سلطاناً؛ لإضاءتها. وفي الحديث عن ابن عباس: أرأيت عليّاً، وكأنّ عينيه سراجا سليط!

الإعراب: ﴿مَا عِنْدَ اللهِ﴾: إسم «إنّ»، وهو فصل، و﴿خَيْرٌ﴾ خبره. ﴿وَمَا عِنْدَكُمْ﴾: مبتدأ، و﴿يَنْفَدُ﴾: خبره. وكذلك: ما عند الله باق. وإنّما قال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بلفظ الجمع: لأنّ لفظ ﴿مِنْ﴾ يقع على الواحد والجمع، فردّ الضمير على المعنى.

النزول: قال إبن عباس: إنّ رجلاً من «حضر موت» يقال له عبدان الأشرع قال: يا رسول الله! إنّ إمرأ القيس الكندي[1] جاورني في أرضي، فإقتطع من أرضي، فذهب بها مني، والقوم يعلمون أنّي لصادق، ولكنّه أكرم عليهم منّي. فسأل رسول الله ﷺ إمرأ القيس عنه، فقال: لا أدري ما يقول.

---

(١) ليس المراد، الشاعر المشهور، فإنّه مات نحواً من ثمانين سنة، قبل مبعث النبيّ ﷺ، وكان معاصراً لقباد أبي أنوشيروان الذي ولد النبيّ ﷺ في أواخر ملكه. وقيل: مات إمرؤ القيس سنة ٥٦٥ ميلاديّة، وبعث النبيّ ﷺ سنة ٦١٠.

فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنّه فاجر لا يبالي أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه. فلمّا قام ليحلف أنظره، فإنصرفا، فنزل قوله: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ﴾ الآيتان، فلمّا قرأهما رسول الله ﷺ قال إمرؤ القيس: أمّا ما عندي فينفد، وهو صادق فيما يقول. لقد إقتطعت أرضه. ولم أدركم هي، فليأخذ من أرضي ما شاء، ومثلها معها، بما أكلت من ثمرها. فنزل فيه «ومن عمل صالحاً» الآية.

المعنى: لمّا تقدّم النهي عن نقض العهد، أكّد سبحانه، فقال: ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللهِ ثَمَناً قَلِيلاً﴾ أي: لا تخالفوا عهد الله بسبب شيء يسير تنالونه من حطام الدنيا، فتكونوا قد بعتم عظيم ما عند الله بالشيء الحقير.

﴿إِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ معناه: إنّ الذي عند الله من الثواب على الوفاء بالعهود، خير لكم، وأشرف ممّا تأخذونه من عرض الدنيا على نقضها، فإنّ القليل الذي يبقى، خير من الكثير الذي يبقي ينفى، فكيف بالكثير الذى في مقابلة القليل الذي يفنى. ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الفرق بين الخير والشرّ والتفاوت الذي بين القليل الفاني والكثير الباقي.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾ بيّن سبحانه بهذا، أنّ العلّة التي لأجلها كان الثواب خيراً من متاع الدنيا. هو أنّ الثواب الذي عند الله يبقى، والذي عندكم من نعيم الدنيا يفنى.

ثمّ أخبر سبحانه أنّه يجزي الصابرين، فقال: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ أي: لنكافئنّ الذين ثبّتوا على الطاعات، وعلى الوفاء بالعهود ﴿أَجْرَهُمْ﴾ وثوابهم ﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي: بالطاعات من الواجبات والمندوبات، فإنّ أفعال المكلّف قد تكون طاعة، وقد تكون مباحاً لا يقع الجزاء عليه، ولا يستحقّ عليه

أجر، ولا حمد، فلذلك قال سبحانه: بأحسن. فإنّ الطاعة أحسن من المباح. وهذا يدلّ على فساد قول من يقول: إنّه لا يكون حسن، أحسن من حسن.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هذا وعد من الله سبحانه أي. من عمل عملاً صالحاً، سواء كان ذكراً أو أنثى، وهو مع ذلك مؤمن، مصدّق بتوحيد الله، مقرّ بصدق أنبيائه.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ قيل فيه أقوال: أحدها: إنّ الحياة الطيّبة: الرزق الحلال، ـ عن إبن عباس، وسعيد بن جبير، وعطاء ـ.

وثانيها: إنّها القناعة والرضا بما قسّم الله، ـ عن الحسن، ووهب، وروي ذلك عن النبيّ ﷺ ـ.

وثالثها: إنّها الجنّة، ـ عن قتادة، ومجاهد، وإبن زيد ـ. قال الحسن: لا يطيب لأحد حياة إلاّ في الجنّة. وقال إبن زيد: ألاترى إلى قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾.

ورابعها: إنّها رزق يوم بيوم. وخامسها: إنّها حياة طيّبة في القبر.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ مرّ تفسيره، وإنّما كرّر تأكيداً. ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ معناه: إذا أردت يا محمّد قراءة القرآن، فإستعذ بالله من شرّ الشيطان المرجوم المطرود الملعون، وهذا كما يقال: إذا أكلت فأغسل يديك، وإذا صلّيت فكبّر. ومنه: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾. والإستعاذة: إستدفاع الأدنى بالأعلى على وجه الخضوع والتذلّل، وتأويله: إستعذ بالله من وسوسة الشيطان عند قراءتك؛ لتسلم في التلاوة من الزلل، و في التأويل من الخطل، والإستعاذة عند التلاوة مستحبّة غير واجبة بلا

خلاف، في الصلاة، وخارج الصلاة[١]. وقد تقدّم ذكر إختلاف القرّاء في لفظ الإستعاذة في أوّل الفاتحة.

﴿إِنَّهُ﴾ يعني: الشيطان ﴿لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ﴾ أي: تسلّط وقدرة ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالله ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ والمعنى: أنّه لا يقدر على أن يكرههم على الكفر والمعاصي. وقيل: معناه: ليس حجّة على ما يدعوهم إليه من المعاصي، ـ عن قتادة ـ. ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ معناه: إنّما تسلّطه على الذين يطيعونه، فيقبلون دعاءه ويتبعون إغوائه ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ﴾ أي: بسبب طاعته ﴿مُشْرِكُونَ﴾ بالله. وقيل: معناه: والذين هم بالله مشركون أي: يشركون مع الله سبحانه غيره في العبادة، ـ عن مجاهد ـ.

﴿النَّظْمُ﴾: إتّصل قوله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ الآيات، بما قدّمه سبحانه من الأمر بالطاعات، فعقّب ذلك بالإستعاذة من الشيطان الآمر بالمعاصي؛ تحذيراً منه. وإنّما خصّ بالقرآن؛ لأنّ القرآن هو العمدة في جميع أمور الدين. وقيل: إتّصل بقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ ثمّ إعترض ذكر الأوامر والنواهي. ثمّ عادل الكلام إلى ذكر القرآن، والأمر بالإستعاذة عند قراءته.

---

(١) وبذلك يعلم فائدة الإجماع، ويدفع طعن الطاعن فيه، إذ ربما يتوهّم: إنّه ما من مسئلة إجماعيّة إلاّ وعليه دليل من كتاب أو سنة، فيستغنى عن الإجماع. والجواب: أنّه ما من مسئلة يحتجّ عليها بالكتاب والسنة إلا وللإجماع دخل فيه، إمّا لبيان المفاد منه، كآية الإستعاذة، فإنّ الظاهر من الأمر، الوجوب، والإجماع على الإستحباب، وإمّا لإلحاق غير منطوقه به، كماء البئر بماء المطر، وإمّا لتقوية الحديث؛ فإنّه ظنّيّ الصدور، والإجماع مقطوع به، فإذا علمنا حكم المسئلة باليقين، عرفنا أنّ يقيننا هذا، لم يحصل من الحديث.

وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ
بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ
﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾
وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ
ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ
ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

(القراءة): قرأ ﴿يَلْحَدُونَ﴾ ـ بفتح الياء والحاء ـ أهل الكوفة، غير عاصم. والباقون: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ ـ بضمّ الياء، وكسر الحاء ـ. وروي في الشواذّ، عن الحسن: اللسان الذي يلحدون إليه ـ بالألف واللام ـ.

(الحجة): حجّة من قرأ: ﴿يُلْحِدُونَ﴾ قوله: وَمَن يُرِدْ فيه بِإِلْحَاد. ومن قرأ: يَلْحَدون؛ فلأنّ «لحد» لغة في ألْحَد، وذلك إذا مال. ومنه: أخذ اللحد؛ لأنّه في جانب القبر. ويكون الضمّ أرجح من حيث لغة التنزيل.

(اللغة): التبديل في اللغة: رفع الشيء مع وضع غيره مكانه. يقال: بدله وأبدله، وإستبدل به معنى. واللسان: العضو المعروف. ويقال للغة: اللسان: وتقول العرب للقصيدة: هذه لسان فلان. قال الشاعر:

لِسَـــانَ السُّـــوءِ تَـــهدِيها إِلَـيْنا وَحِنْتَ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَحينا[١]

المعنى: ثم قال سبحانه مخبراً عن أحوال الكفار: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ معناه: وإذا نسخنا آية، وآتينا مكانها آية أخرى، إمّا نسخ الحكم والتلاوة، وإمّا نسخ الحكم مع بقاء التلاوة. ﴿وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ معناه: والله أعلم بمصالح ما ينزل، فينزّل كل وقت ما توجبه المصلحة، وقد تختلف المصالح بإختلاف الأوقات، كما تختلف بإختلاف الأجناس والصفات.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ أي: قال المشركون: إنّما أنت كاذب على الله. قال ابن عباس: كانوا يقولون يسخر محمّد بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر، وغداً يأمرهم بأمر، وإنّه لكاذب، يأتيهم بما يقول من عند نفسه ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون أنّه من عند الله، أو لا يعلمون جواز النسخ، ولأيّ سبب ورد النسخ.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ أي: أنزل الناسخ جبرائيل عليه السلام ﴿مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ أي: بالأمر الحقّ الصحيح الثابت ﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بما فيه من الحجج والآيات، فيزدادوا تصديقاً ويقيناً. ومعنى تثبيته: إستدعاؤه لهم بألطافه، ومعونته إلى الثبات على الإيمان، والطاعة ﴿وَهُدىً﴾ أي: وهو هدى، فيكون ﴿هُدىً﴾ خبر مبتدأ محذوف. ﴿وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: بشارة لهم بالجنّة والثواب.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ يقول سبحانه: إنّا نعلم أنّ الكفّار يقولون: إنّ القرآن ليس من عند الله، وإنّما يعلم النبيّ صلى الله عليه وآله بشر. قال إبن عباس:

---

(١) أي: ضللت، وما ظننت أن تضلّ.

قالت قريش: إنّما يعلمه بلعام، وكان قيناً بمكّة، روميّاً نصرانيّاً. وقال الضحّاك: أراد به سلمان الفارسي ﷺ، قالوا: إنّه يتعلّم القصص منه. وقال مجاهد، وقتادة: أرادوا به عبداً لبني الحضرمي روميّاً، يقال له يعيش، أو عائش، صاحب كتاب، أسلم وحسن إسلامه. وقال عبد الله بن مسلم: كان غلامان في الجاهليّة نصرانيّان، من أهل عين التمر، إسم أحدهما: يسار، وإسم الآخر: خير، كانا صيقلين يقرآن كتاباً لهما بلسانهم، وكان رسول الله ﷺ ربما مرّ بهما وإستمع لقراءتهما، فقالوا: إنّما يتعلّم منهما.

ثمّ ألزمهم الله تعالى الحجّة، وأكذبهم، بأن قال: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي: لغة الذي يضيفون إليه التعليم، ويميلون إليه القول، أعجميّة، ولم يقل: عجميّ؛ لأن العجمي: هو المنسوب إلى العجم، وإن كان فصيحاً، والأعجميّ: هو الذي لا يفصح، وإن كان عربيّاً. ألا ترى أنّ سيبويه كان عجميّاً، وإن كان لسانه لسان اللغة العربيّة. وقيل: يلحدون إليه: يرمون إليه، ويزعمون أنّه يعلمك أي: لسان هذا البشر الذي يزعمون أنّه يعلمك أعجميّ، لا يفصح، ولا يتكلّم بالعربيّة، فكيف يتعلّم منه ما هو في أعلى طبقات البيان؟

﴿وَهَذَا﴾ القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر بيّن، لا يشكّك يعنى: إذا كانت العرب تعجز عن الإتيان بمثله، وهو بلغتهم، فكيف يأتي الأعجميّ بمثله؟ قال الزجّاج: وصفه بأنّه عربيّ أي: صاحبه يتكلّم بالعربيّة.

ثمّ إتّبع سبحانه هذه الآية بذكر الوعيد للكفّار على ما قالوه، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي: بحجج الله التي أظهرها، والمعجزات التي صدق بها قومك يا محمّد ﴿لَا يَهْدِيهِمْ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: لا يثبتهم الله على الإيمان، أو لا يهديهم إلى طريق الجنّة، بدلالة أنّه إنّما نفى هداية من لا يؤمن.

فالظاهر أنّه أراد بذلك الهدى الذي يكون ثواباً على الإيمان، لاالهداية التي في قوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾.

ثمّ بيّن سبحانه أنّ هؤلاء هم المفترون، فقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي: إنما يخترع الكذب الذين لا يصدّقون بدلائل الله تعالى، دون من آمن بها؛ لأنّ الإيمان يحجز عن الكذب ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ لا أنت يا محمّد. فحصر فيهم الكذب، بمعنى أنّ الكذب لازم لهم، وعادة من عاداتهم. وهذا ما تقول: كذبت، وأنت كاذب، فيكون قولك: أنت كاذب، زيادة في الوصف بالكذب.

وفي الآية زجر عن الكذب؛ حيث أخبر سبحانه أنّه إنّما يفتري الكذب من لا يؤمن. وقد روي مرفوعاً أنّه قيل: يا رسول الله؟ المؤمن يزني؟ قال: قد يكون ذلك. قيل يا رسول الله المؤمن يسرق؟ قال: قد يكون ذلك. قيل: يا رسول الله المؤمن يكذب؟ قال: لا، ثمّ قرأ هذه الآية.

النَّظْمُ: قيل في إتّصال قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ بما تقدّم وجهان: أحدهما: أنه من تمام صفة أولياء الشيطان المذكورين في قوله: ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ وتقديره: يتولّون الشيطان، ويشركون بالآية المنزلة، ويقولون عند تبديل الآية مكان الآية الأُخرى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ والآخر: أنّ الآية منقطعة عمّا قبلها، وهي معطوفة على الآي المتقدّمة التي فيها وصف أفعال الكافرين. والأول: أوجه.

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ
وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا
فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ
وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ
وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي
ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ
لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ
وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾

القراءة: قرأ إبن عامر ﴿فَتَنُوا﴾ ـ بفتح الفاء والتاء ـ. والباقون: ﴿فُتِنُوا﴾ ـ بضمّ الفاء، وكسر التاء ـ.

الحجّة: قال أبو عليّ: حجّة من قرأ: ﴿فُتِنُوا﴾: أنّ الآية في المستضعفين المقيمين الذين كانوا بمكّة، وهم صهيب، وعمّار، وبلال، فُتنوا وحُملوا على الإرتداد عن دينهم، فمنهم من أعطى التقيّة، وعمّار منهم، فإنّه ممّن أظهر ذلك تقيّة، ثمّ هاجر.

ومن قرأ: ﴿فَتَنُوا﴾ فيكون على معنى: فتن نفسه بإظهار ما أظهر من التقيّة، فكأنّه يحكي الحال التي كانوا عليها من إظهار ما أخذوا به من التقية؛ لأنّ الرخصة

فيه لم تكن نزلت بعد، وهي قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ﴾. وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

الإعراب: قال الزجّاج: قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ﴾ في موضع رفع؛ على البدل من الكاذبين، وهو تفسير للكاذبين. ولا يجوز أن يكون رفعاً بالإبتداء؛ لأنّه لا خبر هيهنا للإبتداء، فإنّ قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ ليس بكلام تامّ. وقوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنْ اللهِ﴾ خبر قوله: ﴿مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾ وقال الكوفيّون: من كفر شرط، وجوابه يدلّ عليه جواب «من شرح»، فكأنّه قيل: من كفر فعليه غضب من الله. وهذا كقولهم: من يأتنا فمن يحسن نكرمه، فجواب الأوّل محذوف. وقوله: ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَسِرُونَ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع؛ على أن يكون قوله: ﴿لاَ﴾ من ﴿لاَ جَرَمَ﴾ رداً للكلام، والمعنى: وجب أنّهم. ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ على أن يكون المعنى: جرم فعلهم هذا، أنّهم الخاسرون. وتكون ﴿لاَ﴾ مزيدة. ويجوز أن يكون معناه: لابدّ أنّهم، فيكون على حذف الجارّ أي: لابدّ من ذلك ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ خبر «أن» قوله: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من باب ما جاء في التنزيل ان فيه مكرّراً، وكذلك الآية التي تأتي بعد ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ الآية.

النزول: قيل: نزل قوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ في جماعة أُكرهوا وهم: عمّار، وياسر: أبوه، وأمّه: سميّة وصهيب، وبلال، وخباب، عذّبوا وقتل أبو عمّار وأمّه، وأعطاهم عمّار بلسانه ما أرادوا منه. ثمّ أخبر سبحانه بذلك رسول الله ﷺ، فقال قوم: كفر عمّار، فقال ﷺ: كلاّ، إنّ عمّاراً مليء إيماناً من قرنه إلى قدمه، وإختلط الإيمان بلحمه ودمه.

وجاء عمّار إلى رسول الله ﷺ و هو يبكي، فقال ﷺ ما وراءك؟ فقال:

شرّ يا رسول الله ماتركت، حتى نلت منك، وذكرت آلهتهم بخير. فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه، ويقول: إنّ عادوا لك، فعُدْ لهم بما قلت! فنزلت الآية[1]، ـ عن إبن عباس، وقتادة ـ. وقيل: نزلت في أناس من أهل مكّة، آمنوا وخرجوا، يريدون المدينة، فأدركهم قريش، وفتنوهم، فتكلّموا بكلمة الكفر كارهين، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: إنّ ياسراً وسميّة ـ أبويّ عمّار ـ أوّل شهيدين في الإسلام.

وقوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ﴾، و ﴿مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾ وهو عبدالله بن سعد بن أبي سرح ـ من بني عامر بن لؤي ـ.

وأمّا قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية. فقيل: إنّها نزلت في عياش بن أبي ربيعة، أخي أبي جهل من الرضاعة، وأبي جندل بن سهيل بن عمرو والوليد بن المغيرة، وغيرهم من أهل مكّة، فتنهم المشركون، فأعطوهم بعض ما أرادوا. ثمّ إنّهم هاجروا بعد ذلك، وجاهدوا، فنزلت الآية فيهم.

المعنى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾ أختلف في تقديره، فقيل: إنّ تقديره وتلخيص معناه: من كفر بالله، بأن يرتدّ عن الإسلام، وشرح بالكفر صدراً، فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب عظيم.

﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ﴾ فتكلّم بكلمة الكفر على وجه التقيّة مكرهاً. ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾ أي: ساكن ﴿بِالْإِيمَانِ﴾ ثابت عليه، فلاحرج عليه في ذلك. وقيل: انّه

---

(١) قال الجصّاص، وهو من أعاظم الحنفيّة بعد قصّة عمّار: هذا أصل في جواز إظهار كلمة الكفر في حال الإكراه، والإكراه المبيح لذلك، هو أن يخاف على نفسه، أو بعض أعضائه التلف. ثمّ قال قال محمّد بن الحسن يعني: الشيباني: إذا أكرهه الكفّار على أن يشتم محمّداً ﷺ، فخطر بباله أن يشتم محمّداً آخر غيره، فلم يفعل كان كافراً، فإن أعجلوه عن الرويّة، ولم يخطر بباله شيء لم يكن كافراً، إنتهى بتخليص. وذلك لأنّ المكرَه لم يقصد المعنى، ولذلك لايصحّ كل شيء يتوقّف وقوعه على القصد اذا وقع عن إكراه، كالبيع والطلاق وغير ذلك، وأمّا مالايتوقّف صحّته على القصد، فيقع مع الإكراه.

يتّصل بما تقدّم، فمعناه: إنّما يفتري الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه. ثمّ إستثنى من ذلك من أكره على ذلك، وكان مطمئنّ القلب إلى الإيمان في باطنه، فإنّه بخلافه.

﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْراً﴾ أي: من إتّسع قلبه للكفر، وطابت نفسه به ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وله العذاب في الآخرة. ثمّ أشار سبحانه إلى العذاب العظيم، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا﴾ أي: آثروا ﴿الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ والتلذّذ فيها، والركون إليها ﴿عَلَى الْآخِرَةِ﴾ عني بذلك: أنّهم فعلوا ما فعلوه للدنيا، طلباً لها، دون طلب الآخرة ﴿وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ قد سبق معناه.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ قد سبق معنى الطبع على القلوب، والسمع، والأبصار، في سورة البقرة ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ وصفهم بعموم الغفلة، مع أنّ الخواطر تزعجهم؛ لجهلهم عمّا يؤدّي إليه حالهم في الآخرة. وقيل: أراد: أنّهم بمنزلة الغافلين، فيكون تهجيناً لهم، وذمّاً.

ثمّ قال: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ هذا تأكيد لحكم الخسار عليهم، يعني: أنّهم هم المغبونون؛ إذ حرموا الجنّة ونعيمها، وعذّبوا في النار.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا﴾ أي: عذّبوا في الله، وإرتدّوا على الكفر، فأعطوهم بعد [بعض] ما أرادوا، ليسلموا من شرّهم ﴿ثُمَّ جَاهَدُوا﴾ مع النبيّ ﷺ ﴿وَصَبَرُوا﴾ على الدين والجهاد، ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد تلك الفتنة، أو تلك الفعلة التي فعلوها من التفوّه بكلمة الكفر ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

النظم: وإتّصلت هذه الآية الأخيرة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فبيّن سبحانه حالهم بعدما تخلّصوا من المشركين، وهاجروا وجاهدوا، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّه لمّا تقدّم ذكر الخاسرين، أتبعه سبحانه بذكر من ربحت

صفقته، وهو من هاجر وجاهد.

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ[1] اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

القراءة: قرأ عباس بن الفضل عن أبي عمرو: ﴿وَالْخَوْفَ﴾ ـ بالنصب ـ. والباقون: بالجرّ.

وفي الشواذّ، قراءة الأعرج، وإبن يعمر، وإبن أبي إسحاق، وعمرو بن نعيم ابن ميسرة: ﴿لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ بالجرّ. وقراءة مسلم بن

(١) نعمت: مكتوبة بالتاء. ومضى الكلام في الوقف عليها قريباً.

محارب: ﴿الْكُذُبَ﴾.

الحجة: من قرأ: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ ـ بالنصب ـ فإنّه حمله على الإذاقة، والخوف لايذاق على الحقيقة، فحمله على اللباس أولى. وقوله: ﴿الْكَذِبَ﴾ ـ بالجرّ ـ، يكون على البدل من ما تصف. وأمّا ﴿الْكُذُبَ﴾ فهو وصف الألسنة، وهو جمع كاذب، أو كذوب.

اللغة: الأنعم: جمع نعمة، فهو مثل: شدّة وأشدّ. وقيل: إنّ واحدها: نعم، فهو كغصن وأغصن. وقيل: واحدها: نعماء، فيكون كبأساء وأبؤس. وقوله: ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ﴾ إستعارة. تقول العرب: إركب هذا الفرس وذقه أي: إختبره. قال الشماخ:

فَذَاقَ فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ جانِباً ... كَفىٰ وَلَهاً أَنْ يُغرِقَ السَّهْمَ حاجِزُ[1]

يصف قوساً. وقال الآخر:

وَإِنَّ اللهَ ذاقَ حُلُومَ قَيْسٍ ... فَلَمّا رآءَ خِفَّتَها قَلاها[2]

الإعراب: ﴿يَوْمَ تَأْتِي﴾ منصوب على أحد شيئين: إمّا على معنى: ربّك لغفور رحيم يوم تأتي، وإمّا أن يكون على معنى العظة والتذكير أي: أُذكر يوم تأتي، ـ عن الزجّاج ـ.

المعنى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ أراد به: يوم القيامة ﴿تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي: تخاصم الملائكة عن نفسها، وتحتجّ بما ليس فيه حجة، وتقول: والله ربّنا ما كنّا مشركين. ويقول أتباعهم: ربّنا هؤلاء أضلّونا، فآتهم عذاباً ضعفاً من النار. ويحتمل أن يكون المراد: أنّها تحتجّ عن نفسها بما تقدر به إزالة العقاب عنها.

---

(١) الإغراق: المبالغة في النزع والضمير المؤنّث في «أعطته» للقوس. وفي نسخة: حاجز يعني: إختبر القوس، فوجدها لينة، فحقّ له أن ينزع السهم نزعاً شديداً.

(٢) فلمّا رآء: أي رأى.

﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾ أي: جزاء ما عملت من خير وشرّ ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ في ذلك. ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً قَرْيَةً﴾ أي: مثل قرية ﴿كَانَتْ آمِنَةً﴾ أي: ذات أمن، يأمن فيها أهلها، لا يغار عليهم ﴿مُطْمَئِنَّةً﴾ قارّة ساكنة بأهلها، لا يحتاجون إلى الإنتقال عنها بخوف، أو ضيق.

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي يحمل إليها الرزق الواسع من كل موضع، ومن كل بلد، كما قال سبحانه: ﴿يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ﴾ أي: فكفر أهل تلك القرية بأنعم الله، ولم يؤدّوا شكرها ﴿فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي: فأخذهم الله بالجوع والخوف بصنيعهم، وسوء فعالهم.

وسمّي أثر الجوع و الخوف لباساً؛ لأنّ أثر الجوع و الهزال يظهر على الإنسان، كما يظهر اللباس. وقيل: لأنّهم شملهم الجوع والخوف، كما يشمل اللباس البدن. وقيل: إنّ هذه القرية هي مكّة، ـ عن إبن عباس، ومجاهد، وقتادة ـ، عذّبهم الله بالجوع سبع سنين، حتى أكلوا القد والعلهز، وهو الوبر، يخلط بالدم، والقراد، ثمّ يؤكل، وهم مع ذلك خائفون وجلون من النبيّ ﷺ وأصحابه، يغيرون عليهم قوافلهم، ذلك حين دعا النبيّ ﷺ عليهم، فقال: أللهمّ أشدد وطاتك على مضر، وإجعل عليهم سنين كسني يوسف. وقيل: إنّها قرية كانت قبل نبيّنا ﷺ بعث الله إليهم نبيّاً، فكفروا بذلك النبيّ وقتلوه، فعذّبهم الله بعذاب الإستئصال.

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ﴾ يعني: أهل مكّة، بعث الله عليهم رسولاً من صميمهم؛ ليتّبعوه، لامن غيرهم ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ وجحدوا نبوّته ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي: في حال كونهم ظالمين، وعذابهم ما حلّ بهم من الجوع والخوف المذكورين في الآية المتقدّمة، وما نالهم يوم بدر وغيره، من القتل. ومن قال: إنّ المراد بالقرية: غير مكّة، قال: هذه صورة القرية المذكورة.

ثمّ خاطب سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ حَلَالاً طَيِّباً﴾ صيغته صيغة الأمر، والمراد به: الإباحة، أي: كلوا ممّا أعطاكم الله من الغنائم، وأحلّها لكم.

﴿وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ﴾ فيما خلقه لكم، وأحلّه لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وهذه الآية مع التي بعدها مفسّرة في سورة البقرة.

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا
حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ
يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾
ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

الإعراب: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾: خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: متاعهم بهذا الذي فعلوه متاع قليل. وتمّ الكلام عند قوله: ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾.

المعنى: لمّا تقدَّم ذكر ما أحلّه اللّه سبحانه لهم، وحرَّمه عليهم، عقَّبه سبحانه بالنهي عن مخالفة أوامره ونواهيه في التحليل والتحريم، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ﴾ وتقديره: لوصف ألسنتكم الكذب ﴿هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾ أي: لا تقولوا لما حلّلتموه بأنفسكم مثل: الميتة، هذا حلال، ولما حرّمتموه مثل: السائبة، هذا حرام ﴿لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ أي: لتكذبوا على

اللّه في إضافة التحريم إليه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي: لا ينجون من عذاب اللّه، ولا ينالون خيراً ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ﴾ معناه: الذين هم فيه من الدنيا بشيء قليل، ينتفعون به أيّاماً قلائل ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ يعني: اليهود ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ يعني بذلك: ما ذكره في سورة الأنعام، من قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ﴾ الآية. ـ عن الحسن، وقتادة وعكرمة ـ. وعني بقوله: من قبل: قبل نزول هذه الآية؛ لأنّ ما في سورة الأنعام نزل قبل هذه الآية.

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بتحريم ذلك عليهم ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالعصيان والكفر بنعم اللّه تعالى، والجحود بأنبيائه. وإستحقّوا بذلك تحريم هذه الأشياء عليهم؛ لتغيير المصلحة عند كفرهم وعصيانهم. ثمّ ذكر سبحانه التائبين بعد تقدّم الوعد والوعيد، فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذي خلقك يا محمّد ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ﴾ أي: المعصية ﴿بِجَهَالَةٍ﴾ أي: بداعي الجهل، فإنّه يدعو إلى القبيح، كما أنّ داعي العلم يدعو إلى الحسن. وقيل: بجهالة السيّئات، أو بجهالتهم للعاقبة. وقيل: بجهالة أنّها سوء. وقيل: الجهالة: هو أن يعجل بالإقدام عليها، ويَعِدَ نفسه التوبة عنها.

﴿ثُمَّ تَابُوا﴾ عن تلك المعصية ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ نيّاتهم، وأفعالهم ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا﴾ أي: من بعد التوبة، أو الجهالة، أو المعصية ﴿لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وأعاد قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ للتأكيد، وليعود الضمير في قوله: من بعدها، إلى الفعلة.

﴿النظم﴾: إنّما إتّصل قوله: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ ﴿حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ بما تقدّم ذكره من التحريم والتحليل؛ ليبيّن أنّ ما كانوا يحرّمونه ويحلّلونه بزعمهم، ليس في التوراة، كما أنّه ليس ذلك في القرآن. وقيل: ليبيّن أنّه إذا لم يحرم

على اليهود جميع الطيّبات بعصيانهم، فكيف يحرم على المسلمين ذلك.

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

المعنى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أختلف في معناه: فقيل: قدوة ومعلماً للخير. قال إبن الأعرابي: يقال للرجل العالم: أمّة، وهو قول أكثر المفسّرين. وقيل: أراد: إمام هدى، ـ عن قتادة ـ. وقيل: سمّاه أُمّة؛ لأنّ قوام الأُمّة كان به. وقيل: لأنّه قام بعمل أمّته. وقيل: لأنّه إنفرد في دهره بالتوحيد، فكان مؤمناً وحده، والناس كفّاراً، ـ عن مجاهد ـ.

﴿قَانِتاً لِلّهِ﴾ أي: مطيعاً له، دائماً على عبادته، ـ عن إبن مسعود ـ. وقيل: مصلّياً ـ عن الحسن ـ. ﴿حَنِيفاً﴾ أي: مستقيماً على الطاعة، وطريق الحقّ، وهو الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان موحّداً.

﴿شَاكِراً لِأَنْعُمِهِ﴾ أي: لأنعم اللّه، معترفاً بها ﴿اجْتَبَاهُ﴾ اللّه أي: إختاره اللّه، وإصطفاه ﴿وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي: دلّه إلى الدين المستقيم، وهو الإسلام والتوحيد.

﴿وَآتَيْنَاهُ﴾ أي: أعطيناه ﴿فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي: نعمة سابغة في نفسه، وفي أولاده، وهو قول هذه الأُمّة: كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم. وقيل: هي النبوّة والرسالة، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هي أنّه ليس من أهل دين إلّا وهو يرضاه ويتولّاه، ـ عن قتادة ـ. وقيل: هي تنويه الله بذكره بطاعته لربّه، ومسارعته إلى مرضاته، حتى صار إماماً يقتدى به، ويهتدى بهداه، وقيل: هي إجابة الله دعوته، حتى أكرم بالنبوّة ذرّيّته.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ﴾ ولم يقل: لفي أعلى نازل الصالحين، مع إقتضاء حاله ذلك؛ ترغيباً في الصلاح، فإنّه عزَّ إسمه بيَّن أنّه عليه السلام من جملة الصالحين، مع علوّ رتبته، وشرف منزلته؛ تشريفاً لهم، وتنويهاً بذكر من هو منهم، وناهيك بهذا الترغيب في الصلاح، وبهذا المدح لإبراهيم عليه السلام أن يشرف جملة هو منها حتى يصير الإستدعاء إليها بأنّه فيها.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يا محمّد ﴿أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي: أمرناك بإتّباع ملّة إبراهيم ﴿حَنِيفاً﴾ أي: مستقيم الطريقة في الدعاء إلى توحيد اللّه، وخلع الأنداد له، وفي العمل بسنّته.

﴿وَمَا كَانَ﴾ إبراهيم ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ومتى قيل: إن نبيّنا كان أفضل منه، فكيف أمر الفاضل بإتّباع المفضول؟ فجوابه: إنّ إبراهيم عليه السلام سبق إلى إتّباع الحق، ولا يكون في سبق المفضول إلى متابعة الحقّ زراية على الفاضل في إتّباعه.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ معناه: إنّما جعل السبت لعنةً ومسخاً على الذين إختلفوا فيه فحرّموه، ثمّ إستحلّوه، فلعنهم اللّه ومسخهم، ـ عن الحسن ـ. ويجوز أن يكون إختلافهم فيه، أنّهم نهوا عن الصيد فيه فنصبوا الشباك يوم الجمعة، ودخل فيه السمك يوم السبت، وأخذوه يوم الأحد. وقيل: معناه: إنّما فرض تعظيم السبت على الذين إختلفوا في أمر الجمعة، وهم اليهود، وكانوا قد

أُمروا بتعظيم الجمعة، فعدلوا عمّا أُمروا به، ـ عن مجاهد، وإبن زيد ـ. وقيل: إنّ الذين اختلفوا فيه، هم اليهود والنصارى، قال بعضهم: السبت أعظم الأيّام؛ لأنّ الله سبحانه فرغ فيه من خلق الأشياء. وقال الآخرون: بل الأحد أعظم؛ لأنّه إبتدأ بخلق الأشياء فيه، فهذا إختلافهم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمور دينهم، ويفصّل بين المحقّ والمبطل منهم.

النَّظْمُ: وجه إتّصال الآية الأخيرة بما قبلها: أنّه لمّا أمر سبحانه بإتّباع الحقّ، حذّر من الإختلاف فيه، بما ذكر من أحوال المختلفين في السبت، كيف شدّد عليهم فرضه، وضيّق عليهم أمره. وقيل: إنّه سبحانه ردّ على اليهود والنصارى دعويهم أنّ إبراهيم عليه السلام كان منهم، ثمّ ردّ عليهم في هذه الآية، ما أوجبوه من تعظيم أمر السبت، وأنّه لا يجوز نسخه، كما ردَّ عليهم ذلك، ـ عن أبي مسلم ـ.

ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

القِرَاءَةُ: قرأ إبن كثير وحده: ﴿فِي ضِيْقٍ﴾ ـ بكسر الضاد ـ. وكذلك في

النمل. والباقون: بفتح الضاد.

الحجة: قال الزجّاج: من فتح، أراد: ضَيّقٍ، فخفّف مثل: سيّد، وهيّن، وليّن، ويجوز أن يكون بمعنى الضيق، فيكون مصدراً. قال أبوالحسن: الضَيق والضيق لغتان في المصدر. قال أبو عليّ: ينبغي أن يحمل على أنّه مصدر؛ لأنّك إذا حملته على أنّه مخفّف من «ضيّق»، فقد أقمت الصفة مقام الموصوف من غير ضرورة. والمعنى: لا تكن في ضيق أي: لا يضيق صدرك من مكرهم، كما قال: ﴿وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ﴾ وليس المراد: لا تكن في أمر ضيق. قال أبو عبيدة: الضِيق ـ بالكسر ـ: في المعاش والمسكن. والضَيق ـ بالفتح ـ: في القلب. وقال عليّ بن عيسى: يقال: في صدري ضَيق من هذا الأمر ـ بالفتح ـ. وهو أكثر من الكسر.

المعنى: ثمّ أمر سبحانه نبيّه بالدعاء إلى الحقّ، فقال: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ أي: أُدع إلى دينه؛ لأنّه الطريق إلى مرضاته ﴿بِالْحِكْمَةِ﴾: أي بالقرآن. وسمّي القرآن حكمة؛ لأنّه يتضمّن الأمر بالحسن، والنهي عن القبيح. وأصل الحكمة: المنع. ومنه: حكمة اللجام. وإنّما قيل لها حكمة؛ لأنّها بمنزلة المانع من الفساد. وما لا ينبغي أن يختار. وقيل: إنّ الحكمة: هي المعرفة بمراتب الأفعال في الحسن والقبح، والصلاح والفساد؛ لأنّ بمعرفة ذلك يقع المنع من الفساد، و الإستعمال للصدق والصواب في الأفعال والأقوال.

﴿وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ معناه: الوعظ الحسن، وهو الصرف عن القبيح على وجه الترغيب في تركه، والتزهيد في فعله، وفي ذلك تليين القلوب بما يوجب الخشوع. وقيل: إنَّ الحكمة: هي النبوّة، والموعظة الحسنة: مواعظ القرآن، ـ عن ابن عبّاس ـ.

﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: ناظرهم بالقرآن[١]، وبأحسن ما عندك من الحجج، وتقديره: بالكلمة التي هي أحسن. والمعنى: أقتل المشركين وإصرفهم عمّا هم عليه من الشرك، بالرفق والسكينة، وليّن الجانب في النصيحة؛ ليكونوا أقرب إلى الإجابة، فإنّ الجدل هو فتل الخصم عن مذهبه بطريق الحجاج. وقيل: هو أن يجادلهم على قدر ما يحتملونه، كما جاء في الحديث: «أُمرنا معاشر الأنبياء أن نكلّم الناس على قدر عقولهم».

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ أي: عن دينه ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي: القابلين للهدى، وهو يأمرك في الفريقين بما فيه الصلاح.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ معناه: وإن أردتم معاقبة غيركم على وجه المجازاة والمكافأة، فعاقبوا بقدر ما عوقبتم به، ولا تزيدوا عليه، وقالوا: إنّ المشركين لمّا مثلوا بقتلى أُحد، وبحمزة بن عبدالمطّلب، فشقّوا بطنه، وأخذت هند ـ بنت عتبة ـ كبده، فجعلت تلوكه، وجدعوا أنفه وأُذنه، وقطعوا مذاكيره، قال المسلمون: لئن أمكننا الله منهم لنمثلنّ بالأحياء، فضلاً عن الأموات، فنزلت الآية ـ عن الشعبي، وقتادة، وعطا بن يسار ـ. وقيل: إنّ الآية عامّة في كل ظلم، كغضب [كغصب] أو نحوه، فإنّما يجازى بمثل ما عمل[٢]، ـ عن مجاهد، وابن سيرين،

---

(١) قيل: إنّ أقسام العلوم عند أهل المنطق خمسة: البرهان، والخطابة، والجدل، والشعر، والمغالطة. والدعوة إلى الدين لايكون بالشعر، ولابالمغالطة، فإنحصر في البرهان، وإليه أشار تعالى بقوله: أدع إلى سبيل ربّك بالحكمة. ثمّ الخطابة، وإليها الإشارة بقوله: والموعظة الحسنة. ثمّ الجدال الحسن، وإليه الإشارة بقوله: وجادلهم. وهذا من لطائف القرآن، خصوصاً في ترتيبه في الذكر.

(٢) ويثبت منه جواز التقاصّ في الأموال، وعدم وجوب الرجوع فيه إلى الحاكم، وإن كان له بيّنة يثبت بها حقّه، وكان ذلك سهلاً عليه بغير مؤنة، إلاّ أن المديون إن كان مقرّاً باذلاً، وكان عين المال غير موجودة، لايجوز التقاصّ، بل يجب مطالبته حتى يقضي دينه، من أيّ مال يريد، فإنّ قضاء دينه عليه.

وإبراهيم ـ. وقال الحسن: نزلت الآية قبل أن يؤمر النبيّ ﷺ بقتال المشركين على العموم، وأُمر بقتال من قاتله. ونظيره: قوله: ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾.

﴿وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ﴾ أي: تركتم المكافاة والقصاص، وجرعتم مرارته ﴿لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ معناه: الصبر خير، وأنفع للصابرين؛ لما فيه من جزيل الثواب.

﴿وَاصْبِرْ﴾ يامحمّد فيما تبلغه من الرسالة، وفيما تلقاه من الأذى. وقيل: معناه: إصبر على ما يجب الصبر عليه، وعمّا يجب الصبر عنه ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ﴾ أي: وليس صبرك إلا بتوفيق الله، وإقداره، وتيسيره، وترغيبه فيه.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ولا تحزن على المشركين في إعراضهم عنك، فإنّه يكون الظفر والنصرة لك عليهم، ولا عتب عليك في إعراضهم، فقد بلغت ما أمرت به، وقضيت ما عليك. وقيل: معناه: ولاتحزن على قتلى أُحد؛ فإنّ الله تعالى قد نقلهم إلى ثوابه، وكرامته.

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾ أي: ولا يكن صدرك في ضيق من مكرهم بك، وبأصحابك؛ فإنّ الله سبحانه يردّ كيدهم في نحورهم، ويحفظكم من شرورهم.

﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشرك والفواحش والكبائر، بالنصرة والحفظ والكلاءة ﴿وَ﴾ مع ﴿الَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ قال الحسن: إتّقوا ما حرَّم عليهم، وأحسنوا فيما فرض عليهم.

سورة الإسراء

هي مكّيّة كلّها. وقيل: مكّيّة إلاّ خمس آيات ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ﴾، الآية. ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾، الآية. ﴿أُولٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾، الآية. ﴿أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾، الآية. ﴿وَآتِ ذَاالْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ الآية ـ عن الحسن ـ. وقيل: مكّيّة إلاّ ثماني آيات: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾ الآية ـ عن قتادة، والمعدل عن إبن عباس ـ.

عَدَدُ آيِهَا: مائة وإحدى عشرة آية كوفيّ، وعشر آيات في الباقين.

اخْتِلاَفُهَا: آية ﴿لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ كوفي.

فَضْلُهَا: أبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: من قرأ سورة بني‌إسرائيل، فرقّ قلبه عند ذكر الوالدين، أُعطي في الجنّة قنطارين من الأجر. والقنطار: ألف أوقية ومائتا أوفية. والأوقية منها، خيرٌ من الدنيا وما فيها. وروى الحسن بن أبي العلاء، عن الصادق عليه السلام أنّه قال: من قرأ سورة بني‌إسرائيل في كل ليلة جمعة، لم يمت حتى يدرك القائم، ويكون من أصحابه.

تَفْسِيرُهَا: ختم الله تعالى سورة النحل بذكر النبيّ، ﷺ وإفتتح سورة بني‌إسرائيل[1] أيضاً بذكره، وبيان إسرائه إلى المسجد الأقصى، فقال:

---

(١) وقف حمزة على «إسرائيل»: بثمانية أوجه: تحقيق الهمزة الأولى بلاسكت، وبالسكت، وبالنقل، وبالإدغام. كل ذلك مع تسهيل الثانية بين بين مدّاً وقصراً.

بسم الله الرحمن الرحيم

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ (٢)
إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ
هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ
هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا (٢)
ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)

القراءة: قرأ أبو عمرو وحده: ألا يتخذوا ـ بالياء. والباقون: بالتاء.

الحجة: من قرأ بالياء؛ فلأنّ ما تقدّمه على لفظ الغيبة، والمعنى: هديناهم لأن لا يتّخذوا. ومن قرأ بالتاء؛ فللإنصراف من الغيبة إلى الخطاب، كما في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ ثمّ قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. والضمير في ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ وإن كان على لفظ الخطاب، فإنّما يعني به: الغيب في المعنى.

---

(٢) إستدلّ بعضهم بقوله: من المسجد الحرام، على أنّ الحرم كلّه أو البلد كلّه مسجد؛ لأنّ الإسراء كان من بيت أمّ هانى. وهذا ضعيف؛ لأنّ المسجد الحرام لفظ معروف يطلق على المسجد حقيقة، وعلى غيره مجازاً، فكل حكم ورد في الشرع للمسجد يجب أن يختصّ به، ولا يعمّ بيوت البلد إلاّ بقرينة، مع أنّ بعضهم قالوا: إنّ الإسراء كان من نفس المسجد.

﴿الإعراب﴾: ﴿سُبْحَانَ﴾: منصوب على المصدر على معنى: أُسبّح الله تسبيحاً. قال أبو عليّ: من زعم أنّ «ألّا تتّخذوا» على إضمار «القول»، فكأنّه يراد: قال أنْ لاتتّخذوا، لم يكن قوله هذا مستقيماً؛ وذلك لأنّ القول لا يخلوا من أن يكون بعده جملة تحكى، أو معنى جملة يعمل فيه لفظ القول. فالأوّل كقوله: قال زيد عمرو منطلق، فموضع الجملة نصب بالقول. والآخر: نحو أن يقول القائل: لا إله إلّا الله، فتقول: قلت حقّاً. أن يقول: الثلج حارّ، فتقول: قلت باطلاً. فهذا معنى ما قاله، وليس نفس المقول.

وقوله ﴿أَنْ لاَ تَتَّخِذُوا﴾ خارج من هذين الوجهين، ألاترى أن لاتتّخذوا ليس هو القول [المقول]، كما أنّ قولك: حقّاً إذا سمعت كلمة الإخلاص بمعنى القول، وليس قوله: أن لا تتّخذوا الجملة، فيكون كقولك: قال زيد عمرو منطلق. ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ بمعنى «أي» التي للتفسير، وإنصرف الكلام في الغيبة إلى الخطاب، كما إنصرف منها إلى الخطاب في قوله: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا﴾ في الأمر، فكذلك إنصرف في الغيبة إلى الخطاب في النهي في ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ وكذلك قوله: ﴿اَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ في وقوع الأمر بعد الخطاب.

ويجوز أن يضمر القول، ويحمل ﴿يَتَّخِذُوا﴾ على القول المضمر، إذا جعلت ﴿أَن﴾ زائدة، فيكون التقدير: وجعلناه هدى لبني إسرائيل، وقلنا: لا تتّخذوا. فيجوز إذاً في قوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ ثلاثة أوجه: أحدها: أن تكون ﴿أَن﴾ الناصبة للفعل، فيكون المعنى: وجعلناه هدى كراهة أن يتّخذوا من دوني وكيلاً، أو لأن لا يتّخذوا. والآخر: أن يكون بمعنى «أي»؛ لأنّه بعد كلام تامّ، فيكون التقدير: أي لا تتّخذوا. والثالث: أن تكون ﴿أَن﴾ زائدة، ويضمر القول. فأمّا قوله: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا﴾ فإنّه يجوز أن يكون مفعول الإتّخاذ؛ لأنّه فعل يتعدّى إلى مفعولين، وأفرد الوكيل، وهو في معنى الجمع؛ لأنّ فعيلاً يكون مفرداً للفظ، والمعنى على الجمع نحو

قوله: ﴿وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً﴾ فإذا حمل على هذا، كان مفعولاً ثانياً في قراءة من قرأ بالتاء والياء. ويجوز أن يكون نداء، وذلك على قراءة من قرأ بالتاء؛ لأنّ النداء للخطاب. ولو رفع ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ على البدل من الضمير المرفوع في ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ كان جائزاً، ويكون التقدير: ألاّ تتّخذوا ذرّيّة من حملنا مع نوح من دوني وكيلاً. ولو جعلته مجرداً [مجروراً] بدلاً من قولك بني إسرائيل، جاز، وكان التقدير: وجعلناه هدى لذرّيّة من حملنا مع نوح.

﴿النُّزُولِ﴾: قيل: نزلت الآية في إسرائه، وكان ذلك بمكّة. صلّى المغرب في المسجدالحرام. ثمّ أسري به في ليلته. ثمّ رجع، فصلّى الصبح في المسجد الحرام. فأمّا الموضع الذي أسري إليه، أين كان؟ فإنّ الإسراء إلى بيت المقدس[1]، وقد نطق به القرآن، ولا يدفعه مسلم. وما قاله بعضهم: أنّ ذلك كان في النوم، فظاهر البطلان؛ إذ لا معجز يكون فيه، ولا برهان. وقد وردت روايات كثيرة في قصّة المعراج في عروج نبيّنا ﷺ، إلى السماء، ورواها كثير من الصحابة مثل: إبن عباس، وإبن مسعود، وأنس، وجابر بن عبدالله، وحذيفة، وعائشة، وأمّ هاني، وغيرهم، عن النبيّ ﷺ. وزاد بعضهم ونقص بعض.

وتنقسم جملتها إلى أربعة أوجه:

أحدها: ما يقطع على صحّته لتواتر الأخبار به، و إحاطة العلم بصحّته.

وثانيها: ما ورد في ذلك ممّا تجوّزه العقول، ولا تأباه الأصول، فنحن

---

(١) وممّا لاريب فيه أنّ رسول الله ﷺ في سفره إلى الشام قبل البعثة لم يتجاوز بصرى، وهي قرية بين المدينة والشام، ومع ذلك أخبر الله في هذه الآية أنّه أسري به إلى بيت المقدس في جماعة من أهل مكّة، رأى اكثرهم ذلك البلد، والعادة تقضى بأنّهم مع عداوتهم لرسول الله ﷺ أن يسئلوه عمّا رآه، وعن أمارات المسجد الأقصى والبلد؛ تعجيزاً له؛ وإثباتاً لكذبه ـ نعوذ بالله ـ والعادة تقضي بأنّه لو كان كاذباً، أنْ لايدّعي مايبيّن به كذبه، فالآية من أعظم أدلّة النبوّة، للمتأمّل المنصف.

نجوّزه، ثّم نقطع على أنّ ذلك كان في يقظته دون منامه.

وثالثها: ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأصول، إلاّ أنّه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول. فالأولى أن نؤوّله على ما يطابق الحقّ والدليل.

ورابعها: ما لا يصحّ ظاهره، ولا يمكن تأويله إلاّ على التعسّف البعيد. فالأولى أن لا نقبله.

فأمّا الأوّل المقطوع به: فهو أنّه أُسري به على الجملة. وأمّا الثاني: فمنه: ما روي: أنّه طاف في السماوات، ورأى الأنبياء، والعرش، وسدرة المنتهى، والجنّة والنار، ونحو ذلك. وأمّا الثالث: فنحو ما روي: أنّه رأى قوماً في الجنّة يتنعّمون فيها، وقوماً في النار يعذّبون فيها، فيحمل على أنّه رأى صفتهم أو أسماءهم. وأمّا الرابع: فنحو ما روي: أنّه ﷺ، كلّم الله سبحانه جهرة، ورآه، وقعد معه على سريره، ونحو ذلك ممّا يوجب ظاهره التشبيه، والله سبحانه يتقدّس عن ذلك، وكذلك ما روي أنّه شقَّ بطنه وغسله؛ لأنّه ﷺ، كان طاهراً مطهّراً من كل سوء وعيب، وكيف يطهّر القلب وما فيه من الإعتقاد بالماء.

فمن جملة الأخبار الواردة في قصّة المعراج ما روي أنّ النبيّ ﷺ قال: أتاني جبرائيل عليه السلام وأنا بمكّة، فقال: قم يا محمّد. فقمت معه، وخرجت إلى الباب، فإذا بجبرائيل، ومعه ميكائيل، وإسرافيل. فأتى جبرائيل عليه السلام بالبراق، وكان فوق الحمار ودون البغل، خدّه كخدّ الإنسان، وذنبه كذنب البقر، وعرفه كعرف الفرس، وقوائمه كقوائم الإبل، عليه رحل من الجنّة، وله جناحان من فخذيه، خطوه منتهى طرفه، فقال: إركب. فركبت ومضيت حتى إنتهيت إلى بيت المقدس. ثمّ ساق الحديث إلى أن قال: فلمّا إنتهيت إلى بيت‌المقدس، إذا ملائكة نزلت من السماء بالبشارة و الكرامة من عند ربّ العزّة، وصلّيت في بيت‌المقدس، وفي بعضها

بشَّر [نشر] لي إبراهيم في رهط من الأنبياء، ثمّ وصف موسى وعيسى[١].

ثمّ أخذ جبرائيل عليه السلام بيدي إلى الصخرة، فأقعدني عليها، فإذا معراج إلى السماء لم أر مثلها حسناً وجمالاً، فصعدت إلى السماء الدنيا، ورأيت عجائبها وملكوتها، وملائكتها يسلّمون عليَّ.

ثمّ صعد بي جبرائيل إلى السماء الثانية، فرأيت فيها عيسى بن مريم، ويحيى بن زكريّا. ثمّ صعد بي إلى السماء الثالثة، فرأيت فيها يوسف. ثمّ صعد بي إلى السماء الرابعة، فرأيت فيها إدريس. ثمّ صعد بي إلى السماء الخامسة، فرأيت فيها هارون. ثمّ صعد بي إلى السماء السادسة، فإذا فيها خلق كثير، يموج بعضهم في بعض، وفيها الكرّوبيّون. ثمّ صعد بي إلى السابعة، فأبصرت فيها خلقاً وملائكة.

وفي حديث أبي هريرة: رأيت في السماء السادسة موسى، ورأيت في السماء السابعة إبراهيم عليه السلام. قال: ثمّ جاوزناها متصاعدين إلى أعلى عليّين، ووصف ذلك، إلى أن قال: ثمّ كلَّمني ربّي وكلّمته، ورأيت الجنّة والنار، ورأيت العرش وسدرة المنتهى. ثمّ رجعت إلى مكّة، فلمّا أصبحت، حدثت به بالناس، فكذَّبني أبوجهل والمشركون. وقال مطعم بن عدي: أتزعم أنّك سرت مسيرة شهرين في ساعة، أشهد أنّك كاذب. قالوا: ثمّ قالت قريش: أخبرنا عمّا رأيت، فقال: مررت بعير بني فلان، وقد أضلّوا بعيراً لهم، وهم في طلبه، وفي رحلهم قعب[١] مملوء من ماء، فشربت الماء، ثمّ غطّيته كما كان. فسألوهم [فاسألوهم] هل وجدوا الماء في القدح؟ قالوا: هذه آية واحدة. قال: ومررت بعير بني فلان، فنفرت بكرة فلان، فإنكسرت يدها، فسألوهم عن ذلك، فقالوا: هذه آية أُخرى. قالوا: فأخبرنا عن عيرنا؟ قال: مررت بها بالتنعيم، وبيَّن لهم إجمالها وهيئاتها.

---

(١) ومثل هذا يدلّ على العروج الروحانيّ مع الجسمانيّ.

[١] القعب: القدح الضخم الغليظ.

وقال: تقدَّمها جمل أَورَق، عليه قرارتان محيطتان، ويطلع عليكم عند طلوع الشمس. قالوا: هذه آية أُخرى. ثمّ خرجوا يشتدّون نحو التيه، وهم يقولون: لقد قضى محمّد بيننا وبينه قضاء بيّناً. وجلسوا ينتظرون حتى تطلع الشمس فيكذّبوه. فقال قائل: والله إنّ الشمس قد طلعت. وقال آخر: والله هذه الإبل قد طلعت، يقدمها بعير أورق، فبهتوا ولم يؤمنوا.

وفي تفسير العيّاشي بالإسناد عن أبي بكر، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: لمّا أُسري برسول الله صلى الله عليه وآله إلى السماء الدنيا، لم يمرّ بأحد من الملائكة إلّا إستبشر، قال: ثمّ مرَّ بملك حزين كئيب، فلم يستبشر به، فقال: يا جبرائيل ما مررت بأحد من الملائكة إلاّ إستبشر بي إلاّ هذا الملك، فمن هذا؟ فقال: هذا مالك، خازن جهنّم، وهكذا جعله الله. قال: فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله: يا جبرائيل! إسأله أن يرينيها. قال: فقال جبرائيل عليه السلام: يا مالك: هذا محمّد رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد شكا إليّ. فقال: ما مررت بأحد من الملائكة إلاّ إستبشر بي، إلاّ هذا، فأخبرته أنّ هكذا جعله الله، وقد سألني أن أسألك أن تريه جهنّم؟ قال: فكشف له عن طبق من أطباقها، قال فما رُئِيَ رسول الله صلى الله عليه وآله ضاحكاً حتى قبض.

وعن أبي بصير قال: سمعته يقول: إنّ جبرائيل إحتمل رسول الله، حتى إنتهى به إلى مكان من السماء، ثمّ تركه، وقال له: ما وطأ نبيّ قطّ مكانك.

المعنى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ سبحان: كلمة تنزيه وإبراء لله عزّ إسمه عمّا لا يليق به من الصفات، وقد يراد به: التعجيب، يعني: سبحان الذي سيّر عبده محمّداً صلى الله عليه وآله، وهو عجيب من قدرة الله تعالى، وتعجيب ممّن لم يقدر الله حقّ قدره، وأشرك به غيره. وسرى بالليل، وأسر،ى بمعنى. وقد عدّي هنا بالباء. والوجه في التأويل: أنّه إذا كان مشاهدة العجب سبباً للتسبيح صار التسبيح

تعجّباً[١]. فقيل: سبح أي: عجب.

﴿لَيْلاً﴾ قالوا: كان ذلك الليل قبل الهجرة بسنة ﴿مِنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ وقال أكثر المفسّرين: أسري برسول الله ﷺ، من دار أمّ هاني، أخت عليّ بن أبي طالب، وزوجها هبيرة بن أبي وهب المخزومي، وكان ﷺ نائماً تلك الليلة في بيتها، وأنّ المراد بالمسجد الحرام هنا: مكّة، ومكّة والحرم كلّها مسجد. وقال الحسن، وقتادة: كان الإسراء من نفس المسجد الحرام.

﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى﴾ يعني: بيت المقدس. وإنّما قال الأقصى؛ لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام ﴿الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ أي: جعلنا البركة فيما حوله من الأشجار، والأثمار، والنبات، والأمن، والخصب، حتى لا يحتاجوا إلى أن يجلب إليهم من موضع آخر. وقيل: باركنا حوله أي: البركة فيما حوله بأن جعلناه مقرّ الأنبياء، ومهبط الملائكة، ـ عن مجاهد ـ، وبذلك صار مقدساً عن الشرك؛ لأنّه لما صار متعبّداً للأنبياء، ودار مقام لهم، تفرق المشركون عنهم، فصار مطهّراً من الشرك والتقديس التطهير، فقد إجتمع فيه بركات الدين و الدنيا.

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ أي: من عجائب حججنا، ومنها: إسراؤه في ليلة واحدة من مكّة إلى هناك. ومنها: أن أراه الأنبياء واحداً بعد واحد، وأن عرج به إلى السماء، وغير ذلك من العجائب التي أخبر بها الناس ﴿إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوال

---

(١) الصحيح من الأقوال: أنّ المعراج كان يقظة؛ لأنّ العروج في النوم يمكن لكل أحد، ولايناسب قوله: سبحان الذي. فما نقل عن الحسن البصري وحذيفة بن اليمان: أنّه كان في النوم يخالف الظاهر. وقالت عايشة وغيرها: أنّه ﷺ عرج بروحه. وقالت عايشة: ما فقد جسد رسول الله ﷺ، ولم تكن زوجة له ﷺ حين كان المعراج، فليس قولها عن خبرة باطنة. وأورد الإمام الرازي كثيراً من الشبهات، وأجاب عنها، والمسلم يجب أن يعترف به، ويدفع مايرد في ذهنه من الشبه، بأنّ له مخلصاً لاينبّه له من لاعلم له بدخلة أمر النبوّة.

من صدَّق بذلك، أو كذّب ﴿الْبَصِيرُ﴾ بما فعل من الإسراء، والمعراج.

﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني: التوراة ﴿وَجَعَلْنَاهُ هُدىً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: وجعلنا التوراة حجّة ودلالة، وبياناً وإرشاداً لبني إسرائيل، يهتدون به ﴿أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلاً﴾ أي: أمرهم أن لا يتّخذوا من دوني معتمّداً يرجعون إليه في النوائب. وقيل: ربّاً يتوكّلون عليه.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي: أولاد من حملنا مع نوح في السفينة، فأنجيناه من الطوفان. وقد ذكرنا وجوه ذلك في الإعراب، وعلى هذا يدور المعنى.

﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً﴾ معناه: إنّ نوحاً كان عبداً لله كثير الشكر، وكان إذا لبس ثوباً، أو أكل طعاماً، أو شرب ماء، حمد الله، وشكر له، وقال: الحمدلله. وقيل: إنّه كان يقول في إبتداء الأكل والشرب: بسم‌الله، وفي إنتهائه: الحمد لله. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام، وأبي جعفر عليه السلام: إنّ نوحاً كان إذا أصبح وأمسى، قال: أللهمّ إنّي أشهدك أنّ ما أصبح أو أمسى بي من نعمة، في دين أو دنيا، فمنك وحدك لا شريك لك، لك الحمد، ولك الشكر بها عليَّ، حتى ترضى، وبعد الرضى. وهذا كان شكره.

﴿النَّظْمُ﴾: وجه إتّصال قوله: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ بما قبله: أنّ المعنى فيه سبحان الذي أسرى بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم وأراه الآيات كلّها، كما أرى موسى الآيات والمعجزات الباهرات، وقيل: إنّ معناه: إنّ كونك نبيّاً ليس ببدع، فقد آتيناك الكتاب والحجج، كما آتينا موسى التوراة، فلم أقرّوا به، وأنكروا أمرك، والطريق فيهما واحد؟ وقيل: إنّ معناه: إنّهم كفروا بموسى، كما كفروا بما أخبرتهم به من إسرائك.

وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ
مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا
عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ
وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ
وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾
إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ
وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ
كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ
حَصِيرًا ﴿٨﴾

القراءة: ليَسُوءَ: ـ بفتح الهمزة ـ شاميّ كوفيّ، غير حفص، إلاّ أنّ الكسائي يقرأ بالنون. والباقون: ليسوءوا ـ بالياء، وضمّ الهمزة، على وزن «ليسوعوا» ـ. وفي الشواذّ، قراءة إبن عباس: ﴿لَتُفْسِدُنَّ﴾ ـ بضمّ التاء وفتح السين ـ. وعيسى الثقفي: ﴿لَتَفْسِدُنَّ﴾ ـ بفتح التاء، وضمّ السين ـ. وقراءة عليّ عليه السلام: عبيداً لنا[1].

---

(١) وكذلك في قرائة الحسن، وذكرنا سابقاً أنّه قلّما يروى عن أهل البيت عليهم السلام قرائة، إلّا ويروى عن غيرهم مثلها، وهكذا هنا يوافق القرائة المرويّة عنه عليه السلام قرائة الحسن، وإن لم ينقله المصنّف. لكن نقلها في الإتحاف، وفي رواية عن الباقر عليه السلام: عباداً، كما في القرائة المشهورة، و«عليهم» بالهاء، وكذلك عن الصادق عليه السلام، فإختلف القرائة المرويّة عن أمير المؤمنين ←

وقراءة أبي السماك: فحاسوا ـ بالحاء ـ. وقراءة أبيّ بن كعب: ليسوءاً ـ بالتنوين ـ.

الحجّة: من قرأ: ليسوء ـ بالياء ـ ففاعل «ليسوء» يجوز أن يكون أحد شيئين: إمّا إسم الله تعالى؛ لأنّ الذي تقدم بعثنا ورددنا لكم، وأمددناكم بأموال وبنين. وإمّا البعث. ودلّ عليه بعثنا المتقدّم كقوله: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْراً لَهُمْ﴾ أي: البخل خيراً لهم. ومن قرا: لنسوء ـ بالنون ـ كان في المعنى، كقول من قدر أنّ الفاعل ما تقدّم من إسم الله تعالى، وجاز أن ينسب المساءة إلى الله تعالى، وإن كانت من الذين جاسوا خلال الديار في الحقيقة؛ لأنّهم فعلوا المساءة بقوّة الله تعالى، فجاز أن ينسب إليه.

وأما قوله: ﴿لِيَسُوؤُا﴾ فمعناه: إذا جاء وعد الآخرة أي: وعد المرة الأخرى من قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ بعثناهم ليسوءوا وجوهكم، فحذف «بعثناهم»؛ لأنّ ذكره قد تقدّم. والحجّة في «ليسوؤا» أنّه أشبه بما قبله وما بعده، ألا ترى أنّ قبله: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾، وبعده: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾، والمبعوثون في الحقيقة هم الذين يسوءونهم بقتلهم إيّاهم، وأسرهم لهم، فهو وفق المعنى. وقال ﴿وُجُوهَكُمْ﴾، على أنّ «الوجوه» مفعول به ﴿لِيَسُوءُوا﴾ وعدّي إلى الوجوه؛ لأنّ الوجوه قد يراد به ذو الوجوه، كقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ وقوله: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ و ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾. وقال النابغة:

أَقارِعُ عَوْفٍ، لاٰ أُحَاوِلُ غَيْرَها ... وُجُوهُ قُرودٍ تَبْتَغي مَنْ تُجادِعُ[1]

وأمّا قراءة أُبيّ: ليسوءاً فالوجه فيه على قول إبن جنّي، أن يكون على حذف الفاء، كما يقال: إذا سألتني فَلأعطِكَ، كأنّك تأمر نفسك، ومعناه: فلأعطينّك.

← والصادقين عليهم السلام ويحمل على احد وجهين: الأوّل: أنّه يجوز كل واحد من القرائتين عندهم جميعاً. والثاني: عدم صحّة إحدى الروايتين.

(١) أقارع: أي بني قريع بن عوف. والمجادعة ـ بالجيم ـ: المشاتمة.

واللاَمَان بعده للأمر أيضاً، وهما: وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ، وَلِيُتَبِّرُوا. ويقوّي ذلك: أنّه لم يأت لـ «إذا» جواب فيما بعد. وأمّا من قرأ: لَتُفْسِدُنَّ و لتَفسُدن، فإحدى القراءتين شاهدة للأخرى؛ لأنّ من أفسد فقد فسد. وأمّا حاسوا فمعناه: معنى جلسوا [جاسوا] بعينه.

(اللغة): القضاء: فصل الأمر على إحكام. ومنه: سمّي القاضي. ثمّ يستعمل بمعنى الخلق والإحداث، كما قال: ﴿فَقَضَٰهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾. وبمعنى الإيجاب، كما قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾. وبمعنى الإعلام والإخبار بما يكون من الأمر. وهو المعني هيهنا. وأصله: الإحكام. والعلوّ: الإرتفاع. وعلا فلان الشيء: إذا أطاقه. ويقال: علا في المكارم يعلى على وعلا، فهو علي. وعلا في المكان يعلو علواًفهو عال. والجوس، التخلّل في الديار. يقال: تركت فلاناً يجوس بني فلان. ويجوسهم ويدوسهم أي: يطأهم. قال أبوعبيد: كل موضع خالطته و وطئته فقد حسته وجسته. قال حسان:

وَمِنَّا الَّذي لاٰقىٰ بِسَيْفِ مُحمَّدٍ فَجاسَ بِهِ الأَعْداء عَرْضَ الْعَساكِرِ[1]

وقيل: الجوس طلب الشيء بإستقصاء. والكرة: معناه: الرجعة، والدولة. والنفير: العدد من الرجال. قال الزجّاج: ويجوز أن يكون جمع نفر، كما قيل العبيد والضئين، والمعيز والكليب. ونفر الإنسان ونفره ونفيره ونافرته: رهطه الذين ينصرونه، وينفرون معه. والتتبير: الإهلاك. والتبار والهلاك والدمار، واحد. وكل ما يكسر من الحديد والذهب تبر. والحصير: الحبس، ويقال للملك: حصير؛ لأنّه محجوب. قال لبيد:

وَقَماقِمٌ غُلْبُ الرِّقابِ كَأَنَّهُمْ جِنٌّ لَدىٰ بابِ الْحَصِيرِ قِيامِ[2]

---

(١) العرض: الجند، وهو بدل من الاعداء.

(٢) قماقم: جماعة كثيرة. وغلب: جمع اغلب، غليظ الرقبة.

والحصير: البساط المرمول لحصر بعضه على بعض بذلك الضرب من النسج.

المعنى: لمّا تقدّم أمره سبحانه لبني أسرائيل، عقّب ذلك بذكر ما كان منهم، وما جرى عليهم، فقال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرائِيلَ﴾ أي: أخبرناهم، وأعلمناهم ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي: في التوراة.

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي: حقّاً لاشكّ فيه أنّ خلافكم سيفسدون في البلاد التي تسكنونها كرّتين، وهي بيت المقدس. وأراد بالفساد: الظلم، وأخذ المال، وقتل الأنبياء، وسفك الدماء. وقيل: كان فسادهم الأوّل: قتل زكريّا، والثاني: قتل يحيى بن زكريّا، عن إبن عباس، وإبن مسعود وإبن زيد، قالوا: ثم سلّط الله عليهم سابور ذا الأكتاف، ملكاً من ملوك فارس، في قتل زكريّا، وسلّط عليهم في قتل يحيى بخت نصر، وهو رجل خرج من بابل.

وقيل: الفساد الأوّل: قتل شعيا، والثاني: قتل يحيى، وإنّ زكريّا مات حتف أنفه، عن محمّد بن إسحاق، قال: وأتاهم في الأوّل بخت نصر، وفي الثاني ملك من ملوك بابل. وقيل: كان الأوّل جالوت، فقتله داود عليه السلام، والثانى بخت نصر، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنّه سبحانه ذكر فسادهم في الأرض، ولم يبيّن ما هو، فلا يقطع على شيء ممّا ذكر، ـ عن أبي عليّ الجبائي ـ.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً﴾ أي: ولتستكبرنّ، ولتظلمنّ الناس ظلماً عظيماً. والعلوّ: نظير العتوّ هنا، وهو الجرأة على الله تعالى، والتعرّض لسخطه.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ معناه: فإذا جاء وقت أولى المرّتين اللتين تفسدون فيهما. والوعد هنا: بمعنى الموعود، ووضع المصدر موضع المفعول به أي: إذا جاء الوقت الموعود لإفسادكم في المرّة الأولى.

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي: سلّطنا عليكم عباداً لنا أولي

شوكة وقوّة ونجدة، وخلّينا بينكم وبينهم، خاذلين لكم جزاء على كفركم وعتوّكم، وهو مثل قوله: ﴿أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾، ـ عن الحسن ـ. وقيل معناه أمرنا قوماً مؤمنين بقتالكم وجهادكم؛ لأنّ ظاهر قوله تعالى: ﴿عِبَاداً لَنَا﴾، وقوله: ﴿بَعَثْنَا﴾، يقتضي ذلك، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: يجوز أن يكونوا مؤمنين، أمرهم الله بجهاد هؤلاء. ويجوز أن يكونوا كافرين، فتألفهم نبيّ من الأنبياء لحرب هؤلاء، وسلّطهم على نظرائهم من الكفّار والفساق، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي: فطافوا وسط الديار يتردّدون وينظرون، هل بقي منهم أحد لم يقتلوه، ـ عن الزجّاج ـ. ﴿وَكَانَ وَعْداً مَفْعُولاً﴾ أي: موعوداً كائناً لا خلف فيه.

﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمْ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: رددنا لكم يا بني إسرائيل الدولة، وأظهرناكم عليهم، وعاد ملككم على ما كان عليه ﴿وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي: وأكثرنا لكم أموالكم وأولادكم، ورددنا لكم العدّة والقوّة ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً﴾ أي: أكثر عدداً و أنصاراً من أعدائكم.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ معناه: إن أحسنتم في أقوالكم و أفعالكم، فنفع إحسانكم عائد عليكم، وثوابه واصل إليكم، تنصرون على أعدائكم في الدنيا، وتثابون في العقبى.

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ معناه: وإن أسأتم فقد أسأتم إلى أنفسكم أيضاً؛ لأنّ مضرّة الإساءة عائدة إليها، وإنّما قال: ﴿فَلَهَا﴾ على وجه التقابل؛ لأنّه في مقابلة قوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ كما يقال: أحسن إلى نفسه، ليقابل أساء إلى نفسه؛ ولأن معنى قولك: أنت منتهى الإساءة، وأنت المختصّ بالإساءة، متقارب. فلذلك وضع اللام موضع إلى. وقيل: إنّ قوله: ﴿فَلَهَا﴾ بمعنى: فعليها، كقوله تعالى: ﴿لَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي: عليهم اللعنة. وقيل: معناه: فلها الجزاء والعقاب، وإذا أمكن

حمل الكلام على الظاهر، فالأولى أن لا يعدل عنه. وهذا الخطاب لبني إسرائيل؛ ليكون الكلام جارياً على النسق والنظام.

ويجوز أن يكون خطاباً لأمّة نبيّنا ﷺ، فيكون إعتراضاً بين القصّة، كما يفعل الخطيب والواعظ، يحكي شيئاً ثمّ يعظ، ثمّ يعود إلى الحكاية. فكأنّه لمّا بيّن أنّ بني إسرائيل لمّا علوا وبغوا في الأرض، سلّط عليهم قوماً، ثمّ لمّا تابوا قبل توبتهم، وأظفرهم على عدوّهم، خاطب أمّتنا بأنّ من أحسن عاد نفع إحسانه إليه، ومن أساء عاد ضرره إليه؛ ترغيباً وترهيباً.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ أي: وعد المرّة الأخرى من قوله: ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ والمراد به: جاء وعد الجزاء على الفساد في الأرض في المرّة الأخيرة، أو جاء وعد فسادكم في الأرض في المرّة الأخيرة، أي: الوقت الذي يكون فيه ما أخبر الله عنكم من الفساد والعدوان على العباد.

﴿لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ﴾ أي: غزاكم أعداؤكم، وغلبوكم، ودخلوا دياركم ليسوءوكم بالقتل والأسر. يقال: سئته أُسوؤه مساءة ومسائية وسوائية: إذا أحزنته. وقيل: معناه: ليسوءوا كبراءكم و رؤساءكم. وفي [مساءة] الأكابر وإهانتهم مساءة الأصاغر.

﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ﴾ أي: بيت المقدس ونواحيه. فكنّي بالمسجد، وهو المسجد الأقصى، عن البلد، كما كنّي بالمسجد الحرام عن الحرم. ومعناه: وليستولوا على البلد؛ لأنّه لا يمكنهم دخول المسجد إلاّ بعد الإستيلاء ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ دلَّ بهذا على أنّ في المرّة الأولى قد دخلوا المسجد أيضاً وإن لم يذكر ذلك، ومعناه: وليدخل هؤلاء المسجد كما دخله.

أولئك أول مرة ﴿وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيراً﴾ أي: وليدمّروا ويهلكوا ما غلبوا عليه من بلادكم تدميراً. ويجوز أن يكون ﴿مَا﴾ مع الفعل بتأويل المصدر،

والمضاف محذوف، أي: ليتبرّوا مدّة علوّهم.

﴿عَسَى رَبُّكُمْ﴾ يا بني إسرائيل. ﴿أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾ بعد إنتقامه منكم، إن تبتم ورجعتم إلى طاعته.

﴿وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا﴾ معناه: وإن عدتم إلى الفساد، عدنا بكم إلى العقاب لكم، والتسليط عليكم، كما فعلناه فيما مضى، عن إبن عباس، قال: إنّهم عادوا بعد الأُولى والثانية، فسلَّط الله عليهم المؤمنين يقتلونهم، ويأخذون منهم الجزية إلى يوم القيامة ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ أي: سجناً ومحبساً، ـ عن إبن عباس ـ.

﴿الْقِصَّةَ﴾: إختلف المفسّرون في القصّة عن هاتين الكرّتين، إختلافاً شديداً[1]، فالأولى أن نورد من جملتها ما هو الأهمّ على سبيل الأيجاز، قالوا: لمّا عتا بنو إسرائيل في المرّة الأولى، سلَّط الله عليهم ملك فارس. وقيل: بخت نصر. وقيل ملكاً من ملوك بابل. فخرج إليهم وحاصرهم، وفتح بيت المقدس. وقيل: إنّ بخت نصر ملك بابل بعد سنحاريب، وكان من جيش نمرود، وكان لزانية لا أب له، فظهر على بيت المقدس، وخرب المسجد، وأحرق التوراة، وألقى الجيف في المسجد، وقتل على دم يحيى سبعين ألفاً، وسبى ذراريهم، وأغار عليهم، وأخرج أموالهم، وسبى سبعين ألفاً، وذهب بهم إلى بابل، فبقوا في يده مائة سنة، يستعبدهم المجوس وأولادهم. ثمّ تفضّل الله عليهم بالرحمة، فأمر ملكاً من ملوك فارس، عارفاً بالله سبحانه وتعالى، فردّهم إلى بيت المقدس. فأقاموا به مائة سنة على

---

(١) والقول الصحيح: أنّ المرّة الأولى هي غزاء بخت نصر، حيث أسرهم وخرب المسجد، واتى بهم إلى بابل، فبقوا هناك الى أن إستولى ملك من ملوك فارس مسمّى بكورش، فردّهم إلى الشام، وبنا المسجد لهم، فبقوا مدّة من الدهر، إلى أن بعث يحيى وعيسى عليهما السلام، فعتوا، فبعث الله عليهم ملكاً من الروم حتى إستاصلهم، وخرب المسجد، وبقى خراباً، إلى أن بناه عمر بن الخطاب في خلافته.

الطريق المستقيم، والطاعة والعبادة. ثمّ عادوا إلى الفساد والمعاصي، فجاءهم ملك من ملوك الروم إسمه انطياخوس، فخرب بيت‌المقدس، وسبى أهله. وقيل: غزاهم ملك الرومية، وسباهم، ـ عن حذيفة ـ.

وقال محمّد بن إسحاق: كان بنو إسرائيل يعصون الله تعالى، وفيهم الأحداث، والله يتجاوز عنهم. وكان أوّل ما نزل بهم بسبب ذنوبهم أنّ الله تعالى بعث إليهم شعيا قبل مبعث زكريّا، وشعيا هو الذي بشَّر بعيسى عليه السلام وبمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم، وكان لبني إسرائيل ملك كان شعيا يرشده ويسدده، فمرض الملك، وجاء سنحاريب إلى باب بيت‌المقدس بستّمائة ألف راية، فدعا الله سبحانه شعيا، فبرأ الملك، ومات جمع سنحاريب، ولم ينجُ منهم إلا خمسة نفر، منهم: سنحاريب، فهرب، وأرسلوا خلفه من أخذه.

ثم أمر سبحانه بإطلاقه ليخبر قومه بما نزل بهم، فأطلقوه، وهلك سنحاريب بعد ذلك بسبع سنين، وإستخلف بخت نصر إبن إبنه، فلبث سبع عشرة سنة، وهلك ملك بني إسرائيل، ومرج أمرهم، وتنافسوا في الملك، فقتل بعضهم بعضاً، فقام شعيا فيهم خطيباً، ووعظهم بعظات بليغة، وأمرهم ونهاهم، فهمُّوا بقتله، فهرب ودخل شجرة، فقطعوا الشجرة بالمنشار. فبعث الله إليهم إرميا من سبط هارون، ثمّ خرج من بينهم لما رأى من أمرهم. ودخل بخت نصر وجنوده بيت المقدس، وفعل ما فعل، ثمّ رجع إلى بابل بسبايا بني إسرائيل. وكانت هذه الدفعة الأولى.

وقيل أيضاً: إنّ سبب ذلك كان قتل يحيى بن زكريّا عليه السلام، وذلك أنّ ملك بني إسرائيل أراد أن يتزوّج بنت إمرأته، فنهاه يحيى عليه السلام، وبلغ أمها، فحقدت عليه، وبعثته على قتله، فقتله. وقيل: إنّه لم يزل دم يحيى بن زكريّا عليه السلام يغلي، حتى قتل

بخت نصر منهم سبعين ألفاً، أو إثنين وسبعين ألفاً، ثمّ سكن الدم[١]. وذكر الجميع: إنّ يحيى بن زكريّا هو المقتول في الفساد الثاني، قال مقاتل: كان بين فساد الأوّل والثاني مائتا سنة وعشر سنين. وقيل: إنّما غزا بني إسرائيل في المرّة الأولى بخت نصر، وفي المرّة الثانية ملوك فارس والروم، وذلك حين قتلوا يحيى عليه السلام، فقتلوا منهم مائة ألف وثمانين ألفاً. وخرب بيت المقدس. فلم يزل بعد ذلك خراباً حتى بناه عمر بن الخطاب، فلم يدخله بعد ذلك رومي إلاّ خائفاً. وقيل: إنّما غزاهم في المرّة الأولى جالوت، وفي الثانية بخت نصر، والله أعلم.

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ[٢] ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

(اللغة): ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: مضيئة منيرة نيرّة. قال أبو عمرو: أراد تبصر بها، كما يقال: ليل نائم وسرّ كاتم. وقال الكسائي: العرب تقول: أبصر النهار: إذا أضاء.

---

(١) إنّ يحيى عليه السلام كان بعد ملك بخت نصر، وإشتبه الأمر في ذلك على الراوي.

(٢) ويدع: مكتوب بغير واو في المصاحف كلّها، ولذلك إتّفق القرّاء على ترك الواو، إلاّ ما ينقل في الشواذّ عن يعقوب، من الوقف على الواو. وهذا غير جائز لنا، وإن كان صحيحاً في النحو.

وقيل: المبصرة التي أهلها بصراء فيها، كما يقال: رجل مخبث أي: أهله خبثاء. ومضعف أي: أهله ضعفاء، ولا يكتب الواو في «يَدْعُ» في المصحف، وهي ثابتة في المعنى[1].

﴿الإعراب﴾: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾: فتح ﴿أَنَّ﴾ على تقدير حذف الباء أي: يبشّرهم بأنّ لهم الجنّة. و«أنّ» الثانية معطوفة عليها، ولو كسرت على الإستئناف لجاز، وإن لم يقرأ به أحد. و ﴿أَعْتَدْنَا﴾: أصله: أعددنا، فقلبت إحدى الدالين تاءً؛ فراراً من التضعيف إلى حرف من مخرج الدال. ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمر، يفسّره ما بعده، وهو قوله: ﴿فَصَّلْنَاهُ﴾، والتقدير: وفصّلنا كل شيء.

﴿المعنى﴾: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ معناه: إنّ هذا القرآن يهدي إلى الديانة، والملّة، والطريقة التي هي أشدّ إستقامة يقال: هذه [هداه] الطريق، وللطريق، وإلى الطريق. وقيل: معناه: يرشد إلى الكلمة التي هي أعدل الكلمات وأصوبها، وهي كلمة التوحيد. وقيل: يهدي إلى الحال التي هي أعدل الحالات، وهي توحيد الله، والإيمان به وبرسله، والعمل بطاعته، ـ عن الزجاج ـ.

﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ﴾ أي: بأنّ لهم ﴿أَجْراً كَبِيراً﴾ أي: ثواباً عظيماً على طاعاتهم ﴿وَ﴾ يبشّرهم أيضا بـ ﴿أَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي: بالنشأة الآخرة ﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ أي: هيّأنا لهم ﴿عَذَاباً أَلِيماً﴾ وهو عذاب النار.

---

(١) ليس شدّة المواظبة على حفظ هذه الأمور إلاّ لإعتقادهم وجوبها، ولو كانت الكتابة بأيّ نحو جائزاً، لما حفظوا على حذف الواو على خلاف القاعدة، ولم يرد عن الأئمّة عليهم السلام ردّ وتخطئة في ذلك، حتى انّا لم نر حديثاً واحداً ضعيفاً عنهم، بل المعلوم أنّ المصاحف في أيدي شيعتهم كانت مكتوبة كذلك، وإلاّ لشاع الإختلاف، وتبيّن، والعقل يحكم بحسن ذلك، ووجوب حفظ القرآن عن كل تغيير فيه، حتى يكون صحته وعدم تحريفه، معلوماً للناس إلى يوم القيامة، ويحتجّون به مطمئنّاً.

وإنّما سمّي العذاب أجراً؛ لأنّه يستحقّ في مقابلة عمل، كالأجرة التي تجب في مقابلة عمل، يعود نفعه إلى المستأجر. والثواب يستحقّ على الله تعالى، وإن كان نفعه يعود إلى العامل؛ لأنّه سبحانه أوجب ذلك على نفسه في مقابلة عمل العبد، فضلاً منه وكرماً.

﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ قيل: في معناه أقوال:

أحدها: إنّ الإنسان ربما يدعو في حال الزجر [الضجر] والغضب على نفسه، وأهله، وماله، بما لا يحبّ أن يستجاب له فيه، كما يدعو لنفسه بالخير. فلو أجاب الله دعاءه لأهلكه، لكنّه لا يجيب بفضله ورحمته، ـ عن إبن عباس، والحسن، وقتادة.

والآخر: إنّ معناه: أنّ الإنسان قد يطلب الشرّ لإستعجاله المنفعة.

وثالثها: إنّ معناه: ويدعو في طلب المحظور، كدعائه في طلب المباح.

﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولاً﴾ يعجل بالدعاء في الشرّ، عجلته بالدعاء في الخير، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: يريد ضجراً لا صبر له على ضرّاء، ولا على سرّاء، ـ عن إبن عباس ـ. وروي عنه أيضاً أنّه أراد به آدم عليه السلام، لما إنتهت النفخة إلى سرته، أراد أن ينهض، فلم يقدر، فشبّه الله سبحانه إبن آدم بأبيه في الإستعجال، وطلب الشيء، قبل وقته.

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ أي: دلالتين يدلاّن على وحدانيّة خالقهما، لما في كل واحد منهما من الفوائد، من الكسب بالنهار، والإستراحة بالليل، والزيادة في أجزاء أحدهما بالنقصان من أجزاء الآخر؛ ولأنّ كل واحد منهما ينقضي لمجيء الآخر، وذلك يدلّ على حدوثهما؛ إذ القديم لا يجوز عليه الإنقضاء، وعلى أنّ لهما محدثاً قادراً عالماً، وقد علمنا ضرورة أنّ أحداً من البشر لم يحدثهما؛ لعجز البشر عن ذلك، فدلّ على أنّه من صنع القديم القادر لذاته، العالم

لذاته، الذي ليس كمثله شيء، ولا يتعذّر عليه شيء. وقيل: إنّ الآيتين هنا الشمس و القمر.

﴿فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ﴾ وهي القمر أي: طمسنا نورها بما جعلنا فيها من السواد، ـ عن إبن عباس ـ ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ﴾ يعني: الشمس ﴿مُبْصِرَةً﴾ أي: نيّرة مضيئة للأبصار، يبصر أهل النهار النهار بها. وقيل: إنّ معناه: جعلنا آية الليل ممحوة، والمراد: جعلنا الليل مظلماً، لايبصر فيه، كما لايبصر ما يمحى من الكتاب، وجعلنا آية النهار مبصرة أي: جعلنا النهار مضيئاً، يبصر فيه، وتدرك الأشياء فيه.

وعلى هذا فتكون آية الليل هي الليل نفسه، وآية النهار هي النهار نفسه، كما يقال: نفس الشيء، وعين الشيء، وهذا من عجيب البلاغة. وقيل: إنّ آية الليل ظلمته، وآية النهار ضوؤه، فالمراد: محونا ظلمة الليل بضوء النهار، ومحونا ضوء النهار بظلمة الليل، إلاّ أنّه ذكر أحدهما، وحذف الآخر؛ لدلالة المذكور على المحذوف.

ثمّ بيّن سبحانه الغرض في ذلك، وقال: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: لتسكنوا بالليل، وتطلبوا الرزق بأنواع التصرّف في النهار، إلاّ أنّه حذف لتسكنوا بالليل، لما ذكره في مواضع أُخر.

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ أي: لتعلموا بالليل والنهار عدد السنين والشهور، وآجال الديون، وغير ذلك من المواقيت[1]،ولتعلموا حسنات [حساب]

---

(١) وهذا يدلّ على أنّه يحصل العلم من حساب المنجّمين؛ لأنّه مبنيّ على حركات مضبوطة، لاتتعير إستخرجوها بالإرصاد. وماورد من تخطئتهم، فإنّما هو في الأحكام والإخبار بالغائبات، لامايتوقّف على تسير الكواكب. صرّح بذلك السيّد المرتضى، وحكاه عنه الشيخ الأنصاري.

أعماركم وآجالكم. ولولا الليل والنهار، لماعلم شيء من ذلك ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾ أي: ميّزناه تمييزاً ظاهراً بيّناً لايلتبس، و بيّناه تبياناً شافياً لايخفى.

النظم: إتّصلت الآية الأُولى بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ﴾. والوجه فيه: أنّه لمّا أمر بني إسرائيل بالرجوع إلى الطريق المستقيم، من التوبة، وقبول الإسلام، بيّن أنّ ذلك الطريق هذا الكتاب الذي يدلّ على ما هو أحسن الأديان. وقيل: يتّصل بقوله: ﴿وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي: كما آتيناه التوراة، آتينا محمّداً ﷺ القرآن، الذي يهدي إلى الأحسن الأقوم. وقيل: إتّصل بقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ﴾ كأنّه قال: أسرى بعبده وأتاه الكتاب الذي هذه صفته. وإنما إتّصل قوله: ﴿يَدْعُ الإِنْسَانَ بِالشَّرِّ﴾ الآية، ممّا تقدَّم من بشارة الكفّار بالعذاب، فبيَّن عقيبه أنّهم يستعجلون العذاب جهلاً وعناداً. ثمّ بيَّن أنّه يستجيب لهم ما فيه صلاحهم. ثم بيّن بالآية الأخرى أنّه أنعم عليهم بوجوه النعم، كالليل والنهار، ونحو ذلك، وإن لم يشكروه.

وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ[1] كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: ويُخرَج له ـ بضمّ الياء وفتح الراء ـ. وقرأ يعقوب:

---

(١) ويقف حمزة على «إقرأ» بالإبدال.

ويَخرُج له ـ بفتح الياء وضمّ الراء ـ. والباقون: ﴿وَنُخْرِجُ﴾ ـ بالنون ـ. وقرأ أبو جعفر، وإبن عامر: تُلَقّيه ـ بضمّ التاء، وفتح اللام، وتشديد القاف ـ. والباقون: ﴿يَلْقَيهُ﴾ ـ بفتح الياء، وسكون اللام ـ.

﴿الحجة﴾: من قرأ: ويُخْرَجُ له فمعناه: أنّه يخرج له عمله، أو يخرج له طائره يوم القيامة، كتاباً، ويكون ﴿كِتَاباً﴾ منصوباً على الحال. ومن قرأ: ويَخْرُجُ فتقديره: فيخرج له عمله، أو طائره، ويكون ﴿كَتَاباً﴾ حالا أيضاً من الضمير في «يخرج» كما في الأوّل. ومن قرأ: ﴿وَنُخْرِجُ﴾ ـ بالنون ـ، فيكون ﴿كِتَاباً﴾ مفعولاً لـ «نخرج». ويجوز أن يكون منصوباً على التمييز على معنى: ونخرج طائره له كتاباً. ويجوز أن يكون نصباً على الحال، فيكون بمعنى: ذا كتاب أي: مثبتاً في الكتاب الذي قال فيه: ﴿لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾. وقوله: ﴿مَنْشُوراً﴾: يكون منصوباً؛ على الحال من الهاء في ﴿يَلْقَيهُ﴾ على القراءآت جميعاً. ومن قرأ: ﴿يَلْقَيهُ مَنْشُوراً﴾ فإنّه يدلّ عليه قوله: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ ومن قرأ: ﴿يُلَقّيهُ﴾: فيدلّ عليه قوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلاماً﴾.

﴿اللغة﴾: الإنسان: يقع على المذكّر والمؤنّث، فإذا أردت الفصل، قلت: رجل وإمرأة، مثل ذلك فرس يقع على المذكّر والمؤنّث، فإذا أردت الفصل، قلت: حصان وحجر، وفي الهماليج برذون ورمكة. وكل بعير يقع على المذكّر والمؤنّث، فإذا فصلت قلت: جمل وناقة، وإشتقاق الإنسان من الإنس، أو الأُنس، وهو «فعلان» عند البصريّين. وقال الكوفيّون: هو من النسيان، وأصله: إنسيان، حذفت الياء منه إستخفافاً، وإحتجّوا على ذلك بقول العرب في تصغيره: أنيسيان، وهذه الياء عند البصريّين زائدة، وهو من التصغير الشاذّ عندهم، مثل: عُشَيشة، ومُغَيربان الشمس، ولُيَيلية، وأشباه ذلك. والطائر: هيهنا عمل الإنسان شبه بالطائر الذي يسنح، ويتبرّك به، والطائر الذي يبرح فيتشاءم به. والسانح: الذي يجعل ميامنه

إلى مياسرك. والبارح: الذي يجعل مياسره إلى ميامنك. والأصل في هذا أنّه إذا كان سانحاً، أمكن الرامي، وإذا كان بارحاً لم يمكنه. قال أبو زيد: كل ما يجري من طائر، أو ظبي، أو غيره، فهو عندهم طائر. وأنشد لكثير:

فَلَسْتُ بِنَاسِيها وَلَسْتُ بِتَارِكٍ ... إذا أعْرَضَ الأُدْمُ الجَوارِي سُؤالَها

أأُدْرِكُ مِنَ أُمِّ الْحَكيم غَبيطَةً ... بِها خَبَّرَتْنِي الطَّيْرُ أَمْ قَدْ أَتى لَها[1]

يخبر في البيت الأخير أن الذي زجره طائر. وأنشد لزهير في ذلك:

فَلَمّا أَنْ تَفَرَّقَ آلُ لَيْلَى ... جَرَتْ بَيْنِي، وَبَيْنَهُمُ، ظِباءُ

جَرَتْ سُنُحاً، فَقُلْتُ لَها: مَرُوعاً ... نَوىً مَشْمُولَةً، فَمَتَى اللِّقاءُ[2]

وقال: وقولهم: سألت الطير، وقلت للطير، إنّما هو زجرتها من خير أو شرّ. ويقوّي ما ذكره قول الكميت:

وَلا أَنَا مِمَّنْ يَزْجُرُ الطَّيْرَ، هَمُّهُ: ... أَصاحَ غُرابٌ، أَمْ تَعَرَّضَ ثَعْلَبُ[3]

وأنشد لسحان بن ثابت:

ذَرِينِي وَعِلْمِي بِالأُمُورِ، وَشَيْمَتِي

فَما طائِرِي فِيها عَلَيْكَ بِأَخْيَلا[4]

أي: ليس رأيي بمشؤوم. وأنشد لكثير:

---

(١) يعني: لا أنسي أمّ الحكيم، وإسئل الظباء عنها كلّما رأيت ظبياً، فإنّها من الظباء، يعرفن حالها. والأدم: من الظباء البيض يعلوهنّ جدد الواحد إدماء. والضمير في «سؤالها» للأدم. والغبيطة: شبه الهودج للنساء.

(٢) يعني: جرت الظباء فتفالت بجريها، وقلت لها الفراق مدموم فمتى تلقى ليلى. ومشمولة: أي مذمومه.

(٣) البيت في جامع الشواهد.

(٤) أخيل: طائر يتشأم العرب به. وليس طائرى باخيل: يعني ليس رأيى بمشؤم.

أَقُولُ إِذَا مَا الطَّيْرُ مَرَّتْ مُخيلَةً لَعَلَّكَ يَوْماً فَانْتَظِرْ أَنْ تَنَالَها[١]

وإنَّما قال: ﴿طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، ولم يقل: في يده؛ لينبّه على لزوم ذلك له، وتعلقه به، كما يقال: طوقتك كذا أي: قلّدتك كذا، وألزمته إيّاك. ومنه: قلّده السلطان كذا أي: صارت الولاية في لزومها له في موضع القلادة، ومكان الطوق. قال الأعشى:

قَلَّدْتُكَ الشِّعْرَ يا سَلامَةُ ذَا الا فضالِ، وَالشِّعْرُ حَيْثُ ما جُعِلا

وقال الآخر:

إِنَّ لِي حاجَةً إِلَيْكِ فَقالَتْ: بَيْنَ أُذْنِيْ، وَعاتِقِي، ما تُرِيدُ[٢]

والعرب تقيم هذا العضو مقام الذات، فتقول: أعتقت رقبة، وطوقت عنقي أمانة. ولذلك قال أبو حنيفة: إذا قال الإنسان عنقك أو رقبتك حرٌّ، عتق؛ لأنّه يعبّر بذلك عن جميع البدن. ولو قال: يدك أو شعرك حرٌّ، لا يعتق؛ لأنه لا يعبّر بذلك عن جميع البدن. وقال الشافعي: هما سواء يعتق في الحالين.

الإعراب: موضع ﴿بِنَفْسِكَ﴾: رفع؛ لأنّه فاعل ﴿كَفَىٰ﴾. و ﴿حَسِيباً﴾ نصب على التمييز له. وقال أبوبكر السراج: المعنى كفى الإكتفاء بنفسك، فالفاعل على هذا محذوف، والجارّ والمجرور في موضع النصب على أصله. ﴿حَسِيباً﴾: نصب على الحال من ﴿كَفَىٰ﴾.

المعنى: لمّا قدَّم سبحانه ذكر الوعيد، أتبع ذلك بذكر كيفيّته، فقال: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ معناه: وألزمنا كل إنسان عمله من خير أو شرّ، في عنقه، ـ عن إبن عباس، ومجاهد، وقتادة ـ. يريد: جعلناه كالطوق في عنقه، فلا

---

(١) أصل المخيلة: من أخال السحاب أي: رجى المطر. وخبر «لعلّ» محذوف، يعني: لعلّك تنالها.

(٢) أي: في عتقي وأنا ملتزم به.

يفارقه. وإنّما قيل للعمل طائراً، على عادة العرب في قولهم: جرى طائره بكذا. ومثله: قوله سبحانه ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَاللهِ﴾ وقيل: طائره: يمنه وشؤمه، ـ عن الحسن ـ، وهو ما يتطيّر منه. وقيل: طائره: حظّه من الخير والشرّ، ـ عن أبي عبيدة، والقتيبي ـ. وخصَّ العنق؛ لأنّه محلّ الطوق الذي يزين المحسن، والغلّ الذي يشين المسيء. وقيل: طائره: كتابه. وقيل: معناه: جعلناه لكل إنسان دليلاً من نفسه؛ لأنّ الطائر عندهم يستدلّ به على الأمور الكائنة، فيكون معناه: كل إنسان دليل نفسه، وشاهد عليها، إن كان محسناً فطائره ميمون، وإن أساء فطائره مشؤوم.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً﴾ وهو ما كتبه الحفظة عليهم من أعمالهم ﴿يَلْقٰيهُ﴾ أي: يرى ذلك الكتاب ﴿مَنْشوراً﴾ أي: مفتوحاً معروضاً عليه ليقرأه، ويعلم ما فيه. والهاء في ﴿لَهُ﴾ يجوز أن تكون عائدة إلى الإنسان، ويجوز أن تكون عائدة إلى العمل.

﴿إِقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ هيهنا حذف أي: ويقال له: إقرأ كتابك. قال قتادة: يقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً في الدنيا. وروى جابر بن خالد بن نجيح، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: يذكر العبد جميع أعماله، وما كتب عليه، حتى كأنّه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا: ﴿يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾.

﴿كَفَىٰ بَنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾ أي: محاسباً، وإنّما جعله محاسباً لنفسه؛ لأنّه إذا رأى أعماله يوم القيامة كلّها مكتوبة، ورأى جزاء أعماله مكتوباً بالعدل، لم ينقص عن ثوابه شيء، ولم يزد على عقابه شيء، أذعن عند ذلك وخضع، وتضرّع، وإعترف، ولم يتهيّأ له حجّة ولا إنكار، وظهر لأهل المحشر أنّه لا يظلم. قال الحسن: يا إبن آدم! لقد أنصفك من جعلك حسيب نفسك.

﴿مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ أي: من إهتدى في الدنيا إلى دين الله

وطاعته، فمنفعة إهتدائه راجعة إليه ﴿وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ أي: ومن ضلّ عن الدين، فضرر ضلاله راجع إلى نفسه، وعقوبة ضلاله على نفسه.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ أي: لا تحمل حاملة حمل أخرى أي: ثقل ذنوب غيرها، ولا يعاقب أحد بذنوب غيره. وروي عن النبيّ ﷺ، أنّه قال: لاتحن [تجنى] يمينك على شمالك، وهذا مثل ضربه عليه السلام. وفي هذا دلالة واضحة على بطلان قول من يقول: إنّ أطفال الكفّار يعذّبون مع آبائهم في النار[1].

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ معناه: وما كنّا معذّبين قوماً بعذاب الإستئصال، إلا بعد الإعذار إليهم، والإنذار لهم بأبلغ الوجوه، وهو إرسال الرسل إليهم مظاهرة في العدل، وإن كان يجوز مؤاخذتهم على ما يتعلّق بالعقل معجلاً. فعلى هذا التأويل تكون الآية عامّة في العقليّات والشرعيّات. وقال الأكثرون من المفسّرين وهو الأصحّ: إنّ المراد بالآية: أنّه لا يعذّب سبحانه في الدنيا، ولا في الآخرة، إلاّ بعد البعثة. فتكون الآية خاصّة فيما يتعلّق بالسمع من الشرعيّات. فأمّا ما كانت الحجّة فيه من جهة العقل، وهو الإيمان بالله تعالى، فإنّه يجوز العقاب بتركه، وإن لم يبعث الرسول عند من قال: إنّ التكليف العقلي ينفكّ من التكليف السمعي.

على أنّ المحقّقين منهم يقولون: إنه وإن جاز التعذيب عليه قبل بعثة الرسول، فإنه سبحانه لايفعل ذلك مبالغة في الكرم والفضل والإحسان والطول، فقد حصل من هذا أنّه سبحانه لا يعاقب أحداً حتى ينفذ إليهم الرسل المنبّهين إلى الحقّ، الهادين إلى الرشد، إستظهاراً في الحجّة؛ لأنّه إذا إجتمع داعي العقل، وداعي السمع، تأكّد الأمر، وزال الريب فيما يلزم العبد، وقد أخبر سبحانه في هذه الآية عن ذلك. وهذا لايدلّ على أنّه لو لم يبعث رسولاً لم يحسن منه أن يعاقب، إذا

---

(١) ونجاسة أطفال الكفّار تبعاً لآبائهم لاتدلّ على التعذيب، فربّ طاهر في ظاهر الشرع، يعذّب في الآخرة، وربّ نجس لايعذّب، وليست النجاسة للتقصير.

إرتكب القبائح العقليّة، إلاّ أن يفرض في بعثة الرسول لطفاً، فإنّ عند ذلك لا يحسن منه سبحانه أن يعاقب أحداً، إلاّ بعد أن يوجّه إليه ممّا هو لطف له فيزاح بذلك علّته.

وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا
فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ
ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾
مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ
ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ
سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ
رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا
بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (١)
﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

القراءة: القراءة العامّة: ﴿أَمَرْنَا﴾ ـ بالتخفيف غير ممدود ـ. وقرأ يعقوب:

---

(١) مقتضى كلام المصنّف أنّ قرائة أمير المؤمنين عليه السلام يخالف قرائة الباقر عليه السلام. وقال في فصل الخطاب، وتفريقه بين قرائة الإمامين، تبعاً لما وجده في بعض كتب العامّة، من غير إشارة إلى نكارته عجيب، أقول: توهّم هذا الرجل، إنّ كل ما نسب إلى إمام في كتاب فهو حقّ واقع، وأنّ الرواة معصومون في نقل الأحاديث، ولم يتأمّل في كثرة إختلافها، وإنّ المختلفين لايمكن صحّتهما جميعاً. ثمّ إنّ الإختلاف في القرائة إن ثبت من المعصوم، يدلّ على جواز كلتيهما عندهم عليهم السلام.

آمرنا ـ بالمدّ ـ، وهو قراءة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، والحسن، وأبي العالية، وقتادة، وجماعة. وقرأ: ﴿أمّرنا﴾ ـ بالتشديد للميم ـ: إبن عباس، وأبو عثمان النهدي، وأبو جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام، بخلاف. وقرأ: ﴿أمِرنا﴾ ـ بكسر الميم بوزن «عمرنا»، الحسن، ويحيى بن يعمر.

الحجة: قال أبو عبيدة: أمِرنا: أكثرنا، من قولهم: أمِر بنو فلان أي: كثروا. وأنشد للبيد:

إنْ يُغْبَطُوا يَـهبطُوا، وَإنْ أَمِـرُوا يَوْماً يَصِيرُوا لِلْهُلْكِ، وَالنَّـفَدِ[١]

قال أبو عليّ: لا يخلو قوله: ﴿أَمَرْنَا﴾ ـ مخفّفة الهمزة ـ، من أن يكون فعلنا من الأمر، أو من أمر القوم. وأمرتهم مثل: شَتَرَتْ عينه، وشترتها، ورجع ورجعته، وسار وسرته. فمن لم ير أن يكون «أمرنا» من أَمَرَ القوم: إذا كثروا، كما حكي ذلك يونس عن أبي عمرو، فإنّه ينبغي أن يكون من الأمر الذي هو خلاف النهي، ويكون المعنى: أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا. ومن قرأ: آمرنا فإنّه يكون أفعلنا من أمر القوم، إذا كثروا، وأمرهم الله. وكذلك إن ضاعف العين، فقال: أمّرنا. ويقوّي حمل «أمرنا» على النقل من أمر، وأن لا يجعل من الأمر الذي هو خلاف النهي: أنّ الأمر بالطاعة على هذا يكون مقصوراً على المترفين، فقد أمر الله بطاعته جميع خلقه من مترف وغيره. ويحمل «أمَّرْنا» على أنّه مثل: أمرنا. ونظير هذا كثر، وأكثره الله، وكثّره، ولا يحمل «أمَّرنا» على أنّ المعنى جعلناهم أمراء؛ لأنّه لا يكاد يكون في قرية واحدة جماعة أمراء. فإن قلت: يكون منهم الواحد بعد الواحد، فإنّهم إذا كانوا كذلك لا يكثرون في حال، وإنّما يهلك بكثرة المعاصي في الأرض، وعلى هذا جاء الأمر في التنزيل: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ

---

[١] نَفِدَ الشيءُ نَفَداً ونَفاداً: فني وذهب. الفَنَد: الخَرَف وإنكار العقل من الهَرَم أو المرض.

فَاعْبُدُونِ﴾ فأمرنا بالخروج من الأرض التي تكثر فيها المعاصي إلى ما كان بخلاف هذه الصفة. وممّا جاء فيه أمر بمعنى الكثرة، قول زهير:

وَالْإِثْمُ مِنْ شَرِّ مٰا يُصٰالُ بِهِ وَالْبِرُّ كَالْغَيْثِ نَبْتُهُ أَمْرُ

وأمّا «أَمِرْنا» فقد روى إبن جنّي بإسناده، عن أبي حاتم قال: قال أبو زيد: يقال: أمِر الله ماله وآمره. ومن قال: إنّ «أمرنا» لايكون بمعنى أكثرنا، قال في قوله: «خَيْر المال سِكَّةٌ مَأْبُورة و مُهْرَةٌ مأمورة» أنّ معنى مأمورة: مؤمرة، فإنّما قال هذه لمكان الإزدواج، كما قالوا الغدايا والعشايا والغداة لاتجمع على الغدايا، لكن قيل ذلك ليزدوج الكلام.

﴿اللغة﴾: الترفه: النعمة، قال إبن عرفة: المترف المتروك يصنع ما يشاء، ولا يمنع منه. والتدمير، والإهلاك، والدمار: الهلاك. ويقال: ذممته وذاميته، وذمته، فهو مذموم ومذؤوم ومذيم، بمعنى. ويكون «ذأمته» بمعنى طردته. ويقال: إصنع ذاك وخلاك ذمّ أي: ولاذمّ عليك. والدحر: الإبعاد. والمدحور: المبعد والمطرود. يقال: أللهمّ إدحر عنّا الشيطان أي: أبعده.

﴿الإعراب﴾: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾: موضع ﴿كَمْ﴾ نصب بـ﴿أَهْلَكْنَا﴾، ودخلت الباء في قولك: ﴿بربّك﴾ للمدح، كما تقول: ناهيك به رجلاً، وجاد بثوبك ثوباً، وطاب بطعامك طعاماً، وأكرم به رجلاً، ويكون في كل ذلك في موضع رفع، كما قال الشاعر:[١]

وَيُخْبِرُنِي عَنْ غٰائِبِ الْمَرْءِ هَدْيُهُ كَفَى الْهَدْيُ عَمَّا غَيَّبَ الْمَرءُ مُخْبِراً[١]

فرفع لما أسقط الباء. ويصيلها: في موضع نصب؛ على الحال. ﴿لِمَن نُرِيدُ﴾ بدل من قوله: ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ وأعاد اللام لما كان البدل في تقدير جملة

---

(١) يعني يخبرني عن سره الغائب سيرته الظاهرة.

[١] قائله: زيادة بن زيد العدوي.

أخرى كقوله: ﴿لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ﴾. و﴿مَذْمُوماً﴾: حال من الضمير المستكن في ﴿يَصْلَيْهَا﴾. ﴿كُلًّا نُمِدُّ﴾: نصب ﴿كُلاًّ﴾ بـ﴿نُمِدُّ﴾، و﴿هٰؤُلاَءِ﴾ بدل من قوله: ﴿كُلًّا﴾ أي: نمدّ كل واحد من هؤلاء وهؤلاء.

المعنى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ لمّا لم يجز في العقول تقديم إرادة العذاب على المعصية؛ لأنه عقوبة عليها، ويستحقّه لأجلها، فمتى لم توجد المعصية، لم يحسن فعل العقاب، وإذا لم يحسن فعله، لم تحسن إرادته، إختلفوا في تأويل الآية، وتقديرها على وجوه:

أحدها: إنّ معناه: وإذا أردنا أن نهلك أهل قرية، بعد قيام الحجّة عليهم، وإرسال الرسل إليهم، أمرنا مترفيها أي: رؤساءها وساداتها بالطاعة، وإتّباع الرسل، أمراً بعد أمر، نكرّره عليهم، وبيّنة بعد بيّنة، تيهم بها؛ إعذاراً للعصاة، وإنذاراً لهم، وتوكيداً للحجّة، ففسقوا فيها بالمعاصي، وأبوا إلاّ تمادياً في العصيان، والكفران.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي: فوجب حينئذ عليها الوعيد ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ أي: أهلكناها إهلاكاً. وإنّما خصَّ المترفين، وهم المنعمون والرؤساء بالذكر؛ لأنّ غيرهم تبع لهم، فيكون الأمر لهم أمراً لأتباعهم. وعلى هذا فيكون قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ جواباً لـ«إذا». وإليه يؤول ما روي عن إبن عباس، وسعيد بن جبير، أنّ معناه: أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا. ومثله: أمرتك فعصيتني. ويشهد بصحّة هذا التأويل الآية المتقدّمة، وهي قوله: ﴿مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

وثانيها: إنّ قوله: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ من صفة القرية، وتقديره: وإذا أردنا أن نهلك قرية، صفتها أنّا كنّا قد أمرنا مترفيها، ففسقوا فيها، فلا يكون لإذا جواب ظاهر في اللفظ للإستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة عليه. ونظيره: قوله سبحانه:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ إلى قوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ فلم يأت لإذا جواب في طول الكلام؛ للإستغناء عنه بما في الكلام من الدلالة. وممّا يشهد بصحّة ذلك قول الهذلي:

حَتَّى إِذا [أَ]سَلَكُوهُم فَي قُـتائِدةٍ شَلاًّ كَما تَطْرُدُ الْجَمَّالَةُ الشُّرُدا[1]

فحذف جواب «إِذَا» لأنّ هذا البيت آخر القصيدة.

وثالثها: إنّ الآية محمولة على التقديم والتأخير، وتقديرها: إذا أمرنا مترفي قرية بالطاعة، فعصوا، أردنا إهلاكهم. وممّا يمكن أن يكون شاهداً لهذا الوجه: قوله: ﴿وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاَةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ﴾ وقيام الطائفة معه، يكون قبل إقامة الصلاة؛ لأنّ إقامتها هي الإتيان بجميعها على الكمال، وكذلك قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ والطهارة إنّما تجب قبل القيام إلى الصلاة.

ورابعها: إنّه سبحانه ذكر الإرادة على وجه المجاز والإتّساع، وإنّما عني بها قرب الهلاك، والعلم بكونه لامحالة، كما يقال إذا أراد العليل أنْ يموت: خلط في مأكله، ويسرع إلى ما تتوق نفسه إليه، وإذا أراد التاجر أن يفتقر: أتاه الخسران من كل وجه، ومعلوم أنّ العليل والتاجر لم يريدا في الحقيقة شيئاً، لكن لمّا كان من المعلوم من حال هذا الهلاك، ومن حال ذلك الخسران، حسن هذا الكلام، وأستعمل ذكر الإرادة لهذا الوجه. ولكلام العرب إشارات وإستعارات ومجازات، لأجلها كان كلامهم في الغاية القصوى من الفصاحة. والوجه الأوّل عندي أصحّ

---

(١) قتائدة: تل صعب السبور. وشلاّ: مصدر شللت الإبل شلاّ أي: طردتها. وفي نسخة: ثلا ـ بالثاء ـ. والشين أصحّ. والجمّالة: أصحاب الجمل. والشرد: جمع شارد. والشعر لعبد مناف بن ربع الهذلي.

الوجوه، وأقربها إلى الصواب، إذا تأوّلت الآية على الأمر الذي هو ضدّ النهي. فأمّا إذا تأوّلت الآية على معنى القراءتين الأخيرتين من «آمرنا» ـ بالمدّ ـ و «أمّرنا» ـ بالتشديد ـ، فلن يخرج على هذا الوجه، وتكون محمولة على أحد الأوجه الثلاثة الأخر.

ثمّ بيَّن سبحانه ما فعله من ذلك بالقرون الخالية، فقال: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرونِ﴾ أي: من الأمم الكثيرة المكذّبة ﴿مِنْ بَعْدِ نُوحٍ﴾ أي: من بعد زمان نوح إلى زمانك هذا؛ لأنّ ﴿كَمْ﴾ تفيد التكثير، كما أنّ ﴿ربّ﴾ تفيد التقليل. والقرن مائة وعشرون سنة، ـ عن عبدالله بن أبي أوفى ـ. وقيل: مائة سنة، ـ عن محمّد بن القسم المازني ـ، وروي ذلك مرفوعاً. وقيل: ثمانون سنة ـ عن الكلبيّ ـ. وقيل: أربعون سنة، ورواه إبن سيرين مرفوعاً ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً﴾ أي: كفى ربّك عالماً بذنوب خلقه ﴿بَصِيراً﴾ بها، يجازيهم عليها، ولا يفوته شيء منها.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه يدبّر عباده بحسب ما يراه من المصلحة، فقال: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: النعم العاجلة، وهي الدنيا، فعبَّر عنها بصفتها ﴿عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ﴾ من البسط والتقتير. وعلَّق ذلك بمشيئته لابمشيئة العبد، فقد يشاء العبد ما لا يشاؤه الله، فلا يعطيه لكونه مفسدة ﴿لِمَنْ نُرِيدُ﴾ أي: لمن نريد إعطاءه. بيّن بذلك أنّه ربما يكون حريصاً يريد الدنيا، فلا يعطى، وإن أُعطي أُعطي قليلاً.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا﴾ أي: يصير بصلالها [صلاها]، ويحترق بنارها ﴿مَذْمُوماً﴾ ملوماً ﴿مَدْحُوراً﴾ مبعداً من رحمة الله. وروي عن إبن عبّاس أنّ النبيّ ﷺ قال: معنى الآية: من كان يريد ثواب الدنيا بعمله الذي إفترضه الله عليه، لايريد به وجه الله والدار الآخرة، عجَّل له فيها ما يشاء الله من عرض الدنيا، وليس له ثواب في الآخرة، وذلك أنّ الله سبحانه وتعالى يؤتيه ذلك ليستعين به

على الطاعة، فيستعمله في معصية الله، فيعاقبه الله عليه.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ أي: ومن أراد خير الأخرة، ونعيم الجنّة ﴿وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: فعل الطاعات، وتجنّب المعاصي، وهو مع ذلك مصدّق بتوحيد الله تعالى، مقرّ بأنبيائه.

﴿فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾ أي: تكون طاعتهم مقبولة. وقيل: شكره أنّه سبحانه يضاعف حسناتهم، ويتجاوز عن سيّئاتهم، ـ عن قتادة ـ. والمعنى: أنّا أحللنا سعيهم محلّ ما يشكر عليه في حسن الجزاء. وروي عن الحسن أنّه قال: أُطلبوا الآخرة، فما رأيت طالباً لها إلاّ نالها، وربما نال الدنيا. وما رأيت طالب دنيا نال الآخرة، وربما لاينال الدنيا أيضاً.

﴿كُلاً نُمِدُّ هَؤُلَاء وَهَؤُلَاءِ﴾ أي: كل واحد من هذين الفريقين ممّن يريد الدنيا، وممّن يريد الآخرة نمدّهم أي: نزيدهم. وقيل: كلاً نعطي من الدنيا البرّ والفاجر، ـ عن الحسن ـ. والمعنى: أنّا نعطي المؤمن والكافر في الدنيا، وأمّا الآخرة فللمتّقين خاصّة.

﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ أي: نعمة ربّك، ورزقه ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾ معناه: وما كان رزق ربّك محبوساً عن الكافر لكفره، ولا عن الفاسق لفسقه.

سؤال: فإن قيل: هل يجوز أن يريد المكلّف بعمله العاجل والآجل؟

والجواب: نعم إذا جعل العاجل تبعاً للآجل، كالمجاهد في سبيل الله، يقاتل لإعزاز الدين، ويجعل الغنيمة تبعاً.

﴿انظُرْ﴾ يا محمّد ﴿كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بأن جعلنا بعضهم أغنياء، وبعضهم فقراء، وبعضهم موالي، وبعضهم عبيداً، وبعضهم أصحّاء، وبعضهم مرضى، على حسب ما علمناه من المصالح.

﴿وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾ أي: درجاتها ومراتبها أعلى وأفضل، وهي مستحقّة على قدر الأعمال، فينبغي أن تكون رغبتهم في الآخرة، وسعيهم لها أكثر. قد روي أنّ ما بين أعلى درجات الجنّة، وأسفلها، ما بين السماء والأرض. وفي الآية دلالة على أنّ الطاعة لا تزيد في رزق الدنيا، وإنّما تزيد في درجات الآخرة.

﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ قيل: إنّ الخطاب للنبيّ ﷺ. والمراد به: أُمّته. وقيل: معناه: لاتجعل أيّها السامع، أو أيّها الإنسان، مع الله إلهاً آخر في إعتقادك وإقرارك، ولا في عبادتك، ولا في رغبتك ورهبتك.

﴿فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَخْذُولاً﴾ معناه: فإنّك إن فعلت ذلك، قعدت وبقيت ما عشت مذموماً على لسان العقلاء، مخذولا، ولا ناصر لك يمنع الله نصرته عنك، ويكلك إلى ما أشركت به. وقيل: معنى القعود: الذلّ، والخزي، والخسران، والعجز، لا الجلوس، كما يقال: قعد به الضعف عن القتال أي: عجز عنه.

النَّظْمُ: وجه إتّصال الآية الأولى بما قبلها، أنّها إتّصلت بقوله: ﴿حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ والمعنى: أنّه لا يعذّب إلّا بعد إرسال الرسل، وتقديم الأمر والنهي، وإتمام النعمة في الإنذار والإعذار، وظهور العصيان من الكفّار والفجّار. وقيل: إنّها تتّصل بما تقدّم من قصّة بني إسرائيل، وما فعل بهم في الكرة الأولى والثانية، فبيَّن سبحانه أنّ ما فعله موافق لعادته فيمن يريد إهلاكه، فإنّما يهلك القرى إذا أمر مترفيها بالطاعة ففسقوا، فيكون إهلاكهم بالإستحقاق، لا على الإبتداء.

﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ (١) ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

القراءة: يبلغان ـ بالألف وكسر النون ـ كوفيّ، غير عاصم. والباقون: يبلغن. أفّ: ـ بفتح الفاء هيهنا وفي الأنبياء والأحقاف ـ، مكّيّ شاميّ. ويعقوب، وسهل: وإفٍ ـ بالكسر والتنوين في الجميع ـ مدنيّ. وحفص والباقون: إفْ ـ بالكسر غير منوّن ـ. وفي الشواذّ، قراءة أبي السماك: أُفْ ـ مضمومة غير منوّنة ـ. وقرأ ابن عباس: أف ـ خفيفة، [ساكنة] وجناح الذِل ـ بكسر الذال ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: قوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ﴾ يرتفع ﴿أَحَدُهُمَا﴾ به، وقوله: ﴿كِلَاهُمَا﴾ معطوف عليه، والذكر الذي عاد من قوله: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ يغني عن إثبات علامة الضمير في «يبلغان»، فلا وجه لقول من قال: إنّ الوجه إثبات الألف؛ لتقدّم ذكر الوالدين، عني به الفرّاء. وإنّما الوجه في ذلك: أنّه على الشيء الذي يذكر على وجه التوكيد، ولو لم يذكر لم يقع بترك ذكره إخلال، نحو قوله: ﴿أَمْوَاتٌ

---

(١) ربّكم أعلم بما في نفوسكم؛ لأنّ الإنسان ربما يحصل أمر في ذهنه لايستطيع أن يعبر عنه، ولايعرف تفصيلاً ما أراد، ولذلك ذكر الفقهاء في كتاب اليمين مفاد ألفاظ يحلف الإنسان عليها، وحكموا بوجوب العمل بها؛ لأنّه حلف حقيقة على مدلول اللفظ، وإن لم يعرفه تفصيلاً، لكن الله يعلمه، ولو كان مثل تلك الألفاظ في صيغ العقود كانت باطلة لإجمالها.

غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾.

فقوله: ﴿غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ توكيد؛ لأنّ قوله: ﴿أَمْوَاتٌ﴾ يدلّ عليه، فيكون الألف مجرّدة لمعنى التثنية، ولا حظّ للإسميّة فيها. ويرتفع ﴿أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ بالفعل. وقال الزجّاج: يكون ﴿أَحَدُهُما أَوْ كِلَاهُمَا﴾ بدلاً من الألف في «يبلغان». قال أبو عليّ: من قرأ: ﴿أُفٍّ﴾ ـ بالفتح ـ فإنّه بناه على الفتح، كقولهم: سرعان ذا إهالة، وهو إسم لسرع. ومثله: وشكان. قال:

لَـوشكانَ مـا عَـنَّيتُمُ، وَشَـمِتُّمُ بِإِخْوانِكُمْ، وَالْعِزُّ لَمْ يَـتَجَمَّعُ[1]

وكذلك ﴿أُفٍّ﴾ إسم لأَتضَجَّر، وأتكرّه، ونحو ذلك. ومن قرأ: ﴿أُفٍّ﴾ فإنّه بدخول التنوين يدلّ على التنكير مثله: مهٍ، وصهٍ. ومثله: قولهم: «فداء لك» بـنوه على الكسر، وإن كان في الأصل مصدراً، كما كان ﴿أُفٍّ﴾ في الأصل مصدراً من قولهم: أُفَّةً وتُفَّةً، يراد بها نتناً ود[ذ]فراً. ومن قرأ: ﴿أُفٍّ﴾ ولم ينوّن، جعله معرفة، فلم ينوّن، كما أنّ من قال: صه وغاق، فلم ينوّن، أراد به المعرفة.

فإن قلت: ما موضع ﴿أُفٍّ﴾ في هذه اللغات بعد القول، هل يكون موضعه نصباً، كما ينتصب المفرد بعده، أو يكون كما تكون الجمل؟ فـالقول: إنّ مـوضعه موضع الجمل، كما أنّك لو قلت: رويد، لكان موضعه موضع الجمل.

قال الزجّاج: في ﴿أُفٍّ﴾ سبع لغات: أفّ ـ بالضمّ ـ منوّناً وغير منوّن، وأُفّ ـ بالكسر ـ منوّناً وغير منوّن، وأُفَّ، وأُفاً، وأُفّي ممالة، وزاد ابن الأنباري: أُف خفيفة ساكنة، وأفَ خفيفة مفتوحة.

قال أبو الحسن: وقول الذين قالوا: ﴿أُفٍّ﴾ أكثر وأجود. ولو قلت: أُف لك، وأُفاً لك، لإحتمل وجهين: أحدهما: أن يكون الذي صار إسماً للفعل لحقّه التنوين

---

(١) ما أسرع اتعابكم وشماتتكم بإخوانكم.

علامة للتنكير. والآخر: أن يكون نصباً معرّباً، وكذا الضمّ، فإن لم يكن معه لك كان ضعيفاً. ألا ترى أنّك لا تقول: ويل، ولو قلته لم يستقم حتى يوصل به لك فيكون في موضع الخبر. والذلّ: ضدّ الصعوبة. والذلّ: ضدّ العزّ. والأوّل: في الدابّة، والثاني: في الإنسان.

﴿الإعراب﴾: قوله: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾: العامل في الباء ﴿وَقَضَى﴾، والتقدير: وقضى بالوالدين إحساناً. ويجوز أن يكون على تقدير: وأوصى بالوالدين إحساناً، وحذف؛ لدلالة الكلام عليه. قال الشاعر:

عَجِبْتُ مِنْ دَهْماءَ إِذْ تَشْكُونا ... وَ مِنْ أَبِي دَهْماءَ إِذْ يُوصِينا

خَيْراً بِها كَأَنَّنا خافُونا

فاعمل يوصينا في الخير. ﴿كَمَا رَبَّيَانِي﴾ أي: كرحمة تربيتهما يعني: رحمة تحدث عند التربية، كما تقول: ضرر التلف. وقيل: الكاف بمعنى «على» أي: إرحمهما على ما ربّياني، ـ عن الأخفش ـ. وكذا قال في قوله: كما أمرت أي: على ما أمرت ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ منكم، فحذف. ويجوز أن يكون على كان لكم، فوضع الظاهر موضع المضمر؛ لأنّهم الصالحون.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم النهي عن الشرك والمعاصي، عقّب سبحانه بالأمر بالتوحيد والطاعات، فقال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ﴾ أي: أمر ربّك أمراً باتّاً، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة ـ. وقيل: ألزم وأوجب ربّك، ـ عن الربيع بن أنس ـ. وقيل: أوصى، ـ عن مجاهد ـ. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ معناه: أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره.

فإن قيل: إنّ الأمر لا يكون أمراً بأن لا يكون الشيء، لأنّ الأمر يقتضي إرادة المأمور به، والإرادة لا تتعلّق بأن لا يكون الشيء، وإنّما تتعلّق بحدوث الشيء؟ فالجواب: إن المعنى: أراد منكم عبادته على وجه الإخلاص، وكره منكم

عبادة غيره، وعبّر عن ذلك بقوله: أمر أن لا تعبدوا إلّا إيّاه.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً﴾ أي: وقضى بالوالدين إحساناً، أو أوصى بالوالدين إحساناً، ومعناهما واحد؛ لأنّ الوصيّة أمر ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ يعني: به الكبر في السنّ، والمعنى: إن عاشا عندك أيّها الإنسان المخاطب حتى يكبرا، أو عاش أحدهما حتى يكبر، يريد إن بلغا في السنّ مبلغاً، يصيران بمنزلة الطفل الذي يحتاج إلى متعهّد، وخصّ حال الكبر، وإن كان من الواجب طاعة الوالدين على كل حال؛ لأنّ الحاجة أكثر في تلك الحال إلى التعهّد والخدمة. وهذا مثل قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً﴾ مع أنّ الناس كلّهم يتكلّمون في حال الكهولة. والوجه فيه أنّه سبحانه أخبر أنّ عيسى يكلّم الناس في المهد، وأنّه يعيش حتى يكهل، ويتكلّم بعد الكهولة، ونحو ذلك قوله: ﴿وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾. وإنّما خصَّ ذلك اليوم؛ لأنّه لا يملك فيه أحد سواه. وقيل: إنّ الكبر في الآية راجع إلى المخاطب أي: إن بلغت حال الكبر، وهو حال التكليف، وقد بقي معك أبواك أو أحدهما.

﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ وروي عن عليّ بن موسى الرضا، عن أبيه، عن جدّه أبي عبدالله عليه السلام قال: لو علم الله لفظة أوجز في ترك عقوق الوالدين من ﴿أُفٍّ﴾ لأتى به. وفي رواية أخرى عنه قال: أدنى العقوق ﴿أُفٍّ﴾، ولو علم الله شيئاً أيسر منه وأهون منه، لنهى عنه[1]. وفي خبر آخر: فليعمل العاقّ ما يشاء أن يعمل، فلن

---

(١) وفي هذه الآيات تكليف بأمور لاحدّ لأقلّها وأكثرها، كالإحسان، وخفض جناح الذلّ، وعدم النهر، وكذلك لاحدّ لكبر الوالدين، فيجب على الإنسان التحرّي والإجتهاد بكل ما قدر عليه، ولذلك قال تعالى بعد ذلك: ربّكم أعلم بما في نفوسكم، فربما يقصر الإنسان في تكاليفه، وفي ظنّه أنّه قضى ما عليه، وليس كذلك، وهنا شيء: وهو أنّه قد يطلق لفظ عامّ على معنى خاصّ، كالحين على ستّة أشهر، وهو دليل صحّة الإطلاق عليه، لا الإنحصار فيه، فإن نذر أن يبقى في مكّة حيناً مثلاً، يجزيه ستّة أشهر، ولا يتعيّن عليه.

يدخل الجنّة. فالمعنى: لا تؤذهما بقليل ولا كثير. قال مجاهد: معناه: إن بلغا عندك من الكبر ما يبولان ويحدثان، فلا تتقذّرهما، وأَمِط عنهما كما كانا يميطان عنك في حال الصغر. والمتبرّم يكثر قول ﴿أُفٍّ﴾، وهي كلمة تدلّ على الضجر. وقيل: إنّ «الأفّ، والتفّ» وسخ الأصابع إذا فتلته، ـ عن إبي عبيدة ـ. وقيل: هي كلمة كراهة، ـ عن ابن عبّاس ـ. وقيل: معناه: النتن، وجاء في المثل: أبرُّ من النسر، قالوا: لأنّ النسر إذا كبر ولم ينهض للطيران، جاء الفرخ فزقه، كما كان أبواه يزقانه.

﴿وَلاَ تَنْهَرْهُمَا﴾ أي: لاتزجرهما بإغلاظ وصياح. وقيل: معناه: لاتمتنع من شيء أراداه منك، كما قال: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ﴾.

﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً﴾ أي: وخاطبهما بقول رقيق [فيق] لطيف، حسن جميل، بعيد عن اللغو والقبيح، يكون فيه كرامة لهما، ويدلّ على كرامة المقول له على القائل. وقيل: معناه: قل لهما قول العبد المذنب للسيّد الفَظّ الغليظ، ـ عن سعيد بن المسيّب ـ.

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ﴾ أي: وبالغ في التواضع والخضوع لهما، قولاً وفعلاً، برّاً بهما، وشفقة عليهما، والمراد بالذلّ: هيهنا اللين والتواضع، دون الهوان. مِن خفض الطائر جناحه: إذا ضمّ فرخه إليه، فكأنّه سبحانه قال: ضمّ أبويك إلى نفسك، كما كانا يفعلان بك، وأنت صغير. وإذا وصفت العرب إنساناً بالسهولة، وترك الآباء، قالوا: هو خافض الجناح. وقال أبو عبدالله عليه السلام: معناه: لا تملأ عينيك من النظر إليهما، إلّا برأفة ورحمة، ولا ترفع صوتك فوق أصواتهما، ولا يديك فوق أيديهما، ولا تتقدّم قدّامهما.

﴿وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾ معناه: أدع لهما بالمغفرة والرحمة في حياتهما، وبعد مماتهما؛ جزاء لتربيتهما إيّاك في صباك، وهذا إذا كانا مؤمنين. وفي هذا دلالة على أنّ دعاء الولد لوالده الميّت مسموع، وإلّا لم يكن للأمر به

معنى. وقيل: إنّ الله تعالى أوصى الأبناء بالوالدين؛ لقصور شفقتهم، ولم يوص الوالدين بالأبناء لوفور شفقتهم. وذكر حال الكبر؛ لأنّهما أحوج في تلك الحال إلى البرّ؛ لضعفهما وكونهما كَلاًّ على الولد. ففي الحديث: إنّ النبيّ ﷺ قال: رغم أنفه! رغم أنفه! رغم أنفهْ قالوا: مَن يا رسول الله! قال: من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كلاهما، ولم يدخل الجنّة. أورده مسلم في الصحيح.

وروى أبو أسيد الأنصاري قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجل من بني سلمة، فقال: يا رسول الله! هل بقي مِن برّي أبويَّ شيء أبرّهما به بعد موتهما؟ قال: نعم الصلاة عليهما، والإستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وإكرام صديقهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلّا بهما، قال قتادة: هكذا علمتم، وبهذا أُمرتم، فخذوه بتعليم الله وأدبه.

﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ﴾ أي: أكثر معلوماً. وقيل: أثبت علماً، فإنّه سبحانه أعلم بأنّ الجسم حادث من الإنسان العالم بذلك ﴿بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ أي: بما تضمرون من البرّ والعقوق، فمن ندرت منه نادرة، وهو لا يضمر عقوقاً، غفر الله له ذلك. وقيل: معناه: إنّه أعلم بجميع ما في ضمائركم. وهذا أوجه ﴿إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾ أي: طائعين لله.

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً﴾ والأوّاب: التوّاب [النوّاح] المتعبّد، الراجع عن ذنبه، ـ عن مجاهد ـ. وروي ذلك عن أبي عبدالله عليه السلام وقيل: إنّ الأوابين المطيعون المحسنون، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنّهم الذين يذنبون ثمّ يتوبون. ثمّ يذنبون ثمّ يتوبون، ـ عن سعيد بن المسيّب ـ. وقيل: هم الراجعون إلى الله فيما ينوبهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هم المسبّحون، ـ عن ابن عباس في رواية أُخرى ـ. ويعضده قوله: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ﴾. وقيل: إنّهم الذين يصلّون بين المغرب والعشاء، روي ذلك مرفوعاً. وروى هشام بن سالم، عن أبي عبدالله عليه السلام قال: صلاة أربع ركعات،

يقرأ في كل ركعة خمسين مرّة ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ هي صلاة الأوّابين.

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

(اللغة): التبذير: التفريق بالإسراف، وأصله أن يفرق كما يفرق البذر، إلّا أنّه يختصّ بما يكون على سبيل الإفساد، وما كان على الإصلاح لا يسمّى تبذيراً، وإن كثر. قال النابغة:

تَرائِبُ يَسْتَضِيءُ الْحَلْيُ فِيها ... كَجَمْرِ النَّارِ بَذَّرَ بِالظَّلامِ[1]

والإعراض: صرف الوجه عن الشيء، وقد يكون عن قلى، وقد يكون للإشتغال بما هو الأولى، وقد يكون للإذلال، كما قال: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾. وأصل الحسر: الكشف من قولهم: حسر عن ذراعه يحسر حسراً: إذا كشف عنه. والحسرة: الغمّ لإنحسار ما فات. ودابّة حسير: إذا كلّت لشدّة السير لإنحسار قوتها بالكلال. ومنه: قوله: ﴿يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾. والمحسور: المنقطع

(١) الترائب: ترائب الصدر، يصف إمرأة، والحلى على صدرها.

به لذهاب ما في يده، وإنحساره عنه. قال الهذلي:

إِنَّ الْـعَسِيرَ بِـهَاداءٌ مُـخَامِرُهَا فَشَطْرَهَا نَظَرُ الْعَيْنَيْنِ مَحْسُورُ(١)

ويقال: حسرت الرجل بالمسألة: إذا أفنيت جميع ما عنده.

﴿الإعراب﴾: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ﴾: تقديره: وإن تعرض. وما: مزيدة. و ﴿ابْتِغَاءَ﴾: مفعول له. وقيل: هو مصدر وضع موضع الحال أي: مبتغياً رحمة من ربّك ترجوها أي: راجياً إيّاها. و﴿تَرْجُوهَا﴾: جملة في موضع الجرّ بكونها صفة «لرَحْمَةً». ويجوز أن يكون في موضع النصب؛ على الحال من الضمير في ﴿تُعْرِضَنَّ﴾.

﴿المعنى﴾: ثمّ حثَّ سبحانه نبيَّه ﷺ على إيتاء الحقوق لمن يستحقّها على كيفيّة الإنفاق، فقال: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ معناه: وأعط القرابات حقوقهم التي أوجبها الله لهم في أموالكم، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. وقيل: إنّ المراد: قرابة الرسول، عن السدّي قال: إنّ عليّ بن الحسين عليه السلام، قال لرجل من أهل الشام، حين بعث به عليه السلام عبيدالله بن زياد إلى يزيد بن معاوية: أقرأت القرآن؟ قال: نعم قال: أما قرأت: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ قال: وإنّكم ذوالقربى الذي أمر الله أن يؤتى حقّه؟ قال: نعم.

وهو الذي رواه أصحابنا عن الصادقين عليهما السلام. وأخبرنا السيّد أبو الحمد مهدي ابن نزار الحسيني قراءة، قال: حدّثنا أبوالقاسم عبيدالله بن عبدالله الحسكاني قال: حدّثنا الحاكم الواحد أبو محمّد قال: حدّثنا [عبدالله] عن عمر بن أحمد بن عثمان ببغداد شفاهاً قال: أخبرني عمر بن الحسن بن عليّ بن مالك قال: حدّثنا جعفر بن محمّد الأحمسي قال: حدّثنا حسن بن حسين قال: حدّثنا أبو معمر سعيد بن خثيم، وعليّ بن القاسم الكندي، ويحيى بن يعلى، وعليّ بن مسهر، عن فضل بن

---

(١) العسير: الناقة لم ترض، والتي لم تحمل. وعسرت الناقة: شالت بذنبها. وقوله: فشطرها: منصوب على الظرف.

مرزوق، عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري قال: لمّا نزل قوله: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ أعطى رسول الله ﷺ فاطمة فدكاً. قال عبدالرحمن بن صالح: كتب المأمون إلى عبدالله بن موسى يسأله عن قصّة فدك، فكتب إليه عبدالله بهذا الحديث رواه الفضيل بن مرزوق، عن عطيّة، فردّ المأمون فدكاً إلى ولد فاطمة عليها السلام.

﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ معناه: وآت المسكين حقّه الذي جعله الله له من الزكاة وغيرها، وآت المجتاز المنقطع عن بلاده حقّه أيضاً ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ قيل: إنّ المبذّر الذي ينفق المال في غير حقه، ـ عن ابن عباس، وابن مسعود ـ. وقال مجاهد: لو أنفق مدّاً في باطل كان مبذّراً، ولو أنفق جميع ماله في الحقّ، لم يكن مبذّراً. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام: إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام قال لعناية: كن زاملة للمؤمنين، وإنّ خير المطايا أمثلها وأسلمها ظهراً، ولا تكن من المبذّرين.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ معناه: إنّ المسرفين أتباع الشياطين سالكون طريقهم. وهذا كما يقال لمن لازم السفر: هو أخو السفر. وقيل: معناه: إنّهم قرناء الشياطين في النار. ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ أي: كان الشيطان في قديم مذهبه كثير الكفر مرّة بعد أُخرى.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ﴾ أي: وإن تعرض عن هؤلاء الذين أمرتك بإيتاء حقوقهم عند مسألتهم إيّاك؛ لأنّك لاتجد ذلك حياء منهم ﴿ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا﴾ أي: لتبتغي الفضل من الله، والسعة التي يمكنك معها البذل بأمل تلك السعة، وذلك الفضل.

﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً﴾ أي: عدهم عدة حسنة، وقل لهم قولاً سهلاً ليناً يتيسّر عليك. وروي أنّ النبيّ ﷺ كان لمّا نزلت هذه الآية إذا سئل، ولم يكن عنده ما يعطي، قال: يرزقنا الله وإيّاكم من فضله.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾ أي: لا تكن ممّن لا يعطي شيئا، ولا

يهب، فتكون بمنزلة من يده مغلولة إلى عنقه، لا يقدر على الإعطاء والبذل. وهذا مبالغة في النهي عن الشحّ والإمساك ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ أي: ولا تعطِ أيضاً جميع ما عندك، فتكون بمنزلة من بسط يده، حتى لا يستقرّ فيها شيء. وهذا كناية عن الإسراف.

﴿فَتَقْعُدَ مَلُوماً﴾ تلوم نفسك وتلام ﴿مَحْسُوراً﴾ منقطعاً به، وليس عندك شيء، ـ عن السدّي، وابن عباس ـ. وقيل: عاجزاً نادماً، ـ عن قتادة ـ. وقيل: محسوراً من الثياب. والمحسور: العريان، ـ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ. وقيل: معناه: إن أمسكت قعدت ملوماً مذموماً، وإن أسرفت بقيت متحسّراً مغموماً، ـ عن الجبائي ـ. وقال الكلبي: لاتعط ما عندك جميعاً، فيجيء الآخرون يسألونك، فلا تجد ما تعطيهم فيلومونك.

وروي أنّ إمرأة بعثت إبنها إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وقالت: قل له: إنّ أُمّي تستكسيك درعاً، فإن قال: حتى يأتينا شيء، فقل له: إنّها تستكسيك قميصك! فأتاه، فقال ما قالت له. فنزع قميصه فدفعه إليه، فنزلت الآية. ويقال: إنّه عليه السلام بقي في البيت إذ لم يجد شيئا يلبسه، ولم يمكنه الخروج إلى الصلاة، فلامه الكفّار، وقالوا: إن محمّداً إشتغل بالنوم واللهو عن الصلاة.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسّع مرّة، ويضيق مرّة، بحسب المصلحة مع سعة خزائنه ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ أي: عالماً بأحوالهم، بصيراً بمصالحهم، فيبسط على واحد، ويضيق على آخر، يدبرّهم على ما يراه من الصلاح.

النظم: وإنّما إتّصلت هذه الآية الأخيرة بما قبلها، من حيث إنّ فيها حثّاً على الإعطاء، إعتماداً على الله تعالى، ونهياً عن البخل، وحتماً على القصد؛ إذ هو سبحانه مع غناه وكمال قدرته، يوسع مرّة، ويضيق مرّة أُخرى، مراعاة للمصلحة،

فمن هو دونه أولى أن يراعي الصلاح، ويسلك طريق القصد.

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً ۖ وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَـٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن عامر، برواية ابن ذكوان: كان خَطَأً ـ بفتح الخاء والطاء من غير ألف بعدها ـ وقرأ ابن كثير: ﴿خِطْاءً﴾ ـ بكسر الخاء ممدوداً ـ. والباقون: ﴿خِطْأً﴾ ـ بكسر الخاء من غير مدّ ـ. وفي الشواذّ، قراءة الزهري، وأبي رجاء: خِطا ـ بكسر الخاء غير ممدود ـ. وقراءة الحسن: خطاءً ـ بالمدّ ـ. وفي رواية أخرى عنه: خَطأً ـ بفتح الخاء والطاء خفيفة ـ. وقرأ أهل الكوفة غير عاصم: فلا تسرف ـ بالتاء ـ. والباقون: بالياء. وقرأ أهل الكوفة غير أبي بكر: القِسطاس ـ بكسر القاف ـ. والباقون: بضمّها[1].

الحجة: الخطأ: ما لم يتعمّد. وكان المأثم فيه موضوعاً عن صاحبه. قال

(١) وقف حمزة على «مسولاً» بالنقل.

أبو عليّ: قالوا: أخطأ في معنى خطىء، كما أنّ «خطىء» في معنى «أخطأ» في مثل قوله:

عِبادُك يَخْطَئُونَ، وَأَنْتَ رَبٌّ كَرِيمٌ، لايَـلِيقُ بِكَ الذَّمُـومُ

فمجرى الكلام أنّهم خاطئون. وفي التـنزيل: ﴿لاَ تُـؤَاخِـذْنَا إِن نَسِـينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. والمؤاخذة عن المخطىء موضوع، فهذا يدلّ على أنّ ﴿أَخْطَأْنَا﴾ فـي معنى خطئنا. وكما جاء «أخطأ» في معنى «خطىء» كذلك جاء «خطىء» في معنى «الخطأ» في قوله: «يا لَهْفَ هِنْدٍ إذْ خَطَئْنِ كاهِلاً»[١]. وفي قول لآخر:

وَالنَّاسُ يَـلْحُونَ الأَمِـيرَ إذا هُـمُ خَطَئُوا الصَّوابَ، وَلايُلامُ الْمُرْشِدُ

فلذلك قراءة ابن عامر: «خطَأ» في معنى «أخطأ»، كما جاء «خطىء» بمعنى «أخطأ». ويجوز أن يكون الخَطَأ بمعنى الخطء أيضاً، كـالمِثْل والمَـثَل، والشِـبْه والشَبَه، والبِدْل والبَدَل. وأمّا قراءة ابن كثير: خطاءً: فإنّه يـجوز أيـضاً أن يكـون مصدر خاطأ، وإن لم يسمع خاطأ، ولكن جاء ما يدلّ عليه، وهو قوله: «تخاطَأتِ النبلُ أحشاءَهُ»[١] قال: وأنشدنا محمّد ابن السري في وصف كمأة:

وَأَشْعَثَ قَدْ نـاوَلْتُهُ أَحْـوَشُ القِـرى أَدَرَّتْ عَلَيْهِ الْـمُدْجناتُ الهَـواضِبُ

تــخاطأهُ القُـناصُ حَـتّى وَجَـدْتُهُ وخُرْطومُهُ في مَنْقَعِ الماءِ راسبُ[٢]

---

(١) تمامه: ألا أبلغا خلّتي جابراً، بأن خليلك لم يقتل، تخاطات النبل أحشائه، وآخر يومى فلم يعجل.

(٢) أشعث: مغبر الرأس. وناولته أي: أعطيته. والقرى: الطعام للضيف. وسـحابة مـدجنة: ذات المطر الكثير. ويقال: هضبتهم السماء: مطرتهم. ومنقع الماء: الموضع الذي يستنقع فيه. وأراد بخرطومه اصله الراسب، وكأنّه أراد بأحوش القرى: أغـربها. والحـوش النـعم: الوحشـية. وحوشى الكلام: الغريب منه، ولعلّه سمّاه أحوش؛ لأنّ طعام الضيف قلّ أن يكون من الكمأة، ولم أجد البيت في غير هذا الكتاب.

[١] قائله: امرؤ القيس.

فتخاطأ يدلّ على خاطأ؛ لأنّ تفاعل مطاوع فاعَلَ، كما أنّ تفعل مطاوع فعَّل. ووجه من قرأ: ﴿خِطْأً﴾ بيّنٌ، فإنّه يقال: خطىءَ يخطأ خطأ إذا تعمّد الشيء، والفاعل منه خاطىء. وقد جاء الوعيد فيه في قوله تعالى: ﴿لاَ يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾ وأمّا خطاءً: فهو إسم بمعنى المصدر، من أخطأت، كالعطاء من أعطيت. وقال ابن جنّي: يقال: خطىء يخطأ خطأو خِطأة وخطأ في الدين، وأخطاء الغرض ونحوه، وقد يتداخلان. وإمّا خطأ وخطأً فتخفيف خطاء وخَطَاء.

قال أبو عليّ: وأمّا قوله: ﴿فَلاَ يُسْرِف﴾ ـ بالياء ـ فإنّ فاعل «يُسْرِف» يجوز أن يكون على وجهين:

أحدهما. أن يكون القاتل الأوّل، فيكون تقديره: فلا يسرف القاتل في القتل، ويكون مضمراً، وإن لم يجر له ذكر؛ لأنّ الحال تدلّ عليه. فإن قلت: كيف يكون في القتل قصد بين شيئين، حتى ينهى عن الإسراف فيه الذي هو ترك القصد؟ فالجواب: إنّه لا يمتنع أن يكون فيه الإسراف، كما جاء في أموال اليتامى ﴿وَلاَ تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً﴾، ولم يجز أن يؤكل منه، لا على الإقتصاد، ولا على غيره لقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً﴾ الآية، فكذلك لا يمتنع أن يقال للقاتل الأوّل لا يسرف في القتل؛ لأنّه بقتله يكون مسرفاً، ويكون الضمير على هذا في قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ لقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً﴾ تقديره: فلا يسرف القاتل المبتدىء بقتله في القتل؛ لأنّ من قتل مظلوماً كان منصوراً، بأن يقتصّ له وليّه، أو السلطان، إن لم يكن له وليّ غيره، فيكون هذا ردعاً للقاتل عن القتل، كما أنّ قوله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ كذلك. فالوليّ إذا إقتصّ فإنّما يقتصّ للمقتول.

ومنه إنتقل الى الوليّ، بدلالة أنّ المقتول لو أُبرىء من السبب المؤدّي إلى القتل، لم يكن للوليّ أن يقتصّ. ولو صالح الولي من العمد على مال كان للمقتول أن

يؤدّي منه دينه[ديته]، ولا يمتنع أن يقال في المقتول: منصور؛ لأنّه قد جاء: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

والآخر: أن يكون في «يُسرف» ضمير الوليّ أي: فلا يسرف الوليّ في القتل، وإسرافه فيه أن يقتل غير الذي قتل، أو يقتل أكثر من قاتل وليّه، وكان مشركو العرب يفعلون ذلك. والتقدير: فلا يسرف الوليّ في القتل؛ إذ الوليّ كان منصوراً بقتل قاتل وليّه، والإقتصاص من القاتل.

ومن قرأ: فلا تسرف ـ بالتاء ـ أحتمل وجهين أيضاً: أحدهما: أن يكون المبتدىء القاتل ظلماً، فقيل له: لاتسرف أيّها الإنسان فتقتل ظلماً من ليس لك قتله. إن من قتل مظلوماً كان منصوراً بأخذ القصاص له. والآخر: أن يكون الخطاب للوليّ فيكون التقدير: فلا تسرف أيّها الوليّ في القتل، فتتعدّى قاتل وليّك إلى من لم يقتله، إنّ المقتول ظلماً كان منصوراً. وكل واحد من المقتول ظلماً، ومن ولي المقتول، قد تقدَّم ذكره في قوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾. وأمّا القُسطاس والقِسطاس فهما لغتان، مثل: القرطاس والقرطاس، والضمّ أكثر.

﴿المعنى﴾: ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم، فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ أي: بناتكم ﴿خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ أي: خوف فقر وعجز عن النفقة عليهنّ. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ منصوباً؛ عطفاً على قوله: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾. ويجوز أن يكون على النهي، فيكون مجزوماً، وإنّما نهاهم الله عن ذلك؛ لأنّهم كانوا يئدون البنات فيدفنونهنّ أحياء.

﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ أخبر سبحانه أنّه متكفّل برزق أولادهم، ورزقهم ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيراً﴾ يعني: إنّ قتلهم في الجاهليّة كان إثماً عظيماً عندالله،

وهو اليوم كذلك.

﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ وهو وطىء المرأة حراماً بلا عقد، ولا شبهة عقد ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً﴾ أي: معصية كبيرة عظيمة. والمراد: أنّه كان عندهم في الجاهليّة فاحشة، وهو الآن كذلك، ومثل هذا في القرآن كثير.

﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ أي: وبئس الطريق الزنا. وفيه إشارة إلى أنّ العقل يقبح الزنا، من حيث إنه لا يكون للولد نسب؛ إذ ليس بعض الزناة أولى به من بعض، فيؤدّي إلى قطع الأنساب، وإبطال المواريث، وإبطال صلة الرحم، وحقوق الآباء على الأولاد، وذلك مستنكر في العقول.

وأخبرني المفيد عبد الجبّار بن عبدالله بن عليّ قال: حدّثنا الشيخ أبو جعفر الطوسي قال: حدّثنا أبو عبد الله الحسن بن أحمد بن حبيب الفارسي، عن أبي بكر محمد بن أحمد بن محمّد الجرجرائي قال: سمعت أبا عمرو عثمان بن الخطاب، المعروف بأبي الدنيا يقول: سمعت عليّ بن أبي طالب يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: في الزنا ستّ خصال، ثلاث في الدنيا، وثلاث في الآخرة. فأمّا اللواتي في الدنيا فيذهب بنور الوجه، ويقطع الرزق، ويسرع الفنا. وأمّا اللواتي في الآخرة: فغضب الربّ، وسوء الحساب، والدخول في النار، أو الخلود في النار.

﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ وهو أن يجب عليه القتل، إمّا لكفره، أو ردّته، أو لأنّه قتل نفساً بغير حقّ، أو زنى، وهو محصن ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً﴾ بغير حقّ ﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾ أي: قد أثبتنا لوليّه سلطان القود على القاتل، أو الدية، أو العفو، ـ عن ابن عباس، والضحّاك ـ. وقيل: سلطان القود، ـ عن قتادة ـ ﴿فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾ مرَّ تفسيره قبل.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ فسَّرناه في سورة الأنعام ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ في الوصيّة بمال اليتيم وغيرها. وقيل: إن كان ما أمر الله به، ونهى عنه، فهو من العهد. وقد يجب الشيء أيضاً بالنذر، والعهد به، وإن لم يجب إبتداء، وإنّما يجب عند العقد.

﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾ عنه للجزاء عليه، فحذف عنه؛ لأنّه مفهوم. وقيل: إنّ معناه: إنّ العهد يسأل، فيقال له: بِمَ نقضت؟ كما تسأل الموؤودة: بأيّ ذنب قتلت؟

﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ أي: أتمّوه. ولا تبخسوا منه. ومعناه: وأوفوا الناس حقوقهم إذا كِلتم عليهم ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ﴾ وهو الميزان، صغُر أم كبر، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: هوالقبان، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هو العدل بالرومية، ـ عن مجاهد ـ. فيكون محمولاً على موافقة اللغتين و ﴿الْمُسْتَقِيمِ﴾ الذي لا بخس فيه، ولا غبن.

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ أي: خير ثواباً، ـ عن قتادة ـ. وقيل: أقرب إلى الله، ـ عن عطا ـ. وقيل: معناه: أنّ إيفاء الكيل والوزن خير لكم في دنياكم، فإنّه يكسب إسم الأمانة في الدنيا ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ أي: وأحسن عاقبة في الآخرة، ومرجعاً. من آل يؤول: إذا رجع. حثَّ الله سبحانه بهذه الآية على إتمام الوزن والكيل في المعاملات والبياعات. وإيفاء حقوق العباد[1].

---

(١) إستدلّ الجصاص بذلك على أنّه لايجوز بيع المكيل والموزون جزافاً وهو حسن؛ لأنّه إذا كان البخس، وعدم المداقّة حراماً، وإن رضّ به صاحب الحقّ، كما هو مقتضى الإطلاق، فترك الكيل رأساً أولى بعدم الجواز.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ
أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ
لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ
سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ
ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا
﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ
لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

القراءة: قرأ ابن عامر، وأهل الكوفة: ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ ـ بضمّ الهمزة ـ مضافاً إلى الهاء. وقرأ الباقون: ﴿سَيِّئَةً﴾ ـ منصوباً منوّناً غير مضاف ـ.

الحجة: من قرأ: ﴿سَيِّئُهُ﴾ ـ مضافاً ـ قال: لأنّه قد تقدّم ذكر أمور، منها: سيّء، ومنها: حسن، فخصّ الله سبحانه السيّء منها بأنّه مكروه عنده؛ لأنّه عزّ إسمه لا يكره الحسن. ويقوي ذلك قوله: ﴿مَكْرُوهاً﴾ ولو كان «سيّئة» غير مضاف، لوجب أن تكون مكروهة. فإن قيل: إنّ التأنيث غير حقيقيّ، فلا يمتنع أن يذكر؟ قيل: إنّ هيهنا التذكير لا يحسن، وإن لم يكن حقيقياً؛ لأنّ المؤنّث قد تقدّم ذكره، فإن قوله: «وَلاٰ أَرْضَ أَبْقَلَ أَبْقٰالَها»[1] مستقبح عندهم. ولو قال أبقل الأرض لم يستقبح، وذلك أنّ المتقدّم الذكر ينبغي أن يكون الراجع إليه وفقه، كما يكون وفقه في التثنية والجمع، وإذا لم يتقدّم له ذكر، لم يلزم أن يراعى ذلك.

---

[١] قائله: عامر بن جُوَيْن الطائي. الودق: المطر. أبقل: أخرج البقل. وصدره: (فلامُزْنَة وَدَقَتْ وَدْقَها).

ومن قرأ: «سيّئة» فإنّه يشبه أن يكون لما رأى الكلام إقتطع عند قوله: ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾، وكان الذي بعده من قوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ لا أَمْرَ حسناً فيه، قال: كل ذلك كان سيّئة، فأفرد ولم يضف، فإن قلت: كيف ذكر المؤنّث، ثمّ قال: ﴿مَكْرُوهاً﴾؟ قلت: فإنّه يجوز أن لا نجعل ﴿مَكْرُوهاً﴾ صفة لسيّئة، ولكن نجعله بدلاً. ولا يلزم أن يكون في البدل ذكر المبدل منه، كما يجب ذلك في الصفة. ويجوز أن يكون ﴿مَكْرُوهاً﴾ حالاً من الذكر الذي في قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ على أن تعجل ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ صفة للنكرة.

قال النحوي البصير: ليس هذا بصحيح؛ لأنّ الضمير الذي في الظرف مؤنّث. كما أنّ السيّئة مؤنّث، فيلزم منه ما لزم من الأوّل، إذا جعلته صفة للسيّئة. وإن حمله على التأنيث غير الحقيقيّ، يجيء منه ما قال في قوله: «ولا أرض أبقل أبقالها».

اللغة: القفو: إتّباع الأثر. ومنه: القيافة، فكأنّه يتبع قفا المتقدّم. قال:

ومِثْلِ الدُّمَى شُمُّ العَرانِينِ سَاكِنٌ بِهِنَّ الْحَيَاءُ، لايُشِعْنَ التَّقَافِيا[1]

أي: التقاذف. قال أبو عبيدة: القفو: العضيهة. يقال: قافه يقوفه، وقفاه يقفوه، بمعنى، فهو مثل: جذب وجبذ. وأصل الخرق: القطع. ورجل خرق. يتخرّق في السخاء. والخرق: الفلاة لإنقطاع أطرافها بتباعدها. قال رؤبة: «وقاتمُ الأعْماقِ خاوي المخترق»[1] أي: خاوي المقطع. والمرح: شدّة الفرح.

الإعراب: قال: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾: لأنّ «أولئك وهؤلاء» للجمع القليل، من المذكّر والمؤنّث. وإذا أُريد الكثير، يقال: كل هذه وتلك. قال الشاعر:

ذُمَّ الْمَنازِلُ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوىٰ وَالْعَيْشُ بَعْدَ أُولَئِكَ الأيَامِ

فـ«أولئك» كما يكون إشارة إلى العقلاء، يكون إشارة إلى غيرهم. وقوله:

---

(١) شمّ: جمع شماء. والعرانين: الأنوف. وشمم الأنف: من صفات المدح. ويشعن: من الإشاعة.

[١] قَتَمَ يقتم قُتوماً: إذا ضرب إلى السواد.

﴿كَانَ عَنْهُ مَسئُولاً﴾: الهاء تعود إلى ﴿كُلُّ﴾ أي: يسأل عن إستعمال هذه الأشياء. وإن شئت كان الهاء يعود إلى الإنسان أي: يسأل عن الإنسان فيما استعمل هذه الأشياء، ويكون في ﴿مَسْئُوولاً﴾ ضمير يعود إلى ﴿كُلُّ﴾ وقدّره أبو عليّ أنّ أفعال السمع والبصر والفؤاد كل أفعال أولئك. ﴿طَوّلاً﴾. مصدر وضع موضع الحال، إمّا عن الفاعل في ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ﴾ أو من ﴿الجِبَال﴾. وجوّز الأمرين أبو عليّ.

﴿فَتَلْقَى﴾: منصوب بإضمار «أن» لكونه جواب النهي بالفاء. ﴿مَلُوماً مَدْحُوراً﴾: نصب؛ على الحال. و﴿مَرَحاً﴾ نصب؛ على التمييز. ويجوز أن يكون مصدراً وضع موضع الحال، كقولهم: جاء زيد ركضاً، وجاء زيد راكضاً. أوكد في الإستعمال؛ لأنّ ركضاً يدلّ على توكيد الفعل، وتقديره: يركض ركضاً، وعلى هذا يكون معناه: ولا تمش في الأرض مختالاً. وقيل: إنّ ﴿طَوْلاً﴾ نصب؛ على التمييز.

﴿المَعْنَى﴾: ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ومعناه: لا تقل سمعتُ ولمْ تسمع، ولا رأيتُ ولم تَر، ولا علمتُ ولم تعلم، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وقيل: معناه: لا تقل في قفا غيرك كلاماً أي: إذا مرَّ بك فلا تغتبه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هو شهادة الزور، ـ عن محمّد بن الحنفيّة ـ. والأصل أنّه عامّ في كل قول، وفعل، أو عزم، يكون على غير علم، فكأنّه سبحانه قال: لا تقل إلّا ما تعلم أنّه ممّا يجوز أن يقال، ولا تفعل إلّا ما [تعلم أنّه ممّا] يجوز أن يفعل، ولا تعتقد إلّا ما تعلم أنّه ممّا يجوز أن يعتقد. وقد إستدلّ جماعة من أصحابنا بهذا، على أنّ العمل بالقياس، وبخبر الواحد غير جائز؛ لأنّهما لا يوجبان العلم، وقد نهى الله سبحانه عن إتّباع ما هو غير معلوم[1].

---

(١) وأجاب عنه الجصاص بأنّ الدليل إذا قام على حجّيّتهما صارا معلومين، نظير الشهادة، ولكنّه ضعيف؛ لأنّ الدليل المخصّص لايدفع دلالة الآية على المنع، فعلى المدعى ←

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً﴾ معناه: إنّ السمع يسأل عمّا سمع، والبصر عمّا رأى، والقلب عما عزم عليه. ذكر سبحانه السمع والبصر والفؤاد، والمراد أنّ أصحابها هم المسؤولون، ولذلك قال: ﴿كُلُّ أُولَئِكَ﴾ وقيل: المعنى: كل أولئك الجوارح يسأل عمّا فعل بها. قال الوالبي، عن ابن عباس: يسأل الله العباد فيما إستعملوها.

وروى عليّ بن إبراهيم في تفسيره، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: رسول الله صلى الله عليه وآله لا يزول قدم عبد يوم القيامة، بين يدي الله، عزّوجلّ، حتى يسأله عن أربع خصال: عمرك فيما أفنيته، وجسدك فيما أبليته، ومالك من أين كسبته، وأين وضعته، وعن حبّنا أهل البيت عليهم السلام.

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً﴾ معناه: لا تمش على وجه الأشر والبطر، والخيلاء والتكبّر. قال الزجّاج: معناه: لا تمش في الأرض مختالاً فخوراً. وقيل: المرح: شدّة الفرح بالباطل.

﴿إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى قال: إنّك أيّها الإنسان لن تشقّ الأرض من تحت قدمك بكبرك، ولن تبلغ الجبال بتطاولك. والمعنى: أنّك لن تبلغ ممّا تريد كثير مبلغ، كما لا يمكنك أن تبلغ هذا. فما وجه المنابزة على ما هذا سبيله، مع أنّ الحكمة زاجرة عنه. وإنّما قال ذلك؛ لأنّ من الناس من يمشي في الأرض بطراً، يدقّ قدميه عليها؛ ليري بذلك قدرته وقوّته، ويرفع رأسه وعنقه، فبيَّن سبحانه أنّه ضعيف مهين، لا يقدر أن يخرق الأرض بدقّ قدميه عليها، حتى ينتهي إلى آخرها، وإنّ طوله لا يبلغ طول الجبال، وإن كان

← للتخصيص إقامة الدليل. وقال بعض من لا يبالي بالجزاف: انّ خبر الواحد يفيد العلم عرفاً، وإن لم يفد العلم حقيقة، فلا ينافي مفاد الآية.

طويلاً. علَّم الله سبحانه عباده التواضع، والمروءة، والوقار.

﴿كُلُّ ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جميع ما تقدّم ذكره ممّا نهى الله سبحانه عنه في هذه الآيات ﴿كَانَ سَيِّئُهُ﴾ أي: معصيته ﴿عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً﴾ له سبحانه يكرهها، ولا يريدها، ولا يرضاها. وعلى القراءة الثانية، فيكون ذلك إشارة إلى جميع ما أمر به من المحسنات، ونهى عنه من المقبحات، أي: كان سيء ما سبق من هذه الأشياء، مكروهاً عند ربّك.

وفي هذا دلالة واضحة على بطلان قول المجبرة، فإنّه سبحانه صرَّح بأنّه يكره المعاصي والسيّئات، إذا كرهها فكيف يريدها، فإنّ من المحال أن يكون الشيء الواحد مراداً مكروهاً عنده.

﴿ذَلِكَ﴾ الذي تقدَّم ذكره من الأوامر، والنواهي ﴿مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ يا محمّد ﴿مِنْ الْحِكْمَةِ﴾ المؤدّية إلى المعرفة بالحسن، والقبح، والفرق بينهما ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللهِ إِلَهاً آخَرَ﴾ في إقرارك وقولك. والخطاب للنبيّ ﷺ، والمراد به غيره؛ ليكون أبلغ في الزجر، كقوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾.

﴿فَتَلْقَى﴾ أي: فتطرح بمعنى: أنّك إذا فعلت ذلك أُلقيت وطرحت ﴿فِي جَهَنَّمَ مَلُوماً﴾ يلومك الناس ﴿مَدْحُوراً﴾ أي: مطروداً، مبعداً عن رحمة الله تعالى.

﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنْ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثاً﴾: هذا خطاب لمن جعل الملائكة بنات الله تعالى، ومعناه: إخلصكم الله سبحانه بالبنين، وخصَّكم بهم، وإتّخذ لنفسه الإناث، وجعل البنات مشتركة بينكم وبينه، وإختصّكم بالأرفع، وجعل لنفسه الأدون، تقول: أصفيت فلاناً بالشيء: إذا آثرته به.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾ أي: كبيراً في الإثم، وإستحقاق العقوبة، حيث أضفتم إلى الله سبحانه ما لم ترضوا لأنفسكم به، وجعلتم الملائكة، ـ وهم أعلى خلق الله، وأشرفهم ـ أدون خلق الله، ـ وهم الإناث ـ.

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾
قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا
﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن
لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ﴿لِيَذْكُرُوا﴾ ـ ساكنة الذال، خفيفة ـ، وفي سورة الفرقان مثله. والباقون: ليذَّكَّروا ـ بفتح الذال والكاف، وتشديدهما في السورتين ـ. وقرأ: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ـ بالياء ـ. يسبح له ـ بالياء ـ أهل المدينة، والشام، وأبو بكر. وقرأ أهل البصرة: ﴿كَمَا تَقُولُونَ﴾ ـ بالتاء ـ ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ـ بالياء ـ، ﴿تُسَبِّحُ لَهُ﴾ ـ بالتاء ـ. وقرأ حفص: ﴿كَمَا تَقُولُونَ﴾ ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ـ بالياء ـ، ﴿تسبّح﴾ ـ بالتاء ـ. وقرأ الجميع: بالياء ابن كثير. وقرأ الجميع: بالتاء، حمزة، والكسائي، وخلف.

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة من قال: ﴿لِيَذَّكَّرُوا﴾ قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فالتذكّر هنا أشبه من الذكر؛ لأنّه كان يراد به التدبّر، وليس يراد: الذكر الذي هو ضدّ النسيان، ولكنّه كما قال: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. وليس المراد: ليتذكّروه بعد نسيانهم، بل المراد: ليتدبّروه بعقولهم.

ووجه التخفيف: أنّ التخفيف قد جاء في هذا المعنى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ فهذا ليس على معنى لا تنسوه، ولكن تدبّروه. ومن قرأ: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ ـ بالياء ـ فالمعنى: كما يقول المشركون من إثبات الآلهة من دونه، فهو

مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ لأنّهم غيب.

فأمّا من قرأ: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُون﴾ فإنّه يحتمل وجهين: أحدهما: أن يعطف على ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾. والآخر: أن يكون نزّه سبحانه نفسه عن دعوتهم، قال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾.

ومن قرأ: ﴿كَمَا تَقُولُونَ﴾ ـ بالتاء ـ، و ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ ـ بالياء ـ، فإنّ الأوّل: على ما تقدّم، والثاني: على أنّه نزّه نفسه عن قولهم. ويجوز أن تحمله على القول، كأنّه قال: قل أنت سبحانه وتعالى عمّا يقولون. وأمّا قوله: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ﴾ فكل واحد من الياء والتاء حسن.

﴿المعنى﴾: ثمّ إحتجّ سبحانه على الذين تقدّم ذكرهم، فقال: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: كرّرنا الدلائل، وفصّلنا المعاني، والأمثال، وغير ذلك ممّا يوجب الإعتبار به ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا﴾ أي: ليتفكروا فيها، فيعلموا الحقّ. وحذف ذكر الدلائل والعبر؛ لدلالة الكلام عليه، وعلم السامع به.

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُوراً﴾ أي: وما يزداد هؤلاء الكفّار عند تصريف الأمثال والدلائل لهم، إلاّ تباعداً عن الإعتبار، ونفوراً عن الحقّ. وأضاف النفور إلى القرآن؛ لأنّهم إزدادوا النفور عند نزوله، كقوله: ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَاراً﴾.

فإن قيل: إذا كان المعلوم أنّهم يزدادون النفور عند إنزال القرآن، فما المعنى في إنزاله؟ وما وجه الحكمة فيه؟ قيل: الحكمة فيه إلزام الحجة، وقطع المعذرة في إظهار الدلائل التي تحسن التكليف، وأنّه يصلح عند إنزاله جماعة ما كانوا يصلحون عند عدم إنزاله، ولو لم ينزل لكان هؤلاء الذين ينفرون عن الإيمان، يفسدون بفساد أعظم من هذا النفور. فالحكمة إقتضت إنزاله لهذه المعاني، وإنّما إزدادوا نفوراً عند مشاهدة الآيات والدلائل؛ لإعتقادهم أنّها شبه، وحيل، وقلّة

تفكّرهم فيها.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين: ﴿لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ هم، أو تقولون أنتم ـ على القراءتين ـ ﴿إِذاً لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلاً﴾ أي: لطلبوا طريقاً يقربهم إلى مالك العرش، وإلتمسوا الزلفة عنده؛ لعلمهم بعلوّه عليهم، وعظمته، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. وقال أكثر المفسّرين: معناه: لطلبوا سبيلاً إلى معازَّة مالك العرش، ومغالبته، ومنازعته، فإنّ المشتركين في الآلهيّة يكونان متساويين في صفات الذات، ويطلب إحدهما مغالبة صاحبه؛ ليصفو له الملك. وفي هذا إشارة إلى دليل التمانع.

ثمّ نزَّه سبحانه نفسه من أن يكون له شريك في الإلهيّة، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي: عن قولهم ﴿عُلُوّاً كَبِيراً﴾ وإنّما لم يقل: تعالياً كبيراً؛ لأنّه وضع مصدر مكان مصدر، نحوه قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً﴾. ومعنى «تعالى»: أنّ صفاته في أعلى المراتب، ولا مساوي له فيها؛ لأنّه قادر لا أحد أقدر منه، وعالم لا أحد أعلم منه. وخصَّ العرش بإضافته إليه؛ تعظيماً للعرش. ويجوز أن يريد بالعرش: الملك.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾[1] معنى التسبيح هيهنا: الدلالة على توحيد الله، وعدله، وأنّه لا شريك له في الإلهيّة، وجرى ذلك مجرى التسبيح باللفظ. وربما يكون التسبيح من طريق الدلالة أقوى؛ لأنّه يؤدّي إلى العلم.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ أي: ليس شيء من الموجودات إلّا

---

(١) ومن فيهنّ: يدلّ على أنّ في السموات موجودات عقلاء، يسبّحون الله، وهؤلاء يمكن أن يكونوا ملائكة، أو أناساً، أو كليهما. وقال تعالى في سورة شورى: ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثّ فيهما من دابّة. وهذا يدلّ على وجود حيوانات في الكرات السماويّة.

ويسبّح بحمد الله تعالى من جهة خلقته؛ إذ كل موجود سوى القديم حادث، يدعو إلى تعظيمه، لحاجته إلى صانع غير مصنوع صنعه، أو صنع من صنعه، فهو يدعو إلى تثبيت قديم، غنيّ بنفسه عن كل شيء سواه، ولا يجوز عليه مايجوز على المحدثات. وقيل: إنّ معناه: وما من شيء من الأحياء إلّا يسبّح بحمده، ـ عن الحسن ـ. وقيل: إنّ كل شيء على العموم من الوحوش، والطيور، والجمادات يسبّح الله تعالى، حتى صرير الباب، وخرير الماء، ـ عن إبراهيم وجماعة ـ.

﴿وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ أي: لا تعلمون تسبيح هذه الأشياء، حيث لم تنظروا فيها، فتعلموا كيف دلالتها على توحيده ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً﴾ يمهلكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفركم ﴿غَفُوراً﴾ لكم إذا تبتم، وأنبتم إليه.

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٤٧﴾ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

(اللغة): الوقر: ـ بالفتح ـ الثقل في الأذن. وبالكسر: الحمل. والأصل فيه الثقل، إلّا أنّه خولف بين البناءين للفرق. والنفور: جمع نافر. وهذا الجمع قياس في كل فاعل أشتقّ من فعل، مصدره على «فعول»، مثل: ركوع، وسجود، وشهود. والنجوى: مصدر يوصف به الواحد، ولإثنان، والجمع، والمذكّر، والمؤنّث، وهو مقرّ على لفظه.

﴿الإعراب﴾: قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾: في موضع نصب؛ بأنّه مفعول له، على كراهة أن يفقهوه. ﴿نُفُوراً﴾: نصب؛ على الحال، وتقديره: ولّوا نافرين. وقيل: إنّه مصدر، ولو أُخرج على غير لفظه؛ لأنّ معنى: ولّوا: نفروا، فكأنّه قال: نفروا نفوراً.

﴿النّزول﴾: قيل: نزل قوله: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ الآية، في قوم كانوا يؤذون النبيّ ﷺ بالليل إذا تلا القرآن، وصلّى عند الكعبة. وكانوا يرمونه بالحجارة، ويمنعونه عن دعاء الناس إلى الدين، فحال الله سبحانه بينه وبينهم، حتى لا يؤذوه، ـ عن الزجّاج، والجبائي ـ.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم قوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرآنَ﴾ بيّن سبحانه حالهم عند قراءة القرآن، فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ يا محمّد ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ وهم المشركون ﴿حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ قال الكلبي: وهم أبو سفيان، والنضر بن الحرث، وأبو جهل، وأمّ جميل إمرأة أبي لهب، حجب الله رسوله عن أبصارهم عند قراءة القرآن، وكانوا يأتونه ويمرّون به، ولا يرونه. وقيل: أراد: حجاباً ساتراً، ـ عن الأخفش ـ. والفاعل قد يكون في لفظ المفعول. يقال: مشؤوم وميمون، إنما هو شائم ويامن.

وقيل: هو على بناء النسب، لا على أنّ المفعول بمعنى الفاعل، والفاعل بمعنى المفعول. والمعنى، حجاباً ذا ستر. وهذا هو الصحيح. وقيل: حجاباً مستوراً عن الأعين، لا يبصر، إنّما هو من قدرة الله تعالى، حجب نبيّه بحجاب لا يرونه، ولا يراه النبيّ ﷺ. وقيل: إنّ المعنى في الآية: ﴿جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ بمعنى: باعدنا بينك وبينهم في القرآن، فهو لك وللمؤمنين معك، شفاء وهدى، وهو للمشركين في آذانهم وقر، وعليهم عمى، فهذا هو الحجاب، ـ عن إبي مسلم ـ. وهذا بعيد، والأوّل أوجه؛ لأنّه الحقيقة.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ مرَّ تفسيره في

سورة الأنعام ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ﴾ معناه: وإذا ذكرت الله بالتوحيد، وأبطلت الشرك ﴿وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُوراً﴾ أي: أعرضوا عنك مدبرين نافرين، والمعني بذلك: كفّار قريش. وقيل: هم الشياطين، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: إذا سمعوا بسم الله الرحمن الرحيم، ولّوا. وقيل: إذا سمعوا قول لا إله إلاّ الله.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ معناه: ليس يخفى علينا حال هؤلاء المشركين، وغرضهم في الإستماع إليك، وقد علمنا سبب إستماعهم، وهذا كما يقال: فعلت ذلك بحرمتك.

﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾ أي: متناجون. وقيل: هم ذوو نجوى، والمعنى: إنّا نعلمهم في حال ما يصغون إلى سماع قراءتك، وفي حال ما يقومون عن عندك، ويتناجون فيما بينهم، فيقول بعضهم: هو ساحر وبعضهم: هو كاهن، وبعضهم: هو شاعر. وقيل: يعني به أبا جهل، وزمعة بن الأسود، وعمرو بن هشام، وخويطب بن عبدالعزى، إجتمعوا وتشاوروا في أمر النبيّ ﷺ فقال أبو جهل: هو مجنون، وقال زمعة: هو شاعر. وقال خويطب: هو كاهن.

ثمّ أتوا الوليد بن المغيرة، وعرضوا ذلك عليه. فقال: هو ساحر ﴿إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَسْحُوراً﴾ قيل. فيه وجوه: أحدها: أنهم يقولون: ما تتبّعون إلاّ رجلاً قد سحر، فإختلط عليه أمره، وإنّما يقولون ذلك لتنفير عنه. وثانيها: إنّ المراد بالمسحور: المخدوع المعلل، كما في قول إمرىء القيس:

أَرانا مُوضِعَيْنِ لِحَتمِ غَيْبٍ
وَنُسْحَرُ في [با]الطَّعامِ، وفي[با]الشَّرابِ[1]

---

(١) مرّ البيت سابقاً. والايضاع: نوع من السير. والمراد بحتم غيب: الموت، يعني: نسرع إلى الموت. والتثنية في موضعين بإعتبار نفسه ومخاطبه، وهو في بيت بعده اعاذلتي.

وقول أميّة بن أبي الصلت:

فَـإِنْ تَسـأَلينا: فِـيمَ نَـحْنُ؟ فَـإِنَّنا عَصَافِيرُ مِنْ هذَا الأَنامِ الْـمُسَحَّرِ[1]

وثالثها: إنّ المعنى: إن تتّبعون إلاّ رجلاً ذا سحر أي: رئة خـلقه الله بشـراً مثلكم.

ورابعها: إنّ المسحور بمعنى الساحر، كما قيل في قوله: ﴿حِجَاباً مَسْتُوراً﴾ أي: ساتراً. وقد زيف هذا الوجه. والوجوه الثلاثة أوضح، وعلى هذا فمعنى الآية البيان عمّا توجبه حال المعادي للدين، الناصب للحقّ اليقين، وإنّ قلبه كأنّه فـي كنان عن تفهّمه، وكأنّ في أذنيه وقراً عن إستماعه، فهو مُوَلٍّ نافر عنه، يناجي في حال الإنحراف عنه، جُهّالاً أمثاله، قد بعدوا بالحجّة حتى نسبوا صاحبها إلى أنّـه مسحور، لما لم يكن لهم إلى مقاومة ما أتى به سبيل، ولا على كسره بالمعارضة دليل.

ثمّ قال سبحانه على وجه التعجيب: ﴿أُنْظُرْ﴾ يا مـحمّد ﴿كَـيْفَ ضَـرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ أي: شبّهوا لك الأشياء، فقالوا مجنون، وساحر، وشاعر ﴿فَضَلُّوا﴾ بـهذا القـول عـن الحـقّ ﴿فَـلاَ يَسْـتَطِيعُونَ سَـبِيلاً﴾ أي: لا يـجدون حـيلة، ولا طريقاً إلى بيان تكذيبك إلاّ البهت الصريح. وقيل: لا يـجدون سـبيلاً أي: لا يجدون حيلة وطريقاً إلى صدّ الناس عنك، وإلى إثبات ما إدّعوا عليك، وقـيل: ضلّوا عن الطريق المستقيم، وهو الدين والإسلام فلا يجدون إليه طريقاً بعد مـا ضلّوا عنه.

---

(١) نسبه إلى لبيد في الصحاح.

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ﴿٤٩﴾ قُلۡ كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا ﴿٥١﴾ يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٥٢﴾

قد ذكرنا إختلاف القرّاء في الإستفهامين من قوله: «أاذا» و«أءنّا» في سورة الرعد، فلامعنى لإعاداته.

(اللغة): الرفات: ما تكسر وبلى من كل شيء. ويكثر بناء «فعال» في كل ما يحطم ويرضّض. يقال: حطام، ودقاق، وتراب، وقال المبرّد: كل شيء مدقوق، مبالغ في دقّه حتى إنسحق، فهو رفات، وقال الفراء: لا واحد له من لفظه. يقال: رفت الشيء رفتاً فهو مرفوت: إذا صير كالحطام. ويقال: أنغض رأسه ينغضه، نغضاً: إذا حركه. قالوا: والنغض: تحريك الرأس بإرتفاع وإنخفاض. ومنه: قيل للظليم[١]: نغض؛ لأنّه يحرّك رأسه في مشيه بإرتفاع وإنخفاض. قال العجاج: «أَصَكَّ نَغْضاً لا يَنِي مُسْتَهْدِجاً»(٢) ونغض السنّ: إذا تحرّكت. قال: «فَنَغَضَتْ مِنْ هرمٍ أَسْنانها».

---

(١) رؤوسهم وأمثاله: مرسوم بواو واحدة. واذا وقف حمزة عليه سهّل بين بين، أو حذف: اتّباعاً للرسم.

(٢) الأصك: مَن إذا مشى يصطك إحدى ركبتيه الأخرى. والظليم أصكّ. والهدج: المشي بإضطراب.

[١] الظَّليم: الذكر من النعام.

الإعراب: ﴿إِذَا﴾: في موضع نصب بفعل يدلّ عليه قوله: ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾، وتقديره: أنبعث في ذلك الوقت. ولا يجوز أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿مَبْعُوثُونَ﴾؛ لأنّ ما بعد أن ولام الإبتداء، لا يجوز أن يعمل فيما قبلهما. والباء في ﴿بِحَمْدِهِ﴾ باء الحال أي: تستجيبون حامدين له. و﴿يَدْعُوكُمْ﴾: في موضع الجرّ بإضافة «يوم» إليه. و ﴿تَسْتَجِيبُونَ﴾: عطف عليه. ﴿وَتَظُنُّونَ﴾: ليس في موضع الجرّ؛ لأنّ الواو للحال، وتقديره: وحالكم إذ ذاك أن تظنّوا. و﴿قَلِيلاً﴾: نصب على الظرف، وتقديره: إن لبثتم إلّا زمناً قليلاً.

المعنى: لمّا تقدَّم ذكر البعث والنشور، حكى سبحانه عن الكفّار ما قالوا في إنكاره، فقال: ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً﴾ أي: غباراً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: تراباً ـ عن مجاهد ـ. ﴿أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ والمعنى: قال المنكرون للبعث: إنّا إذا متنا، وإنتثرتْ لحومنا، وصرنا عظاماً وتراباً، أنبعث بعد ذلك خلقاً جديداً، أي: متجدّداً، وهو إنكار في صورة الإستفهام.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً﴾ أي: أجهدوا في أن لا تعادوا، وكونوا إن إستطعتم حجارة في القوّة، أو حديداً في الشدّة.

﴿أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي: خلقاً هو أعظم من ذلك عندكم وأصعب، فإنّكم لا تفوتون الله تعالى، وسيحييكم بعد الموت، وينشركم. إلّا أنّ الكلام خرج مخرج الأمر؛ لأنه أبلغ في الإلزام. وقيل: يعني بقوله: ما يكبر في صدوركم الموت، ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير ـ أي: لو كنتم الموت، لأماتكم الله تعالى، وليس شيء أكبر في صدور بني آدم من الموت. وقيل: يعني به: السماوات، والأرض، والجبال، ـ عن مجاهد ـ. ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلْ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ معناه: فإنّك إذا قلت لهم ذلك، سيقولون لك: من يحيينا بعد الموت؟ قل يا محمّد: يحييكم من خلقكم أوّل مرّة، فإنّ من

قدر على إبتداء الشيء، كان على إعادته أقدر، ما لم تبطل قدرته، ولم يتغيّر. فإنّ إبتداء الشيء أصعب من إعادته. وإنّما قال ذلك لهم؛ لأنّهم كانوا يقرُّون بالنشأة الأولى.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ أي: فسيحرّكون إليك رؤوسهم، تحريك المستهزىء المستخفّ المستبطىء، لما تنذرهم به. ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ أي: متى يكون البعث ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً﴾ لأنّ ما هو آت قريب. ومن كلام الحسن: كأنّك بالدنيا لم تكن، وكأنّك بالآخرة لم تزل.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ﴾ معناه: عسى أن يكون بعثكم قريباً أيّها المشركون، يوم يدعوكم من قبوركم إلى الموقف على ألسنة الملائكة، وذلك عند النفخة الثانية، فيقولون: أيّتها العظام النخرة، والجلود البالية! عودي كما كنت. فتستجيبون مضطرّين بحمده أي: حامدين لله على نعمه، وأنتم موحّدون. وهذا كما يقول القائل: جاء فلان بغضبه أي: جاء غضبان. وقيل: معنى تستجيبون بحمده: إنّكم تستجيبون معترفين بأنّ الحمد لله على نعمه، لا تنكرونه؛ لأنّ المعارف هناك ضروريّة. قال سعيد بن جبير: يخرجون من قبورهم، يقولون: سبحانك وبحمدك، ولا ينفعهم في ذلك اليوم؛ لأنّهم حمدوا حين لا ينفعهم الحمد ﴿وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: وتظنّون أنّكم لم تلبثوا في الدنيا إلّا قليلاً، لسرعة إنقلاب الدنيا إلى الآخرة. قال الحسن، وقتادة: إستقصروا مدّة لبثهم في الدنيا، لما يعلمون من طول لبثهم في الآخرة. ومن المفسّرين من يذهب إلى أنّ هذه الآية خطاب للمؤمنين؛ لأنّهم الذين يستجيبون لله بحمده، ويحمدونه على إحسانه إليهم، ويستقلّون مدّة لبثهم في البرزخ؛ لكونهم في قبورهم منعمين غير معذّبين، وأيّام السرور والرخاء قصار.

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ ۖ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ۚ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

(اللغة): الوسيلة: القربة. والواسل: الراغب. قال لبيد: «بلى كل ذي دين إلى الله واسل». قال الزجّاج: الوسيلة، والسؤال، والطلبة، في معنى واحد.

(الإعراب): ﴿يَقُولُوا﴾: جواب شرط محذوف، تقديره: قل لعبادي قولوا التي هي أحسن يقولوا. وكان أبو عثمان يزعم أنَّ ﴿يَقُولُوا﴾ واقع موقع «قولوا»، وهو مبنيّ؛ لأنّه وقع موقع «قولوا»، ووقوع الفعل موقع الفعل المبنيّ، لا يوجب له البناء. ألا ترى أنّ قوله: ﴿تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ﴾ واقع موقع «آمنوا» وهو معرب. وإنّما ذلك في الأسماء نحو: يا زيد، بني؛ لوقوعه موقع: يا أنت.

﴿أُولٰئِكَ﴾: رفع بالإبتداء. و﴿الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾: صفة لهم. و﴿يَبْتَغُونَ﴾: خبر الإبتداء. قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾: قال الزجاج: إن شئت كان ﴿أَيُّهُمْ﴾ رفعا بالإبتداء،

والخبر وقوله ﴿أَقْرَبُ﴾ ويكون معناه: ينظرون أيّهم أقرب إليه فيتوسّلون به. والجملة متعلّقة بـ«ينظرون» المضمرة. ويجوز أن يكون ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ بدلاً من الواو في ﴿يَبْتَغُونَ﴾.

النزول: كان المشركون يؤذون أصحاب رسول الله ﷺ بمكّة، فيقولون: رسول الله! إئذن لنا في قتالهم؟ فيقول لهم: إنّي لم أؤمر فيهم بشيء. فأنزل الله سبحانه ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ﴾ الآية، ـ عن الكلبي ـ.

المعنى: ثمّ أمر سبحانه عباده بإتّباع الأحسن من الأقوال والأفعال، فقال: ﴿وَقُلْ﴾ يا محمّد ﴿لِعِبَادِيَ﴾ وهذا إضافة تخصيص وتشريف، أراد به المؤمنين. وقيل: هو عامّ في جميع المكلّفين.

﴿يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي: يختاروا من المقالات والمذاهب، المقالة التي هي أحسن المقالات، والمذاهب. وقيل: معناه: مرهم يقولوا الكلمة التي هي أحسن الكلمات، وهي كلمة الشهادتين، وكل ما ندب الله إليه من الأقوال. وقيل: معناه: يأمروا بما أمر الله به، وينهوا عمّا نهى الله عنه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: قل لهم يقل بعضهم لبعض أحسن ما يقال، مثل: رحمك الله، ويغفر الله لك. وقيل: معناه: قل لعبادي إذا سمعوا قولك الحقّ، وقول المشركين، يقولوا ما هو أولى، ويتبعوا ما هو أحسن، ـ عن أبي مسلم ـ. وقال نظيره: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ أي: يفسد بينهم، ويغري بعضهم ببعض، ويلقي بينهم العداوة. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ﴾ في جميع الأوقات ﴿لِلْإِنْسَانِ﴾ أي: لآدم وذريته ﴿عَدُوًّا مُبِيناً﴾ مظهراً للعداوة.

ثم خاطب سبحانه الفريقين، فقال: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ معناه: إنّه أعلم بأحوالكم، فيدبّر أُموركم على ما يعلمه من المصلحة لكم ﴿إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ

﴿يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ قيل: أراد أنّه سبحانه مالك للرحمة والعذاب، فيكون الرجاء إليه، والخوف منه، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: إن يشأ يرحمكم بالتوبة، أو إن يشأ يعذّبكم بالإصرار على المعصية، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: إن يشأ يرحمكم بإخراجكم من مكّة، وتخليصكم من إيذاء المشركين، أو إن يشأ يعذّبكم بتسليطهم عليكم. وقيل: إن يشأ يرحمكم بفضله، وإن يشأ يعذّبكم بعدله. وهو الأظهر.

ثمّ عاد إلى خطاب النبيّ ﷺ، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلاً﴾ أي: وما أرسلناك موكّلاً عليهم، حفيظاً لأعمالهم، يدخل الإيمان في قلوبهم، شاؤوا أم أبوا. ومعناه: إنّك لا تؤاخذ بأعمالهم، فإنّا أرسلناك داعياً لهم إلى الإيمان، فإن أجابوك وإلّا فلا شيء عليك، فإنّ عتاب ذلك يحلُّ بهم، واللائمة تلزمهم.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: هو أعلم بمن في السماوات من الملائكة، وبمن في الأرض من الأنبياء. بيّن سبحانه بهذا أنّه لم يختر الملائكة والأنبياء للميل إليهم، وإنّما إختارهم لعلمه بباطنهم. وقيل: معناه: إنّه أعلم بالجميع. فجعلهم مختلفين في الصور والرزق والأحوال، كما إقتضته المصلحة، كما فضّل بعض النبيّين على بعض.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ والمعنى: إنّ الأنبياء وإن كانوا في أعلى مراتب الفضل، فإنّهم طبقات في ذلك، وبعضهم أعلى من بعض، بزيادة الدرجة والثواب، وبالمعجزات والكتاب. ولمّا كان سبحانه عالماً ببواطن الأمور، إختارك للنبوّة، وفضّلك على الأنبياء، كما فضّل بعضهم على بعض، فسخّر لبعضهم النار، وألانَ لبعضهم الحديد، وآتى بعضهم الملك، وكلّم بعضهم، وكذلك خصّك بخصائص لم يعطها أحداً، وختم بك النبوّة.

ثمّ قال: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾ قال الحسن: كل كتاب زبور، إلّا أنّ هذا الإسم غلب على كتاب داود عليه السلام، كما غلب إسم الفرقان على القرآن، وإن كان كل

كتاب من كتب الله فرقاناً؛ لأنّه يفرّق بين الحقّ والباطل. وقال الزجّاج: معنى ذكر داود هنا: إنّه يقول لا تنكروا تفضيل محمّد ﷺ، وإعطاءه القرآن، فقد أعطينا داود الزبور.

ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين، الذين يعبدون غير الله ﴿ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أنّها آلهة عند ضرّ ينزل بكم؛ ليكشفوا ذلك عنكم، أو يحولوا تلك الحالة إلى حالة أخرى.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾ للحالة التي تكرهونها إلى حالة تحبّونها، يعني: تحويل حال القحط إلى الخصب، والفقر إلى الغنى، والمرض إلى الصحّة. وقيل: معناه: لا يملكون تحويل الضرّ عنكم إلى غيركم. بيّن سبحانه أنّ من كان بهذه الصفة، فإنّه لا يصلح للإلهيّة، ولا يستحقّ العبادة. والمراد بالذين من دونه: هم الملائكة، والمسيح، وعزير، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. وقيل: هم الجنّ؛ لأنّ قوماً من العرب كانوا يعبدون الجنّ، ـ عن ابن مسعود ـ. وقال: وأسلم أولئك النفر من الجنّ، وبقي الكفّار على عبادتهم.

قال الجبائي: ثمّ رجع سبحانه إلى ذكر الأنبياء في الآية الأولى، فقال: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ ومعناه: أُولئك الذين يدعون إلى الله تعالى، ويطلبون القربة إليه بفعل الطاعات ﴿أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي: ليظهر أيّهم الأفضل، والأقرب منزلة منه. وتأويله: إنّ الأنبياء مع علوّ رتبهم، وشرف منزلتهم إذا لم يعبدوا غير الله، فأنتم أولى أن لا تعبدوا غير الله. وإنّما ذكر ذلك حثّاً على الإقتداء بهم. وقيل: إنّ معناه: أُولئك الذين يدعونهم ويعبدونهم، ويعتقدون أنّهم آلهة من المسيح والملائكة، يبتغون الوسيلة والقربة إلى الله تعالى بعبادتهم، ويجتهد كل منهم ليكون أقرب من رحمته، أو يطلب كل منهم أن يعلم أيّهم أقرب

إلى رحمته، أو إلى الإجابة.

﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ أي: وهم مع ذلك يستغفرون لأنفسهم، فيرجون رحمته إن أطاعوا، ويخافون عذابه إن عصوا، ويعملون عمل العبيد ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ أي: متقى يجب أن يحذر منه لصعوبته. وقد ذكرنا ما جاء في معنى الوسيلة عند قوله: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾.

وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ
أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾
وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ۚ
وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا
جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
فِي الْقُرْآنِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾

اللغة: المسطور: المكتوب. قال العجاج:

وَاعْلَمْ بِأَنَّ ذَا الْجَلَالِ قَدْ قَدَرْ فِي الصُّحُفِ الأُولَى الَّذِي كَانَ سَطَرْ

والمنع: وجود ما لا يصحّ معه وقوع الفعل من القادر عليه. وإنّما جاز في وصف الله تعالى منعاً [منعنا] للمبالغة في أنّه لا يقع منه الفعل، فكأنّه قد منع منه الفعل، وإن كان لا يجوز إطلاق مثل هذه الصفة عليه سبحانه؛ لأنّه قادر لذاته، ومقدوراته غير متناهية، فلا يصحّ أن يمانعه شيء.

﴿الإعراب﴾: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾: أنْ الأولى نصب، وأن الثانية رفع، والمعنى: وما منعنا الإرسال إلّا تكذيب الأوّلين. و ﴿مُبْصِرَةً﴾: نصب؛ على الحال. ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ﴾: تقديرها: وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن إلّا فتنة للناس أيضاً. والمعنى: الشجرة الملعونة أهلها وآكلوها، وهم الكفرة والفجرة، فلمّا حذف المضاف، إستتر الضمير في إسم المفعول، فأنّث المفعول لما جرى على الشجرة. وقوله: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ أي: فما يزيدهم التخويف، فأضمر التخويف لجري ذكر الفعل. وإنتصب قوله: ﴿طُغْيَاناً﴾ على أنّه مفعول ثان لقوله: يزيد.

﴿المعنى﴾: ثمّ زاد سبحانه في الموعظة، فقال: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ معناه: وما من قرية إلّا نحن مهلكوها بإماتة أهلها ﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً﴾ وهو عذاب الإستئصال، فيكون هلاك الصالحين بالموت، وهلاك الطالحين بالعذاب في الدنيا، فإنّه يفني الناس، ويخرب البلاد قبل يوم القيامة، ثمّ تقوم القيامة، ـ عن الجبائي، ومقاتل ـ. وقيل: إنّ المراد بذلك: قرى الكفر والضلال، دون قرى الإيمان. والمراد بالإهلاك: التدمير، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً﴾ أخبر أن ذلك كائن لا محالة، ولا يكون خلافه، ومعناه: كان ذلك الحكم في الكتاب الذي كتبه الله تعالى لملائكته، وهو اللوح المحفوظ مكتوباً. ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ ذكر فيه أقوال:

أحدها: إنّ التقدير: ما منعنا إرسال الآيات التي سألوها إلّا تكذيب الأوّلين، ومعناه: إنّا لم نرسل الآيات التي إقترحتها قريش في قولهم: حوِّل لنا الصفا ذهباً، وفجّر لنا الأرض ينبوعاً، إلى غير ذلك؛ لأنّا لو أرسلناها لم يؤمنوا فيستحقّوا

المعاجلة بالعقوبة، كما أنّا لمّا أجبنا الأوّلين من الأمم إلى آيات إقترحوها، فكذّبوها بها، عذّبناهم بعذاب الإستئصال؛ لأنّ من حكم الآية المقترحة، أنّه إذا كذّب بها، وجب عذاب الإستئصال، ومن حكمنا النافذ في هذه الآيات [الأمّة] أن لا نعذّبهم بعذاب الإستئصال؛ لشرف محمّد ﷺ، ولما يعلم في ذلك من المصلحة؛ ولأنّ فيهم من يؤمن به وينصره، ومن يولد له ولد مؤمن، ولأنّ أمّته باقية، وشريعته مؤبّدة إلى يوم القيامة، فلذلك لم نجبهم إلى ذلك، وأنزلنا من الآيات الواضحات، والمعجزات البيّنات، ما تقوم به الحجّة، وتنقطع به المعذرة.

والثاني: إنّ معناه: إنّا لا نرسل الآيات؛ لعلمنا بأنّهم لا يؤمنون عندها، فيكون إنزالنا إيّاها عبثاً لا فائدة فيه، كما أنّ من كان قبلهم لم يؤمنوا عند إنزال الآيات.

والمعجزات ضربان: **أحدهما:** ما لا يصحّ معرفة النبوّة إلّا به، وهذا الضرب لابدّ من إظهاره، سواء وقع منه الإيمان، أو لم يقع.

والثاني: ما يكون لطفاً في الإيمان، فهذا أيضاً يظهره الله سبحانه، وما خرج عن هاتين الصفتين من المعجزات، لا يفعله سبحانه.

والثالث: إنّ المعنى: أنّا لا نرسل الآيات؛ لأن آباءكم وأسلافكم سألوا مثلها، ولم يؤمنوا عندها، وأنتم على آثار أسلافكم مقتدون. فكما لم يؤمنوا هم، لا تؤمنون أنتم، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ أي: بيّنة أراد آية مبصرة. كما قال: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ ومعناه: دلالة واضحة ظاهرة. وقيل: ذات إبصار. وقيل: تبصرهم وتبيّن لهم حتى يبصروا بها الهدى من الضلالة، وهي ناقة صالح المخرجة من الصخرة على الصفة التي إقترحوها.

﴿فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي: فكفروا بتلك الآية وجحدوا بأنّها من عند الله. وقيل: ظلموا أنفسهم بسببها، وبعقرها ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً﴾ أي: لا نرسل الآيات التي نظهرها على الأنبياء إلّا عظة للناس، وزجرا، أو تخويفاً لهم من عذاب الله، إن لم يؤمنوا[1].

ثمّ خاطب سبحانه النبيّ ﷺ، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾ أي: وأذكر الوقت الذي قلنا لك يا محمّد ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ أي: أحاط علماً بأحوالهم، وبما يفعلونه من طاعة أو معصية، وما يستحقّونه على ذلك من الثواب والعقاب، وهو قادر على فعل ذلك بهم، فهم في قبضته، لا يقدرون على الخروج من مشيئته، وهذا معنى قول ابن عباس. وقيل: إنّ المراد به: أنّه عالم بجميع الأشياء، فيعلم قصدهم إلى إيذائك، إذا لم تأتهم ما إقترحوا منك من الآيات. وهذا حثّ للرسول ﷺ على التبليغ، ووعد له بالعصمة من أذيّة قومه، وهذا معنى قول الحسن. وقيل: معناه: إنّه أحاط بأهل مكّة، فيستفتحها لك، ـ عن مقاتل ـ. وقال الفرّاء: معناه: أحاط أمره بالناس. وقيل: معناه: أنّه قادر على ما سألوه من الآيات، عالم بمصالحهم، فلا يفعل إلّا ما هو الصلاح، فامض لما أمرت به من التبليغ، فإنّ الله سبحانه إن أنزلها، فلما يعلم في إنزالها من اللطف، وإن لم ينزلها، فلما يعلم من المصلحة، ـ عن الجبائي ـ.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي

---

(١) الآيات التي تنزل للتخويف والعذاب، هي نظير ما يقول صلوة الآيات، ولم يكن غرضهم الإستدلال على صحّة النبوّة، وصدق النبيّ ﷺ، بل كانوا يطلبون إنزال آيات العذاب تعجيزاً. وقال تعالى: وإن من قرية إلّا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة، وتلك الآيات وإن كانت تدلّ بعد وقوعها على النبوّة، لكن لايفيد طالبيها بعد هلاكهم.

﴿الْقُرْآنِ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إنّ المراد بالرؤيا، رؤية العين، وهي ما ذكره في أوّل السورة في إسراء النبيّ ﷺ، من مكّة إلى بيت المقدس، وإلى السماوات في ليلة واحدة، إلّا أنّه لمّا رأى ذلك ليلاً، وأخبر بها حين أصبح، سمّاها رؤيا، وسمّاها فتنة؛ لأنّه أراد بالفتنة الإمتحان، وشدّة التكليف؛ ليعرض المصدِّق بذلك لجزيل ثوابه، والمكذِّب لأليم عقابه، وهذا معنى قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، ومجاهد.

وثانيها: ما روي عن ابن عباس في رواية أُخرى: إنّها رؤيا نوم رآها أنّه سيدخل مكّة وهو بالمدينة، فقصدها فصدَّه المشركون في الحديبيّة عن دخولها، حتى شكَّ قوم، ودخلت عليهم الشبهة، فقالوا: يا رسول الله! أليس قد أخبرتنا أنّا ندخل المسجد الحرام آمنين؟ فقال ﷺ: أو قلت لكم إنّكم تدخلونها العام؟ قالوا: لا. فقال: لندخلها [خلنّها] إن شاء الله ورجع. ثمّ دخل مكّة في العام القابل، فنزل ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ وهو قول الجبائي، وأبي مسلم. وأنّما كان فتنة وإمتحاناً وإبتلاء؛ لما ذكرناه.

وثالثها: إنّ ذلك رؤيا رآها النبيّ ﷺ في منامه، أنّ قروداً تصعد منبره وتنزل، فساءه ذلك، وإغتمّ به.

روى سهل بن سعيد عن أبيه: أنّ النبيّ ﷺ رأى ذلك، وقال إنّه ﷺ لم يستجمع [يسمع] بعد ذلك ضاحكاً حتى مات، وروى سعيد بن يسار أيضاً، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام وأبي عبدالله عليه السلام وقالوا على هذا التأويل: إنّ الشجرة الملعونة في القرآن هي بنو أميّة، أخبره الله سبحانه بتغلّبهم على أنامه [مقامه]،

وقتلهم ذرّيّته.

روي عن المنهال بن عمرو قال: دخلت على عليّ بن الحسين عليه السلام فقلت له: كيف أصبحت يابن رسول الله؟ فقال: أصبحنا والله بمنزلة بني إسرائيل من آل فرعون، يذبحون أبناءهم، ويستحيون نساءهم، وأصبح خير البريّة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يلعن على المنابر، وأصبح من يحبّنا منقوصاً حقّه بحبّه إيّانا. وقيل للحسن: يا أبا سعيد! قتل الحسين بن عليّ عليه السلام! فبكى حتى إختلج جنباه. ثمّ قال: واذلّاه لأمّة قتل ابن دعيها ابن بنت نبيّها! وقيل: إنّ الشجرة الملعونة هي شجرة الزقّوم، ـ عن ابن عباس، والحسن ـ. وقيل: الشجرة الملعونة هي اليهود، ـ عن أبي مسلم ـ. وتقدير الآية: وما جعلنا الرؤيا التي أريناك والشجرة الملعونة الّا فتنة للناس، قالوا: وإنّما سمّي شجرة الزقّوم فتنة؛ لأنّ المشركين قالوا: إنّ النار تحرق الشجرة، فكيف تنبت الشجرة في النار؟ وصدّق بها المؤمنون.

وروي أنّ أبا جهل قال: إنّ محمّداً يوعدكم بنار تحرق الحجارة، ثمّ يزعم أنّه تنبت فيها الشجرة.

وقوله: ﴿فِي الْقُرآنِ﴾ معناه: التي ذكرت في القرآن ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ أي: نرهبهم بما نقصّ عليهم من هلاك الأمم الماضية. وقيل: بما نرسل من الآيات ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ ذلك ﴿إِلَّا طُغْيَاناً كَبِيراً﴾ أي: عتوّاً في الكفر عظيماً، وتمادياً في الغيّ كبيراً؛ لأنّهم لا يرجعون عنه.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ
قَالَ ءَأَسْجُدُ[1] لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى
كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ
ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ
مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ
فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

القراءة: قرأ حفص: ﴿وَرَجِلِكَ﴾ ـ بكسر الجيم ـ. والباقون بسكونها.

الحجة: من سكن الجيم، فهو جمع راجل، مثل: راكب وركب، وصاحب وصحب، وتاجر وتجر. وأمّا قراءة حفص ـ بكسر الجيم ـ فروى أبو عليّ عن أبي زيد: يقال: رجل رجل للراجل، ويقال: جاءنا حافياً رجلاً [رحلاً]. وأنشد:

أَمَا أُقَاتِلُ عَنْ دِينِي عَلَىٰ فَرَسٍ ... وَلَا كَذَا رَجِلاً إِلاَّ بِأَصْحَابِ[2]

---

(١) أأسجد: من إجتماع الهمزتين، وفيها قراآت: تحقيق الهمزتين، وتسهيل الثانية، كل واحدة مع الفصل بألف، أو بلا فصل، وإبدال الثانية ألفاً ممدودة فهي خمس. وفي «أرأيتك» أربع قراآت: تسهيل الثانية لنافع، وحذفها للكسائي، وإبدالها ألفاً ممدودة للأزرق، وتحقيقها للباقين.

(٢) أي: ألست أقاتل مع أصحابي فارساً وراجلاً.

كأنّه قال: أما أقاتل فارساً وراجلاً. وروى ابن جنّي عن قطرب، أنّه قال: الرجل الرجال وعليه قراءة عكرمة. وقتادة: ورجالك. قال زهير في الرجل:

هُمُ ضَرَبُوا عَنْ فَرْجِها بِكَتِيبةٍ كَبَيْضاءِ حَرْسٍ فِي جَوانِبِهَا الرَّجُلُ[1]

اللغة: الإحتناك: الإقتطاع من الأصل. يقال: إحتنك فلان ما عند فلان من مال، أو علم: إذا إستقصاه فأخذه كلّه، وإحتنك الجراد الزرع: إذا أكله كلّه. قال الشاعر:

أَشْكُو إِلَيْكَ سَنَةً قَدْ أَجْحَفَتْ جَهْداً إِلىٰ جَهْدٍ بِنا، وَأَضْعَفَتْ
وَاحْتَنَكَتْ أَمْوالَنا وَجَلَفَتْ[1]

وقيل: إنّه من قولهم: حنك الدابّة يحنكها: إذا جعل في حنكها الأسفل حبلاً يقودها به. والموفور: المكمل. يقال: وفرته أفره وفراً. قال زهير:

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ يَفِرْهُ، وَمَنْ لا يَتَّقِ الشَّتْمَ يُشْتَمِ

والإستفزاز: الإزعاج والإستنهاض على خفّة وإسراع، وأصله: القطع. وتفزّز الثوب: إذا تخرق، وفزّزته تفزيزاً. فكأنّ معنى إستفزّه: إستزلّه بقطعه عن الصواب. ورجل فزّ أي: خفيف. والإستطاعة: قوّة تنطاع بها الجوارح للفعل. ومنه: الطوع والطاعة، وهو الإنقياد للفعل. والإجلاب: السوق بجلبة من السائق. والجبلة: شدّة الصوت. وقال إبن الأعرابي: أجلب الرجل على صاحبه: إذا توعّده بالشرّ، وجمع عليه الجيش.

الإعراب: قال الزجّاج: ﴿طِيناً﴾ منصوب؛ على الحال، بمعنى: أنّك أنشأته في حال كونه من طين. ويجوز أن يكون تقديره: مِنْ طين، فحذف «مِنْ» فوصل

---

(١) الفرج: هو الثغر أي: الموضع الذي يخاف منه العدوّ. وضربوا عن فرجها؛ لمنع العدوّ. وحرس ـ بالراء ـ: جبل. وبيضاؤه: أعلاه. شبّه الكتيبة بالجبل.

[١] جلفه يجلفه، بالضم: نزعه. ويقال للسنة الشديدة التي تذهب بالأموال: جالفة.

الفعل. ومثله: قوله: ﴿أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ﴾ أي: لأولادكم. وقيل: إنّه منصوب؛ على التميز، والكاف في قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ لا موضع لها من الإعراب؛ لأنّها حرف خطاب جاء للتوكيد، وموضع ﴿هَذَا﴾ نصب بـ«أرأيت»، والجواب محذوف. المعنى: أخبرني عن هذا الذي كرّمته عليَّ، ولِمَ كرّمته عليَّ، وقد خلقتني من نار، وخلقته من طين؟ فحذف ما ذكرناه؛ لأنّ في الكلام دليلاً عليه.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه قصّة آدم عليه السلام وإبليس، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قد مرّ تفسيره في سورة البقرة.

﴿قَالَ﴾ إبليس: ﴿أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً﴾، وهو إستفهام بمعنى الإنكار أي: كيف أسجد له وأنا أفضل منه، وأصْلي أشرف من أصله؟. وفي هذا دلالة على أن إبليس فهم من ذلك تفضيل آدم على الملائكة، ولو لا ذلك لما كان لإمتناعه من السجود وجه. وإنّما جاز أن يأمرهم سبحانه بالسجود لآدم عليه السلام، ولم يجز أن يأمرهم بالعبادة له؛ لأنّ السجود يترتّب في التعظيم حسب ما يراد به، وليس كذلك العبادة، التي هي خضوع بالقلب، ليس فوقه خضوع؛ لأنّه يترتّب في التعظيم لجنسه. يبيّن ذلك أنّه لو سجد ساهياً، لم يكن له منزلة في التعظيم، على قياس غيره من أفعال الجوارح.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ أي: قال إبليس أرأيت يا ربّ هذا الذي فضّلته عليَّ، يعني: آدم عليه السلام. ﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لئن أخّرت أجل موتي.

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾ أي: لأُغوينّ ذرّيّته، وأقودنّهم معي إلى المعاصي، كما تقاد الدابّة بحنكها، إذا شدَّ فيها حبل تجرّ به، إلّا القليل الذين تعصمهم، وهم المخلصون، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: لأحتنكنّهم أي: لأستولينّ

عليهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: لأستأصلنّهم بالإغواء من إحتناك الجراد الزرع، وهو أن يأكله ويستأصله، ـ عن الجبائي ـ. وإنّما طمع الملعون في ذلك؛ لأنّ الله سبحانه أخبر الملائكة أنّه سيجعل في الأرض من يفسد فيها، فكأنّ العلم قد سبق له بذلك، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: لأنّه وسوس إلى آدم، فلم يجد له عزماً، فقال: إنّ أولاده أضعف منه، ـ عن الحسن ـ.

﴿قَالَ﴾ الله سبحانه له، على وجه الإستهانة والإستصغار ﴿إِذْهَبْ﴾ يا إبليس ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ أي: من ذرّيّة آدم عليه السلام وإقتفى أثرك. وقبل منك ﴿فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً﴾ أي: موفراً كاملاً، لا نقصان فيه عن الإستحقاق.

﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ أي: وإستزلّ من إستطعت منهم، أضلّهم بدعائك ووسوستك، من قولهم: صوت فلان بفلان: إذا دعاه. وهذا تهديد في صورة الأمر، ـ عن ابن عباس ـ. ويكون كما يقول الإنسان لمن يهدّده: إجهد جهدك، فسترى ما ينزل بك. وإنّما جاء التهديد في صورة الأمر؛ لأنّه بمنزلة أن تؤمر الغير بإهانة نفسه. وقيل: بصوتك أي: بالغناء، والمزامير، والملاهي، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: كل صوت يدعى به إلى الفساد، فهو من صوت الشياطين.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ أي: إجمع عليهم ما قدرت عليه من مكايدك، وأتباعك، وذَرَيتك، وأعوانك. وعلى هذا فيكون الباء مزيدة في ﴿بِخَيْلِكَ﴾ وكل راكب أو ماشٍ في معصية الله من الإنس والجنّ، فهو من خيل إبليس ورجله. وقيل: هو من أجلب القوم. وجلبوا أي: صاحوا: أي صحْ بخيلك ورجلك، وأحشرهم عليهم بالإغواء.

﴿وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾ وهو كل مال أُصيب من حرام، وأُخذ بغير حقّه، وكل ولد زنا، ـ عن ابن عباس، والحسن، ومجاهد ـ. وقيل: إنّ مشاركتهم في الأموال أنّه أمرهم أن يجعلوها سائبة وبحيرة، وغير ذلك، وفي الأولاد أنّهم هوّدوهم ونصّروهم ومجّسوهم، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنّ كل مال حرام، أو فرج حرام، فله فيه شرك، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: إنّ المراد بالأولاد تسميتهم عبد شمس، وعبد الحرث، ونحوهما. وقيل: هو قتل الموؤودة من أولادهم. والقولان مرويّان عن ابن عباس.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ أي: ومنهم البقاء، وطول الأمل، وأنّهم لا يبعثون. وكل هذا زجر وتهديد في صورة الأمر ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ هذا إخبار من الله عزّوجلّ، أنّ مواعيد الشيطان تكون غروراً أي: يزيّن لهم الخطأ أنّه صواب، وهو إعتراض.

﴿إِنَّ عِبَادِي﴾ يعني: الذين يطيعوني، أضافهم إلى نفسه؛ تشريفاً لهم ﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ أي: قوّة ونفاذ؛ لأنّهم يعلمون أنّ مواعيدك باطلة، فلا يغترّون بها. وقيل: معناه: لا سلطان لك على جميع عبادي، إلّا في الوسوسة والدعاء إلى المعصية. فأمّا في أن تمنعهم عن الطاعة، وتحملهم على المعصية جبراً وكرهاً، فلا، ـ عن الجبائي ـ. ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾ أي: حافظاً لعباده من شرّك.

﴿النظم﴾: الوجه في إتّصال الآيات بما قبلها، على تقدير: وما يزيدهم إلّا طغياناً كبيراً، محقّقين ظنَّ إبليس فيهم[فهم]، يوم قيل له: أسجد، فقال: كذا وكذا، ـ عن عليّ بن عيسى ـ. وقيل: إتّصلت بقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوّاً مُبِيناً﴾. ثمّ عاد إلى ذكر الشيطان لزيادة الإيضاح والبيان بما أبان عن قصّته مع آدم عليه السلام، ـ عن أبي مسلم ـ.

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ
ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ
إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ
بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ
وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ
عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟
لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

القراءة: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: «نخسف، ونرسل، ونعيدكم، فنرسل عليكم، فنغرقكم» كلّه بالنون. وقرأ أبو جعفر، ويعقوب: «فتغرقكم» بالتاء. والباقي: بالياء. وقرأ الباقون كلّها بالياء.

الحجة: من قرأ الجميع بالياء: فلمّا تقدّم من قوله: «ضلّ من تدعون إلّا إيّاه فلمّا نجّاكم». ومن قرأ بالنون: فلأنّ هذا النحو قد تقطع بعضه من بعض؛ ولأنّ الإنتقال من الغيبة إلى الخطاب جائز. ومن قرأ: فتغرقكم ـ بالتاء ـ فإنّه ردّ الضمير المؤنّث في «فتغرقكم» إلى ﴿الرِّيحِ﴾.

اللغة: الإزجاء: سوق الشيء حالاً بعد حال. والحاصب، من قولهم: حصبه بالحجارة يحصبه حصباً: إذا رماه بها رمياً متتابعاً. قال القتيبي: الحاصب الريح التي ترمي بالحصباء، وهي الحصا الصغار. قال الفرزدق:

مُسْتَقْبِلينَ شِمالَ الشَّامِ يَضْرِبُنا بِحاصِبٍ كَنَدِيفِ القُطْنِ مَنْدُوفِ[١]

والقاصف: الكاسر بشدة، قصفه يقصفه قصفاً.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر الشيطان، وذكر المشركين، وعبدة الأوثان، إحتجَّ عليهم سبحانه بدلائل التوحيد والإيمان، فقال: ﴿رَبُّكُمُ﴾ أي: خالقكم ومدبّركم ﴿الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ﴾ أي: يجري لكم السفن ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ بما خلق من الرياح، وبأن جعل الماء على وجه يمكن جري السفن فيه.

﴿لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ أي: لتطلبوا من فضل الله تعالى بركوب السفن على وجه الماء، فيما فيه صلاح دنياكم من التجارة، أو صلاح دينكم من الغرق ﴿إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً﴾ حيث أنعم عليكم بهذه النعم.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ﴾ أي: الشدّة ﴿فِي الْبَحْرِ﴾ بسكون الرياح وإحتباس السفن، أو بإضطراب الأمواج، وغير ذلك من أهوال البحر ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عنكم ذكر كل معبود إلّا الله، فلا ترجون هناك النجاة إلّا من عنده، فتدعونه، ولا تدعون غيره.

﴿فَلَمَّا نَجَّاكُمْ﴾ من البحر ﴿إِلَى الْبَرِّ﴾ وأمنتم الغرق ﴿أَعْرَضْتُمْ﴾ عن الإيمان به، وعن طاعته؛ كفراناً للنعمة ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُوراً﴾ أي: كثير الكفران.

﴿أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ﴾ معناه: إنّ فِعْلكم هذا، فعل من يتوهّم أنّه إذا صار إلى البرِّ، أمن المكاره، حتى أعرضتم عن شكر الله وطاعته، فهل أمنتم أن يخسف بكم أي: يغيبكم ويذهبكم في جانب البرّ، وهو الأرض. يقال: خسف الله به الأرض أي: غاب به فيها. وأراد به بعض البرّ، وهو موضع حلولهم فيه، فسمّاه جانباً؛ لأنّه يصير بعد الخسف جانباً، وقيل: إنّهم كانوا على ساحل البحر، وساحله جانب البرّ، وكانوا فيه آمنين من أهوال البحر، فحذّرهم ما أمنوه من البرّ، كما حذّرهم ما خافوه من البحر.

---

(١) الشمال: ريح تهب من بين القطب الشمالي، والمغرب بالنسبة إلى بلاد العرب. وشبّه الحصا الصغار التي تضرب الريح وجهه بها، بالفظن [لقطن] المندوف.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾ أي: أو هل أمنتم أن يرسل عليكم حجارة تحصبون بها أي: ترمون بها. والمعنى: إنّه سبحانه قادر على إهلاككم في البرّ، كما أنّه قادر على إغراقكم في البحر.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلاً﴾ أي: حافظاً يحفظكم عن عذاب الله، ودافعاً يدفعه عنكم ﴿أَمْ أَمِنتُمْ﴾ أي: أم هل أمنتم ﴿أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى﴾ أي: في البحر مرّة أُخرى، بأن يجعل لكم حاجة، أو يحدث لكم رغبة، أو رهبة، فترجعون إلى البحر مرّة أخرى.

﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً مِنَ الرِّيحِ﴾ أي: فإذا ركبتم البحر، أرسل عليكم ريحاً شديدة كاسرة للسفينة. وقيل: الحاصب: الريح المهلكة في البرّ. والقاصف: المهلكة في البحر ﴿فَيُغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ﴾ من نعم الله ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعاً﴾ أي: تابعاً يتبع إهلاككم للمطالبة بدمائكم، ويقول: لِمَ فعلت هذا بهم؟ وهذا في معنى قول المفسّرين يعني: ثائراً، ولا ناصراً.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾

القراءة: قرأ أهل البصرة: ﴿أَعْمَىٰ﴾ الأولى بالإمالة، و﴿أَعْمَىٰ﴾ الثانية بالتفخيم. وقرأ حمزة والكسائي: بالإمالة فيهما. والباقون: بالتفخيم فيهما. وقرأ

زيد عن يعقوب: يوم يدعوا ـ بالياء ـ. والباقون: بالنون. وفي الشواذّ، قراءة الحسن: يوم يُدعُوا ـ بضمّ الياء، وفتح [فتح] العين.

الحجّة: قال أبو عليّ: من أمالهما، فإنّه حسن؛ لأنّه ينحو بالألف نحو الياء؛ ليعلم أنّها ينقلب إلى الياء، وإن كانت فاصلة أو مشبهة بالفاصلة. فالإمالة فيها حسنة؛ لأنّ الفاصلة موضع وقف، والألف تخفى في الوقف، فإذا أمالها نحى بها نحو الياء ليكون أظهر لها، وأبين، وممّا يقوّي ذلك أنّ من العرب من يقلب هذه الألفات في الوقف ياء آت؛ ليكون أبين لها. قالوا: أفعى، وحبلى، ومنهم: من يقول: أفعو، وهم كأنّهم أحرص على البيان من الأولين، من حيث كانت الواو أظهر من الياء، والياء أخفى منها من حيث كانت أقرب إلى الألف من الواو إليها. وأمّا من أمال الألف من الكلمة الأُولى، ولم يمل من الثانية، فإنّه يجوز أن لا يجعل «أعمى» لكلمة الثانية، عبارة عن المؤوف الجارحة، ولكنّه جعله أفعل من كذا، مثل: أبلد من فلان، فجاز أن يقول فيه: أفعل من كذا، وإن لم يجز أن يقول ذلك في المصاب ببصره. فإذا جعله كذلك، لم يقع الألف في آخر الكلمة؛ لأنّ آخرها إنّما هو من كذا. وإنّما تحسن الإمالة في الأواخر لما تقدّم. وقد حذف من «أفعل» الذي هو للتفضيل، الجارّ والمجرور، وهما مرادان في المعنى مع الحذف، وذلك نحو قوله: ﴿فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ﴾ المعنى من السرّ. وكذلك قولهم: عام أوّل أي: أوّل من عامك، وكذلك قوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ أي: أعمى منه في الدنيا. ومعنى «أعمى» في الآخرة: إنّه لا يهتدي إلى طرق الثواب. ويؤكّد ذلك ظاهر ما عطف عليه من قوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ فكما أنّ هذا لا يكون إلّا على «أفعل»، فكذلك المعطوف عليه. ومعنى أضلّ سبيلاً في الآخرة: إنّ ضلاله في الدنيا قد كان ممكناً من الخروج منه، وضلاله في الآخرة لا سبيل له إلى الخروج منه، ويجوز أن يكون أعمى فيمن تأوّله «أفعل من كذا» على هذا التأويل أيضاً. قال ابن جنّي: قراءة

الحسن: ـ يوم يدعو ـ على لغة من أبدل الألف في الوصل واواً، نحو: أفعو وحبلو، ذكر ذلك سيبويه، وأكثر هذا في الوقف.

المعنى: لمّا تقدَّم قول إبليس: «هذا الذي كرمت علي»، ذكر سبحانه بعد ذلك؛ تكرمه لبني آدم بأنواع الإكرام، وفنون الإنعام، فقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ أي: فضَّلناهم، ـ عن ابن عباس ـ. وأُجريت الصفة على جميعهم من أجل من كان فيهم على هذه الصفة، كقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وقيل: إنّما عمَّهم بالتكرمة، مع أنّ فيهم الكافر المهان؛ لأنّ المعنى: أكرَمناهم بالنعم الدنيويّة، كالصور الحسنة، وتسخير الأشياء لهم، وبعث الرسل إليهم. وقيل: معناه: عامَلْناهم معاملة المكرم، على وجه المبالغة في الصفة.

وأختلف فيما كرّموا به، فقيل: بالقوّة، والعقل، والنطق، والتمييز، ـ عن ابن عباس، والضحّاك ـ. وقيل: إنّهم يأكلون باليد، وكل دابّة تأكل بفمها، رواه ميمون بن مهران، عن ابن عباس. وقيل: بتعديل القامة وإمتدادها، ـ عن عطاء ـ. وقيل: بالأصابع، يعملون بها ما يشاؤون، روى ذلك جابر بن عبدالله. وقيل: بتسليطهم على غيرهم، وتسخير سائر الحيوانات لهم، عن ابن جرير. وقيل: بأن جعل محمّداً صلى الله عليه وآله منهم، ـ عن محمّد بن كعب ـ. وقيل: بأنّهم يعرفون الله، ويأتمرون بأمره. وقيل: بجميع ذلك وغيره من النعم التي خصُّوا بها. وهو الأوجه.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ في البرّ: على الإبل، والخيل، والبغال، والحمير. وفي البحر: على السفن ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ أي: من الثمار، والفواكه، والأشياء الطيّبة، وسائر الملاذّ التي خصّ بها بنو آدم، ولم يشركهم شيء من الحيوان فيها.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ إستدلّ بعضهم بهذا على أنّ الملائكة أفضل من الأنبياء، قال: لأنّ قوله: ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ﴾ يدلّ على أن هيهنا من لم

يفضلهم عليه، وليس إلّا الملائكة؛ لأنّ بني آدم أفضل من كل حيوان سوى الملائكة بالإتّفاق. وهذا باطل من وجوه:

أحدها: إنّ التفضيل هيهنا لم يرد به الثواب؛ لأنّ الثواب لا يجوز التفضيل به إبتداء، وإنّما المراد بذلك: ما فضلهم الله به من فنون النعم التي عدّدنا بعضها.

وثانيها: إنّ المراد بالكثير: الجميع، فوضع الكثير موضع الجميع، والمعنى: إنّا فضّلناهم على من خلقنا، وهم كثير، كما يقال: بذلت له العريض من جاهي، وأبحته المنيع من حريمي، ولا يراد [بذلك: أنّي] بذلت له عريض جاهي، ومنعته ما ليس بعريض، وأبحته منيع حريمي، ولم أبحه ما ليس منيعاً. بل المقصود: أنّي بذلت له جاهي الذي من صفته أنّه عريض. وفي القرآن ومحاورات العرب من ذلك ما لا يحصى، ولا يخفى ذلك على من عرف كلامهم. قال سويد بن أبي كاهل في شعره:

مِنْ أُنَاسٍ لَيْسَ فِي أَخْلاقِهِمْ عاجِلُ الْفُحْشِ، وَلاٰ سُوءُ الْجَزَعِ

ولم يرد أنّ في أخلاقهم فحشاً آجلاً، ولو أراد ذلك لم يكن مادحاً لهم.

وثالثها: إنّه إذا سلّم أنّ المراد بالتفضيل زيادة الثواب، وأنّ لفظة من في قوله: ﴿مِمَّنْ خَلَقْنَا﴾ يفيد التبعيض، فلا يمتنع أن يكون جنس الملائكة أفضل من جنس بني آدم؛ لأنّ الفضل في الملائكة عامّ لجميعهم، أو أكثرهم، والفضل في بني آدم يختصّ بقليل من كثير. وعلى هذا فغير منكر أن يكون الأنبياء أفضل من الملائكة، وإن كان جنس الملائكة أفضل من جنس بني آدم. ومتى قيل: إذا كان معنى التكريم والتفضيل، واحداً، فما معنى التكرار؟ فجوابه: إنّ قوله: ﴿كَرَّمْنَا﴾ ينبيء عن الإنعام، ولا ينبيء عن التفضّل، فجاء بلفظ التفضيل ليدلّ عليه. وقيل: إنّ التكريم يتناول نعم الدنيا، والتفضيل: يتناول نعم الآخرة. وقيل: إنّ التكريم: بالنعم التي لا يصحُّ بها التكليف، والتفضيل: بالتكليف الذي عرضهم به للمنازل العالية.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ فيه أقوال:

أحدها: إنّ معناه: بنبيّهم، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ ويكون المعنى على هذا: أن ينادى يوم القيامة، فيقال: هاتوا متّبعي إبراهيم، هاتوا متّبعي موسى، هاتوا متّبعي محمّد، فيقوم أهل الحقّ، الذين إتّبعوا الأنبياء، فيأخذون كتبهم بأسمائهم [يمانهم]. ثمّ يقال: هاتوا متّبعي الشيطان، وهاتوا متّبعي رؤساء الضلالة. وهذا معنى ما رواه سعيد بن جبير، عن ابن عباس. وروي أيضاً عن عليّ عليه السلام: إنّ الأئمة: إمام هدى وإمام ضلالة. ورواه الوالبي عنه: بأئمّتهم في الخير والشرّ.

وثانيها: معناه: بكتابهم الذي أُنزل عليهم من أوامر الله ونواهيه، فيقال: يا أهل القرآن! ويا أهل التوراة! ـ عن ابن زيد، والضحّاك ـ.

وثالثها: إنّ معناه: بمن كانوا يأتمّون به من علمائهم وأئمّتهم، ـ عن الجبائي، وأبي عبيدة ـ. ويجمع هذه الأقوال ما رواه الخاصّ والعامّ، عن الرضا عليّ بن موسى عليه السلام بالأسانيد الصحيحة، أنّه روى عن آبائه عليهم السلام، عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال فيه: يدعى كل أناس بإمام زمانهم، وكتاب ربّهم، وسنّة نبيّهم. وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: ألا تحمدون الله إذا كان اليوم القيامة، فدعا كل قوم إلّا من يتولّونه، ودعانا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، وفزعتم إلينا، فإلى أين ترون يذهب بكم؟ إلى الجنّة وربّ الكعبة! قالها ثلاثاً.

ورابعها: إنّ معناه: بكتابهم الذي فيه أعمالهم، ـ عن ابن عباس في رواية أخرى، والحسن، وأبي العالية.

وخامسها: معناه: بأمّهاتهم، عن محمّد بن كعب ـ.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ أي: فمن أعطي كتاب عمله الذي فيه طاعاته وثواب أعماله بيمينه ﴿فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ فرحين مسرورين، لا يجنبون [يجبنون] عن قراءته لما يرون فيه من الجزاء والثواب.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ أي: لا ينقصون ثواب أعمالهم مقدار فتيل، وهو

المفتول الذي في شقّ النواة، ـ عن قتادة ـ. وقيل: الفتيل: في بطن النواة، والنقير [النفير]: في ظهرها، والقطمير: قشر النواة، ـ عن الحسن ـ. جعل الله إعطاء الكتاب باليمين علامة الرضا والخلاص، وإعطاء الكتاب باليسار، ومن وراء الظهر، علامة السخط والهلاك.

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ ذكر في معناه أقوال:

أحدهما: إنّ هذه إشارة إلى ما تقدم ذكره من النعم، ومعناه: إنّ من كان في هذه لنعم، وعن هذه العبر، أعمى، فهو عمّا غيّب عنه من أمر الآخرة أعمى، ـ عن ابن عباس ـ.

وثانيها: إنّ هذه إشارة إلى الدنيا، ومعناه: من كان في هذه الدنيا أعمى عن آيات الله، ضالاً عن الحقّ، ذاهباً عن الدين، فهو في الآخرة أشدّ تحيّراً وذهاباً عن طريق الجنّة، أو عن الحجّة إذا سئل، فإنّ من ضلّ عن معرفة الله في الدنيا، يكون يوم القيامة منقطع الحجّة، فالأوّل إسم، والثاني فعل من العمى. وهذا معنى قول ابن عباس ومجاهد، وقتادة.

وثالثها: إنّ معناها: من كان في الدنيا أعمى القلب، فإنّه في الآخرة أعمى العين، يحشر كذلك؛ عقوبة له على ضلالته في الدنيا، عن إبي مسلم قال: وهذا كقوله: ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ وتأول قوله سبحانه: ﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ بأن معناه: الإخبار عن قوّة المعرفة، والجاهل بالله سبحانه يكون عارفاً به في الآخرة، وتقول العرب: فلان بصير بهذا الأمر، وإنّما أرادوا بذلك العلم والمعرفة، لا الإبصار بالعين، وعلى هذا فليس يكون قوله: ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ على سبيل المبالغة والتعجّب. وإن عطف عليه بقوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾: ويكون التقدير: وهو أضلّ سبيلاً، قال: ويجوز أن يكون أعمى عبارة عمّا يلحقه من الغمّ المفرط، فإنّه إذ لم ير إلّا ما يسوئه، فكأنّه أعمى، كما يقال: فلان

سخين العين.

ورابعها: إنّ معناه: من كان في الدنيا ضالاً، فهو في الآخرة أضلّ؛ لأنّه لا يقبل توبته، عن الحسن، وإختاره الزجّاج على هذا القول، وقال: تأويله: أنّه إذا عمي في الدنيا، وقد عرفه الله الهدى، وجعل له إلى التوبة وصلة، فعمي عن رشده، ولم يتب، فهو في الآخرة أشدّ عمى، وأضلّ سبيلاً؛ لأنّه لا يجد طريقاً إلى الهداية.

﴿النظم﴾: قيل في وجه إتّصال قوله: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ بما قبله، وجوه: أحدها: إنّه سبحانه ذكر تفضيل بني آدم. ثمّ بيّن أنّ ذلك التفضيل إنّما يكون في ذلك اليوم فيستحقّ المهتدون الثواب بهدايتهم.

وثانيها: إنّها إتّصلت بقوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُوراً﴾ أي: فاحذروا يوم يدعى كل أمّة بإمامهم.

وثالثها: إنّها إتصلت بقوله: ﴿يُعِيدَكُمْ﴾ أي: يعيدكم يوم يدعو.

ورابعها: إنّه تعالى ذكر فيما تقدّم من آمن، ومن كفر. ثمّ بيّن في هاتين الآيتين ما أعدّ للفريقين من ثواب وعقاب، وأنّه يعطيهم ذلك على ما هو مكتوب في كتبهم، ـ عن أبي مسلم ـ.

وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

﴿الإعراب﴾: ﴿وَلَوْ لاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ﴾ تقديره: لولا تثبيتنا إيّاك، فـ«أنْ» هيهنا في موضع رفع بالإبتداء، وخبره مضمر. وهذا يدلّ على بطلان مذهب أبي سعيد، حيث

قال: «لو لا حددت ولا عدوى لمحدود»[١] وإستدلّ به على أنّ «لولا» تدخل على الفعل، وخفي عليه إضمار «أن» في البيت.

النزول: في سبب نزوله أقوال:

أحدها: إنّ قريشاً قالت للنبيّ ﷺ: لا ندعك تستلم الحجر، حتى تلمّ بآلهتنا، فحدث نفسه، وقال: ما علَيّ في أنْ ألمَّ بها، والله يعلم أنّي لكارهٌ لها، ويدعوني أستلم الحجر! فأنزل الله تعالى هذه الآية، ـ عن سعيد بن جبير ـ.

وثانيها: إنّهم قالوا له: كفّ عن شتم آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، وإطّردْ هؤلاء العبيد، والسقاط الذين رائحتهم رائحة الصنان[٢]، حتى نجالسك، ونسمع منك! فطمع في إسلامهم، فنزلت الآية.

وثالثها: إنّ رسول الله ﷺ أخرج الأصنام من المسجد، فطلبت إليه قريش أن يترك صنماً على المروة، فهمّ بتركه، ثمّ أمر بعد بكسره، فنزلت الآية، رواه العياشي بإسناده.

ورابعها: إنّها نزلت في وفد ثقيف، قالوا: نبايعك على أن تعطينا ثلاث خصال:

لا ننحني بفنون الصلاة، ولا نكسر أصنامنا بأيدينا، وتمتّعنا باللات سنة. فقال ﷺ: لا خير في دين ليس فيها ركوع ولا سجود! فأمّا كسر أصنامكم بأيديكم: فذاك لكم. وأمّا الطاعة للاّت: فإنّي غير ممتّعكم بها. وقام رسول الله ﷺ، وتوضّأ، فقال عمر بن الخطّاب: ما بالكم آذيتم رسول الله ﷺ، أنّه لا يدع الأصنام في أرض العرب؟ فما زالوا به حتى أنزل الله هذه الآيات، ـ عن

---

[١] الحَدّ: المَنْع، والمحدود: الممنوع من الخير والمحروم. ومنه الحِداد وهو ترك الزينة والإمتناع عنها.

[٢] الصنان: نتن الإبط.

ابن عباس ـ.

وخامسها: إنّ وفد ثقيف قالوا: أجِّلْنا سنة حتى نقبض ما يهدى لآلهتنا، فإذا قبضنا ذلك كسرناها، وأسلمنا. فهمَّ بتأجيلهم، فنزلت الآية، ـ عن الكلبي، رواه عن عطية، عن ابن عبّاس ـ.

المعنى: ثمّ حكى الله سبحانه عن الكفّار، فقال: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾[1]: ﴿إِنْ﴾ هذه مخفّفة من الثقيلة، والمعنى: إنّ المشركين الذين تقدّم ذكرهم في هذه السورة، همُّوا وقاربوا أن يزلُّوك، ويصرفوك عن القرآن الذي أوحينا إليك أي: من حكمه.

﴿لِتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ﴾ أي: لتخترع علينا غير ما أوحيناه إليك، والمعنى: نتحلّ محلّ المفتري؛ لأنّك تخبر أنّك لا تنطق إلّا عن وحي، فإذا إتّبعت أهواءهم، أو هممت أنّك تفعله بأمر الله، فكنت كالمفتري.

﴿وَإِذاً لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً﴾ معناه: وإنّك لو أجبتهم إلى ما طلبوا منك، لتولّوك، وأظهروا خلّتك، أي: صداقتك؛ لموافقتك معهم. وقيل: هو من الخلّة التي هي الحاجة أي: فقيراً محتاجاً إليهم. والأوّل أوجه.

﴿وَلَوْلاَ أَن ثَبَّتْنَاكَ﴾ أي: ثبّتنا قلبك على الحقّ والرشد بالنبوّة والعصمة والمعجزات. وقيل: بالألطاف الخفيّة ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً﴾ أي: ركوناً قليلاً، والمعنى: لقد قاربت أن تسكن إليهم بعض السكون، وأن تميل إليهم ميلاً قليلاً، فتعطيهم بعض ما سألوك. يقال: كدت أفعل كذا، أي: قاربت أن أفعله، ولم أفعله. وقد صحّ عنه ﷺ، قوله: «وضع عن أمّتي ما حدثت به نفسها ما لم تعمل به، أو تتكلّم به» قال ابن عباس: يريد حيث سكت عن جوابهم، والله أعلم

---

(١) وفي بعض الروايات عن أبي جعفر عليه السلام «عن الذي أوحينا إليك في عليّ». وحمله بعضهم على أنّه قرائة. والأظهر أنّه تأويل.

بنبيّه [بنيّته].

ثمّ توعّده سبحانه على ذلك لو فعله، فقال: ﴿إِذاً لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ أي: لو فعلت ذلك لعذّبناك ضعف عذاب الحياة، وضعف عذاب الممات، أي: مثلي ما نعذّب به المشرك في الدنيا، ومثلي ما نعذّب به المشرك في الآخرة؛ لأنّ ذنبك يكون أعظم. وقيل: إنّ المراد بالضعف: العذاب المضاعف ألمه، والمعنى: لأذقناك عذاب الدنيا، وعذاب الآخرة، ـ عن أبان بن تغلب ـ. وأنشد قول الشاعر:[1]

لِمَقْتَلِ مَالِكٍ إِذْ بَانَ سِنّي [مِنّي] أَبَيْتُ اللَّيْلَ فِي ضِعْفٍ أَلِيمِ

أي: عذاب. قال ابن عباس: رسول الله ﷺ معصوم، ولكن هذا تخويف لأمّته؛ لئلاّ يركن أحد من المؤمنين إلى أحد من المشركين، في شيء من أحكام الله وشرائعه.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾ أي: ناصراً ينصرك. وقال: إنّه لمّا نزلت هذه الآية، قال النبيّ ﷺ، أللهمّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، ـ عن قتادة ـ.

وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا[2] وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾

القراءة: قرأ أهل الحجاز، وأبو عمرو، وأبو بكر: خلفك ـ بغير ألف ـ.

---

(١) أبان بن تغلب: من مشاهير علمائنا، ثقة من أصحاب الصادقين عليهما السلام، وتمسّك بالشعر في تفسير القرآن؛ إذ يجوز تفسير القرآن بمالنا إليه طريق كالنحو، واللغة، والتاريخ، والسير. وإنّما يرجع الى المعصوم عليه السلام فيما لاطريق إليه.

(٢) تقدّم إسكان السين من «رسلنا» عن أبي عمرو.

والباقون: خلافك ـ بالألف ـ. وقرأ رويس عن يعقوب: بالوجهين.

الحجة: قال أبو عليّ: زعم أبو الحسن أنّ ﴿خِلاَفَكَ﴾ في معنى: خلفك، ومعناه: بعدك، فمن قرأ: خلفك أو خلافك، فهو في القراءتين جميعاً على تقدير حذف المضاف أي: بعد خروجك، فيكون مثل قول ذي الرمة:

لَهُ واجِفٌ بِالْقَلْبِ حَتّى تَقَطَّعَتْ خِلافَ الثُّرَيا مِنْ أُرِيكٍ مَآرِبُهُ[1]

والمعنى: خلاف طلوع الثريا، وكذلك من جعل قوله: ﴿خِلاَفَ رَسُولِ اللهِ﴾ ﷺ إسماً للجهة، كان على حذف المضاف كأنّه خلاف خروج رسول الله، ومن جعله مصدراً، جعله مضافاً إلى مفعول به، وعلى أيّ الأمرين حمل ذلك في سورة التوبة «كان بمقعدهم» المقعد فيه مصدر، لا إسم المكان؛ لأنّ إسم المكان لا يتعلّق به شيء.

الإعراب: قال: ﴿لاَ يَلْبَثُونَ﴾ بالرفع؛ لأنّ ﴿إِذاً﴾ إذا وقعت بعد الواو، جاز فيها الإلغاء؛ لأنها متوسّطة في الكلام، كما أنّه لابدَّ من أن تلقى [تلغى] إذا وقعت حشواً. و ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا﴾ إنتصب بمعنى قوله: ﴿لاَ يَلْبَثُونَ﴾ لأن تأويله: إنّا سننّا هذه السنّة فيمن أرسلناهم قبلك. والتقدير: أهلكناهم إهلاكاً وسنّة، مثل سنّة من قد أرسلنا قبلك.

النزول: نزلت في أهل مكّة، لمّا همُّوا بإخراج النبيّ ﷺ من مكّة، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. وقيل: نزلت في اليهود بالمدينة، لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة، قالوا له: إنّ هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء، وإنّما أرض الأنبياء الشام، فأت الشام، ـ عن ابن عباس ـ.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أنّ الكفّار لمّا يئسوا من إجابته إيّاهم فيما إلتمسوه

---

(١) الوجيف: الإضطراب. وأريك: إسم واد. ومآربه: فاعل «تقطّعت».

منه، كادوا له، فقالوا: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنْ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ معناه: وإنّ المشركين أرادوا أن يزعجوك من أرض مكّة بالأخراج، ـ عن قتادة، ومجاهد ـ. وقيل: عن أرض المدينة، يعني: اليهود، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: يعني جميع الكفّار أرادوا أن يخرجوك من أرض العرب. ـ عن الجبائي ـ. وقال الحسن: ليستفزّونك معناه: ليقتلونك.

﴿وَإِذاً لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلاً﴾ معناه: إنّهم لو أخرجوك، لكانوا لا يلبثون بعد خروجك إلّا زماناً قليلاً، ومدّة يسيرة. قيل: وهي المدّة بين خروج النبيّ ﷺ، من مكّة، وقتلهم يوم بدر، ـ عن الضحّاك ـ، وقيل: إنّهم أخرجوه وأهلكوا. والمراد بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ إلّا ناساً قليلاً منهم، يريد: من انفلت منهم يوم بدر، وآمنوا بعد ذلك.

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ معناه: إنّهم لو أخرجوك لإستأصلناهم بعد خروجك، كسنّتنا فيمن قبلك، قال سفيان بن عيينة: يقول لم نرسل قبلك رسولاً، فأخرجه قومه إلّا أُهلكوا، فقد سننّا هذه السنّة فيمن أرسلنا قبلك إليهم.

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾ أي: تبديلاً، ومعناه: ما يتهيّأ لأحد أن يقلب سنة الله ويبطلها. والسنّة: هي العادة الجارية. والصحيح أنّ المعنيين في الآية مشركو مكّة، وأنّهم لم يخرجوه من مكّة، ولكنّهم همُّوا بإخراجه، كما في قوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾. ثمّ خرج ﷺ، لما أمر بالهجرة خوفاً منهم، وندموا على خروجه، ولذلك ضمنوا الأموال في ردّه، فلم يقدروا على ذلك، ولو أخرجوه لاستوصلوا بالعذاب، ولماتوا طُرّاً.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ(١) إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا ﴿٨٠﴾ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ﴿٨١﴾

(اللغة): الدلوك: الزوال: وقال المبرّد: دلوك الشمس: من لدن زوالها إلى غروبها. وقيل: هو الغروب. وأصله: من الدلك، فسمّي الزوال دلوكاً؛ لأنّ الناظر إليها يدلك عينيه لشدّة شعاعها. وسمّي الغروب دلوكاً؛ لأنّ الناظر يدلك عينيه ليتبيّنها. قال ثعلب: دلكت الشمس: مالت. وقال الزجّاج: يقال: دلكت براح وبراح أي: مالت للزوال حتى صار الناظر يحتاج إذا تبصرها أن يكسر الشعاع عن بصره براحته. قال الراجز:

هٰذا مَقامُ قَدَمَيْ رَبَاحِ ... لِلشَّمْسِ حَتَّىٰ دَلَكَتْ بَرَاحِ(٢)

ورباح: إسم ساقي الإبل. ومن قال: براح ـ بفتح الباء ـ جعلها إسماً للشمس مبنيّاً على «فعال»، مثل: قطام وحذام. ومن روى: براح ـ بكسر الباء ـ أراد: براحته. وقال الفرّاء: أي قال: بالراحة على العين، لينظر هل غابت الشمس بعد. وغسق الليل: ظهور ظلامه. يقال: غسقت القرحة إذا إنفجرت فظهر ما فيها.

---

(١) تقدّم نقل حركة همزة «القرآن» عن ابن كثير مطلقاً، وعن حمزة وقفاً.

(٢) في الصحاح: [ذبب] حتى دلكت براح. وذبب أي: كثرت عليه الذباب.

والتهجّد: التيقّظ والسهر بما ينفي النوم. والهجود: النوم، وهو الأصل. هجد يهجد: نام. وقد هجّدته: إذا نوّمته. قال لبيد:

قُلْتُ هَجِّدْنا، وَقَدْ طالَ السَرىٰ ... وَقَدَرْنا إِنْ خَنَا الدَّهرِ غَفَلْ[١]

وقال آخر:

أَلا طَرَقَتْنا، وَالرِّفاقُ هُجُودُ ... فَباتَتْ بِعلاَّتِ النَّوالِ تَجُودُ

وقال الحطيئة:

أَلا طَرَقَتْ هِنْدُ الهُنُودِ، وَصُحبَتي ... بِحَورانَ حَوْرانِ الجُنُودِ هُجُودُ[٢]

قال المبرّد: التهجّد السهر للصلاة، أو لذكر الله. وقال علقمة: التهجّد يكون بعد نومة. والنافلة والنفل: الغنيمة. قال لبيد:

إِنَّ تَقْوىٰ رَبِنا خَيْرُ نَفَلٍ ... وَبِإِذنِ اللهِ رَيثي، وَعَجَلِ

أي: وعجلي. وعسى من الله واجبة. وقد أنشد لابن مقبل في وجوبها:

ظَنّي بِهِمْ كَعَسىٰ، وَهُمْ بِتَنوفَةٍ[٣] ... يَتَنازَعُونَ جَوائِزَ الأَمثالِ

يريد كيقين. والزهوق: الهلاك والبطلان. يقال: زهقت نفسه: إذا خرجت، فكأنّه قد خرجت إلى الهلاك.

الإعراب: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾: منصوب، على تقدير: وأقم قرآن الفجر. وإنتصب قوله: ﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ لأنّه في موضع الحال.

المعنى: ثمّ أمر سبحانه بعد إقامة البيّنات، وذكر الوعد والوعيد، بإقامة

---

[١] السرى: سير الليل كله. وقدرنا أي: قدرنا على التهجيد، أو على السير، وخنى الدهر: آفته وفساده أي: إن غفل عنا فساد الدهر فلم يعقنا.

[٢] حكي عن الثعلب أنه قال: إن أهل الشام يسمون كل كورة جنيداً. وحوران: كورة واسعة من أعمال دمشق ذات قرى كثيرة وحوران الجنود أي: بها جنود.

[٣] التنوفة: القفر من الأرض.

الصلاة، فقال مخاطباً للنبيّ ﷺ، والمراد: هو وغيره: ﴿أَقِمْ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ إختلف المفسّرون في الدلوك: فقال قوم: دلوك الشمس: زوالها، وهو قول ابن عباس بخلاف، وابن عمر، وجابر، وأبي العالية، والحسن، والشعبي وعطا، ومجاهد، وقتادة. والصلاة المأمور بها على هذا: هي صلاة الظهر، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام. ومعنى قوله: ﴿لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ أي: عند دلوكها. وقال قوم: دلوكها: غروبها، وهو قول النخعي، والضحّاك، والسدّي. والصلاة المأمور بها على هذا: هي المغرب، وروي ذلك عن ابن مسعود، وابن عباس. والقول الأوّل هو الأوجه؛ لتكون الآية جامعة للصلوات الخمس. فصلاتا دلوك الشمس: الظهر والعصر. وصلاتا غسق الليل: هما المغرب والعشاء الآخرة. والمراد بقرآن الفجر: صلاة الفجر، فهذه خمس صلوات. وهذا معنى قول الحسن، وإختاره الواحدي. وغسق الليل: وهو أوّل بدء الليل، عن ابن عباس، وقتادة. وقيل: هو غروب الشمس، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هو سواد الليل وظلمته، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: هو إنتصاف الليل، ـ عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام[1].

وإستدلّ قوم من أصحابنا بالآية أنّ وقت صلاة الظهر موسّع إلى آخر النهار؛ لأنّه سبحانه أوجب إقامة الصلاة من وقت دلوكها إلى غسق الليل، وذلك يقتضي أنّ ما بينهما وقت، ولم يرتضه الشيخ أبو جعفر، قدس الله روحه، قال: لأنّ من قال إنّ الدلوك هو الغروب، فلا دلالة فيه عنده، بل يقول أوجب سبحانه إقامة المغرب من عند الغروب إلى وقت إختلاط الظلام الذي هو غروب الشفق. ومن قال: الدلوك

---

(١) المعلوم من السنّة النبويّة أنّه ﷺ كان يؤخّر صلاة الظهر عن الزوال بقدمين، ويفصل بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء. والآية تدلّ على مذهب أهل البيت عليهم السلام، وهو أنّ هذا أفضل، ويجوز تقديم الظهر على القدمين، والجمع بين الصلوتين إلى الغروب، وإلى نصف الليل. وهكذا في بعض رواياتهم أيضاً.

هو الزوال، أمكنه أن يقول: إنّ المراد بالآية: بيان وجوب الصلوات الخمس، على ما ذكره الحسن، لا بيان وقت صلاة واحدة[١].

وأقول: إنّه يمكن الإستدلال بالآية على ذلك، بأن يقال: إنّ الله سبحانه جعل من دلوك الشمس الذي هو الزوال إلى غسق الليل، وقتاً للصلوات الأربع، إلّا أنّ الظهر والعصر إشتركا في الوقت من الزوال إلى الغروب. والمغرب، والعشاء الآخرة إشتركا في الوقت من الغروب إلى الغسق. وأفرد «صلاة الفجر» بالذكر في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ ففي الآية بيان وجوب الصلوات الخمس، وبيان أوقاتها. ويؤيّد ذلك، ما رواه العيّاشي بالإسناد عن عبيد بن زرارة، عن أبي عبدالله عليه السلام. وفي هذه الآية قال: إنّ الله إفترض أربع صلوات، أوّل وقتها من زوال الشمس إلى إنتصاف الليل، منها: صلاتان، أوّل وقتهما من عند زوال الشمس إلى غروبها، إلّا أنّ هذه قبل هذه ومنها: صلاتان، أوّل وقتهما من غروب الشمس إلى إنتصاف الليل، إلّا أنّ هذه قبل هذه.

وإلى هذا ذهب المرتضى علم الهدى، قدس روحه، في أوقات الصلوات. وقال الزجّاج: إنّ في قوله: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ فائدة عظيمة، تدلّ على أنّ الصلاة لا تكون إلّا بقراءة؛ لأنّ قوله: ﴿أَقِمْ الصَّلَاةَ﴾ وأقِمْ قرآن الفجر، قد أمر فيه أن يقيم الصلاة بالقراءة، حتى سمّيت الصلاة قرآناً، فلا يكون صلاة إلّا بقراءة.

﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً﴾ كلّهم قالوا معناه: إنّ صلاة الفجر تشهدها

---

(١) كأنّه يريد: إنّه ليس المراد: الإتيان بالصلوات الأربع، كل واحدة في كل جزء من الوقت، بأن يكون الوقت ظرفاً للصلاة؛ لأنّ ذلك خلاف الإجماع، بل المراد: أنّ الوقت ظرف للوجوب، كأنّه قال: يجب عليكم من الظهر الى نصف الليل أربع صلوات، فلايدلّ على وقت الصلاة إلّا بدليل خارج، فيقال: إنّ الآية مطلقة في الوقت، نتمسّك بإطلاقه إلّا فيما خرج عنه بالإجماع، فيصحّ كل من الظهرين من الظهر الى الغروب، وإنتصاف الليل أشدّ غسقاً، وهو منتهى وقت العشاء.

ملائكة الليل، وملائكة النهار. وقال النبيّ ﷺ: تفضل صلاة الجماعة صلاة أحدكم وحده بخمسة وعشرين جزءاً، ويجتمع ملائكة الليل والنهار في صلاة الفجر. أورده البخاري في الصحيح.

﴿وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ خطاب للنبيّ ﷺ أي: فصل بالقرآن، ـ عن ابن عباس ـ. ولا يكون التهجّد إلّا بعد النوم، ـ عن مجاهد، والأسود وعلقمة، وأكثر المفسّرين ـ. وقال بعضهم: ما تنفلت به في كل الليل يمسى تهجّداً، والمتهجّد الذي يلقي الهجود عن نفسه، كما يقال: المتحرّج والمتأثّم.

﴿نَافِلَةً لَكَ﴾ أي: زيادة لك على الفرائض، وذلك أنّ صلاة الليل كانت فريضة على النبيّ ﷺ، مكتوبة عليه، ولم تكتب على غيره، وكانت فضيلة لغيره، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: كانت واجبة عليه، فنسخ وجوبها بهذه الآية. وقيل: إنّ معناه: فضيلة لك، وكفّارة لغيرك، فإنّ كل إنسان يخاف أن لا يقبل فرضه، فيكون نفله كفّارة، والنبيّ ﷺ لا يحتاج إلى كفّارة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: نافلة لك ولغيرك، وإنّما إختصّه بالخطاب، لمَا في ذلك من دعاء الغير إلى الإقتداء به، والحثّ على الإستنان بسنّته.

﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً﴾ عسى من الله واجبة. والمقام بمعنى البعث، فهو مصدر من غير جنسه أي: يبعثك يوم القيامة بعثا أنت محمود فيه. ويجوز أن يجعل البعث بمعنى الإقامة، كما يقال: بعثت بعيري أي: أثرته وأقمته. فيكون معناه: يقيمك ربّك مقاماً محموداً يحمدك فيه الأوّلون والآخرون، وهو مقام الشفاعة، تشرف فيه على جميع الخلائق، تسأل فتعطى، وتشفع فتشفع.

وقد أجمع المفسّرون على أنّ المقام المحمود هو مقام الشفاعة، وهو المقام الذي يشفع فيه للناس، وهو المقام الذي يعطى فيه لواء الحمد، فيوضع في كفّه، ويجتمع تحته الأنبياء والملائكة، فيكون ﷺ أوّل شافع، وأوّل مشفع.

﴿وَقُلْ﴾ يا محمّد. ﴿رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ المُدخَل والمُخرَج هنا: مصدر الإدخال والإخراج، فالتقدير: أدخلني إدخال صدق، وأخرجني إخراج صدق. وفي معناه أقوال:

أحدها: إنّ المعنى: أدخلني في جميع ما أرسلتني به إدخال صدق، وأخرجني منه سالما إخراج صدق أي: أعنّي على الوحي والرسالة، ـ عن مجاهد ـ.

وثانيها: إنّ معناه: أدخلني المدينة، وأخرجني منها إلى مكّة للفتح، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وسعيد بن جبير ـ.

وثالثها: إنّه ﷺ أمر بهذا الدعاء إذا دخل في أمر، أو خرج من أمر، والمراد: أدخلني كل أمر مدخل صدق، ـ عن أبي مسلم ـ.

ورابعها: إنّ المعنى: أدخلني القبر عند الموت مدخل صدق، وأخرجني منه عند البعث مخرج صدق، ـ عن عطية، عن ابن عباس ـ. ومدخل الصدق: ما تحمد عاقبته في الدنيا والدين. وإنّما أضاف الإدخال والإخراج إليه سبحانه، وإن كانا من فعل العبد، لأنّه سأله اللطف المقرّب إلى خير الدين والدنيا.

﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً﴾ أي: إجعل لي عزّاً أمتنع به ممّن يحاول صدّي عن إقامة فرائضك، وقوّة تنصرني بها على من عاداني فيك. وقيل: إجعل لي ملكاً عزيزاً أقهر به العصاة، فنصر بالرعب حتى خافه العدوّ على مسيرة شهر. وقيل: حجّة بيّنة أتقوّى بها على سائر الأديان الباطلة، ـ عن مجاهد ـ قال: وسمّاه نصيراً؛ لأنّه تقع به النصرة على الأعداء، فهو كالمعين.

﴿وَقُلْ﴾ يا محمّد: ﴿جَاءَ الْحَقُّ﴾ أي: ظهر الحقّ، وهو الإسلام والدين ﴿وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ أي: وبطل الباطل وهو الشرك، ـ عن السدّي ـ. وقيل: الحقّ: التوحيد، وعبادة الله، والباطل: عبادة الأصنام، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: الحقّ:

القرآن. والباطل: الشيطان. وزهق: بطل وإضمحلّ، ـ عن قتادة ـ. وروي عن عبدالله بن مسعود أنّه قال: دخل النبيّ ﷺ مكّة، وحول البيت ثلاثمائة وستّون صنماً، فجعل يطعنها، ويقول: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ أورده البخاري في الصحيح. قال الكلبي: فجعل الصنم ينكب لوجهه؛ إذ قال ذلك، وأهل مكّة يقولون: ما رأينا رجلاً أسحر من محمّد.

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ أي: مضمحلاً ذاهباً هالكاً، لا ثبات له.

وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (١) ﴿٨٢﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وابن عامر، برواية ابن ذكوان: وناء بجانبه ـ ممدودة مهموزة ـ. وفي حم مثله. وقرأ حمزة إلا العجلي، وأبو بكر برواية حماد، ويحيى وعياش، وأبو شعيب السوسي، عن اليزيدي، ونصير، عن الكسائي: نَئِي ـ بفتح النون وكسر الهمزة. ـ وقرأ حمزة برواية العجلي، وخلف، والكسائي: نِئِي ـ بكسر النون والهمزة ـ. وقرأ الباقون: نَأَى ـ بفتح النون والهمزة ـ. في وزن «نعى».

الحجة: قال أبو عليّ: ناء مثل: فاء، وهو على القلب، وتقديره: فلع. ومثله:

---

(١) قوله: ولا يزيد الظالمين إلّا خساراً، في بعض الروايات: لايزيد الظالمين آل محمّد حقّهم. وفي بعضها: ظالمي آل محمّد حقّهم. وفي أخرى: لايزيد الظالمين آل محمّد حقّهم. وفي أخرى: لايزيد الظالمين لآل محمّد. وهذه كلّها من التأويل. وحمله بعضهم على القرائة، وهو بعيد مع هذا الإختلاف وإن سلّمناه فيدلّ على عدم جواز الإعتماد على خبر الواحد في القرائة؛ لعدم العلم بضبط الرواة.

رأى ورآء. قال:

فَكُــلُّ خَــلِيلٍ رَاءَنِــي فَـهْوَ قَـائِلٌ مِنْ أَجلِكَ هٰذَا هَامَةُ الْيَوْمِ أَوْغَدِ(١)

ومن أمال الفتحتين؛ فلأنّ الألف منقلبة من الياء التي في «النأي»، فإذا أراد أن ينحو نحوها، أمال فتحة النون لإمالة فتحة الهمزة. وقد قالوا: رأيت عماداً [عميدى]، فأمالوا الألف؛ لإمالة الألف، فكذلك أمالوا الفتحة لإمالة الفتحة؛ لأنّهم يجرون الحركة مجرى الحرف في أَشياء. ومن فتح النون وكسر الهمزة، فإنّه لم يمل الفتحة الأولى، لإمالة الفتحة الثانية، كما لم يميلوا الألف لإمالة الألف في: رأيت عماداً [عميداً].

﴿اللغة﴾: الشاكلة: الطريقة، والمذهب. يقال: هذا طريق ذو شَواكِل أي: ينشعب منه طرق جماعة.

﴿المعنى﴾: ثمّ أخبر سبحانه عن القرآن، فقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ووجه الشفاء فيه من وجوه: منها: ما فيه من البيان الذي يزيل عمى الجهل، وحيرة الشكّ. ومنها: ما فيه من النظم والتأليف والفصاحة البالغة حدّ الإعجاز، الذي يدلّ على صدق النبيّ ﷺ، فهو من هذه الجهة شفاء من الجهل والشكّ، والعمى في الدين، ويكون شفاء للقلوب. ومنها: إنّه يتبرّك به، وبقراءته، ويستعان به على دفع العلل والأسقام، ويدفع الله به كثيراً من المكاره والمضارّ، على ما تقتضيه الحكمة. ومنها: ما فيه من أدلّة التوحيد والعدل، وبيان الشرائع والأمثال والحكم، وما في التعبّد بتلاوته من الصلاح الذي يدعو إلى أمثاله بالمشاركة التي بينه وبينه. فهو شفاء للناس في دنياهم وآخرتهم، ورحمة للمؤمنين أي: نعمة لهم، وخصّهم بذلك؛ لأنّهم لمنتفعون به.

---

(١) هامة اليوم: أي ميت اليوم.

﴿وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَاراً﴾ ومعناه: إنّهم لا يزدادون عنده إلّا خساراً يخسرون الثواب. ويستحقّون العقاب؛ لكفرهم به، وتركهم التدبّر له، والتفكّر فيه. وهذا كقوله. ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً﴾. ويحتمل أن يريد: إنّ القرآن يظهر خبث سرائرهم، وما يأتمرون به من الكيد والمكر بالنبيّ ﷺ، فيفتضحون بذلك.

﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ﴾ عن ذكرنا أي: ولّى كأنّه لم يقبل علينا بالدعاء، والإبتهال ﴿وَنَآى بِجَانِبِهِ﴾ أي: بَعدُ بنفسه عن القيام بحقوق إنعامنا، فلا يشكره، كما أعرض عن النعمة بالقرآن. وقال مجاهد: معناه: تباعد منّا. وعلى هذا فيكون معناه: تجبر وتكبّر. وأعجب بنفسه؛ لأنّ المعجب نافر عن الناس، متباعد عنهم.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَؤُوساً﴾ معناه: وإذا أصابه المحنة والشدّة والفقر، لم يصبر، وكان قنوطاً من رجاء الفرج من الله تعالى، بخلاف المؤمن الذي يرجو الفرج والروح، فيكون المراد بالآية خاصّاً، وإن كان اللفظ عامّاً. وسمّي الأمراض والبلايا شرّاً؛ لكونها شرّاً عند الكافر من حيث لا يرجو ثواباً، ولا عوضاً؛ ولأنّ الطباع تنفر عنها، وتكرهها، وإلّا فهي في الحقيقة صلاح، وحكمة، وصواب. ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهم: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ أي: كل واحد من المؤمن، والكافر، يعمل على طبيعته، وخليقته التي تخلق بها، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: على طريقته وسنّته التي اعتادها، ـ عن الفرّاء، والزجّاج ـ. وقيل: على ما هو أشكل بالصواب، وأولى بالحقّ عنده، ـ عن الجبائي ـ، قال: ولهذا قال: ﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلاً﴾ أي: إنّه يعلم أيُّ الفريقين على الهدى، وأيّهما على الضلالة. وقيل: معناه: إنّه أعلم بمن هو أصوب دينًا، وأحسن طريقاً. وقال بعض أرباب اللسان: هذه الآية أرجى آية في كتاب الله؛ لأنّ الأليق بكرمه سبحانه، وجوده، العفو عن عباده، فهو يعمل به.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا (١) لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾

اللغة: الظهير: المعين، وهو المظاهر. وأصله من الظهر. كأنّ كلَّ واحد يسند ظهره إلى ظهر صاحبه، فيتقوّى به. والتصريف: تصيير الشيء دائراً في الجهات، وكذلك تصريف الكلام: هو تصييره دائراً في المعاني المختلفة.

الإعراب: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾: الرحمة إستثناء من الأوّل، والمعنى: ولكن الله تعالى رحمك، فأثبت ذلك في قلبك. ﴿لاَ يَأْتُونَ﴾: مرفوع؛ لأنّه غلب جواب القسم على جواب «أن»، واللام في ﴿وَلَئِنْ﴾ موطئة للقسم، دالّة عليه، والتقدير: فوالله لا يأتون بمثله. ومثله: قول كثير:

لَئِنْ عادَلِي عَبْدُ الْعَزِيزِ بِمِثْلِها ... وَأَمْكَنَنِيْ مِنْها، إذاً لاَ أُقِيلُها

المعنى: ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ﴾ يا محمّد ﴿عَنِ

---

(١) أدغم «ولقد صرّفنا» أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي.

الرُّوحِ﴾ أختلف في الروح المسؤول عنه على أقوال:

أحدها: إنّهم سألوه عن الروح الذي هو في بدن الإنسان ما هو، ولم يجبهم. وسأله عن ذلك قوم من اليهود، عن ابن مسعود، وابن عباس، وجماعة، وإختاره الجبائي ـ. وعلى هذا فإنّما عدل النبيّ ﷺ عن جوابهم؛ لعلمه بأنّ ذلك أدعى لهم إلى الصلاح في الدين؛ ولأنّهم كانوا بسؤالهم متعنّتين لا مستفيدين، فلو صدر الجواب لإزدادوا عناداً[1]. وقد قيل: إنّ اليهود قالت لكفّار قريش: سلوا محمّداً عن الروح، فإن أجابكم فليس بنبيّ، وإن لم يجبكم فهو نبيّ، فإنّا نجد في كتبنا ذلك. فأمر الله سبحانه بالعدول عن جوابهم، وأن يكلهم في معرفة الروح إلى ما في عقولهم؛ ليكون ذلك علما على صدقه، ودلالة لنبوّته.

وثانيها: إنّهم سألوا عن الروح، أهي مخلوقة محدثة، أم ليست كذلك، فقال سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ أي: من فعله وخلقه، وكان هذا جواباً لهم عمّا سألوه عنه بعينه. وعلى هذا فيجوز أن يكون الروح الذي سألوا عنه، هو الذي به قوام الجسد، ـ على قول ابن عباس، وغيره ـ. أم جبرائيل عليه السلام ـ على قول الحسن، وقتادة ـ، أم ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، لكل وجه سبعون ألف لسان، يسبّح الله بجميع ذلك، ـ على ما روي عن عليّ عليه السلام ـ، أم عيسى عليه السلام، فإنّه قد سمّي بالروح ـ.

وثالثها: إنّ المشركين سألوه عن الروح الذي هو القرآن، كيف يلقاك به

---

(١) ويمكن أن يقال: هذا جواب، وليس عدولاً عن الجواب، فإنّ العادة جارية بأن ينسب مالايظهر له سبب طبيعي، كمعجزات الأنبياء إلى أنّه من أمر الله. والمذهب الصحيح في الروح: أنّه بأمر الله، وليس عرضاً طبيعيّاً يقتضيه تركيب عناصر البدن، بل مجرّد يبقى بعد فناء البدن، وما نقل عن المتكلّمين غير مبتنٍ على تجربة طبيّة، أو دليل عقليّ. والآية لاتدلّ على أنّ ما علّمته الحكماء واليهود من تجرّد الروح، باطلٌ. بل صحيح، ولكنه قليل بالنسبة الى ما لم يعلموه.

الملك، أو كيف صار معجزاً، وكيف صار نظمه وترتيبه مخالفاً لأنواع كلامنا من الخطب والأشعار. وقد سمّى الله تعالى القرآن روحاً في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا﴾ فقال سبحانه: قل يا محمّد: إنّ الروح الذي هو القرآن من أمر ربّي، أنزله دلالة علي، دلالة نبوّتي، وليس من فعل المخلوقين، ولا ممّا يدخل في إمكانهم، وعلى هذا فقد وقع الجواب أيضاً موقعه. وأمّا على القول الأوّل فيكون معنى قوله: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾: هو من الأمر الذي يعلمه ربّي، ولم يطّلع عليه أحد.

وإختلف العلماء في ماهيّة الروح، فقيل: إنّه جسم رقيق هوائيّ، متردّد في مخارق الحيوان، وهو مذهب أكثر المتكلّمين، وإختاره الأجل المرتضى، علم الهدى، قدس الله روحه. وقيل: جسم هوائيّ على بنية حيوانيّة، في كل جزء منه حياة، عن عليّ بن عيسى قال: فلكلّ حيوان روح وبدن، إلّا أنّ منه: من الأغلب عليه الروح، ومنه: من الأغلب عليه البدن.

وقيل: إنّ الروح عرض. ثمّ اختلف فيه فقيل: هو الحياة التي يتهيّأ به المحلّ لوجود القدرة والعلم والإختيار، وهو مذهب الشيخ المفيد[1]، أبي عبدالله محمّد بن محمّد بن النعمان ﷺ، والبلخي، وجماعة من المعتزلة البغداديّين. وقيل: هو معنى في القلب، ـ عن الاسواري ـ. وقيل: إنّ الروح الإنسان، وهو الحيّ المكلّف، ـ عن ابن الأخشيد، والنظام ـ. وقال بعض العلماء: إنّ الله تعالى خلق الروح من ستّة أشياء: من جوهر النور، والطيب، والبقاء، والحياة، والعلم، والعلوّ، ألا ترى أنّه ما دام في الجسد كان الجسد نورانيّاً يبصر بالعينين، ويسمع بالأذنين، ويكون

---

(١) وصريح كلامه في المسائل السروية تجرّده، وهو موافق لمذهب الحكماء، وبني نوبخت.

طيبا، فإذا خرج من الجسد نتن الجسد، ويكون باقياً، فإذا فارقه الروح، بلي وفني، ويكون حيّاً وبخروجه يصير ميّتاً، ويكون عالماً، فإذا خرج منه الروح لم يعلم شيئاً، ويكون علوياً لطيفاً توجد به الحياة بدلالة قوله تعالى في صفة الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ﴾ وأجسامهم قد بليت في التراب.

وقوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً﴾ قيل: هو خطاب للنبيّ ﷺ وغيره، إذا لم يبيّن له الروح، ومعناه: وما أوتيتم من العلم المنصوص عليه إلّا قليلاً أي: شيئاً يسيراً؛ لأنّ غير المنصوص عليه أكثر، فإنّ معلومات الله تعالى لا نهاية لها، وقيل خطاب لليهود الذين سألوه فقالت له اليهود عند ذلك: كيف، وقد أعطانا الله التوراة؟ فقال: التوراة في علم الله قليل.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني: القرآن، ومعناه: إنّي أقدر أن آخذ ما أعطيتك، كما منعت غيرك، ولكنّي دبّرتك بالرحمة لك، فأعطيتك ما تحتاج إليه، ومنعتك ما لا تحتاج إلى النصّ عليه، وإن توهّم قوم أنّه ممّا تحتاج إليه، فتدبّر أنت بتدبير ربّك، وارض بما إختاره لك.

﴿ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً﴾ أي: ثمّ لو فعلنا ذلك، لم تجد علينا وكيلاً يستوفي ذلك منّا، وقيل: معناه: ولو شئنا لمحونا هذا القرآن من صدرك، وصدر أمّتك، حتى لا يوجد له أثر، ثمّ لا تجد له حفيظاً يحفظه عليك، ويحفظ ذكره على قلبك، عن الحسن، وأبي مسلم، والأصم، قالوا: وفي هذا دلالة على أنّ السؤال وقع عن القرآن.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ معناه: لكن رحمة من الله ـ ربّك ـ لك، أعطاك ما أعطاك من العلوم، ومنعك ما منعك منها، وأثبت القرآن في قلبك، وقلوب المؤمنين ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ﴾ فيما مضى، وفيما يستقبل ﴿عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ عظيماً؛ إذ إختارك

للنبوّة، وخصَّك بالقرآن، فقابله بالشكر. وقال ابن عباس: يريد حيث جعلك سيّد ولد آدم، وختم بك النبيّين، وأعطاك المقام المحمود.

ثمّ إحتجّ سبحانه على المشركين بإعجاز القرآن، فقال: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾ معناه: قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار: لئن إجتمعت الإنس والجنّ، متعاونين متعاضدين، على أن يأتوا بمثل هذا القرآن في فصاحته وبلاغته ونظمه، على الوجوه التي هو عليها، من كونه في الطبقة العليا من البلاغة، والدرجة القصوى من حسن النظم، وجودة المعاني، وتهذيب العبارة، والخلوّ من التناقض، واللفظ السمخوط [المسخوط]. والمعنى: الدخول على حدّ يشكل على السامعين ما بينهما من التفاوت، لعجزوا عن ذلك، ولم يأتوا بمثله.

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ أي: معيناً على ذلك، مثل ما يتعاون الشعراء على بيت شعر. فيقيمونه، ـ عن ابن عباس ـ. وفي هذا تكذيب للنضر بن الحارث، حين قال: لو نشاء لقلنا مثل هذا. قال أبو مسلم: وفي هذا أيضاً دلالة على أنّ السؤال بالروح، وقع عن القرآن؛ لأنّه من تمام ما أمر الله نبيّه ﷺ أن يجيئهم به.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ معناه: ولقد بيّنّا لهم في هذا القرآن من كل ما يحتاج إليه من الدلائل والأمثال، والعبر والأحكام، وما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم؛ ليتفكّروا فيها ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُوراً﴾ أي: جحوداً للحقّ، والمثل قد يكون الشيء بعينه، وقد يكون صفة للشيء، وقد يكون شبهه.

وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ
يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ
فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا
زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ
لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ
كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ (١)
ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ
فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم (٢)
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾

(الإعراب): قرأ أهل الكوفة، ويعقوب: ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا﴾ ـ بفتح التاء، وضمّ

---

(١) وأدغم «اذ جائهم» أبو عمرو وهشام. وإختلفوا في «قل سبحان ربّي»؛ لإختلاف المصاحف في كتابة الألف.

(٢) وفي القرآن الكريم آيات تدلّ على صدور المعجزات منه ﷺ، كقوله تعالى في سورة الصافّات: وإذا رأوا آية يستسخرون وقالوا إن هذا إلّا سحر مبين. وفي سورة الأنعام: وإذا جائتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى ما أوتي رسل الله. وفي سورة القمر: وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمرّ. وغير ذلك. وما طلبوه في هذه الآيات جهالات، مثل أن يقول أحد للطبيب: إن كانت حاذقاً، فإدفع عن نفسك الموت. وللمؤمن الفقير: إن كنت محبوباً له تعالى بإيمانك، فأطلب منه يجعلك غنيّاً.

الجيم ـ. والباقون: تُفجِّر ـ بضمّ التاء، وتشديد الجيم ـ. وقرأ أبو جعفر، وابن عامر: كِسَفا ـ بفتح السين هيهنا ـ. وفي سائر القرآن: كِسْفا ـ ساكنة السين ـ. وقرأ حفص: بالفتح في جميع القرآن، إلّا في الطور. وقرأ أهل العراق، وابن كثير: بالسكون في جميع القرآن، إلّا في الروم. ولم يقرأ في الروم بسكون السين، إلّا أبو جعفر، وقرأ ابن عامر، وابن كثير، وابن عامر: قال سبحان ربّي. والباقون: ﴿قُلْ﴾ ـ على الأمر ـ.

(الحجة): من قرأ: ﴿تَفْجُرَ﴾ ـ بالتشديد ـ، فلأنّهم أرادوا كثرة الإنفجار من الينبوع، وهو وإن كان واحداً، فلتكثير الإنفجار منه حسن أن يقال بتكرير العين، كما يقال: ضرّب زيد: إذا كثر منه فعل الضرب. ومن قرأ: تَفْجُر؛ فلأنّ الينبوع واحد. فلا يكون كقوله: ﴿فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلاَلَهَا تَفْجِيراً﴾؛ لأنّ فجّرت الأنهار مثل: غلّقت الأبواب، فلذلك إتّفق الجميع على التثقيل فيه.

والكِسَف: القِطَع. واحدتها: كِسْفة. ومن سكنه جاز أن يريد الجمع، مثل: سِدْرَة وسِدْر. قال أبو زيد: كسفت الثوب أكسِفه كَسْفاً: إذا قطعته. قال أبو عليّ: إذا كان المصدر الكَسَف، فالكِسَفْ: الشيء المقطوع، كالطَحْن والطِحَن، والسَقْي والسِقي، ونحو ذلك. فجاز أن يكون قوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ بمعنى: ذات كسف، وذلك أنّ «أسقط» لا يتعدّى إلّا إلى مفعول واحد، فوجب أن ينتصب ﴿كِسَفاً﴾ على الحال. والحال ذو الحال في المعنى. وإذا كان كذلك وجب أن يكون «الكسف» هو السماء، فيصير المعنى: أو تسقط السماء علينا مقطعة، أو قطعاً، ومن قرأ: ﴿قَالَ سُبْحانَ رَبِّي﴾ فالوجه فيه: أنّ الرسول ﷺ قال عند إقتراحهم هذه الأشياء: سبحان ربّي. ومن قرأ: ﴿قُلْ﴾ فهو على الأمر له، بأن يقول ذلك.

(اللغة): التفجير: التشقيق عمّا يجري من ماء، أو ضياء. ومنه: سمّي الفجر؛ لأنّه ينشقّ عن عمود. ومنه: الفجور؛ لأنّه خروج إلى الفساد، يشقّق به عمود الحقّ.

والينبوع: يفعول، من نبع الماء ينبع، فهو نابع: إذا فار. والقبيل: الكفيل، من قبلت به أقبل قبالة أي: كفلت. وتقبل فلان بالشيء: إذا تكفّل به، قال الزجّاج: وجائز أن يكون المعنى: تأتي بهم حتى نراهم مقابلة أي: معاينة. وأنشد غيره:

نُصالِحُكُمْ حَتَّى نَبُوءَا بِمِثْلِها كَصَرْخَةِ حُبْلى أَسْلَمَتْها قَبيلُها[١]

أي: قابلتُها التي هي مُقابِلتُها، والعرب تجريه في هذا المعنى مجرى المصدر، فلا يثنّى ولا يجمع، ولا يؤنّث. وأصل الزخرف: من الزخرفة، وهي الزينة. وزخرفت الشيء: إذا أكملت زينته، ولا شيء في تحسين بيت، وتزيينه، وزخرفته، كالذهب، ويقال في الصعود: رقيت أرقى رُقِياً. وفيما تداويه بالرقية: رقيت أرقى رَقية، ورقياً.

﴿النُّزُلِ﴾: قال ابن عباس: إنّ جماعة من قريش، وهم عتبة وشيبة، ـ إبنا ربيعة ـ، وأبو سفيان بن حرب، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أُميّة، وأُميّة بن خلف، والعاص بن وائل، ونبيه ومنبه، ـ ابنا الحجّاج ـ، والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام، إجتمعوا عند الكعبة، وقال بعضهم لبعض: إبعثوا إلى محمّد، فكلّموه وخاصموه، فبعثوا إليه: إنّ أشراف قومك قد إجتمعوا لك، فبادر ﷺ إليهم؛ ظنّاً منه أنّهم بدالهم في أمره، وكان حريصاً على رشدهم، فجلس إليهم، فقالوا: يا محمّد! إنّا دعوناك لنعذر إليك، فلا نعلم أحداً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة، وعبت الدين، وسفهت الأحلام، وفرّقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالاً، أعطيناك، وإن كنت تطلب الشرف، سوّدناك علينا، وإن كانت علّة غلبت عليك، طلبنا لك الأطبّاء!

فقال: ﷺ: ليس شيء من ذلك، بل بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل كتاباً،

---

[١] ويروى «بشرتها ـ يسرتها قبيلها ـ قبولها» والقبيل والقبول: كلاهما بمعنى القابلة، سميت بذلك لقبولها الولد. وقوله «أسلمتها قبيلها» أي: يئست منها قاله في (اللسان).

فإن قبلتم ما جئت به، فهو حظّكم في الدنيا و الآخرة، وإن تردّوه أصبر حتى يحكم الله بيننا. قالوا: فإذن ليس أحد أضيق بلداً منّا، فإسأل ربّك أن يسير هذه الجبال، ويجري لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وأن يبعث لنا من مضى، وليكن فيهم قصي [قضى]، فإنّه شيخ صدوق، لنسألهم عمّا تقول أحقّ أم باطل! فقال ﷺ: ما بهذا بعثت. قالوا: فإن لم تفعل ذلك، فإسأل ربّك أن يبعث ملكاً يصدّقك، ويجعل لنا جنّات، وكنوزاً، وقصوراً من ذهب. فقال ﷺ: ما بهذا بُعِثت، وقد جئتكم بما بعثني الله به، فإن قبلتم، وإلّا فهو يحكم بيني وبينكم. قالوا فأسقط علينا السماء، كما زعمت أنّ ربّك إن شاء، فعل ذلك. قال: ذاك إلى الله، إن شاء فعل. وقال قائل منهم: لا نؤمن حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً. فقام النبيّ ﷺ، وقام معه عبد الله بن أبي أميّة المخزومي، ـ ابن عمّته عاتكة بنت عبد المطّلب ـ فقال: يا محمّد! عرض عليك قومك ما عرضوا، فلم تقبله. ثمّ سألوك لأنفسهم أُموراً، فلم تفعل. ثمّ سألوك أن تجعل ما تخوّفهم به، فلم تفعل. فوالله لا أؤمن بك أبداً، حتى تتّخذ سلّماً إلى السماء، ثم، ترقى فيه، وأنا أنظر، ويأتي معك نفر من الملائكة، يشهدون لك، وكتاب يشهد لك. وقال أبو جهل: إنّه أبى إلّا سبّ الآلهة، وشتم الآباء، وأنا أُعاهد الله لأحملنّ حجراً فإذا سجد، ضربت به رأسه. فإنصرف رسول الله ﷺ حزيناً، لما رأى من قومه، فأنزل الله سبحانه الآيات.

المعنى: لمّا بيّن سبحانه فيما تقدّم إعجاز القرآن، عقّب ذلك البيان بأنّهم أبوا إلّا الكفر والطغيان، وإقترحوا من الآيات ما ليس لهم ذلك، فقال: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ﴾ أي: لن نصدّقك فيما تدّعي من النبوّة ﴿حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي: تشقّق لنا من أرض مكّة، فإنّها قليلة الماء ﴿يَنْبُوعاً﴾ أي: عيناً ينبع منه الماء في وسط مكّة.

﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ﴾ وهي ما تجنّه الأشجار أي: تستره ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنهَارَ﴾ من الماء ﴿خِلَالَهَا﴾ أي: وسطها ﴿تَفْجِيراً﴾ أي: تشقيقاً حتى يجري الماء تحت الأشجار ﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً﴾ أي: قطعاً

قد تركب بعضها على بعض، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ـ. وقوله: ﴿كَمَا زَعَمْتَ﴾ معناه: كما خوّفتنا به من إنشقاق السماء وإنفطارها. وقيل: معناه: كما زعمت أنّك نبيّ تأتي بالمعجزات.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً﴾ أي: كفيلاً، ومعناه: تأتي بكل واحد حتى يكون كفيلاً ضامناً لنا بما تقول، ـ عن ابن عباس، والضحّاك ـ. وقيل: هو جمع القبيلة أي: تأتي بأصناف الملائكة قبيلة قبيلة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: معناه: مقابلين لنا كالشيء يقابل الشيء، حتى نشاهدهم قبيلاً أي: مقابلة، نعاينهم، ويشهدون بأنّك حقّ، ودعوتك صدق، ـ عن الجبائي، وقتادة ـ. وهذا يدلّ على أنّ القوم كانوا مشبهة مع شركهم[1].

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ﴾ أي: من ذهب، ـ عن ابن عباس ومجاهد، وقتادة ـ. وقيل: الزخرف: النقوش، ـ عن الحسن ـ ﴿أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ﴾ أي: تصعد ﴿وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَقْرَؤُه﴾ أي: ولو فعلت ذلك لم نصدّقك حتى تنزل على كل واحد منّا كتاباً من الله، شاهداً بصحّة نبوّتك، نقرؤه، وهو مثل قوله: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِءٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفاً مُنَشَّرَةً﴾.

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي﴾ أي: تنزيهاً له من كل قبيح، وبراءة له من كل سوء. وفي ذلك من الجواب أنّكم تتخيّرون الآيات، وهي إلى الله سبحانه، فهو العالم بالتدبير، الفاعل لما توجبه المصلحة، فلا وجه لطلبكم إيّاها منّي. وقيل: معناه: تعظيماً له عن أن يحكم عليه عبيده؛ لأنّ له الطاعة عليهم. وقيل: إنّهم لما قالوا «تأتي بالله»، و«ترقى في السماء» إلى الله؛ لإعتقادهم أنّ الله تعالى جسم، قال: ﴿قُلْ سُبْحَانَ

---

(١) بل يدلّ على أنّهم كانوا ضعفاء العقول جاهلين، كملاحدة زماننا، وكانوا يرون أنّ كل موجود يجب أن يكون محسوساً متحيّزاً، وأنّه لايجوز الإيمان بشيء لايحسّ، وأنّ مبدء العالم لو كان قادراً مختاراً لغير الأشياء الطبيعية بدعاء المؤمنين، ولم يجعل المؤمن فقيراً، والكافر غنيّاً ومنبى [مبنى] هذه السؤالات ذلك [ذاك] التوهّم الفاسد، كما يتفوّهون بنظائر هذه الجهالات في كل عصر وزمان.

﴿رَبِّي﴾ عن كونه بصفة الأجسام، حتى تجوز عليه المقابلة والنزول. وقيل: معناه: تنزيهاً له عن أن يفعل المعجزات تابعاً للإقتراحات.

﴿هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَراً رَسُولاً﴾ معناه: إنّ هذه الأشياء ليس في طاقة البشر أن يأتي بها، وأن يفعلها، فلا أقدر بنفسي أن آتي بها، كما لم يقدر من كان قبلي من الرسل، والله تعالى إنّما يظهر الآيات المعجزة على حسب المصلحة، وقد فعل، فلا تطالبوني بما لا يطالب به البشر.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: وما صرف المشركين عن الإيمان أي: التصديق بالله وبرسوله ﴿إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ أي: حين أتاهم الحجج والبيّنات.

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ أي: إلّا قولهم: ﴿أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾ دخلت عليهم الشبهة: في أنّه لا يجوز أن يبعث الله رسولاً إلّا من الملائكة، كما دخلت عليهم الشبهة: في أنّ عبادتهم لا تصلح لله، فوجّهوها إلى الأصنام، فعظموا الله بجهلهم بما ليس فيه تعظيم. وإنّما ذكر سبحانه هنا لفظ المنع مبالغة في وصف الصرف، وإلّا فالمنع يستحيل معه الفعل، فلا يجوز أن يكون مراداً هنا، ولكن شبه الصرف بالمنع.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ أي: ساكنين قاطنين ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَسُولاً﴾ منهم، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: مطمئنّين إلى الدنيا ولذّاتها، غير خائفين، ولا متعبّدين بشرع؛ لأنّ المطمئنّ مَن زال الخوف عنه، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: لو كان أهل الأرض ملائكة، لبعثنا إليهم ملكاً ليكونوا إلى الفهم إليه أسرع، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: إنّ العرب قالوا: كنّا ساكنين مطمئنّين، فجاء محمّد، فأزعجنا، وشوّش علينا أمرنا، فبيّن سبحانه أنّهم لو كانوا ملائكة مطمئنّين، لأوجبت الحكمة إرسال الرسل إليهم؛ فكذلك كون الناس مطمئنّين لا يمنع من إرسال الرسول إليهم؛ إذ هم أحوج إليه [إليهم] من الملائكة، فكيف أنكروا إرسال الرسول إليهم مع كونهم مطمئنّين.

سؤال: قالوا إذا جاز أن يكون الرسول إلى النبيّ ملكاً، ليس من جنسه، فَالأجْاز أن يكون الرسول إلى الناس أيضاً ملكاً، ليس من جنسهم؟ وجوابه: إنّ

صاحب المعجزة قد أُختِيرَ للنبوّة، فصارت حاله مقاربة لحال الملك، وليس كذلك غيره من الأمّة؛ لأنّه يجوز أن يرى الملائكة، كما يرى بعضهم بعضاً، بخلاف الأُمّة، وأيضاً فإنّ النبيّ يحتاج إلى معجزة تعرف بها رسالة نفسه، كما إحتاجت إليه الأمّة، فجعل الله المعجزة رؤيته الملك.

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ ۞ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ (١)

(اللغة): الخبو: سكون النار عن الإلتهاب. يقال: خبت النار تخبو. قال

(١) أثبت الياء في «المهتدى» وصلاً نافع وأبو عمرو. وفي الحالين يعقوب. وأدغم «خبت زدناهم» أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام. ومرّ حكم «أءنّا» «أءذا» في سورة الرعد. وفتح الياء من «ربّي إذا» نافع وأبو عمرو.

عدي بن زيد:

وَسْطَهُ كَالْيَرَاعِ، أَوْسُرُجِ المِجْدَلِ حِيناً يَخْبُو، وَحيناً يُنِيرَ[1]

وقال آخر:

وَكُنّا كَالْحَرِيقِ أَصَابَ غاباً فَيَخْبُو سَاعَةً، وَيُنِيرُ سَاعاً

والقتر: التضييق. والقتور: فعول منه للمبالغة. ويقال: قتر يقتر وتَقَتَّرَ، وأَقْتر، وقَتَّرَ: إذا قدّر في النفقة.

[الإعراب]: ﴿كَفَىٰ بِاللهِ﴾ المفعول محذوف، وهو الكاف. والباء زيادة. و﴿شَهِيداً﴾: تميز، والتقدير: كفاك الله من جملة الشهداء. ﴿مَنْ يَهْدِي﴾ الله ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ﴾. كلاهما شرط، ووحّد الضمير المتّصل بيهدي ويضلل على اللفظ. ثمّ قال: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَنَحْشُرُهُمْ... الخ﴾ فجمع الضمير في كل ذلك على المعنى. وقوله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ الجملة في موضع الحال من ﴿جَهَنَّمُ﴾؛ لأنّ جهنّم توضع موضع متلظّ ومتسعّر، ولولا ذلك لم يجز مجيء الحال عنها. ويجوز أن تكون الجملة لا محلّ لها من الإعراب، ويكون في تقدير العاطفة، والتقدير: وكلّما خبت، فحذف الواو. ﴿عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾: في موضع نصب؛ على الحال، وتقديره: مجرورين على وجوههم. وقوله: ﴿لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾: أنتم: مرفوع بفعل مضمر، يفسّره هذا الظاهر الذي هو قوله: ﴿تَمْلِكُونَ﴾؛ لأنّ ﴿لَوْ﴾ يقع بها الشيء لوقوع غيره، فلا يليها إلّا الفعل، وإذا وليها إسم، عمل فيه فعل مضمر. قال:

---

(١) المِجدل: القصر يصف البرق. واليراع: جمع يراعة، ذبابة تطير بالليل، كأنّه نادر[ناد] والبيت من قصيدة يخاطب فيها النعمان بن المنذر، ويعظه، ويقول فيها: أين كسرى كسرى الملوك أنوشروان، أم أين قبله سابور، وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم، لم يبق منهم مذكور.

لَوْ غَيْرُكُمْ عَلِقَ الزُّبَيْرُ بِحَبْلِهِ أَدَّى الجِوارَ إلىٰ بَني العَوَّامِ[1]

المعنى: ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين ﴿كَفَى بِاللهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ انّي رسول الله إليكم. وقد مرّ معناه في سورة الرعد ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً﴾ لا يخفى عليه من أحوالهم شيء. والمراد به تأكيد الوعيد.

﴿وَمَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ أي: من يحكم الله بهداه فهو المهتدي بإخلاصه، وطاعته على الحقيقة ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ﴾ أي: ومن يحكم بضلاله ﴿فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي: لن تجد لهم أنصاراً يقدرون على إزالة إسم الضلال عنهم. وقد ذكرنا وجوه الهدى والضلال في سورة البقرة.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ﴾ أي: نجمعهم. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ﴾ أي: يسحبون على وجوههم إلى النار كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في إهانته وتعذيبه. وروى أنس بن مالك أنّ رجلاً قال: يا نبيّ الله! كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: إنّ الذي أمشاه على رجليه في الدنيا، قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة. أورده البخاري، ومسلم في الصحيح.

﴿عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ قيل: المعنى عمياً عمّا يسرّهم، بُكماً عن التكلّم بما ينفعهم، صُمّاً عمّا يمتّعهم، عن ابن عباس ـ أي: كأنّهم عدموا هذه الجوارح. وقيل: يحشرون على هذه الصفة عُمياً، كما عموا عن الحقّ في دار الدنيا بكماً؛ جزاء على سكوتهم عن كلمة الإخلاص، وصمّاً لتركهم سماع الحقّ، وإصغائهم إلى الباطل. قال مقاتل: هذا حين يقال لهم: إخسئوا فيها، ولا تكلّموني. وقيل: يحشرون كذلك، ثمّ يجعلون يبصرون، ويسمعون، وينطقون، ـ عن الحسن ـ.

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

﴿مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ أي: مستقرّهم جهنّم، كلّما سكن إلتهابها، زدناهم إشتعالاً، فيكون كذلك دائماً. ومتى قيل: كيف يبقى الحيّ حيّاً في تلك الحالة من الإحتراق دائماً؟ قلنا: إنّ الله تعالى قادر على أن يمنع وصول النار إلى مقاتلهم.

﴿ذَلِكَ﴾ أي: ذلك الذي تقدّم ذكره من العقاب ﴿جَزَاؤُهُمْ﴾ إستحقّوه ﴿بأنّهم كذَبوا﴾ [كذا في النسخ. والصواب: كفروا] ﴿بآياتنا﴾ أي: بتكذيبهم بآيات الله. ﴿وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتا﴾ مثل التراب مترضّضين ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً﴾ مرَّ معناه في هذه السورة.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا﴾ أي: أو لم يعلموا ﴿أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ لأنّ القادر على الشيء، قادر على أمثاله إذا كان له مثل، أو أمثال في الجنس، وإذا كان قادراً على خلق أمثالهم، كان قادراً على إعادتهم؛ إذ الإعادة أهون من الإنشاء في الشاهد. وقيل: أراد قادر على أن يخلقهم ثانياً، وأراد بمثلهم إيّاهم، وذلك أنّ مثل الشيء مساو له في حالته، فجاز أن يعبّر به عن الشيء نفسه. يقال: مثلك لا يفعل كذا، بمعنى: أنت لا تفعله، ونحوه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ وتمَّ الكلام هنا.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجلاً لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: وجعل لإعادتهم وقتاً لا شكّ فيه أنّه كائن لا محالة. وقيل: معناه: وضرب لهم مدّة؛ ليتفكّروا، ويعلموا فيها أنّ من قدر على الإبتداء، قدر على الإعادة. وقيل: وجعل لهم أجلاً يعيشون إليه، ويخترمون عنده لا شكّ فيه.

﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ﴾ لنفوسهم، الباخسون حقّها بفعل المعاصي. ﴿إِلاَّ كُفُوراً﴾ أي: جحوداً بآيات الله ونعمه. وفي الآية دلالة على أنّ القادر على الشيء يجب أن

يكون قادراً على جنس مثله، إذا كان له مثل، وعلى أنّه يجب أن يكون قادراً على ضدّه؛ لأنّ منزلته في المقدور منزلة مثله. وفيه دلالة أيضاً على أنّه يقدر على إعادته إذا كان ممّا يفنى، وتصحّ عليه الإعادة.

ثمّ قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الكفّار: ﴿لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أي: لو ملّكتم خزائن أرزاق الله. وقيل: لو ملّكتم مقدورات ربّي أي: ما يقدر عليه ربّي من النعم؛ إذ لا يكون له سبحانه موضع يخزن فيه الرحمة، ثمّ يخرج منه، كما يكون للعباد. ورحمته: نعمته.

﴿إِذاً لَأَمْسَكْتُمْ﴾ شحّاً، وبخلاً ﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أي: خشية الفقر والفاقة، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وقيل: خشية أن تنفقوا فتفتقروا، ـ عن السدّي ـ، والمعنى: لأمسكتم عن الإنفاق خشية الفقر للإنفاق.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُوراً﴾ أي: بخيلاً، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وهذا جواب لقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرْ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾ ويقال: نفقت نفقات القوم: إذا نفدت. وأنفقها صاحبها أي: أنفدها حتى إفتقر. وظاهر قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانَ قَتُوراً﴾ العموم.

وقد علمنا أنّ في الناس الجواد. والوجه فيه أحد أمرين: وهو أن يكون الأغلب عليهم من ليس بجواد، فجاز الإطلاق تغليباً للأكثر، وأيضاً فإنّ ما يعطيه الإنسان، وإن عدّ جواداً، بخل في جنب ما يعطيه الله سبحانه؛ لأنّ الإنسان إنّما يعطي ما يفضل عن حاجته، ويمسك ما يحتاج إليه، والله سبحانه لا تجوز عليه الحاجة، فيفيض من النعم على المطيع والعاصي، إفاضة من لا يخاف الحاجة.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ
فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ
مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ (١) إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ
يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ
فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ
ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾
وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

القراءة: قرأ الكسائي وحده: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ ـ بضمّ التاء ـ. والباقون: بفتحها.

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة من فتح: أنّ فرعون، ومن كان يتبعه، قد علموا صحّة أمر موسى؛ بدلالة قوله: ﴿لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾، وقوله: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ ومن قال: لقد علمت إذا قيل له: كيف يصحّ الإحتجاج عليهم بعلمه، وعلمه لا يكون حجّة على فرعون، وإنّما يكون علم فرعون بما علم من صحّة أمر موسى حجّة عليه؟ فالقول: إنّه لمّا قيل له: إنّ رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون، كان ذلك قدحاً في علمه؛ لأنّ المجنون لا يعلم، فكأنّه نفى ذلك، فقال: لقد علمتُ صحّة ما أتيتُ به، وأنّه ليس بسحر، علماً صحيحاً، كعلم العقلاء، فصيّر العقلَ حجّة عليه من هذا الوجه، وزعموا أنّ هذه

(١) هؤلاء إلّا: من إجتماع الهمزتين في كلمتين. ومرّ مثلها مراراً.

القراءة رويت عن أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام.

اللغة: الثبور: الهلاك. ثبره الله يثبره. ويثبره ويثبرء لغتان. ورجل مثبور: محبوس عن الخيرات. قال:

إِذْ أُجارِي الشَّيطانَ في سَنَنِ الغَيِّ وَمَنْ قالَ مِثْلَهُ مَثْبُورُ[1]

وتقول العرب: ما ثبرك عن هذا الأمر أي: ما صرفك عنه، وما منعك منه. ولفيف: مصدر قولك: لففت الشيء أي: جمعته. يقال: لففته لفّاً، ولفيفاً. ومن ذلك قولهم: لففت [لفّت] الجيوش: ضربت بعضها ببعض، فإختلط الجميع. قال الزجّاج: اللفيف الجماعات من قبائل شتّى.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه قصّة موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أي: ولقد أعطينا موسى تسع دلالات، وحجج واضحات.

وأختلف في هذه الآيات التسع، فقيل: هي يد موسى، وعصاه، ولسانه، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، ـ عن ابن عباس، والضحّاك ـ. وقيل: الطوفان، والجراد، والقمّل، والضفادع، والدم، والبحر، والعصا، والطمسة، والحجر، ـ عن محمّد بن كعب ـ. وعن أبي عليّ الجبائي أيضاً، إلّا أنّه ذكر بدل الطمسة اليد. وعن قتادة، ومجاهد، وعكرمة، وعطا، كذلك، إلّا أنّهم ذكروا بدل البحر والطمسة والحجر، اليد والسنين ونقص من الثمرات. والطمسة: هي دعاء موسى، وتأمين هارون. وقال الحسن مثل ذلك، إلّا أنّه جعل الأخذ بالسنين، ونقص من الثمرات آية واحدة، وجعل التاسعة: تلقف العصا ما يأفكون.

وقيل: إنّها تسع آيات في الأحكام. روى عبد الله بن سلمة، عن صفوان بن عسال أنّ يهودياً قال لصاحبه: تعال حتى نسأل هذا النبيّ. قال: فأتى الرسول صلى الله عليه وآله

---

(١) من أبيات ابن الزبعري بعد أن تاب وأسلم. ويقول فيها: يارسول المليك إنّ لساني راتق ما فتقت إذا نابور.

فسأله عن هذه الآية: فقال: هو أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرفوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلّا بالحقّ، ولا تمشوا بالبريء إلى سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولاتقذفوا المحصنة، ولاتولّوا الفرار يوم الزحف، وعليكم خاصّة يايهود أن لاتعتدّوا في السبت. فقبّل يده، وقال: أشهد أنّك نبيّ.

﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ هذا أمر للنبيّ ﷺ أن يسأل بني إسرائيل؛ لتكون الحجّة عليهم أبلغ. وقيل: إنّ المعنى: فإسأل أيّها السامع؛ لأنّ العلم قد وقع بخبر الله تعالى، فلاحاجة الى الرجوع إلى أهل الكتاب. وقيل: إنّ معنى السؤال أن تنظر ما في القرآن من أخبار بني إسرائيل، ـ عن الحسن ـ.

وروي عن ابن عباس أنّه قرأ: ﴿فَسَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، بمعنى: فَسَأَلَ موسى فرعون بني إسرائيل أن يرسلهم.

﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً﴾ أي: معطى على السحر، فهذه العجائب التي فعلتها من سحرك. وقيل: معناه: إنّي لأظنّك ساحراً، فوضع المفعول موضع الفاعل، كما يقال: مشؤوم وميمون، في معنى شائِم ويَامِن. وقيل: معناه: إنّك سحرت، فأنت تحمل نفسك على ما تقوله للسحر الذي بك. وقيل: مسحوراً أي: مخدوعاً، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ﴾ أنت يافرعون ﴿مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ﴾ أي: هذه الآيات ﴿إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي خلقهنّ ﴿بَصَائِرَ﴾ أي: أنزلها حججاً وبراهين للناس، يبصرون بها أُمور دينهم. وقيل: أدلّة على نبوّتي؛ لأنّك تعلم أنّها ليست من السحر. وروي أنّ عليّاً عليه السلام قال في ﴿عَلِمْتَ﴾: والله ما علم عدوّ الله، ولكن موسى هو الذي علم، فقال: لقد علمت.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً﴾: معناه: وإنّي لأعلمك يافرعون هالكاً لكفرك وإنكارك، ـ عن قتادة، والحسن ـ. وقيل: أعلمك ملعوناً، ـ عن ابن عباس ـ.

وقيل: مخبولاً لا عقل لك، ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: بعيداً عن الخير، مصروفاً عنه، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: المراد به: الظنّ على الظاهر؛ لأنّ الهلاك يكون بشرط الإصرار، ولا يعلم حقيقة ذلك إلاّ الله.

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ معناه: فأراد فرعون أن يزعج موسى ومن معه من أرض مصر، وفلسطين، والأردن بالنفي عنها. وقيل: بأنْ يقتلهم ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ من جنوده ﴿جَمِيعاً﴾ لم ينج منهم أحد، ولم يهلك من بني إسرائيل أحد.

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي: من بعد هلاك فرعون وقومه ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ أي: أرض مصر والشام.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يعني: يوم القيامة، عن أكثر المفسّرين أى: وعد الكرة الآخرة. وقيل: أراد نزول عيسى، ـ عن الكلبي ـ، وقتادة ـ. ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفاً﴾ معناه: جئنا بكم من القبور إلى الموقف، للحساب والجزاء، مختلطين إلتفّ بعضكم ببعض، لا تتعارفون، ولا ينحاز أحد منكم إلى قبيلته، وقيل: لفيفاً أي: جميعاً أولكم و آخركم، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾ معناه: وبالحقّ أنزلنا القرآن عليك ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ القرآن. وتأويله: أردنا بإنزال القرآن الحقّ والصواب، وهو أن يؤمن به، ويعمل بما فيه. ونزل بالحقّ؛ لأنّه يتضمّن الحقّ، ويدعو إلى الحقّ. وقال البلخي: يجوز أن يكون المراد: أنزلنا موسى، فيكون كقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾. ويجوز أن يكون المراد: وأنزلنا الآيات أي: وأنزلنا ذلك، كما قال أبو عبيدة: أنشدني رؤبة:

فيهِ[فيها] خُطُوطٌ مِنْ سَوادٍ، وَبَلَق كَأَنَّهُ فـي الْـعَيْنِ تَـولِيعُ البَـهَقِ[1]

---

(١) يصف أفراساً، وإليها يعود الضمير في «فيها». والبلق: مر كب من سواد وبياض. وجواب الشاعر أنّ الضمير مذكّر، باعتبار كلمة ذلك، المشار بها الى ماسبق.

فقلت له: إن أردت الخطوط، فقل: كأنّها، وإن أردت السواد والبياض، فقل: كأنّهما. قال: فقال لي: كأنّ ذا[ذلك] ويلك توليع البهق

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ مبشّراً بالجنّة لمن أطاع، ومنذراً بالنار لمن عصى.

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾
قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ۚ إِذَا يُتْلَىٰ
عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ
وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ
خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ
ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ
بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن
لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

القراءة: القراءة المشهورة في ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ ـ بالتخفيف ـ. وروي عن عليّ عليه السلام، وابن مسعود، وابن عباس، وأبيّ بن كعب، والشعبي، والحسن بخلاف، وقتادة، وعمرو بن فائد: ﴿فَرَّقْنَاهُ﴾ ـ بالتشديد ـ.

الحجة: معنى «فرّقناه»: فصّلناه ونزّلناه آية آية، وسورة سورة. ويدلّ عليه: قوله: ﴿عَلَى مَكْثٍ﴾ والمكث، والمكث، لغتان.

---

(١) كسر اللام والواو من «قل أدعوا أوِ أدعوا» عاصم وحمزة. وضمّهما الباقون من السبعة.

الإعراب: ﴿وَقُرآناً﴾: منصوب بفعل مضمر، يفسّره هذا الظاهر أي: وفرقنا قرآناً فرقناه. وجاء بالنصب، ولم يأت فيه الرفع؛ لأنّ صدره فعل وفاعل، وهو قوله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾. ﴿عَلَى مَكْثٍ﴾ في موضع نصب؛ على الحال أي: متمهِّلاً متوقِّفاً غير مستعجل. ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾: في موضع رفع؛ بكونه خبر «إنّ». و ﴿سُجَّداً﴾: نصب؛ على الحال. (إن كان وعد ربّنا) إنْ هذه، مخفّفة من الثقيلة، وهي واللام دخلتا للتأكيد.

﴿أَيًّا مّا تَدْعُوا﴾: تدعوا: مجزوم بالشرط الذي يتضمّنه أيّاً، وعلامة الجزم فيه سقوط النون. و ﴿مَا﴾: مزيدة مؤكّدة للشرط. و ﴿أَيًّا﴾: منصوب بـ«تدعوا».

المعنى: ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم، فقال: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ﴾ أي: وأنزلنا عليك يا محمّد قرآناً فصّلناه سوراً وآيات، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: فرقنا به الحقّ عن الباطل، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: جعلنا بعضه خبراً، وبعضه أمراً، وبعضه نهياً، وبعضه وعداً، وبعضه وعيداً، وأنزلناه متفرّقاً لم ننزله جميعاً، إذ كان بين أوّله وآخره نيف وعشرون سنة.

﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي: على تثبّت وتؤدة، فترتله ليكون أمكن في قلوبهم، ويكونوا أقدر على التأمّل والتفكّر فيه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. وقيل: معناه: لتقرأه عليهم مفرقاً شيئاً بعد شيء.

﴿وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾ على حسب الحاجة، ووقوع الحوادث. وروي عن ابن عباس أنّه قال: لئن أقرأ سورة البقرة وأرتلها، أحبّ إليّ من أنْ أقرأ القرآن هذّاً.[١] وعن عبدالله بن مسعود أنّه قال: لا تقرأوا القرآن في أقلّ من ثلاث، وإقرأوا

---

[١] الهذّ: سرعة القراءة.

في سبع.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين: ﴿آمِنُوا بِهِ﴾ أي: بالقرآن ﴿أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾ فإنّ إيمانكم ينفعكم، ولا ينفع غيركم، وترككم الإيمان يضرّكم، ولا يضرّ غيركم، وهذا تهديد لهم، وهو جواب لقولهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾ أي: أعطوا علم التوراة من قبل نزول القرآن كعبد الله بن سلام وغيره، فعلموا صفة النبيّ ﷺ قبل مبعثه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: إنّهم أهل العلم من أهل الكتاب وغيرهم. وقيل: إنّهم أمّة محمّد ﷺ، ـ عن الحسن ـ.

﴿إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ القرآن ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانَ سُجَّداً﴾ أي: يسقطون على الوجوه ساجدين، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وإنّما خصّ الذقن؛ لأنّ من سجد، كان أقرب شيء منه إلى الأرض ذقنه، والذقن: مجمع اللحْيَين.

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾ أي: تنزيهاً لربّنا عزّ إسمه عمّا يضيف إليه المشركون ﴿إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً﴾ إنّه كان وعد ربّنا مفعولاً حقّاً يقيناً، ولم يكن وعد ربّنا إلّا كائناً ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ أي: ويسجدون باكين إشفاقاً من التقصير في العبادة، وشوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب ﴿وَيَزِيدَهُمْ﴾ ما في القرآن من المواعظ ﴿خُشُوعاً﴾ أي: تواضعاً لله تعالى، وإستسلاماً لأمر الله، وطاعته.

ثمّ قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء المشركين المنكرين نبوّتك ﴿ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ وذكر في سببه أقوال:

أحدها: إنّ النبيّ ﷺ كان ساجداً ذات ليلة بمكّة، يدعو: يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أنّ له إلهاً واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى، ـ عن ابن عباس ـ.

وثانيها: إنّ المشركين قالوا: أمّا الرحيم فنعرفه، وأمّا الرحمن فلا نعرفه، ـ عن ميمون بن مهران ـ.

وثالثها: إنّ اليهود قالوا: إنّ ذكر الرحمن في القرآن قليل، وهو في التوراة كثير، ـ عن الضحّاك ـ.

﴿أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ معناه: أيّ أسمائه تدعو. و ﴿مَا﴾: هيهنا: صلة، كقوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٌ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾. وقيل: هي بمعنى: أيّ شيء كررت مع أيّ، لاختلاف اللفظين توكيداً، كما قالوا: ما رأيت كالليلة ليلة، وتقديره: أيّ شيء من أسمائه تدعونه به كان جائزاً، فإنّ معنى ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ الإباحة أي: إن دعوتم بأحدهما كان جائزاً، وإن دعوتم بهما كان جائزاً، فله الأسماء الحسنى، فإنّ أسماءه تنبىء عن صفات حسنة، وأفعال حسنة. فأمّا أسماؤه المنبّئة عن صفات ذاته، فهو: القادر، العالم، الحيّ، السميع، البصير، القديم. وأمّا أسماؤه المنبّئة عن صفات أفعاله الحسنة، فنحو: الخالق، والرازق، والعدل، والمحسن، والمجمل، والمنعم، والرحمن، والرحيم. وأمّا ما أنبأ عن المعاني الحسنة، فنحو: الصمد، فإنّه يرجع إلى أفعال عباده، و هو أنّهم يصمدونه في الحوائج. ونحو: المعبود والمشكور.

بيّن سبحانه في هذه الآية أنّه شيء واحد، وإن إختلفت أسماؤه وصفاته. وفي الآية دلالة على أنّ الإسم عين المسمّى، وعلى أنّ تقديم أسمائه الحسنى قبل الدعاء والمسألة مندوب إليه مستحبّ. وفيها أيضاً دلالة على أنّه سبحانه لا يفعل القبائح مثل: الظلم وغيره؛ لأنّ أسماءه حينئذ لا تكون حسنة، فإنّ الأسماء قد تكون مشتقّة من الأفعال، فلو فعل الظلم لإشتقّ منه إسم الظالم، كما إشتق من العدل العادل.

وقوله: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا﴾ أختلف في معناه على أقوال:

أحدها: إنّ معناه: لا تجهر بإشاعة صلاتك عند من يؤذيك، ولا تخافت بها عند من يلتمسها منك، ـ عن الحسن ـ. وروي أنّ النبيّ ﷺ كان إذا صلّى، فجهر في صلاته، تسمع له المشركون، فشتموه وآذوه، فأمره سبحانه بترك الجهر، وكان ذلك بمكّة في أوّل الأمر، وبه قال سعيد بن جبير. وروي ذلك عن أبي جعفر، وأبي عبدالله عليه السلام.

وثانيها: إنّ معناه: لا تجهر بدعائك، ولا تخافت بها، ولكن بين ذلك، فالمراد بالصلاة الدعاء، ـ عن مجاهد، وعطا، ومكحول، ونحوه روي عن ابن عبّاس ـ.

وثالثها: إنّ معناه: لا تجهر بصلاتك كلها، ولا تخافت بها كلها.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ بأن تجهر بصلاة الليل، وتخافت بصلاة النهار، ـ عن أبي مسلم ـ.

ورابعها: لا تجهر جهراً يشغل به من يصلّي بقربك، ولا تخافت بها حتى لا تسمع نفسك، ـ عن الجبائي ـ. وقريب منه ما رواه أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام، أنّه قال: الجهر بها:

رفع الصوت شديداً، والمخافتة: ما لم تسمع أذنيك، وإقرأ قراءة وسطاً[1] بين ذلك. (وإبتغ بين ذلك سبيلاً) أي: بين الجهر والمخافتة، ولم يقل: بين ذينك؛ لأنّه أراد به الفعل، فهو مثل قوله: ﴿عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ﴾.

﴿وَقُلْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ فيكون مربوباً لا ربّاً؛ لأنّ ربّ

---

(١) وهذا يدلّ على أنّ بين الجهر والإخفات واسطة. والمعروف بين فقهاءنا المتأخّرين: تعريفهما بحيث لايتعقّل بينهما واسطة. والظاهر أنّهما بالإضافة، فكلّ صوت جهرٌ بالنسبة الى ماهو أخفض، وإخفاتٌ بالنسبة الى ماهو أرفع. وأخفض مراتب الإخفات: أن لايسمع نفسه. وأعلى مرتب الجهر: ماقدر عليه الإنسان، وبينهما متوسّطات. والحكم ببطلان الظُهر بالجهر: أن أخرج جوهر الصوت قليلاً، بحيث لايسمع إلاّ من هو قريب منه جدّاً، بعيد جدّاً. بل الجهر: أن يرفع صوته حتى يسمعه أهل الدار، وأهل المسجد، وأمثال ذلك.

الأرباب لا يجوز أن يكون له ولد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ فيكون عاجزاً محتاجاً إلى غيره ليعينه، ولا يجوز أن يكون الإله بهذه الصفة.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ أي: لم يكن له حليف حالفه لينصره على من يناوئه؛ لأنّ ذلك من صفة الضعيف العاجز، ولا يجوز أن يكون الإله بهذه الصفة. قال مجاهد: لم يذلّ فيحتاج إلى من يتعزّز به، يعني: أنّه القادر بنفسه، وكل ما عبد من دونه، فهو ذليل مقهور. وقيل: معناه: ليس له وليّ من أهل الذلّ؛ لأنّ الكافر والفاسق لا يكون وليّاً لله.

﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾ أي: عظّمه تعظيماً لا يساويه تعظيم، ولا يقاربه. وروي أنّ النبيّ ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية وما قبلها، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير ـ. وقيل: إنّ في هذه الآية ردّاً على اليهود والنصارى، حين قالوا: إتّخذ الله الولد، وعلى مشركي العرب حيث قالوا: لبّيك لا شريك لك إلّا شريكاً هو لك، وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لولا أولياء الله لذلّ الله، عن محمّد بن كعب القرظي.

سؤال: قالوا: كيف يحمد سبحانه أن لم يتّخذ ولداً، ولم يكن له شريك، والحمد إنّما يستحقّ على فعل له صفة التفضّل؟

والجواب: إنّه ليس له الحمد في الآية على أنّه لم يفعل، وإنّما الحمد له سبحانه على أفعاله المحمودة، وتوجّه الحمد إلى مَن هذه صفتُه، كما يقال: أنا أشكر فلاناً الجميل، ولا تشكره على جماله بل على أفعاله.

سورة الكهف

مكّيّة قال ابن عبّاس، إلاّ آية ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ فإنّها نزلت بالمدينة في قصّة عيينة بن حصن الفزاري.

عَدَدُ آيِهَا: مائة وإحدى عشرة آية بصريّ، وعشر كوفيّ، وست شاميّ، وخمس حجازيّ.

اخْتِلافُهَا: إحدى عشرة آية ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ غير الشاميّ إلّا قليل مدنيّ الأخير ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً﴾ [غير] الأخير ذرعاً ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ عراقيّ شاميّ، والأخير، ﴿هَذِهِ أَبَداً﴾ غير شاميّ والأخير، ﴿عِنْدِهَا قَوْماً﴾ غير الكوفيّ، والأخير ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ الثلاث عراقيّ ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً﴾ عراقيّ شاميّ.

فَضْلُهَا: أبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: من قرأها فهو معصوم ثمانية أيّام من كل فتنة، فإن خرج الدجّال في تلك الثمانية الأيّام، عصمه الله من فتنة الدجّال. ومن قرأ الآية التي في آخرها: ﴿قل إنما أنا بشر مثلكم...﴾ الآية، حين يأخذ مضجعه، كان له في مضجعه نور يتلألأ إلى الكعبة. حشو ذلك النور ملائكة يصلّون عليه، حتى يقوم من مضجعه. فإن كان في مكّة فتلاها، كان له نوراً يتلألأ

إلى البيت المعمور، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ.

سمرة بن جندب، عن النبيّ ﷺ قال: من قرأ عشر آيات من سورة الكهف حفظاً، لم تضرّه فتنة الدجّال، ومن قرأ السورة كلّها، دخل الجنّة. وعن النبيّ ﷺ قال: ألا أدلّكم على سورة شيّعها سبعون ألف ملك حين نزلت، ملأت عظمتها ما بين السماء والأرض؟ قالوا: بلى. قال: سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة، غفر الله له إلى الجمعة الأخرى، وزيادة ثلاثة أيّام، وأعطي نوراً يبلغ السماء، ووقي فتنة الدجّال.

وروى الواقدي بإسناده عن أبي الدرداء، عن النبيّ ﷺ قال: من حفظ عشر آيات من أوّل سورة الكهف، ثمّ أدرك الدجّال، لم يضرّه. ومن حفظ خواتيم سورة الكهف، كانت له نوراً يوم القيامة.

وروى أيضاً بالإسناد عن سعيد بن محمّد الجز[الجر]مي، عن أبيه، عن جدّه، عن النبيّ ﷺ قال: من قرأ الكهف يوم الجمعة، فهو معصوم إلى ستّة أيّام، من كل فتنة تكون، فإن خرج الدجّال عصم منه.

وروى العياشي بإسناده عن الحسن بن عليّ بن أبي حمزة، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ سورة الكهف في كل ليلة جمعة، لم يمت إلّا شهيداً، وبعثه الله مع الشهداء، ووقف يوم القيامة مع الشهداء.

تفسيرها: ختم الله سبحانه سورة بني إسرائيل بالتحميد، والتوحيد، وذكر النبيّ ﷺ والقرآن، وإفتتح سورة الكهف أيضاً بالتحميد، والتوحيد، وذكر القرآن والنبيّ ﷺ، ليتّصل أوّل هذه بآخر تلك، إتصال الجنس بالجنس، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿٥﴾ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾

القراءة: قرأ أبو بكر برواية يحيى: ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ ـ بإشمام الدال الضمّ، وكسر الهاء والنون ـ. وقرأ الباقون: بضمّ الدال وسكون النون. وفي الشواذّ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ ـ برفع كلمة ـ. قرأه يحيى بن يعمر، والحسن، وابن المحيصن، وابن أبي إسحاق، والثقفي، والأعرج بخلاف، وعمرو بن عبيد.

الحجة: قال أبو عليّ: في ﴿لَدُنْ﴾ ثلاث لغات: لَدُن: مثل: سبعُ، ويخفّف الدال، ويكون على ضربين:

أحدهما: أن يحذف الضمّة من الدال، فيقال: لَدْن. والآخر: أن يحذف الضمّة

من الدال، وينتقل إلى اللام، فيقال: ﴿لدن﴾ مثل: عضد في عضد. وفي كلا الوجهين يجتمع في الكلمة ساكنان. فمن قرأ: ﴿من لدنه﴾ ـ بكسر النون ـ فإنّ الكسرة فيه ليست كسرة إعراب، وإنّما هي كسرة لإلتقاء الساكنين، وذاك أنّ الدال أسكنت، كما أسكنت الباء في «سبع»، والنون ساكنة، فإلتقى الساكنان، فكسر الثاني منهما. فأما إشمام الدال الضمّة، فليعلم أنّ الأصل كان في الكلمة الضمّة، ومثل ذلك قولهم: أنت تَغْزُين، وقولهم: قُيْل، أشمّت الكسرة فيهما الضمّة، ليدلّ على أنّ الأصل فيهما التحريك بالضمّ، وإن كان الإشمام في «لدنه» ليس في حركة خرجت إلى اللفظة، وإنّما هو بهيئة العضو لإخراج الضمّة. وأمّا الجارّ في قوله: ﴿مِنْ لَدُنْهُ﴾ فيحتمل ضربين:

أحدهما: أن يكون صفة متعلّقاً بـ «شديد». والآخر: أن يكون صفة للنكرة، وفيها ذكر للموصوف.

(اللغة): العوج ـ بالفتح ـ: فيما يرى، كالقناة والخشبة. وبالكسر: فيما لا يرى شخصاً قائماً، كالدين والكلام، والقيِّم: المستقيم. والباخع: القاتل المهلك. يقال: بخع نفسه يبخعها بخعاً و بخوعاً. قال ذو الرمة:

ألا أَيُّهٰذَا الْبَاخِعُ الْوَجْدُ نَفسَهُ ... لِشَيْءٍ نَحَتْهُ عَن يَدَيْهِ المَقادِرُ[1]

يريد نحّته، فخفف. والأسف: المبالغة في الحزن والغضب، يقال: أسف الرجل فهو آسف وأسيف. قال الأعشى:

ترىٰ رَجُلاً مِنْهُمْ أَسِيفاً كَأَنَّهُ ... يَضُمُّ إلىٰ كَشْحَيْهِ كَفّاً مُخَضَّبَا[1]

﴿قَيِّماً﴾: نصب؛ على الحال من «الكتاب»، والعامل فيه: ﴿أَنْزَلَ﴾. وقوله: ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْراً﴾ تقديره: بأنّ لهم أجراً، فحذف الجارّ. و ﴿مَاكِثِينَ﴾: نصب؛ على

---

(١) يعني: أيّها الذي أهلك الغمّ نفسك؛ تأسّفاً على فوات شيء بَعُدَ منك؛ بقضاء الله وقدره.

[١] الكشح: مابين الخاصرة إلى الضِّلع الخلف. الأسيف والآسف: الغضبان. يقول: كأنّ يده قُطِعت فاختَضَبت بدمها.

الحال في معنى خالدين. وقوله: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾: أختلف في نصب ﴿كَلِمَةً﴾ فقال السرّاج: أنتصب على تفسير المضمر على حدّ قولهم: نعم رجلاً زيد، والتقدير على هذا كبرت الكلمة كلمة، ثمّ حذف الأوّل؛ لدلالة الثاني عليه. ومثله: كرم رجلاً زيد، ولؤم صاحباً عمرو. ويكون المخصوص بالتكبير في هذه المسألة محذوفاً؛ لدلالة صفته عليه، والتقدير: كلمة تخرج من أفواههم أي: كلمة خارجة من أفواههم، فيكون مرفوعاً على وجهين:

أحدهما: أن يكون مبتدأ، وما قبله الخبر.

والآخر: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، وتقديره: هي كلمة تخرج. وقيل: إنتصب «كلمة» على التمييز المنقول عن الفاعل، على حدّ قولك: تصببت عرقاً، وتفقأت شحماً. والأصل: كبرت كلمتهم الخارجة من أفواههم. قال الشاعر:

وَلَقَد عَلِمْتُ إذَا الرِيَاحُ تَنَاوَحتْ[١] هُدُجَ الرِئَالَ تَكُبُّهنَّ شِمالا

أي: تكبّهنّ الرياح شمالاً. ومن قرأ: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ فإنّه جعل «كلمة» فاعل «كبرت»، وجعل قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ كلمة، كما قالوا للقصيدة: كلمة. وعلى هذا فيكون قوله: ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ في موضع رفع؛ بكونه صفة لـ«كلمة». ولا يجوز أن يكون وصفاً لكلمة الظاهرة المنصوبة؛ لأنّ الوصف يقرب النكرة من المعرفة، والتمييز لا يكون معرفة ألبتّة. ولا يجوز أن يكون في موضع نصب؛ على الحال من كلمة المنصوبة لوجهين:

أحدهما: أنّ الحال يقوم مقام الوصف.

والثاني: أنّ الحال لا يكون من نكرة في غالب الأمر. و ﴿أَسِفاً﴾ منصوب؛ بأنّه مصدر وضع موضع الحال، ولو كان في غير القرآن، لجاز أن لم يؤمنوا بالفتح، كما في قول الشاعر:

---

[١] تناوح الرياح: تقابلها في المهب.

أَتَجْزَعُ أَنْ بَانَ الخَلِيطُ الْـمُوَدِّعُ وَحَبْلُ الصَّفَا مِنْ عِزَةَ الْمُـتَقَطِّعُ

المعنى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ يقول سبحانه لخلقه: قولوا: كلُّ الحمد والشكر لله ﴿الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ﴾ محمّد ﷺ ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: القرآن، وإنتجبه من خلقه، وخصّه برسالته، فبعثه نبيّاً رسولاً.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً﴾ فيه تقديم وتأخير[1]، وتقديره: الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيّماً، ولم يجعل له عوجاً. وعنّي بقوله: قيّماً: معتدلاً مستقيماً مستوياً، لا تناقض فيه، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: قيماً على سائر الكتب المتقدّمة، يصدقها ويحفظها، وينفي الباطل عنها، وهو ناسخ لشرائعها، ـ عن الفرّاء ـ. وقيل: قيّماً لأمور الدين، يلزم الرجوع إليه فيها، فهو كقيّم الدار الذي يرجع إليه في أمرها، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: قيّماً دائماً، يدوم ويثبت إلى يوم القيامة، لا ينسخ، ـ عن الأصم ـ. ولم يجعل له عوجاً أي: لم يجعله ملتبساً لا يفهم، ومعوجاً لا يستقيم، وهو معنى قول ابن عباس. وقيل: لم يجعل فيه إختلافاً، كما قال عزّوجلّ إسمه ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً﴾، ـ عن الزجّاج ـ. ومعنى العوج في الكلام: أن يخرج من الصحّة إلى الفساد، ومن الحقّ إلى الباطل، وممّا فيه فائدة إلى ما لا فائدة فيه.

ثمّ بيّن سبحانه الغرض في إنزاله، فقال: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِنْ لَدُنْهُ﴾ ومعناه: ليخوّف العبد الذي أنزل عليه الكتاب الناس عذاباً شديداً، ونكالاً، وسطوة من عند الله تعالى، إن لم يؤمنوا به ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ

---

(١) في القرآن الكريم أربع كلمات، سكت عليها حفص سكتة لطيفه في الوصل: إحديها: «عوجاً» هنا سكت عليها، ثمّ إبتدأ «بقيّماً»؛ ليعلم أنّه ليس صفة لـ «عِوَجاً». ثانيتها: «مرْقَدنا» في يس. والثالثة: «مَن راق» لئلّا يشتبه بكلمة «مرّاق» إسم المبالغة، وهذا في سورة القيامة. الرابعة: «بل ران» لئلّا يشتبه بكلمة «برّ ان» في التطفيف. وهذا من لطائف قرائة حفص.

﴿لَهُمْ أَجْراً حَسَناً﴾ معناه: وليبشّر المصدّقين بالله ورسوله، الذين يعملون الطاعات بعد الإيمان، أنّ لهم ثواباً حسناً في الآخرة على إيمانهم وطاعاتهم في الدنيا، وذلك الثواب هو الجنّة.

﴿مَاكِثِينَ فِيهِ أَبَداً﴾ أي: لابثين في ذلك الثواب، خالدين مؤبّدين، لا ينتقلون عنه.

﴿وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً﴾ أي: وليحذّر الكفّار، الذين قالوا: الملائكة بنات الله، وهم قريش، ـ عن الحسن، ومحمّد بن إسحاق ـ. وقيل: هم اليهود والنصارى، ـ عن السدّي، والكلبي ـ. فعمّ جميع الكفّار بالإنذار في الآية الأولى، وخصّ في هذه الآية القائلين بهذه المقالة منهم؛ لتقليدهم الآباء في ذلك؛ ولإصرارهم على الجهل، وقلّة التفكّر؛ ولصدّهم الناس عن الدين.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لِآبَائِهِمْ﴾ أي: ليس لهؤلاء القائلين بهذا القول الشنيع علم به، ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم، على مثل ما هم عليه اليوم، وإنّما يقولون ذلك عن جهل وتقليد من غير حجّة[1]. وقيل: معناه ليس لهم بالله من علم، ولا لآبائهم.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِم﴾ أي: عظمت الكلمة كلمة تخرج من أفواه هؤلاء الكفّار، ووصف الكلمة بالخروج من الأفواه توسّعاً ومجازاً، وإن كانت الكلمة عرضاً لا يجوز عليها الدخول والخروج، ولا الحركة والسكون، ولكن لمّا كانت الكلمة قد تحفظ وتثبت، وتوجد مكتوبة ومقروءة في غير الموضع الذي فعلت فيه، وصفها بالخروج، وذكر الأفواه تأكيداً، والمعنى: أنهم صرّحوا بهذه الكلمة العظيمة في القبح، وأظهروها.

---

(١) كلامه: أنّ التقليد ليس بعلم. ولايكون الإعتقاد علماً، حتى يكون بحجّة.

﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كِذِباً﴾ أي: ما يقول هؤلاء إلّا كذباً وإفتراء على الله ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ يا محمّد ﴿بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ﴾ أي: مهلك وقاتل نفسك على آثار قومك الذين قالوا: لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، تمرّداً منهم على ربّهم.

﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ أي: إن لم يصدّقوا ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي: بهذا القرآن الذي أنزل عليك ﴿أسفاً﴾ أي: حزناً وتلهّفاً ووجداً، بإدبارهم عنك، وإعراضهم عن قبول ما آتيتهم به. وقيل: على آثارهم أي: بعد موتهم لشدّة شفقتك عليهم. وقيل: معناه: من بعد تولّيهم وإعراضهم عنك. وقيل: أسفاً أي: غيظاً وغضباً، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وهذه معاتبة من الله سبحانه لرسوله على شدّة وجدة، وكثرة حرصه على إيمان قومه، حتى بلغ ذلك به مبلغاً يقربه إلى الهلاك.

إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾

اللغة: الصعيد: ظهر الأرض. وقال الزجّاج: الصعيد: الطريق الذي لا نبات به. والجرز: الأرض التي لا تنبت، كأنّها تأكل النبت أكلاً. يقال: أرض جرز، وأرضون أجراز. وقال سيبويه: يقال: جرزت الأرض، فهي مجروزة، وجرزها الجرّاز والنعم. ويقال للسنة المجدبة: الجرز، لجدوبها ويبسها، وقلّة أمطارها. قال الراجز: «قد جرفتهنّ السنون الأجراز». ويقال: أجرز القوم إذا صارت أرضهم جرزاً، وجرزوهم أرضهم: إذا أكلوا نباتها كلّه.

الإعراب: ﴿أَيُّهُمْ﴾ مرفوع بالإبتداء؛ لأنّ لفظه لفظ الإستفهام. والإستفهام له صدر الكلام، أي: لنختبر أهذا أحسن عملاً، أم هذا. وهو تعليق لما في الخبرة من معنى العلم.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أنّه إبتداء خلقه بالنعم، وأنّ إليه مصير الأمم، فقال: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ﴾ من الأنهار و الأشجار، وأنواع المخلوقات من

الجماد، والحيوان، والنبات ﴿زِينَةً لَهَا﴾ أي: حلية للأرض، ولأهلها.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ أي: لنختبرهم ونمتحنهم، والمعنى: لنعامل عبادنا معاملة المبتلى، وقد سبق ذكر أمثاله. والأحسن عملاً: الأعمل بطاعة الله، والأطوع له. وقيل: إنّ معنى الإبتلاء: الأمر والنهي؛ لأنّ بهما يظهر المطيع من العاصي. وقيل: أراد بالزينة الرجال؛ لأنّهم زينة الأرض. وقيل: أراد: الأنبياء والعلماء.

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً﴾[1] معناه: وإنّا مخربون الأرض بعد عمارتها، وجاعلون ما عليها مستوياً من الأرض، يابساً لا نبات عليه. وقيل: بلاقع، ـ عن مجاهد ـ. وفي قوله: ﴿أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ دلالة على أنّه سبحانه أراد من الخلق، العمل الصالح، وعلى أنّ أفعالهم الصادرة منهم حادثة من جهتهم، ولولا ذلك لما صحّ الإبتلاء، وفي ذلك بطلان قول أهل الجبر.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا[2] ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

﴿اللغة﴾: الكهف: المغارة في الجبل، إلّا أنّه واسع، فإذا صغر فهو غار.

---

(١) قال الجصّاص: تدلّ الآية على صدق الصعيد على التراب، الذي يستحيل إليه ما على الأرض، من الحيوان والنبات، فيصحّ التيمّم عليه. ويستدلّ به على طهارة النجاسة بالإستحالة.

(٢) وقف حمزة على «هيّى» بوجه واحد، وهو إبدالها ياء. وروى كتابة هيا ويهيا بصورة الألف.

والرقيم: أصله من الرقم، وهو الكتابة. يقال: رقمت الكتاب أرقمه، فهو «فعيل» بمعنى «مفعول»، كالجريح والقتيل. ومنه: الرقم في الثوب؛ لأنّه خطّ يعرف به ثمنه. والأرقم: الحية المنقّشة لما فيه من الخطوط. وتقول العرب: عليك بالرقمة، ودع الضفة أي: عليك برقمة الوادي، حيث الماء، ودع الجانب. والأوى: الرجوع.

والفتية: جمع فتى. وفِعلة: من أسماء الجمع، وليس بناءً يقاس عليه. يقال: صبي وصبية، وغلام وغلمة، ولا يقال: غني وغنية؛ لأنّه غير مطّرد في بابه. والضرب: معروف. ومعنى ضربنا على آذانهم: سلّطنا عليهم النوم، وهو من الكلام البالغ في الفصاحة. يقال: ضربه الله بالفالج: إذا إبتلاه الله به. قال قطرب: هو كقول العرب: ضرب الأمير على يد فلان: إذا منعه من التصرّف. قال الأسود بن يعفر، وكان ضريراً:

وَمِنَ الْحَوادِثِ لا أَبالَكَ أَنَّني ضُرِبَتْ عَلَيَّ الأرضُ بِالأَسْدادِ[1]

والحزب: الجماعة. والأمد: الغاية. قال النابغة:

إلّا لِمِثْلِكَ، أَو مَنْ أَنْتَ سابِقُهُ سَبْقَ الْجَوادِ إِذَا اسْتَولىٰ عَلَى الأَمَدِ[2]

الإعراب: ﴿سِنِينَ﴾: نصب على الظرف. و ﴿عَدَداً﴾: منصوب على ضربين: أحدهما: على المصدر، المعنى: تعدّ عدداً. ويجوز أن يكون نعتاً لـ «سنين»، المعنى: سنين ذات عدد. قال الزجّاج: والفائدة في قولك «عدد» في

---

(١) أسود بن يُعفر ـ بضمّ الياء أو فتحها ـ: من أجواد العرب، ومن حكماء الشعراء. والبيت من قصيدة دالية من مختارات قصائدهم، وبعد هذا البيت: لا اهتدى فيها لموضع تلعة، بين العراق وبين أرض مراد. يعني: ومن حوادث الدهر، أنّه ضرب بيني وبين الأرض سدّ حتى لا اهتدى.

(٢) الإستثناء من البيت السابق يعني: لاتبغض على أحد إلّا على مثلك من الملوك، أو مَن هو دونك قليلاً، يخاطب النعمان بن المنذر. والأمد: الغاية. وسبق الجواد السابق على المصلى قليل.

الأشياء المعدودات: أنّك تريد توكيد كثرة الشيء؛ لأنّه إذا قل فهم مقداره ومقدار عدده، فلم يحتج إلى أن يعدّ. فالعدد في قولك: أقمت أيّاماً عدداً أنّك تريد بها الكثرة. وجائز أن يؤكّد بـ«عدد» معنى الجماعة، في أنّها قد خرجت من معنى الواحد. قال: وأمداً منصوب على نوعين: أحدهما: التمييز. والآخر: على أحصى أمداً، فيكون العامل فيه «أحصى»، كأنّه قال: لنعلم أهؤلاء أحصى للأمد، أم هؤلاء. ويكون منصوباً بـ«لبثوا»، ويكون أحصى متعلّقاً بـ«لِمَا». فيكون المعنى: أيّ الحزبين أحصى للبثهم في الأمد.

قال أبو عليّ: إنّ إنتصابه على التمييز عندي غير مستقيم، وذلك لأنّه لا يخلو من أن يحمل «أحصى» على أن يكون فعلاً ماضياً، أو أفعل، نحو: أحسن وأعلم، فلا يجوز أن يكون «أحصى» بمعنى: أفعل من كذا. وغير مثال للماضي من وجهين:

أحدهما: إنّه يقال: أحصى يحصي، وفي التنزيل: ﴿أَحْصَاهُ اللهُ وَنَسُوهُ﴾ وأفعل يفعل. لا يقال فيه: هو أفعل من كذا. وأمّا قولهم: ما أولاه بالخير، وما أعطاه [أعصاه] للدرهم، فمن الشاذّ النادر الذي حكمه أن يحفظ، ولا يقاس عليه.

والآخر: إنّ ما ينتصب على التمييز في نحو قولهم: هو أكثر مالاً، وأعزّ علماً، يكون في المعنى فاعلاً. ألا ترى أنّ المال هو الذي كثر، والعلم هو الذي عزّ، وليس ما في الآية كذلك، ألا ترى أنّ الأمد ليس هو الذي أحصى، فهو خارج عن حدّ هذه الأسماء. وإذا كان ماضياً كان المعنى: لنعلم أيّ الحزبين أحصى أمداً للبثهم، فيكون «الأمد» على هذا منتصباً بأنّه مفعول به، والعامل فيه: أحصى.

النزول: محمّد بن إسحق، بإسناده عن سعيد بن جبير، وعكرمة، عن ابن عباس: أنّ النضر بن الحرث بن كلدة، وعقبة بن أبي معيط، أنفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة، وقالوا لهما: سَلاهم عن محمّد، وصِفا لهم صفته، وخبّراهم

بقوله، فإنّهم أهل الكتاب الأوّل، وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن النبيّ ﷺ، قالا لهم ما قالت قريش، فقال لهما أحبار اليهود: إسألوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهنّ، فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل، فهو رجل متقول [مقتول]، فرأوا [فروا] فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأوّل، ما كان أمرهم؟ فإنّه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طواف، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه. وسلوه عن الروح ما هو؟ وفي رواية أخرى: فإن أخبركم عن الثنتين، ولم يخبركم بالروح، فهو نبيّ.

فإنصرفا إلى مكّة، فقالا: يا معاشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم، وبين محمّد. وقصّا عليهم القصّة. فجاؤوا إلى النبيّ ﷺ، فسألوه، فقال: أخبركم بما سألتم عنه غداً، ولم يستثن، فإنصرفوا عنه، فمكث ﷺ خمس عشرة ليلة، لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبرائيل، حتى أرجف أهل مكّة، وتكلّموا في ذلك، فشقّ على رسول الله ﷺ ما يتكلّم به أهل مكّة عليه. ثمّ جاءه جبرائيل عليه السلام عن الله سبحانه بسورة الكهف، وفيها ما سألوه عنه، عن أمر الفتية، والرجل الطواف، وأنزل عليه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ﴾ الآية. قال إبن إسحق: فذكر لي أنّ رسول الله ﷺ قال لجبرائيل حين جاءه: لقد إحتبست عنّي يا جبرائيل؟! فقال له جبرائيل عليه السلام: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا﴾ الآية.

﴿المعنى﴾: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ معناه: بل أحسبت يا محمّد ﴿أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً﴾ فلخلق السماوات والأرض أعجب من هذا، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. ويحتمل أنّه لمّا إستبطأ الجواب حين سألوه عن القصّة، قيل له: أحسبت أنّ هذا شيء عجيب؛ حرصاً على إيمانهم، حتى قوي طمعك أنّك إذا أخبرتهم به آمنوا. والمراد بالكهف: كهف الجبل الذي أوى إليه القوم الذين قصّ الله أخبارهم.

وأختلف في معنى الرقيم، فقيل: إنّه إسم الوادي الذي كان فيه الكهف، ـ عن ابن عباس، والضحّاك ـ. وقيل: الكهف: غار في الجبل. والرقيم: الجبل نفسه، ـ عن الحسن ـ. وقيل: الرقيم: القرية التي خرج منها أصحاب الكهف، ـ عن كعب، والسدّي ـ. وقيل: هو لوح من حجارة، كتبوا فيه قصّة أصحاب الكهف، ثمّ وضعوه على باب الكهف، ـ عن سعيد بن جبير، وإختاره البلخي، والجبائي ـ. وقيل: جعل ذلك اللوح في خزائن الملوك؛ لأنّه من عجائب الأمور، وقيل: الرقيم: كتاب، ولذلك الكتاب خبر، فلم يخبر الله تعالى عمّا فيه ـ عن ابن زيد ـ. وقيل: إنّ أصحاب الرقيم هم النفر الثلاثة الذين دخلوا في غار، فإنسدّ عليهم، فقالوا:؟ ليدع الله تعالى كل واحد منّا بعمله، حتى يفرج الله عنّا، ففعلوا، فنجاهم الله. ورواه النعمان بن بشير مرفوعاً.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: أُذكر لقومك إذ إلتجأ أولئك الشبان إلى الكهف، وجعلوه مأواهم هرباً بدينهم إلى الله: ﴿فَقَالُوا﴾ حين آووا إليه: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أي: نعمة ننجو بها من قومنا، وفرّج عنّا ما نزل بنا.

﴿وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾ أي: هيِّىء وأصلح لنا من أمرنا ما نصيب به الرشد. وقيل: هيِّىء لنا مخرجاً من الغار في سلامة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: دلّنا على أمر فيه نجاتنا؛ لأنّ الرشد والنجاة بمعنى. وقيل: يسّر لنا من أمرنا ما نلتمس به رضاك، وهو الرشد.

وقالوا: هؤلاء الفتية قوم آمنوا بالله تعالى، وكانوا يخفّون الإسلام خوفاً من ملكهم، وكان إسم الملك: دقيانوس، وإسم مدينتهم: أفسوس[1]، وكان ملكهم يعبد

---

(١) أفسوس: من نواحى طرسوس، ذكره في معجم البلدان، قال: يقال: إنّه بلد أصحاب الكهف، وكذلك يقول النصارى، ويسمّونهم: السبعة النائمون بأفسوس. وفي تواريخهم: أنّ دقيانوس ←

الأصنام، ويدعو إليها، ويقتل من خالفه. وقيل: إنّه كان مجوسيّاً، يدعو إلى دين المجوس، والفتية كانوا على دين المسيح، لمّا برح أهل الإنجيل، وقيل: كانوا من خواصّ الملك، وكان يسرّ كل واحد منهم إيمانه عن صاحبه، ثمّ إتّفق أنّهم إجتمعوا وأظهروا أمرهم، فأووا إلى الكهف، ـ عن عبيد بن عمير ـ. وقيل: إنّهم كانوا قبل بعث عيسى عليه السلام.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾ معناه: أنمناهم سنين ذات عدد. وتأويله: فأجبنا دعاءهم، وسددنا آذانهم بالنوم الغالب على نفوذ الأصوات إليها سنين كثيرة؛ لأنّ النائم إنّما ينتبه بسماع الصوت. ودلّ سبحانه بذلك على أنّهم لم يموتوا، وكانوا نياماً في أمن وراحة وجمام نفس. وهذا من فصيح لغات القرآن، التي لا يمكن أن يترجم بمعنى يوافق اللفظ.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ﴾ أي: أيقظناهم من نومهم ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾ أي: ليظهر معلومنا على ما علمناه، وذكرنا الوجه في أمثاله فيما سبق. والمعنى: لننظر أيّ الحزبين من المؤمنين والكافرين من قوم أصحاب الكهف عدّ أمد لبثهم، وعلم ذلك، وكأنّه وقع بينهم تنازع في مدّة لبثهم في الكهف بعد خروجهم من بيتهم، فبعثهم الله ليبيّن ذلك، ويظهر. وقيل: يعني بالحزبين: أصحاب الكهف، لمّا إستيقظوا، إختلفوا في تعداد لبثهم، وذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ الآية.

﴿النَّظْمُ﴾: إتّصل قوله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ﴾ الآية، بما قبلها

← ملك الروم كان وثنيّاً معادياً للنصارى، وكان يضطهد هم، ويقتلهم، وهم بإستئصالهم نحو سنة ٢٥٠ من الميلاد، ثمّ بعد نحو من خمسين سنة صار قسطنطين ملكا آمن بالمسيح عليه السلام، وآمن أهل الروم وأصحاب الكهف، فروا زمن دقيانوس، وناموا، ثمّ إستيقظوا، ورأوا قوّة النصارى بعد ضعفهم وذلّهم، ثمّ بنوا عند كهفهم كنيسة؛ تذكرة لهم.

من وجوه:

أحدها: إنّه لمّا أخبر عن زينة الأرض، وعن الإبتلاء، عقّبه بذكر الفتية التي تركت زينة الدنيا، وإختارت طاعة الله، وفارقت ديارها وأموالها؛ حثّاً على الإقتداء بهم. والآخر: إنّه إتّصل بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ أي: فلا تأسّف عليهم؛ لأنّه لا يضرّك كفرهم، والله ناصرك وحافظك من أعدائك، كما حفظ أصحاب الكهف.

والثالث: إنّه إتّصل بقوله: ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِيْنَ﴾ أي: وينصرهم كما نصر أصحاب الكهف.

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟
بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ
إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن
نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ
قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾
وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ
يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ (١)

القراءة: قرأ أهل المدينة، وابن عامر، والأعشى، والبرجمي، عن أبي بكر:

---

(١) ويقف حمزة على «فأوا» بإبدالها ألفاً. وأدغم «ينشر لكم» أبو عمرو. ويقف حمزة على «يهيّىء»، كما وقف على «هيّيء»، ومرّ قريباً.

﴿مِرْفَقاً﴾ ـ بفتح الميم، وكسر الفاء ـ. والباقون: ﴿مِرْفَقاً﴾ ـ بكسر الميم، وفتح الفاء ـ.

الحجة: قال الزجّاج: وذكر قطرب وغيره اللغتين جميعاً في مرفق الأمر، ومرفق اليد. ومرفق اليد ـ بالكسر ـ أجود. قال أبو الحسن: مرفقاً أي: شيئاً يرتفقون به مثل: المقطع ونحوه. ومرفقاً جعله إسماً مثل: المسجد، أو يكون لغة، قال أبو علي: قوله: جعله إسماً أي: جعل المرفق إسماً، ولم يجعلوه إسم المكان، ولا المصدر، من رفق يرفق، كما أنّ المسجد ليس بإسم الموضع من سجد يسجد وقوله، أو يكون لغة أو يجعله في إسم المصدر، كما جاء المطلع، ونحوه، ولو كان على القياس لفتحت اللام.

اللغة: الشطط: الخروج عن الحدّ بالغلوّ فيه. وأصله: مجاوزة الحدّ في البعد. وشطّت الجارية تشطّ شططاً وشطاطة: إذا جاوزت الحدّ في الطول. وأشطّ في السوم: إذا جاوز القدر بالغلوّ فيه. والإعتزال: التنحّي عن الأمر. والتعزّل بمعناه. قال:

يا بَيْتَ عاتِكَةَ الَّتِي أتَعَزَّلُ ... حَذَرَ العِدىٰ، وَبِهِ الْفُؤَادُ مُوَكَّلُ[1]

وسمّي عمرو بن عبيد، وأصحابه، معتزلة؛ لما إعتزلوا حلقة الحسن.

الإعراب: كسر ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ على الإستئناف. ﴿إِذْ قَامُوا﴾: يتعلّق بـ «ربطنا» أي: في الوقت الذي قاموا فيه. و ﴿شَطَطاً﴾: منصوب على المصدر. المعنى: لقد قلنا قولاً شططاً. ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾: في موضع نصب، عطفاً على الهاء والميم في ﴿اعْتَزَلْتُمُوهُمْ﴾. والمراد: الأصنام التي يعبدونها من دون الله. ويجوز أن تكون ﴿مَا﴾ مصدرية أي: وعبادتهم إلّا عبادة الله، فحذف المضاف، والإستثناء على هذا من الهاء والميم، وإن جعلت ﴿مَا﴾ موصولة، كان الإستثناء من مفعول «يعبدون» إستثناء منقطعاً.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه قصّة أصحاب الكهف، فقال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ﴾

---

[1] قائله: الأحوص.

أي: نتلو عليك يا محمّد ﴿نَبَأَهُمْ﴾ أي: خبرهم ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالصدق، والصحّة.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ﴾ أي: أحداث وشباب ﴿آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدىً﴾ أي: بصيرة في الدين، ورغبة في الثبات عليه بالألطاف المقوّية لدواعيهم إلى الإيمان. وحكم لهم سبحانه بالفتوّة؛ لأنّ رأس الفتوّة الإيمان. وقيل: الفتوّة: بذل الندى، وترك الأذى، وترك الشكوى، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هي إجتناب المحارم، وإستعمال المكارم.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: شددنا عليها بالألطاف والخواطر المقوّية للإيمان، حتى وطّنوا أنفسهم على إظهار الحقّ، والثبات على الدين، والصبر على المشاقّ، ومفارقة الوطن.

﴿إِذْ قَامُوا﴾ أي: حين قاموا بين يدي ملكهم الجبّار دقيانوس الذي كان يفتن أهل الإيمان عن دينهم ﴿فَقَالُوا﴾ بين يديه ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: ربّنا الذي نعبده خالق السماوات و الأرض ﴿لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً﴾ أي: لن نعبد إلهاً سواه معه ﴿لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾ معناه: إن دعونا مع الله إلهاً آخر، فلقد قلنا إذاً قولاً مجاوزاً للحقّ، غاية في البطلان.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا﴾ أي: أهل بلدنا ﴿اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ﴾ أي: من دون الله ﴿آلِهَةً﴾ يعبدونها ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ أي: هلّا يأتون على عبادتهم غير الله بحجّة ظاهرة. وفي هذا ذمّ زجر للتقليد، وإشارة إلى أنّه لا يجوز أن يقبل دين إلّا بحجّة واضحة.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِباً﴾ فزعم أنّ له شريكاً في العبادة ﴿وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ﴾ قال ابن عباس: وهذا من قول «تمليخا» ـ وهو رئيس أصحاب الكهف ـ، قال لهم: فإذا فارقتموهم وتنحّيتم عنهم جانباً، يعني: عبدة الأصنام، وفارقتم ما يعبدون أي: أصنامهم إلّا الله، فإنّكم لن تتركوا عبادته، وذلك أنّ أولئك كانوا يشركون بالله. ويجوز أنّه كان فيهم من يعبد الله مع عبادة الأصنام، فقال: إذا إعتزلتم الأصنام، ولم تعتزلوا الله، ولا عبادته فيكون

الإستثناء متّصلاً، ويجوز أن يكون جميعهم كانوا يعبدون الأوثان من دون الله، فيكون الإستثناء منقطعاً.

﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ أي: صيروا إليه، وإجعلوه مأواكم ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ أي: يبسط عليكم ربّكم من نعمته ﴿وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾ أي: ويسهل عليكم ما تخافون من الملك وظلمه، ويأتيكم باليسر والرفق واللطف، ـ عن ابن عباس ـ. وكلّما إرتفقت فهو مرفق. وقيل: معناه: ويصلح لكم من أمر معاشكم ما ترتفقون به. وفي هذا دلالة على عظم منزلة الهجرة في الدين، وعلى قبح المقام في دار الكفر، إذا كان لا يمكن المقام فيها، إلّا بإظهار كلمة الكفر، وبالله التوفيق.

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ۚ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

القراءة: قرأ ابن عامر، ويعقوب: تَزْوَرُّ ـ بتشديد الراء ـ[1]. وقرأ أهل

(١) وذلك لأنّهم حذفوا ألف «تزاور» في الكتابة. وأثبت الياء من «المهتدى» نافع وأبو عمرو وصلاً. وقرأ «تحسَبهم» ـ بفتح السين ـ ابن عامر وعاصم وحمزة. والباقون من السبعة: بالكسر. وقرأ: رُعُباً بضمّتين ابن عامر والكسائي.

الكوفة: ﴿تَزَاوَرُ﴾ ـ بالتخفيف ـ. والباقون: ﴿تَزَّاوَرُ﴾ ـ بتشديد الزاي ـ. وقرأ أهل الحجاز: ﴿لَمُلِئْتَ﴾ ـ بالتشديد ـ. والباقون: بالتخفيف. وفي الشواذّ، قراءة الجحدري: ﴿تَزْوارُّ﴾ وقراءة الحسن: وتَقَلُّبَهم ـ بفتح التاء والقاف والباء، وضمّ اللام ـ.

الحجة: من قرأ: ﴿تَزَاوَرُ﴾ فإنّه تتزاور، فأدغم التاء في الزاي. ومن قرأ: ﴿تَزَاوَرُ﴾: حذف الثانية، وخفّف الكلمة بالحذف، كما حذف [حفّف] أولئك بالإدغام. ومن قرأ: تَزْوَرُّ فقد قال أبو الحسن: لا معنى له في هذا الموضع، إنّما يقال: هو مزور عنّي أي: منقبض عنّي. يدل عليه قول عنترة:

فَإزْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنا بِلَبَانِهِ وَشَكَا إلَيَّ بِعبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ[1]

قال أبو عليّ: والذي حسن القرائة به، قول جرير:

عَسَفْنَ عَنِ الأَداعِسِ مِنْ مَهِيلٍ وَفي الأَظْعانِ عَنْ طَلْحَ ازْوِرارِ[2]

فظاهر إستعمال هذا في الإظعان مثل: إستعماله في الشمس. وتزاور: على وزن «تفاعل». وتزوار: على وزن «تفعال»، من الأزويرار. وقوله: ﴿لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ﴾ ـ بالتشديد ـ للتكثير. قال أبو الحسن: الخفيفة أجود لا يكادون يقولون: ملّأتني رعباً، وإنّما يقولون: ملأتني رعباً. قال أبو عليّ: يدلّ على قول أبي الحسن، قول امرىء القيس: «فَتَمْلأُ بَيتْنا أقطاً وَسمناً»[3]. وقول الأعشى: «وَقَدْ مَلَئَتْ بَكْرٌ، وَمَنْ لَفَّ لفّها» وأنشدوا في التثقيل، قول المخبل السعدي: «فملأ من كعب بن عوفٍ

---

(١) يصف فرسه، وأنّه مغتمّ؛ لوقوع الرماح على صدره. والتحمحم: حنين الفرس في سهيله [صهيله].

(٢) الدعس: الأثر. والمهيل: التلّ من الرمل. والطلح: موضع. والعسف: السير على غير الطريق.

(٣) وفي رواية: فتوسع ربّها أقطاً وسمناً. وتمامه: وحسبك من غنى شبع وري. يصف الناقة، وكثرة لبنها.

سلاسله». ومن قرأ: وتقلّبهم فإنّه نصبه بفعل مضمر، دلّ عليه ما قبله، فكأنّه قال: وترى، أو تشاهد تقلّبهم.

اللغة: القرض: القطع. يقال: قرضت الموضع: إذا قطعته وجاوزته. قال الكسائي: هو المجازاة، يقال: قرضني فلان يقرضني، وجذاني يجذوني، بمعنى. قال ذو الرمة:

إلىٰ ظَعَنٍ يَقْرِضْنَ أجْوازَ مَشْرَفٍ شِمالاً وَعَنْ أيْمانِهِنَّ الفَوارِسُ[1]

ويستعمل القرض في أشياء غير هذا منه: القطع للثوب، وغيره. ومنه: المقراض. ومنه: قرض الفأر. قال: أبو الدرداء: «وإن قارضتهم قارضوك، وإن تركتهم لم يتركوك»، يعني: إن طعنت فيهم وعبتهم، فعلوا بك مثله، وإن تركتهم من ذلك، لم يتركوك. والقراض بِلُغة الحجاز: المضاربة. والقرض. هو قول الشعر القصيدة منه خاصّة، دون الرجز رمنه. قيل للشعر: القريض، قال الأغلب العجلي: «أرجزاً تريد أم قريضاً». والفجوة: المتّسع من الأرض. وجمعه: فجوات، وفجاء ممدود. وفجوة الدار: ساحتها. والأيقاظ: جمع يقظ ويقظان. قال الراجز: «ووجدوا إخوتهم أيقاظاً». والرقود: جمع راقد: ورقد يرقد رقاداً ورقوداً. والوصيد: من أوصدت الباب أي: أغلقته. وجمعه: وصائد. ويقال: وصيد وأصيد، وأوصدت وأصدت، مثل: ورخت الكتاب، وأرخته، ووكدت الأمر وأكدته.

الإعراب: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ متعلّق بالرؤية، وقوله: إذا طلعت وإذا غربت كلاهما بجوابهما في موضع المفعول الثاني. والحال والجملة التي هي ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ في موضع الحال. ﴿وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل إسم الفاعل؛ حيث نصب به «ذراعيه»، وإن كان بمعنى الماضي؛

---

(١) جوز كل شيء: وسطه. والأجواز: جمعه. ومشارف الأرض: أعاليها، يصف نساء ظاعنات.

لأنّه حكاية حال، كما قال: هذا من شيعته، وهذا من عدوّه. وهذا يشار به إلى الحاضر، ولم يكن المشار إليهما حاضرين، حين قصّ القصّة على النبيّ ﷺ، ولكنّه على تلك الحال قصّ القصّة.

﴿فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ كتب في المصحف هنا بغير ياء، وفي الأعراف بالياء. وحذْف الياء جائزٌ في الأسماء خاصّة، ولا يجوز في الأفعال؛ لأنّ حذف الياء في الفعل دليل الجزم، وحذف الياء في الأسماء واقع إذا لم يكن الألف واللام، نحو مهتدٍ، فأدخلت الألف واللام، وترك الحرف على ما كان عليه. ودلّت الكسرة على الياء المحذوفة.

قال الزجّاج: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ﴾ ـ بكسر الواو ـ. ويجوز الضمّ، والكسر أجود؛ لأنّ الواو ساكنة، والطاء ساكنة، والأصل في إلتقاء الساكنين الكسر. وجاز الضمّ؛ لأنّ الضمّ من جنس الواو، ولكنّه إذا كان بعد الساكن مضموم، فالضمّ هناك أحسن، نحو: أو أُنقص، قرىء بالضمّ والكسر. ﴿فِرَاراً﴾ منصوب على المصدر؛ لأنّ معنى ولّيت: فررت. و ﴿رُعْباً﴾: منصوب على التميز. يقال: إمتلأت فرقاً، وإمتلأ الإناء ماء.

﴿المعنى﴾: ثمّ بيّن سبحانه حالهم في الكهف، فقال: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ﴾ أي: لو رأيتها لرأيت ﴿إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ﴾ أي: تميل وقت طلوعها عن كهفهم إلى جهة اليمين.

﴿وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ﴾ أي: تعدل عنهم، وتتركهم ﴿ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ إلى الشمال، شمال الكهف أي: لا تدخل كهفهم. وقيل: تقرضهم أي: تجاوزهم منحرفة عنهم، عن ابن عباس. ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ﴾ أي: في متسع من الكهف. وقيل: في فضاء منه، ـ عن قتادة ـ. وقيل: كان متّسعاً داخل الكهف، بحيث لا يراه من كان

ببابه، وينالهم نسيم الريح.

ثمّ أخبر سبحانه عن لطفه بهم، وحفظه إيّاهم في مضجعهم، وإختياره لهم أصلح المواضع لرقادهم، فبوّأهم مكاناً من الكهف، مستقبلاً بنات النعش، تميل الشمس عنهم طالعة وغاربة، كيلا يؤذيهم حرّها، أو تغيّر ألوانهم، أو تبلي ثيابهم، وهم في متّسع ينالهم فيه روح الريح، وكان باب الغار مقابل القطب الشمالي.

﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ﴾ أي: من أدلّته وبرهانه ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾ مثل أصحاب الكهف ﴿وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً﴾ مثل: قوم أصحاب الكهف. ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً﴾ أي: لو رأيتهم لحسبتهم منتبهين ﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾ أي: نائمون في الحقيقة. قال الجبائي وجماعة: لأنّهم مفتحوا العيون، يتنفّسون كأنّهم يريدون أن يتكلّموا، ولا يتكلّمون. وقيل: إنّهم ينقلبون كما ينقلب اليقظان.

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ معناه: ونقلّبهم تارة عن اليمين إلى الشمال، وتارة عن الشمال إلى اليمين، كما يتقلّب النائم، لأنّهم لو لم يتقلّبوا لأكلتهم الأرض، ولبليت ثيابهم لطول مكثهم على جانب واحد. وقيل: كانوا يقلّبون كل عام تقلّبتين، ـ عن أبي هريرة ـ. وقيل: كان تقلّبهم كل عام مرّة، ـ عن ابن عباس ـ.

وقوله: ﴿وَكَلْبُهُمْ﴾ قال ابن عباس وأكثر المفسّرين: إنّهم هربوا من ملكهم ليلاً، فمرّوا براع معه كلب، فتبعهم على دينهم، وتبعه كلبه. وقيل: إنّهم مرّوا بكلب، فتبعهم فطردوه، فعاد، ففعلوا ذلك مراراً، فقال لهم الكلب: ما تريدون منّي لا تخشوا خيانة، فأنا أحبّ أولياء الله، فناموا حتى أحرسكم، ـ عن كعب ـ. وقيل:

كان ذلك كلب صيدهم. وقيل: كان ذلك الكلب أصفر اللون، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: كان أنمر، وإسمه: قطمير، ـ عن ابن عباس ـ. وفي تفسير الحسن: إنّ ذلك الكلب مكث هناك ثلاث مائة وتسع سنين بغير طعام، ولا شراب، ولا نوم، ولا قيام.

﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ هو أن يلقّيهما على الأرض مبسوطتين، كإفتراش السبع.

﴿بِالْوَصِيدِ﴾ أي: بِفِنا الكهف، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ـ. وقيل: بالباب. وقيل: بباب الفجوة، أو فناء الفجوة، لا باب الكهف؛ لأنّ الكفّار خرجوا إلى باب الكهف في طلبهم، ثمّ إنصرفوا، ولو رأوا الكلب على باب الغار لدخلوه، وكذلك لو كان بالقرب من الباب، ولمّا إنصرفوا آيسين عنهم، فإنّهم سدّوا باب الغار بالحجارة. فجاء رجل بماشيته إلى باب الغار، وأخرج الحجارة، وإتّخذ لماشيته كنّاً عند باب الغار، وهم كانوا في فجوة من الغار، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: الوصيد: عتبة الباب، ـ عن عطا ـ.

﴿لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً﴾ معناه: لو أشرفت عليهم، ورأيتهم في كهفهم على حالتهم، لفررت منهم، وأعرضت عنهم؛ هرباً لإستيحاشك الموضع.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ أي: ولملىء قلبك خوفاً وفزعاً. وذلك أنّ الله منعهم بالرعب لئلّا يصل إليهم أحد، حتى يبلغ الكتاب أجله فيهم. وقيل: كانوا في مكان موحش، من رآه فزع، ولا يمتنع أنّ الكفّار لمّا أتوا باب الكهف، فزعوا من وحشة المكان، فسدّوا باب الكهف؛ ليهلكوا فيه. وجعل سبحانه ذلك لطفاً، لئلّا ينالهم مكروه، من سبع وغيره؛ وليكونوا محروسين من كل سوء. وقيل: إنّهم كانت أظفارهم قد طالت، وكذلك شعورهم، ولذلك يأخذ الرعب منهم. وهذا لا يصحّ لقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

وروى سعيد إبن جبير، عن ابن عباس قال: غزوت مع معاوية نحو الروم،

فمرّوا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف، فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم! فقلت له: ليس هذا لك، فقد منع ذلك من هو خير منك. قال الله تعالى: ﴿لَوْ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم. فبعث رجالاً فلمّا دخلوا الكهف أرسل الله عليهم ريحاً أخرجتهم.

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ[1] قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

القراءة: قرأ أبو عمرو، وأبو بكر، وحمزة، وخلف: ﴿بِوَرْقِكُمْ﴾ ـ ساكنة الراء ـ. والباقون: بكسر الراء. وروي عن أبي عمرو بإدغام الكاف [القاف] في القاف [الكاف]. وفي الشواذّ، قراءة أبي رجاء: ﴿بِوَرِقِكُمْ﴾ ـ بكسر الواو، والإدغام ـ.

الحجة: في ﴿وَرِقِكُمْ﴾ أربع لغات: فتح الواو، وكسر الراء، وهو الأصل. وفتح الواو، وسكون الراء. وكسر الواو، وسكون الراء. والإدغام. قال ابن جنّي:

---

(١) أدغم «لبثتم» أبو عمر وابن عامر وحمزة.

هذا عند أصحابنا مخفيّ غير مدغم، لكنّه أخفى كسرة القاف، فظنّها القرّاء مدغمة. ومعاذ الله! لو كانت مدغمة لوجب نقل كسرة القاف إلى الراء، كقولهم برد[يرد] وبر[ير]ق. وللقرّاء في هذا عادة أن يعبروا عن المخفيّ بالمدغم، للطف ذلك عليهم.

الإعراب: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ تقديره: كم يوماً لبثتم، فـ﴿كَمْ﴾: منصوبة بـ﴿لَبِثْتُمْ﴾. والمميّز محذوف. ألا ترى أنّ جوابه: ﴿لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾. ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾: الجملة التي هي ﴿أَيُّهَا أَزْكَى﴾ مفعول ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾، و﴿طَعَاماً﴾: تميز.

المعنى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ معناه: وكما فعلنا بهم الأمور العجيبة، وحفظناهم تلك المدّة المديدة، بعثناهم من تلك الرقدة، وأحييناهم من تلك النومة التي أشبهت الموت ﴿لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليكون بينهم تساؤل وتنازع واختلاف في مدّة لبثهم، فينتبهوا بذلك على معرفة صانعهم، ويزدادوا يقيناً إلى يقينهم.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ في نومكم ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ قال المفسّرون: إنّهم دخلوا الكهف غدوة، وبعثهم الله في آخر النهار، فلذلك قالوا يوماً. فلمّا رأوا الشمس قالوا: أو بعض يوم، وكان قد بقيت من النهار بقيّة.

﴿قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾ وهذا القائل هو تمليخا رئيسهم، ـ عن ابن عباس ـ. ردّ علم ذلك إلى الله تعالى.

﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ﴾ والورق: الدراهم، وكان معهم دراهم عليها صورة الملك الذي كان في زمانهم، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿إِلَى الْمَدِينَةِ﴾ يعني:

المدينة التي خرجوا منها[١].

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً﴾ أي: أطهر وأحلّ ذبيحه، عن ابن عباس قال: لأنّ عامّتهم كانت مجوساً، وفيهم قوم مؤمنون يخفون إيمانهم. وقيل: أطيب طعاماً، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: أكثر طعاماً من قولهم: زكى المال: إذا زاد، ـ عن عكرمة ـ. وذلك لأنّ خير الطعام يوجد عند من كثر طعامه. وقيل: كان من طعام أهل المدينة ما لا يستحلّه أصحاب الكهف.

﴿فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ﴾ أي: فليأتكم بما ترزقون أكله ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾ أي: وليدقّق النظر، ويتحيّل حتى لا يطّلع عليه. وقيل: وليتلطّف في الشراء، فلا يماكس البائع، ولا ينازعه.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً﴾ أي: لا يخبرنّ بكم ولا بمكانكم أحداً من أهل المدينة ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يشرفوا ويطّلعوا عليكم، ويعلموا بمكانكم. ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: يقتلوكم بالرجم، وهو من أخبث القتل، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: يؤذوكم ويشتموكم. يقال: رجمه بلسانه، ـ عن ابن جريج ـ.

﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ أي: يردّوكم إلى دينهم. ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾ معناه: ومتى فعلتم ذلك، لن تفوزوا أبداً بشيء من الخير. ومتى قيل: من أكره على الكفر فأظهره فإنّه مفلح، فكيف تصحّ الآية؟ فالجواب: يجوز أن يكون أراد يعيدوكم إلى دينهم بالإستدعاء دون الإكراه. ويجوز أن يكون في ذلك الوقت كان لا يجوز التقيّة في إظهار الكفر.

---

(١) قال الجصاص: ويدلّ الآية على جواز التوكيل في البيع. وهو حسن.

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ
ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟
ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ
أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ
رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا
بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ (١)
بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۬ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا
وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ (٢)
إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ
إِذَا نَسِيتَ ۖ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

(اللغة): عثر على الشيء يعثر عثراً: إذا إطّلع عليه. وأعثرت عليه غيري. والعاثور: حفرة تحفر ليصطاد به الأسد. يقال للرجل إذا تورّط: وقع في عاثور.

---

(١) فتح الياء من «ربّى أعلم» نافع وابن كثير وأبو عمرو.

(٢) إتّفقوا على كتابة «لشاى» هنا بزيادة ألف بين الشين والياء، وفند بعض أهل الحديث وإستهزئ بهذا الرسم، والإلتزام بحفظه، وذلك لقلّة التدبّر؛ لأنّه يجب حفظ كل ما امر الله تعالى برجوع الناس إليه، والعمل به الى يوم القيامة، كما يجب حفظ عرفة، ومنى، وجمرة العقبة، والروضة الشريفة، وقبور الأئمّة عليهم السلام لأمر الناس بزيارتها، وحفظ الأحاديث؛ للتمسّك بها، كذلك يجب حفظ القرآن، وكل شيء منه، حتى يحتجّ به الناس، مطمئنّاً به، الى يوم القيامة.

وأصله من العثار. والمراء: الجدال، ما ريت الرجل أماريه مراء.

﴿الإعراب﴾: ﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ﴾: يجوز أن يكون منصوباً بقوله: ﴿أَعْثَرْنَا﴾ أي: أطلعنا عليهم في وقت المنازعة في أمرهم. ويجوز أن يكون منصوباً بقوله: ﴿لِيَعْلَمُوا﴾ وإنّما دخلت الواو في قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ﴾ ولم يدخل في الأوّلين؛ لأنّ هيهنا عطف جملة على جملة، وهناك وصف النكرة بجملة، فإنّ التقدير: هم سبعة، وهم ثلاثة: فثلاثة مرفوع؛ بأنّه خبر مبتدأ محذوف.

﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: وصف لثلاثة، وكذلك: ﴿سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾: صفة لخمسة، وهذا قول عليّ بن عيسى قال: وفرق ما بينهما: أنّ السبعة أصل للمبالغة في العدد؛ لأنّ جلائل الأمور سبعة سبعة. وأقول: قد وجدت لأبي عليّ الفارسي في هذا كلاماً طويلاً، سألخصه لك، وأهذّبه أفضل تهذيب.

قال: إنّ الجملتين الملتبسة إحداهما بالأخرى، وهي أن تكون غير أجنبيّة منها على ضربين: أحدهما: أن تعطف بحرف العطف. والآخر: أن توصل بها بغير حرف العطف. فما يوصل بما قبلها بغير حرف العطف من الجملة على أربعة أضرب: أحدها: أن تكون صفة. والآخر: أن تكون حالاً. والثالث: أن تكون تفسيراً. والرابع: أن لا تكون على أحد هذه الأوجه الثلاثة، لكن يكون في الجملة الثانية ذكر ممّا في الأولى، أو ممّن فيها.

فالأوّل: نحو: مررت برجل أبوه قائم، وبغلام يقوم. ولا وجه لإدخال حرف العطف على هذا؛ لأنّ الصفة تبيّن الموصوف وتخصّصه. فلو عطفت لخرجت بالعطف من أن تكون صفة؛ لأنّ العطف ليس الثاني، وهو المعطوف فيه بالأوّل، وإنّما يشرك الثاني في إعراب الأوّل، والصفة هو الموصوف في المعنى.

وأمّا الثاني: وهو أن تكون حالاً، فلا مدخل لحرف العطف عليه أيضاً؛ لأنّ الحال مثل الصفة، في أنّها تفرق بين هيأتين أو هيآت، كما أنّ الصفة تفرق بين

موصوفين أو موصوفات، وهي مثل المفعول في أنّها تكون بعد كلام تـامّ. فكـما لايدخل الحرف العاطف بين الصفة والموصوف، ولا بين المفعول وما عمل فيه، كذلك لا يدخل بين الحال وذي الحال. والجمل الواقعة موقع الحال: إمّا أن تكون من فعل وفاعل، أو من مبتدأ وخبر، نحو: رأيت زيداً يضحك، وجـاء زيـد أبـوه منطلق. قال الشاعر:

وَلَوْلاَ جنانُ اللَّيْلِ مَا آبَ عَامِرٌ إِلىٰ جَعْفَرٍ سِرْبَالُهُ لَمْ يُـمَزَّقِ[١]

وأمّا الثالث: وهي الجملة التي تكون تفسيراً لما قبلها، فنحو قوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ثمّ قال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. فالمغفرة تفسير الوعـد الذي وعدوا. فأمّا قوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ﴾. ثمّ قال: ﴿تُـؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾. فتؤمنون على لفظ الخبر، ومعناه: الأمر؛ بدلالة قوله: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾. وحسنٌ أن يكون الأمر على لفظ الخبر؛ لوقوعه كالتفسير لما قبله من ذكر التجارة. وحكم التفسير أن يكون خبراً، فلذلك حسن كون الأمر على لفظ الخبر هنا.

وأمّا الرابع: الذي لا يكون إتّصاله على الوجوه الثلاثة، ويكون في الجملة الثانية ذكر ممّا في الأولى، فإنّ هذا الوجه يتّصل بما قبله على وجهين:

أحدهما: بحرف عطف كما يتبع الأجنبيّة إيّاها بحرف عطف، وذلك نـحو: زيد أبوك، وأخوه عمرو. فهذه قد نزلت منزلة الأجنبيّة مـن الأولى فـي العـطف بالواو، نحو: قام زيد، وخرج عمرو، وزيد قائم، وبكر خارج. **والآخـر**: أن يـتبع الثانية الأولى بغير حرف عطف، كقوله سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ ﴿كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾. ويقول في آية أخـرى: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ﴾

---

[١] قائله: سلامة بن جندل. وجنان الليل أي: ما ستر من ظلمته. وآب: رجـع والشـاهد فـي «سرباله لم يمزق» فإن هذه جملة اسمية من مبتدأ وخبر، وقد وقعت حالاً من (عامر) الذي هو فاعل «آب». وقد ربط الشاعر جملة الحال الإسمية بالضمير.

بالواو. وقوله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

والدليل على أنّ هذا نوع آخر خارج عن الأنواع الثلاثة: أنّ قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ بعد الجملة المحذوف مبتدأها، لا يخلو من أن يكون حالاً، أو صفة، أو تفسيراً، أو جملة منقطعة من الأوّل. ولا يجوز أن يكون في موضع الحال؛ لأنّ ما قبلها من الكلام لا معنى فعل فيه عاملاً في الحال. والحال لا بدّ لها من عامل فيها.

ولا يمكن أن يجعل المبتدأ المضمر هذا وما أشبهه من أسماء الإشارة، فينتصب الحال عنها؛ لأنّ المخبر عنهم هيهنا ليسوا بمشار إليهم في وقت الإخبار، وإنما المراد الإخبار عن عددهم. ولو كانوا بحيث يشار إليهم، لم يقع الإختلاف في عددهم. ولا يجوز أن يكون تفسيراً؛ لأنّ التفسير هو المفسر في المعنى. ولا يجوز أن يكون شيء من جزء الجملة التي هي ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ شيئاً من جزء الجملة التي هي هم ثلاثة، ولا يجوز أيضاً أن يكون صفة للنكرة التي قبلها؛ لأنّه لا يخلو في الوصف من أحد أمرين: إمّا أن يعمل إسم فاعل، كما يعمل سائر أسماء الفاعلين الجارية على أفعالها، فيرتفع ما بعده به. وإمّا أن يجعل جملة في موضع وصف، ولا يعمل إسم الفاعل عمل الفعل، فيكون مبتدأ وخبراً، ولا يجوز الأوّل؛ لأنّه في معنى الماضي، والماضي لا يقدر فيه الإنفصال، وإنّما يقدر في الحاضر والآتي؛ لأنّه كما أعرب من الأفعال المضارعة ما كان حاضراً وآتياً، كذلك لم يعمل الماضي من أسماء الفاعلين.

ولولا المضي لم يمتنع إعمال قوله: رابعهم وسادسهم، ولا تكون أيضاً الجملة صفة لثلاثة، كما توصف النكرات بالجمل؛ لأنّ هذه جملة مستأنفة، وليست على حدّ الصفة، بل على حدّ ما بعدها من قوله: ﴿وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾، فحذفت الواو،

وإستغني عنها. إذا كانت إنّما تذكر لتدلّ على الإتّصال. وما في الجملة من ذكر ما في الأولى، كأنّه يستغنى به عن ذكر الواو؛ لأنّ الحرف يدلّ على إيصاله، وما في الجملة من ذكر ما تقدّمها إتّصال أيضاً، فيستغنى به، ويكتفى بذلك منه. وهذا فصل جامع في النحو، جليل الموقع، كثير الفائدة، إذا تأمّله المتأمّل حقّ التأمّل، وأحكمه، أشرف به على كثير من المسائل إن شاء الله. وأمّا من قال: إنّ هذه الواو واو الثمانية، وإستدلّ بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ لأنّ للجنّة ثمانية أبواب، فشيء لا يعرفه النحويّون.

﴿المَعْنَى﴾: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: وكما أنمْناهم وبعثناهم، أطلعنا وأعثرنا عليهم أهل المدينة. وجملة أمرهم وحالهم على ما قاله المفسّرون: إنّهم لمّا هربوا من ملكهم، ودخلوا الكهف، أمر الملك أن يسدّ عليهم باب الكهف، ويدعوهم كما هم في الكهف، فيموتوا عطشاً وجوعاً، وليكن كهفهم الذي إختاروه قبراً لهم، وهو يظنّ أنّهم أيقاظ. ثمّ إنّ رجلين مؤمنين كتبا شأن الفتية، وأنسابهم، وأسماءهم، وخبرهم، في لوح من رصاص، وجعلاه في تابوت من نحاس، وجعلا التابوت في البنيان الذي بنوا على باب الكهف، وقالا: لعلّ الله يظهر على هؤلاء الفتية قوماً مؤمنين، قبل يوم القيامة؛ ليعلموا خبرهم حين يقرأون هذا الكتاب.

ثمّ إنقرض أهل ذلك الزمان، وخلفت بعدهم قرون وملوك كثيرة، وملك أهل تلك البلاد رجل صالح. يقال له: ندليس. وقيل: بندوسيس، ـ عن محمّد بن إسحاق ـ. وتحزب الناس في ملكه أحزاباً، منهم من يؤمن بالله، ويعلم أنّ الساعة حقّ، ومنهم من يكذّب. فكبر ذلك على الملك الصالح، وبكى إلى الله، وتضرّع وقال: أي ربّ! قد ترى إختلاف هؤلاء، فإبعث لهم آية تبيّن لهم بها أنّ البعث حق، وأنّ الساعة حقّ، آتية لا ريب فيها، فألقى الله في نفس رجل من أهل ذلك البلد الذي فيه الكهف، أن يهدم البنيان الذي على فم الكهف، فيبني به حظيرة لغنمه،

ففعل ذلك.

وبعث الله الفتية من نومهم، فأرسلوا أحدهم ليطلب لهم طعاماً، فإطّلع الناس على أمرهم، وبعثوا إلى الملك الصالح يعلمونه الخبر؛ ليعجل القدوم عليهم، وينظر إلى آية من آيات الله جعلها الله في ملكه. فلمّا بلغه الخبر حمد الله، وركب، وركب معه مدينته حتى أتوا أهل الكهف، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾.

﴿لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ بالبعث، والثواب، والعقاب ﴿حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي: إنّ القيامة لا شكّ فيها، فإنّ من قدر على أن ينيم جماعة تلك المدّة المديدة أحياء، ثمّ يوقظهم، قدر أيضاً على أن يميتهم، ثمّ يحييهم بعد ذلك.

﴿إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أي: فعلنا ذلك حين تنازعوا في البعث، فمنهم: من أنكره، ومنهم: من قال: يبعث الأرواح دون الأجسام، ومنهم: من أثبت البعث فيهما، وأضاف الأمر إليهم لتنازعهم فيه، كما يقال: ما صنعتم في أمركم، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: إنّ معناه: إذ يتنازعون في قدر مكثهم في الكهف، وفي عددهم، وفيما يفعل بهم بعد أن إطّلعوا عليهم، وذلك أنّه لمّا دخل الملك عليهم مع الناس، وجعلوا يسألونهم، سقطوا ميّتين، فقال الملك: إنّ هذا الأمر عجيب، فما ترون؟ فإختلفوا، فقال بعضهم: أُبنوا عليهم بنياناً كما تبنى المقابر. وقال بعضهم: إتّخذوا مسجداً على باب الكهف. وهذا التنازع كان منهم بعد العلم بموتهم، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿فَقَالُوا﴾ أي: قال مشركو ذلك الوقت ﴿ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً﴾ أي: أُستروهم من الناس بأن تجعلوهم وراء ذلك البنيان، كما يقال: بنى عليه جداراً: إذا حوطه، وجعله وراء الجدار.

﴿رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ معناه: ربّهم أعلم بحالهم فيما تنازعوا فيه. وقيل: إنّه قال ذلك بعضهم، ومعناه: ربّهم أي: خالقهم الذي أنامهم وبعثهم، أعلم بحالهم، وكيفيّة

أمرهم. وقيل: معناه: ربّهم أعلم بهم أأحياء نيام هم، أم أموات. فقد قيل: إنّهم ماتوا. وقيل: إنّهم لا يموتون إلى يوم القيامة.

﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ﴾ يعني: الملك المؤمن وأصحابه. وقيل: أولياء أصحاب الكهف من المؤمنين. وقيل: رؤسا البلد الذين إستَولَوا على أمرهم، ـ عن الجبائي ـ.

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ أي: معبداً وموضعاً للعبادة والسجود، يتعبّد الناس فيه ببر[تبرّ]كاتهم[بهم]. ودلّ ذلك على أنّ الغلبة كانت للمؤمنين. وقيل: مسجداً يصلّي فيه أصحاب الكهف إذا إستيقظوا، ـ عن الحسن ـ. وقد روي أيضاً أنّ أصحاب الكهف، لمّا دخل صاحبهم إليهم، وأخبرهم بما كانوا عنه غافلين من مدّة مقامهم، سألوا الله تعالى أن يعيدهم إلى حالتهم الأولى، فأعادهم إليها، وحال بين من قصدهم وبين الوصول إليهم، بأن أضلّهم عن الطريق إلى الكهف الذي كانوا فيه، فلم يهتدوا إليه.

ثمّ بيّن سبحانه تنازعهم في عددهم، فقال: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ أي: سيقول قوم من المختلفين في عددهم ﴿ثَلاَثَةٌ﴾ أي: هم ثلاثة ﴿رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ﴾ أي: ويقول آخرون هم: ﴿خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ﴾ أي: قذفاً بالظنّ من غير يقين، ـ عن قتادة ـ.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ أي: ويقول آخرون هم: ﴿سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وقيل: إنّ هذا إخبار من الله تعالى بأنّه سيقع نزاع في عددهم، ثمّ وقع ذلك لمّا وفد نصارى نجران إلى النبيّ ﷺ، فجرى ذكر أصحاب الكهف، فقالت اليعقوبيّة منهم: كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم. وقالت النسطوريّة: كانوا خمسة سادسهم كلبهم. وقال المسلمون: كانوا سبعة وثامنهم كلبهم.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ من الناس، ـ عن

قتادة ـ. وقيل: قليل من أهل الكتاب، ـ عن عطا ـ. وقال ابن عباس: أنا من ذلك القليل، هم سبعة وثامنهم كلبهم[1]، والأظهر أن يكون عرف ذلك من جهة النبيّ ﷺ. وروى الضحّاك، عن ابن عباس، أنّه قال: هم مكسلمينا، وتمليخا، ومرطولس، ونينونس، وساريونس، ودربونس، وكشوطبو [طبنو]نس، وهو الراعي.

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ﴾ أي: فلا تجادل الخائضين في عددهم، وشأنهم ﴿إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً﴾ فيه وجوه:

أحدها: إنّ معناه: إلّا تجادلهم إلّا بما أظهرنا لك من أمرهم، ـ عن ابن عباس، وقتادة، ومجاهد ـ. أي: لا تجادل إلّا بحجّة، ودلالة، وإخبار من الله سبحانه، وهو المراء الظاهر.

وثانيها: إنّ المراد: لا تجادلهم إلّا جدَالاً ظاهراً، وهو أن تقول لهم أثبتم عدداً، وخالفكم غيركم، وكلا القولين يحتمل الصدق والكذب، فهلمّوا بحجّة تشهد لكم.

وثالثها: إنّ المراد: إلّا مراءً يشهده الناس ويحضرونه. فلو أخبرتهم في غير ملأ من الناس، لكذّبوا عليك، ولبّسوا على الضعفة، فإدّعوا أنّهم كانوا يعرفونه؛ لأنّ ذلك من غوامض علومهم.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ معناه: ولا تستخبر في أهل الكهف، وفي مقدار عددهم من أهل الكتاب أحداً، ولا تستفتهم من جهتهم، ـ عن ابن عباس،

---

(١) ذكرنا أنّ قصّة أصحاب الكهف لايعرفها اليهود، بل هي ممّا وقع في النصارى، فما نسب منها الى اليهود من سهو الرواة، وأمّا عددهم: فالمعروف بين النصارى أنّهم سبعة، وما نقل من ثلاثة أو خمسة، فكأنّه قول بعض الطوائف، منهم: إنقرضوا، أو لم يكن لساكني جزيرة العرب من النصارى، علم بتاريخهم ومذهبهم، وكذلك ما حكى الله تعالى عنهم من ٣٠٩ سنة مدّة نومهم؛ لأنّ بين ملك دقيانوس وقسطنطين أقل من مأة سنة.

ومجاهد، وقتادة ـ. والخطاب للنبيّ ﷺ والمراد غيره؛ لئلّا يرجعوا في ذلك إلى مساءلة اليهود، فإنّه كان واثقاً بخبر الله تعالى.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ قد ذكر في معناه وجوه:

أحدها: إنّه نهي من الله تعالى لنبيّه ﷺ أن يقول: إنّي أفعل شيئاً في الغد، إلّا أن يقيّد ذلك بمشيئة الله تعالى، فيقول: إن شاء الله، قال الأخفش: إضمار القول، وتقديره: إلّا أن تقول: إن شاء الله. ولمّا حذف، تقول: نقل إن شاء الله، إلى لفظ الإستقبال، فيكون هذا تأديباً من الله للعباد، وتعليماً لهم أن يعلّقوا ما يخبرون به بهذه اللفظة، حتى يخرج عن حدّ القطع، فلا يلزمهم كذب، أو حنث، إذا لم يفعلوا ذلك، لمانع. وهذا معنى قول ابن عباس.

وثانيها: إنّ قوله: ﴿أَنْ يَشَاءَ اللهُ﴾ بمعنى المصدر، وتعلّق بما تعلّق به على ظاهره، وتقديره: ولا تقولنّ إنّي فاعل شيئاً غداً إلّا مشية الله، ـ عن الفرّاء ـ. وهذا وجه حسن يطابق الظاهر، ولا يحتاج فيه إلى بناء الكلام على محذوف، ومعناه: ولا تقل: إنّي أفعل إلّا ما يشاء الله، ويريده. وإذا كان الله تعالى لا يشاء إلّا الطاعات، فكأنّه قال: لا تقل: إنّي أفعل إلّا الطاعات، ولا يطعن على هذا جواز الإخبار عمّا يفعل من المباحات التي لا يشاءها الله تعالى؛ لأنّ هذا النهي نهي تنزيه، لا نهي تحريم؛ بدلالة أنّه لو لم يقل ذلك، لم يأثم بلا خلاف.

وثالثها: إنّه نهى عن أن يقول الإنسان: سأفعل غداً، وهو يجوز الإخترام قبل أن يفعل ما أخبر به، فلا يوجد مخبره على ما أخبر به، فهو كذب، ولا يأمن أيضاً أن لا يوجد مخبره بحدوث شيء من فعل الله تعالى، نحو: المرض والعجز، وبأن يبدو له هو في ذلك، فلا يسمّ[يسلم] خبره من الكذب إلّا بالإستثناء الذي ذكره الله تعالى. فإذا قال: إنّي صائر غداً إلى المسجد إن شاء الله، أمن من أن يكون خبره

هذا كذباً؛ لأنّ الله تعالى إن شاء أن يلجئه إلى المصير إلى المسجد غداً[قد]، حصل المصير[المسير] إليه منه لا محالة، فلا يكون خبره هذا كذباً. وإن لم يوجد المصير منه إلى المسجد؛ لأنّه لم يوجد ما إستثناه في ذلك من مشيئة الله تعالى، ـ عن الجبائي ـ. وقد ذكرنا فيما قبل ما جاء في الرواية أنّ النبيّ ﷺ سئل عن قصة أصحاب الكهف، وذي القرنين، فقال: أخبركم عنه غداً، ولم يستثن، فإحتبس الوحي عنه أيّاماً، حتى شقّ عليه، فأنزل الله تعالى هذه الآية يأمره بالإستثناء بمشيئة الله تعالى.

وقوله: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: إنّه كلام متّصل بما قبله. ثمّ أختلف في ذلك فقيل: معناه: وأذكر ربّك إذا نسيت الإستثناء، ثمّ تذكرت، فقل: إن شاء الله. وإن كان بعد يوم، أو شهر، أو سنة، ـ عن ابن عباس ـ. وقد روي ذلك عن أئمّتنا عليهم السلام. ويمكن أن يكون الوجه فيه: أنّه إذا إستثنى بعد النسيان، فإنّه يحصل له ثواب المستثنى، من غير أن يؤثر الإستثناء بعد إنفصال الكلام في الكلام، وفي إبطال الحنث، وسقوط الكفارة في اليمين. وهو الأشبه بمراد ابن عباس في قوله. وقيل: فأُذكر الإستثناء ما لم تقم من المجلس، ـ عن الحسن، ومجاهد ـ. وقيل: فأذكر الإستثناء إذا تذكّرت ما لم ينقطع الكلام، وهو الأوجه. وقيل: معناه: وأذكر ربّك إذا نسيت الإستثناء بأن تندم على ما قطعت عليه من الخبر، ـ عن الأصم ـ.

والآخر: إنّه كلام مستأنف غير متعلّق بما قبله.

ثمّ أختلف في معناه، فقيل: معناه، وأُذكر ربّك إذا غضبت بالإستغفار؛ ليزول عنك الغضب، ـ عن عكرمة ـ. وقيل: إنّه أمر بالإنقطاع إلى الله تعالى، ومعناه: وأذكر ربّك إذا نسيت شيئاً بك إليه حاجة يذكره لك، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: المراد به: الصلاة، والمعنى: إذا نسيت صلاة فصلّها اذا ذكرتها، ـ عن الضحّاك ـ،

والسدّي ـ. قال السيّد الأجل المرتضى، قدس الله روحه: إعلم أنّ للإستثناء الداخل على الكلام وجوهاً مختلفة، فقد يدخل في الإيمان، والطلاق، والعتاق، وسائر العقود، وما يجري مجراها من الأخبار، فإذا دخل في ذلك إقتضى التوقّف عن إمضاء الكلام، والمنع من لزوم ما يلزم به، ولذلك يصير ما يتكلّم به، كأنّه لا حكم له. ولذلك يصحّ على هذا الوجه أن يستثني الإنسان في الماضي، فيقول: قد دخلت الدار إن شاء الله تعالى، ليخرج بهذا الإستثناء من أن يكون كلامه خبراً قاطعاً، أو يلزم به حكم. وإنّما لم يصحّ دخوله في المعاصي، على هذا الوجه؛ لأنّ فيه إظهار الإنقطاع إلى الله تعالى، والمعاصي لا يصحّ ذلك فيها. وهذا الوجه أحد ما يحتمله تأويل الآية.

وقد يدخل الإستثناء في الكلام، ويراد به اللطف، والتسهيل. وهذا الوجه يختصّ بالطاعات، ولهذا جرى قول القائل: لأَقضينّ غداً ما عليّ من الدين، أو لأُصلّينّ غداً إن شاء الله، مجرى أن يقول: إنّي فاعل إن لطف الله تعالى فيه وسهله. ومتى قصد الحالف هذا الوجه، لم يجب إذا لم يقع منه الفعل، أن يكون حانثاً، أو كاذباً؛ لأنّه إذا لم يقع، علمنا أنّه لم يلطف فيه؛ لأنّه لا لطف له.

وهذا الوجه لا يصحّ أن يقال في الآية؛ لأنّه يختصّ الطاعات، والآية تتناول كل ما لم يكن قبيحاً؛ بدلالة إجماع المسلمين على حسن إستثناء ما تضمّنه في كل فعل لم يكن قبيحاً. وقد يدخل الإستثناء في الكلام، ويراد به التسهيل، والإقدار، والتخلية، والبقاء على ما هو عليه، من الأحوال. وهذا هو المراد إذا دخل في المباحات، وهذا الوجه يمكن في الآية.

وقد يدخل في الكلام إستثناء المشيئة، وإن لم يرد به شيء من المتقدّم ذكره، بل يكون الغرض الإنقطاع إلى الله تعالى، من غير أن يقصد به إلى شيء من

هذه الوجوه. ويكون هذا الإستثناء غير معتدّ به في كونه كاذباً أو صادقاً؛ لأنّه في الحكم كأنّه قال: لأفعلنّ كذا إن وصلت إلى مرادي مع إنقطاعي إلى الله تعالى، وإظهاري الحاجة إليه.

وهذا الوجه أيضاً يمكن في الآية، ومتى تؤمّل جملة ما ذكرناه من الكلام، عرف به الجواب عن المسألة التي لا يزال يسأل عنها مَن يذهب إلى خلاف العدل، من قولهم: لو كان الله تعالى إنّما يريد الطاعات من الأفعال، دون المعاصي، لوجب إذا قال عليه الدين لغيره، وطالبه به: والله لأعطينّك حقّك غداً إن شاء الله أن يكون كاذباً، أو حانثاً، إذا لم يفعل؛ لأنّ الله تعالى قد شاء ذلك منه عندكم، وإن كان لم يقع، ولكان يجب أن تلزمه به الكفّارة، وأن لا يؤثر هذا الإستثناء في يمينه، ولا يخرجه من كونه حانثاً، كما أنّه لو قال: والله لأعطينّك حقّك غداً إن قام زيد، فقام ولم يعطه يكون حانثاً. وفي إلتزام الحنث خروج من الإجماع. إنتهى كلامه ﷺ.

وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً﴾ معناه: قل عسى ربّي أن يعطيني من الآيات والدلالات على النبوّة، ما يكون أقرب من الرشد، وأدلّ من قصّة أصحاب الكهف، ـ عن الزجّاج ـ. ثمّ إنّ الله سبحانه فعل به ذلك، حيث آتاه من علم غيوب أخبارالمرسلين وآثارهم، ما هو واضح في الدلالة، وأقرب إلى الرشد من خبر أصحاب الكهف. وقيل: إنّ معناه: أدع الله أن يذكرك إذا نسيت شيئاً، وقل: إن لم يذكرني الله ذلك الذي نسيت، فإنّه يذكرني ما هو أنفع لي منه، ـ عن الجبائي ـ.

وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا
﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ
أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ
فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ
رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير عاصم: ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ ـ مضافاً ـ. والباقون: بالتنوين. وقرأ: ﴿وَلَا تُشْرِكُ﴾ ـ بالتاء مجزوماً ـ ابن عامر، وروح، وزيد، عن يعقوب، وسهل. والباقون: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ ـ بالرفع، والياء ـ.

الحجة: قال أبو الحسن: يكون السنين لثلاثمائة. قال: ولا يحسن إضافة المائة إلى السنين؛ لأنّه لا تكاد العرب تقول: مائة سنين. قال: وهو جائز في ذا المعنى، وقد يقوله بعض العرب. قال أبو عليّ: وممّا يدلّ على صحّة قول من قال: ﴿ثلاثمائة سنين﴾: إنّ هذا الضرب من العدد الذي يضاف في اللغة المشهورة إلى الآحاد، نحو: ثلاثمائة رجل، وأربعمائة ثوب، قد جاء مضافاً إلى الجمع في قول الشاعر:

فَما زَوَّدُونِي غَيْرَ سَحْق عِمامَةٍ وَخَمْسِ مِيءٍ مِنها قَسِيٌّ وزائِفُ[1]

وذلك أنّ قوله: ميءٍ، لا يخلو من أن يكون في الأصل كأنّه فعلة، فجمع على فعلْ، مثل: سدْرة وسدر، أو يكون فَعلةَ، فجمع على فعول، مثل: بدرة وبدور، ومانة ومؤون[2]. قال: «عظيمات الكلاكل والمؤون». والأولى حمله على فعول، وأنّه

(١) درهم قسيّ: كصبيّ، ضرب من الزيوف. والسحق: البالى.
(٢) المانة: الخاصرة.

خفّف، كما يخفّف في القوافي، كقوله: «كنهور كان من أعقاب السمى»[١]. ثمّ كسر فاؤه، كما يكسر في نحو: حلى. وقال غيره: إنّ العرب قد تضع الجمع هنا موضع الواحد؛ لأنّ الأصل أن تكون الإضافة إلى الجمع. قال الشاعر:

ثَلاثَمائِينَ قَدْ مَضَيْنَ كَوامِلاً ... وَهٰا أَنَا ذا قَدْ أَبْتَغي مَرَّ رابِعِ[٢]

فجاء به على الأصل. ومن نوّن ﴿ثَلاثَ مِائَةٍ﴾: ففي نصب «سنين» قولان:

أحدهما: أن يكون «سنين» بدلاً من «ثلاثمائة»، أو عطف بيان.

والآخر: أن يكون تميزاً، كما تقول: عندي عشرة أرطال زيتاً، قال الربيع بن ضبيع الفزاري:

إِذا عاشَ الْفَتى مَائَتَيْنِ عاماً ... فَقَدْ ذَهَبَ اللَّذاذَةُ وَالْفَتاءُ

قال الزجّاج: ويجوز أن يكون ﴿سِنِينَ﴾ من نعت المائة، فيكون مجروراً، وهو راجع في المعنى إلى ثلاث، كما قال عنترة:

فِيهَا اثْنَتانِ وَأَرْبَعُونَ حَلُوبَةً ... سُوداً كَخافِيَةِ الْغُرابِ الأَسْحَمِ[١]

فجعل «سوداً» نعتاً لـ«حلوبة»، وهو في المعنى نعت لجملة العدد. قال أبو عليّ: لا يمتنع أن يكون الشاعر جعل «حلوبة» جمعاً، وجعل «سوداً» وصفاً لها، وإذا كان المراد به الجمع، فلا يمتنع أن يقع تفسيراً لهذا الضرب من العدد، من حيث كان على لفظ الآحاد، كما يقال: عشرون نفراً، وثلاثون قبيلاً. ومن قرأ: ولا تشرك ـ بالتاء ـ فإنّه على النهي عن الإشراك. والقراءة الأخرى أشيع وأولى؛ لتقدّم أسماء الغيبة، وهو قوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾، والمعنى: ولا يشرك الله في

---

(١) السمى: جمع سماء، بمعنى المطر، على فعول. والكنهور: السحابة العظيمة.

(٢) ويذكر في العرب مغمرون [معمرون] جاوزوا ثلاثمائة مثل: أكتم بن صيفي، وعبد المسيح بن نفيله.

[١] خافية الغراب: آخر ريش الجناح ممّا يلي الظهر. الحَلوبة: الناقة المحلوبة.

حكمه أحداً.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن مقدار مدة لبثهم، فقال: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ معناه: وأقام أصحاب الكهف من يوم دخلوا الكهف إلى أن بعثهم الله، وأطلع عليهم الخلق ثلاثمائة سنة ﴿وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ أي: تسع سنين، إلا أنه إستغنى بما تقدّم، عن إعادة ذكر[ه] تفسير التسع، كما يقال: عندي مائة درهم وخمسة.

﴿قُلْ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ معناه: إن حاجّك يا محمّد أهل الكتاب في ذلك، فقل: الله أعلم بما لبثوا. وذلك أنّ أهل نجران قالوا: أمّا الثلاثمائة فقد عرفناها، وأمّا التسع فلا علم لنا بها. وقيل: إنّ معناه: الله أعلم بما لبثوا إلى أن ماتوا. وحكي عن قتادة، أنّه قال: قوله: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية. حكاية [عن] قول اليهود، وقوّى ذلك بقوله: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ فذكر أنّه سبحانه العالم بمقدار لبثهم دون غيره. وقد ضعف هذا الوجه[1]: بأنّ أخبار الله لا ينبغي صرفها إلى الحكاية، إلّا بدليل قاطع، ولو كان الأمر على ما قاله، لم تكن مدّة لبثهم مذكورة. ومن المعلوم أنّ الله سبحانه أراد بالآية الإستدلال على عجيب قدرته، وباهر آيته، وذلك لا يتمّ إلّا بعد معرفة مدّة لبثهم. فالمراد بقوله: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ بعد بيان مدّة لبثهم، إبطال قول أهل الكتاب وإختلافهم في مدّة لبثهم، فتقديره: قل يا محمد: الله أعلم بمدّة لبثهم. وقد أخبر بها فخذوا بما أخبر الله تعالى، ودعوا قول أهل الكتاب، فهو أعلم بذلك منهم.

﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ والغيب: أن يكون الشيء بحيث لا يقع

---

(١) ومع ذلك فقول قتادة قويّ، إلّا في نسبة الحكاية إلى اليهود، فإنّ قصّة أصحاب الكهف في النصارى، ولا تعرفها اليهود.

عليه الإدراك، أي: لا يغيب عن الله سبحانه شيء؛ لأنّه لا يكون بحيث لا يدركه، فيعلم ما غاب في السماوات والأرض، عن إدراك العباد.

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ هذا لفظ التعجّب، ومعناه: ما أبصره وأسمعه أي: ما أبصر الله تعالى لكل مبصر، وما أسمعه لكل مسموع، فلا يخفى عليه من ذلك، وإنّما أخرجه مخرج التعجّب، على وجه التعظيم. وروي أنّ يهوديّاً سأل عليّ بن أبي طالب عليه السلام عن مدّة لبثهم، فأخبر بما في القرآن، فقال: إنّا نجد [نحد] في كتابنا ثلاثمائة. فقال عليه السلام: ذاك بسني الشمس، وهذا بسني القمر.

وقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ أي: ليس لأهل السماوات والأرض من دون الله من ناصر يتولّى نصرتهم ﴿وَلَا يُشْرِكُ﴾ الله ﴿فِي حُكْمِهِ أَحَداً﴾ فلا يجوز أن يحكم حاكم بغير ما حكم الله تعالى به. وقيل: معناه: إنّه لا يشرك الله في حكمه بما يخبر به من الغيب أحداً. وعلى القراءة الأخرى، معناه: ولا تشرك أنت أيّها الإنسان في حكمه أحداً.

ثم قال سبحانه لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ أي: وإقرأ عليهم ما أوحى الله إليك من أخبار أصحاب الكهف وغيرهم، فإنّ الحقّ فيه. وقيل: معناه: إتّبع القرآن وإعمل به ﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ أي: لا مغيّر لما أخبر الله به فيه، وما أمر به. وعلى هذا فيكون التقدير: لا مبدّل لحكم كلماته.

﴿وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَداً﴾ معناه: إن لم تتبّع القرآن، فلن تجد من دون الله ملجأ، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: حرزاً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: موئلاً، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معدلاً ومحيصاً، ـ عن الزجّاج، وأبي مسلم ـ. والأقوال متقاربة في المعنى. يقال: لحد إلى كذا، أو إلتحد: إذا مال إليه.

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ
يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ
ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ
أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن
شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ
وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ
ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

القراءة: قرأ ابن عامر وحده: ﴿بِالْغُدْوَةِ﴾. والباقون: بالغَداة. وفي الشواذّ قراءة الحسن: ولا تعد عينيك. وقراءة عمرو بن فائد: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾[1].

الحجة: قال أبو عليّ: أمّا غدوة: فهو إسم موضوع للتعريف، وإذا كان كذلك، فلا ينبغي أن تدخل عليه الألف واللام، كما لا تدخل على سائر الأعلام، وإن كانت قد كتبت في المصحف بالواو ولم يدلّ على ذلك، كما أنّهم كتبوا «الصلاة» بالواو، وهي ألف. وحجّة من أدخل لام المعرفة عليها: أنّه قد يجوز وإن كانت معرفة، أن تتنكّر، كما حكاه أبو زيد من أنّهم يقولون: لقيته فينة والفينة بعد الفينة. ففينة مثل غدوة في التعريف؛ بدلالة إمتناع الإنصراف. وقد دخلت عليه لام التعريف، وذلك أن يقدر من أمة كلها له مثل هذا الإسم، فيدخل التنكير لذلك.

ويقوّي هذا تثنية الأعلام، وجمعها، وقوله: «لا هيثم الليلة للمطي»، وقولهم:

---

(١) قرائة ابن عامر بضمّ الغين وسكون الدال وفتح الواو بغير الف، والمكتوب في المصاحف بالواو كالصلاة. وقرائة الحسن «تعدّ» بضمّ التاء وفتح العين وكسر الدال. «وعينيك» منصوباً.

أما النضرة [البصرة] فلا نضرة [بصرة] لك، فأجرى مجرى ما يكون شائعاً في الجنس[١]، وكذلك الغدوة. وأمّا قوله: ﴿وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ﴾: فإنّه منقول من: عدت عيناك إذا جاوزتا، وهو من قولهم: جاء القوم عدا زيداً، أي: جاوز بعضهم زيداً، ثمّ نقل إلى: أعديت عيني عن كذا أي: صرفتها عنه. قال الشاعر:

حَتّى لَحِقْنَابِهِمْ تُعْدِي فَوارِسُنا ... كَأَنَّنا رَعْنُ قَفٍّ يَرْفَعُ الآلا[٢]

أي: تعدى فوارسنا خيلهم عن كذا، فحذف المفعول بعد المفعول، أو تعديها، من عدا الفرس أي: جرى. وعلى أنّ أصلها واحد؛ لأنّ الفرس إذا عدا فقد جاوز مكاناً إلى غيره. و أمّا من قرأ: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ فمعناه: ولا تطع من ظننّا غافلين عنه، وهو من قولهم: أغفلت الرجل أي: وجدته غافلاً. قال الأعشى:

أَثْوىٰ، وَقَصَّرَ لَيْلَةً لِيُزَوِّدا ... وَمَضىٰ وَأَخلَفَ مِنْ قُتَيْلَةَ مَوْعِداً[١]

أي: صادفه مخلفاً.

اللغة: الفرط: التجاوز للحقّ، والخروج عنه، من قولهم: أفرط إفراطاً: إذا أسرف. والسرادق: الفسطاط المحيط بما فيه. ويقال: السرادق: ثوب يدار حول الفسطاط. قال رؤبة:

يا حَكَمَ بْنَ الْمُنْذِرِ بْنِ الْجارُودِ ... سُرادِقُ الْمَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُودٌ

والمهل: خثارة الزيت. وقيل: هو النحاس الذائب. والمرتفق: المتّكأ من المرفق. يقال: إرتفق إذا إتّكأ على مرفقه. قال أبو ذؤيب:

بَاتَ الْخَلِيُّ، وَبِتُّ اللَّيْلَ مُرْتَفِقاً ... كَأَنَّ عَيْنِيَ فِيهَا الصّابُ مَذْبُوحُ[٣]

---

(١) وأراد «بهيتم والبصرة» صفتهما، لاعينهما، وهما إسم رجل وبلد.

(٢) فيرفع «الآل» مقلوب معنى أي: يرفعه الآل. والآل: الذي تراه أوّل النهار وآخره، كأنّه يرفع الشخوص، وألقف ما إرتفع من متن الأرض.

(٣) الخليّ: الفارغ. والصاب: عصارة شجرة مرّ. ومذبوح: أي مشقوق.

[١] قُتَيْلَة: اسم معشوقته. أثوىٰ بالمكان وثوىٰ: أقامَ.

ويقال إنه مأخوذ من الرفق والمنفعة.

النزول: نزلت الآية الأولى في سلمان، وأبي ذرّ، وصهيب، وعمّار، وخباب، وغيرهم من فقراء أصحاب النبيّ ﷺ، وذلك أنّ المؤلّفة قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، وهم: عيينة بن الحصين، والأقرع بن حابس، وذووهم، فقالوا: يا رسول الله! إن جلست في صدر المجلس، ونحيت عنّا هؤلاء روائح صنانهم، وكانت عليهم جبّات [جباب] الصوف، جلسنا نحن إليك، وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلّا هؤلاء! فلمّا نزلت الآية قام النبيّ ﷺ يلتمسهم، فأصابهم في مؤخّر المسجد، يذكرون الله، عزّوجلّ، فقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمّتي، معكم المحيا، ومعكم الممات!

المعنى: ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه ﷺ بالصبر مع المؤمنين، فقال: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ يا محمّد أي: إحبس نفسك ﴿مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾ أي: يداومون على الصلاة والدعاء عند الصباح والمساء، لا شغل لهم غيره، ويستفتحون يومهم بالدعاء، ويختمونه بالدعاء ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ أي: رضوانه. وقيل: يريدون تعظيمه والقربة إليه، دون الرياء، والسمعة.

﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾ أي: ولا تتجاوز عيناك عنهم، بالنظر إلى غيرهم من أبناء الدنيا. ﴿تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تريد: في موضع الحال أي: مريداً مجالسة أهل الشرف والغنى. وكان النبيّ ﷺ حريصاً على إيمان العظماء من المشركين، طمعاً في إيمان أتباعهم، ولم يمل إلى الدنيا وزينتها قطّ، ولا إلى أهلها، وإنّما كان يلين في بعض الأحايين للرؤساء؛ طمعاً في إيمانهم، فعوتب بهذه الآية، وأمر بالإقبال على فقراء المؤمنين، وأن لا يرفع بصره عنهم، مريداً مجالسة الأشراف.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ قيل: في معناه أقوال:

أحدها: إنّ معناه: ولا تطع من جعلنا قلبه غافلاً عن ذكرنا بتعريضه للغفلة، ولهذا قال: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾. ومثله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ﴾.

وثانيها: أغفلنا قلبه أي: نسبنا قلبه إلى الغفلة، كما يقال: أكفره، إذا نسبه إلى الكفر، وسمّاه كافراً، كقول الكميت:

وَطَائِفَةٌ قَدْ أَكْفَرُونِي بِحُبِّكُمْ ... وَطَائِفَةٌ قَالُوا مُسِيءٌ وَمُذْنِبُ

وثالثها: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾: صادفناه غافلاً عن ذكرنا، كما قالت العرب سألناكم فما أقحمناكم [أفحمناكم]، وقاتلناكم فما أجْبَنّاكم.

ورابعها: أغفلنا قلبه أي: جعلناه غفلاً لم نسمه بسمة قلوب المؤمنين، ولم نعلم فيه علامة المؤمنين لتعرفه الملائكة بتلك السمة. تقول العرب: أغفل فلان ماشيته: إذا لم يسمها بسمة تعرف.

وخامسها: إنّ معناه: ولا تطع من تركنا قلبه خذلناه، وخلّينا بينه وبين الشيطان بتركه أمرنا، ـ عن الحسن ـ.

﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ أي: لا تطع من إتّبع هواه في شهواته وأفعاله ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ أي: سرفاً وإفراطاً، ـ عن مقاتل، والجبائي ـ. وقيل: تجاوزاً للحدّ، ـ عن الأخفش ـ. وقيل: ضياعاً وهلاكاً، ـ عن مجاهد، والسدّي ـ. قال الزجّاج: ومن قدم العجز في أمره، أضاعه وأهلكه. فيكون المعنى في هذا أنّه ترك الإيمان والإستدلال بآيات الله، وإتّبع الهوى.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَقُلْ﴾ يا محمّد لهؤلاء الذين أمروك بتنحية الفقراء ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ أي: هذا الحقّ من ربّكم يعني: القرآن. وقيل: معناه: الذي أتيتكم به الحقّ، ـ عن الزجّاج ـ. من ربّكم: يعني لم آتكم به من قبل نفسي، وإنّما أتيتكم به من قبل الله. وقيل: معناه: ظهرت الحجّة، ووضح الحقّ من ربّكم، وزالت الشبهة.

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ هذا وعيد من الله سبحانه وإنذار، ولذلك عقّبه بقوله: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ وإنّما جاز التهديد بلفظ الأمر؛ لأنّ المهدّد كالمأمور بإهانة نفسه، ومعناه: فليختر كل لنفسه ما شاء، فإنّهم لا ينفعون الله تعالى بإيمانهم، ولا يضرّونه بكفرهم، وإنّما يرجع النفع والضرّ إليهم.

﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا﴾ أي: هيّأنا وأعددنا ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ أي: الكافرين الذين ظلموا أنفسهم بعبادة غير الله تعالى ﴿نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ والسرادق: حائط من نار يحيط بهم ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو دخان النار ولهبها، يصل إليهم قبل وصولهم إليها، وهو الذي في قوله: ﴿إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثَ شُعَبٍ﴾، ـ عن قتادة ـ. وقيل: أراد أنّ النار أحاطت بهم من جميع جوانبهم، فشبّه ذلك بالسرادق، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا﴾ من شدّة العطش، وحرّ النار ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ﴾ وهو كل شيء أذيب كالرصاص، والنحاس، والصفر، ـ عن ابن مسعود ـ. وقيل: كعكر الزيت إذا قرب إليه، سقطت فروة رأسه، روى ذلك مرفوعاً. وقيل: كدردي الزيت، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو القيح والدم، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هو الذي إنتهى حرّه، ـ عن سعيد إبن جبير ـ. وقيل: إنّه ماء أسود، وإنّ جهنّم سوداء، وماؤها أسود، وشجرها أسود، وأهلها سود، ـ عن الضحّاك ـ.

﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ أي: ينضجها عند دنوّه منها، ويحرقها، وإنّما جعل سبحانه ذلك إغاثة لإقترانه بذكر الإغاثة ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ﴾ ذلك المهل ﴿وَسَاءَتْ﴾ النار ﴿مُرْتَفَقاً﴾ أي: متّكئاً لهم. قيل: ساءت مجتمعاً مأخوذ من المرافقة: وهي الإجتماع، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: منزلاً ومستقرّاً، ـ عن ابن عباس، وعطاء ـ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

(اللغة): العدن: الإقامة. يقال: عدن بالمكان يعدن عدناً. والأساور: جمع أسوار، على حذف الزيادة؛ لأنّ الأصل أساوير، ـ عن قطرب، وأبي عبيدة ـ. وقيل: جمع أسورة. وأسورة: جمع سوار، عن الزجّاج. وهو سوار اليد ـ بالكسر ـ. وقد حكي سوار بالضمّ. والسندس: ما رقّ من الديباج، واحده: سندسة. والإستبرق: الغليظ من الديباج. وقيل: هو الحرير. قال المرقش:

تَراهُنَّ يَلْبِسْنَ الْمَشاعِرَ مَرَّةً وَإِسْتَبْرَقَ الدِّيباجِ طَوْراً لِباسُها(٢)

والأرائك: جمع أريكة، وهي السرير. قال:

خُدُودٌ جَفَتْ فِي السَّيْرِ حَتّى كَأَنَّما
يُباشِرْنَ بِالْمَعْزاءِ مَسَّ الأَرائِكِ(٣)

قال الزجّاج: الأرائك: الفرش في الحجال. قال الأعشى:

بَيْنَ الرِواقِ، وَجانِبٍ مِنْ سِتْرِها مِنْها، وَبَيْنَ أَرِيكَةِ الأَنْضادِ(٤)

---

(١) متّكئين: وقف حمزة بين بين. والإبدال ياء ضعيف.

(٢) الشعار: مايلبس ملاصقاً للبدن، وهو رقيق. ولعلّ «المشاعر» جمع غير معروف.

(٣) جفت: أي خشنت وصلبت. والمَعزاء: الأرض ذات الحجارة الخشنة، يعني: لاتفرق الخدود الخشنة أن تنام على الحجارة الخشنة، أو الأرائك اللينة.

(٤) الأنضاد: جمع نضد، مايجعل على الآخر من الرخوت والأرائك وغيرها. والرواق: معروف في الخيام والبيوت.

﴿الإعراب﴾: قيل في خبر ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أقوال:

أحدها: إنّه قوله: ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾. وعلى هذا فيكون في الخبر محذوف، كأنه لا نضيع أجر من أحسن عملاً منهم، والثاني: أن يكون الخبر ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ ويكون ﴿إِنَّا لاَ نُضِيعُ﴾... إلخ إعتراضاً بين الإسم والخبر. والثالث: إنّ المعنى: إنّا لا نضيع أجرهم؛ لأنّ من أحسن عملاً في المعنى، هم الذين آمنوا.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم الوعيد، عقّبه سبحانه بذكر الوعد، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ من الطاعات ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ أي: لا نترك أعمالهم تذهب ضياعاً، بل نجازيهم ونوفّيهم أجورهم من غير بخس.

﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ أي، إقامة لهم؛ لأنّهم يبقون فيها ببقاء الله دائماً أبداً. وقيل: عدن: بطنان الجنّة أي: وسطها وهي جنّة من الجنان، ـ عن ابن مسعود ـ. وعلى هذا فإنّما جمع لسعتها، ولأنّ كل ناحية منها تصلح أن تكون جنّة.

﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ﴾ لأنّهم على غرف في الجنّة، كما قال: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾. وقيل: إنّ أنهار الجنّة تجري في أخاديد من الأرض، فلذلك قال: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ﴾.

﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي: يجعل لهم فيها حليّ من أساور. وقيل: إنّه يحلّى كل واحد بثلاثة أساور: سوار من فضّة، وسوار من ذهب، وسوار من لؤلؤ وياقوت، ـ عن سعيد بن جبير ـ. ﴿وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ من الديباج الرقيق والغليظ. وقيل: إنّ الإستبرق فارسيّ معرّب، أصله: إستبره. قيل: هو الديباج المنسوج بالذهب.

﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ أي: متنعّمين في تلك الجنّات على السرر في

الحجال، وإنّما قال: ﴿متكئين﴾ لأنّ الإتّكاء يفيد أنّهم منعمون في الأمن والراحة، فإنّ الإنسان لا يتّكىء إلّا في حال الأمن والسلامة.

﴿نِعْمَ الثَّوَابُ﴾ أي: طاب ثوابهم، وعظم، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الأرائك ﴿مُرْتَفَقاً﴾ أي: موضع إرتفاق. وقيل: منزلاً، ومجلساً، ومجتمعاً.

﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر، وعاصم، ويعقوب، وسهل: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ في الموضعين بالفتح. ووافق رويس في الأوّل. وقرأ أبو عمرو: بضمّ الثاء وسكون الميم في الموضعين. والباقون: بضمّ الثاء والميم في الحرفين. وقرأ أهل الحجاز، وابن عامر: ﴿خَيْراً مِنْهُمَا﴾ ـ بزيادة ميم ـ. وكذلك هو في مصاحفهم. وقرأ أهل العراق: ﴿مِنْهَا﴾ بغير ميم.

---

(١) إختلف أصحاب الإمالة في إمالة «كلتا» فمن أمالها فتاول الألف على أنّها للتأنيث. ووزن «كلتا» «فعلى» وأنّ التاء منقلبة عن الواو. والأصل: كلوى. ومن لم يمل، فلأنّها ألف التثنية، وأسكن الكاف من «أكلها» الحرميان وأبو عمرو.

الحجة: قال أبو عليّ: الثمرة ما يجتنى من ذي الثمر. وجمعها: ثمرات، ويجمع على «ثمر»، كبقرة وبقر، وعلى «ثمار»، كرقبة ورقاب. وعلى هذا تشبيه المخلوقات بغير المخلوقات، وقد يشبه كل واحد منهما بالآخر. ويجوز في القياس أن يكسر ثمار على ثمر، ككتاب وكتب، وقراءة أبي عمرو: ﴿وَكَانَ لَهُ ثُمر﴾: يجوز أن يكون جمع ثمار، كما يخفّف كتب. ويجوز أن يكون «ثُمر» جمع «ثمرة» كبدنة وبدن، وخشبة وخشُبُ. ويجوز أن يكون ثمر واحدة، كعنق وطنب. فعلى أيّ هذه الوجوه كان جاز إسكان العين منه، كذلك في قوله: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾.

وقال بعض أهل اللغة: الثُمر: المال. والثَمر: المأكول. وجاء في التفسير قريب من هذا، قالوا: الثمر: النخل والشجر، ولم يرد به الثمرة [والثمر] على ماروي عن عدّة من السلف، بل الأصول التي تحمل الثمرة، لا نفس الثمر. بدلالة قوله: ﴿فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا﴾ أي: في الجنّة. والنفقة: إنّما تكون على ذوات الثمرة في أغلب العرف، وكانت الآفة التي أرسلت إليها، إصطلمت الأصول واجتاحتها، كماجاء في صفة الجنّة الأخرى ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ أي: كالليل في سوادها لإحتراقها، وكالنهار في بياضها، وما بطل من خضرتها بالآفة النازلة بها.

وحكي عن أبي عمرو: ثُمْر. والثُمْر: أنواع المال، فإذا إصطلم الثُمر فأُجتيح، دخلت الثمرة فيه، ولا يمكن أن يصاب الأصل، ولا تصاب الثمرة. وإذا كان كذلك، فمن قرأ بثمره وثمره [ثمرٌ]، كان قوله أبين ممّن قرأ بالفتح. ويجوز القراءة بالفتح، كأنّه أخبر عن بعض ما أصيب، وأمسك عن بعض. وقوله: ﴿خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً﴾: فالإفراد لأنّه أقرب إلى الجنّة المفردة في قوله: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ﴾. والتثنية لتقدّم ذكر الجنتين.

اللغة: حفّ القوم بالشيء: إذا أطافوا به. وحفافاً الشيء: جانباه، كأنّهما

أطافا به. قال طرفة:

كَـأَنَّ جَـنَاحَيْ مَـضْرَحِيّ تَكَـنَّفَا حِفَافَيْهِ شُكَّا فِي العَسِيبِ بِمِسْرَدِ[1]

والمحاورة: مراجعة الكلام في المخاطبة. ويقال: كلمت فلاناً فما رجع إليّ حواراً، ومحورة، وحويراً.

الإعراب: إنّما قال: ﴿ءَاتَتْ﴾ على لفظ «كِلْتَا»، فإنّه بمنزلة «كل» في أنّه مفرد اللفظ. ولو قال: أتتا على المعنى لجاز. قال الشاعر في التوحيد:

وَكِلْتاهُما قَدْ خُطَّ لِـي فِـي صَـحِيفَتي فَلَا العَيْشَ أهْوَاهُ، وَلاَ الْمَوْتَ أَرْوِحُ[2]

المعنى: ثمّ ضرب الله لعباده مثلاً يستفيئهم به إلى طاعته، ويزجرهم عن معصيته، وكفران نعمته، فقال مخاطباً لنبيّه ﷺ: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَـثَلاً رَجُـلَيْنِ﴾ روي عن ابن عباس، أنّه قال: يريد ابني ملك كان في بني إسرائيل، توفي وترك إبنين، وترك مالاً جزيلاً، فأخذ أحدهما حقّه منه، وهو المؤمن منهما، فتقرّب إلى الله تعالى، وأخذ الآخر حقّه فتملك به ضياعاً، منها هاتان الجنّتان. وفي تـفسير عليّ بن إبراهيم بن هاشم: إنّه يريد رجلاً كان له بستانان كبيران، كثيرا الثمار، كما حكى سبحانه، وكان له جار فقير، فإفتخر الغني على الفقير، وقال له: أنا أكثر منك مالاً، وأعزّ نفراً. وهذا أليق بالظاهر.

﴿جَعَلْنَا لِاَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ﴾ أي: بستانين أجنّهما الأشـجار ﴿مِـنْ أَعْـنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ﴾ أي: جعلنا النخل مطيفاً بـهما ﴿وَجَـعَلْنَا بَـيْنَهُمَا زَرْعاً﴾ أي: وجعلنا بين البستانين مزرعة، فكملت النعمة بالعنب، والتمر، والزرع.

﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا﴾ أي: كل واحدة من البسـتانين آتت غـلّتها، وأخرجت ثمرتها، وسمّاه أكلاً؛ لأنّه مأكول ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ أي: لم تنقص

---

(١) المضرحي: النسر الأبيض. والحفاف: الجـانب. والشكّ: الغـرز. والعسـيب: عـظم الذنب. والمسرد: الإبرة وما يخاط به، شبّه شعر ذنب ناقَتِه بجناحي نسر أبيض.

(٢) اراح واروح على الأصل وجد ريحه.

منه شيئاً، بل أدّته على التمام والكمال. كما قال الشاعر:

ايَظْلِمُنِي مٰالِي كَذٰا، وَلَوَىٰ يَـدِي لَوىٰ يَدَهُ اللَّهُ الَّذي هُوَ غٰـالِبُهُ[١]

أي: ينقصني مالي.

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَراً﴾ أي: شققنا وسط الجنّتين نـهراً يسـقيهما، حـتى يكون الماء قريباً منهما، يصل إليهما من غير كدّ وتعب، ويكون ثمرهما وزرعهما بدوام الماء فيهما، أوفى، وأروى.

﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ﴾ قيل: إنّ معناه: وكان للنخل الذي فيهما ثمر. وقيل: معناه: وكان للرجل ثمر ملكه من غير جنّتيه، كما يملك الناس ثماراً لا يملكون أصلها، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: كان لهذا الرجل مع هذين البستانين الذهب والفضّة، ـ عن مجاهد ـ وقيل: كان له معهما جميع الأموال، ـ عن قتادة، وابن عباس في رواية أخرى ـ.

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: فقال الكافر لصـاحبه المـؤمن، وهـو يخاطبه ويراجعه في الكلام ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً﴾ أي: أعـزّ عشـيرة ورهطاً. وسمّي العشيرة نفراً؛ لأنّهم ينفرون معه في حوائجه. وقـيل: مـعناه: أعـزّ خدماً وولداً، ـ عن قتادة، ومقاتل ـ.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ أي: ودخل الكافر بستانه وهو ظالم لنفسه بكفره وعصيانه.

﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً﴾ أي: ما أقدر أن تفنى هذه الجنّة، وهـذه الثمار أبداً. وقيل: يريد ما أظنّ هذه الدنيا تفنى أبداً ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ أي: وما أحسب القيامة آتية كائنة على ما يقوله الموحّدون ﴿وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنقَلَباً﴾ معناه: ولئن كانت القيامة والبعث حقّاً، كما يقوله الموحّدون، لأجدنّ خيراً من هذه الجنّة. قال الزجّاج: وهذا يدلّ على أنّ صاحبه

---

[١] قائله: فرعان بن أعرف التميمي، وكان له ابن عاق يقال له منازل، وفيه يقول البيت.

المؤمن قد أعلمه أنّ الساعة تقوم، وأنّه يبعث، فأجابه بأن قال له: ولئن رددت إلى ربّي أي: كما أعطاني هذه في الدنيا، سيعطيني في الآخرة أفضل منها؛ لكرامتي عليه. ظنّ الجاهل أنّه أوتي [ما أوتى] لكرامته على الله تعالى. وقيل: معناه: لأكتسبنّ في الآخرة خيراً من هذه التي إكتبستها في الدنيا. ومن قرأ: ﴿مِنْهُمَا﴾ ردّ الكناية إلى الجنّتين اللتين تقدّم ذكرهما. وفي هذا دلالة على أنّه لم يكن قاطعاً على نفي المعاد، بل كان شاكّاً فيه.

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى
خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠
هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠
أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا
زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ
عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ
فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ
لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

القراءة: قرأ ابن عامر، وابن فليح، والبرجمي، ويعقوب: ﴿لَكِنَّا﴾ بإثبات

الألف في الوصل والوقف. وقرأ الباقون: ﴿لَٰكِنَّ﴾ بحذف الألف في الوصل. وقرأ البخاري[١] لورش بالوجهين بالوصل. ولا خلاف في إثبات الألف في الوقف إلّا قتيبة، فإنّه قرأ بغير ألف في الوصل والوقف. وفي الشواذّ، قراءة أبـيّ بـن كـعب، والحسن: لكن أنا. وقرائة عيسى الثقفي: ﴿لَكِنَّ هُوَ اللهُ رَبِّي﴾.

وقرأ البرجمي، عن أبي بكر: ﴿غَوْراً﴾ ـ بضمّ الغين هيهنا، وفي الملك. وقرأ: ولم يكن له فئة ـ بالياء ـ أهل الكوفة، غير عاصم. والباقون: ﴿وَلَمْ تَكُنْ﴾ ـ بالتاء ـ. وقرأ أبو عمرو: ﴿الْوَلاَيَةُ﴾ ـ بفتح الواو ـ و﴿لِلّهِ الْحَقُّ﴾ ـ بالرفع ـ. وقرأ الكسائي: ﴿الْوِلاَيَةُ﴾ ـ بكسر الواو، و ﴿الْحَقُّ﴾ ـ بالرفع ـ. وقرأ حمزة وخلف: ﴿الْوِلاَيَةُ﴾ ـ بكسر الواو ـ، و ﴿الْحَقِّ﴾ ـ بالجرّ ـ. وقرأ الباقون: ﴿الْوَلاَيَةُ﴾ ـ بفتح الواو ـ و﴿الْحَقِّ﴾ ـ بالجرّ ـ[٢]. وقرأ عاصم، وحمزة، وخلف: ﴿عُقْباً﴾ ـ ساكنة القاف ـ. والباقون: بضمّ القاف.

الحجّة: قال الزجّاج: من قرأ: ﴿ولكنّ﴾ ـ بتشديد النون ـ فهو «لكن أنا» في الأصل، فطرحت الهمزة على النون، فتحرّكت بالفتح، فصارت لكننا ـ بنونين مفتوحين ـ، فإجتمع الحرفان من جنس واحد، فأدغمت النون الأولى في الثانية، وحذفت الألف في الوصل؛ لأنّ ألف «أنا» تثبت في الوقف، وتحذف في الوصل في أجود اللغات، نحو: أن قمت ـ بغير الألف ـ، ويجوز: أنا قمت ـ بإثبات الألف ـ. وهو ضعيف جدّاً. ومن قرأ: ﴿لَكِنَّا﴾ ـ فأثبت الألف في الوصل، فإنّه على لغة من قال: أنا قمت، فأثبت الألف. قال الشاعر:

---

(١) ولعلّه مصحف النخاس.

(٢) فتح الياء من «بربى أحداً» و«ربّى أنا» الحرميان وأبو عمرو. وأدغم «اذ دخلت» أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام. وأثبت الياء من «إن ترن أنا» وصلاً قالون وأبو عمرو. وفي الحالين ابن كثير ومن «أن يؤتين» وصلاً نافع وأبو عمر وفي الحالين ابن كثير.

أنـــا شَـــيْخُ العَشِـــيرَةِ فَـــاعْرِفُونِي حَمِيداً قَدْ تَذَرَّيْتُ[تَدَرَّيتُ] السَّنَاما[١]

إلّا أنّ إثبات الألف في ﴿لَكِنَّا﴾ هو الجيّد؛ لأنّ الهمزة قد حذفت من «أنا»، فصار إثبات الألف عوضاً من الهمزة. قال أبو عليّ: لا أرى قوله: «إنّ أثبات الألف هو الجيّد»؛ لأنّه صار عوضاً من الهمزة، كما قال، لأنّ هذه الألف تلحق للوقف، مثل الهاء في ﴿ماهيه﴾، و ﴿حسابيه﴾ والهاء في مثل هذا الطرف، مثل ألف الوصل في ذلك الطرف. فكما أنّ إثبات همزة الوصل في الوصل خطأ، كذلك الهاء والألف في الوصل خطأ، فلا يلزم أن يثبت عوض من الهمزة المحذوفة. ألا ترى أنّ الهمزة في «ويلمّه» قد حذفت حذفاً، على غير ما يوجبه قياس التخفيف، ولا يعوّض منها، فأنْ لا يعوض منها في التخفيف القياسي أجدر؛ لأنّ الهمزة هنا في تقدير الثبات، ولولا ذلك لم يحرّك حرف اللين في نحو: جَيَل في جيأل[١]، ومؤنة في مؤنة. قال: وقد تجيء هذه الألف مثبتة في الشعر، نحو قول الأعشى:

فَكَيْفَ أَنَا، وَانْتِحالِي القَوافِيَ بَعْدَ الْمَشِيبِ كَفَى ذاكَ عاراً

وقول الآخر: أنا شيخ العشيرة، البيت. ولا يكون ذلك مختاراً في القراءة. ومن قرأ: لكنّا ـ في الوصل ـ، فإنّه يحتمل أمرين:

أحدهما: أن يجعل الضمير المتّصل مثل المنفصل الذي هو «نحن»، فيدغم النون من «لكن» لسكونها في النون من علامة الضمير، فيكون على هذا ﴿لَكِنَّا﴾ ـ بإثبات الألف وصلاً ووقفاً ـ لا غير. ألا ترى أنّ أحداً لا يحذف الألف من نحو: فعلنا. وقوله: ﴿هُوَ﴾ من ﴿هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ ضمير الحديث والقصّة، كما أنّه في قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ﴾ وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ كذلك. والتقدير: الأمر الله أحد؛

---

(١) جيأل: هو الضيع [الضبع]، فإذا نقل فتحة الهمزة الى الياء، وأسقطت الهمزة قيل: جيل. وأمّا مؤنة: فقالوا: يهمز ولايهمز فاذا لم يهمز، تحرّكت الواو؛ لأنّها بمنزلة الهمزة.

[١] سنام كل شيء: أعلاه. وتذريت السنام أي علوته وفرعته.

لأنّ هذا الضمير يدخل على المبتدأ والخبر، فيصير المبتدأ والخبر موضع خبره، كما أنّه في «أنّ، وكأنّ، وظننت، وما يدخل على المبتدأ والخبر» كذلك. وعاد الضمير على الضمير الذي دخلت عليه ﴿لكن﴾ على المعنى. ولو عاد على اللفظ لكان «لكنّا هو الله ربّنا» ودخلت «لكن» مخفّفة على الضمير، كما دخلت «ان» في قوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ﴾.

والوجه الآخر: إنّ سيبويه حكى أنّه سمع من يقول: أعطني ابيضَّهُ، فشدّد، وألحق الهاء بالتشديد للوقف. والهاء مثل الألف في سبسبّا، والياء في عيهلّى. وأجرى الهاء مجراهما في الإطلاق، كما كانت مثلهما في نحو قوله:

صَفِيَّةُ قُومِي، وَلاَ تَجْزَعِي وَبَكِّي النِّسَاءَ عَلَىٰ حَمْزَةِ

فهذا الذي حكاه سيبويه في الكلام، وليس في شعر، وكذلك الآية يكون الألف فيها كالهاء، ولا يكون الهاء للوقف. ألاترى أنّ الهاء للوقف لا يبين بها المعرب، ولا ما ضارع المعرب.

فعلى أحد هذين الوجهين، يكون قول من أثبت الألف في الوصل، أو عليهما جميعاً. ولو كانت فاصلة، لكانت مثل: فأضلّونا السبيلا. وأمّا قرائة أبيّ «لكن أنا»، فهي الأصل في قراءة الجماعة، لكن على ما تقدّم بيانه؛ لأنّ ألف أنا محذوف في الوصل. قال الشاعر:

وَتَرْ مِينَنِي بِالطَّرْفِ أَيْ أَنْتَ مُذْنِبٌ وَتَقْلِينَنِي لٰكِنَّ إِيَّاكِ لا أَقْلِي[1]

أي: لكن أنا. وأنا: مرفوع بالإبتداء، وخبره: الجملة المركبة من المبتدأ والخبر التي هي ﴿هُوَ اللهُ رَبِّي﴾. والعائد على المبتدأ من الجملة الياء في ﴿رَبِّي﴾. ومن قرأ ﴿لَكِن هُوَ اللهُ رِبِّي﴾ فإعرابه واضح.

---

(١) الشعر في جامع الشواهد.

وأمّا من قرأ: ﴿غَوْراً﴾ فيمكن أن يكون «غوراً» لغة في غور، وإنّما جاز أن يقع المصدر موقع الصفة للمبالغة، كما قال الشاعر:

تَظِلُّ جِيادُهُ نَوْحاً عَلَيْهِ ... مُقَلَّدَةً أَعِنَّتَها، صُفُونا[1]

وأمّا قوله: ولم يكن له فئة ـ بالياء ـ فإنّ الياء والتاء هنا حسن. وأمّا قوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ لِلّهِ الْحَقِّ﴾ فقد حكى أبو عبيدة، عن أبي عمرو: إنّ الولاية هنا لحن؛ لأنّ الكسر في «فعالة» يجيء فيما كان صنعة. ومعنى متقلّداً كالكتابة والإمارة والخلافة وما أشبه ذلك، وليس هنا معنى تولي أمر إنّما هو الولاية من الدين، وكذلك التي في الأنفال ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلاَيَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾. وقال بعض أهل اللغة: الولاية النصر. يقال: هم أهل ولاية عليك أي: متناصرون عليك. والولاية: ولاية السلطان. قال: وقد يجوز الفتح في هذه، والكسر في تلك، كما قالوا: الوَكالة والوِكالة، والوَصاية والوِصاية بمعنى واحد، فعلى هذا يجوز الكسر في «الولاية» في هذا الموضع.

ومن كسر القاف من ﴿الْحَقِّ﴾ فجعله من وصف الله تعالى وصفه بالحقّ، وهو مصدر، كما وصفه بالعدل والسلام. والمعنى: ذو الحقّ وذو السلام. وكذلك الإله معنى ذو العبادة. ويدلّ عليه قوله: ويعلمون أن الله هو الحقّ المبين. ومن رفع «الحقّ» جعله صفة للولاية. ومعنى وصف الولاية بالحقّ: أنّه لا يشوبها غيره، ولا يخاف فيها ما يخاف في سائر الولايات من غير الحقّ. وأمّا قوله: ﴿عُقْبًا﴾ فإنّ ما كان على «فعل»، جاز تخفيفه على ما تقدّم ذكره.

(اللغة): أصل الحسبان: السهام التي ترمى لتجري في طلق واحد، وكأنّ ذلك من رمي الأساورة. وأصل الباب الحساب، وإنّما يقال لِما يرمى به: حسبان؛

---

(١) صفون: جمع صافن. ويقال: صفن الفرس أي: قام معتمّداً على ثلث قوائم.

لأنّه يكثر كثرة الحساب. قال الزجّاج: الصعيد: الطريق الذي لا نبات فيه. والزلق: الأرض الملساء المستوية، لا نبات فيها، ولا شيء. وأصل الزلق: ما تزلق عنه الأقدام، فلا يثبت عليه.

﴿الإعراب﴾: ﴿مَا شَاءَ اللهُ﴾: يحتمل أن يكون ﴿مَا﴾ رفعاً، وتقديره: الأمر ما شاء الله، فيكون موصولاً. والضمير العائد إليه يكون محذوفاً؛ لطول الكلام. ويجوز أن يكون التقدير: ما شاء الله كائن، ويحتمل أن يكون ﴿مَا﴾ في موضع نصب، على معنى الشرط والجزاء. ويكون الجواب محذوفاً، وتقديره: أيّ شيء شاء الله كان. ومثله في حذف الجواب، قوله: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقاً فِي الْأَرْضِ﴾.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ﴾: أقلّ: منصوب، بأنّه مفعول ثان لـ«تَرَنِ». و ﴿أَنَا﴾: إنْ شئت كان توكيداً، أو وصفاً لياء المتكلّم، وإن شئت كان فصلاً، كما تقول: كنت أنت القائم يا هذا، ـ قاله الزجّاج ـ. ويجوز رفع ﴿أَقَلُّ﴾. وقد قرأ بها عيسى بن عمر، فيكون ﴿أَنَا﴾ مبتدأ، و ﴿أَقَلُّ﴾ خبره، والجملة في موضع نصب؛ بأن يكون المفعول الثاني لـ«تَرَنِ». وقوله: ﴿فَعَسَى﴾: الفاء جواب قوله: ﴿إِنْ تَرَنِ﴾. و ﴿ثَوَاباً﴾ و ﴿عُقْباً﴾: منصوبان على التميز.

﴿المعنى﴾: ثمّ بيّن سبحانه جواب المؤمن للكافر، فقال: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ﴾ أي: يخاطبه، ويجيبه، مكفراً له بما قاله: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ﴾ يعني: أصل الخلقة أي: خلق أباك من تراب، وهو آدم عليه السلام. وقيل: لمّا كانت النطفة خلقها الله سبحانه بمجرى العادة من الغذاء، والغذاء ينبت من تراب، جاز أن يقول خلقك من تراب.

﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ أي: نقلك من حال إلى حال، حتى جعلك بشراً سويّاً، معتدل الخلقة والقامة، وإنّما كفره بإنكاره المعاد. وفي هذا دلالة على أنّ الشكّ في البعث والنشور كفر ﴿لَكِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ تقديره: لكن أنا أقول هو الله

ربّي، وخالقي، ورازقي، فإن افتخرت عليّ بدنياك، فإنّ إفتخاري بالتوحيد.

﴿وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً﴾ أي: لا أشرك بعبادتي إيّاه أحداً سواه، بل أوجهها إليه وحده، خالصاً، وإنّما إستحال الشرك في العبادة؛ لأنّها لا تستحقّ إلّا بأصول النعم، وبالنعمة التي لا يوازنها نعمة منعم، وذلك لا يقدر عليه أحد إلّا الله تعالى.

ثمّ قال: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ معناه: وقال لصاحبه الكافر: هلّا حين دخلت بستانك، فرأيت تلك الثمار والزرع، شكرت الله تعالى، وقلت: ما شاء الله كان، وإنّي وإن تعبت في جمعه، وعمارته، فليس ذلك إلّا بقدرة الله وتيسيره، ولو شاء لحال بيني وبين ذلك، ولنزع البركة عنه، فإنّه لا يقوّى أحد على ما في يديه من النعمة إلّا بالله، ولا يكون له إلّا ما شاء الله.

ثم رجع إلى نفسه فقال: ﴿إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ﴾ معناه: إن كنت تراني اليوم فقيراً، أقلّ منك مالاً وعشيرة وأولاداً، فلعلّ الله أن يؤتيني بستاناً خيراً من بستانك في الآخرة، أو في الدنيا والآخرة.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَاناً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي: يرسل على جنّتك عذاباً، أو ناراً من السماء فيحرقها، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وقيل: يرسل عليها عذاب حسبان، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: ويرسل عليها مرامي من عذابه، إمّا برداً، وإمّا حجارة، أو غيرهما ممّا يشاء من أنواع العذاب.

﴿فَتُصْبِحَ صَعِيداً زَلَقاً﴾ أي: أرضاً مستوية لا نبات عليها، تزلق عنها القدم، فتصير أضرّ أرض من بعد أن كانت أنفع أرض ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْراً﴾ أي: غائراً ذاهباً في باطن غامض، منقطعاً فيكون أعدم أرض للماء، بعد أن كان أوجد أرض

للماء ﴿فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾ أي: فلن تقدر على طلبه إذا غار، ولا يبقى له أثر تطلبه به، فلن تستطيع ردّه. قيل: معناه: فلن تستطيع طلب غير ذلك الماء بدلاً عنه. إلى هنا إنتهى مناظرة صاحبه وإنذاره.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ معناه: أهلك وأحيط العذاب بأشجاره ونخيله، فهلكت عن آخرها. تقول: أحيط ببني فلان: إذا هلكوا عن آخرهم. وأصل الإحاطة: إدارة الحائط على الشيء. وفي الخبر: إنّ الله عزّوجلّ أرسل عليها ناراً فأهلكها، وغار ماؤها.

﴿فَأَصْبَحَ﴾ هذا الكافر ﴿يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ﴾ تأسّفاً، وتحسّراً ﴿عَلَى مَا أَنفَقَ فِيهَا﴾ من المال، وهو أن يضرب يديه واحدة على الأخرى، ـ عن ابن عباس ـ. وتقليب الكفّين يفعله النادم كثيراً، فصار عبارة عن الندم ﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي: ساقطة على سقوفها، وما عرش لكرومها، وذلك أنّ السقف ينهدم أوّلاً، ثمّ ينهدم الحائط على السقف. وقيل: إنّ العروش: الأبنية، ومعناه: خالية على بيوتها قد ذهب شجرها، وبقيت جدرانها، لا خير فيها.

﴿وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً﴾ ندم على الكفر لفناء ماله، لا لوجوب الإيمان، فلم ينفعه، ولو ندم على الكفر فآمن بالله تحقيقاً. لانتفع به. وقيل: إنّه ندم على ما كان منه من الشرك بالله تعالى، وآمن ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: لم يكن لهذا الكافر جماعة يدفعون عذاب الله عنه. وقيل: الفئة: الجند. قال العجاج: «كما يجوز الفئة الكمي».

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِراً﴾ أي: وما كان ممتنعاً، ـ عن قتادة ـ. قيل: معناه: وما كان مستردّاً بدل ما ذهب عنه. قال ابن عباس: وهذان الرجلان هما اللذان ذكرهما الله تعالى في سورة الصافّات في قوله ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿فَاطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾.

وروى هشام بن سالم، وأبان بن عثمان، عن الصادق عليه السلام قال: عجبت لمن خاف، كيف لا يفزع إلى قوله سبحانه: ﴿حَسْبِنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ فإنّي سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾. وعجبت لمن إغتمّ، كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿لاَ إِلٰهَ إِلّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ فإنّي سمعت الله سبحانه يقول بعقبها: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾. وعجبت لمن مكر به، كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللهِ إِنَّ اللهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فإنّي سمعت الله عزّوجلّ يقول بعقبها: ﴿فَوَقٰيهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾. وعجبت لمن أراد الدنيا وزينتها، كيف لا يفزع إلى قوله: ﴿مَا شَاءَ اللهُ لاَ قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾ فإنّي سمعت الله يقول بعقبها: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ﴾ وعسى موجبة.

وقوله: ﴿هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلّٰهِ الْحَقِّ﴾: أخبر سبحانه أنّ في ذلك الموضع، وفي ذلك الوقت الذي يتنازع فيه الكافر والمؤمن الولاية بالنصرة، والإعزاز لله عزّوجلّ، فهو الذي يتولّى أمر عباده المؤمنين، ويملك النصرة لمن أراد. وقيل: هنالك: إشارة إلى يوم القيامة، وتقديره: الولاية يوم القيامة لله، يريد: يومئذ يتولّون الله، ويؤمنون به، ويتبرّؤون ممّا كانوا يعبدون، ـ عن القتيبي ـ. وقيل: معناه: هنالك ينصر المؤمنين، ويخذل الكافرين، فالولاية يومئذ خالصة له، لا يملكها أحد من العباد.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً﴾ أي: هو أفضل ثواباً ممّن يرجى ثواباً، على تقدير: لو كان يثيب غيره، لكان هو خير ثواباً ﴿وَخَيْرٌ عُقْباً﴾ أي: عاقبة طاعته خير من عاقبة طاعة غيره، فهو خير عقب طاعة، ثمّ حذف المضاف إليه. والعقب والعقبى والعاقبة، بمعنى.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ
فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ
ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ
وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ
خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى
ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۖ بَلْ زَعَمْتُمْ
أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ
مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟
حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

القراءة: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ويوم تسيّر ـ بضمّ التاء وفتح الياء ـ، و ﴿الْجِبَالَ﴾ رفع. والباقون: ﴿نُسَيِّرُ﴾ ـ بالنون وكسر الياء ـ، و ﴿الْجِبَالَ﴾ نصب[1].

---

(١) الرياح: بالتوحيد حمزة والكسائي. وأدغم «لقد جئتمونا» أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف. وأدغم «بل زعمتم» الكسائي وهشام. وإتّفقوا على كتابة «مال» هنا بلام مفصولة، ونظيره في سورة النساء، والفرقان، وسأل. ووقف الكسائي وأبو عمرو على «مال». والباقون: على «ما». ويجوزه أبو عمرو والكسائي أيضاً.

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة من بنى الفعل للمفعول به: قوله: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ وقوله: ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾. ومن قرأ: ﴿نُسَيِّرُ﴾ فلأنّه أشبه بما بعده من قوله: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾.

اللغة: الهشيم: ما يكسر ويحطم من يبس النبات. والذر والتذرية: تطيير الريح الأشياء الخفيفة في كل جهة. يقال: ذرته الريح تذروه، وذرّته، وأذرته. وأذريتُ الرجل عن الدابّة: إذا ألقيتُه عنها. قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهُ: صَوِّبْ، وَلاَ تُجْهِدَنَّهُ فَيَذْرُكَ مِنْ أُخْرَى القَطَاةِ فَتَزْلَقِ[1]

والمغادرة: الترك. ومنه: الغدر؛ لأنّه ترك الوفاء. ومنه: الغدير: لترك الماء فيه. والإشفاق: الخوف من وقوع مكروه، مع تجويز أن لا يقع، وأصله: الرقّة. ومنه: الشفق: الحمرة الرقيقة التي تكون في السماء. وشفقة الإنسان على ولده: رقّته عليه.

الإعراب: ﴿صَفّاً﴾ نصب على الحال أي: مصفوفين. ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ﴾: أنْ هذه: مخفّفة من الثقيلة. و﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾ خبره. وقال: قد كتبت في المصحف اللام مفصولة. ولا وجه له. ﴿لاَ يُغَادِرُ﴾: في موضع نصب؛ على الحال.

المعنى: ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ أن يضرب المثل للدنيا؛ تزهيداً فيها، وترغيباً في الآخرة، فقال: ﴿وَاضْرِبْ﴾ يا محمّد ﴿لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ﴾ أي: نبت بذلك الماء نبات التفّ بعضه ببعض، يروق حسناً وغضاضة. وهذا مفسّر في سورة يونس عليه السلام.

﴿فَأَصْبَحَ هَشِيماً﴾ أي: كسيراً مفتتاً ﴿تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ فتنقله من موضع إلى موضع، فإنقلاب الدنيا كإنقلاب هذا النبات ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾

---

(١) قطاة: موضع الرديف من ظهر الدابّة. ويقال: صوّبت الفرس: تركته حتى يسرع يعني: لاتجهد الفرس؛ لئلّا يلقيك عن ظهره.

أي: قادراً لا يجوز عليه المنع. قال الحسن: أي: كان الله مقتدراً على كل شيء قبل كونه. قال الزجّاج: وتأويله: إنّ ما شاهدتم من قدرته، ليس بحادث، وإنّه كذلك كان لم يزل، هذا مذهب سيبويه. وقيل: إنّه إخبار عن الماضي، ودلالة على المستقبل. وهذا المثل إنّما هو للمتكبّرين الذين إغترّوا بأموالهم، وإستنكفوا عن مجالسة فقراء المؤمنين، أخبرهم الله سبحانه أنّ ما كان من الدنيا لا يراد الله سبحانه به، فهو كالنبت الحسن على المطر، لا مادّة له، فهو يروق ما خالطه ذلك الماء، فإذا إنقطع عنه، عاد هشيماً لا ينتفع به.

ثمّ قال: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: يتفاخر بهما، ويتزيّن بهما في الدنيا، ولا ينتفع بهما في الآخرة، وإنّما سمّاهم زينة؛ لأن في المال جمالاً، وفي البنين قوّة ودفعاً، فصارا زينة الحياة الدنيا، وكلاهما لا يبقى للإنسان، فينتفع به في الآخرة.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ وهي الطاعات لله تعالى، وجميع الحسنات؛ لأنّ ثوابها يبقى أبداً، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾ أي: أفضل ثواباً، وأصدق أملاً من المال، والبنين، وسائر زهرات الدنيا، فإنّ من الآمال كواذب، وهذا أمل لا يكذب؛ لأنّ من عمل الطاعة، وجد ما يأمله عليها من الثواب. وقيل: إنّ الباقيات الصالحات، هي ما كان يأتي به سلمان، وصهيب، وفقراء المسلمين، وهو: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، ـ عن ابن عباس، في رواية عطا، ومجاهد، وعكرمة ـ.

وروى أنس بن مالك، عن النبيّ ﷺ أنّه قال لجلسائه: خذوا جُنّتكم. قالوا: احذر [حضر] عود [عدو]. قال: خذوا جنّتكم من النار، قولوا: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر، فإنّهنّ المقدّمات، وهن المجيبات [المجنيّات]، وهنّ المعقّبات، وهنّ الباقيات الصالحات. ورواه أصحابنا، عن أبي عبد الله عليه السلام، عن

آبائه عن النبيّ ﷺ. ثمّ قال: ولذكر الله أكبر، قال: ذكر الله عندما أحلّ أو حرّم. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: إن عجزتم عن الليل أن تكابدوه، وعن العدوّ أن تجاهدوه، فلا تعجزوا عن قول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر؛ فإنّهنّ من الباقيات الصالحات، فقولواها. وقيل: هي الصلوات الخمس، ـ عن ابن مسعود، وسعيد بن جبير، ومسروق، والنخعي ـ. وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام. وروي عنه أيضاً: انّ من الباقيات الصالحات: القيام بالليل لصلاة الليل. وقيل: إنّ الباقيات الصالحات: هنّ البنات الصالحات. والأولى حملها على العموم، فيدخل فيها جميع الطاعات والخيرات.

وفي كتاب ابن عقدة: انّ أبا عبدالله عليه السلام قال للحصين بن عبد الرحمن: يا حصين! لا تستصغر مودّتنا؛ فإنّها من الباقيات الصالحات. قال: يابن رسول الله! ما أستصغرها، ولكن أحمد الله عليها. وإنّما سمّيت الطاعات: صالحات؛ لأنّها أصلح الأعمال للمكلّف من حيث أمر بها، ووعد الثواب عليها، وتوعّد بالعقاب على تركها.

﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ﴾ قيل: إنّه يتعلّق بما قبله، وتقديره: والباقيات الصالحات خير ثواباً في هذا اليوم. وقيل: إنّه إبتداء كلام، وتقديره: وأُذكر يوم نسيّر الجبال، يعني: يوم القيامة. وتسيير الجبال: قلعها عن أماكنها، فإنّ الله سبحانه يقلعها، ويجعلها هباءً منثوراً. وقيل: نسيّرها على وجه الأرض، كما نسيّر السحاب في السماء، ثمّ يجعلها كثيباً مهيلاً، كما قال: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ الآية. ثم يصيرها كالعهن المنفوش، ثمّ يصيرها هباءً منبثاً في الهواء، كما قال: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾، ثمّ يصيرها بمنزلة السراب، كما قال: ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ أي: ظاهرة ليس عليها شيء من جبل، أو بناء، أو

شجر يسترها عن عيون الناظرين. وقيل: إنّ معناه: وترى باطن الأرض ظاهراً، قد برز من كان في بطنها، فصاروا على ظهرها، ـ عن عطا ـ، وتقديره: وترى ما في الأرض بارزاً، فهو مثل قول النبيّ ﷺ: ترمي الأرض بأفلاذ كبدها.

﴿وَحَشَرْنَاهُمْ﴾ أي: وبعثناهم من قبورهم، وجمعناهم في الموقف ﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ أي: فلم نترك منهم أحداً إلّا وحشرناه.

﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ﴾ يعني: المحشورين يعرضون على الله تعالى يوم القيامة ﴿صَفّاً﴾ أي: مصفوفين، كل زمرة وأمّة صفّاً. وقيل: يعرضون صفّاً بعد صفّ كالصفوف في الصلاة. وقيل: يعرضون صفّاً واحداً لا يحجب بعضهم بعضاً.

ويقال لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ معناه: لقد جئتمونا ضعفاء فقراء، عاجزين في الموضع الذي لا يملك فيه الحكم غيرنا، كما كنتم في إبتداء الخلق، لا تملكون شيئاً. وقيل: معناه: ليس معكم شيء ممّا إكتسبتموه في الدنيا من الأموال، والأولاد، والخدم، تنتفعون به، كما كنتم في أوّل الخلق. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: يحشر الناس من قبورهم يوم القيامة، حفاة عراة غرلاً[١] [عزلا]. فقالت عائشة: يا رسول الله! أما يستحيي بعضهم من بعض؟ فقال ﷺ: لكل إمرىء منهم يومئذ شأن يغنيه.

﴿بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً﴾ أي: ويقال لهم أيضاً: بل زعمتم في دار الدنيا أنّ الله لم يجعل لكم موعداً للعبث، والجزاء، والحساب يوم القيامة.

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ أي: ووضع الكتب، فإنّ «الكتاب» إسم جنس، والمعنى: ووضعت صحائف بني آدم في أيديهم. وقيل: معناه: ووضع الحساب، فعبّر عن الحساب بالكتاب؛ لأنّهم يحاسبون على أعمالهم المكتوبة، ـ عن الكلبي ـ.

---

[١] الغرل جمع الأغرل: الأقلف.

﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ﴾ أي: خائفين ممّا فيه من الأعمال السيّئة ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا﴾ هذه لفظة، يقولها الإنسان إذا وقع في شدّة، فيدعو على نفسه بالويل والثبور.

﴿مَالِ هَذَا الْكِتَابِ﴾ أي: أيّ شيء لهذا الكتاب ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾ أي: لا يترك صغيرة من الذنوب، ولا كبيرة، إلّا عدّها وأثبتها وحواها، وقد مرّ تفسير الصغيرة والكبيرة في سورة النساء. وأنّث «الصغيرة والكبيرة» بمعنى الفعلة والخصلة.

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ أي: مكتوباً في الكتاب، مثبتاً. وقيل: معناه: وجدوا جزاء ما عملوا حاضراً، فجعل وجود الجزاء كوجود الأعمال توسّعاً ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ معناه: ولا ينقص ربّك ثواب محسن، ولا يزيد في عقاب مسيء. وفي هذا دلالة على أنّه سبحانه لا يعاقب الأطفال؛ لأنّه إذا كان لا يزيد في عقوبة المذنب، فكيف يعاقب من ليس بمذنب.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾

القراءة: قرأ أبو جعفر: ما أشهدناهم ـ بالنون ـ على التعظيم. والباقون: ﴿مَا

﴿أَشْهَدتُّهُمْ﴾ ـ بالتاء ـ. وقرأ حمزة: ويوم نقول ـ بالنون ـ. والباقون: بالياء.

﴿الحجة﴾: من قرأ: نقول ـ بالنون ـ حمله على ما تقدّم في المعنى، فكما أنّ «كنت» للمتكلّم، فكذلك: نقول. ومن قرأ بالياء، فحجّته: أنّ الكلام قد انقضى، فالمعنى: ويوم يقول الله نادوا شركائي، وهذا يقوّي القراءة بالياء؛ لأنّه لو كانت بالنون، لكان الأشبه أن يقول: نادوا شركاءنا.

﴿اللغة﴾: الفسق: الخروج إلى حال تضر. يقال: فسقت الرطبة: إذا خرجت من قشرها، وفسقت الفأرة: إذا خرجت من جحرها. قال رؤبة:

يَهْوِينَ فِي نَجْدٍ، وَغَوْراً غائِراً فَواسِقاً عَنْ قَصْدِها جَوائِرَا

قال أبو عبيدة: هذه التسمية لم نسمعها في شيء من أشعار الجاهليّة، ولا أحاديثها، وإنّما تكلّم بها العرب بعد نزول القرآن. وقال المبرّد: الأمر على ما ذكره أبو عبيدة، وهي كلمة فصيحة على ألسنة العرب. وقال قطرب: فسق عن أمر ربّه أي: عن ردّ أمر ربّه، كقولهم: كسوته عن عرى، وأطعمته عن جوع.

والعضد: ما بين المرفق إلى الكتف، وفيه خمس لغات: عَضُد، وعَضَد، وعَضد، وعُضُد، وعضد. وعضدت فلاناً: أعنته. وفلان عضدي: إستعارة. وإعتضد به أي: إستعان. قال ثعلب: كل شيء حال بين شيئين، فهو موبق، من وبق يبق وبوقا: إذا هلك، وحكى الزجّاج: وبق الرجّل يوبق وبقاً.

﴿الإعراب﴾: ﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾: إسم «بئس» مضمر، فسّر بقوله: بدلاً. وقوله: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ فصّل بين «بئس»، وبين ما إنتصب على التميز. والتقدير: بئس البدل للظالمين ذرّيّة إبليس، فذرّيّة إبليس هو المخصص بالذمّ، ـ عن أبيّ علي الفارسي ـ.

﴿المعنى﴾: ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ أن يذكّر هؤلاء المتكبّرين عن مجالسة الفقراء، قصّة إبليس، وما أورثه الكبر، فقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ أي: وأُذكر يا محمّد إذ

قلنا ﴿لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ قد مرّ تفسيره فيما تقدّم، وإنّما تكرّر هذا القول في القرآن؛ لأجل ما بعده ممّا يحتاج إتّصاله به، فهو كالمعنى الذي يفيد أمراً في مواضع كثيرة للإخبار عنه بأخبار مختلفة.

وقوله: ﴿كَانَ مِنْ الْجِنِّ﴾ من قال: إنّ إبليس لم يكن من الملائكة. أُستدلّ بهذا: لأنّ الجنّ غير الملائكة، كما أنّهم غير الإنس، ومن قال: إنّه كان من الملائكة، قال: إنّ المعنى: كان من الذين يستترون عن الأبصار، مأخوذ من الجنّ، وهو الستر. وقيل: كان من قبيل من الملائكة، يقال لهم: الجنّ، كانوا خزان الجنان، فأضيفوا إليها، كقولك: كوفي وبصري. وضعّف الأوّلون هذين الوجهين؛ لأنّ لفظ «الجنّ» إذا أطلق، فالمفهوم منه هذا الجنس المعروف، لا الملائكة.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي: خرج عن طاعة ربّه. ثمّ خاطب الله سبحانه المشركين، فقال: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ معناه: أفتتّبعون أمر إبليس، وأمر ذرّيّته، وتتّخذونهم أولياء، تتولّونهم بالطاعة من دوني، وهم جميعاً أعداء لكم. والعاقل حقيق بأنْ يتّهم عدوّه على نفسه. وهذا إستفهام بمعنى الإنكار والتوبيخ. قال مجاهد: ذرّيّته: الشياطين. وقال الحسن: الجنّ من ذرّيّته.

﴿بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ تقديره: بئس البدل للظالمين بدلاً، ومعناه: بئس ما استبدلوا بعبادة ربّهم إذا أطاعوا إبليس، ـ عن الحسن ـ. وقيل: بئس البدل طاعة الشيطان عن طاعة الرحمن، ـ عن قتادة ـ.

﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: ما أحضرت إبليس وذرّيّته خلق السماوات والأرض، ولا خلق أنفسهم، مستعيناً بهم على ذلك، ولا إستعنت ببعضهم على خلق بعض. وهذا إخبار عن كمال قدرته، وإستغنائه عن الأنصار والأعوان. ويدلّ عليه قوله: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ

﴿عَضُداً﴾ أي: الشياطين الذين يضلّون الناس أعواناً يعضدونني عليه، وكثيراً مّما يستعمل «العضد» بمعنى «العون»، وإنّما وحّده هنا؛ لوفاق الفواصل. وقيل: انّ معنى الآية: أنّكم إتّبعتم الشيطان، كما يتّبع من يكون عنده علم لا ينال إلّا من جهته، وانا ما إطلعتهم على خلق السماوات والأرض، ولا على خلق أنفسهم، ولم أعطهم العلم بأنّه كيف تخلق الأشياء، فمن أين تتّبعونهم؟ وقيل: معناه: ما أحضرت مشركي العرب، وهؤلاء الكفّار خلق السموات والأرض، ولا خلق أنفسهم أي: وما أحضرت بعضهم خلق بعض، بل لم يكونوا موجودين فخلقتهم، فمن أين قالوا: إنّ الملائكة بنات الله؟ ومن أين إدّعوا ذلك؟

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ يريد: يوم القيامة، يقول الله للمشركين، وعبدة الأصنام: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ في الدنيا أنّهم شركائي؛ ليدفعوا عنكم العذاب ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ يعني: المشركين يدعون أولئك الشركاء الذين عبدوهم مع الله ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ أي: فلا يستجيبون لهم، ولا ينفعونهم شيئاً.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي: بين المؤمنين والكافرين ﴿مَوْبِقاً﴾ وهو إسم واد عميق، فرّق الله به سبحانه، بين أهل الهدى وأهل الضلالة، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. وقيل: بين المعبودين وعبدتهم موبقاً أي: حاجزاً عن ابن الأعرابي أي: فأدخلنا من كانوا يزعمون أنّهم معبودهم مثل الملائكة، والمسيح الجنّة، وأدخلنا الكفّار النار، وقيل: معناه: جعلنا تواصلهم في الدنيا موبقاً أي: مهلكاً لهم في الآخرة، ـ عن الفرّاء ـ. وروي ذلك عن قتادة، وابن عباس. فـ«البين» على هذا القول، معناه: التواصل. والمعنى: إن تواصلهم وتوادّهم في الكفر، صار سبب هلاكهم في الآخرة. وقيل: موبقاً عداوة، ـ عن الحسن ـ، فكأنّه قال: عداوة مهلكة. وروي عن أُنس ابن مالك، أنّه قال: الموبق: واد في جهنّم من قبح ودم.

النظم: وجه إتّصال قوله: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بما

قبله: أنّه يتّصل إتّصال الحجّة التي تكشف حيرة الشبهة؛ لأنّه بمنزلة أن يقال: إنّكم قد أقبلتم على إتّباع إبليس وذرّيّته، وتركتم أمر الله تعالى مع كثرة الحجج. ولو أشهدتهم خلق السماوات والأرض، لم يزيدوا على ما فعلتم من إتّباعهم. وقيل: إنّه سبحانه بيّن بذلك أنّه المتفرّد بالخلق والإختراع، لا شريك له فيه، فلا ينبغي أن تشركوا معه في العبادة غيره، أو تدعوا غيره إلهاً.

وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا۟ عَنْهَا
مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا(١) فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ
وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟
إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ
ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ
لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا(٢) ﴿٥٦﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة: ﴿قُبُلاً﴾ ـ بضمّتين ـ. والباقون: ﴿قِبَلاً﴾.

الحجّة: قد ذكرنا الوجه في سورة الأنعام.

اللغة: المواقعة: ملابسة الشيء بشدّة. ومنه: وقائع الحروب، وأوقع به إيقاعاً، والتوقّع: الترقّب لوقوع الشيء. والمصرف: المعدل. قال أبو كثير:

---

(١) أدغم «لقد صرّفنا» أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي.

(٢) ومضى الكلام في «هزواً» في البقرة.

أَزهَيْرُ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصرِّفِ أَمْ لاَ خُلُودَ لِبَاذِلٍ مُتَكَلِّفِ[1]

والتصريف: تنقيل المعنى في الجهات المختلفة. والإدحاض: الإذهاب بالشيء إلى الهلاك. ومكان دحض أي: مزلق مزل لا يثبت عليه خفّ، ولا حافر، ولا قدم، قال: «وحاد كما حاد البعير عن الدّحض»[1].

الإعراب: ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾: في موضع نصب، والمعنى: ما منع الناس من الإيمان إلّا طلب أن يأتيهم، فيكون «أن يأتيهم» في موضع رفع. ﴿وَمَا أُنْذِرُوا﴾: في موضع نصب؛ عطفاً على ﴿آيَاتِي﴾. و ﴿هُزُواً﴾: هو المفعول الثاني لاتخذوا.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه حال المجرمين، فقال: ﴿وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ﴾ يعني: المشركين رأوا النار، وهي تتلظّى حنقاً عليهم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هو عامّ في أصحاب الكبائر ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا﴾ أي: علموا أنّهم داخلون فيها، واقعون في عذابها ﴿وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾ أي: معدلاً وموضعاً ينصرفون إليه ليتخلّصوا منها.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ أي: بيّنّا ﴿فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ وتصريفها: ترديدها من نوع واحد، وأنواع مختلفة؛ ليتفكّروا فيها. وقد مرّ تفسيره في بني إسرائيل ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾ يريد بالإنسان: النضر بن الحارث، ـ عن ابن عباس ـ. ويريد: أبيّ بن خلف، ـ عن الكلبي ـ. وقال الزجّاج: معناه: وكأنّ الكافر يدلّ عليه قوله: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ﴾ معناه: ما منعهم من الإيمان بعد مجيء الدلالة، ومن أن يستغفروا ربّهم على ما سبق من

---

(١) يعني: لاشيء يمنع من مجيء الشيب، ولادافع للموت، وإن بذلت كل شيء لدفعه.

[١] وصدره: (رَديتُ ونجّى اليشكريّ حذارُه).

معاصيهم ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: إلّا طلب أن تأتيهم العادة في الأوّلين، من عذاب الإستئصال، حيث آتاهم العذاب من حيث لا يشعرون، حين إمتنعوا من قبول الهدى والإيمان.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلاً﴾ أو طلب أن يأتيهم العذاب عياناً مقابلة، من حيث يرونه، وتأويله: أنّهم بإمتناعهم من الإيمان، بمنزلة من يطلب هذا حتى يؤمنوا كرهاً؛ لأنّهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب الأليم، وهذا كما يقول القائل لغيره: ما منعك أن تقبل قولي إلّا أن تضرب. على أنّ المشركين قد طلبوا مثل ذلك، فقالوا: أللهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء، أو إئتنا بعذاب أليم. ومن قرأ: ﴿قِبَلاً﴾: فهو في معنى الأوّل، ويجوز أن يكون أيضاً جمع قبيل: وهو الجماعة، أي: يأتيهم العذاب ضروباً من كل جهة.

ثمّ بيّن سبحانه أنّه قد أزاح العلّة، وأظهر الحجّة، وأوضح المحجّة، فقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي: لم نرسل الرسل إلى الخلق إلّا مبشّرين لهم بالجنّة إذا أطاعوا، أو مخوفين لهم بالنار إذا عصوا.

﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ﴾ أي: ويناظر الكفّار؛ دفعاً عن مذاهبهم بالباطل ﴿لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ أي: ليزيلوا الحقّ عن قراره. قال ابن عباس: يريد المستهزئين والمقتسمين [المقسمين] وأتباعهم، وجدالهم بالباطل: أنّهم ألزموه أن يأتي بالآيات على أهوائهم، على ما كانوا يقترحونه؛ ليبطلوا به ما جاء به محمّد ﷺ. يقال: أدحضت حجّته أي: أبطلتها.

﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي﴾ يعني: القرآن ﴿وَمَا أُنْذِرُوا﴾ أي: ما تخوّفوا به من البعث والنار ﴿هُزُواً﴾ مهزوّاً به: إستهزؤوا به.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

القراءة: قرأ حفص عن عاصم: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ ـ بفتح الميم وكسر اللام ـ، وكذلك في النمل: ﴿وَمَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ﴾. وقرأ حمّاد، ويحيى، عن أبي بكر: بفتح الميم واللام. وقرأ الأعشى، والبرجمي عنه هيهنا: بالضمّ، وهناك بالفتح. وقرأ الباقون: ﴿لِمُهْلَكِهِمْ﴾ و ﴿مُهْلَكَ﴾ ـ بضمّ الميم، وفتح اللام ـ.

الحجة: من قرأ: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ فإنّ «المهلك» يجوز أن يكون مصدراً، ويجوز أن يكون وقتاً، فيكون معناه: لإهلاكهم، أو لوقت إهلاكهم. ومن قرأ: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾: فالمراد: لوقت هلاكهم. ومن قرأ بفتح الميم، واللام فهو مصدر مثل: الهلاك. وقد حكي أنّ تميماً يقول: هلكني زيد. وعلى هذا حمل بعضهم قوله: «ومهمه هالك من تعرّجا»[1] فقال: هو بمعنى مهلك، فيكون «هالك» مضافاً إلى

---

[١] قائله: العجّاج. المهمه: المفازة البعيدة. وعجزه: (هائلةٍ أهوالُه مَنْ أدلجا).

المفعول به، وإذا لم يكن بمعنى مهلك، يكون «هالك» مضافاً إلى الفاعل، مثل: حسن الوجه.

وكذلك قوله: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ على قراءة حفص، أو «لمَهلَكهم» ـ بفتح اللام والميم ـ، فإنّه مصدر، فعلى قول من عدّى «هلكت» يكون مضافاً إلى المفعول به، وعلى قول من لم يعدّه، يكون مضافاً إلى الفاعل.

﴿الإعراب﴾: ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾: تلك: رفع بالإبتداء. و ﴿الْقُرَى﴾: صفة لها مبيّنة لها. و ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾: في موضع رفع، بأنّه خبر المبتدأ. ويجوز أن يكون موضع ﴿تِلْكَ الْقُرَى﴾ نصباً بفعل مضمر يكون ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ مفسّراً لذلك الفعل، وتقديره: وأهلكنا تلك القرى أهلكناهم.

﴿المعنى﴾: ثمّ قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ معناه: ليس أحد أظلم لنفسه ممّن ذكّر أي: وعظ بالقرآن وآياته، ونبّه على أدلّة التوحيد، فأعرض عنها جانباً. ﴿وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ أي: نسي المعاصي التي إستحقّ بها العقاب. وقيل: معناه: تذكر وإشتغل عنه إستخفافاً به، وقلّة معرفة بعاقبته؛ لأنّه نسي ذلك.

ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ وهي جمع كنان ﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ أي: كراهة أن يفقهوه، أو لئلّا يفقهوه ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً﴾ أي: ثقلاً. وقد تقدّم بيان هذا فيما مضى. وجملته أنّه على التمثيل، كما قال في موضع آخر: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾. فالمعنى: كأنّ على قلوبهم أكنّة أن يفقّه، وفي آذانهم وقراً أن يسمع.

﴿وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً﴾ أخبر سبحانه أنّهم لا يؤمنون أبداً، وقد خرج مخبره موافقاً لخبره، فماتوا على كفرهم.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ معناه: وربّك الساتر على عباده، الغافر لذنوب المؤمنين، ذو النعمة والأفضال على خلقه. وقيل: الغفور: التائب ذو الرحمة للمصرّ، بأن يمهل ولا يعجّل. وقيل: الغفور: لا يؤآخذهم عاجلاً، ذو الرحمة يؤخّرهم ليتوبوا.

﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمْ الْعَذَابَ ﴾ في الدنيا ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ﴾ وهو يوم القيامة، والبعث ﴿ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً ﴾ أي: ملجأ، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وقيل: محرزاً، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: منجا ينجيهم، عن أبي عبيد قال: يقال: لا وَأَلْتْ نفسه، أي: لا نَجَتْ. قال الأعشى:

وَقَدْ أُخَالِسُ رَبَّ الْبَيْتِ غَفْلَتَهُ ... وَقَدْ يُحَاذِرُ مِنِّي ثُمَّ لاَيَئِلِ

وقال الآخر:

لا وَأَلَتْ نَفْسُكَ خَلَّيْتَها ... لِلْعَامِرِيِّينَ، وَلَمْ تَكْلِمِ[1]

﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى ﴾: إشارة إلى قرى عاد، وثمود، وغيرهم. ﴿ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ بتكذيب أنبياء الله، وجحود آياته. ﴿ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ ﴾ أي: وجعلنا لوقت إهلاكهم، ﴿ مَوْعِداً ﴾ معلوماً يهلكون فيه؛ لمصلحة إقتضت تأخيره إليه. وإنّما قال سبحانه: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ﴾ ثمّ قال: ﴿أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ ولم يقل: أهلكناها؛ لأنّ القرية: هي المسكن نحو المدينة والبلدة، وهي لا تستحقّ الهلاك، وإنّما يستحقّ الهلاك أهلها، ولذلك قال: لمّا ظلموا، يعني: أهل القرية الذين أهلكناهم.

---

(١) لم تكلم: أي لم تجرح: يقول: ما نجت نفسك، سلّمتها للعامريّين، ولم تجرحهم.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ
ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ
بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾
فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا
هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ
فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ (١) فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا
قَصَصًا ﴿٦٤﴾

القراءة: قرأ حفص: ﴿وَمَا أَنْسَانِيهُ﴾ ـ بضمّ الهاء ـ، وفي الفتح: ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ﴾ ـ بضمّ الهاء ـ. والباقون بكسر الهاء من غير بلوغ الياء، إلّا ابن كثير، فإنّه يثبت الياء في الوصل. وقد تقدّم القول في وجه ذلك.

اللغة: لا أبرح: أي لا أزال، ولو كان معناه: لا أزول، كان محالاً؛ لأنّه إذا لم يزل من مكانه، لم يقطع أرضاً. قال الشاعر:

وَأَبْرَحُ مَا أَدَامَ اللَّهُ قَوْمِي ... رَخِيَ الْبَالِ مُنْتَطِقاً مُجِيداً[١]

أي: لا أزال. والحقب: الدهر والزمان. وجمعه: أحقاب. قال الزجّاج: والحقب ثمانون سنة. والسرب: المسلك والمذهب، ومعناه في اللغة: المحفور [المفجور] في الأرض، لا نفاذ له. ويقال للذاهب في الأرض: سارب.

---

(١) قرأ نافع وأبو عمرو والكسائي «نبغي» ـ بالياء ـ وصلاً. وابن كثير في الحالين.

[١] قائله: خداش بن زهير. جاء فلان مُنتطقاً فرَسَه: إذا جَنَبَهُ ولم يركبه.

قال الشاعر:

أَنَّى سَرَبْتِ، وَكُنْتِ غَيْرَ سَرُوبٍ وَتَقَرُّبُ الأَحْلامِ غَيْرُ قَرِيبِ

والنصب والوصب والتعب، نظائر: وهو الوهن الذي يكون على الكدّ.

﴿الإعراب﴾: ﴿سَرَباً﴾: منصوب على وجهين: أحدهما: أن يكون مفعولاً ثانياً لـ«إتّخذ». يقال: إتّخذت طريقي مكان كذا، وإتّخذت طريقي في السرب. والآخر: أن يكون مصدراً يدلّ عليه «إتّخذ سبيله في البحر»، فكأنّه قال: فسرب الحوت سرباً. وقوله: ﴿أَنْ أَذْكُرَهُ﴾: في موضع نصب؛ بدل من الهاء في ﴿أَنْسَانِيهُ﴾، والمعنى: وما أنساني أن أذكره إلّا الشيطان[1].

و﴿عَجَباً﴾: منصوب على وجهين: أحدهما: أن يكون على قول يوشع إتّخذ الحوت سبيله في البحر عجباً. والآخر: أن يكون قال يوشع: وإتّخذ سبيله في البحر، فأجابه موسى عليه السلام فقال: عجباً، فكأنّه قال: أعجب عجباً.

و ﴿قَصَصاً﴾: مصدر وضع موضع الحال، تقديره: يقصّان الأثر قصصاً. والقصص: إتّباع الأثر. وقال أحد المحقّقين: عجباً: في موضع حال، تقديره: قال ذلك متعجّباً. و ﴿قَصَصاً﴾: مصدر لفعل مضمر يدلّ عليه قوله: ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا﴾ فإنّ معناه: فإقتصّا الأثر.

﴿النّزول﴾: ذكر عليّ بن إبراهيم في تفسيره قال: لمّا أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً بخبر أصحاب الكهف، قالوا: أخبرنا عن العالم الذي أمر الله موسى عليه السلام أن يتّبعه، من هو؟ كيف تبعه؟ وما قصّته؟ فأنزل الله تعالى.

---

(١) ليس النسيان هنا ممّا يخلّ بالعصمة، التي نقول بها في الأنبياء، وليس إنساء الشيطان ممّا يكون إغواءً وإضلالاً أو أمرا بمعصية؛ إذ ليس للشيطان سلطان على عباده المخلصين. والحقّ أنّ مجمع البحرين في هذه الآية غير معلوم لنا، فلعلّه كان في أراضي الشام، أو مصر؛ إذ هناك بحيرات كثيرة، مجتمعة ومنفصلة من مستنقع الأردن، والنيل، وخلج القلزم، وبحر الروم.

المعنى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ﴾ أكثر المفسّرين، على أنّه موسى بن عمران، وفتاه يوشع بن نون، وسمّاه فتاه؛ لأنّه صحبه، ولازمه سفراً، وحضراً؛ للتعلّم منه. وقيل: لأنّه كان يخدمه. ولهذا قال له: ﴿ءَاتِنَا غَدَاءَنَا﴾، وهو يوشع بن نون بن أفراثيم[ئيم] بن يوسف بن يعقوب. وقال محمّد بن إسحاق: يقول أهل الكتاب: إنّ موسى الذي طلب الخضر هو موسى بن ميشا بن يوسف، وكان نبيّاً في بني إسرائيل قبل موسى بن عمران، إلّا أنّ الذي عليه الجمهور: أنّه موسى بن عمران عليه السلام، ولأنّ إطلاقه يوجب صرفه إلى موسى بن عمران، كما أنّ إطلاق محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ينصرف إلى نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم.

قال عليّ بن إبراهيم: حدّثني محمّد بن عليّ بن بلال، قال: إختلف يونس، وهشام بن إبراهيم، في العالم الذي أتاه موسى، أيّهما كان أعلم؟ وهل يجوز أن يكون على موسى عليه السلام حجّة في وقته، وهو حجّة الله على خلقه؟ فكتبوا إلى أبي الحسن الرضا عليه السلام يسألونه عن ذلك، فكتب في الجواب: «أتى موسى العالم، فأصابه في جزيرة من جزائر البحر، فسلّم عليه موسى، فأنكر السلام؛ إذ كان بأرض ليس بها سلام، قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران. قال: أنت موسى بن عمران الذي كلّمه الله تكليماً؟ قال: نعم. قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلّمني ممّا علمت رشداً. قال: إنّي وكّلت بأمر لا تطيقه، ووكلت بأمر لا أطيقه»[1]...

---

(١) وقد يقال ان الخضر مروج الطريقة الباطنة والحقيقة وموسى عليه السلام مؤسس الشريعة وقد يخالف الطريقة الشريعة والوجه الصحيح ان امر الله واحد لايختلف سواء تعلق بافعال الجوارح أو تزكية القلب والتوجه الى الله تعالى ولكن الواجب على صاحب الشريعة كموسى عليه السلام والعلماء بها ان ينظروا في كل حكم من جميع جوانبها ولايقتصروا على وجه واحد وهذا اصل عظيم اراد الله تعالى تعليم نبيه موسى عليه السلام حتى يقتدى به غيره ولذلك امثلة كثيرة منها امتناع اصحاب امير المؤمنين عن الحرب بعد رفع المصاحف لحرمة القرآن فنظروا من وجه واحد وتركوا مصلحة الامة والامام.

الخبر بطوله.

﴿لاَ أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ معناه: لا أزال أمضي وأمشي، ولا أسلك طريقاً آخر، حتى أبلغ ملتقى البحرين ـ بحر فارس، وبحر الروم ـ، وممّا يلي المغرب ـ بحر الروم ـ، وممّا يلي المشرق ـ بحر فارس ـ، ـ عن قتادة ـ. وقال محمّد بن كعب: هو طنجة، وروي عنه أفريقيّة. وكان وعد أن يلقى عنده الخضر ﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً﴾ أي: دهراً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: سبعين سنة، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: ثمانين سنة، ـ عن عبدالله بن عمر ـ.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهِمَا﴾ أي: فلمّا بلغا الموضع الذي يجتمع فيه رأس البحرين ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي: تركاه. وقيل: إنّه ضلّ الحوت عنهما، حين إتّخذ سبيله في البحر سرباً، فسمّي ضلاله عنهما، نسياناً منهما له. وقيل: إنّه من النسيان، والناسي له كان أحدهما، وهو يوشع، فأضيف النسيان إليهما، كما يقال: نسي القوم زادهم: إذا نسيه متعهّد أمرهم. وقيل: إنّ النسيان وجد منهما جميعاً، فإنّ يوشع نسي أن يحمل الحوت، أو أن يذكر موسى عليه السلام ما قد رأى من أمره، ونسي موسى أن يأمره فيه بشيء، فصار كل واحد منهما ناسياً لغيره، ما نسيه الآخر.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾ أي: فإتّخذ الحوت طريقه في البحر مسلكاً يذهب فيه، وذلك أن، موسى عليه السلام وفتاه، تزوّدا حوتاً مملوحاً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: حوتاً طريّاً، ـ عن الحسن ـ. ثمّ إنطلقا يمشيان على شاطىء البحر، حتى إنتهيا إلى صخرة على ساحل البحر، فأويا إليها، وعنده عين ماء تسمّى عين الحياة. فجلس يوشع بن نون، وتوضّأ من تلك العين، فإنتضح على الحوت شيء من ذلك الماء، فعاش ووثب في الماء، وجعل يضرب بذنبه الماء، فكان لا يسلك طريقاً في البحر إلا صار الماء جامداً، فذلك معنى قوله: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً﴾.

﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ ذلك المكان ﴿قَالَ﴾ موسى ﴿ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ قيل: إنهما إنطلقا بقيّة يومهما وليلتهما، فلمّا كان من الغد، قال موسى عليه السلام ليوشع: آتنا غداءنا أي: أعطنا ما نتغدّى به، والغداء: طعام الغداة، والعشاء: طعام العشي. والإنسان إلى الغداء أشدّ حاجة منه إلى العشاء.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً﴾ أي: تعباً وشدّة. قالوا: إنّ الله تعالى ألقى على موسى الجوع؛ ليتذكّر حديث الحوت.

﴿قَالَ﴾ له يوشع عند ذلك ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ ﴾ ومعناه: أنّ يوشع تذكر قصّة الحوت، لمّا دعا موسى عليه السلام بالطعام ليأكل، فقال له: أرأيت حين رجعنا إلى الصخرة، ونزلنا هناك، فإنّي تركت الحوت وفقدته. وقيل: نسيته، ونسيت حديثه. وقيل: فيه إضمار أي: نسيت أن أذكر لك أمر الحوت.

ثمّ إعتذر، فقال: ﴿ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ﴾ وذلك أنّه لو ذكر لموسى عليه السلام قصّة الحوت عند الصخرة، لما جاوزها موسى، ولما ناله النصب الذي أشكاه، ولم يلق في سفره النصب إلّا يومئذ.

﴿ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴾ أي: سبيلاً عجباً، وهو أنّ الماء إنجاب عنه، وبقي كالكوة لم يلتئم. وقيل: إنّ كلام يوشع قد إنقطع عند قوله: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ ﴾ فقال موسى عند ذلك: عجباً كيف كان ذاك. وقيل: إنّ معناه: وإتّخذ موسى سبيل الحوت في البحر عجباً، ـ عن ابن عباس ـ. والمعنى: دخل موسى الكوة على أثر الحوت، فإذا هو بالخضر.

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ قال موسى عليه السلام: ذلك ما كنّا نطلب من العلامة ﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا﴾ أي: رجعا وعادا عودهما على بدئهما في الطريق الذي جاءا منه، يقصّان آثارهما ﴿ قَصَصاً ﴾ أي: ويتبعانها، ويوشع امام موسى عليه السلام، حتى إنتهيا إلى مدخل الحوت.

(القِصَّة): سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: أخبرني أبيّ بن كعب قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: إنّ موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أيّ الناس أعلم؟ قال: أنا. فعتب الله عليه إذا لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: إنّ لي عبداً بمجمع البحرين، هو أعلم منك(١)! قال موسى: يا ربّ! فكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل[١]. ثمّ إنطلق، وإنطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة، وضعا رؤوسهما فناما. وإضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه، فسقط في البحر، وإتّخذ سبيله في البحر سرباً، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق. فلمّا إستيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فإنطلقا بقيّة يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد، قال موسى لفتاه: ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴾ قال: ولم يجد موسى النصب، حتى جاوز المكان الذي أمر الله تعالى به. فقال فتاه: ﴿ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ ﴾ الآية. قال: وكان للحوت سرباً، ولموسى ولفتاه عجباً. فقال موسى: ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ﴾ الآية.

قال: رجعا يقصّان آثارهما حتى إنتهيا إلى الصخرة، فوجدا رجلاً مسجى بثوب، فسلّم عليه موسى، فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام؟ قال: أنا موسى. قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم أتيتك لتعلّمني ممّا علمت رشداً. قال: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ يا موسى، إنّي على علم من علم الله لا تعلّمه، علّمنيه، وأنت على علم من علم الله علمك لا أعلمه أنا. فقال له موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ

---

(١) تفاضل الأنبياء في العلم إنّما هو فيما أوحي إليهم من الشرائع والأحكام، للعباد ومصالحهم في الدنيا والآخرة، وهو من أصعب العلوم، لايهتدى إليها الحكماء بعقولهم، بل هو خاصّ بالأنبياء، ومشرّعو الأمم يأخذون منهم أخذاً ناقصاً مشوّهاً ينظر كل منهم الى وجه واحد، ويراعون مصلحة خاصّة في تشريعهم، فمن فوائد هذه القصّة: التنبيه على عدم إحاطة البشر علماً بمصالح الأحكام لتعارضها.

[١] المكتل: الزنبيل يجعل فيه التمر وغيره.

صَابِراً، ولاَ أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾ فقال له الخضر: ﴿فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً﴾. فإنطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرّت سفينة، وكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوه بغير نول.

فلمّا ركبا في السفينة، لم يفجأ إلّا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم[١]. فقال له موسى: قوم قد حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمراً. قال: ألم أقل إنّك لن تستطيع معي صبراً. قال: لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسراً. قال: وقال رسول الله ﷺ: كانت الأولى من موسى عليه السلام نسياناً. وقال: وجاء عصفور، فوقع على حرف السفينة، فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله، إلّا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثمّ خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذا أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فأقلعه فقتله. فقال له موسى: أقتلت نفساً زكيّة بغير نفس، لقد جئت شيئاً نكراً. قال: ألم أقل لك إنّك لن تستطيع معي صبراً.

قال: وهذه أشدّ من الأولى. قال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ إلى قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ كان مائلاً، فقال الخضر عليه السلام: بيده، فأقامه، فقال موسى عليه السلام: قوم قد أتيناهم فلم يطعمونا، ولم يضيفونا، لو شئت لإتّخذت عليه أجراً. قال: هذا فراق بيني وبينك.

فقال رسول الله ﷺ: وددنا أنّ موسى كان صبر حتى يقصّ علينا من خبرهما. قال سعيد بن جبير: كان ابن عباس يقرأ: وكان إمامهم ملك يأخذ كل

---

[١] القدوم: آلة النجر والنحت.

سفينة صالحة غصباً. وكان يقرأ: وأمّا الغلام فكان كافراً، وكان أبواه مؤمنين، رواه البخاري ومسلم في الصحيحين. وروى أصحابنا، عن أبي عبد الله عليه السلام أيضاً: إنّه كان يقرأ: كل سفينة صالحة غصباً. وروي ذلك أيضاً عن أبي جعفر عليه السلام، قال: وهي قراءة أمير المؤمنين عليه السلام.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا
وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ
عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ
مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ
فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿٧٠﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا
لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ
لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ
قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾
۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾

القراءة قرأ أبو عمرو، ويعقوب: ﴿رَشَداً﴾ ـ بالفتح ـ. والباقون: ﴿رُشْداً﴾

ـ بضمّ الراء، وسكون الشين ـ. وقرأ: ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي﴾ ـ مشدّدة النون ـ مدنيّ شاميّ. والباقون: خفيفة النون. ولم يخالفوا في إثبات الياء فيه وصلاً ووقفاً؛ لأنّها مثبتة في جميع المصاحف. وقرأ: ليَغرق ـ بفتح الياء والراء ـ. ﴿أَهْلُهَا﴾ ـ بالرفع ـ كوفيّ غير عاصم. والباقون: ﴿لِتُغْرِقَ﴾ ـ بضمّ التاء ـ ﴿أَهْلَهَا﴾ ـ بالنصب ـ. وقرأ: زَكِيَّةَ ـ بغير ألف ـ كوفيّ وشاميّ [وسهل]، والباقون: زاكية. وقرأ: ﴿نُكْراً﴾ ـ بضمّتين ـ مدنيّ غير إسماعيل، وأبوبكر، ويعقوب، وسهل وابن ذكوان. والباقون. ﴿نُكْراً﴾ ـ ساكنة الكاف ـ[1].

الحجّة: قال أبو عليّ: الرَشَد والرُشْد، لغتان، وقد أجرى العرب كل واحد منهما مجرى الآخر، فقالوا: أَسَد وأُسْد، وخَشَب وخُشْب، فجمعوا «فَعَلا» على «فُعْل»، ثمّ «فُعُلاً» أيضا على «فَعَل»، وذلك قوله: ﴿وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ﴾، وفي آية أخرى في ﴿الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ﴾. فهذا يدلّك على أنّهم أجروهما مجرى واحد. ومن قرأ ﴿فَلاَ تَسْأَلْنِي﴾ ـ بالتشديد ـ فإنّه لمّا أدخل النون الثقيلة بني الفعل معها على الفتح، قال: والقراءة بالتاء في ﴿لِتُغْرِقَ﴾ أولى؛ ليكون الفعل مسنداً إلى المخاطب، كما كان المعطوف عليه كذلك، وهو ﴿أَخَرَقْتَهَا﴾. وهذا يأتي في معنى الياء أيضاً؛ لأنّهم إذا أغرقهم غرقوا. وقوله: ﴿نُكْراً﴾ فعل، وهو من أمثلة الصفات، قالوا: ناقة أُجُد، ومشية سحج، فمن خفّف ذلك، كما يخفّف نحو: العنق، والطنب، والشغل، فالتخفيف فيه مستمرّ.

اللغة: الإمر: الداهية العظيمة. قال الشاعر:

لَقَدْ لَقِي الأَقْرَانُ مِنّي نُكْراً ... داهِيَةً دَهْيَاءَ إِدّاً إِمْرا

وهو مأخوذ من الأمر؛ لأنّه الفاسد الذي يحتاج أن يؤمر بتركه إلى الصلاح. ومنه:

---

(١) تعلّمن: بإثبات الياء وصلاً نافع وأبو عمرو، وفي الحالين ابن كثير وفتح الياء من «معي صبراً» حفص وحده ومن «ستجدني إن شاء الله» نافع وأبو جعفر. وأبدل ورش همزة «لاتؤاخذني» واواً على أصله، وإن لم نصرّح به في كثير من المواضع. وإختلفوا في «زاكية» لأنّ الألف غير مكتوبة.

رجل إمر: إذا كان ضعيف الرأي؛ لأنّه يحتاج أن يؤمر حتى يقوّى رأيه. ومنه: أمر القوم أي: كثروا، ومعناه: إحتاجوا إلى من يأمرهم وينهاهم. ومنه: الأمر، من الأمور أي: الشيء الذي من شأنه أن يؤمر فيه.

﴿الإعراب﴾: قوله: ﴿رُشْداً﴾ يجوز أن ينتصب على أنّه مفعول له، ويكون المعنى: هل أتّبعك للرشد، أو لطلب الرشد على أن تعلّمني، فيكون ﴿عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي﴾ حالاً من قوله: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾. ويجوز أن يكون قوله: ﴿رُشْداً﴾ مفعولاً به، وتقديره: أتّبعك على أنْ تعلّمني رشداً ممّا علمته، ويكون العالم الذي يتعدّى إلى مفعول واحد، فيتعدّى بتضعيف العين إلى المفعولين. والمعنى: على أن تعلّمني أمراً ذا رشد، وعلماً ذا رشد. و﴿خُبْراً﴾ نصب على المصدر، والمعنى: لم يخبره خبراً.

﴿المعنى﴾: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا﴾ أي: صادف موسى وفتاه، وأدركا عبداً من عبادنا، قائماً على الصخرة يصلّي، وهو الخضر عليه السلام، وإسمه بليا بن ملكان [بعلكان]. وإنّما سمّي خضراً؛ لأنّه إذا صلّى في مكان، إخضرّ ما حوله. وروي مرفوعاً أنّه قعد على فروة بيضاء، فإهتزّت تحته خضراء. وقيل: إنّه رآه على طنفسة خضراء، فسلّم عليه، فقال: وعليك السلام يا نبيّ بني إسرائيل. فقال له موسى: وما أدراك من أنا؟ ومن أخبرك أنّي نبيّ؟ قال: من دلّك عليّ.

وأختلف في هذا العبد، فقال بعضهم: إنّه كان ملكاً، أمر الله تعالى موسى أن يأخذ عنه ما حمله إيّاه من علم بواطن الأشياء. وقال الأكثرون: إنّه كان من البشر. ثمّ إختلفوا، فقال الجبائي وغيره: إنّه كان نبيّاً لأنّه لا يجوز أن يتّبع النبيّ من ليس بنبيّ؛ ليتعلّم منه العلم؛ لما في ذلك من الغضاضة على النبيّ. وكان ابن الأخشيد يجوّز أن لا يكون نبيّاً، ويكون عبداً صالحاً أودعه الله من علم باطن الأمور، ما لم يودعه غيره، وهذا ليس بالوجه.

ومتى قيل: كيف يكون نبيّ أعلم من موسى في وقته؟ قلنا: يجوز أن يكون الخضر خصّ بعلم ما لا يتعلّق بالأداء، فإستعلم موسى من جهته ذلك العلم فقط،

وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه في العلوم التي يؤدّيها من قبل الله تعالى[١].

﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ يعني: النبوّة. وقيل: طول الحياة ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ أي: علماً من علم الغيب، ـ عن ابن عباس ـ. وقال الصادق عليه السلام: كان عنده علم لم يكتب لموسى عليه السلام في الألواح، وكان موسى عليه السلام يظنّ أنّ جميع الأشياء التي يحتاج إليها في تابوته، وأنّ جميع العلم قد كتب له في الألواح.

﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴾ أي: علماً ذا رشد. قال قتادة: لو كان أحد مكتفياً من العلم لإكتفى نجي الله موسى، ولكنّه قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، الآية. عظّمه عليه السلام بهذا القول غاية التعظيم، حيث أضاف العلم إليه، ورضي بإتّباعه، وخاطبه بمثل هذا الخطاب. والرشد: العلوم الدينيّة التي ترشد إلى الحقّ. وقيل: هو علوم الألطاف الدينيّة التي تخفى على الناس.

﴿قَالَ﴾ العالم ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴾ أي: يثقل عليك الصبر، ولا يخفّ عليك. ولم يرد: أنّه لا يقدر على الصبر، وإنّما قال ذلك؛ لأنّ موسى عليه السلام كان يأخذ الأمور على ظواهرها، والخضر كان يحكم بما أعلمه الله من بواطنها، فلا يسهل على موسى مشاهدة ذلك.

ثمّ قال ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ أي: كيف تصبر على ما ظاهره عندك منكر، وأنت لم تعرف باطنه، ولم تعلم حقيقته. والخُبْر: العلم. وفي هذا دلالة على أنّه لم يرد بقوله: ﴿لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ نفي الإستطاعة للصبر، لأنه لو أراد ذلك، لكان لا يستطيع الصبر، سواء علم أو لم يعلم.

﴿قَالَ﴾ موسى: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللهُ صَابِراً﴾ أي: أصبر على ما أرى منك.

---

(١) يعني يجب أن يكون الحجّة أعلم فيما يتعلق بأحكام الناس، ويؤدّيه إليهم، لا في جميع الأمور ممّا لايجب تأديته إلى الناس، ومن المعلوم أنّ أعظم أفراد البشر قديماً في تشريع القوانين، والأحكام، موسى عليه السلام بما أوحى إليه من ربّه، وشريعته باقية إلى اليوم في أيدي الناس، ومع ذلك كان الخضر أعلم منه، فيما لم يكن المصلحة أداؤه إلى الناس، وتدوين حكمه في الشريعة كقتل صبي؛ حفظاً لأبويه من الكفر.

﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴾ تأمرني به، ولا أخالفك فيه. قال الزجّاج: وفيما فعله موسى عليه السلام، وهو من جملة الأنبياء، من طلب العلم، والرحلة فيه، ما يدلّ على أنّه لا ينبغي لأحد أن يترك طلب العلم، وإن كان قد بلغ نهايته، وأنّه يجب أن يتواضع لمن هو أعلم منه. وإنّما قيّد عليه السلام صبره بمشيئة الله؛ لأنّه أخبر به على ظاهر الحال، فجوز أن لا يصبر فيما بعد، بأن يعجز عنه، فقال: إن شاء الله، ليخرج بذلك من أن يكون كاذباً.

﴿قَالَ﴾ الخضر له ﴿ فَإِنْ اتَّبَعْتَنِي ﴾ وإقتفيت أثري ﴿ فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ أي: لا تسألني عن شيء أفعله ممّا تنكره، ولا تعلم باطنه، حتى أكون أنا الذي أفسّره لك.

﴿فَانْطَلَقَا﴾ يمشيان على شاطىء البحر ﴿حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ ومعناه: إنّهما أرادا أن يعبرا في البحر إلى أرض أخرى، فأتيا معبراً، فعرف صاحب السفينة الخضر عليه السلام، فحملهما. فلمّا ركبا في السفينة خرق الخضر عليه السلام السفينة أي: شقّها حتى دخلها الماء. وقيل: إنّه قلع لوحين ممّا يلي الماء، فحشاهما موسى عليه السلام بثوبه، و ﴿قَالَ﴾ منكراً عليه ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ ولم يقل: لنغرق، وإن كان في غرقها غرق جميعهم؛ لأنّه أشفق على القوم أكثر من إشفاقه على نفسه؛ جرياً على عادة الأنبياء.

ثمّ قال بعد إنكاره ذلك: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴾ أي: منكراً عظيماً. يقال أمر الأمر أمراً: إذا كبر. والإمر: الإسم منه فـ﴿قَالَ﴾ له الخضر: ﴿ أَلَمْ أَقُلْ ﴾ لك ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِي صَبْراً ﴾ أي: ألم أقل حين رغبت في إتّباعي، إنّ نفسك لا تطاوعك على الصبر معي، فتذكر موسى ما بذل له من الشرط.

ثم ﴿قَالَ﴾ معتذراً مستقيلاً ﴿لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ أي: غفلت من التسليم لك، وترك الإنكار عليك، وهو من النسيان الذي هو ضدّ الذكر. وروي عن أبيّ بن كعب، قال: إنّه لم ينس، ولكنّه من معاريض الكلام. وقيل: بما تركت من

وصيّتك وعهدك، ـ عن ابن عباس ـ. وعلى هذا فيكون من النسيان بمعنى الترك، لا بمعنى الغفلة والسهو.

﴿وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾ أي: لا تكلّفني مشقّة، تقول: أرهقته عسراً: إذا كلّفته ذاك. والمعنى: عاملني باليسر، ولا تعاملني بالعسر، ولا تضيق علي الأمر في صحبتي إيّاك.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ﴾ ومعناه: فخرجا من البحر، وإنطلقا يمشيان في البرّ، يعني: موسى والخضر، ولم يذكر يوشع؛ لأنّه كان تابعاً لموسى، أو كان قد تأخّر عنهما، وهو الأظهر؛ لإختصاص موسى بالنبوّة، وإجتماعه مع الخضر عليهما السلام في البحر، فلقيا غلاماً يلعب مع الصبيان، فذبحه بالسكّين، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وكان من أحسن أولئك الغلمان، وأصبحهم. وقيل: صرعه، ثمّ نزع رأسه من جسده. وقيل: ضربه برجله فقتله. وقال الأصم: كان شابّاً بالغاً؛ لأنّ غير البالغ لا يستحقّ القتل، وقد يسمّى الرجل غلاماً، قالت ليلى الأخيلية:

شَفاها مِنَ [الدّاءِ] العُضالِ الَّذي بِها غُلامٌ إِذا هَـزَّ القَـناةَ سَـقاها[1][1]

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً﴾ أي: طاهرة من الذنوب، وزكيّة: بريئة من الذنوب. وقيل: الزاكية: التي لم تذنب. والزكيّة: التي أذنبت، ثمّ تابت. حكي ذلك عن أبي عمرو بن العلاء. وقيل: الزكيّة: أشدّ مبالغة من «الزاكية»، ـ عن ثعلب ـ. وقيل: الزاكية: في البدن، والزكيّة: في الدين ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ أي: بغير قتل نفس، يريد القود.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً﴾ أي: فظيعاً منكراً، لا يعرف في شرع. والمنكر أشد من الأمر، عن قتادة. وإنما قال ذلك لأن قلبه صار كالمغلوب عليه حين رأى قتله ﴿قَالَ﴾ العالم ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً﴾ أعاد هذا القول لتأكيد الأمر عليه، والتحقيق لما قاله أولاً، مع النهي عن العود بمثل سؤاله.

---

(١) ليس المراد من الشعر المعنى الخبيث الذي يتبادر إلى الذهن، بل المراد: الإنتقام من أعدائنا [ئها] برمح يسقيه الدم في الحرب.

[١] الداء العُضال: المستعصي علاجُه.

قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا
﴿٧٦﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا
أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ ۖ (١)
قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى
وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا
ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا
وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ
فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا
﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا
﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ
تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ
أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ ۖ
عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

القراءة: قرأ يعقوب برواية روح وزيد: فلا تصحبني والباقون: ﴿فَلَا

---

(١) إتّفقت المصاحف على حذف الألف من «لتّخذت عليه». وإختلفت في «فلا تصاحبني». وإعلم أنّ الألف التي هي علامة الإشباع كثيرة الإختلاف، مكتوبة في بعض المواضع، غير مكتوبة في بعضها. وإختلف المصاحف كثيراً في موضع واحد، وذلك لانّ الألف ليست حرفاً، بل حركة كالفتحة.

﴿تُصَاحِبْنِي﴾. وقرأ أهل المدينة، وأبو بكر عن عاصم: من ﴿لَدُنِّي﴾ خفيفة النون. والباقون: ﴿لَدُنِّي﴾ بالتشديد. وقرأ ابن كثير، وأهل البصرة: ﴿لَتَّخَذْتَ﴾ بكسر الخاء مخفّفة التاء، وابن كثير: يظهر منه الذال. والباقون: ﴿لَتَّخَذْتَ﴾، وعاصم يظهر الذال. والآخرون يُدغمون. وقرأ أهل المدينة، وأبو عمرو: ﴿أَنْ يُبْدِلَهما﴾ ـ بفتح الباء، وتشديد الدال ـ وكذلك في التحريم: ﴿أَنْ يُبْدِلَهُ﴾، وفي القلم: ﴿أَنْ يُبَدِّلنا﴾. والباقون: بسكون الباء، وتخفيف الدال.

وقرأ: رحما ـ بضمّ الحاء ـ أبو جعفر، وابن عامر، [وعاصم]، وعباس، ويعقوب، وسهل. والباقون: بسكون الحاء. وفي الشواذّ، قراءة النبيّ ﷺ: ﴿جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ ـ بضمّ الياء ـ. وقراءة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وعكرمة، ويحيى بن يعمر: ينقاص ـ بصاد غير معجمة، وبالألف ـ. وقراءة عبدالله، والأعمش: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ [ينقض]﴾.

الحجة: من قرأ: فلا تصحبني، فمعناه: لا تكون [نن] صاحبي. ومن قرأ: ﴿فَلاَ تُصَاحِبْنِي﴾ فمعناه: إن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك. وأمّا قوله: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾: فإنّ الأجود تشديد النون؛ لأنّ أصل «لدن» الإسكان، فإذا أضفتها إلى نفسك، زدت نوناً لتسلم سكون النون الأولى. تقول: من لدن زيد، ومن لدنّي، كما تقول: عن زيد، وعنّي. ومن قرأ: ﴿لَدُنِّي﴾: لم يجز له أن يقول: عنّي؛ لأنّ «لدن» إسم غير متمكّن. ومِنْ وعَن: حرفان جاء المعنى، و«لدن» مع ذلك أثقل من «مِن وعَن». والدليل على أنْ الأسماء يجوز فيها حذف النون: قولهم: قدني في معنى «حسبي». ويجوز: قدي. قال: «قدني من نصر الخبيبين قدي»[1]. فجاء باللغتين. وقال أبو زيد: إتّخذنا مالاً نتّخذه إتّخاذاً، وتَخِذتُ أتخذ تخذاً.

---

(١) تمامه: ليس الإمام بالشحيح الملحد. أراد بالخبيبين: عبدالله ومصعب ـ ابني الزبير ـ وكان عبدالله معروفاً بالبخل. والإلحاد: الجور في الحرم.

وقال أبو عليّ: وجه الإدغام: أنّ هذه الحروف متقاربة، فيدغم بعضها في بعض، كما يدغم سائر المتقاربة. فالتاء، والدال، والطاء، والظاء، والذال، والثاء، يدغم بعضها في بعض؛ للمقاربة. فأمّا الصاد، والسين، والزاء، فيدغم بعضها في بعض، ويدغم فيها الحروف الستّة، ولا يدغمن في الستّة؛ لما يختلّ من إدغامها في مقاربها من الصفير. وأمّا قوله: ﴿أَنْ يُبْدِلَهُمَا﴾ فإنّ «أبدل وبدّل» متقاربان في المعنى، كما أنّ «أنزل ونزل» كذلك. وأمّا قوله: رُحُما: فإنّ «الرحم والرحم» هيهنا: الرحمة. قال رؤبة:

يا مُنْزِلَ الرُّحْمِ عَلَى إِدْرِيسِ وَمُنْزِلَ اللَّعْنِ على إِبلِيسِ

قال ابن جنّي: قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ معناه: قد قارب أو شارف ذلك، فهو عائد إلى معنى يكاد، وقد جاء ذلك عنهم. وأنشد أبو الحسن:

كادَتْ، وَكِدْتُ، وَتِلْكَ خَيْرُ إِرادَةٍ لَوْ عادَ مِنْ لَهْوِ الصَّبابَةِ ما مَضى[1]

وحسنٌ هنا لفظ الإرادة؛ لأنّه أقوى في وقوع الفعل، وذلك أنّها داعية إلى وقوعه، وهي أيضاً لا تصحّ إلّا مع الحياة، ولا يصحّ الفعل إلّا لذي الحياة، وليس كذلك «كَادَ»؛ لأنّه قد يقارب الأمر ما لا حياة له نحو: ميل الحائط، وإشراق ضوء الفجر. وينقاصُ أي: ينكسر. يقال: قِصتُهُ فإنقاص قال:

فِراقٌ كَقَيْصِ السِّنِّ، فَالصَّبْر إِنَّهُ لِكُلِ أُناسٍ كَسْرَةٌ، وَجُبُورُ[1]

وقالوا أيضاً: قضته فإنقاض ـ بضاد معجمة ـ، يعني: هدمته فإنهدم. قال: «كَأَنَّها هَدَمٌ في الْجَفْر مُنْقاض»[2]. وقراءة العامّة ﴿يَنْقَضَّ﴾ يحتمل أمرين: **أحدهما**: أن يكون ينفعل، من القضّة، وهي الحصى الصغار. **والآخر**: أن يكون يفعل،

---

(١) كادت وكدت أن أفوزَ بوصالها.

(٢) الجفر: البئر الواسعة. والهدم: ماتهدم من جوانب البئر، يصف إمرأة فاجرة.

[١] قائله: أبو ذؤيب.

من نقضت الشيء، كقراءة النبيّ ﷺ: يريد أن ينقض، فيكون كيزورُّ، ويرعوي، ونحوهما، ممّا جاء من غير الألوان والعيوب. ومن قرأ: لينقض، فإن شئت قلت: اللام زائدة فيه، وإحتججت فيه بقرائة النبيّ ﷺ. وإن شئت قلت: تقديره: إرادته لكذا، كقولك: قيامه لكذا، وجلوسه لكذا. ثمّ وضع الفعل موضع مصدره، كما أنشد أبو زيد:

فَقالوا ما تَشاءُ، فَقُلْتُ أَلْهُو ... إلى الإصْباحِ، آثِرَ ذي أَثِيرٍ[1]

أي: اللهو، فوضع «ألهو» موضع مصدره. وأنشد أيضاً:

وَأَهْلَكَني لَكُمْ في كُلِّ يَوْمٍ ... تَعَوُّجُكُمْ عَلَيَّ، وَأَسْتَقِيمُ

أي: وإستقامتي. وكاللام [لكلام] هنا اللام في قوله:

أُرِيدُ لأَنْسَى ذِكْرَها، فَكَأَنَّما ... تَمَثَّلُ لِي لَيْلى بَكُلِّ سَبِيلِ[1]

فيحتمل اللام هنا الوجهين اللذين تقدّم ذكرهما.

اللغة: الإنقضاض: السقوط بسرعة. قال ذو الرمة: «فأنقضّ كالكوكب الدّرّي منصلتا». والوراء والخلف واحد، وهو نقيض جهة القدّام، ويستعمل «وراء» بمعنى القدّام أيضاً على الإتّساع؛ لأنّها جهة مقابلة لجهة، فكأن كل واحدة من الجهتين وراء الأخرى. قال الشاعر:

أَتَرْجُو بَنُو مَرْوانَ سَمْعِي، وَطاعَتي ... وَقَوْمي تَميمٌ، وَالفَلاةُ وَرائِيا[2]

وقال لبيد:

أَلَيْسَ وَرَاءي إنْ تَراخَتْ مَنِيَّتي ... لُزُومُ العَصا تَحْنُو عَلَيْهاً الأَصابعُ[2]

---

(١) فعله أثر ذي أثير يعني: مقدماً على كل شيء.

(٢) يصف نفسه بالكبر، وأنّه ليس له بقيّة عمره إلّا الأخذ بالعصا.

[١] قائله: كثير.

[٢] قائله: سوار بن المضرّب العبدي.

وقال الفرّاء: يجوز ذلك في الزمان دون الأجسام. قال عليّ بن عيسى وغيره: يجوز في الأجسام التي لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر. والإرهاق: إدراك الشيء بما يغشاه. ورهقه الفارس أي: غشيه، وأدركه. وغلام مراهق: إذا قارب أن يغشاه حال البلوغ. ويقال: أرهقه أمراً أي: ألحقه إيّاه. قال الأزهري: الرهق: جهل الإنسان. وأرهقه عسراً: كلّفه إيّاه. وجاء في الحديث: «كان النبيّ ﷺ إذا دخل مكة مراهقاً، خرج إلى عرفة» أي: ضاق عليه الوقت.

﴿الإعراب﴾: قال الزجّاج: قوله: ﴿هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ زعم سيبويه أنّ معنى مثل هذا التوكيد يعني: هذا فراق بيننا أي: هذا فراق إتّصالنا، ومثله من الكلام: أخزى الله الكاذب منّي ومنك. وهذا لا يكون إلّا بالواو. ولا يجوز: هذا فرق بيني فبينك؛ لأنّ معنى الواو: الإجتماع، ومعنى الفاء: أن يأتي الثاني في أثر الأوّل. و «مساكين»: لا ينصرف؛ لأنّه جمع ليس له في الآحاد نظير. ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾: منصوب على ضربين:

أحدهما: أنّ المعنى: فعلنا ذلك رحمة أي: للرحمة، كما تقول: أنقذتك من الهلكة رحمة لك. والآخر: أن يكون منصوباً على المصدر؛ لأنّ معنى قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ رحمهما الله بذلك.

﴿المعنى﴾: ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ أي: قال له موسى جواباً: إن سألتك عن شيء بعد هذه المرّة، أو بعد هذه النفس، وقتلها، فلا تتركني أصحبك.

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾ أي: قد أعذرت فيما بيني وبينك، وقد أخبرتني أنّي لا أستطيع معك صبراً، ـ عن ابن عباس ـ. وهذا إقرار من موسى عليه السلام بأنّ الخضر قد قدم إليه ما يوجب العذر عنده، فلا يلزمه ما أنكره. وروي أنّ

النبيّ ﷺ تلا هذه الآية فقال: إستحيى نبيّ الله موسى، ولو صبر لرأى ألفاً من العجائب.

﴿ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ وهي إنطاكية، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل ايلة، ـ عن ابن سيرين، ومحمّد بن كعب ـ. وقيل: هي قرية على ساحل البحر، يقال لها: ناصرة، وبها سمّيت النصارى نصارى، وهو المرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام.

﴿ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا ﴾ أي: سألاهم الطعام ﴿ فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا ﴾. والتضييف والإضافة بمعنى واحد أي: لم يضيفهما أحد من أهل القرية[1]. وروى أبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ قال: كانوا أهل قرية لئام. وقال أبو عبد الله عليه السلام: لم يضيفوهما ولا يضيفون بعدهما أحداً إلى أن تقوم الساعة.

﴿ فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ ﴾ وصفُ الجدار بالإرادة مجاز، ومعناه: قرب أن ينقض، وأشرف على أن ينهدم، وذلك على التشبيه بحال من يريد الفعل في الثاني. وهذا من فصيح كلام العرب، ومثله في أشعارهم كثير. قال الراعي يصف الإبل:

في مَهْمَهٍ قَلِقَتْ [فَلَقَتْ] بِهَا هاماتُها
قَلَقَ [فَلْقَ] الفُؤُوسِ إذا أَرَدْنَ فُصُولا [نُصُولاً][2]

---

(١) وإعلم أنّ أحكام الشريعة إمّا لحفظ أموال الناس، وإما لحفظ نفوسهم، وبعد ذلك مايتعلّق بالسياسة، ومنع المتخلّف بالمجازاة والجهاد. وأمّا الخضر فلم يبال بحفظ مال المساكين، وخرق السفينة، ولم يبال بالنفس المحترمة، فقتل الغلام، وأهمل الإنتقام ممّن تخلّف عن إطعامهما، وبنى لهما الجدار، ومثل هذا يجرىء الظالمين، ويخالف السياسة، فخالف الخضر جميع الفقه في محضر أعظم فقهاء العالم، ولم يكن مخالفاً واقعاً. وهذا يدلّ على عدم إحاطة أحد على مصالح الأحكام.

(٢) النصول: نبت بهمى يرعاه الإبل. والفؤوس: جمع فاس. ونصولاً: مفعول «فلقت» يعني: فلقت الإبل النصول كفلق الفاس.

وقال الآخر:

يُـريدُ الرُّمْـحُ صَـدْرَ أَبـي بَـرْاءٍ وَيَرْغَبُ عَـنْ دِمـاءِ بَـني عَـقيلِ

وقريب منه قول الآخر:

إِنَّ دَهْـراً يَـلِفُّ شَـمْلي بِسُـعْدىٰ لَـزَمانٌ يَـهُمُّ بِـالإِحْسانِ

أي: كأنّه يهمّ. وقال عنترة يصف فرسه:

فَـازْوَرَّ مِـنْ وَقْـعِ القَـنا بِـلبانِهِ وَشَكَـا إِلَـيَّ بِـعَبْرَةٍ وَتَـحَمْحُم

﴿فَأَقَامَهُ﴾ أي: سوّاه. قيل: إنّه دفع الجدار بيده فإستقام، ـ عن سعيد بن جبير ـ. ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً﴾ معناه: إنّهم لمّا بخلوا عليهما بالطعام، وأقام الخضر جدارهم المشرف على الإنهدام، عجب موسى بن ذلك، فقال: لو شئت لعملت هذا بأجر تأخذه منهم، حتى كنّا نسدّ به جوعتنا.

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ معناه: هذا الكلام، والإنكار على ترك الأجر، هو المفرّق بيننا. وقيل: معناه: هذا وقت فراق إتّصالنا. وكرّر «بين» تأكيداً، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: معناه: هذا الذي قلته سبب الفراق بيني وبينك. ثمّ قال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ أي: سأخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي: بتفسير الأشياء التي لم تستطع على الإمساك عن السؤال عنها صبراً.

﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ ﴾ معناه: أمّا السبب في خرقي السفينة، فهو أنّها كانت لفقراء لا شيء لهم يكفيهم، قد سكنتهم قلّة ذات أيديهم ﴿ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ أي: يعملون بها في البحر، ويتعيّشون بها ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أي: أحدث فيها عيباً.

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ أي: وكان قدّامهم ﴿مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صحيحة، أو غير معيبة ﴿غَصْباً﴾ ـ عن قتادة، وابن عباس ـ.

قال عباد بن صهيب: قدمت الكوفة لأسمع من إسماعيل بن أبي خالد،

فمررت بشيخ جالس، فقلت: يا شيخ! كيف أمرّ إلى منزل إسماعيل بن أبي خالد؟ فقال لي: وراءك. فقلت: أرجع؟ فقال: أقول وراءك وترجع؟ فقلت: أليس ورائي خلفي؟ قال: لا. ثمّ قال: حدّثني عكرمة، عن ابن عباس: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً. قال: ولو كان وراءهم لكانوا قد جاوزوه، ولكن كان بين أيديهم. قال الخضر: إنّما خرقتها؛ لأنّ الملك إذا رآها منخرفة، تركها، ورقعها أهلها بقطعة خشب فإنتفعوا بها. وقيل: يحتمل أنّ الملك كان خلفهم، وكان طريقهم في الرجوع عليه، ولم يعلم به أصحاب السفينة، وعلم به الخضر عليه السلام.

﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ وروي عن أبيّ، وابن عباس: أنّهما كانا يقراء آن: وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ كافراً وأَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ وروي عن أبي عبد الله عليه السلام، ومعناه: وأمّا الغلام الذي قتلته، فإنّما قتلته؛ لأنّه كان كافراً.

﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴾ أي: فعلمنا أنّه إن بقي يرهق أبويه أي: يغشيهما طغياناً وكفراً، وهو من كلام الله تعالى. وقيل: معناه: فخفنا أن يحتمل [يحمل] أبويه على الطغيان والكفر، بأن يباشر ما لا يمكنهما منعه منه، فيحملهما على الذبّ عنه، والتعصّب له، فيؤدى ذلك إلى أمور يكون مجاوزة للحدّ في العصيان والكفر، وهو من كلام الخضر؛ لأنّ الله تعالى لا يجوز عليه الخشية. وقيل: معناه: فكرهنا أن يرهق الغلام أبويه إثماً وظلماً، بطغيانه وكفره.

﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً ﴾ أي: ولداً خيراً منه ديناً، وطهارة، وصلاحاً، ﴿ وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴾ أي: وأرحم بهما، ـ عن قتادة ـ. والزكاة: الصلاح. والزكي: الصالح. والرحم: العطف، والرحمة. وقيل: معناه: أبرّ بوالديه، وأوصل للرحم، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: وأقرب أن يرحما به.

قال قتادة: قال مطرف: أيم الله! إنّا لنعلم أنّهما فرحا به يوم ولد، وحزنا عليه يوم قتل، ولو عاش كان فيه مهلكتهما، فرضي رجل ما [بما] قسّم الله له، فإنّ قضاء

الله للمؤمن خير من قضائه لنفسه، وما قضى لك يا بن آدم فيما تكره، خير ممّا قضى لك فيما تحبّ، فإستخر الله، وارض بقضائه. وروي أنّهما أبدلا بالغلام المقتول جارية، فولدت سبعين نبيّاً، ـ عن أبي عبد الله عليه السلام ـ. وقيل: إنّه تزوّجها نبيّ من الأنبياء، فولدت له نبيّاً هدى الله على يديه أمّة من الأمم، ـ عن الكلبي ـ. وفي قتل الغلام دلالة على وجوب اللطف على ما نذهب إليه؛ لأنّ المفهوم من الآية أنّه تدبير من الله تعالى، لم يكن يجوز خلافه، وأنّه إذا علم من حال الإنسان أنّه يفسد عند شيء، يجب عليه في الحكمة أن يذهب ذلك الشيء، حتى لا يقع هذا الفساد.

ومتى قيل: إنّه لو حصل لنا العلم بذلك، كما حصل لذلك العالم، هل كان يحسن منّا القتل؟ قلنا: إنّ هذا العلم لا يحصل إلا للأنبياء، وعند حصول العلم به يحسن ذلك.

ومتى قيل: إنّ الله كان قادراً على إزالة حيوة الغلام بالموت من غير ألم، فتزول التبقية التي هي المفسدة من غير إدخال إيلام عليه بالقتل، فلِمَ أمر بالقتل؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: إنّ الله تعالى قد علم أنّ أبويه لا يثبتان على الإيمان إلّا بقتل هذا الغلام، فتعيّن وجه الوجوب في القتل.

والآخر: إنّ تبقية الغلام إذا كانت مفسدة، فالله تعالى مخيّر في إزالتها بالموت من غير ألم، وبالقتل؛ لأنّ القتل وإن كان فيه ألم يلحق المقتول، فإنّ بازائه أعواضاً كثيرة توازي ذلك الألم، ويزيد عليه أضعافاً كثيرة، فيصير القتل بالمنافع العظيمة التي بإزائه، كأنّه ليس بألم، ويدخل في قبيل النفع والإحسان.

﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ ﴾ أي: فإنّما أقمته؛ لأنّه كان ﴿ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ ﴾ يعني: القرية المذكورة في قوله: ﴿أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ.﴾.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ والكنز هو كل مال مذخور من ذهب، أو فضّة، وغير

ذلك. وأختلف في هذا الكنز. فقيل: كانت صحف علم مدفونة تحته، ـ عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد ـ. وقال ابن عباس: ما كان ذلك الكنز إلّا علماً. وقيل: كان كنزاً من الذهب، والفضّة، ـ عن قتادة، وعكرمة، وإختاره الجبائي، ورواه أبو الدرداء عن النبيّ ﷺ ـ. وقيل: كان لوحاً من ذهب، وفيه مكتوب: عجباً لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن! كيف يفرح، عجباً لمن أيقن بالرزق كيف يتعب، عجباً لمن أيقن بالموت يؤمن بالحساب كيف يغفل! عجباً لمن رأى الدنيا وتقلّبها بأهلها؛ كيف يطمئنّ إليها! لا إله إلّا الله؛ محمّد رسول الله. ـ عن ابن عباس، والحسن، وروي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام ـ. وفي بعض الروايات زيادة ونقصان. وهذا القول يجمع القولين الأوّلين؛ لأنّه يتضمّن أنّ الكنز كان مالاً كتب فيه علم، فهو مال وعلم.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ بيّن سبحانه أنّه حفظ الغلامين بصلاح أبيهما، ولم يذكر منهما صلاحاً، ـ عن ابن عباس ـ. وروي عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه كان بينهما وبين ذلك الأب الصالح سبعة آباء. وقال ﷺ: إنّ الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده، وولد ولده، وأهل دويرته، ودويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أي: ينتهيا إلى الوقت الذي يعرفان فيه نفع أنفسهما، وحفظ مالهما، وهو أن يكبرا ويعقلا ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: نعمة من ربّك، والمعنى: إنّ كل ما فعلته رحمة من الله تعالى، أي: رحم الله بذلك المساكين، وأبوي الغلام، واليتيمين، رحمة ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمرِي﴾ أي: وما فعلت ذلك من قبل نفسي، وإنّما فعلته بأمر الله تعالى. قال ابن عباس: يريد إنكشف لي من الله علم، فعملت به.

ثمّ قال ﴿ذَلِكَ﴾ الذي قلته لك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي: ثقل

عليك مشاهدته ورؤيته، وإستنكرته. يقال: إستطاع يستطيع، وإسطاع يسطيع.

قال أبو عليّ الجبائي: لا يجوز أن يكون الخضر حيّاً إلى وقتنا هذا؛ لأنّه لو كان، لعرفه الناس، ولم يخف مكانه، ولأنّه لا نبيّ بعد نبيّنا ﷺ. وهذا الذي ذكره غير صحيح؛ لأنّ تبقيته في مقدور الله تعالى، ويجوز أن تنخرق العادة للأنبياء صلوات الله عليهم بالإجماع، ولا يمتنع أيضاً أن يكون بحيث لا يتعرّف إلى أحد، وأنّ الناس وإن كانوا يشاهدونه لا يعرفونه، وقوله: «إنّه لا نبيّ بعد نبيّنا» مسلّم، ولكن نبوّة الخضر عليه السلام كانت ثابتة قبل نبوّة نبيّنا محمّد ﷺ. وأمّا شرعه لو كان له شرع خاصّ، فإنّه منسوخ بشريعة نبيّنا، ولو كان داعياً إلى شريعة من تقدّمه من الأنبياء، فإنّ شريعة نبيّنا عليه السلام ناسخة لها، فلا يؤدّي إلى ما قاله الجبائي[1].

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾

القراءة: قرأ ابن عامر، وأهل الكوفة: فَأَتْبَعَ ثمّ أتبع ـ بهمزة القطع وفتحها، وتخفيف التاء وسكونها ـ. والباقون: ﴿فَأَتْبَعَ﴾ بهمزة الوصل، وتشديد التاء،

---

(١) وظهر من الآيات أنّ الخضر كان يطوف في البلاد والبراري، ويفعل ما أمره الله تعالى من إصلاح أمر الناس، من حفظ مال، أو نفس، أو دين، كما يعتقده أكثر الناس.

وفتحها. وقرأ أبو جعفر، وابن عامر، وأهل الكوفة، غير حفص: ﴿حَامِيَةً﴾ والباقون: ﴿حَمِئَةٍ﴾ ـ بغير ألف مهموز ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: «تبع على» يتعدّى إلى مفعول واحد، فإذا نقلته بالهمزة، تعدّى إلى مفعولين، يدلّك على ذلك قوله: ﴿وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾. وأمّا «اتّبع»: فإنّه إفتعل، يتعدّى إلى مفعول واحد، كما يتعدّى فعل إليه، مثل: حفرته وإحتفرته، وشويته وإشتويته.

ومن قرأ: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾: تقديره. فأتبع سبباً سبباً، أو أتبع أمره سبباً، أو أتبع ما هو عليه سبباً، فحذف أحد المفعولين، كما حذف في قوله: ﴿لِيُنْذِرَ بَأْساً شَدِيداً﴾ و ﴿لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَولاً﴾. والمعنى: لينذر الناس بأساً شديداً، ولا يكادون يفقهون أحداً قولاً. ومن قرأ: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ فالمعنى: إتّجه في كل وجه وجّهناه له، وأمرناه به، السبب الذي ينال به صلاح ما مكّن منه. وقال أبو عبيدة: معناه: إتّبع طريقاً وأثراً.

ومن قرأ: ﴿حَمِئَةٍ﴾: فعلى «فعلة». ومن قرأ: ﴿حَامِيَةً﴾: فهي «فاعلة» من حميت تحمي، فهي حامية. وروي عن الحسن أنّه قال: حارّة. ويجوز فيمن قرأ: ﴿حَامِيَةً﴾ أن يكون «فاعلة»، من الحماة، فخففّ الهمزة، على قياس قول أبي الحسن، فيقلبها ياء محضة، وإن خفّفها على قول الخليل، كانت بين بين. قال سيبويه: وهو قول العرب.

اللغة: القرن: قرن الشاة وغيرها. وقرون الشعر: الذوائب. ومنه: قول أبي سفيان: «ولا الروم ذوات القرون» أراد: قرون شعورهم؛ لأنّهم كانوا يطولونه. والذكر: حضور المعنى للنفس، وقد يكون بالقلب، وهو التفكّر. وقد يكون باللسان. وكل ما وصل شيئاً إلى شيء فهو سبب. يقال للطريق إلى الشيء سبب، وللحبل سبب، وللباب سبب. والحمأة: الطين الأسود. يقال: حمئت البئر تحمأ فهي حمئة:

إذا صار فيها الحمأة. قال أبو الأسود:

تَجِيءُ بِمِلْئِها طَوْراً، وَطَوْراً تَجِيءُ بِحَمْأةٍ، وَقَلِيلِ مَاءِ

وحمأت البئر: أخرجت منه الحمأة. وأحمأتها: ألقيت فيها الحمأة:

﴿الإعراب﴾: ﴿إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ إنّ مع الفعل في موضع نصب بفعل مضمر، كما أنّ قوله: ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾ كذلك، ويجوز أن يكون «أنْ» مع الفعل في موضع المبتدأ، والخبر مضمر أي: إمّا العذاب واقع منك فيهم، وإمّا إتّخاذ أمر ذي حسن واقع منك فيهم، فحذف الخبر لطول الكلام بالصلة. وهذا أظهر. والأوّل، عن أحمد بن يحيى.

﴿المعنى﴾: ثمّ بيّن سبحانه قصّة ذي القرنين، فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ﴾ يا محمّد ﴿عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾[1] أي: عن خبره وقصّته، لا عن شخصه. وأختلف فيه: فقيل: إنّه نبيّ مبعوث فتح الله على يديه الأرض، ـ عن مجاهد، وعبد الله بن عمر ـ. وقيل: إنّه كان ملكاً عادلاً. وروي عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام: إنّه كان عبداً صالحاً، أحبّ الله، وأحبّه الله، وناصح الله وناصحه، قد أمر قومه بتقوى الله، فضربوه على قرنه، ضربة بالسيف، فغاب عنهم ما شاء الله. ثمّ رجع إليهم، فدعاهم إلى الله، فضربوه على قرنه الآخر بالسيف، فذلك قرناه، وفيكم مثله ـ يعني نفسه عليه السلام.

وفي سبب تسميته بذي القرنين أقوال أخر: منها: إنّه سمّي به؛ لأنّه كانت له ضفيرتان، ـ عن الحسن ـ. ومنها: إنّه كان على رأسه شبه القرنين تواريه العمامة، ـ عن يعلى بن عبيد ـ. ومنها: إنّه بلغ قطري الأرض من المشرق والمغرب، فسمّي

---

(١) والمذهب الصحيح: أنّ «ذا القرنين» هو الإسكندر المقدوني، كان عرفه اليهود، فإنّه غزا بيت المقدس، ولكن لم يقتل منهم أحداً، واقرّهم على دينهم، وأكرم علمائهم، وقرّر عليهم أحكامهم، وقضاتهم، وأمرهم بمتابعة التوراة على ما كانت معمولة لديهم. وقال البيروني أنّه كان من ملوك اليمن، ويعتقد بعض الناس في زماننا، أنّه كورش ملك فارس، وكان اليهود يعرفونه أيضاً. والأظهر الأوّل، وهو المشهور.

بذلك؛ لإستيلائه على قرن الشمس من مغربها، وقرنها من مطلعها، ـ عن الزهري، وإختاره الزجّاج ـ. ومنها: إنّه رأى في منامه أنه دنا من الشمس، حتى أخذ بقرنيها في شرقها وغربها، فقصّ رؤياه على قومه، فسمّوه ذا القرنين، ـ عن وهب ـ. ومنها: إنّه عاش عيش قرنين، فإنقرض في وقته قرنان من الناس، وهو حيّ ـ. ومنها: إنّه كان كريم الطرفين من أهل بيت الشرف، من قبل أبيه وأمّه. قال معاذ بن جبل: كان من أبناء الروم، وإسمه الإسكندر، وهو الذي بنى الإسكندريّة.

﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً ﴾ معناه: قل يا محمّد سأقرأ عليكم منه خبراً، وقصّة.

﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ أي: بسطنا يده في الأرض، وملكناه حتى إستولى عليها، وقام بمصالحها. وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال: سخّر الله له السحاب، فحمله عليها، ومدَّ له في الأسباب، وبسط له النور، فكان الليل والنهار عليه سواء. فهذا معنى تمكينه في الأرض، وهو أنّه سهل عليه المسير فيها، وذلّل له طريقها وحزونها، حتى تمكن منها أنّى شاء.

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴾ أي: فأعطيناه من كل شيء علماً يتسبّب به إلى إرادته، ويبلغ به إلى حاجته، ـ عن ابن عباس، وقتادة، والضحّاك ـ. وقيل: معناه: وآتيناه من كل شيء يستعين به الملوك على فتح البلاد، ومحاربة الأعداء، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: وآتيناه من كل شيء سبيلاً، كما قال سبحانه: ﴿لِعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ﴾ أي: سبلها.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ معناه: فأتبع طريقاً واحداً في سلوكه. قال الزجّاج: معناه: فأتبع سببا من الأسباب التي أوتي بها، وذلك أنّه أوتي من كل شيء سبباً، فأتبع من تلك الأسباب التي أوتي، سبباً في المسير إلى المغرب. ومن قرأ: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴾ فمعناه: لحق كقوله: فأتبعه الشيطان. والأصل فيه ما مرّ ذكره في الحجّة.

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ ﴾ أي: موضع غروبها، ومعناه: أنّه إنتهى إلى آخر العمارة من جانب المغرب، وبلغ قوماً لم يكن وراءهم أحد إلى موضع غروب الشمس، ولم يرد بذلك أنّه بلغ إلى موضع الغروب؛ لأنّه لا يصل إليه أحد ﴿ وَجَدَهَا تَغْرُبُ ﴾ معناه: وجدها كأنّها تغرب ﴿ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ وإن كانت تغرب في ورائها، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم، والبلخي ـ، لأنّ الشمس لا تزايل الفلك، ولا تدخل عين الماء، ولأنّه قال: ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً ﴾. ولكن لمّا بلغ ذو القرنين ذلك الموضع، تراءى له كأنّ الشمس تغرب في عين، كما أنّ من كان في البحر رآها كأنّها تغرب في الماء، ومن كان في البرّ يراها كأنّها تغرب في الأرض الملساء. والعين الحمئة: هي ذات الحمأة، وهي الطين الأسود المنتن. والحامية: الحارّة. وعن كعب، قال: أجدها في التوراة تغرب في ماء وطين.

وقوله: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْماً﴾ ووجد عند العين ناساً ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴾ في هذا دلالة على أنّ القوم كانوا كفّاراً، والمعنى: إمّا أن تعذّب بالقتل من أقام منهم على الشرك، وإمّا أن تأسرهم وتمسّكهم بعد الأمر؛ لتعلمهم الهدى، وتستنقذهم من العمى. وقيل: معناه: وإمّا أن تعفو عنهم. وإستدلّ من ذهب إلى أن ذا القرنين كان نبيّاً بهذا، قال: لأنّ أمر الله تعالى لا يعلم إلّا بالوحي، والوحي لا يجوز إلّا على الأنبياء. وقال الكلبي: إنّ الله تعالى ألهمه، ولم يوح إليه. وقال ابن الأنباري: إن كان ذو القرنين نبيّاً، فإنّ الله تعالى قال له كما يقول للأنبياء، إمّا بتكليم، أو بوحي، وإن لم يكن نبيّاً، فإنّ معنى «قلنا»: ألهمنا؛ لأنّ الإلهام ينوب عن الوحي. قال سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَىٰ﴾ أي: وألهمناها. قال قتادة: فقضى ذو القرنين فيهم بقضاء الله تعالى، وكان عالماً بالسياسة.

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ أي: أشرك، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ أي:

نقتله إذا لم يرجع عن الشرك ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ﴾ بعد قتلي إيّاه[١] ﴿ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً ﴾ أي: منكراً غير معهود، يعني: في النار، وهو أشد من القتل في الدنيا.

وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، غير أبي بكر، ويعقوب: ﴿فَلَهُ جَزَاءً﴾ ـ بالنصب والتنوين ـ. والباقون: ﴿جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ ـ بالرفع، والإضافة ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: من قال: ﴿فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ﴾ كان المعنى: فله جزاء الخلال الحسنى التي عملها؛ لأنّ الإيمان والعمل الصالح خلال. ومن قال: ﴿فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَىٰ﴾ فالمعنى: له الحسنى جزاء. فـ«جزاء» مصدر وقع موقع الحال، أي: فله الحسنى مجزية. وقال أبو الحسن: وهذا لا يكاد العرب تتكلّم به مقدماً إلّا في الشعر.

المعنى: ﴿وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ مرَّ معناه

---

(١) وهذا يدلّ على أنّ ذا القرنين كان مؤمناً بالله واليوم الآخر فإنّه كان تلميذ أرسطوطاليس، وتعلّم منه التوحيد، وتجرّد النفس، وبقائها بعد الموت، كما كان يعتقد أستاذه، ثمّ إنّ ظهور إسكندر على أقاليم الأرض، صار سبباً لنشر علوم اليونانين بين الأمم، وترويج لغتهم، وبناء مدارس للطبّ، والنجوم، والفلسفة، وبقى لغتهم نحواً من ألف سنة رائجة في الأرض، كلغة العرب بعد الإسلام وتجمّع معارفهم في مصر، وأحدثوا مكتبة إسكندريّة. وبالجملة لم يبعث بعد الأنبياء عليهم السلام أحد مثله في ترويج العلوم، وتهذيب النفوس، وتشحيذ العقول. ولعلّه لذلك أختصّ من بين الملوك بالذكر.

﴿وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً﴾ أي: سنقول له قولاً جميلاً، وسنأمره بما يتيسّر عليه، ولا نؤاخذه بما مضى من كفره. ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ أي: طريقاً آخر من الأرض، ليؤدّيه إلى مطلع الشمس، ويوصله إلى المشرق.

﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ أي: بلغ موضع إبتداء العمارة من الجانب الذي تطلع منه الشمس[1] ﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً﴾ معناه: أنّه لم يكن بها جبل، ولا شجر، ولا بناء؛ لأنّ أرضهم لم يكن يثبت عليها بناء، فكانوا إذا طلعت الشمس يغورون في المياه والأسراب، وإذا غربت، تصرفوا في أُمورهم، ـ عن الحسن، وقتادة، وابن جريج ـ. وروى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام، قال: لم يعلموا صنعة البيوت.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ معناه: مثل ذلك القبيل. الذي كانوا عند مغرب الشمس، في أنّ حكمهم حكم أولئك، قيل: إنّ معناه: أنّه اتبع سبباً إلى مطلع الشمس، مثل ما أتبع سبباً إلى مغرب الشمس. وتمّ الكلام عند قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾.

ثم إبتدأ سبحانه، فقال: ﴿ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴾ أي: علمنا ما كان عند ذي القرنين من الجيوش، والعدّة، وآلات السياسة. وقيل: معناه: أحطنا علماً بصلاحه وإستقلاله بما ملكناه، قبل أن يفعله، كما علمناه بعد أن فعله، ولم يخف علينا حاله. وفي قوله: ﴿بِمَا لَدَيْهِ﴾: إشارة إلى حسن الثناء عليه، والرضا بأفعاله لإمتثاله أمر الله تعالى في كل أحواله.

---

(١) لايجب من هذا الكلام أن يكون ذو القرنين واصلاً الى آخر العمارة في المشرق؛ لأنّ مطلع الشمس بالنسبة الى بلاد اليونان يشمل بلاد العجم، والترك، والهند، وكذلك مغرب الشمس لايجب أن يكون ساحل البحر المحيط الأتلانطيقى، وجزائر الخالدات، بل الغرب بالنسبة إلى بلاد اليونان أيضاً. ويشير الآية الشريفة إلى أنّ أهل المغرب كانوا أقرب الى قبول الآداب، من المشرق الأقصى، فانهم كانوا واغلين في التوحّش، حتى أنّهم لم يكونوا عارفين ببناء البيوت أيضاً ولذلك خصّ أهل المغرب بالتأديب.

﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ معناه: ثمّ أتبع مسلكاً بالغاً ممّا يبلغه قطراً من أقطار الأرض. وهذا يقوي قول من قال: إنّ الأرض كرويّة الشكل؛ لأنّه لم يأخذ في الطريق الذي كان قد عاد فيه، وإنّما أخذ في طريق آخر.

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

القراءة: قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، و﴿سَدّاً﴾ بالفتح هنا. وفي ياسين: بالضمّ. وقرأ أهل الكوفة، غير عاصم: ﴿بَيْنَ السُّدَّيْنِ﴾ ـ بضمّ السين ـ، و﴿سَدّاً﴾ حيث كان بالفتح. وقرأ حفصُ: الجميع بالفتح. وقرأ الباقون الجميع بالضمّ، كل القرآن. وقرأ أهل الكوفة، غير عاصم: ﴿يُفْقَهُونَ﴾ ـ بضمّ الياء، وكسر القاف ـ. والباقون: بفتح الياء والقاف. وقرأ عاصم: ﴿يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ بالهمزة. ومثله في الأنبياء. وقرأ الباقون: بغير همزة فيهما في السورتين.

وقرأ أهل الكوفة، غير عاصم: ﴿خَرْجاً﴾ وفي المؤمنين: خراجاً ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ كلّه بالألف. والباقون: خرجاً ـ بغير ألف في الموضعين ـ (فخراج ربّك) ـ بالألف ـ.

وقرأ ابن كثير: ما مكنني ـ بنونين ـ. والباقون: بنون واحدة مشدّدة. وقرأ يحيى، عن أبي بكر: ردماً ائْتُونِي ـ بالوصل ـ. وقرأ حمزة، ويحيى، عن أبي بكر: ﴿قال ائتوني﴾ ـ بالوصل أيضاً ـ. والباقون: ﴿آتُونِي﴾ ـ بقطع الألف في الحرفين ـ. وقرأ أهل المدينة، والكوفة، غير أبي بكر: ﴿بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ ـ بفتح الصاد، والدال ـ. وقرأ الباقون: بضمّ الصاد والدال، غير أبي بكر، فإنّه قرأ بضمّ الصاد، وسكون الدال.

وقرأ حمزة، غير خلاد: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا﴾ ـ مشدّدة الطاء ـ. والباقون: خفيفة الطاء. وقرأ أهل الكوفة: ﴿دَكَاءَ﴾ بالمدّ والهمزة. والباقون: ﴿دَكّاً﴾ ـ منوّناً غير مهموز ـ.

الحجّة: قال أبو عبيدة: كل شيء وجدته العرب من فعل الله، من الجبال، والشعاب، فهو سُدّ ـ بالضمّ ـ. وما بناه الآدميّون فهو سَدٌّ. وقال غيره: هما لغتان كالضَعْفِ والضُعْف، والفَقْر والفُقْر. قال أبو عليّ: يجوز أن يكون السَّد ـ بالفتح ـ مصدراً، والسُّد ـ بالضمّ ـ المسدود، كالأشياء التي يفصل فيها بين المصادر والأسماء نحو: السُقي والسَقي. والشُرب والشَرب. فإذا كان كذلك، فالأشبه بين السُدَّين؛ لأنّه المسدود. ويجوز فيمن فتح «السدّين» أن يجعله إسماً للمسدود نحو: نَسْج اليمن، وضَرْبُ الأمير، بمعنى المنسوج والمضروب.

ومن قرأ: ﴿لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ﴾ فإنّ «فقهت» يتعدّى إلى مفعول واحد، نحو: فقهت السنة. فإذا نقلته تعدّى إلى مفعولين، فيكون المعنى فيمن ضمّ: لا يكادون يُفْقِهون أحداً قولاً، فحذف أحد المفعولين، كما حذف من قوله:

﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾، والمعنى: فأتبعوهم جندهم مشرقين. وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودُهُ﴾ أي: فأتبعهم فرعون طلبه إيّاهم، أو تَتَبُّعه لهم، والحذف في هذا النحو كثير.

قال أبو عليّ: يأجوج: إن جعلته عربيّاً، فهو يفعول، من أجّ، نحو: يربوع. ومن لم يهمز، أمكن أن يكون خفّف الهمزة، فقلبها ألفاً، فهو على قوله يفعول أيضاً. وإن كانت الألف في ﴿يأجوج﴾ ليس على التخفيف، فإنّه فاعول، من «ي ج ج» فإن جعلت الكلمة من هذا الأصل، كانت الهمزة فيها كمن قال: سأق[1]، ونحو ذلك ممّا جاء مهموزاً. ولم ينبغ أن يهمز، ويكون الإمتناع من صرفه على هذا للتأنيث، والتعريف، كأنّه اسم القبيلة كمجوس.

وأمّا مأجوج: فمن همز فمفعول، من «أجّ» فالكلمتان على هذا من أصل واحد، ومن لم يهمز، فإنّه فاعول من «مجّ»، فالكلمتان على هذا من أصلين، وليسا من أصل واحد. ويكون ترك الصرف فيه أيضاً للتعريف والتأنيث، فإن جعلتهما من العجميّة فهذه التمثيلات لا تصحّ فيهما، وإنّما إمتنعا من الصرف للعجمة والتعريف. وقوله: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً﴾ أي: هل نجعل لك عطيّة نخرجها إليك من أموالنا، وكذلك قوله: ﴿أَمْ تَسْئَلُهُمْ خَرْجاً﴾ أي: مالا يخرجونه إليك. فأمّا المضروب على الأرض فالخراج، وقد يجوز في غير ضرائب الأرض الخراج، بدلالة قول العجاج: «يَوْم خَرَاجٍ يَخْرُجُ السَمَرَجا»[2] فهذا ليس على الضرائب التي ألزمت الأرضين؛ لأنّ ذلك لا يضاف إلى وقت من يوم وغيره، وإنّما هو شيء مؤبَّد لا يتغيّر.

وقوله: ما مكّنني: بإظهار المثلين؛ فلأنّ الثاني منهما غير لازم، لأنّك قد

---

(١) الساق: ـ بالهمز ـ لغة في الساق ـ بالألف ـ. وجمعه: أسوق.

(٢) السمرج: مايخرج من الخراج ثلث مرّات، فارسيّ معرّب.

تقول: قد مكنتك، ومكنته، فلا تلزم النون. فلمّا لم تلزم لم يعتدّ بها. كما أنّ التاء في «اقتتلوا» كذلك، ومن أدغم لم ينزله منزلة ما لا يلزم، فأدغم كما أنّ من قال: قتّلوا في «إقتتلوا» كان كذلك. قال أبو عليّ: ومكن مكانا فهو مكين، فعل غير متعدّ، فإذا ضعّفت العين، عدّيته بذلك.

وحجّة من قرأ: رَدْماً إيتُوني: إنّ «ايتوني» أشبه بـ «أعينوني بقوّة»؛ لأنّه كلّفهم المعونة على عمل السدّ، ولم يقبل الخرج الذي بذلوه له. وقوله: إيتوني ـ الذي معناه: جيؤني ـ إنّما هو معونة على ما كلّفهم في قوله: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾. وأمّا «آتوني» فمعناه: أعطوني: فأعطوني يجوز أن يكون على المناولة، ويجوز أن يكون على الإتّهاب. و«ائتوني» ـ المقصورة ـ لا يحتمل إلّا جيئوني، فيكون أحسن هنا؛ لإختصاصه بالمعونة فقط، دون أن يكون سؤال عين، والعطيّة قد تكون هبة، قال:

وَمِنَّا الذي أَعْطَى الرَّسُولُ عَطِيَّةً أُسارٰى تَميمٍ، وَالْعُيُونُ دَوامِعُ

فالعطيّة تجري مجرى الهبة لهم، والإنعام عليهم، في فكّ الأسر. وقد تكون بمعنى المناولة. ووجه قراءة من قرأ: ﴿آتُونِي﴾: إنّه لم يرد بـ «آتوني» العطيّة والهبة، ولكن تكليف المناولة بالأنفس، كما كان قراءة من قرأ: «أيتوني» لا يصرف إلى إستدعائه تمليك عين بهبة، ولا بغيرها. فأمّا إنتصاب ﴿زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾: فإنّك تقول أتيك [ائتيك] بدرهم قال:

أَتَيْتَ بِعَبْدِ اللهِ فِي الْقَيْدِ مُوثَقاً فَهَلاّ سَعيداً ذا الْخِيانَةِ، وَالْغَدْرِ

فيصل الفعل إلى المفعول الثاني بحرف جرّ. ثمّ يجوز أن يحذف الحرف؛ إتّساعاً، فيصل الفعل إلى المفعول الثاني على حدّ: أمرتك الخير، ونحوه. والصُدُف، والصُدف، والصُدف، لغات فاشية. قال أبو عبيدة: الصدفان: جنبتا الجبل. ومن قرأ: ﴿أَتُونِي [ائتوني] أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ فمعناه: جيئوني به، كما قلناه في

﴿أَتُونِي [ائتوني] زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ في إتّصال الفعل إلى المفعول الثاني بحرف الجرّ، إلّا أنّه أعمل الفعل الثاني، فلو أعمل الفعل الأوّل، لكان: ائتوني أفرغه عليه بقطر، إلّا أن يقدّر أنّ الفعل يصل إلى المفعول الثاني بلا حرف، كما كان كذلك في قوله: ﴿ائتونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾.

وجميع ما مرّ بنا في التنزيل من هذا النحو، إنما هو على إعمال الثاني، كما يختاره سيبويه. فمن ذلك قوله: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ﴾. ومنه: قوله: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَه﴾.

ووجه من قرأ: ﴿أَتُونِي﴾: إنّ المعنى: ناولوني قطراً أفرغ عليه قطراً، إلّا أنّه أعمل الثاني من الفعلين، كما أعمل الثاني مَن قصر «ائتوني». وقراءة حمزة ﴿فَمَا اسْطَّاعُوا﴾: إنّما هو على إدغام التاء في الطاء، ولم يلق حركتها على السين، فيحرّك ما لا يتحرّك، ولكن أدغم مع أنّ الساكن الذي قبل المدغم ليس حرف مدّ وقد قرأت القرّاء غير حرف من هذا النحو، وقد تقدّم ذكر وجه هذا النحو. وممّا يؤكّد ذلك أنّ سيبويه أنشد:

كَأَنَّهُ بَعْدَ كَلَالِ الزَّاجِرِ ... وَمَسْحِه مَرُّ عُقَابٍ كَاسِرٍ (١)

والحذف في «اسْطَّاعوا». والإثبات في «إستطاعوا». كل واحد منهما أحسن من الإدغام على هذا الوجه الذي هو جمع بين السين الساكنة، والتاء المدغمة، وهي ساكنة أيضاً.

---

(١) يصف فرساً أو ناقة بشدّة العدو، ولو بعد كلال الزاجر، وليس في ضبط الحركات على ما شكلناه في الكتاب شاهد، ولكن رواه سيبويه بسكون السين وتشديد الحاء وبعده ياء «مسْحى» بإدغام حاء «مسح» في هاء الضمير، ولا يختلّ وزن الشعر بفكّ الإدغام، ولا بالإدغام كما توهّم، ولكن التلفّظ بالهاء بعد الحاء ثقيل، ولذلك أدغم. ونظيره: امدحه. ومسح: مصدر من مسح الأرض كناية عن السير. وقيل: بل هو بكسر الميم وفتح السين سكن للضرورة. وفيه تكلّف، ومعناه: الفرس الحسن الجريّ.

وأمّا قوله: ﴿جَعَلَهُ دَكَّآءَ﴾ فإنّه يحتمل أمرين:

أحدهما: إنّه لمّا قال: جعله دكّاً، كان بمنزلة خلق وعمل، فكأنّه قال: دكّه دكّاً، فحمله على الفعل الذي دلَّ عليه قوله ﴿جَعَلَهُ﴾. والوجه الآخر: أن يكون: جعله ذا دكّ، فحذف المضاف، ويمكن أن يكون حالاً في هذا الوجه.

ومن قرأ: ﴿دَكَّاءَ﴾: فعلى حذف المضاف، كأنّه: جعله مثل دكّاء. قالوا: ناقة دكّاء أي: لا سنام لها. ولا بدَّ من تقدير الحذف؛ لأنّ الجبل مذكّر، فلا يوصف بـ «دكّاء».

(اللغة): السدّ: وضع ما ينتفي به الخرق. يقال: سَدَّه يسدُّه. ومنه: سدد السهم، لأنّه سدّ عليه طرق الإضطراب. ومنه: السداد: الصواب. والردم: السدّ، والحاجز. يقال: رَدَم فلان موضع كذا يَرْدِمه رَدْماً. والثوب المُرَدَّم: الخلق المرقع. ومنه: قول عنترة:

هَلْ غادَرَ الشُّعَراءُ مِنْ مُتَرَدَّمٍ؟ أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ[١]

أي: هل تركوا من قول يؤلف تأليف الثوب المرقع. والزبرة: الجملة المجتمعة من الحديد، والصفر ونحوهما. وأصله: الإجتماع. ومنه: الزبور. وزبرت الكتاب: إذا كتبته؛ لأنك جمعت حروفه. قال أبو عبيدة: القطر: الحديد المذاب. وأنشد:

حُسام كَلَوْنِ الْمِلْحِ صافٍ حَديدُهُ جُرازٌ مِنْ أَقْطارِ الْحَديدِ المُنَعَتِ[٢]

وأصله من القطر؛ لأنّ الرصاص والحديد إذا أُذيب قطّر، كما يقطّر الماء.

---

[١] المتردّم: الموضع الذي يُرقّع ويُستصلح لما اعتراه من الوهن. يقول: هل ترك الشعراء موضعاً مسترقعاً الّا وقد رقعوه وأصلحوه؟ وهو استفهام استنكاري. أي لم يتركوا موضعاً يُضاغ فيه شعر الّا وقد صاغوا فيه.

[٢] جَرَزَه: قَطَعَه، والسيف الجُراز، بالضمّ: الماضي النافذ.

وفي «إستطاع» ثلاث لغات: إستطاع يستطيع، وإسطاع يسطيع، وإستاع يستيع، ـ بحذف الطاء ـ، استثقلوا إجتماعهما، وهما من مخرجٍ واحد. فأمّا إسطاع يسطيع ـ بقطع الألف ـ، وهو أطاع «أفعل»، فزادوا السين عوضا من ذهاب حركة الواو؛ لأنّ أصل «أطاع» أطوَع. ومثله: إهراق يهريق، زادوا الهاء في أراق يريق. وليس هذا العوض بلازم. ألا ترى أنّ ما كان نحوه لم يلزمه هذا العوض.

﴿المعنى﴾: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ ثمّ أخبر سبحانه عن حال ذي القرنين بعد منصرفه عن المشرق، أنّه سلك طريقاً إلى أن بلغ بين السدّين، ووصل إلى ما بينهما، وهما الجبلان اللذان جعل الردم بينهما، وهو الحاجز بين يأجوج ومأجوج، ومن وراءهم، ـ عن ابن عباس، وقتادة. والضحاك ـ. وقيل: أراد بالسدّين الموضع الذي فيه السّدان اليوم؛ لأنّه لو كان هناك سدّ، لم يكن لطلبهم السدّ معنى. والسدّ: الموضع المسدود، لا المنفتح.

﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ أي: خصّوا بلغة كادوا لا يعرفون غيرها. قال ابن عباس: كادوا لا يفقهون كلام أحد، ولا يفهم الناس كلامهم. وإنّما قال: ﴿لاَ يَكَادُونَ﴾؛ لأنّهم فهموا بعض الأشياء عنهم، وإن كان بعد شدّة، ولذلك حكى الله عنهم أنّهم ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ويجوز أن يكون الله سبحانه فهّم ذا القرنين لسانهم، كما فهّم سليمان عليه السلام منطق الطير، أو قالوا له بترجمان: إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في أرضهم، وفسادهم أنهم كانوا يخرجون فيقتلونهم، ويأكلون لحومهم ودوابّهم. وقيل: كانوا يخرجون أيّام الربيع، فلا يدعون شيئاً أخضر إلّا أكلوه، ولا يابساً إلّا إحتملوه، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: أرادوا أنّهم سيفسدون في المستقبل عند خروجهم.

وورد في الخبر عن حذيفة قال: «سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن يأجوج

ومأجوج، فقال: يأجوج أُمّة، ومأجوج أُمّة، كل أُمّة أربعمائة أُمة، لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه، كل قد حمل السلاح. قلت: يا رسول الله صفهم لنا. قال: هم ثلاثة أصناف: صنف منهم أمثال الأرز. قلت: يا رسول الله! وما الأرز؟ قال: شجر بالشام، طوال. وصنف منهم طولهم وعرضهم سواء، وهؤلاء الذين لا يقوم لهم خيل، ولا حديد. وصنف منهم يفترش إحدى أذنيه، ويلتحف بالأخرى، ولا يمرُّون بفيل، ولا وحش، ولا جمل، ولا خنزير، إلّا أكلوه، ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشام، وساقتهم بخراسان. يشربون أنهار المشرق، وبحيرة طبريّة»[1].

قال وهب، ومقاتل: إنّهم من ولد يافث بن نوح أبي الترك. وقال السدّي: الترك سرية من يأجوج ومأجوج، خرجت تغيّر، فجاء ذو القرنين فضرب السدّ، فبقيت خارجه. وقال قتادة: إنّ ذا القرنين بنى السدّ على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلة منهم قبيلة دون السدّ، فهم الترك. وقال كعب: هم نادرة في ولد بني آدم، وذلك أنّ آدم عليه السلام إحتلم ذات يوم، وإمتزجت نطفته بالتراب، فخلق الله من ذلك الماء يأجوج ومأجوج، فهم متّصلون بنا من جهة الأب دون الأُمّ. وهذا بعيد.

وقوله: ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً ﴾ أو خراجاً، معناه: فهل نجعل لك بعضاً من أموالنا ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴾ أي: حائطاً. وقيل في الفرق بين الخرج والخراج: إنّ الخراج: إسم لما يخرج من الأرض، والخرج: إسم لما يخرج من

---

(١) ورد في حديث رواه في روضة الكافي: إنّ يأجوج ومأجوج ليسوا من ولد آدم. والمعروف أنّهم من ولده، وما روي من عجائب خلقهم، غير منقول بطريق صحيح، ورأيت في بعض كتب علماء الهند، أنّ يأجوج ومأجوج هم أهل أوربا، وكانوا متوحّشين على عهد إسكندر، يهجمون على مجاوريهم بالقتل والغارة، فسدّ طريقهم، واليوم قد إستولّوا على البلاد، ويقول قوم إنّهم من الترك والمغول، وهذا قول السدّي وقتادة. وإستولوا على البلاد مدّة، والله العالم.

المال. وقيل: الخراج: الغلّة، والخرج: الأجرة. وقيل: الخراج: ما يؤخذ عن الأرض، والخرج: ما يؤخذ عن الرقاب، قاله أبو عمرو. وقيل: الخراج: ما يؤخذ في كل سنة. والخرج: ما يؤخذ دفعة، ـ عن تغلب ـ.

﴿قَالَ﴾ ذوالقرنين ﴿ مَا مَكَّنَنِي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ أي: أعطاني ربّي من المال، ومكّنني فيه من الإتّساع في الدنيا، خير ممّا عرضتموه عليّ من الأجر ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أي: برجال، فيكون معناه: بقوّة الأبدان. وقيل: بعمل تعملونه معي، ـ عن الزجّاج ـ. وقيل: بآلة العمل وذلك زبر الحديد، والصفر ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ أي: سدّاً وحاجزاً. قال ابن عباس: الردم: أشدّ الحجاب. وقيل: هو السدّ المتراكب بعضه على بعض.

﴿آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾ أي: أعطوني قطع الحديد، أو جيئوا بقطع الحديد على القراءة الأخرى. وفي الكلام حذف، وهو أنّهم أتوه بما طلبه منهم من زبر الحديد؛ ليعمل الردم في وجوه يأجوج ومأجوج، فبناه.

﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ أي: سوّى بين جانبي الجبل، بما جعل بينهما من الزبر[1]. قال الأزهري: يقال لجانبي الجبل صدفان؛ لتصادفهما أي: تحاذيهما وتلاقيهما. وقيل: هما جبلان كل واحد منهما منعدل عن الآخر، كأنّه قد صدف عنه.

وقوله: ﴿ قَالَ انفُخُوا ﴾ معناه: قال ذو القرنين أُنفخوا النار على الزبر. أمرهم أن يؤتى بمنافخ الحدادين، فينفخوا في نار الحديد التي أوقدت فيه. ﴿ حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً ﴾ أي: حتى إذا جعل الحديد كالنار في منظره من الحمي، واللهب، فصار

---

(١) هذا يدلّ على أنّ السدّ لم يكن طويلاً، بل كان شعب بين جبلين وكان طريق المهاجمين، فسده، ووقع نظيره كثيراً من الملوك، وليس المرد جدار الصين. ويقول قوم: إنّ السدّ بقرب باب الأبواب.

قطعة واحدة، لزم بعضها بعضاً.

﴿ قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴾ أي: أعطوني نحاساً مذاباً، أو صفراً مذاباً، أو حديداً مذاباً، أصبه على السدّ بين الجبلين، حتى ينسدّ الثقب الذي فيه، ويصير جداراً مصمتاً. فكانت حجارته الحديد، وطينه النحاس الذائب، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، والضحّاك ـ. قال قتادة: فهو كالبُرد المحبّر: طريقة سوداء، وطريقة حمراء.

﴿ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ ﴾ معناه: فلمّا تمَّ لم يستطع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوه. يقال: ظهرت السطح: إذا علوته ﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾ أي: ولم يستطيعوا أن ينقبوا أسفله؛ لكثافته وصلابته. ونفى بذلك كل عيب يكون في السدّ. وقيل: إنّ هذا السدّ وراء بحر الروم، بين جبلين هناك، يلي مؤخّرهما البحر المحيط. وقيل: انّه وراء دربند، وخزران، من ناحية أرمينية، وأذربيجان. وقيل: إنّ مقدار إرتفاع السدّ مائتا ذراع، وعرض الحائط نحو من خمسين ذراعاً.

﴿قَالَ﴾ ذو القرنين: ﴿ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي ﴾ أي: هذا السدّ نعمة من الله لعباده، أنعم بها عليهم في دفع شرّ يأجوج ومأجوج عنهم ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي ﴾ يعني: إذا جاء وقت أشراط الساعة، ووقت خروجهم الذي قدّره الله تعالى.

﴿ جَعَلَهُ دَكَّاءَ ﴾ أي: جعل السدّ أرضاً مستوياً مع الأرض مدكوكاً، أو ذا دكّ، وإنّما يكون ذلك بعد قتل عيسى بن مريم الدجّال، ـ عن ابن مسعود ـ[1].

وجاء في الحديث: إنّهم يدأبون في حفره نهارهم، حتى إذا أمسوا، وكادوا يبصرون شعاع الشمس، قالوا: نرجع غداً ونفتحه، ولا يستثنون. فيعودون من الغد، وقد استوى كما كان، حتى إذا جاء وعد الله، قالوا: غداً نفتح ونخرج إن شاء الله.

---

(١) لادليل على أنّ القيمة بعد هدم السدّ بلافاصلة، وكونه من علائم القيمة أعمّ من ذلك؛ لأنّ كثيراً من أشراط الساعة قبل الساعة بزمان طويل. ونقل عن رسول الله ﷺ «أنا والساعة كهاتين ـ وضمّ بين إصبعيه ـ وإنشقاق القمر من أشراط الساعة، وقد وقع. وقال الله تعالى: فقد جاء أشراطها».

فيعودون إليه، وهو كهيئته حين تركوه بالأمس، فيخرقونه، ويخرجون على الناس، فينشفون المياه، ويتحصّن الناس في حصونهم منهم، فيرمون سهامهم إلى السماء، فترجع، وفيها كهيئة الدماء، فيقولون: قد قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء، فيبعث الله عليهم نغفاً في أقفائهم، فيدخل في آذانهم فيهلكون بها. فقال النبيّ ﷺ: والذي نفس محمّد بيده! إنّ دوابّ الأرض لتسمن وتسكر من لحومهم سكراً. وفي تفسير الكلبي: أنّ الخضر وأليسع، يجتمعان كل ليلة على ذلك السدّ، يحجبان يأجوج ومأجوج عن الخروج.

﴿ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ أي: وكان ما وعد الله بأن يفعله لابدَّ من كونه، فإنّه حقّ؛ إذ لا يجوز أن يخلف وعده.

﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ
فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ
سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي
أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ
أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ
يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ
فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ
جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

القراءة: قرأ أبو بكر في رواية الأعشى، والبرجمي عنه، وزيد عن يعقوب:

﴿أَفَحَسْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ـ برفع الباء، وسكون السين ـ، وهو قراءة أمير المؤمنين عليه السلام، وابن يعمر، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والضحّاك، وابن أبي ليلى، وهذا من الأحرف التي إختارها أبو بكر، وخالف عاصماً فيها، وذكر أنّه أدخلها في قراءة عاصم من قراءة أمير المؤمنين عليه السلام حتى إستخلص قراءته[1].

وقرأ الباقون: ﴿أَفَحَسِبَ﴾ ـ بكسر السين، وفتح الباء ـ.

(الحجّة): قال ابن جنّي، معناه: أفحَسْبُ الكافرين وحظّهم ومطلوبهم، أن يتّخذوا عبادي من دوني أولياء، بل يجب أن يَعبدوا أنفسُهم مثلهم، فيكون كلّهم عبيداً وأولياء لي. ونحوه: قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: إتّخذتهم عبيداً لك. وهذا أيضاً هو المعنى إذا كانت القراءة ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلّا أنّ «حسْب» ـ ساكنة السين ـ، أذهب في الذمّ لهم، وذلك لأنّه جعله غاية مرادهم، ومجموع مطلوبهم، وليست القراءة الأُخرى كذلك.

(اللغة): الترك: التخلية. والتريكة: بيضة النعام، كأنّها تركت بالعراء. والتريكة أيضا: الروضة يغفلها الناس فلا يرعونها. والترك: ضدّ الأخذ. والترك في الحقيقة لا يجوز على الله تعالى، وإنّما يجوز على العاذر بعذره[القادر بقدرة]، إلّا أنّه يتوسّع فيه، فيعبّر فيه عن الإخلال بالشيء بالترك. والموج: إضطراب الماء بتراكب بعضه على بعض. والنزل: ما يهيأ للنزيل، وهو الضيف. قال الشاعر:

---

(١) عاصم وأبو بكر كلاهما من أهل الكوفة، ولايبعد وصول هذه القرائة إلى أبي بكر متواتراً من أمير المؤمنين عليه السلام دون عاصم، وشاهدنا مثل ذلك كثيراً، فقد يكون بعض الحوادث الماضية التي وقعت في بلد منقولاً بالتواتر إلى بعض أهله دون بعض، وتوهّم صاحب فصل الخطاب أنّ المتواتر في بلد يجب أن يكون متواتراً في جميع البلاد. وإستشكل في تواتر القراآت السبع: بأنّه لو كانت متواترة لوجب إتّفاق القرّاء على كل واحدة من القراآت الآخر. أقول الحقّ عكس ذلك، بل كانت كل قرائة متواترة الى قوم دون قوم، ولو كانوا مكتفين بنقل الآحاد، لقبل كل واحد منهم قرائة الآخرين.

نَزِيلُ الْقَوْمِ أَعْظَمُهُمْ حُقُوقاً وَحَقُّ اللهِ في حَـقِّ النَّـزيلِ

وطعام ذو نزل. ونَزَل ـ بفتح النون والزاء ـ أيضاً: ذو فضل.

الإعراب: ﴿أَنْ يَتَّخِذُوا﴾ في موضع نصب بوقوع «حسب» عليه. ومن قرأ: فحَسْبُ ـ بالرفع، وسكون السين ـ فـ «أن يتّخذوا» في موضع رفع. ﴿أَعْمَالاً﴾ منصوب على التميز؛ لأنّه لمّا قال بالأخسرين كان مبهماً، لا يدلّ على ما خسروه، فبيَّن ذلك الخسران في أيّ نوع وقع. ﴿الَّذِينَ﴾: يصلح أن يكون في موضع جرّ؛ على الصفة للأخسرين، ويصلح أن يكون في موضع رفع؛ على الإستئناف أي: هم الذين ضلّ سعيهم.

المعنى: ثمّ أخبر سبحانه عن حال تلك الأمم، فقال: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ أي: وتركنا يأجوج ومأجوج يوم إنقضاء أمر السدّ، يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم، ويكون حالهم كحال الماء الذي يتموّج بإضطراب أمواجه. وقيل: إنّه أراد سائر الخلق من الجنّ والإنس، أي: وتركناهم يوم خروج يأجوج ومأجوج، يختلطون بعضهم ببعض؛ لأنّ ذلك علم للساعة.

ثمّ ذكر سبحانه نفخ الصور، فقال: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ لأنّ خروج يأجوج ومأجوج من أشراط الساعة. وأختلف في الصور، فقيل: هو قرن ينفخ فيه، ـ عن ابن عباس، وابن عمر ـ. وقيل: هو جمع صورة، فإنّ الله سبحانه يصوّر الخلق في القبور، كما صوَّرهم في أرحام الأمّهات، ثمّ ينفخ فيهم الأرواح، كما نفخ وهم في أرحام أمّهاتهم، ـ عن الحسن، وأبي عبيدة ـ. وقيل: إنّه ينفخ إسرافيل في الصور ثلاث نفخات: فالنفخة الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، التي يصعق من في السماوات والأرض بها فيموتون، والثالثة: نفخة القيام لربّ العالمين، فيحشر الناس بها من قبورهم.

﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ أي: حشرنا الخلق يوم القيامة كلّهم في صعيد واحد

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً﴾ أي: أظهرنا جهنّم، وأبرزناها لهم حتى شاهدوها، ورأوا ألوان عذابها قبل دخولها.

ثمّ وصف الكافرين، فقال: ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ ذكر سبحانه السبب الذي إستحقّوا به النار، يعني: الذين غفلوا عن الإعتبار بقدرتي، الموجب لذكري، وأعرضوا عن التفكّر في آياتي ودلائلي، فصاروا بمنزلة من يكون في عينه غطاء يمنعه من الإدراك ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً ﴾ أي: وكان يثقل عليهم سماع القرآن، وذكر الله تعالى كما يقال: فلان لا يستطيع النظر إليك، ولا يستطيع أن يسمع كلامك أي: يثقل عليه ذلك. وأراد بالعين هنا عين القلب، كما يضاف العمى إلى القلب.

﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ معناه: أفحسب الذين جحدوا توحيد الله أن يتّخذوا من دوني أرباباً ينصرونهم، ويدفعون عقابي عنهم، والمراد بالعباد: المسيح والملائكة الذين عبدوهم من دون الله، وهم براء منهم، ومن كل مشرك بالله تعالى. وقيل: معناه: أفحسب الذين كفروا أن يتّخذوا من دوني آلهة، وأنا لا أغضب لنفسي عليهم، ولا أعاقبهم، ـ عن ابن عباس ـ. ويدلّ على هذا المحذوف قوله: ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلاً ﴾ أي: منزلاً، ـ عن الزجّاج ـ. وهو معنى قول ابن عباس، يريد: هي مثواهم ومصيرهم. وقيل: معناه: إنّا جعلنا جهنّم معدّة، مهيّأة للكافرين عندنا، كما يهيّأ النزل للضيف.

﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: هل نخبركم ﴿ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً ﴾ أي: بأخسر الناس أعمالاً، والمعنى: بالقوم الذين هم أخسر الناس فيما عملوا، وهم كفّار أهل الكتاب، اليهود والنصارى ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ ﴾ أي: بطل عملهم وإجتهادهم. ﴿ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ أي: يظنّون أنّهم بفعلهم محسنون، وأنّ أفعالهم طاعة وقربة. وروى العياشي بإسناده قال: قام ابن الكواء إلى أمير المؤمنين عليه السلام، فسأله عن أهل هذه الآية، فقال: أولئك أهل

الكتاب. كفروا بربّهم، وإبتدعوا في دينهم، فحبطت أعمالهم، وما أهل النهر منهم ببعيد، يعني: الخوارج.

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ أي: جحدوا بحجج الله وبيّناته، ولقاء جزائه في الآخرة، فبطلت وضاعت أعمالهم التي عملوها؛ لأنّهم أوقعوها على خلاف الوجه الذي أمرهم الله به.

﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً ﴾ أي: لا قيمة لهم عندنا، ولا كرامة، ولا نعتدّ بهم، بل نستخفّ بهم، ونعاقبهم. تقول العرب: ما لفلان عندنا وزن أي: قدر ومنزلة. ويوصف الجاهل بأنّه لا وزن له؛ لخفّته بسرعة بطشه، وقلّة تثبّته. وروي في الصحيح، أنّ النبيّ ﷺ قال: إنّه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة، لا يزن جناح بعوضة.

﴿ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ ﴾ معناه: الأمر ذلك الذي ذكرت من حبوط أعمالهم، وخيبة قدرهم. ثمّ إبتدأ سبحانه، فقال: جزاؤهم جهنّم ﴿ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً ﴾ أي: بكفرهم وإتّخاذهم آياتي أي: أدلّتي الدالّة على توحيدي، يعني: القرآن، ورسلي هزواً أي: مهزوءاً به.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي
لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا
لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة غير عاصم: أن ينفد ـ بالياء ـ. والباقون: ﴿ تَنْفَدَ ﴾

بالتاء. وفي الشواذّ، قراءة ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد، وسليمان التيمي: ولو جئنا بمثله مداداً.

(الحجة): قال أبو عليّ: تنفد ـ بالتاء ـ أحسن؛ لأنّ المسند إليه الفعل مؤنّث. والمذكّر حسن أيضاً؛ لأنّ التأنيث ليس بحقيقيّ. ومن قرأ: ﴿مَدَداً﴾ فهو منصوب؛ على الحال، كما يقال: جئتك بزيد عوناً لك، ومدداً لك. ويجوز أن ينتصب على المصدر، بفعل مضمر يدلّ عليه قوله: ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ﴾ فكأنّه قال: أمددنا به إمداداً. ثمّ وضع «مدداً» موضع إمداداً. وقال الزجّاج: هو منصوب؛ على التميز. ومن قال: «جئنا بمثله مداداً» فإنّه ينتصب؛ على التميز، والمعنى: بمثله من المداد، ويكون مثل قولك: لي مثله عبداً أي: من العبيد، وعلى التمرة مثلها زبداً أي: من الزبد.

(اللغة): الفردوس: البستان الذي يجتمع فيه التمر، والزهر، وسائر ما يمتّع ويلذّ. قال الزجّاج: هو البستان الذي يجمع محاسن كل بستان. قال: وقال قوم: إن الفردوس: الأودية التي تنبت ضروباً من النبت. وقالوا: هو بالروميّة منقول إلى لفظ العربيّة. ولم نجده في أشعار العرب إلّا في بيت حسان:

فَإِنَّ ثَوابَ اللهِ كُلَّ مُوَحِّدِ جَنانٌ مِنَ الْفِرْدَوْسِ فيها يُخَلَّدُ

والحول: التحوّل. يقال: قد حال من مكانه حِوَلاً، كما قالوا في المصادر صَغُر صِغَراً، وَعَظُم عِظَماً، وعاد في حبها عَوَداً. وقيل: إنّ الحِوَل أيضا الحيلة. وقيل: إنّ الحِوَل بمعنى التحويل. يقال: حوّلوا عنها تحويلاً، وحَوَلاً، ـ عن الأزهري، وابن الأعرابي ـ. والمداد: الذي يكتب به. والمدد: المصدر، وهو مجيء شيء بعد شيء. والكلمة: [القطعة] الواحدة من الكلام. وقد يقال للقصيدة: كلمة؛ لأنّها قطعة واحدة من الكلام. وممّا يسأل عنه، فيقال: وإنّ الكلمات لأقلّ العدد، فكيف جاء بها هيهنا؟ والجواب: انّ العرب تستغني بالجمع القليل عن الجمع

الكثير، وبالكثير عن القليل، قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ والغرف في الجنّة أكثر من أن تحصى. وقال: ﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ﴾. وقال حسان:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ في الضُّحى وَأَسْيافُنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَماً[١]

وكان أبو عليّ الفارسيّ ينكر الحكاية التي تروى عن النابغة، وأنّه قال لحسان: قلّت جفناتكم وأسيافكم[١]. فقال: لا يصحّ هذا عن النابغة.

﴿الإعراب﴾: إن جعلت ﴿نُزُلاً﴾ بمعنى المنزل، فهو خبر «كان» على ظاهره. وإن جعلته بمعنى ما يقام [يقدم] للنازل، قدّرت المضاف على معنى: كانت لهم ثمار جنّات الفردوس ونعيمها نزلاً. ويجوز أن يكون ﴿نُزُلا﴾ جمع «نازل»، فيكون نصباً على الحال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾. ومعنى «كان» أنّه كان في علم الله تعالى قبل أن يخلقوا، ـ عن ابن الأنباري ـ. وقوله: ﴿فَلْيَعْمَلْ﴾ يجوز كسر اللام وإسكانها. والأصل: الكسر، إلّا أنّه يثقل في اللفظ.

﴿المعنى﴾: لمّا تقدّم ذكر حال الكافرين، عقّبه سبحانه بذكر حال المؤمنين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: صدّقوا الله ورسوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ﴾ أي: كان في حكم الله وعلمه، لهم بساتين الفردوس، وهو أطيب موضع في الجنّة، وأوسطها، وأفضلها، وأرفعها، ـ عن قتادة ـ. وقيل: هو الجنّة الملتفّة الأشجار، ـ عن قتادة ـ. وقيل: هو البستان الذي فيه الأعناب، ـ عن

---

(١) يصف قومه بالجود والشجاعة. والجفنات: القطعات العظيمة.

[١] حكي أن النابغة الذبياني كان يضرب له بسوق عكاظ قبه حمراء من أدم، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها. فصدف أن أنشده حسان يوماً هذا البيت، فقال النابغة: أنت شاعر، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك، أراد أن أسياف: جمع لأدنى العدد، والكثير السيوف، والجفنات كذلك لأدنى العدد، والكثير الجفان. وفي هذا البيت كلام للخنساء أيضاً قالت لحسان: لقد قلت «يلمعن الضحى» وكان حقه بالدجى، وقلت: «الغر» وكان حقه البيض. و«يقطران» وكان الأجمل يسلن، أو يفضن.

كعب ـ. وروى عبادة بن الصامت، عن النبيّ ﷺ قال: الجنّة مائة درجة، ما بين كل درجتين، كما بين السماء والأرض، الفردوس أعلاها درجة، منها تفجر أنهار الجنّة الأربعة، فإذا سألتم الله تعالى فإسألوه الفردوس.

﴿نُزُلاً﴾ أي منزلاً ومأوى. وقيل: ذات نزول ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أي: دائمين فيها ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ أي: لا يطلبون عن تلك الجنّات تحوّلاً إلى موضع آخر لطيبتها [لطيبها]، وحصول مرادهم فيها.

ثمّ أمر سبحانه نبيّه ﷺ، فقال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد لجميع المكلّفين ﴿ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ ﴾ وهو إسم الجنس أي: لو كان البحر بمائه ﴿ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ أي: مداداً ليكتب به ما يقدر الله عليه من الكلام والحكم. وقيل: أراد بالكلمات: ما يقدر سبحانه على أن يخلقه من الأشياء، ويأمر به، كما قال في عيسى عليه السلام: «وَكلمته ألقاها إلى مريم». وقيل: أراد بالكلمات: ما وعد لأهل الثواب، وأوعد لأهل العقاب، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ أي: لفني [لنفد] ماء البحر ﴿ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ وقيل: إنّ كلماته: المراد بها، مقدوراته، وحكمته، وعجائبه.

وقوله: ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ أي: ولو جئنا بمثل البحر مدداً له أي: عونا وزيادة، لما نفد ذلك. وقيل: أراد بكلمات ربّي: معاني كلمات ربّي، وفوائدها، وهي القرآن، وسائر كتبه، ولم يرد بذلك: أعيان الكلمات؛ لأنّه قد فرغ من كتابتها، فيكون التقدير: قل لو كان البحر مداداً لكتابة معاني كلمات ربّي، لنفد البحر قبل أن تنفد كتابة معاني كلمات ربّي، فحذف؛ لأنّ المعنى مفهوم. والمداد: هو الجائي والآتي شيئاً بعد شيء. قال ابن الأنباري: سمّي المداد مداداً؛ لإمداده الكاتب. ويقال للزيت الذي يوقد به السراج: مداد.

وروى عكرمة، عن ابن عباس: قال لمّا نزل قوله: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا

﴿قَلِيلاً﴾ قالت اليهود: أُوتينا علماً كثيراً، أُوتينا التوراة، وفيها علم كثير، فأنزل الله هذه الآية. ولذلك قال الحسن: أراد بالكلمات: العلم، فإنّه لا يدرك، ولا يحصى. ونظيره: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ﴾ الآية.

ثمّ قال: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ قال ابن عباس: علَّم الله نبيَّه التواضع؛ لئلّا يزهى على خلقه، فأمره أن يقرَّ على نفسه بأنّه آدميّ كغيره، إلّا أنّه أكرم بالوحي، وهو قوله: ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لا شريك له أي: لا فضل لي عليكم إلّا بالدين والنبوّة، ولا علم لي إلّا ما علّمنيه الله تعالى.

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ أي: فمن كان يطمع في لقاء ثواب ربّه، ويأمله، ويقرّ بالبعث إليه، والوقوف بين يديه. وقيل: معناه: فمن كان يخشى لقاء عقاب ربّه. وقيل: إنّ الرجاء يشتمل على كلا المعنيين: الخوف والأمل. وأنشد في ذلك قول الشاعر:

فَلاٰ كُلُّ مٰا تَرْجُو مِنَ الْخَيْرِ كٰائِنٌ ... وَلاٰ كُلُّ مٰا تَرْجُو مِنَ الشَّرِّ وٰاقِعُ

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ أي: خالصاً لله تعالى يتقرّب به إليه ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ غيره من ملك، أو بشر، أو حجر، أو شجر، ـ عن الحسن ـ. وقيل: معناه: لا يرائي في عبادته أحداً، ـ عن سعيد بن جبير ـ. وقال مجاهد: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ، فقال: إنّي أتصدّق، وأصِل الرحم، ولا أصنع ذلك إلّا لله، فيُذْكر ذلك منّي، وأُحْمَد عليه، فيسرُّني ذلك، وأعجب به! فسكت رسول الله ﷺ، ولم يقل شيئاً، فنزلت الآية.

قال عطاء، عن ابن عباس: إنّ الله تعالى قال: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ ولم يقل: ولا يشرك به؛ لأنّه أراد العمل الذي يعمل لله، ويحبّ أن يحمد عليه. قال: ولذلك يستحبّ للرجل أن يدفع صدقته إلى غيره ليقسمها، كيلا يعظمه من يصله بها. وروي عن النبيّ ﷺ أنّه قال: قال الله عزّوجلّ: «أنا أغنى الشركاء عن

الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري، فأنا منه بريء، فهو للذي أشرك». أورده مسلم في الصحيح.

وروي عن عبادة بن الصامت، وشداد بن أوس، قالا: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: من صلّى صلاة يرائي بها، فقد أشرك، ومن صام صوماً يرائي به، فقد أشرك، ثمّ قرأ هذه الآية. وروي أنّ أبا الحسن الرضا عليه السلام، دخل يوماً على المأمون، فرآه يتوضّأ للصلاة، والغلام يصبّ على يده الماء، فقال: لا تشرك بعبادة ربّك أحداً! فصرف المأمون الغلام، وتولّى إتمام وضوئه بنفسه. وقيل: إنّ هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن. وروى الشيخ أبو جعفر بن بابويه، بإسناده عن عيسى بن عبدالله، عن أبيه، عن جدّه، عن عليّ عليه السلام، قال: ما من عبد يقرأ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ إلى آخره، إلّا كان له نوراً في مضجعه إلى بيت الله الحرام، فإن كان من أهل البيت الحرام، كان له نوراً إلى بيت المقدس. وقال أبو عبد الله عليه السلام ما من أحد يقرأ آخر الكهف عند النوم، إلّا يتيقّظ في الساعة التي يريدها.

﴿النَّظْمُ﴾: وجه إتّصال الآية الثانية، وهي قوله: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي ﴾ بما قبلها: أنّه لمّا تقدّم الأمر والنهي، والوعد والوعيد، وعقّب ذلك سبحانه ببيان أنّ مقدوراته لا تتناهى، وأنّه قادر على ما يشاء في أفعاله وأوامره، على حسب المصالح، فمن الواجب على المكلّف أن يمتثل أمره ونهيه، ويثق بوعده، ويتّقي وعيده.

سورة مريم

وهي مكيّة بالإجماع[1].

عَدَدُ آيِهَا: وهي ثمان وتسعون آية عراقيّ شاميّ، والمدنيّ الأوّل، وتسع مكّي، والمدنيّ الأخير.

اخْتِلَافُهَا: ثلاث آيات: ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ كوفيّ ﴿الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾ غير الكوفي ﴿فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ مكّي، والمدني الأخير.

فَضْلُهَا: أُبيّ بن كعب، عن النبيّ ﷺ، قال: من قرأها أعطي من الأجر بعدد من صدّق بزكريّا، وكذّب به، ويحيى، ومريم، وعيسى، وموسى، وهارون، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، عشر حسنات، وبعدد من دعى لله ولداً، وبعدد من لم يدع له ولداً.

وقال الصادق عليه السلام: من أدمَنَ قراءة سورة مريم، لم يمت في الدنيا حتى يصيب منها ما يغنيه في نفسه، وماله، وولده، وكان في الآخرة من أصحاب عيسى ابن مريم عليه السلام، وأعطي من الأجر في الآخرة ملك سليمان ابن داود في الدنيا.

تَفْسِيرُهَا: ختم الله سبحانه سورة الكهف بذكر التوحيد، والدعاء إليه،

---

(١) وقيل آية السجدة مدنيّة، كما في الإتحاف.

وإفتتح هذه السورة بذكر الأنبياء، الذين كانوا على تلك الطريقة؛ بعثاً على الإقتداء بهم، والإهتداء بهديهم، وحثّاً عليه، فقال:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

القراءة: قرأ أبو عمرو: ﴿كهيعص﴾ بإمالة«ها»، وفتح «يا». وقرأ ابن عامر، برواية ابن ذكوان، وحمزة، وخلف بفتح «ها» وإمالة «يا». وقرأ الكسائي بإمالة «ها ويا». وروي ذلك عن اليزيدي، عن أبي عمرو، وعن يحيى، عن أبي بكر. والباقون بفتحهما.

وقرأ أبو عمرو والكسائي: ﴿يَرِثْنِي وَيَرِثْ﴾ ـ بالجزم فيهما ـ. والباقون: بالرفع فيهما. وفي الشواذّ، قراءة الحسن: ﴿ذَكَرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾. وقراءة عثمان وابن عباس، وزيد بن ثابت، وعليّ بن الحسين، ومحمّد بن علي الباقر عليه السلام وابن يعمر،

وسعيد بن جبير: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ بفتح الخاء، وتشديد الفاء، وكسر التاء. وقراءة عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وابن عباس، وجعفر بن محمّد عليه السلام، وابن يعمر، والحسن، والجحدري، وقتادة، وأبي نهيك: ﴿يرثني وأرثٌ من آل يعقوب﴾[1].

الحجّة: قال أبو عليّ: القول في إمالة هذه الحروف، إنّها لا تمتنع؛ لأنّها ليست بحروف معنى، وإنّما هي أسماء لهذه الأصوات. قال سيبويه: قالوا بإمالاتها؛ لأنّها أسماء لما يتهجّى به، فجازت فيها الإمالة، كما جازت في الأسماء. ويدلّك على أنّها أسماء: أنّك إذا أخبرت عنها، أعربتها، وإن كنت لا تعربها قبل ذلك، كما أنّ أسماء العدد، إذا أخبرت عنها أعربتها، فكما أنّ أسماء العدد قبل أن تعربها أسماء، فكذلك هذه الحروف. وإذا كانت أسماء ساغت الإمالة فيها، فأمّا من لم يمل، فعلى مذهب أهل الحجاز، وكلّهم أخفى نون «عين» إلّا حفصاً، فإنّه بيّن النون.

وقال أبو عثمان: وبيان النون مع حروف الفم لحن، إلّا أنّ هذه الحروف تجري على الوقف عليها، والقطع لها عمّا بعدها، فحكمها البيان، وأن لا تخفى. فكذلك أسماء العدد حكمها على الوقف، وعلى أنّها منفصلة عمّا بعدها. وممّا يبيّن أنّها على الوقف أنّهم قالوا ثلاثة أربعة [ثلاثَهربعة]، نقلوا حركة الهمزة إلى الهاء لسكونها، ولم يقلبوها تاء، وإن كانت موصولة، لما كانت النية بها الوقف، فكذلك النون ينبغي أن تبيّن؛ لأنّها في نيّة الوقف والإنفصال ممّا بعدها، ولمن لم يبيّن أن يستدلّ بتركهم قطع الهمزة في ﴿الٓمٓ اللَّهُ﴾ ألا ترى أنّ الهمزة لم تقطع، وإن كان ما هي منه[2] في تقدير الإنفصال ممّا قبله، فكذلك لم يبيّن النون من «عين»؛ لأنّها

---

(١) وأظهر دال «صاد» في ذال «ذكر» الحرميان، وعاصم من السبعة. ويجوز في «العين» المدّ والتوسط. ووقف على «رحمت» بالهاء ابن كثير وابو عمرو والكسائي. والباقون بالتاء، لكون مكتوبة بالتاء. وقرأ زكريّاء ممدوداً، غير حمزة والكسائي وحفص، وهم بالقصر. وفتح ياء «ورائى» ابن كثير. ويدلّ الحروف المقطّعة على أنّ السورة تربت [تبت]، كما أمر به النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وجعلت الحروف أوّلها.

(٢) أي: الكلمة التي هي أي الهمزة جزء منها، وهي كلمة الله.

جعلت في حكم الإتّصال، كما كانت الهمزة فيما ذكرنا، كذلك قال أبو الحسن: التبيين يعني: تبيين النون أجود في العربيّة؛ لأنّ حروف الهجاء والعدد يفصل بعضها من بعض. قال: وعامّة القرّاء على خلاف التبيين.

ووجه الرفع في قوله: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾: أنّه سأل ربّه وليّاً وارثاً، وليس المعنى على الجزاء أي: إن وهبته يرث. ووجه الجزم: أنّه على الجزاء، وجواب الدعاء. ومن قرأ: ﴿يَرِثُنِي وَارِثٌ﴾ فمعناه: التجريد، وتقديره: فهب لي وليّاً يرثني منه وأرث من آل يعقوب، وهذا الوارث نفسه. قال ابن جنّي: وهذا ضرب من العربية غريب، فكأنّه جرد منه وارثاً. ومثله قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ﴾ وهي نفسها دار الخلد، فكأنّه جرد من الدار دارا، وعليه قول الأخطل:

بِنَزْوَةِ لُصٍّ بَعْدَ مَا مَرَّ مُصْعَبٌ ... بِأَشْعَثَ لاَ يُفْلى، وَلاَ هُوَ يَقْمَلُ[١]

ومصعب نفسه هو الأشعث، فكأنّه إستخلص منه أشعث. وأمّا قراءة الحسن ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ﴾ فإنّ فاعل «ذكر» ضمير ما تقدّم أي: هذا المتلوّ من القرآن الذي هذه الحروف أوّله وفاتحته يذكر[ذَكر] رحمة ربّك. وعلى هذا أيضاً يرتفع قوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ أي: هذا القرآن ذكر رحمة ربّك. وإن شئت كان التقدير: وممّا نقص عليك ذكر رحمة ربّك. فيكون على الوجه الأوّل «ذكر» خبر مبتدأ. وعلى الوجه الثاني يكون مبتدأ.

ومن قال: ﴿خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ فمعناه: قَلّ بنو عمّي وأهلي، ومعنى ﴿مِنْ وَرَاءِي﴾ أي: من أخلفه بعدي. فقوله: ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ حال متوقّعة محكيّة أي: متصوّراً متوقّعاً كونهم بعدي. ومثله: مسألة الكتاب مررت برجل معه صقر صائداً به غداً أي: متصوّراً به صيده به غداً.

---

[١] النَّزْو: الوَثَبان. الشَّعْث والشَّعَث: انتشار الأمر وخلله. شَعِث: تلبّد شعره واغبرّ.

(اللغة): الوهن: الضعف ونقصان القوّة. يقال: وهن يهن وهناً. والإشتعال: إنتشار شعاع النار. وقوله: ﴿وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ من أحسن الإستعارات. والمعنى: إشتعل الشيب في الرأس، وإنتشر كما ينتشر شعاع النار. قال الزجّاج: يقال للشيب إذا كثر جدّاً: قد إشتعل رأس فلان. وأنشد للبيد:

إنْ تَرىٰ رَأْسِيَ أمْسىٰ واضِحاً ... سَلَطَ الشَّيْبُ عَلَيْهِ فَاشْتَعَلَ[١]

والدعاء: طلب الفعل من المدعوّ، وفي مقابلته الإجابة. كما أنّ في مقابلة الأمر الطاعة. والمولى: أصله من الوليّ، وهو القرب، وسمّي ابن العمّ مولى؛ لأنّه يليه في النسب. وقال إبن الأنباري، في كتاب مشكل القرآن: المولى في اللغة ينقسم على ثمانية أقسام: المنعِمُ المعتق، والمنعَم عليه المعتق، والولي، والأولى بالشيء، وإبن العم، والجار، والصهر، والحليف. وأستشهد على كل قسم من هذه الأقسام بشيء من الشعر، وممّا استشهد به في أنّه بمعنى الوليّ، والأولى قول الأخطل:

فَأَصْبَحْتَ مَوْلاها مِنَ النَّاسِ بَعْدَهُ ... وَأَحْرىٰ قُرَيْشٍ أنْ تُهابَ، وَتُحْمَدا

وقوله أيضا يخاطب بني أمية:

أعْطاكُمُ اللهُ جَدّاً تُنْصَرُونَ بِهِ ... لاٰجَدَّ إلاّ صَغِيرٌ بَعْدُ مُحْتَقَرُ

لَمْ يَأْشِرُوا فِيهِ إذْ كانُوا مَوالِيَهُ ... وَلَوْ يَكُونِ لِقَوْمٍ غَيْرِهِمْ أَشَرُوا[٢]

والعاقر: المرأة التي لا تلد. يقال: إمرأة عاقر، ورجل عاقر لا يولد له ولد. قال الشاعر:

لَبِئْسَ الْفِتىٰ إنْ كُنْتُ أسْوَدَ عَاقِراً ... جَبَاناً فَمٰا عُذْرِي لَدىٰ كُلِّ مَحْضَرِ

والعقر في البدن: الجرح. ومنه: أخذ العاقر؛ لأنّه نقص أصل الخلقة، إمّا

---

[١] الوَضَح: الشيب.

[٢] الأشر: البطر.

بالجراحة، وإمّا بإمتناع الولادة. وعقرت الفرس بالسيف: ضربت قوائمه. والجعل: على أربعة أقسام: بمعنى الإحداث، كقولهم: جعل البناء أي: أحدثه، وبمعنى: أن يحدث ما يتغيرّ به، كقولهم: جعل الطين خزفاً. وبمعنى: أن يحدث فيه حكماً كقولهم: جعل فلاناً فاسقاً أي: بما أحدث فيه من حكمه وتسميته. وبمعنى: أن يحدث ما يدعوه إلى أن يفعل كقولهم: جعله أن يقتل زيداً أي: بأن أمره به، ودعاه إلى قتله.

الإعراب: ﴿ذِكْرُ﴾: مرتفع بالمضمر، وتقديره: هذا الذي نتلوه عليك ذكر رحمة ربّك، وهو مصدر مضاف إلى ما هو المفعول في المعنى. و﴿رَحْمَةُ﴾: مصدر مضاف إلى الفاعل. و﴿عَبْدَهُ﴾: مفعول رحمة. و﴿زَكَرِيَّا﴾: بدل من ﴿عَبْدِهِ﴾، أو عطف بيان. ويقرأ بالقصر والمدّ.

وقوله ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي﴾ بيان، وتفسير للنداء الخفيّ. و﴿شَيْباً﴾: منصوب على التميز، والتقدير: وإشتعل الرأس من الشيب بدعائك، تقديره: بدعائي إيّاك. فالمصدر مضاف إلى المفعول، كقوله: من دعاء الخير، وبسؤال نعجتك.

المعنى: ﴿كهيعص﴾ قد بيّنّا في أوّل البقرة إختلاف العلماء في الحروف المعجم، التي في أوائل السور، وشرحنا أقوالهم هناك. وحدث عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس أنّه قال: إنّ كاف: من «كريم». وها: من «هاد». وياء: من «حكيم»، وعين: من «عليم»، وصاد من «صادق». وفي رواية عطا، والكلبي عنه: إن معناه: كافٍ لخلقه، هادٍ لعباده، يده فوق أيديهم، عالم ببريّته، صادق في وعده. وعلى هذا فإنّ كل واحد من هذه الحروف يدلّ على صفة من

صفات الله عزّوجلّ[١]. وروي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في دعائه: أسألك يا كهيعص.

﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴾ أي: هذا خبر رحمة ربّك زكريّا عبده. ويعني بالرحمة: إجابته إيّاه حين دعاه وسأله الولد. وزكريّا: إسم نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، كان من أولاد هارون بن عمران أخي موسى بن عمران. وقيل: إنّ معناه: ذكر ربّك عبده بالرحمة.

﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ أي: حين دعا ربّه دعاء خفيّاً خافياً، سرّاً غير جهر، يخفيه في نفسه، لا يريد به رياء. وفي هذا دلالة على أنّ المستحبّ في الدعاء الإخفاء، وأنّ ذلك أقرب إلى الإجابة. وفي الحديث: «خير الدعاء الخفيّ، وخير الرزق ما يكفي». وقيل: إنّما أخفاه لئلّا يهزأ به الناس، فيقولوا: أنظروا إلى هذا الشيخ يسأل الولد على الكبر.

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ أي: ضعف، وإنّما أضاف الوهن إلى العظم؛ لأنّ العظم مع صلابته إذا ضعف وتناقص، فكيف باللحم والعصب. وقيل: إنّما خصّ العظم؛ لأنّه شكا ضعف البطش. والبطش إنّما يكون بالعظم دون اللحم وغيره.

---

(١) روى في حديث سعد بن عبدالله، عن العسكري عليه السلام أنّ «الكاف» إشارة إلى كربلا، و«الهاء» إشارة إلى الهلاك و«الياء» يزيد، و«العين» العطش، و«الصاد» الصبر. وقال الشيخ النجاشيّ: إنّ بعض علمائنا أنكر ملاقاة سعد بن عبدالله للعسكري عليه السلام، وكان يقول: إنّ الحكاية موضوعة. وقال بعض أهل الحديث ما معناه: أنّ علماء الرجال كانوا ضعيف الإعتقاد في الأئمّة، فكلّما رأوا رجلاً روى فضائلهم وكراماتهم، قالوا هذا ضعيف وغالٍ، وليس جرم أكثر المقدوحين إلّا نقل تلك الأخبار، إنتهى. ولا أدري من أين أخذته حتى أنقل عبارته بعينها، وإنّي أعوذ بالله أن ينسب إلى أعاظم علمائنا الخيانة، وضعف الإعتقاد؛ إذ لم نعرف صحّة الدين والإمام إلاّ من جهتهم، وتضعيف حديث واحد عندي، أهون من الطعن في جميع العلماء؛ فإنّه يوجب تضعيف الأصول والفروع جميعاً.

﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً ﴾ معناه: إنّ الشيب قد عمّ الرأس، وهو نذير الموت، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: تلألأ الشيب في رأسي لكثرته، ـ عن ابن الأنباري ـ وصف حاله خضوعاً، وتذلّلاً، لا تعريفاً.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً﴾ أي: ولم أكن بدعائي إيّاك فيما مضى مخيباً محروماً. والمعنى: إنّك قد عوّدتني حسن الإجابة، وما خيّبتني فيما سألتك، ولا حرمتني الإستجابة فيما دعوتك، فلا تخيّبني فيما أسألك، ولا تحرمني إجابتك فيما أدعوك. يقال: شقي فلان بحاجته: إذا تعب بسببها، ولم يحصل مطلوبه منها.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ ﴾ وهم الكلالة، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: العصبة ـ عن مجاهد ـ. وقيل: هم العمومة، وبنو العم، ـ عن أبي جعفر عليه السلام ـ. وقيل: بنو العم، وكانوا أشرار بني إسرائيل، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: هم الورثة، ـ عن الكلبي ـ. ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ أي: من خلفي ﴿وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ أي: عقيما لا تلد ﴿ فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً﴾ أي: ولداً يليني، فيكون أولى بميراثي.

﴿يَرِثُنِي﴾ إنْ قرأته بالجزم، فالمعنى: إن تهبه لي يرثني. وإن رفعته، جعلته صفة لولي، والمعنى: وليّاً وارثاً لي ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ وهو يعقوب بن ماتان، وأخوه عمران بن ماتان، أبو مريم، ـ عن الكلبي، ومقاتل ـ. وقيل: هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم؛ لأنّ زكريّا كان متزوّجاً بأخت أمّ مريم بنت عمران، ونسبها يرجع إلى يعقوب؛ لأنّها من ولد سليمان بن داود عليه السلام، وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وزكريّا من ولد هارون، وهو من ولد لاوي بن يعقوب، ـ عن السدّي ـ.

ثمّ أختلف في معناه: فقيل: معناه: يرثني مالي، ويرث من آل يعقوب النبوّة، ـ عن أبي صالح ـ. وقيل: معناه: يرث نبوّتي، ونبوّة آل يعقوب، ـ عن الحسن، ومجاهد ـ. وإستدلّ أصحابنا بالآية على أنّ الأنبياء يورثون المال، وأنّ المراد بالإرث المذكور فيها المال، دون العلم والنبوّة، بأن قالوا: إنّ لفظ الميراث في اللغة

والشريعة، لا يطلق إلّا على ما ينتقل من الموروث إلى الوارث، كالأموال، ولا يستعمل في غير المال إلّا على طريق المجاز والتوسّع، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة أيضاً، فإنّ زكريّا عليه السلام قال في دعائه: ﴿ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ أي: إجعل يا ربّ ذلك الوليّ الذي يرثني مرضيّاً عندك، ممتثلاً لأمرك. ومتى حملنا الإرث على النبوّة، لم يكن لذلك معنى، وكان لغواً عبثاً. ألا ترى أنّه لا يحسن أن يقول أحد: أللهمّ إبعث لنا نبيّاً، وإجعله عاقلاً مرضيّاً في أخلاقه؛ لأنّه إذا كان نبيّاً، فقد دخل الرضا، وما هو أعظم من الرضا [في النبوة].

ويقوّي ما قلناه: إنّ زكريّا صرّح بأنّه يخاف بني عمّه بعده بقوله: ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ وإنّما يطلب وارثاً لأجل خوفه، ولا يليق خوفه منهم إلّا بالمال دون النبوّة، والعلم؛ لأنّه عليه السلام كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيّاً من ليس بأهل للنبوّة، وأن يورث علمه وحكمته من ليس لهما بأهل، ولأنّه إنّما بعث لإذاعة العلم ونشره في الناس، فكيف يخاف من الأمر الذي هو الغرض في بعثته.

فإن قيل: إنّ هذا يرجع عليكم في وراثة المال؛ لأنّ في ذلك إضافة الضنّ والبخل إليه؟ قلنا: معاذ الله أن يستوي الأمران، فإنّ المال قد يرزق المؤمن والكافر، والصالح والطالح، ولا يمتنع أن يأسى على بني عمّه إذا كانوا من أهل الفساد، أن يظفروا بماله، فيصرفوه فيما لا ينبغي، بل في ذلك غاية الحكمة، فإنّ تقوية الفسّاق، وإعانتهم على أفعالهم المذمومة، محظورة في الدين. فمن عدّ ذلك بخلاً وضنّاً، فهو غير منصف.

وقوله: ﴿ خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي ﴾ يفهم منه أنّ خوفه إنّما كان من أخلاقهم وأفعالهم، ومعاني فيهم، لا من أعيانهم، كما أنّ من خاف الله تعالى، فإنّما خاف عقابه. فالمراد به: خفت تضييع الموالي مالي، وإنفاقهم إيّاه في معصية الله

تعالى[١].

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً[٢] قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

القراءة: قرأ حمزة والكسائي عِتياً، وصِلياً، وجِثياً، وبِكياً ـ بكسر أوائلها ـ. وحفص كذلك إلّا في «بُكيّاً»، فإنّه يضمّ الباء منها. والباقون: بالضمّ في الجميع. وقرأ حمزة والكسائي: خلقناك. والباقون: ﴿خَلَقْتُكَ﴾.

الحجة: قال أبو عليّ: إعلم أنّ ما كان على «فعول» كان على ضربين: أحدهما: أن يكون جمعاً. والآخر: أن يكون مصدراً. وقد جاءت أحرف في غير المصادر، وهي قليلة. والجمع إذا كان على «فعول» من معتل اللام، جاء على ضربين: أحدهما: أن يكون اللام واواً. والآخر: أن يكون ياء. فما كانت اللام منه

---

(١) وأمّا ما ورد من أنّ الأنبياء لايورثون درهماً ولادیناراً، وأنّ ميراثهم العلم، فالمراد: أنّ العلم هو الأهمّ من مواريثهم، وأنّهم غالباً لم يجمعوا مالاً، بل تصدّقوا بأكثر أموالهم في حياتهم، وماروي من قوله ﷺ «انّ ما تركناه صدقة»، فالظاهر أنّه إجتهاد من الناقل في حمل كلام النبيّ ﷺ فنقله بالمعنى، على ما فهمه.

(٢) ليَ آية: ـ بفتح الياء ـ نافع وأبو عمرو.

واواً من هذه الجموع، قلبت إلى الياء، وذلك نحو: حقو، وحقي، وعصا وعصي. وقد جاءت حروف قليلة من ذلك على الأصل. فمن ذلك ما حكاه سيبويه من قولهم: إنّكم لتنظرون في نُجُوّ[نُخُوّ] كثيرة. وقولهم: فُتُوّ في جمع فتى. فما كان كذلك، فإنّ كسر الفاء فيه مطّرد، وذلك نحو: وليّ، وحقيّ، وعصيّ، وإنّما جاز ذلك؛ لأنّها غيرت تغييرين، وهما: إنّ الواو التي هي لام قلبت، والواو التي كانت قبلها قلبت أيضاً، فلما غيرت تغييرين، قويا على هذا التغيير من كسر الفاء. وأمّا ما كان لامه ياء، نحو: ثدي، وحلي، ونجي، فقد كسروا الفاء أيضا منه، فقالوا: حلي وثدي، وإن لم تغير تغييرين. فقد أجروا الياء هيهنا مجرى الواو. كما أجروا الياء في أتسر واتبس، إفتعل، من اليسر و اليبس، مجرى الواو. وفي إتّصل وإتّهب.

فأمّا ما كان من ذلك مصدراً، فما كان من الواو فالقياس فيه أن يصحّ نحو العتوّ والعلوّ؛ لأنّ واوه لم يلزمها الإنقلاب، كما لزمها الإنقلاب، في الجمع، ولكن لمّا كانوا قد قلبوا الواو في هذا النحو، وإن كان مفرداً نحو: معدى ومرضى، قلبوا ذلك أيضاً في نحو: عتي. ثمّ أجرى المصدر مجرى الجمع في كسر الفاء منه. فأمّا ما كان من هذه المصادر من الياء، فليس يستمرّ الكسر في فائه، كما إستمرّ في الجمع، وفي المصادر التي من الواو. ألا ترى أنّ المضي في نحو: فما إستطاعوا مضيّاً، ليس أحد يروي فيه الكسر، فيما علمنا.

وحكى أبو عمرو، عن أبي زيد آوى إليه، إِوياً، وممّا يؤكّد الكسر في هذا النحو، أنّهم قد قالوا قسي، فألزموها كسر القاف، وذلك أنّه قلبت الواو إلى موضع اللام. فلمّا وقعت موقعها، قلبت كما تقلب الواو إذا كانت لاماً، وكسرت الفاء، وأُلزمت الكسرة.

وحجّة من قال: قد خلقتك: أنّ قبله ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾. وحجة من قال خلقناك: قوله: فيما بعد: ﴿وَحَنَاناً مِّنْ لَّدُنَّا﴾؛ لأنّه قد جاء بلفظ الجمع بعد لفظ الإفراد، قال

سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾ ثمّ قال: ﴿وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾.

اللغة: الغلام: إسم المذكّر أوّل ما يبلغ. ومنه: أشتقّ إغتلم الرجل: إذا إشتدّت شهوته للجماع. ثمّ يستعمل في التلميذ، فيقال: غلام تغلب[ثعلب]. العتي والعسي بمعنى. يقال: عتا يعتو عتوّاً وعتيّاً، وعسى يعسو عسواً وعسياً، فهو عات وعاس: إذا غيَّره طول الزمان إلى حال اليبس والجفاف. وفي حرف أُبي «وقد بلغت من الكبر عسيا». والإيحاء: إلقاء المعنى إلى النفس في خفية بسرعة، وأصله من قولهم: ألوحي ألوحي أي: الإسراع الإسراع.

الإعراب: ﴿إِسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ جملة إسمية مجرورة الموضع صفة الغلام كذلك في موضع رفع، لأنه خبر مبتدأ محذوف أي: الأمر كما قيل كك. ﴿وَلَمْ تَكُ﴾: أصله لم تكن، حذفت النون منه لكثرته في الكلام، فكأنه جزم مرتين. و﴿سَوِيّاً﴾ منصوب على الحال. ﴿أَنْ سَبِّحُوا﴾ يجوز أن يكون التقدير أي: سبّحوا، ويجوز أن يكون أنه سبحوا، فخفف وأضمر الاسم، ولم يعوض من المضمر شيئا كقوله ﴿لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ كما جاء العوض في قوله ﴿لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا﴾ وعلم أن سيكون منكم مرضى، وحسبوا أن لا تكون فتنة، فيمن رفع. و﴿بُكْرَةً وَعَشِياً﴾: منصوبان على الظرف.

المعنى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ﴾ هيهنا حذف، معناه: فإستجاب الله دعاء زكريّا، وأوحى إليه: يا زكريّا إنّا نخبرك على ألسنة الملائكة بخبر، يرى السرور به في وجهك، وهو أن يولد لك ابن ﴿اسْمُهُ يَحْيَى﴾ وقد تقدّم تفسيره في سورة آل عمران.

﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾ أي: لم يسمّ أحد قبله بإسمه، ـ عن قتادة، وابن جريج، والسدّي، وابن زيد ـ. وفي هذا تشريف له من وجهين: أحدهما: إنّ الله سبحانه تولّى تسميته، ولم يكلها إلى الأبوين. والآخر: إنّه سمّاه بإسم لم يسبق

إليه، يدلّ ذلك الإسم على فضله. وقال أبو عبدالله عليه السلام، وكذلك الحسين عليه السلام: لم يكن له من قبل سمياً[سميّ]، ولم تبك السماء إلّا عليهما أربعين صباحاً. قيل له: وما كان بكاؤها؟ قال: كانت تطلع حمراء وتغيب حمراء، وكان قاتل يحيى ولد زنا، وقاتل الحسين عليه السلام ولد زنا.

وروى سفيان بن عيينة، عن عليّ بن زيد، عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال: خرجنا مع الحسين عليه السلام، فما نزل منزلاً، ولا إرتحل منه، إلّا ذكر يحيى بن زكريّا، وقال يوما: ومن هوان الدنيا على الله، عزّوجلّ، أنّ رأس يحيى بن زكريّا أهدي إلى بغيّ من بغايا بني إسرائيل. وقيل: إنّ معنى قوله: ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيّاً﴾: لم تلد العواقر مثله ولداً، وهو كقوله: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيّاً﴾ أي: مثلاً، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ.

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾ فسّرناه في سورة آل عمران. ﴿وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِراً﴾ قال الحسن: إنّما قال ذلك على جهة الإستخبار أي: أتعيدنا شابّين، أم ترزقنا الولد شيخين ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً﴾ معناه: وقد بلغت من كبر السنّ إلى حال اليبس والجفاف، ونحول العظم، ـ عن قتادة، ومجاهد ـ. قال قتادة: كان له بضع وتسعون سنة.

﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾ أي: قال الله سبحانه: الأمر على ما أخبرتك من هبة الولد على الكبر. ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أردُّ عليك قوّتك حتى تقوّى على الجماع، وأفتق رحم إمرأتك بالولد، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي: من قبل يحيى ﴿وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾ أي: أنشأتك وأوجدتك، ولم تك شيئاً موجوداً. فإزالة عقر زوجتك، وإزالة ما يمنع قبول الولد، أيسر في الإعتبار من إبتداء الإنشاء. وروى الحكم بن عيينة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: إنّما ولد يحيى بعد البشارة له من الله بخمس سنين.

﴿قَالَ﴾ زكريّا: يا ﴿رَبِّ اجْعَل لِي آيَةً﴾ أي: دلالة وعلامة أَستدلُّ بها على وقت كونه، ﴿قَالَ﴾ الله تعالى: ﴿ءَايَتُكَ﴾ أي: علامتك على ذلك ﴿أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً﴾ أي: وأنت سويٌّ صحيح سليم من غير علّة. قال ابن عباس: إعتقل لسانه من غير مرض ثلاثة أيّام. وقال قتادة، والسدّي: إعتقل لسانه من غير بأس، ولا خرس، فإنّه كان يقرأ الزبور، ويدعو إلى الله، ويسبّحه، ولا يمكنه أن يكلّم الناس، وهذا أمر خارج عن العادة.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ الْمِحْرَابِ﴾ أي: من مصلّاه، ـ عن ابن زيد ـ. وسمّي «المحراب» محراباً؛ لأنّ المتوجّه إليه في صلاته، كالمحارب للشيطان على صلاته. والأصل فيه مجلس الأشراف الذي يحارب دونه ذبّا عن أهله. قالوا: وكان زكريّا قد أخبر قومه بما بشّر به، فلمّا خرج عليهم، وإمتنع من كلامهم، علموا إجابة دعائه، فسرّوا به.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ﴾ أي: أشار إليهم، وأومئ بيده. وقيل: كتب لهم في الأرض، ـ عن مجاهد ـ.

﴿أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِياً﴾ أي: صلّوا بكرة وعشيّاً، ـ عن الحسن، وقتادة ـ. وتسمى الصلاة سبحة، وتسبيحاً؛ لما فيها من التسبيح. وقيل: أراد التسبيح بعينه. وقال ابن جريج: أشرف عليهم زكريّا من فوق غرفة كان يصلّي فيها، لا يصعد إليها إلّا بسلّم، وكانوا يصلّون معه الفجر والعشاء، فكان يخرج إليهم، فيأذن لهم بلسانه. فلمّا إعتقل لسانه، خرج على عادته، وأذن لهم بغير كلام، فعرفوا عند ذلك أنّه قد جاء وقت حمل إمرأته بيحيى، فمكث ثلاثة أيّام لا يقدر على الكلام معهم، ويقدر على التسبيح والدعاء.

يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾

اللغة: أصل الحنان: الرحمة. يقال: حنانك وحنانيك. وقال إمرؤ القيس:

وَيَمْنَحُها بَنُو شَمَجَى بْنِ جَرْمٍ مَعِيزَهُمُ حَنَانَكَ ذَا الْحَنَانِ[1]

وقال آخر:

وقَالَتْ حَنَان: مَا أَتَىٰ بِكَ هٰيهُنا؟ أذو نَسَبٍ، أَمْ أَنْتَ بِالحَيِّ عَارِفُ

أي: أمرنا حنان. قال أبو عبيدة: وأكثر ما يستعمل بلفظ التثنية. قال طرفة:

أبَا مُنْذِرٍ أفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وتحنّن عليه أي: تعطّف عليه. قال الحطيئة لعمر بن الخطاب:

تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَدَاكَ الْمَلِيكُ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالاً

وحننت عليه أحنّ حنيناً وحناناً[حنناً]. وحنّة الرجل: إمرأته. والجبّار: الذي لا يرى لأحد عليه حقّا، وفيه جبرية وجبروت. والجبار من النخل: ما فات اليد.

الإعراب: ﴿بِقُوَّةٖ﴾: الباء في موضع الحال أي: خذ الكتاب مجدّاً مجتهداً.

---

(١) شمجى بن جرم: طائفة من قضاعة. وقال الوزير أبو بكر الوالبي: رأيت في نسخة مصحّحة. ويمنعها: بدل «يمنحها»، وهو أشبه بالبيت. ومراده: أنّه يريد هجوهم، والمنع أنسب. والمعيز: جماعة المعزى، يقول إنّهم بخلاء يمنعون معزهم. وحنانك ذا الحنان أي: رحمتك يا ذا الرحمة.

المعنى: ثمّ قال سبحانه: ﴿يَا يَحْيَى خُذْ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ هيهنا إختصار عجيب، تقديره: فوهبنا له يحيى، وأعطيناه الفهم والعقل، وقلنا له: يا يحيى! خذ الكتاب، يعني: التوراة، بما قوّاك الله عليه، وأيّدك به. ومعناه: وأنت قادر على أخذه، قوي على العمل به. وقيل: معناه: بجدّ وصحّة عزيمة، على القيام بما فيه.

﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ أي: آتيناه النبوّة في حال صباه، وهو ابن ثلاث سنين، ـ عن ابن عباس ـ. وروى العياشي بإسناده، عن عليّ بن أسباط، قال: قدمت المدينة، وأنا أريد مصر، فدخلت على أبي جعفر، محمّد بن عليّ الرضا عليه السلام، وهو إذ ذاك خماسي، فجعلت أتأمّله لأصفه لأصحابنا بمصر، فنظر إليَّ، فقال لي: يا عليّ! إنّ الله قد أخذ في الإمامة، كما أخذ في النبوّة، قال: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً﴾. وقال: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾ فقد يجوز أن يعطي الحكم ابن أربعين سنة، ويجوز أن يعطاه الصبيّ. وقيل: إنّ الحكم: الفهم، وهو أنّه أعطي فهم الكتاب، حتى حصل له عظيم الفائدة، ـ عن مجاهد ـ. وعن معمر قال: إنّ الصبيان قالوا ليحيى: إذهب بنا لنلعب. فقال: ما للعب خُلِقْنا، فأنزل الله فيه: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً﴾. وروي ذلك عن أبي الحسن الرضا عليه السلام.

﴿وَحَنَاناً مِنْ لَدُنَّا﴾ والحنان: العطف والرحمة، أي: وآتيناه رحمة من عندنا، ـ عن ابن عباس، وقتادة، والحسن ـ. وقيل: معناه: تحنّناً على العباد، ورقّة قلب عليهم، ليدعوهم إلى طاعة الله تعالى، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: محبّة منّا، ـ عن عكرمة ـ، وأصله: الشفقة والرقّة. ومنه: حنين الناقة: وهو صوتها إذا إشتاقت إلى ولدها. وقيل: معناه: تحنّن الله عليه، كان إذا قال: يا ربّ! قال الله: لبّيك يا يحيى، وهو المرويّ عن الباقر عليه السلام. وقيل: معناه: تعطّفاً منّا، ـ عن مجاهد ـ. فهذه خمسة أقوال.

﴿وَزَكَاةً﴾ أي: وعملاً صالحاً زاكياً، ـ عن قتادة، والضحّاك، وابن جريج ـ.

وقيل: زكاة لمن قبل دينه حتى يكونوا أزكياء، ـ عن الحسن ـ. وقيل: يعني بالزكاة: طاعة الله، والإخلاص، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: وصدقة تصدّق الله به على أبويه، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: معناه: وزكّيناه بحسن الثناء عليه، كما يزكّى الشهود الإنسان، ـ عن الجبائي ـ. فهذه خمسة أقوال.

﴿وَكَانَ تَقِيّاً﴾ أي: مخلصاً، مطيعاً، متّقياً لما نهى الله عنه. قالوا: وكان من تقواه أنّه لم يعمل خطيئة، ولم يهمّ بها. «سؤال»: يقال: لِمَ أضاف الله سبحانه كونه زكاة إلى نفسه، وهو إنّما كان مطيعاً زكيّاً بفعله؟ «وجوابه»: إنّه إنّما صار كذلك بألطاف من الله، لا سيّما في تلك الحالة من الصغر، ولأنّه إنّما إهتدى بهداية الله إيّاه.

﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ﴾ أي: بارّاً بوالديه، محسناً إليهما، مطيعاً لهما، لطيفاً بهما، طالباً مرضاتهما ﴿وَلَمْ يَكُنْ جَبَّاراً﴾ أي: متكبّراً متطاولاً على الخلق. وقيل: الجبّار: الذي يقتل ويضرب على الغضب، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿عَصِيّاً﴾ أي: عاصياً لربّه، فعيل بمعنى «فاعل».

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً﴾ أي: سلام عليه منّا في هذه الأيّام، ـ عن عطاء ـ. وقيل: وسلامة وأمان له منّا، ـ عن الكلبي ـ، ومعناه: سلامة وأمن له يوم ولد من عبث الشيطان به، وإغوائه إيّاه، ويوم يموت من بلاء الدنيا، ومن عذاب القبر، ويوم يبعث حيّاً من هول المطّلع، وعذاب النار. وإنّما قال: ﴿حَيّاً﴾ تأكيداً لقوله: ﴿يُبْعَثُ﴾ وقيل: يعني أنّه يبعث مع الشهداء؛ لأنّهم وصفوا بأنّهم أحياء. قال سفيان بن عيينة: أوحش ما يكون الإنسان في ثلاثة مواطن: يوم ولد، فيرى نفسه خارجاً ممّا كان فيه. ويوم يموت، فيرى قوماً لم يكن عاينهم، وأحكاماً ليس له بها عهد. ويوم يبعث، فيرى نفسه في محشر عظيم. فخصّ الله سبحانه يحيى بالكرامة، والسلام، والسلامة، في المواطن الثلاثة. وقيل: إنّ السلام الأوّل يوم الولادة تفضّل، والثاني والثالث على وجه الثواب والجزاء.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾

القراءة: قرأ أبو عمرو، وورش، وقالون، برواية الحلواني، ويعقوب: ليهب ـ بالياء ـ. والباقون: ﴿لِأَهَبَ﴾ بالهمزة[1].

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة من قال ﴿لِأَهَبَ﴾ فأسند الفعل إلى المتكلّم. والهبة لله تعالى. ومنه: إنّ الرسول والوكيل قد يسند هذا النحو إلى نفسه، وإن كان الفعل للموكّل، أو المرسل؛ للعلم بأنّه مترجم عنه. ومن قال: ليهب لك، فهو على تصحيح اللفظ في المعنى. ففي قوله تعالى: ليهب، ضمير من قوله: ﴿رَبِّكَ﴾. وهو سبحانه الواهب. وزعموا أنّ في حرفي أُبيّ وابن مسعود «ليهب»[2]. ولو خففت الهمزة من ﴿لِأَهَبَ﴾ لكان في قول أبي الحسن «ليهب» فتقلبها ياء محضة. وفي قول الخليل ﴿لِأَهَبَ﴾ يجعلها بين الياء والهمزة.

اللغة: النبذ: أصله: الطرح. والإنتباذ: إفتعال منه. ومنه: قوله: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: ألقوه. وإنتبذ فلان ناحية أي: تنحى ناحية. وجلس فلان نبذة من الناس. ونبذة ـ بفتح النون وضمّها ـ أي: ناحية، وإنّما يقال ذلك إذا جلس قريباً

---

(١) إنّيَ أعوذ: بفتح الياء الحرميان وأبو عمرو.
(٢) مكتوباً.

منهم حتى لو نبذوا إليه شيئاً لوصل إليه. فالإنتباذ: إتّخاذ الشيء بإلقاء غيره عنه. والمكان الشرقيّ: الذي كان في جهة الشرق. قال جرير:

هَبَّتْ جَنُوبُ فَذِكْرىٰ مَا ذَكَرْتُكُمُ عِنْدَ الصَّفَاة إِلىٰ شَرْقِيِّ حَوْرَانَا

الإعراب: ﴿مَكَاناً﴾: نصب على الظرف. ﴿بَشَراً سَوِيّاً﴾: منصوب على الحال.

المعنى: ثمّ عطف سبحانه قصّة مريم وعيسى عليه السلام على قصّة زكريّا ويحيى، عليهما السلام فقال: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ أي: في كتابك هذا، وهو القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾ أي: حديث مريم، وولادتها عيسى، وصلاحها ليقتدي الناس بها، ولتكون معجزة لك.

﴿إِذْ انتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً﴾ أي: إنفردت من أهلها إلى مكان في جهة المشرق، وقعدت ناحية منهم. قال ابن عباس: إنّما إتّخذت النصارى المشرق قبلة؛ لأنّها إنتبذت مكاناً شرقيّاً. وقيل: إتّخذت مكاناً تنفرد فيه للعبادة، لئلّا تشتغل بكلام الناس، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: تباعدت عن قومها حتى لا يرونها، ـ عن الأصم، وأبي مسلم ـ. وقيل: إنّها تمنت [تمنث] أن تجد خلوة فتفلي رأسها، فخرجت من يوم شديد البرد، فجلست في مشرقة للشمس، ـ عن عطا ـ.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً﴾ أي: فضربت من دون أهلها لئلّا يروها، ستراً وحاجزاً بينها وبينهم. ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يعني: جبرائيل عليه السلام، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة، وغيرهم ـ. وسمّاه الله روحاً؛ لأنّه روحانيّ، وأضافة إلى نفسه تشريفاً له.

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَراً سَوِيّاً﴾ معناه: فأتاها جبرائيل فإنتصب بين يديها في صورة آدميّ صحيح، لم ينقص منه شيء[1]. وقال أبو مسلم: إنّ الروح الذي خلق منه المسيح، تصوّر لها إنساناً. والأوّل هو الوجه؛ لإجماع المفسّرين عليه. وقال عكرمة: كانت مريم إذا حاضت خرجت من المسجد، وكانت عند خالتها إمرأة

---

(١) ويدلّ كلمة التمثيل على أنّ الروح لم يكن جسماً متمثلاً في أصل خلقته، بل صار متمثلاً لمريم، فإنّ الفعل يدلّ على الحدوث.

زكريّا أيّام حيضها، فإذا طهرت، عادت إلى بيتها في المسجد.

فبينا هي في مشرقة لها في ناحية الدار، وقد ضربت بينها وبين أهلها ستراً لتغسل وتمتشط، إذ دخل عليها جبرائيل في صورة رجل شابّ أمرد، سوي الخلق، فأنكرته فإستعاذت بالله منه ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنتَ تَقِيّاً﴾ معناه: إنّي أعتصم بالرحمن من شرك، فأخرج من عندي إن كنت تقيّاً.

سؤال: يقال: كيف شرطت في التعوّذ منه أن يكون تقيّاً، والتقيّ لا يحتاج أن يتعوّذ منه، وإنّما يتعوّذ من غير التقيّ؟ **والجواب:** إنّ التقيّ إذا تعوّذ بالرحمن منه إرتدع عمّا يسخط الله، ففي ذلك تخويف وترهيب له، وهذا كما تقول: إن كنت مؤمناً فلا تظلمني. فالمعنى: إن كنت تقيّاً فإتّعظ وأُخرج.

وروي عن علي عليه السلام أنّه قال: علمت أنّ التقي ينهاه التقى عن المعصية. وقيل: إنّ معنى قوله: ﴿ إِنْ كُنتَ تَقِيّاً ﴾ ما كنت تقيّاً؛ حيث إستحللت النظر إليّ، وخلوت بي. فلمّا سمع جبرائيل عليه السلام منها هذا القول ﴿قَالَ﴾ لها: ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ ﴾ وقد بيّنا معنى القراءتين ﴿ غُلَاماً زَكِيّاً ﴾ أي: ولداً طاهراً من الأدناس. وقيل: نامياً في أفعال الخير. وقيل: يريد نبيّاً، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿قَالَتْ﴾ مريم ﴿ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ أي: كيف يكون لي ولد ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ على وجه الزوجيّة ﴿ وَلَمْ أَكُنْ بَغِيّاً ﴾ أي: ولم أكن زانية، وإنّما قالت ذلك؛ لأنّ الولد في العادة يكون من إحدى هاتين الجهتين، والمعنى: إنّي لست بذات زوج، وغير ذات الزوج لا تلد إلّا عن فجور، ولست فاجرة، وإنّما يقال للفاجرة: بغيّ، بمعنى أنّها تبغي الزنا أي: تطلبه.

وفي هذه الآيات دلالة على جواز إظهار المعجزات لغير الأنبياء؛ لأنّ من المعلوم أنّ مريم لست بنبيّة، وإنّ رؤية الملك على صورة البشر، وبشارة الملك إيّاها، وولادتها من غير وطيء، إلى غيرها من الآيات التي أتاها الله بها، من أكبر المعجزات. ومن لم يجوّز إظهار المعجزات على غير النبيّ، إختلفت أقوالهم في ذلك: قال الجبائي، وابنه: إنّها معجزات لزكريّا عليه السلام. وقال البلخي: إنّها معجزات

لعيسى على سبيل الإرهاص والتأسيس لنبوّته.

قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ
وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ
بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾
فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ
إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾
فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى
ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ (١)

القراءة: قرأ حمزة وحفص: ﴿نَسِيّاً﴾ ـ بفتح النون ـ. والباقون: ﴿نِسِيّاً﴾

(١) وقف حمزة على «أمراً» ونحوه ـ من الهمزة المفتوحة بعد الفتح ـ بإبدالها ألفاً. وأسكن الياء من «آتاني الكتاب» حمزة.

ـبكسر النون ـ. وقرأ: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ ـبكسر الميم ـأهل المدينة، والكوفة، غير أبي بكر، وسهل. والباقون: ﴿مَنْ تَحْتِهَا﴾. وقرأ حفص عن عاصم: ﴿تُسَاقِطْ﴾ ـ بضمّ التاء، وكسر القاف ـ. وقرأ حمّاد، عن عاصم، وبصير [نصير]، عن الكسائي، ويعقوب وسهل: يسّاقط ـبالياء، وتشديد السين ـ. وقراءة حمزة: ﴿تَسَاقِطْ﴾ ـ بفتح التاء، وتخفيف السين ـ. والباقون: ﴿تَسَّاقِطْ﴾ ـبفتح التاء، وتشديدالسين ـ. وفي الشواذّ، قراءة مسروق يُساقط ـبضم الياء، وتخفيف السين ـ. وقرأ طلحة بن سليمان: ﴿رُطَباً جَنِيّاً﴾ ـبكسرالجيم ـ، ﴿فَإِمَّا تَرَيْنَ﴾ ـبسكون الياء، والتخفيف ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: قال أبو الحسن: النَسْي: هو الشيء الحقير ينسى نحو: النعل والسوط. وقال غيره: النسي: أغفل ما من شيء حقير. وقال بعضهم: ما إذا ذكر لم يطلب. وقالوا: الكسر أعلى اللغتين. قال الشنفرى:

كَأَنَّ لَهَا فِي الأَرْضِ نِسْياً تَقُصُّهُ عَلَى أُمِّها، وَإِنْ تُخَاطِبْكَ تَبْلَتِ[1]

وقال في قوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ إنّه جبرائيل، أو عيسى عليه السلام. وقال بعض أهل التأويل: لا يكون إلّا عيسى عليه السلام، ولا يكون جبرائيل؛ لأنّه لو كان جبرائيل لناداها من فوقها. وقد يجوز أن يكون جبرائيل. وليس قوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ يراد به الجهة السفلى. وإنّما المراد من دونها؛ بدلالة قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ ولم يكن النهر محاذياً لهذه الجهة، ولكن المعنى جعله دونك. وقد يقال: فلان تحتنا أي: دوننا في الموضع. والأشبه أن يكون المنادي لها عيسى عليه السلام، فإنّه أشدّ إزالة لما خامر قلبها من الإغتمام. وإذا قال: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ كان عاماً، وضع موضع الخاصّ، والمراد به: عيسى.

قال: والوجوه كلّها، كما في ﴿تُسَاقِطْ﴾ متّفقة في المعنى، إلّا قراءة حفص.

---

(١) يصف جارية بالحياء، وأنّها تنظر دائماً إلى الأرض، لاترفع بصرها، كان لها ضالة تتدها [تتشدها] في طريقها، وإذا تكلّمت إنقطعت، ولاتتمّ كلامها.

ألا ترى أنّ من قرأ: ﴿تُسَاقِطْ﴾ إنّما هي «تتساقط»، فحذف التاء التي يدغمها غيره، وكلّهم جعل فاعل الفعل الذي هو تساقط، أو تساقط، في رواية حفص، النخلة. ويجوز أن يكون فاعل تساقط أو تساقط، هي جذع النخلة، إلّا أنّه لمّا حذف المضاف، أسند الفعل إلى النخلة في اللفظ. فأمّا تعديتهم «تساقط» فهو تفاعل؛ لأنّ «تفاعل» مطاوع «فاعل». فكما عدّي نحو: تفعل في نحو تجرعته وتمززته، فكذلك عدّى «تفاعل». فممّا جاء من ذلك في الشعر قول أوفى بن مطر:

تَخَاطَأَتِ النَّبْلُ أَحْشَاءَهُ ... وَآخِرَ يَوْمِي فَلَمْ يُعْجَلِ[1]

وقول الآخر:

تَطَالَعْنا حِيالاتٍ لِسَلْمَى ... كَمَا يَتَطَالَعُ الدَّيْنَ الغَرِيمُ

وقول إمرىء القيس:

وَمِثْلِكَ بَيْضَاءِ العَوَارِضِ طِفْلَةٍ ... لَعُوبٍ تُنَاسَانِي إِذَا قُمْتَ سِرْبَالي

أراد: تنسيني. ومن قرأ بالياء، أمكن أن يكون فاعله الهزّ؛ لأنّ قوله: ﴿وَهُزِّي﴾ قد دلّ عليه. فإذا كان كذلك، جاز أن يضمره، كما أضمر الكذب في قوله: «من كذب كان شرّاً له» ويمكن أن يكون الجذع. ويجوز في الفعل إذا أُسند إلى الجذع وجهان: أحدهما: إنّ الفعل أُضيف إلى الجذع، كما أُضيف إلى النخلة برمتها؛ لأنّ الجذع معظمها. والآخر: أن يكون الجذع منفرداً عن النخلة، يسقط عليها، ويكون سقوط الرطب من الجذع آية لعيسى عليه السلام، ويصير سقوط الرطب من الجذع أسكن لنفسها، وأشدّ إزالة لإهتمامها، وسقوط الرطب من الجذع منفرداً من النخل، مثل رزقها الذي كان يأتيها المحراب في قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً﴾ إلى قوله: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾. وقوله: ﴿رُطَباً﴾

---

(١) يعني: لم يمت، ولم تصبه السهام.

في هذه الوجوه منصوب على أنّه مفعول به، ويجوز في قوله: ﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ﴾ أي: تساقط عليك ثمرة النخلة رطباً، فحذف المضاف الذي هو الثمرة، ويكون إنتصاب «رطب» على الحال. وجاز أن يضمر الثمر. وإن لم يجر لها ذكر؛ لأنّ ذكر «النخلة» يدلّ عليها.

فأمّا الباء في قوله: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فيحتمل أمرين:

أحدهما: أن يكون زيادة، كقوله: ألقى بيده، وألقى يده. وقوله:

بِوادٍ يَمانٍ يُنْبِتُ الشَّثَّ صَدْرُهُ وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ، وَالشَّبْهانِ[1]

ونحو ذلك.

ويجوز أن يكون المعنى: وهزّي إليك بهزّ جذع النخلة رطباً، كما قال ذو الرمة:

وَصَوَّحَ الْبَقْلَ فَنّاجٌ تَجِيءُ بِهِ هَيْفٌ يَمانِيَةٌ فِي مَرِّها نَكَبُ[2]

أي: تجيء بمجيئة هيف، يعني: إذا جاء النئاج، جاء الهيف. وكذلك إذا هزّت الجذع، هزّت بهزّة رطباً أي: فإذا هززت الرطب، سقط. وأمّا قراءة مسروق: ـ يساقط ـ فإنّه بمعنى: يسقط شيئاً بعد شيء. وأنشد ابن جنّي قول ضابىء البرجمي:

يُساقِطُ عَنْهُ رَوْقُهُ ضارِباتِها سِقاطَ حَديدِ القَيْنِ أخْوَلَ أخْوَلا[3]

أي: يسقط قرن هذا الثور ضاريات كلاب الصيد، لطعنه إيّاها به شيئاً بعد شيء. وأمّا قراءة طلحة: ﴿رُطُباً جَنِيّاً﴾، فإنّه أتبع كسرة الجيم كسرة النون. قال ابن جنّي: شبّه النون، وإن لم يكن من حروف الحلق بهنّ في نحو: الشخير، والنخير،

---

(١) المرخ: شجر، وكذا الشبهان. والشثّ: نبت.

(٢) تصوح البقل: أي يبس أعلاه. والنئّاج: السريع في سيره الصوات. والهيف: ريح حارّة تجيء من اليمن، وهي النكباء.

(٣) الروق: القرن. وأخول أخولاً: أي متفرّقاً شيئاً بعد شيء.

والرغيف. و﴿أَمَّا تَرَينَ﴾ فهي شاذّة، لكنّه جاء في لغة إثبات النون في الجزم. وأنشد أبو الحسن:

لَوْلاَ فَوَارِسُ مِنْ قَيْسٍ، وَأُسْرَتِهِمْ يَوْمَ ٱلصُّلَيْفاءِ، لَمْ يُوفُونَ بِالجَارِ(١)

اللغة: القصي: البعيد. والقاصي: خلاف الداني. وقوله: ﴿فَأَجَاءَهَا﴾ أي: جاء بها المخاض، وهو ممّا يعدّى تارة بالباء، وتارة بهمزة النقل. قال زهير:

وَجَارٍ سَارَ مُعْتَمِداً عَلَيْنا أَجاءَتْهُ الْمَخاوِفُ، وَٱلرَّجاءُ[١]

أي: جاءت به. ويروى: جاء. قال الكسائي: تميم تقول: ما أجاءك إلى هذا، وما أمشاك إليه. ومن أمثالهم: «شَرٌّ أجاءك إلى مُخَّة عرقوب»[٢] وتميم تقول: أمشاك. والسري: النهر؛ لأنّه يسري بجريانه. قال لبيد:

فَتَوَسَّطا عَرْضَ ٱلسَّرِيِّ، فَصَدَّعا مَسْجُورَةً، مُتَجاوِراً قُلاَّمُها(٢)

ويقال: قررت به عيناً، أقرّ قروراً، فهي لغة قريش. وأهل نجد يقولون: قررت به، ـ بفتح العين ـ أقرّ قراراً، كما يقولون: قرَرت بالمكان ـ بالفتح ـ. والجَنيّ: بمعنى المجنيّ، من جنت الثمرة وأجنيتها: إذا قطعتها. وقال إبن أُخت جذيمة:

هٰذا جِنايَ وَخِيارُهُ فِيهِ إِذْ كُلُّ جانٍ يَدُهُ إِلىٰ فِيهِ(٣)

وفي معناه قول الكميت يمدح أهل البيت عليهم السلام:

خِيارَها يَجْتَنُونَ فِيهِ إذاً [لـ] جانُونَ فِي ذِي أَكُفِّهِمْ أَرِبُوا(٤)

---

(١) أرض صلفاء: أي خشنة. وصليفا: تصغير، كأنّه أراد به موضعاً.

(٢) ضمير التثنية في «توسّطا وصدّعا» للعير والاتان، دخلا وسط النهر من عرضه، وشققا عينا مسجورة، أي مملوة ماء، وبجوار العين القلام وهونت.

(٣) الشعر في جامع الشواهد.

(٤) أربت يده: أي تبّت وقطعت. وأربت عن ذي يديك: أي قطعت.

[١] أجاءَه الى الشيء: جاء به وألجأه واضطرّه إليه.

[٢] المخة: القطعة من الملخ. مثل يضرب في الحاجة إلى لئيم، لأن المراد من العرقوب عرقوب الرجل، وأنه لا مخ له.

قال أبو مسلم: الفري: مأخوذ من فرى الأديم: إذا قطعه على وجه الإصلاح. ثمّ يستعمل في الكذب. وقال الزجّاج: يقال: فلان يفري الفري: إذا كان يعمل عملاً يبالغ فيه. قال الراجز: «قَدْ كُنْتِ تَفْرِينَ بِهِ الْفَرِيّا».

الإعراب: ﴿عَيْناً﴾ منصوب على التميز ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ﴾ أصله تَرأَينَّ، إلّا أَنّ الإستعمال بغير همز. والياء فيه ضمير المؤنّث، وإنّما حرّكت لإلتقاء الساكنين، وهما الياء والنون الأُولى من المشدّدة، كما تقول للمرأة: أرضين زيداً. وقوله: ﴿مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً﴾: كان: هنا بمعنى الحدوث والوقوع، والتقدير: كيف نكلّم من وجد في المهد. ﴿صَبِيّاً﴾: نصب؛ على الحال من «كان». ومثل كان هيهنا قوله: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾. ومثله قول الربيع:

إِذا كانَ الشِّتاءُ فَأَدْفِئوني ... فَإِنَّ الشَّيْخَ يَهْدِمُهُ الشِتاءُ[١]

ويجوز أن يكون ﴿كَانَ﴾ هنا مزيدة، كما في قول الشاعر:

جِيادُ بَنِي أَبِي بَكْرٍ تُسامى ... عَلَى كانَ الْمُسَوَّمَةِ الْعِرابِ(١)

فعلى هذا يكون العامل في الحال «نكلم». قال الزجّاج: الأجود أن يكون «مَنْ» في معنى الشرط والجزاء، فيكون المعنى: من يكن في المهد صبيّاً، فكيف نكلّمه ويكون صبيّاً حالاً، كما تقول: من كان لا يسمع، ولا يعقل، فكيف أُخاطبه.

المعنى: ﴿قَالَ كَذَلِكِ﴾ أي: قال لها جبرائيل حين سمع تعجّبها من هذه البشارة: الأمر كذلك أي: كما وصفت لك ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ أي: إحداث الولد من غير زوج للمرأة سهل متأتٍّ، لا يشقّ عليّ ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ معناه: ولنجعله علامة ظاهرة، وآية باهرة للناس على نبوّته، ودلالة على براءة أُمّه ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ له، ولنجعله نعمة منّا على الخلق، يهتدون بسببه. ﴿وَكَانَ أَمْراً

---

(١) يعني: جياد بني أبي بكر تفوق على المسومة.

[١] أدفأه: أسخنه. وقائله: ربيع بن ضبع الفزاري، وهو من المعمرين.

﴿مَقْضِيّاً﴾ أي: وكان خلق عيسى من غير ذكر، أمراً كائناً مفروغاً عنه، محتوماً، قضى الله سبحانه بأن يكون، وحكم به.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ أي: فحملت مريم بعيسى، فحبلت في الحال. قيل: إنّ جبرائيل أخذ ردن قميصها بإصبعه، فنفخ فيه، فحملت مريم من ساعتها، ووجدت حسّ الحمل. وقيل: نفخ في كمها، ـ فحملت، عن ابن جريج ـ.

وروي عن الباقر عليه السلام أنّه تناول جيب مدرعتها، فنفخ فيه نفخة، فكمل الولد في الرحم من ساعته، كما يكمل الولد في أرحام النساء تسعة أشهر، فخرجت من المستحم، وهي حامل محج[مهج] مثقل. فنظرت إليها خالتها فأنكرتها. ومضت مريم على وجهها مستحية من خالتها، ومن زكريّا.

﴿فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً﴾ أي: تنحّت بالحمل إلى مكان بعيد. وقيل: معناه: إنفردت به مكاناً بعيداً من قومها، حياء من أهلها، وخوفاً من أن يتّهموها بسوء.

وإختلفوا في مدّة حملها. فقيل: ساعة واحدة. قال ابن عباس: لم يكن بين الإنباذ والحمل إلّا ساعة واحدة؛ لأنّه تعالى لم يذكر بينهما فصلاً؛ لأنّه قال: ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ﴾ ﴿فَأَجَاءَهَا﴾، والفاء للتعقيب. وقيل: حملت به في ساعة، وصور في ساعة، ووضعته في ساعة، حين زاغت الشمس من يومها، وهي بنت عشر سنين، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: كانت مدّة حملها تسع ساعات، وهذا مرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام. وقيل: ستّة أشهر. وقيل: ثمانية أشهر. وكان ذلك آية، وذلك أنّه لم يعش مولود وضع لثمانية أشهر غيره.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ أي: ألجأها الطلق أي: وجع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ فإلتجأت إليها لتستند إليها، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدّي ـ. وقيل: أجاءها أي: جاء بها. قال ابن عباس: نظرت مريم إلى أكمة، فصعدت مسرعة إليها، فإذا عليها جذع نخلة نخرة، ليس لها سعف. والجذع: ساق النخلة.

والألف واللام دخلت للعهد، لا للجنس أي: النخلة المعروفة.

فلمّا ولدت ﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ﴾ أي: شيئاً حقيراً متروكاً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: شيئاً لا يذكر، ولا يعرف، ـ عن قتادة ـ. وقيل: حيضة ملقاة، ـ عن عكرمة، والضحّاك، ومجاهد ـ. قال ابن عباس: فسمع جبرائيل كلامها، وعرف جزعها.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ وكان أسفل منها تحت أكمة. ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ وهو قول السدّي، وقتادة، والضحّاك. إنّ المنادي جبرائيل، ناداها من سفح الجبل. وقيل: ناداها عيسى، ـ عن مجاهد، والحسن، ووهب، وسعيد بن جبير، وابن زيد، وابن جرير، والجبائي ـ. وإنّما تمنّت عليها السلام الموت، كراهية؛ لأنْ يعصي الله فيها. وقيل: إستحياء من الناس أن يظنّوا بها سوءاً، ـ عن السدي ـ، وروي عن الصادق عليه السلام: لأنها لم تر في قومها رشيداً ذا فراسة، ينزهها من السوء.

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً﴾ أي: ناداها جبرائيل، أو عيسى، ليزول ما عندها من الغمّ والجزع. لا تغتمّي، قد جعل ربّك تحت قدميك نهراً تشربين منه، وتتطهّرين من النفاس، عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، قالوا: وكان نهراً قد إنقطع الماء عنه، فأرسل الله الماء فيه لمريم، وأحيا ذلك الجذع، حتى أثمر وأورق. وقيل: ضرب جبرائيل عليه السلام برجله، فظهر ماء عذب. وقيل: بل ضرب عيسى برجله، فظهرت عين ماء تجري، وهو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام. وقيل: السري: عيسى عليه السلام، ـ عن الحسن، وابن زيد، والجبائي ـ. والسري: وهو الشريف الرفيع. قال الحسن: كان والله عبداً سريّاً.

﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ معناه: اجذبي إليك بجذع النخلة. والباء مزيدة. وقال الفرّاء: العرب تقول: هزَّه وهزَّ به.

﴿تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً﴾ مرَّ معناه. وقال الباقر عليه السلام: لم تستشف النفساء

بمثل الرطب، إنّ الله أطعمه مريم في نفاسها. وقالوا: إنّ الجذع كان يابساً لا ثمر عليه؛ إذ لو كان عليه ثمر، لهزّته من غير أن تؤمر به، وكان في الشتاء، فصار معجزة بخروج الرطب في غير أوانه، وبخروجه دفعة واحدة، فإنّ العادة أن يكون نوراً أوّلاً، ثمّ يصير بلحاً، ثمّ بسراً. وروي أنّه لم يكن للجذع رأس، فضربته برجلها، فأورقت وأثمرت، وإنتثر عليها الرطب جنيّاً. والشجرة التي لا رأس لها لا تثمر في العادة. وقيل: إنّ تلك النخلة كانت برنية. وقيل: كانت عجوة، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام.

﴿ فَكُلِي وَاشْرَبِي ﴾ أي: كلي يا مريم من هذا الرطب، وإشربي من هذا الماء ﴿ وَقَرِّي عَيْناً ﴾ جاء في التفسير: وطيبي نفساً. وقيل: معناه: لتقرّ عينك سروراً بهذا الولد الذي ترين؛ لأنّ دمعة السرور باردة، ودمعة الحزن حارّة. وقيل: معناه: لتسكن عينك سكون سرور برؤيتك ما تحبّين.

﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنْ الْبَشَرِ أَحَداً﴾ فسألك عن ولدك ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْماً ﴾ أي: صمتاً، ـ عن ابن عباس ـ. والمعنى: أوجبت على نفسي لله أن لاأتكلّم. وقيل: صوماً أي: إمساكاً عن الطعام، والشراب، والكلام، ـ عن قتادة ـ. وإنّما أُمرت بالصمت؛ ليكفيها كلام ولدها بما يبرىء به ساحتها، ـ عن ابن مسعود، وابن زيد، ووهب ـ.

وقيل: كان في بني إسرائيل من أراد أن يجتهد، صام عن الكلام، كما يصوم عن الطعام، فلا يتكلّم الصائم حتى يمسي يدلّ على هذا قوله: ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً ﴾ أي: إنّي صائم فلن أكلّم اليوم أحداً. وكان قد أذن لها أن تتكلّم بهذا القدر، ثمّ تسكت، ولا تتكلّم بشيء آخر، ـ عن السدّي ـ. وقيل: كان الله تعالى أمرها بأن تنذر لله الصمت، وإذا كلّمها أحد تؤمي بأنّها نذرت لله صمتاً؛ لأنّه لا يجوز أن يأمرها بأن تخبر بأنّها نذرت، ولم تنذر؛ لأنّ ذلك كذب، ـ عن أبي عليّ الجبائي ـ.

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ أي: فأتت مريم بعيسى، حاملة له، وذلك أنّها لفّته في خرقة، وحملته إلى قومها ﴿ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً ﴾ أي: أمرًا عظيماً بديعاً؛ إذ لم تلد أُنثى قبلك من غير رجل، ـ عن مجاهد، وقتادة، والسدّي ـ. وقيل: أمراً قبيحاً منكراً من الإفتراء: وهو الكذب، ـ عن الجبائي ـ.

﴿ يَا أُخْتَ هَارُونَ ﴾ قيل فيه أقوال: أحدها: إنّ هارون هذا كان رجلاً صالحاً في بني إسرائيل، ينسب إليه كل من عرف بالصلاح، ـ عن ابن عباس، وقتادة، وكعب، وابن زيد، والمغيرة بن شعبة، يرفعه إلى النبيّ ﷺ ـ. وقيل: إنّه لمّا مات شيّع جنازته أربعون ألفاً، كلّهم يسمّى هارون. فقولهم: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ معناه: يا شبيهة هارون في الصلاح، ما كان هذا معروفاً منك. وثانيها: إنّ هارون كان أخاها لأبيها، ليس من أمّها، وكان معروفا بحسن الطريقة، ـ عن الكلبي ـ وثالثها: إن هارون أخو موسى عليه السلام فنسبت إليه، لأنّها من ولده، كما يقال: يا أخا تميم، ـ عن السدّي ـ ورابعها: إنّه كان رجلاً فاسقاً، مشهوراً بالعهر والفساد، فنسبت إليه. وقيل لها: يا شبيهته في قبح فعله، ـ عن سعيد بن جبير ـ.

﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ أي: كان أبواك صالحين، فمن أين جئت بهذا الولد؟ ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي: فأومت إلى عيسى عليه السلام بأن كلّموه، وإستشهدوه على براءة ساحتي، فتعجّبوا من ذلك، ثمّ ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ معناه: كيف نكلّم صبياً في المهد. وقيل: صبيّاً في الحجر رضيعاً. وكان المهد حجر أُمّه الذي تربّيه فيه؛ إذ لم تكن هيأت له مهداً، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنّهم غضبوا عند إشارتها إليه، وقالوا: لسخريّتها بنا أشدُّ علينا من زناها! فلمّا تكلّم عيسى عليه السلام قالوا: إنّ هذا الأمر عظيم، ـ عن السدّي ـ.

﴿قَالَ﴾ عيسى عليه السلام: ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللهِ ﴾ قدم إقراره بالعبوديّة؛ ليبطل به قول من يدّعي له الربوبيّة، وكأنّ الله سبحانه أنطقه بذلك؛ لعلمه بما يقوله الغالون فيه.

ثمّ قال: ﴿ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ أي: حكم لي بإتيان الكتاب والنبوّة. وقيل: إنّ الله تعالى أكمل عقله في صغره، وأرسله إلى عباده، وكان نبيّاً مبعوثاً إلى الناس في ذلك الوقت، مكلّفاً عاقلاً. ولذلك كانت له تلك المعجزة، ـ عن الحسن، والجبائي ـ. وقيل: إنّه كلّمهم، وهو إبن أربعين يوماً، ـ عن وهب ـ. وقيل: يوم ولد، ـ عن ابن عباس، وأكثر المفسّرين ـ. وهو الظاهر. وقيل: أن معناه: إنّي عبد الله سيؤتيني الكتاب، وسيجعلني نبيّاً. وكان ذلك معجزة لمريم عليها السلام على براءة ساحتها.

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ
وَالزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

القراءة: قرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ ـ بالنصب ـ. والباقون: بالرفع. وفي الشواذّ، قراءة أبي مجلز، وأبي نهيك: ﴿وَبَرَّاً بِوَالِدَتِي﴾ ـ بكسر الباء ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ الرفع فيه: على أنّ قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ كلام، والمبتدأ المضمر ما دلّ عليه هذا الكلام أي: هذا الكلام قول الحقّ. ويجوز أن يضمر «هو» ويجعله كناية عن عيسى عليه السلام أي: هو

قول الحقّ؛ لأنّه قد قيل: فيه روح الله وكلمته. والكلمة قول. وأمّا النصب: فعلى أنّ قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ﴾ يدلّ على أحقّ قول الحقّ، وتقول: هذا زيد الحقّ، لا الباطل؛ لأنّ قولك: هذا زيد عندك بمنزلة أحقّ، فكأنّك قلت أحقّ الحقّ، وأحقّ قول الحق.

ومن قال: ﴿وَبَرَّاً بِوالِدَتِي﴾: فكأنّه قال: وألزمني برّاً بوالدتي، ويكون معطوفا على موضع الجارّ والمجرور، من قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ وعليه بيت الكتاب: «يَذْهَبْنَ فِي نَجْدٍ وَغَوْراً غائراً» أي: ويسلكن غوراً. وإن شئت حملته على حذف المضاف بمعنى: وجعلني ذا برّ، وإن شئت جعلته إيّاه على المبالغة، كقول الخنساء: «فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وإِدْبَارٌ»[١].

﴿اللغة﴾: السلام: مصدر سلمت. والسلام: جمع سلامة. والسلام: إسم من أسماء الله تعالى. وسلام: ممّا يبتدأ به في النكرة؛ لأنّه إسم يكثر إستعماله. يقال: سلام عليك، والسلام عليك، وأسماء الأجناس يكثر الإبتداء بها. وفائدة نكرتها قريب من فائدة معرفتها. تقول: لبّيك وخير بين يديك. وإن شئت قلت: والخير بين يديك، إلّا أنّه لمّا جرى ذكر «سلام» قبل هذا الموضع بغير ألف ولام، كان الأحسن أن يرد ثانية بالألف واللام.

﴿المعنى﴾: ثمّ بيّن سبحانه تمام كلام عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ أي: وجعلني معلّماً للخير، ـ عن مجاهد ـ. وقيل: نفاعاً حيث ما توجّهت. والبركة: نماء الخير. والمبارك: الذي ينتمي الخير به. وقيل: ثابتاً دائماً على الإيمان والطاعة. وأصل البركة: الثبوت، ـ عن الجبائي ـ.

---

[١] وقبله: (ترتع ما رتعت حتى إذا أدكرت).

﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي: بإقامة الصلاة، وأداء الزكاة ﴿مَا دُمْتُ﴾ أي: ما بقيت ﴿حَيّاً﴾ مكلّفاً ﴿وَبَرَّاً بِوَالِدَتِي﴾ أي: وإجعلني بارّا بها، أؤدّي شكرها فيما قاسته بسببي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً﴾ أي: متجبّراً ﴿شَقِيّاً﴾ والمعنى: إنّي بلطفه وتوفيقه كنت محسناً إلى والدتي، متواضعاً في نفسي، حتى لم أكن من الجبابرة الأشقياء.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ أي: والسلامة عليّ من الله ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ أي: في هذه الأحوال الثلاث. وقد مرَّ تفسيرها قبلُ، في قصّة يحيى. وفي هذه الآيات دلالة على أنّه يجوز أن يصف الإنسان نفسه بصفات المدح، إذا أراد تعريفها إلى غيره، لا على وجه الإفتخار. قيل: ولمّا كلّمهم عيسى عليه السلام بهذا، علموا براءة مريم، ثمّ سكت عيسى عليه السلام، فلم يتكلّم بعد ذلك، حتى بلغ المدّة التي يتكلّم فيها الصبيان.

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ معناه: ذلك الذي قال: إنّي عبدالله عيسى بن مريم، لا ما يقوله النصارى: من أنّه ابن الله، وأنّه إلّه ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ مرَّ معناه في الحجّة ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي: يشكون، يعني: اليهود والنصارى. فزعمت اليهود أنّه ساحر كذّاب، وزعمت النصارى أنّه ابن الله، وثالث ثلاثة. وقيل: وهو افتراء النصارى، وإختلافهم، فبعضهم قالوا: هو الله، وقال بعضهم: إبن الله. وقال بعضهم: ثالث ثلاثة.

ثمّ كذّبهم الله تعالى، فقال: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ معناه: ما كان ينبغي لله أن يتّخذ من ولد أي: ما يصلح له، ولا يستقيم، عن ابن الأنباري قال: فنابت اللام عن الفعل، وذلك أنّ من إتّخذ ولداً، فإنّما يتّخذه من جنسه؛ لأنّ الولد مجانس للوالد، والله تعالى ليس كمثله شيء، فلا يكون له سبحانه ولد، ولا يتّخذ

ولداً. وقوله: ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾: من هذه: هي الذي تدلّ على نفي الواحد والجماعة. فالمعنى: إنّه لا يجوز أن يتّخذ ولداً واحداً، ولا أكثر.

ثمّ نزّه سبحانه نفسه عن ذلك، فقال: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ثمّ بيّن السبب في كون عيسى من غير أب، فقال: ﴿إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وقد مرّ تفسيره فيما مضى، والمعنى: إنّه لا يتعذر عليه إيجاد شيء على الوجه الذي أراده.

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ[1] ﴿٤٠﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة، وابن عامر، وروح، وزيد، عن يعقوب: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ ـ بكسر الهمزة ـ. والباقون: بالفتح.

الحجة: قال أبو عليّ: حجّة من كسر: أنّه جعله مستأنفاً، كما أنّ المعطوف عليه مستأنف. وحجّة من فتح: أنّه حمله على قوله: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾، وبأنّ الله ربّي وربّكم.

الإعراب: و المعنى: قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ من فتح الهمزة، ففيه أربعة أوجه: أحدها: إنّ المعنى: وقضى أنّ الله ربّي وربّكم، ـ عن أبي عمرو بن

(١) مرّ القرائة في «صراط». وقرأ: «يرجعون» ـ مبنيّاً للفاعل ـ يعقوب.

العلاء ـ. والثاني: إنّه معطوف على كلام عيسى أي: وأوصاني بأنّ الله ربّي وربّكم. والثالث: ذلك عيسى بن مريم، وذلك أنّ الله ربّي وربّكم، ـ عن الفرّاء ـ. والرابع: أنّ العامل فيه: فأعبدوه، والتقدير: ولأنّ الله ربّي وربّكم ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ فحذف الجارّ.

ومن كسر الهمزة، جاز أن يكون معطوفاً على قوله: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللهِ﴾ أي: وقال إنّ الله ربّي وربّكم. وجاز أن يكون إبتداء كلام من الله تعالى، أو أمر من الله لرسوله أن يقول ذاك.

وقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ معناه: هذا طريق واضح فألزموه. وقيل: إنّ المعنى: هذا الذي أخبرتكم، أنّ الله أمرني به، هو الدين المستقيم الذي لا إعوجاج فيه.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ الإختلاف في المذهب: أن يعتقد كل قوم خلاف ما يعتقده الآخرون. والأحزاب: جمع حزب، وهو الجمع المنقطع في رأيه عن غيره. وتحزبوا: أي: صاروا أحزاباً. فالمعنى: إنّ الأحزاب من أهل الكتاب إختلفوا في عيسى عليه السلام: فقال قوم منهم: هو الله، وهم اليعقوبيّة. وقال آخرون: هو إبن الله، وهم النسطوريّة. وقال آخرون: هو ثالث ثلاثة، وهم الإسرائيليّة. وقال المسلمون: هو عبد الله، ـ عن قتادة، ومجاهد ـ. وإنّما قال: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾؛ لأنّ منهم من ثبت على الحقّ. وقيل: إنّ ﴿مِنْ﴾ زائدة، والمعنى: إختلفوا بينهم.

﴿فَوَيْلٌ﴾ أي: فشدّة عذاب، وهي كلمة وعيد ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله بقولهم في المسيح ﴿مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ المشهد: بمعنى الشهود والحضور أي: من حضورهم ذلك اليوم، وهو يوم القيامة. وسمّي عظيماً؛ لعظم أهواله. وقيل: ويل لهم

من مجمع يوم أي: من الفضيحة على رؤوس الجمع يومئذ.

﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ قيل فيه وجهان:

أحدهما: إنّ التقدير: صاروا ذوي سمع وبصر. والجارّ والمجرور في موضع رفع؛ لأنّه فاعل «أسمع». والمعنى: ما أسمعهم وأبصرهم يوم القيامة، وإن كانوا في الدنيا صمّاً وبكماً عن الحقّ، ـ عن الحسن ـ. ومعناه: الإخبار عن قوّة علومهم بالله تعالى في تلك الحال. ومثله: قوله: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ يعني: إنّ الكافرين في الدنيا آثروا الهوى على الهدى، فهم في ذهاب عن الدين، وعدول عن الحقّ، والمراد أنّهم في الدنيا جاهلون، وفي الآخرة عارفون، حيث لا تنفعهم المعرفة. وقال أبو مسلم: وهذا يدلّ على أنّ قوله سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ ليس معناه: الآفة في الأذن، واللسان، والعين، بل هو إنّهم لا يتدبّرون ما يسمعون، ويرون ولا يعتبرون. ألا ترى أنّه جعل قوله: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ في مقابلته، فأقام السمع والبصر مقام الهدى؛ إذ جعله في مقابلة الضلال المبين.

والثاني: إنّ معناه: أسمعهم وأبصرهم أي: بصرهم، وبيّن لهم أنّهم إذا أتوا مع الناس إلى موضع الجزاء، سيكونون في ضلال مبين. عن الجنّة، والثواب، عن الجبائي قال: ويجوز أن يكون المعنى: أسمع الناس بهؤلاء الأنبياء، وأبصرهم بهم ليعرفوهم، ويعرفوا خبرهم، فيؤمنوا بهم، لكن من كفر بهم من الظالمين اليوم ـ يعني يوم القيامة ـ في ضلال عن الجنّة. وهذا بعيد. وقد أستدرك على الجبائي في قوله. والأولى والأظهر في الآية الوجه الأوّل.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ الخطاب للنبيّ ﷺ، والمعنى: خوّف يا محمّد

كفّار مكّة، يوم يتحسّر المسيء هلّا أحسن العمل، والمحسن هلّا إزداد من العمل، وهو يوم القيامة. وقيل: إنّما يتحسّر المستحقّ للعقاب، فأمّا المؤمن فلا يتحسّر. وروى مسلم في الصحيح، بالإسناد عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: إذا دخل أهل الجنّة الجنّة، وأهل النار النار، قيل: يا أهل الجنة! فيشرئبون وينظرون. وقيل: يا أهل النار! فيشرئبون، وينظرون، فيجاء بالموت كأنّه كبش أملح، فيقال لهم: تعرفون الموت؟ فيقولون: هذا هذا وكل قد عرفه. قال: فيقدم فيذبح. ثمّ يقال: يا أهل الجنّة! خلود فلا موت. ويا أهل النار! خلود فلا موت. قال: وذلك قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ ﴾ الآية. ورواه أصحابنا عن أبي جعفر عليه السلام، وأبي عبدالله عليه السلام. ثمّ جاء في آخره: فيفرح أهل الجنّة فرحاً، لو كان أحد يومئذ ميّتاً لماتوا فرحاً، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميّتاً لماتوا.

﴿ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ أي: فرغ من الأمر، وإنقطعت الآمال، وأُدخل قوم النار، وقوم الجنّة. وقيل: معناه: إنقضى أمر الدنيا، فلا يرجع إليها لإستدراك الفائت. وقيل: معناه: حكم بين الخلائق بالعدل. وقيل: قضي على أهل الجنّة بالخلود، وقضي على أهل النار بالخلود ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ في الدنيا عن ذلك، ومعناه: إنّهم مشغولون اليوم بما لا يعنيهم، غافلون عن أحوال الآخرة ﴿وَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا يصدّقون بذلك.

ثمّ أخبر سبحانه عن نفسه، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نميت سكّانها، فنرثها ومن عليها من العقلاء؛ لأنّا نميتهم ونهلكهم، فلا يبقى فيها مالك، ومتصرّف ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ أي: إلينا يُردُّون بعد الموت أي: إلى حيث لا يملك الأمر والنهي غيرنا.

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ
إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ (١) أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي
يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ
أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

القراءة: قد ذكرنا الإختلاف بين القرّاء في قوله: يا أبت، والوجه في ذلك في سورة يوسف عليه السلام.

اللغة: الصديق: هو كثير التصديق بالحقّ حتى يصير عَلَماً فيه. والرغبة

(١) فتح ياء الإضافة من «إنّي أخاف» الحرميان وأبو عمرو.

عن الشيء: نقيض الرغبة فيه. والترغيب: الدعاء إلى الرغبة في الشيء. والإنتهاء: الإمتناع من الفعل المنهيّ عنه. يقال: نهاه عن الأمر فإنتهى. وأصله: النهاية. والنهي: زجر عن الخروج من النهاية المذكورة. والتناهي: بلوغ نهاية الحدّ. والرجم: الرمي بالحجارة. والرجم: الشتم. وأصله من الرَّجَم، والرِّجام، وهو الحجارة. والملي: الدهر الطويل. قال الفرّاء: يقال: كنت عندنا مُلْوةً، ومَلْوة، ومِلْوة، مُلاوةً، وملاوة، ومِلاوة، وكله من طول المقام. والحفي: المستقصي في السؤال. والخفي [الحفى]: اللطيف بعموم النعمة. وأصل الباب الإستقصاء. تقول: تحفيت به أي: بالغت في إكرامه. وحفوته من كل خير: بالغت في منعه. وأحفيت شاربي: بالغت في أخذه حتى إستأصلته. وأحفيت في السؤال: بالغت. وكل شيء أستوصل، فقد إحتفى. وتقول العرب: جاءني لسان فلان أي: مدحه وذمَّه. قال عامر بن الحرث[1]:

إِنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ لاَ أُسَرُّ بِهَا ... مِنْ عَلْوَ لاَ عَجَبٌ مِنْهَا، وَلاَ سُخُرٌ

جَاءَتْ مُرَجَّمَةً قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُهَا ... لَوْ كَانَ يَنْفَعُنِي الإِشْفَاقُ، وَالْحَذَرُ

﴿الإعراب﴾: قال الزجّاج: العرب تقول في النداء: يا أبت ويا أُمّت. ولا يقال: قال أبتي كذا، وقالت أُمّتي كذا. وزعم الخليل وسيبويه أنّهما بمنزلة قولهم: يا عمّة، ويا خالة، وزعم أنّه بمنزلة قولهم: رجل ربعة، وغلام يفعة. وأنّ الهاء عوض من ياء الإضافة في «يا أبي، ويا أمّي». وقوله: ﴿مَلِيّاً﴾: منصوب على الظرف ﴿وَكُلاً﴾ مفعول ﴿جَعَلْنَا﴾.

﴿المعنى﴾: ثمّ ذكر سبحانه قصّة إبراهيم عليه السلام، فقال: ﴿وَاذْكُرِ﴾ يا محمّد ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ أي: القرآن ﴿إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً﴾ أي: كثير التصديق في أمور الدين، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: صادقاً مبالغاً في الصدق فيما يخبر عن الله تعالى،

---

(١) نسبه في الصحاح إلى اعشى باهلة، و ذلك لأنّ إسمه كان عامراً، قال القصيدة لمّا أتاه خبر قتل أخيه. وعلو: غير منصرف. والمرجّم: مالايعلم حقيقته من الخبر.

ـ عن أبي مسلم ـ. ﴿نَبِيّاً﴾ أي: عليّاً رفيع الشأن برسالة الله تعالى.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ آزر ﴿يَا أَبَتِ﴾ أي: يا أبي. ودخلت التاء للمبالغة في تحقيق الإضافة ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ﴾ دعاء من يدعوه ﴿وَلاَ يُبْصِرُ﴾ من يتقرّب إليه، ويعبده ﴿وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ من أمور الدنيا أي: لا يكفيك شيئاً، فلا ينفعك، ولا يضرُّك.

﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ﴾ بالله، والمعرفة. ﴿مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي﴾ على ذلك، وإقتدِ بي فيه ﴿أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً﴾ أي: أوضح لك طريقاً، مستقيماً، معتدلاً، غير جائر بك عن الحقّ إلى الضلال.

﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدْ الشَّيْطَانَ ﴾ أي: لا تطعه فيما يدعوك إليه، فتكون بمنزلة من عبده. ولا شبهة أنّ الكافر لا يعبد الشيطان، ولكن من أطاع شيئاً فقد عبده ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَانِ عَصِيّاً ﴾ أي: عاصياً.

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنْ الرَّحْمَنِ ﴾ أي: يصيبك عذاب من جهة الله سبحانه؛ لإصرارك على الكفر ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ أي: فتكون موكولاً إلى الشيطان، وهو لا يغني عنك شيئاً، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: فتكون لاحقاً بالشيطان باللعن والخذلان. و«اللاحق» يسمّى التالي. والذي يتلو الشيء والذي يليه، سواء، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: فتكون له قريناً في النار. وقيل: معناه: فيكون الشيطان وليّ نصرتك، ولم يقل: فيكون الشيطان وليّك؛ لأنّه أبلغ في الفضيحة، وإنّما أراد زجره عن موالاة الشيطان، لا تحقيق النصرة، يعني: إذا لم يكن لك إلّا نصرته، فأنت مخذول لا ناصر لك.

وقد بيّنا فيما مضى، أنّ الذي يقول أصحابنا: إنّ هذا الخطاب من إبراهيم عليه السلام إنّما توجّه إلى من سمّاه الله أباً له؛ لأنّه كان جدّاً لإبراهيم عليه السلام لأمّه، وأنّ أباه الذي ولّده كان إسمه تاريخ [خ]؛ لإجماع الطائفة على أنّ آباء نبيّنا صلى الله عليه وآله إلى آدم عليه السلام كلّهم مسلمون موحّدون، ولمّا روي عنه صلى الله عليه وآله أنّه قال: لم يزل ينقلني الله تعالى من

أصلاب الطاهرى، إلى أرحام المطهّرات، حتى أخرجني في عالمكم هذا. والكافر غير موصوف بالطهارة؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾.

﴿قَالَ﴾ آزر مجيباً لإبراهيم عليه السلام حين دعاه إلى الإيمان: ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾ أي: أمعرض أنت عن عبادة آلهتي التي هي الأصنام ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ وتارك لها، وزاهد فيها ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ﴾ أي: لئن لم تمتنع عن هذا ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ بالحجارة، ـ عن الحسن، والجبائي ـ. وقيل: لأرمينّك بالذنب والعيب. وأشتمنّك، ـ عن السدّي، وابن جريج ـ. وقيل: معناه: لأقتلنّك ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي: فارقني دهراً طويلاً، ـ عن الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبير، والسدّي ـ. وقيل: مليّاً سويّاً سليماً. عن عقوبتي، عن ابن عباس، وقتادة، وعطاء، والضحّاك. من قوله: فلان مليّ بهذا الأمر: إذا كان كاملاً فيه، مضطلعاً به.

﴿قَالَ﴾ إبراهيم: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع وهجر على ألطف الوجوه، وهو سلام متاركة، ومباركة، ومباعدة منه، ـ عن الجبائي، وأبي مسلم ـ. وقيل: هذا سلام إكرام وبرّ، فقابل جفوة أبيه بالبرّ، تأدية لحقّ الأُبوّة أي: هجرتك على وجه جميل من غير عقوق.

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ قيل: فيه أقوال: أحدها: إنّه إنّما وعده بالإستغفار على مقتضى العقل، ولم يكن بعد قد إستقرّ قبح الإستغفار للمشركين. وثانيها: إنّه قال: سأستغفر لك ربّي على ما يصحّ، ويجوز من تركك عبادة الأوثان، وإخلاص العبادة لله تعالى، ـ عن الجبائي ـ. وثالثها: إنّ معناه: سأدعو الله أن لا يعذّبك في الدنيا، ـ عن الأصمّ ـ. ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي: بارّاً لطيفاً رحيماً، ـ عن ابن عباس، ومقاتل ـ. وقيل: إنّ الله عوّدني إحسانه، وكان لي مكرماً. وقيل: كان عالماً بي وبما أبتغيه من مجادلتك، لعلّه يهديك.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: وأتنحّى منكم جانباً، وأعتزل عبادة ما تدعون من دونه من الأصنام ﴿وَأَدْعُوا﴾ أي: وأعبد ﴿رَبِّي عَسَى أَلَّا

﴿ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾ كما شقيتم بدعاء الأصنام. وإنّما ذكر عسى على وجه الخضوع. وقيل: معناه: لعلّه يقبل طاعتي وعبادتي، ولا أشقى بالردّ، فإنّ المؤمن بين الرجاء والخوف.

﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ﴾ أي: فارقهم، وهاجرهم إلى الأرض المقدّسة. ﴿ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ ولداً، ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ ولد ولد، ﴿ وَكُلاً جَعَلْنَا نَبِيّاً ﴾ أي: آنسنا وحشته من فراقهم بأولاد كرام على الله، وكلاً من هذين جعلناه نبيّاً يقتدى به في الدين.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا ﴾ أي: نعمتنا سوى الأولاد والنبوّة، من نعم الدين والدنيا ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً ﴾ أي: ثناء حسناً في الناس، عليّاً مرتفعاً سائراً في الناس، وكل أهل الأديان، يتولّون إبراهيم وذرّيّته، ويثنون عليهم، ويدعون أنّهم على دينهم. وقيل: معناه: وأعلينا ذكرهم بأنّ محمّداً ﷺ وأُمّته يذكرونهم بالجميل إلى قيام القيامة. وقيل: هو ما يتلى في التشهّد ـ كما صلّيت على إبراهيم، وآل إبراهيم ـ.

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

القراءة: قرأ أهل الكوفة: ﴿مُخْلَصاً﴾ ـ بفتح اللام ـ. والباقون: ﴿مُخْلِصاً﴾ ـ بكسرها ـ.

الحجة: من كسر اللام، فحجّته: ﴿وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾. ومن فتحها، فحجّته: ﴿إنّا أخلَصْنَاهم﴾.

اللغة: يقال: ناجاه يناجيه: إذا إختصَّه بكلام ألقاه إليه. وأصل النجاة: الإرتفاع من الأرض. ومنه: النجاة أيضاً، وهو الإرتفاع عن الهلكة. والنجاة: السرعة؛ لأنّه إرتفاع في السير. ومنه: المناجاة؛ لأنّه إرتفاع الحديث إلى المحدث. والنجي بمعنى المناجي، كالجليس والضجيع. وقيل: نجي: مصدر، بمعنى إرتفاع؛ لأنّ معنى قرّبناه: رفعناه. ويجوز أن يكون التقدير: وقرّبناه مكاناً رفيعاً.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه حديث موسى عليه السلام، فقال: ﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمّد ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الذي هو القرآن ﴿مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً﴾ أخلص العبادة لله تعالى، وأخلص نفسه لأداء الرسالة. وبفتح اللام يكون معناه: أخلصه الله بالنبوة، وإختاره للرسالة ﴿وَكَانَ رَسُولاً﴾ إلى فرعون، وقومه ﴿نَبِيّاً﴾ رفيع الشأن، عالي القدر.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾: الطور: جبل بالشام، ناداه الله تعالى من جانبه اليمين، وهي يمين موسى. وقيل: من جانب اليمين من الطور، يريد حيث أقبل من مدين، ورأى النار في الشجرة، وهو قوله: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.

﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ أي: مناجياً كليماً. قال ابن عباس: قرَّبه الله، وكلّمه. ومعنى هذا التقريب: أنّه أسمعه كلامه. وقيل: قرَّبه حتى سمع صرير القلم الذي كتبت به التوراة. وقيل: قرَّبناه أي: ورفعنا منزلته، وأعلينا محلّه، حتى صار محلّه منّا في الكرامة والمنزلة، محلّ من قرّبه مولاه في مجلس كرامته، فهو تقريب كرامة وإصطفاء، لا تقريب مسافة وإدناء؛ إذ هو سبحانه لا يوصف بالحلول في مكان،

فيقرب من بعد، أو يبعد من قرب، أو يكون أحد أقرب إليه من غيره.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيّاً ﴾ أي: أنعمنا عليه بأخيه هارون، حيث قال: وإجعل لي وزيراً من أهلي هارون، وجعلناه نبيّاً أشركناه في أمره، وشددنا به أزره ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ ﴾ الذي هو القرآن ﴿ إِسْمَاعِيلَ ﴾ بن إبراهيم أيضاً ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ ﴾ إذا وعد بشيء وفى به، ولم يخلف ﴿وَكَانَ﴾ مع ذلك ﴿رَسُولاً نَبِيّاً﴾ إلى جرهم، وقد مضى معناه.

قال ابن عباس: إنّه واعد رجلاً أن ينتظره في مكان، ونسي الرجل، فإنتظره سنة، حتى أتاه الرجل، وذلك مرويّ عن أبي عبد الله عليه السلام. وقيل: أقام ينتظره ثلاثة أيّام، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: إنّ إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام مات قبل أبيه إبراهيم عليه السلام، وإنّ هذا هو إسماعيل بن حزقيل، بعثه الله إلى قومه، فسلخوا جلدة وجهه، وفروة رأسه، فخيّره الله فيما شاء من عذابهم، فإستعفاه، ورضي بثوابه، وفوّض أمرهم إلى الله تعالى في عفوه. ورواه أصحابنا عن أبي عبدالله عليه السلام، ثمّ قال في آخره: أتاه ملك من ربّه يقرئه السلام، ويقول: قد رأيت ما صنع بك، وقد أمرني بطاعتك، فمرني بما شئت. فقال: يكون لي بالحسين عليه السلام أسوة.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ أي: قومه وعترته وعشيرته. وقيل: أُمّته، ـ عن الحسن ـ. ﴿ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ وقيل: إنّه كان يأمر أهله بصلاة الليل، وصدقة النهار ﴿وَكَانَ﴾ مع ذلك ﴿ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾ قد رضي أعماله؛ لأنّها كلها طاعات لم تكن فيها قبائح. وقيل: مرضيّاً معناه: صالحاً زكيّاً رضيّاً، فحصل له عنده المنزلة العظيمة.

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا
عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ
وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا
وَٱجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾
۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ
فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ (١) وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾

اللغة: العليّ: العظيم العلوّ. والعليّ: العظيم فيما يقدر به على الأمور. ومنه يوصف الله تعالى بأنّه عليّ. والفرق بين العلي والرفيع: إنّ العلي: قد يكون بمعنى الإقتدار، وبمعنى علوّ المكان. والرفيع: من رفع المكان لا غير. ولذلك لا يوصف الله تعالى بأنّه رفيع. وأمّا رفيع الدرجات: فإنه وصف للدرجات بالرفعة. وبُكيّ: وزنه «فعول»، وهو جمع «باك». ويجوز أن يكون مصدراً بمعنى البكاء. والخلَف ـ بفتح اللام ـ: يستعمل في الصالح، وبسكون اللام في الطالح. وقد يستعمل كل واحد في الآخر. قال لبيد:

ذَهَبَ ٱلَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَ بَقِيتُ فِي خَلْفٍ كَجِلْدِ الأَجْرَبِ[١]

الإعراب: ﴿سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ نصب؛ على الحال، وتقديره: خرّوا ساجدين وباكين: قال الزجّاج: وهي حال مقدرة المعنى، خرّوا مقدّرين السجود؛ لأنّ

---

(١) قرأ: «يدخلون» ـ مبنيّاً للمفعول ـ ابن كثير وأبو عمرو.

[١] الكنف: ناحية الشيء وجانبه. وكنفه يكنفه: حَفِظه وأعانه.

الإنسان في حال خروره، لا يكون ساجداً. ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾: في موضع نصب أي: فسوف يلقون العذاب إلّا التائبين، فيكون الإستثناء متّصلاً. ويجوز أن يكون الإستثناء منقطعاً من غير الأوّل، ويكون المعنى: لكن من تاب وآمن فأولئك يدخلون الجنّة.

المعنى: ثمّ ذكر سبحانه حديث إدريس، فقال: ﴿وَاذْكُرْ﴾ يا محمّد ﴿فِي الْكِتَابِ﴾ الذي هو القرآن ﴿إِدْرِيسَ﴾ وهو جدّ أب نوح عليه السلام، وإسمه في التوراة أخنوع[أخنوخ]. وقيل: إنّه سمّي إدريس؛ لكثرة درسه الكتب، وهو أوّل من خطّ بالقلم، وكان خيّاطاً، وأوّل من خاط الثياب. وقيل: إنّ الله تعالى علّمه النجوم والحساب، وعلم الهيأة، وكان ذلك معجزة له ﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً﴾ مرّ معناه.

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ أي: عالياً رفيعاً. وقيل: إنّه رفع إلى السماء الرابعة، ـ عن أنس، وأبي سعيد الخدري، وكعب، ومجاهد ـ. وقيل: إلى السماء السادسة، ـ عن ابن عباس، والضحّاك ـ. قال مجاهد: رفع إدريس عليه السلام كما رفع عيسى عليه السلام، وهو حيٌّ لم يمت. وقال آخرون: إنّه قبض روحه بين السماء الرابعة والخامسة، وروي ذلك عن أبي جعفر عليه السلام. وقيل: إنّ معناه: ورفعنا محلّه، ومرتبته بالرسالة، كقوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾، ولم يرد به رفعة المكان، ـ عن الحسن، والجبائي، وأبي مسلم ـ.

ولمّا فصل سبحانه ذكر النبيّين، ووصف كلا منهم بصفة تخصّه، جمعهم في المدح والثناء، فقال: ﴿أُولَئِكَ﴾ تقدّم ذكرهم ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ﴾ بالنبوّة. وقيل: بالثواب، وبسائر النعم الدينيّة، والدنيويّة ﴿مِنْ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ﴾ إنّما فرّق سبحانه ذكر نسبهم، مع أنّ كلّهم كانوا من ذرّيّة آدم عليه السلام، لتبيان مراتبهم في شرف النسب، فكان لإدريس شرف القرب لآدم؛ لأنّه جدّ نوح عليه السلام. وكان إبراهيم من ذرّيّة من حمل مع نوح؛ لأنّه من ولد سام بن نوح. وكان إسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، من ذرّيّة إبراهيم

لمّا تباعدوا من آدم، حصل لهم شرف إبراهيم. وكان موسى، وهارون، وزكريّا، ويحيى، وعيسى، من ذرّيّة إسرائيل.

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ قيل: إنّه تمَّ الكلام عند قوله إسرائيل: ثمّ إبتدأ فقال: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ من الأمم قوم ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيّاً﴾ فحذف لدلالة الكلام عليه، عن أبي مسلم. وروي عن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال: نحن عنينا بها. وقيل: بل المراد به: الأنبياء الذين تقدّم ذكرهم من ذرّيّة آدم، وممّن هديناهم، واجتبيناهم أي: هديناهم إلى الحقّ فإهتدوا، وإخترناهم من بين الخلق.

ثمّ وصفهم، فقال: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: تقرأ عليهم ﴿آيَاتُ الرَّحْمَنِ﴾ وهو القرآن، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿خَرُّوا سُجَّداً﴾ أي: ساجدين لله ﴿وَبُكِيّاً﴾ أي: باكين متضرّعين إليه. بيَّن الله سبحانه أنّهم مع جلالة قدرهم، كانوا يبكون عند ذكر آيات الله، وهؤلاء العصاة ساهون لاهون، مع إحاطة السيّئات بهم.

ثمّ أخبر سبحانه، فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ والخلف: البدل السيّء، معناه: من بعد النبيّين المذكورين قوم سوء. وقيل: هم اليهود ومن تبعهم؛ لأنّهم من ولد إسرائيل، وقيل: هم من هذه الأمّة عند قيام الساعة، ـ عن مجاهد، وقتادة ـ. ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ تركوها، ـ عن محمّد بن كعب ـ. وقيل: أضاعوها بتأخيرها عن مواقيتها، من غير أن تركوها أصلاً، ـ عن ابن مسعود، وإبراهيم، وعمر بن عبد العزيز، والضحّاك، وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ.

﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ أي: أنفذوا الشهوات فيما حرّم الله عليهم. فقال وهب: فخلف من بعدهم خلف شرّابون للقهوات، لعّابون بالكعبات، ركّابون للشهوات، متّبعون للذّات، تاركون للجمعات، مضيّعون للصلوات.

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾ أي: يلقون مجازاة الغيّ، ـ عن الزجّاج ـ. وهذا

كقوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً﴾ أي: مجازاة الآثام. وقيل: يلقون غيّاً أي: شرّاً وخيبة، ـ عن ابن عباس، وابن زيد ـ. ومنه: قول الشاعر: «ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً»[١] أي يخب. وقيل: الغيّ: واد في جهنّم ـ عن ابن مسعود، وعطاء، وكعب ـ.

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ أي: ندم على ما سلف ﴿وَءَامَنَ﴾ في مستقبل عمره ﴿وَعَمِلَ صَالِحاً﴾ من الواجبات، والمندوبات ﴿فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئاً﴾ ومن قرأ: يُدخَلون بضمّ الياء، وفتح الخاء ـ، أراد: إنّ الله سبحانه يدخلهم الجنّة بأن يأمرهم بدخولها، وهذا يطابق قوله: ﴿وَلاَ يُظْلَمُونَ﴾. ومن قرأ: ﴿يَدْخُلُونَ﴾: أراد أنّهم يدخلونها بأمر الله. والمعنيان واحد، ولا يبخسون شيئا من ثوابهم، بل يوفيه الله إليهم على التمام والكمال. وفي هذا دلالة على أنّ الله لا يمنع أحداً ثواب عمله، ولا يبطله؛ لأنّه سبحانه سمّى ذلك ظلماً.

جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ
مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً
وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾
وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ
ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

القراءة: قرأ رويس، عن يعقوب: ﴿نُورِّثُ﴾ ـ بالتشديد ـ. والباقون:

---

[١] وصدره: (فمن يلقَ خيراً يحمد الناس أمره).

﴿نُورِثُ﴾. وفي بعض الروايات عن أبي عمرو: ﴿هَلْ تَعْلَمُ﴾ يدغم اللام في التاء. والأكثر الإظهار.

الحجة: يقال: أورثه وورثه، بمعنى. قال أبو عليّ: يرى سيبويه أنّ إدغام اللام في التاء، والدال، والطاء، والصاد، والزاي، والسين، جائز؛ لأنّ مخرج اللام قريب من مخارجهنّ، وهي حروف طرف اللسان. وأنشد لمزاحم العقيلي:

فَذَرْذا، وَلَكِنْ هَتُّعينُ[1] مُتَيَّماً عَلىٰ ضَوْءِ بَرْقٍ آخِرَ اللَّيْلِ نَاصِبِ

الإعراب: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ بالنصب على البدل من قوله: ﴿الْجَنَّةَ﴾. وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾: في موضع الحال أي: كائنة بالغيب. وذو الحال: جنّات عدن. و ﴿سَلاَماً﴾: إستثناء منقطع، فكأنّه قال: لا يسمعون فيها كلاماً يؤلمهم، ولكن يسمعون سلاماً. ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ تقديره: قل ما نتنزّل، فأضمر القول. ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾: قال أبو عليّ: هذه الآية تدلّ على أنّ الأزمنة ثلاثة: ماض، وهو قوله: ﴿ما بين أيدينا﴾، ومستقبل، وهو قوله: ﴿وَمَا خَلْفَنَا﴾ وحال، وهو قوله: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾. ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بدل من إسم «كان»، وإن شئت كان خبر مبتدأ محذوف، وإن شئت كان مبتدأ. وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ﴾: خبره، وهذا على قول الأخفش، دون سيبويه.

النزول: قيل: إنّ العاص بن وائل السهمي، لم يعط أجرة أجير إستعمله، وقال: لو كان ما يقوله محمّد حقّاً، فنحن أولى بالجنّة ونعيمها! فحينئذ أوفّره أجره، فنزل: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ﴾ الآية. وقيل: إحتبس الوحي أيّاماً لمّا سئل النبيّ ﷺ عن قصّة أصحاب الكهف، وذي القرنين، والروح، فشقّ ذلك عليه. فلمّا أتاه جبرائيل إستبطأه فنزلت: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية، ـ عن عكرمة،

---

(١) أي: «هل تعين»، أدغم اللام في التاء. وناصب: أي معتب، صفة للبرق، وإنّما أتبعه البرق؛ لأنّه رجى أن يمطر بلداً فيه معشوقته.

والضحّاك، وقتادة، والكلبي، ومقاتل ـ.

المعنى: ثمّ وصف سبحانه الجنّة، فقال: ﴿جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي: جنّات إقامة. يقال: عدن بالمكان: إذا أقام به. ووحّد في الآية المتقدّمة، وجمع هيهنا، فكأنّه جنّة تشتمل على جنّات. وقيل: لأنّ لكل واحد من المؤمنين جنّة تجمعها الجنّة العظماء ﴿الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ المراد بالعباد: المؤمنون، كما قال: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾. وقيل: إنّه يتناول المؤمن والكافر، ولكن بشرط رجوع الكافر عن كفره. وقال: ﴿بِالْغَيْبِ﴾؛ لأنّهم غابوا عمّا فيها ممّا لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ـ عن ابن عباس ـ. والمعنى: إنّه وعدهم أمراً لم يكونوا يشاهدونه، فصدّقوه وهو غائب عنهم.

﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ﴾ أي: موعوده ﴿مَأْتِيّاً﴾ أي: آتياً لا محالة. والمفعول هنا بمعنى الفاعل؛ لأنّ ما آتيته فقد أتاك. وما أتاك فقد أتيته. يقال: أتيت عليّ خمسين سنة، وأتت عليّ خمسون سنة. وقيل: إنّ الموعود هو الجنّة، والجنّة مأتيّة، يأتيها المؤمنون.

﴿لاَ يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْواً﴾ أي: لا يسمعون في تلك الجنّات القول الذي لا معنى له يستفاد، وهو اللغو. وقيل: قد يكون اللغو الهزل، وما يلغي من الكلام، مثل: الفحش، والأباطيل ﴿إِلَّا سَلاَماً﴾ أي: إلّا سلام الملائكة عليهم، وسلام بعضهم على بعض. قال الزجّاج: السلام: إسم جامع لكل خير؛ لأنّه يتضمّن السلامة أي: يسمعون ما يسلمهم ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيّاً﴾ قال المفسّرون: ليس في الجنّة شمس ولا قمر، فيكون لهم بكرة وعشيّاً. والمراد: إنّهم يؤتون برزقهم على ما يعرفونه من مقدار الغداء والعشاء. وقيل: كانت العرب إذا أصاب أحدهم الغداء والعشاء أجبت [أعجبت] به، وكانت تكره الوجبة، وهي الأكلة الواحدة في اليوم. فأخبر الله تعالى أنّ لهم في الجنّة رزقهم بكرة وعشياً، على قدر ذلك الوقت، وليس

ثمّ ليل، وإنّما هو ضوء ونور، ـ عن قتادة ـ. وقيل: إنهم يعرفون مقدار الليل بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب، ومقدار النهار برفع الحجب، وفتح الأبواب.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي﴾ هي مذكورة في قوله: ﴿فأُولئك يَدْخُلُونَ الجَنَّة﴾ التي ﴿نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيّاً﴾ أي: إنّما نملك تلك الجنّة من كان تقيّاً في دار الدنيا، بترك المعاصي، وفعل الطاعات. وإنّما قال: ﴿نُورِثُ﴾ مع أنّه ليس بتمليك نقل من غيرهم إليهم؛ لأنّه شبه بالميراث من جهة أنّه تمليك بحال أستؤنفت عن حال قد إنقضت من أمر الدنيا، كما ينقضي حال الميّت من أمر الدنيا، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: إنّه تعالى أورثهم من الجنّة المساكن والمنازل التي كانت لأهل النار لو أطاعوا الله تعالى، وأضاف العباد إلى نفسه؛ لأنّه أراد المؤمنين.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ قال ابن عباس: إنّ النبيّ ﷺ قال لجبرائيل: ما منعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا، فنزل: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ الآية. أي: إذا أمرنا نزّلنا عليك، وهو قول مجاهد، وقتادة، والضحّاك. وقيل: إنّه قول أهل الجنّة: إنّا لا نتنزّل موضعاً من الجنّة إلّا بأمر الله تعالى، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ معناه: له ما بين أيدينا من أمر الآخرة، وما خلفنا أي: ما مضى من أمر الدنيا، وما بين ذلك أي: ما بين النفختين، ـ عن ابن عباس، وقتادة، والضحّاك، والربيع ـ. قال مقاتل: وما بين النفختين أربعون سنة. وقيل: معناه: إبتداء خلقنا، ومنتهى آجالنا، ومدّة حياتنا. وقيل: ما بين أيدينا: ما بقي من أمر الدنيا، وما خلفنا: ما مضى من الدنيا، وما بين ذلك: من حياتنا أي: هو المدبّر لنا في الأوقات الماضية، والآتية، والذاهبة. وقيل: ما بين أيدينا أي: الأرض عند نزولنا، وما خلفنا: السماوات إذ نزلنا منها، وما بين ذلك: السماء والأرض.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً﴾ قيل: هذا تمام حكاية قول الملائكة، وقول أهل

الجنّة. وقيل: بل تمّ الكلام قبله، ثمّ أخبر الله سبحانه عن نفسه، ومعناه: إنّه سبحانه ليس ممّن ينسى، ويخرج عن كونه عالماً؛ لأنّه عالم لذاته، وتقديره: وما نسيك يا محمّد، وإن أخّر الوحي عنك. وقيل: ما كان ربّك ناسياً لأحد، حتى لا يبعثه يوم القيامة، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي: خالقهما ومدبّرهما ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الخلائق، والأشياء ﴿فَاعْبُدْهُ﴾ وحده، لا شريك له ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي: إصبر على تحمل مشقّة عبادته. ثمّ قال لنبيّه ﷺ: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي: مثلاً وشبيهاً، ـ عن ابن عباس، ومجاهد، وابن جريح، وسعيد بن جبير ـ. وقيل: هل تعلم أحداً يستحقّ أن يسمّى إلهاً إلّا هو، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: هل تعلم أحدا يسمّى إلهاً خالقاً، رازقاً، محيياً، مميتاً قادراً على الثواب والعقاب، سواه، حتى تعبده؟ فإذا لم تعلم ذلك، فألزم عبادته. وهذا إستفهام بمعنى النفي أي: لا تعلم من يسمّى بلفظة الله.

﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ (١)

القراءة: قرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وروح، وزيد، عن يعقوب، وسهل:

---

(١) مر الإختلاف في الهمزتين في مثل: «أئذا ما متّ». وقرأ: مِتُّ ـ بكسر الميم ـ نافع وحفص وحمزة والكسائي. وأختلف في «جثيّاً» بكسر الجيم وضمها.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ ـ خفيفاً ـ. والباقون: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ﴾ ـ بالتشديد ـ.

الحجة: قال أبو عليّ: التذكُّر: يراد به التدبّر والتفكّر، وليس تذكّراً عن نسيان. والثقيلة كأنّه في هذا المعنى أكثر. فمن ذلك: قوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَّكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾. وقال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فإضافته إلى «أولي الألباب» يدلّ على أنّ المراد به: النظر، والتفكّر. والخفيفة في هذا المعنى دون ذلك في الكثره. وقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ﴾. وزعموا أنّه في حرف أبي: أولا يتذكّر.

وأمّا قوله: ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾: فمعناه: لم يك شيئاً موجوداً، وليس يراد أنه قبل الخلق لم يقع عليه إسم شيء. وهذا كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ وقد قال: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾.

اللغة: الجثيّ: جمع الجاثي، وهو الذي برك على ركبتيه. وأصله: جثو، فعول، من جثى يجثو. وقد تقدّم القول فيه في أوائل السورة. والشيعة: الجماعة المتعاونون على أمر واحد من الأمور. ومنه: تشايع القوم: إذا تعاونوا. والصليّ: مصدر صَلِي يصلي صَليًّا، مثل: لَقِي يلقي لَقيًّا. وصَلىٰ يَصلِي صُلِيًّا، مثل: مَضىٰ يمضي مُضِيًّا.

الإعراب: العامل في قوله: ﴿أَذَا مَا مِتُّ﴾ مضمرٌ دلَّ عليه قوله: ﴿لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً﴾ والتقدير: أإذا ما متّ بعثت. ولا يجوز أن يعمل فيه «أخرج»؛ لأنّ ما بعد اللام لا يعمل فيما قبله، كما أنّ ما بعد «أن» كذلك، وما بعد الإستفهام، وحرف النفي. وقد ذكرنا ذلك في مواضع. ﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾: يحتمل أن يكون منصوباً؛ بأنّه مفعول به أي: ونحشر الشياطين، ويحتمل أن يكون مفعولاً معه، بمعنى: لنحشرنّهم مع الشياطين. و﴿جِثِيّاً﴾: منصوب؛ على الحال. و﴿عِتِيّاً﴾: منصوب؛ على التميز.

وكذلك ﴿صِلِيّاً﴾ فأمّا الرفع في ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ قال الزجّاج: فيه ثلاثة أقوال.

أحدها: قال سيبويه، عن يونس: إن ﴿لَنَنْزِعَنَّ﴾ معلّقة لم تعمل شيئاً، فكان قول يونس ﴿ثُمَّ لَنَنْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ﴾. ثمّ إستأنف فقال: ﴿أَيُّهُمْ﴾.

والثاني: حكى سيبويه عن الخليل: أنّه بمعنى «الذين» يقال لهم: أيّهم أشدّ على الرحمن عتيّاً. ومثله: قول الشاعر:

وَلَقَدْ أَتَيْتُ مِنَ الْقَنَاةِ بِمَنْزِلٍ ... فَأَبَيْتُ لاَ حَرِجٌ، وَلاَ مَحْرُومٌ

والمعنى: فأبيت بمنزلة الذي يقال لا هو حرج، ولا محروم.

والثالث: قال سيبويه: إنّ ﴿أَيُّهُمْ﴾ مبنيّة على الضمّ؛ لأنها خالفت أخواتها بأن استعمل معها حذف الإبتداء. تقول: إضرب أيّهم أفضل، تريد: أيّهم هو أفضل. فيحسن الإستعمال كذلك بحذف «هو»، ولا يحسن: إضرب من أفضل، حتى تقول: من هو أفضل. ولا يحسن: كل ما أطيب، حتى تقول: كل ما هو أطيب. قال: فلمّا خالفت من، وما، والذي، لا تقول فيه أيضاً: خذ الذي أفضل، حتى تقول: خذ الذي هو أفضل. فلما خالفت الإختلاف، بنيت على الضمّ في الإضافة. والنصب حسن. وإن كنت قد حذفت هو؛ لأنّ «هو» قد يجوز حذفها. وقد قرىء تماماً على «الذي أحسن»، على معنى: الذي هو أحسن.

قال أبو عليّ: ينبغي أن يكون مراد يونس بقوله: إنّ الفعل معلّق: أنّه معمل في موضع من كل شيعة، وليس يريد به: أنّه غير معمل في شيء ألبتّة. بل يريد أنّه معمل في موضع الجارّ والمجرور؛ لأن لفظ التعليق إنّما يستعمل فيما يعمل في الموضع دون اللفظ. ولو أراد أنّه لا عمل له في لفظ، ولا موضع، لقال: ملغى. ولم يقل: معلّق. كما تقول في «زيد ظننت منطلق»، أنّه ملغى. وإذا كان كذلك، كان قول الكسائي في الآية مثل قول يونس؛ لأنّ الكسائي قال: إنّ قوله: ﴿لَنَنْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيعَةٍ﴾

كقولك: أكلت من طعام، فإن كان كذلك، كان ﴿أَيُّهُمْ﴾ منقطعاً من هذه الجملة، وكانت جملة مستأنفة.

فإن قال قائل: لِمَ زعم سيبويه أنّه إذا حذف العائد من الصلة، وجب البناء على الضمّ؟ فالجواب: إنّ الصلة تبيّن الموصول وتوضحه، كما أنّ المضاف إليه يبيّن المضاف ويخصّصه. فكما أنّ المضاف إليه لمّا حذف بني المضاف، فكذلك لمّا حذف العائد من الصلة إلى الموصول هنا بني.

فإن قال: ما ينكر أن لا يكون حذف المبتدأ العائد من الصلة عوض حذف المضاف إليه من المضاف؛ لأنّ المحذوف هنا بعض الجملة، وفي المضاف قد حذف المضاف كله؟ قيل: إنّ حذف العائد هنا نظير حذف المضاف إليه هناك. ألا ترى أنّ الذي يبيّن به الموصول، ويتّضح، إنّما هو الراجع الذي في الجملة، ولو لا الراجع له يبيّن. وإذا كان المبين له الراجع من الجملة، فالحذف منها كان بمنزلة حذف المضاف إليه من المضاف.

النزول: نزل قوله: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ﴾ الآية، في أُبيّ ابن خلف الجمحي، وذلك أنّه أخذ عظماً بالياً، فجعل يَفُتُّه بيده، ويذريه في الريح، ويقول: زعم محمّد ﷺ أنّ الله يبعثنا بعد أن نموت، ونكون عظاماً مثل هذا، إنّ هذا شيء لا يكون أبداً، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة في رواية عطاء، ـ عن ابن عباس ـ.

المعنى: لمّا تقدّم ذكر الوعد والوعيد، والبعث والنشور، حكى سبحانه عقيبه، قول منكري البعث، وردَّ عليهم بأوضح بيان، وأجلى برهان، فقال: ﴿وَيَقُولُ الْإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيّاً﴾ هذا إستفهام، المراد به الإنكار والإستهزاء أي: أإذا ما متّ أعادني الله حيّاً.

فقال سبحانه مجيباً لهذا الكافر: ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: أولا يتذكّر هذا الجاحد، حال إبتداء خلقه، فيستدلّ بالإبتداء على الإعادة. وقيل: إنّ الإنسان هنا مفرد في اللفظ، مجموع في المعنى، يريد جميع منكري البعث.

﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ معناه: ولم يك شيئاً كائناً، أو مذكوراً. **سؤال:** قيل: كيف تدلّ النشأة الأولى على النشأة الثانية، والواحد منها يقدر على أفعاله كالحركات، والسكنات، والأصوات، وغيرها، ولا يقدر على إعادتها؟ **والجواب:** من وجوه: **أحدها:** إنّه سبحانه خلق الأجسام والحياة فيها، والبقاء جائز عليها، فيجب أن يقدر على إعادتها، بخلاف أفعالنا، فإنّها لا تبقى، ولا يصحّ الإعادة عليها. **والثاني:** إنّ الإبتداء أصعب من الإعادة، فإذا كان قادراً على الإبتداء، فلأنْ يكون قادراً على الإعادة أولى. **والثالث:** إنّه سبحانه إستدلّ بخلق الأجسام على أنّه قادر لذاته؛ إذ القادر بقدرة لا يصحّ منه فعل الأجسام، وإذا كان قادراً لذاته، ويقدر على إيجاد ما يصحّ وجوده وقتين، قدر على إعادته.

ثمّ حقق سبحانه أمر الإعادة، فقال. ﴿فَوَرَبِّكَ﴾ يا محمّد ﴿ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أي: لنجمعنّهم، ونبعثنّهم من قبورهم، مقرنين بأوليائهم من الشياطين. وقيل: لنحشرنّهم، ولنحشرنّ الشياطين أيضاً.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً﴾ أي: مستوفزين على الركب، ـ عن قتادة ـ. والمعنى: يَجْثُون حول جهنّم، متخاصمين، ويتبرّأ بعضهم من بعض؛ لأنّ المحاسبة تكون بقرب جهنّم. وقيل: جثيّاً أي: جماعات جماعات، ـ عن ابن عباس ـ، كأنّه قيل: زمراً، وهو جمع جثوة. وجثوة: هي المجموع من التراب والحجارة. وقيل: معناه: قياماً على الركب، وذلك لضيق المكان بهم، لا يمكنهم أن

يجلسوا، ـ عن السدّي ـ.

﴿ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ أي: لنستخرجنّ من كل جماعة ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيّاً ﴾ أي: الأعتى فالأعتى منهم. قال قتادة: لننزعنّ من كل أهل دين قادتهم ورؤسائهم في الشرّ. والعتيّ هيهنا: مصدر كالعتوّ، وهو التمرّد في العصيان. وقيل: يبدأ بالأكثر جرماً فالأكثر، ـ عن مجاهد، وأبي الأحوص ـ.

﴿ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيّاً ﴾ أي: لنحن أعلم بالذين هم أولى بشدّة العذاب، وأحقّ بعظيم العقاب، وأجدر بلزوم النار.

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾
ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾
وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن
كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ
إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا
وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

القراءة: قرأ الكسائي، وروح، وزيد، عن يعقوب: ﴿ ثُمَّ نُنَجِي ﴾ ـ بالتخفيف ـ. والباقون: ﴿ نُنَجِّي ﴾ ـ بالتشديد ـ. وقرأ ابن كثير: ﴿ مُقَاماً ﴾ ـ بضمّ الميم ـ. والباقون: بفتحها. وقرأ أهل المدينة، غير ورش، وابن عامر، [والأعشى]

والبرجمي، عن أبي بكر: ﴿وَرِيّاً﴾ ـ بغير همز، مشدّدة الياء ـ. والباقون: ورئياً ـ مهموز ـ. وفي الشواذّ، قراءة طلحة[١]: وريا ـ خفيفة بلا همز ـ وقراءة سعيد بن جبير: وزيا ـ بالزاي ـ.

﴿الْحَجَّة﴾: أنجاه ينجيه. ونجاه ينجيه، بمعنى. والمصدر وإسم الموضع من باب يفعُل يجيء على «مفعَل». فالمَقام ـ بفتح الميم ـ، يصلح أن يكون مصدراً من قام يقوم، ويصلح أن يكون إسم الموضع. والمقام: المصدر، والموضع من أقام يقيم. فأمّا قول زهير:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسانٌ وُجُوهُهُمْ ... وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ، وَالْفِعْلُ[١]

فإنّما هو على حذف المضاف أي: أهل مقامات ومشاهد. وروي عن الأصمعي، أنّه قال: المجلس: القوم. وأنشد: «وإستبَّ بعدك يا كليب المجلس»[٢]. قال أبو عليّ: المجلس: موضع الجلوس، فالمعنى: على أهل المجلس كما أنّ المعنى: على أهل المقامات. قال السكري: المقامة: المجلس، والمقام: المنزل. وقوله: ﴿خَيْرٌ مُقَاماً﴾ من ضمّ الميم، جعله إسماً للمثوى. ومن فتح كان كذلك أيضاً. ألاترى أنّ «الندي والنادي» هما المجلس، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾. ويدلّ على ذلك قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِءْياً﴾ فإنّه لا يراد به الحدث، إنما يراد به حسن الشارة، والهيئة، والمنظر، وهذا إنّما يكون في الأماكن.

وأمّا قوله: ﴿وَرِءْياً﴾ قال أبو عليّ: رأي فِعل، من رأيت، فكأنّه إسم لما

---

(١) أي: طلحة بن مصرف.

(٢) وإستب: أي سبّ كل واحد منهم الآخر.

[١] ينتابها: يقصدها.

ظهر، وليس المصدر. وإنّما المصدر الرأي والرؤية. يدلّ على ذلك: قوله: ﴿يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾. فالرأي الفعل. والرءي: المرئي. كالطَحْن والطِحْن، والسَقْي والسِقْي، والرَعْي والرِعي. ومن خفّف الهمزة من ﴿وَرَءْياً﴾ لزم أن يبدّل منها الياء، لإنكسار ما قبلها، كما يبدّل من ذئب وبئر، فإذا أبدل منها الياء، وقعت ساكنة قبل حرف مثله، فلابدّ من الإدغام. وليس يجوز الإظهار في هذا، كما جاز إظهار الواو في نحو: رؤيا، ورؤية يعني: إذا خففت الهمزة فيهما، لأنّ الياء في ريا قبل مثل. والواو وقعت في رؤيا قبل ما يجري مجرى المقارب.

قال ابن جنّي: من قرأ: وريّا ـ مشدّدة ـ فإنّه فعل إمّا من «رأيت»، وإمّا من «رويت». وأصله، وهو من الهمزة وريا[رئيا] كرعيا، فخفّفت الهمزة، وأُبدلت ياء، وأُدغمت في الياء الثانية. ويجوز أن يكون من «رويت»؛ لأنّ للريان نضارة وحسناً، فيتّفق معناه، ومعنى «وزيا» ـ بالزاي ـ، وأصله على هذا «زوي»، فأبدلت الواو ياء، وأدغمت في الياء. وأمّا «ريا» ـ مخفّفة ـ فيحتمل أن يكون مقلوبة من فعل إلى فعل، فصار في التقدير: (رئيا)[ريئا]. ثمّ حذفت الهمزة، وألقيت حركتها على الياء قبلها، فصارت «ريا». ويحتمل أن يكون «ريا» من «رويت»، ثمّ خفّفت بحذف إحدى الياءين، فصارت «ريا». وأمّا الزيّ ـ بالزاي ـ ففعل من زويت أي: جمعت ذلك، وذلك أنّه يقال لمن له شيء واحد من آلته: له زيّ، حتى يكثر آلته المستحسنة. وأنشد ابن دريد:

أَهاجَتْكَ الظَّعائِنُ يَوْمَ بانُوا[نَوا] بِذِي الزِّي الْجَمِيلِ مِنَ الأَثاثِ[١]

(اللغة): الحتم: القطع بالأمر. والحتم والجزم وَالقطع، بمعنى. والندي

---

[١] قائله: محمّد بن نمير الثقفي.

والنادي: المجلس الذي قد إجتمع فيه أهله. ومنه: دار الندوة: وهي دار قصي بمكّة، وكانوا يجتمعون فيه للتشاور، تيمّناً به. وقد ندوت القوم أندوهم: إذا جمعتهم في مجلس. وأصل الندى أنّه مجلس أهل الندى، وهو الكرم. قال حاتم:

وَدُعِيتُ فِي أَوْلَى النَّدِيِّ، وَلَمْ يُـنْظَرْ إِلَـيَّ بِـأَعْيُنٍ خُـزْرِ[1]

والأثاث: المتاع، من الفرش والثياب التي تزيّن بها. واحدها: أثاثة. وقيل: لا واحد لها. والري: ما يراه الرجل من ظاهر أحوال القوم، وهو إسم للمرئي، كالذبح: إسم للمذبوح.

الإعراب: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ تقديره: وما أحد ثابت منكم. فأحد: مبتدأ: ومنكم: صفة، وواردها: خبر. و﴿جِثِيّاً﴾: منصوب؛ على الحال. مقاماً ونديا: منصوبان؛ على التميز ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾: كم: نصب بـ«أهلكنا» والتقدير: كم قرناً أهلكنا من جملة القرون، فحذف المميز بدلالة الكلام عليه، ﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً﴾: لفظه لفظ الأمر، ومعناه خبر. والتقدير: فمدَّ له الرحمن مدّاً، وباب الأمر والخبر يتداخلان، فكما أنّ قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَـتَرَبَّصْنَ﴾ تقديره: فليتربّصن، فجعل لفظ الخبر بمعنى الأمر، فكذا هيهنا جعل لفظ الأمر بمعنى الخبر. وقوله: ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ مفعول رأوا. و﴿إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ بدل من ﴿مَا يُـوعَدُونَ﴾. وقوله: ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ تعليق، فعلى هذا يكون هو فصلاً، والفصل بين كلمة الإستفهام، وخبره: عزيز. فالأولى أن يكون ﴿مَنْ﴾ هنا بمعنى «الذي»، وفي موضع نصب بـ«سيعلمون». و﴿هُوَ شَرٌّ﴾: مبتدأ وخبر. والجملة صلة ﴿مَنْ﴾.

المعنى: ثمّ بيّن سبحانه أحوالهم يوم الحشر، فقال: ﴿وَإِنْ مِـنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ أي: ما منكم أحد إلّا واردها. والهاء في ﴿وَارِدُهَا﴾ راجعة إلى «جهنم».

---

(١) هو لحاتم الطائيّ الجواد المشهور، يصف بني بدر، نزل فيهم فأكرموه، يعني دعوني وحلوني في صدر مجالسهم، ونظروا إليّ بعين الإكرام.

وإختلف العلماء في معنى الورود على قولين:

أحدهما: إنّ ورودها هو الوصول إليها، والإشراف عليها، لا الدخول فيها، وهو قول ابن مسعود، والحسن، وقتادة، وإختاره أبو مسلم. وإستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ وبأنّك تقول: وردت بلد كذا، وماء كذا أي: أشرفت عليه، دخلته أو لم تدخله. وفي أمثال العرب: «أنْ تَردَ الماءَ بماءٍ أَكْيَس»[1] وقال زهير:

فَلَمّا وَرَدْنَ الْماءَ زُرْقاً جَمامُهُ وَضَعْنَ عِصِيَّ الْحاضِرِ الْمُتَخَيِّمِ[2]

أراد: فلمّا بلغن الماء أقمن عليه. قال الزجّاج: والحجّة القاطعة في ذلك قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أولئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ فهذا يدلّ على أنّ أهل الحسنى لا يدخلونها. قالوا: فمعناه: إنّهم واردون حول جهنّم للمحاسبة، ويدلّ عليه قوله: ﴿ثُمَّ لَنَحْضَرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً﴾، ثمّ يدخل النار من هو أهلها. وقال بعضهم: معناه: إنّهم واردون عرصة القيامة التي تجمع كل برّ وفاجر.

والآخر: إنّ ورودها بمعنى دخولها، بدلالة قوله تعالى: ﴿فَأَوْرَدَهُم النَّارَ﴾ وقوله: ﴿وَأَنْتُم لَهَا وَارِدُونَ﴾ لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها، وهو قول ابن عباس، وجابر، وأكثر المفسّرين. ويدلّ عليه قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ

---

(١) يعني: ابن أمرك على الإحتياط في كل شيء، ولا تترك الماء إن تصحبه، وإن كنت وارداً على الماء.

(٢) الضمير في «وردن» للظعائن. والجمام: مجتمع الماء. والزرق: جمع أزرق. ووضع العصى: كناية عن الإقامة.

فِيهَا جِثِيّاً ﴾ ولم يقل: وندخل الظالمين، وإنّما يقال نذر ونترك للشيء الذي قد حصل في مكانه.

ثمّ إختلف هؤلاء، فقال بعضهم: إنّه للمشركين خاصّة، ويكون قوله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ﴾ المراد به: منهم، كما قال سبحانه: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾ ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ أي: لهم. وروي في الشواذّ، عن ابن عباس أنّه قرأ: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾.

وقال الأكثرون: إنّه خطاب لجميع المكلّفين، فلا يبقى برّ ولا فاجر، إلّا ويدخلها، فيكون برداً وسلاماً على المؤمنين، وعذاباً لازماً للكافرين. قال السدّي: سألت مرّة الهمداني عن هذه الآية، فحدّثني أنّ عبدالله بن مسعود، حدّثهم عن رسول الله ﷺ قال: يرد الناس النار، ثمّ يصدّون بأعمالهم، فأوّلهم كلمع البرق، ثمّ كمرّ الريح، ثمّ كحضر الفرس، ثمّ كالراكب، ثمّ كشدّ الرجل، ثمّ كمشيه.

وروى أبو صالح غالب بن سليمان، عن كثير بن زياد، عن أبي سمينة، قال: اختلفا [إختلفنا] في الورود، فقال قوم: لا يدخلها مؤمن. وقال آخرون: يدخلونها جميعاً، ثمّ ينجّي الله الذين إتّقوا. فلقيت جابر بن عبد الله، فسألته، فأومئ بإصبعيه إلى أذنيه، وقال: صمتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: الورود: الدخول، لا يبقى برّ ولا فاجر إلّا يدخلها، فتكون على المؤمنين برداً وسلاماً، كما كانت على إبراهيم، حتى أنّ للنار ـ أو قال لجهنّم ـ ضجيجاً من بردها ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً﴾.

وروي مرفوعاً عن يعلى بن منبه، عن رسول الله ﷺ قال: تقول النار للمؤمن يوم القيامة: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي.

وروي عن النبيّ ﷺ أنّه سئل عن معنى الآية، فقال: إنّ الله تعالى يجعل النار كالسمن الجامد، ويجمع عليها الخلق، ثمّ ينادي المنادي: أنْ خذي أصحابك،

وذري أصحابي. قال ﷺ: فوالذي نفسي بيده! لهي أعرف بأصحابها من الوالدة بولدها.

وروي عن الحسن أنّه رأى رجلاً يضحك، فقال: هل علمت أنّك وارد النار؟ قال: نعم. قال: وهل علمت أنّك خارج منها؟ قال: لا. قال فبِمَ هذا الضحك؟ وكان الحسن لم ير ضاحكاً قطّ حتى مات. وقيل: إنّ الفائدة في ذلك ما روي في بعض الأخبار، أنّ الله تعالى لا يدخل أحداً الجنة حتى يطلعه على النار، وما فيها من العذاب؛ ليعلم تمام فضل الله عليه، وكمال لطفه وإحسانه إليه، فيزداد لذلك فرحاً وسروراً بالجنّة ونعيمها، ولا يدخل أحد النار حتى يطلعه على الجنّة، وما فيها من أنواع النعيم والثواب؛ ليكون ذلك زيادة عقوبة له، حسرة على ما فاته من الجنّة ونعيمها.

وقال مجاهد: الحمى: حظّ كل مؤمن من النار. ثمّ قرأ: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾. فعلى هذا من حمّ من المؤمنين، فقد وردها. وقد ورد في الخبر أن الحمى من قيح جهنّم. وروي أن رسول الله ﷺ عاد مريضاً، فقال: أبشر إنّ الله عزّوجلّ يقول: الحمى هي ناري، أُسلّطها على عبدي المؤمن في الدنيا؛ لتكون حظه من النار.

وقوله: ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً﴾ أي: كائناً واقعاً لا محالة، قد قضى بأنّه يكون. و﴿عَلَى﴾ كلمة وجوب، فمعناه: أوجب الله ذلك على نفسه. وفيه دلالة على أنّه يجب عليه سبحانه أشياء من طريق الحكمة، خلافاً لما يذهب إليه أهل الجبر.

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ الشرك، وصدّقوا، ـ عن ابن عباس ـ. ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي: ونقرّ المشركين والكفّار على حالهم ﴿فِيهَا﴾ أي: في جهنّم

﴿جِثِيّاً﴾ أي: باركين على ركبهم. وقيل: جماعات على ما مرّ تفسيره. وقيل: المراد بالظالمين: كل ظالم وعاصٍ.

ثمّ قال سبحانه: ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ ومعناه: وإذا يتلى على الكافرين آياتنا المنزلة في القرآن، ظاهرات الحجج والأدلّة، يمكن تفهم معانيها ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً ﴾ أي: قال الذين جحدوا وحدانيّة الله، وكذّبوا أنبياءه، للذين صدّقوا بذلك، مستفهمين لهم، وغرضهم الإنكار أيُّ الفريقين أي: أنحن أم أنتم خير منزلاً، ومسكناً أي: موضع إقامة.

﴿ وَأَحْسَنُ نَدِيّاً ﴾ أي: مجلساً. وإنّما تفاخروا بالمال. وزينة الدنيا، ولم يتفكّروا في العاقبة، ولبّسوا على الضعفة بأنّ من كان ذا مال في الدنيا، فكذلك يكون في الآخرة.

ثمّ نبّههم سبحانه على فساد هذا الإعتقاد، بأن قال: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً﴾ قال ابن عباس: الأثاث: المتاع وزينة الدنيا. والرءي: المنظر والهيئة. والمعنى: إنّ الله تعالى قد أهلك قبلهم أمماً وجماعات كانوا أكثر أموالاً، وأحسن منظراً منهم، فأهلك أموالهم، وأفسد عليهم صورهم، ولم تغن عنهم أموالهم، ولا جمالهم، كذلك لا يغني عن هؤلاء. وقيل: إنّ المعني بالآية النضربن الحارث وذووه، وكانوا يرجلون شعورهم، ويلبسون أفخر ثيابهم، ويفتخرون بشارتهم وهيآتهم على أصحاب النبيّ ﷺ.

ثمّ قال سبحانه لنبيّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يا محمّد ﴿ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ عن الحقّ، العدول عن إتّباعه ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدّاً ﴾ هذا لفظ أمر، معناه الخبر، وتأويله: إنّ الله سبحانه جعل جزاء ضلالته أن يمدَّ له، بأن يتركه فيها، كما قال: ﴿وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ إلّا أنّ لفظ الأمر يؤكّد معنى الخبر، فكأنّ المتكلّم

يقول: أفعل ذلك وآمر نفسي به. والمعنى: فليعش ما شاء. وأَضاف ذلك إلى نفسه؛ لأنّه سبحانه يبقيه في الدنيا أي: فليعش ما شاء الله من السنين والأعوام، فإنّه لا ينفعه طول عمره.

﴿حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ﴾ أي: عذاب الإستئصال، ـ عن الأصم ـ. وقيل: عذاب وقت البأس. وقيل: عذاب القبر. وقيل: عذاب السيف ﴿وَإِمَّا السَّاعَةَ﴾ أي: القيامة، وعذاب النار ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ حين يرون العذاب ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ أي: أَهُمْ أمْ المؤمنون؛ لأنّ مكانهم جهنّم، ومكان المؤمنين الجنّة ﴿وَأَضْعَفُ جُنداً﴾ أي: ويعلمون أجندهم أضعف، أم جند النبيّ ﷺ والمسلمين. وهذا ردّ لقولهم: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً﴾.

وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

القِرَاءَة: قرأ حمزة والكسائي: ﴿وُلْداً﴾ ـ بضمّ الواو، وسكون اللام ـ في

هذه السورة أربعة مواضع، وفي الزخرف: ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ وفي نوح: ﴿وَوَلَدُهُ﴾ فهذه ستّة مواضع. وقرأ أهل البصرة، وابن كثير، وخلف، في سورة نوح: بالضم فقط. وقرأ الباقون: بفتح الواو واللام في جميع القرآن.

الحجة: قال الفرّاء: من أمثال بني أسد: «وُلْدُكِ مَنْ دَمَّى عَقِبَيْكِ»[١] قال: وكان معاذ الحرشي يقول: لا يكون الولد إلّا جمعاً، وهذا واحد، يعني الذي في المثل. وأنشد:

فَلَيْتَ فُلاناً كانَ في بَطْنِ أُمِّهِ ... وَلَيْتَ فُلاناً كانَ وُلْدَ حِمارِ

قال أبو عليّ: يجوز أن يكون جمعاً، كأسد وأُسد، ويجوز أن يكون واحداً، فيكون «وَلَد ووُلْد»، كحَزَن وحُزْن، وعَرَب وعُرْب. فلا يكون كقول معاذ ـ إنّه لا يكون إلّا جمعاً ـ. وما أنشده الفرّاء من قوله: «وليت فلاناً كان ولد حمار» يدلّ على أنّه واحد ليس بجمع، فهو مثل «الفلك» الذي يكون مرّة جمعاً، ومرّة واحداً.

الإعراب: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً﴾: الموصول هو المفعول الأوّل لـ«رأيت»، والإستفهام في موضع المفعول الثاني، وهو قوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ الآية. قال الزجّاج: كلاّ: زجر وردع وتنبيه أي: هذا ممّا يرتدع به، وينبّه على وجه الضلالة فيه. وقال الفرّاء: يكون صلة لما بعدها، كقولك: كلاّ وربّ الكعبة. وقال أبو حاتم: جاءت في القرآن على وجهين: بمعنى «لا يكون ذلك»، وبمعنى «إلّا» التي للتنبيه. وجاءت في مواضع متوجّهة على التأويلين، ويدلّ على ذلك أنّها قد تكون مبتدأة مثل قوله: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، ثمّ إبتدأ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾. قال الأعشى:

---

[١] الخطاب لامرأة من بني القين أي: من نفست به فأدمى النفاس عقبيك، فهو ابنك، لا هذا الذي اتخذته ولداً بقولك إبني إبني.

كَلاَّ زَعَمْتُمْ بِأَنَّا لاَ نُقَاتِلُكُمْ إِنَّا لأَمْثَالِكُمْ يَا قَوْمَنَا قُتُل

وقال أبو العباس: لا يوقف على ﴿كَلَّا﴾ لأنّها جواب، والفائدة تقع فيما بعدها. وقيل: يجوز الوقف عليه. ومن مشكلات الوقف في القرآن، الوقف على ﴿كَلَّا﴾، وقد قسمه القرّاء على أربعة أقسام: أحدها: ما يحسن الوقف عليه، ويحسن الإبتداء به. والثاني: يحسن الوقف عليه، ولا يحسن الإبتداء به. والثالث: يحسن الإبتداء به، ولا يحسن الوقف عليه. والرابع: لا يحسن الوقف عليه، ولا الإبتداء به، وهو في القرآن في ثلاثة وثلاثين موضعاً، وليس في النصف الأوّل شيء منه.

فأمّا القسم الأوّل: وهو ما يحسن الوقف عليه، والإبتداء به، فعشرة مواضع: قوله: ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً كَلَّا﴾، وقوله: ﴿لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً كَلَّا﴾، وقوله تعالى: ﴿لَعَلِي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا﴾، وقوله: ﴿الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ كَلَّا﴾، وقوله: ﴿أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ كَلَّا﴾، وقوله: ﴿أَنْ أَزِيدَ كَلَّا﴾، وقوله: ﴿صُحُفاً مُنَشَّرَةً كَلَّا﴾، وقوله: ﴿رَبِّي أَهَانَنِ كَلَّا﴾، وقوله: ﴿أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ كَلَّا﴾.

فمن جعل «كلّا» في هذه المواضع ردّاً للأوّل، بمعنى «لا، ليس الأمر كذلك»، وقف عليه. ومن جعله بمعنى «إلّا» التي للتنبيه، أو بمعنى «حقّاً»، إبتدأ به، وهو يحتمل الوجهين في هذه المواضع.

وأمّا الثاني: وهو ما يحسن الوقف عليه، ولا يحسن الإبتداء به، فموضعان: قوله: ﴿فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونَ قَالَ كَلَّا﴾، وقوله: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ قَالَ كَلَّا﴾.

وأمّا الثالث: وهو ما يحسن الإبتداء به، ولا يحسن الوقف عليه، فتسعة عشر موضعاً. قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾، ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾، ﴿كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ﴾، ﴿كَلَّا

لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾، ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينَ﴾، ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾، ﴿كَلَّا لاَ وَزَرَ﴾، ﴿كَلَّا بَلْ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾، ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾، ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾، ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ﴾، ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ﴾، ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ﴾، ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكّاً﴾، ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾، ﴿كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ﴾، ﴿كَلَّا لاَ تُطِعْهُ﴾، ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾. يحسن الإبتداء بـ«كلّا» في هذه المواضع، ولا يحسن الوقف عليه؛ لأنّه ليس بمعنى الردّ للأوّل. وقال بعضهم: إنّه يحسن الوقف على «كلّا» في جميع القرآن؛ لأنّه بمعنى «إنتبه» إلّا في موضع واحد، وهو قوله: ﴿كَلَّا وَالْقَمَرِ﴾؛ لأنّه موصول باليمين بمنزلة قوله: إي وربّي.

وأمّا الرابع، فموضعان: ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ لا يحسن الوقف على ﴿ثُمَّ﴾؛ لأنّه حرف عطف، ولا على ﴿كَلَّا﴾؛ لأنّ الفائدة فيما بعد هذين الحرفين.

النزول: روي في الصحيح عن خباب بن الأرت، قال: كنت رجلاً غنيّاً، وكان لي على العاص بن وائل دين، فأتيته أتقاضاه، فقال: لا أقضيك حتى تكفر بمحمّد ﷺ. فقلت: لن أكفر به حتى تموت وتبعث. قال: فإنّي لمبعوث بعد الموت، فسوف أقضيك دينك إذا رجعت إلى مال وولد! قال: فنزلت الآية: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾.

المعنى: ثمّ بين سبحانه حال المؤمن، فقال سبحانه: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدىً﴾ قيل: معناه: ويزيد الله الذين إهتدوا بالمنسوخ هدى بالناسخ، ـ عن مقاتل ـ. وقيل: يزيدهم هدى بالمعونة على طاعاته، والتوفيق لإبتغاء مرضاته، وهو ما يفتحه لهم من الدلالات، وما يفعله بهم من الألطاف المقرّبة من الحسنات.

﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً﴾ قد مرَّ تفسيره في سورة الكهف، وجملته أنّ الأعمال الصالحة التي تبقى ببقاء ثوابها، وتنفع صاحبها في الدنيا والآخرة، خير ثوابا من مقامات الكفا[رات] التي يفتخرون بها كل الإفتخار ﴿وخَيْرٌ مَرَدّاً﴾ أي: خير عاقبة ومنفعة. يقال: هذا الشيء أردّ عليك أي: أنفع وأعود عليك؛ لأنّ العمل الصالح ذاهب عنه بفقده له، فيردّه الله تعالى عليه بردّ ثوابه إليه، حتى يجده في نفسه.

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ أفرأيت: كلمة تعجيب، ومعناه: أرأيت هذا الكافر الذي كفر بأدلّتنا من القرآن وغيره، وهو العاص بن وائل، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. وقيل: الوليد بن المغيرة، ـ عن الحسن ـ. وقيل: هو عام فيمن له هذه الصفة، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿ وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً ﴾ إستهزاء أي: لأعطينّ مالاً وولداً في الجنّة، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: أُعطي في الدينا أي: إن أقمت على دين آبائي، وعبادة آلهتي، أعطيت مالاً وولداً.

﴿ أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ هذه همزة الإستفهام دخلت على همزة الوصل، فسقطت همزة الوصل، ومعناه أعلم الغيب حتى يعلم أهو في الجنّة أم لا، ـ عن ابن عباس، ومجاهد ـ. وقيل: معناه: أنظر في اللوح المحفوظ، ـ عن الكلبي ـ. وتأويله: أأشرف على علم الغيب حتى علم أنّه سنؤتيه مالاً وولداً، وأنّه إن بُعث رزق مالاً وولداً.

﴿ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ أي: إتّخذ عند الله عهداً بعمل صالح قدَّمه، ـ عن قتادة ـ. وقيل: معناه: أم عهد الله إليه أنّه يدخل الجنّة، ـ عن الكلبي ـ. وقيل: معناه: أم قال لا إله إلّا الله، فيرحمه الله بها، ـ عن ابن عباس ـ.

﴿ كَلَّا ﴾ أي: ليس الأمر على ما قال، من أنّه يؤتى المال والولد. ويجوز أن يكون المعنى: كلّا إنّه لم يطّلع الغيب، ولم يتّخذ عند الله عهداً. ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أي: سنأمر الحفظة بإثباته عليه؛ لنجازيه به في الآخرة، ونوافقه عليه ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنْ الْعَذَابِ مَدّاً ﴾ أي: نصل له بعض العذاب بالبعض، ونزيده عذاباً فوق العذاب، فلا ينقطع عذابه أبداً. وأكّد الفعل بالمصدر، كما يؤكّد بالتكرير.

﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أي: ما عنده من المال والولد بإهلاكنا إيّاه، وإبطال ملكه، ـ عن ابن عباس، وقتادة، وابن زيد ـ. ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْداً ﴾ أي: يأتي الآخرة وحيداً بلا مال، ولا ولد، ولا عدّة، ولا عدد.

﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً ﴾ يعني: إنّ هؤلاء الكفّار الذين وصفتهم، إتّخذوا آلهة أي: أصناماً عبدوها ﴿ لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً ﴾ أي: ليكونوا لهم شفعاء في الآخرة، ـ عن الفرّاء ـ. وهذا معنى قول ابن عباس، ليمنعوهم منّي، وذلك أنّهم رجوا منها الشفاعة والنصرة، والمراد: ليصيروا بهم إلى العزّ.

قال الله سبحانه: ﴿ كَلَّا ﴾ أي: ليس الأمر كما ظنّوا، بل صاروا بهم إلى الذلّ، والعذاب ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ أي: سيجحدون بأن يكونوا عبدوها، ويتبرّؤون منها؛ لما يشاهدون من سوء عاقبة أمرهم، ويقولون: [﴿ وَيَزِيد الله الذين اهتدوا هدى] ﴿ وَاللهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾. وقيل: معناه: إنّ المعبودين سيكفرون بعبادة المشركين لها، ويكذبونهم فيها، كما قال حكاية عنهم ﴿ تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾، ـ عن الجبائي ـ.

﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدّاً ﴾ قال الأخفش: الضدّ يكون واحداً، وجمعاً، كالرسول والعدوّ، ومعناه: ويكونون عوناً عليهم، وأعداء لهم يخاصمونهم، ويكذبونهم. وقيل: ويكونون قرناء لهم في النار، ويلعنونهم، ويتبرّؤون منهم، ـ عن

قتادة ـ. وقيل: ويكونون أعداءهم يوم القيامة، وكانوا في الدنيا أولياءهم، ـ عن القتيبي ـ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾

القراءة: في الشواذّ، رواية قتادة، عن الحسن: «يحشُر المتّقون»، و«يُساق المجرمون» قال: فقلت: إنّها بالنون يا أبا سعيد، قال: وهي للمتّقين إذاً. وقراءة السلمي: شيئاً أدّا ـ بفتح الهمزة ـ. وقرأ أبو جعفر، وابن كثير، وحفص: ﴿تَكَادُ﴾ ـ بالتاء ـ ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ ـ بالتاء، وفتح الطاء مشدّدة، وفي عسق، مثله. وقرأ نافع والكسائي: ﴿يَكَادُ﴾ ـ بالياء ـ، ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ في السورتين. وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر، وهبيرة، عن حفص، ويعقوب: ﴿تَكَادُ﴾ ـ بالتاء ـ. ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾ ـ بالياء، والنون، وكسر الطاء في السورتين ـ. وقرأ ابن عامر، وحمزة، وخلف،: هيهنا: ﴿تَكَادُ﴾ ـ بالتاء ـ، ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾ ـ بالنون ـ، مثل: أبي عمرو. وفي عسق: ﴿تَكَادُ﴾

ـ بالتاء ـ، ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ ـ بالتاء أيضاً ـ.

﴿الحجّة﴾: حجّة من قرأ: يحشر، ويساق قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَراً﴾ والأدُّ ـ بالفتح ـ: القوّة. قال: «نَضَوْتُ عَنّي شِرَةً وَأَدّاً». فعلى هذا يمكن أن يكون المعنى: لقد جئتم شيئاً ذا أدٍّ أي: ذا قوّة. وإن شئت وصفته بالمصدر، كقولهم: رجل عدل، وضيف. والإنفطار: مطاوعة الفطر. يقال: فطره فإنفطر، والتفطّر: مطاوعة التفطير. يقال: فطرته فتفطّر، وكأنّه أليق بهذا الموضع؛ لما فيه من معنى المبالغة، وتكرير الفعل. وذهب أبو الحسن في معنى قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾ إلى أنّ معنى ﴿تَكَادُ﴾: تريد، وكذلك قال في قوله: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ أي: أردنا له. وأنشد:

كادَتْ، وَكِدْتُ، وتِلْكَ خَيْرُ إرادَةٍ لَوْ عادَ مِنْ ذِكْرِ الصَّبابَةِ ما مَضىٰ

وكذلك قوله في ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ أي: أُريد أخفيها. وعلى هذا فسَّر غيره قول الأفوه:(١)

فَإِنْ تَجَمَّعَ أَوْتادٌ، وَأَعْمِدَةٌ وَساكِنٌ، بَلَغُوا الأَمْرَ الَّذي كادُوا

أي: أرادوا. قال: المعنى: يردن لا أنّهنّ ينفطرن، ولا يدنون من ذلك، ولكنهنّ هَمَمْنَ به؛ إعظاماً لقول المشركين، ولا يكون على من همَّ بالشيء أن يدنو منه. ألاترى أنّ رجلاً لو أراد أن ينال السماء، لم يدن من ذلك، وقد كانت منه إرادة. وقد قال بعض المتأوّلين في قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ

---

(١) الأفوه الاودى: إسمه صلائة بن عمرو، من أمراء اليمن، مات قبل البعثة. وقبل هذا البيت: والبيت لايبتني الا له عمد، ولا عماد إذا لم ترس أوتاد. وبه يتّضح معنى البيت. وغرضه: التمثّل بأنّ الناس لايصلحون إلّا بتدبير ورئيس، ويوضّحه بيت بعده: لايصلح الناس فوضى لاسراة لهم، ولا سراة إذا جهّالهم سادوا. ونعم قال.

﴿الْجِبَالُ هَدّاً﴾: هذا مثل كانت العرب إذا سمعت كذباً، أو منكراً، تعاظمته، وعظمته بالمثل الذي كان عندها عظيماً، فقالت: كادت الأرض تنشقّ، وأظلم علي ما بين السماء والأرض. فلمّا إفتروا على الله الكذب، ضرب مثل كذبهم بأهول الأشياء وأعظمها. قال أبو عليّ: وممّا يقرب من هذا قول الشاعر:

أَلَمْ تَرَ صَدْعاً في السَّماءِ مُبَيَّناً عَلى ابْنِ لُبَيْنَى الحارِثِ بْنِ هِشامِ

وقول الآخر:

وَأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مُقْشَعِرّاً كَأَنَّ الأَرْضَ لَيْسَ بِها هِشامُ

وقال الآخر:

لمّا أَتىٰ خَبَرُ الزُّبَيْرِ، تَواضَعَتْ سُورُ الْمَدِينَةِ، وَالْجِبالُ الخُشَّعُ

﴿اللغة﴾: الأزّ: الإزعاج إلى الأمر. يقال: أزّه يأزّه أزّاً وأزيزاً: إذا هزّه بالإزعاج إلى أمر من الأُمور. وأزَّت القِدر أزيزاً: إذا غلت. ومنه الحديث: إنّه كان يصلي وأزيز جوفه كأزيز المرجل من البكاء. وأززت الشيء إلى الشيء: ضممته إليه. والوفد: جمع وافد، وقد يجمع «وفوداً» أيضاً. وَفَد يَفِد وفداً. وأوفد على الشيء: أشرف عليه.

والسَّوْق: الحثُّ على السير، ساقه يسوقه سوقاً. ومنه: الساق؛ لإستمرار السير بها، أو لأنّ القدم يسوقها. ومنه: السُوق؛ لأنّه يساق بها البيع والشرى شيئاً بعد شيء. والورد: الجماعة التي ترد الماء. يقال: ورد الماء يرد ورداً. والادّ: الأمر العظيم. قال الراجز:

قَدْ لَقِيَ الأَعْداءُ مِنّي نُكْراً داهِيَةً دَهْياءَ إدّاً إِمْراً

والإنفطار: الإنشقاق. والتفطّر: التشقّق. والهدّ: الهدم بشدّة صوت.

﴿الإعراب﴾: ﴿تَؤُزُّهُمْ﴾ جملة في موضع الحال. ومفعول ﴿نَعُدُّ لَهُمْ﴾:

محذوف، والتقدير: نعدّ أعمالهم عدّاً. و﴿يَوْمَ نَحْشُرُ﴾: ظرف لقوله: ﴿نَعُدُّ لَهُمْ﴾. ويجوز أن ينتصب بقوله: ﴿لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي: لا يملكون في ذلك اليوم. ﴿وَفْداً﴾ منصوب؛ على الحال من ﴿الْمُتَّقِينَ﴾ أي: وافدين. و﴿وِرْداً﴾ كذلك أي: واردين. ﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ﴾: هو موصول وصلة في موضع رفع؛ لأنّه بدل من الواو في ﴿يَمْلِكُونَ﴾. ويجوز أن يكون في محلّ النصب؛ لأنّه إستثناء منقطع، فإنّ من إتّخذ عند الرحمن عهداً لا يكون من المجرمين.

وقوله: ﴿تَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾: جملة معطوفة على الجملة التي قبلها، وتقديره: وتكاد الأرض تنشقّ، والجبال تخرُّ. وَهَدًّا: منصوب على المصدر في المعنى، تقديره: تخرُّ خروراً، وتهدّ هدّاً. ويجوز أن يكون في موضع الحال. و﴿أَنْ دَعَوْا﴾: مفعول له، والتقدير: لأن دعوا أي: لأجل ذلك.

المعنى: ثمّ خاطب سبحانه نبيَّه ﷺ، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمّد ﴿أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: خلّينا بينهم وبين الشياطين إذا وسوسوا إليهم، ودعوهم إلى الضلال حتى أغووهم، ولم نحل بينهم وبينهم بالإلجاء، ولا بالمنع. وعبّر عن ذلك بالإرسال على سبيل المجاز والتوسّع، كما يقال لمن خلّى بين الكلب وغيره: أرسل كلبه عليه، ـ عن الجبائي ـ. وقيل: معناه: سلّطناهم عليهم، ويكون في معنى التخلية أيضاً كلبه على ما ذكرناه.

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزّاً﴾ أي: تزعجهم إزعاجاً من الطاعة إلى المعصية، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: تغريهم إغراء بالشرّ. تقول: إمض امض في هذا الأمر حتى توقعهم في النار، ـ عن سعيد بن جبير ـ.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدّاً﴾ معناه: فلتطب نفسك يا محمّد، ولا

تستعجل لهم العذاب، فإنّ مدّة بقائهم قليلة، فإنّا نعدّ لهم الأيّام والسنين، وما دخل تحت العدّ، فكان قد نفد. وقيل: معناه: نعدُّ أنفاسهم في الدنيا، فهي معدودة إلى الأجل الذي أجّلناه لعذابهم، ـ عن ابن عباس ـ. وهذا من أبلغ الوعيد. وقيل: معناه: نعدّ أعمالهم على ما ذكرناه قبل.

﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً ﴾ أي: أذكر لهم يا محمّد، اليوم الذي نجمع فيه من إتّقى الله في الدنيا بطاعته، وإجتنب معاصيه إلى الرحمن أي: إلى جنّته، ودار كرامته، وفوداً وجماعات، ـ عن الأخفش ـ. وقيل: ركباناً يؤتون بنوق لم ير مثلها، عليها رحائل الذهب، وأزمّتها الزبرجد، فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنّة، ـ عن أمير المؤمنين عليه السلام، وابن عباس ـ.

﴿ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً ﴾ أي: ونحثّ المجرمين على المسير إلى جهنّم عطاشاً، كالإبل التي ترد عطاشاً، مشاة على أرجلهم، ـ عن ابن عباس، والحسن، وقتادة ـ وسمّي العطاش ﴿وِرْداً﴾؛ لأنّهم يردون لطلب الماء. وقيل: الورد: النصيب أي: هم نصيب جهنّم من الفريقين. والمؤمنون نصيب الجنّة، ـ عن أبي مسلم ـ.

﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ أي: لا يقدرون على الشفاعة، فلا يشفعون، ولا يشفع لهم حين يشفع أهل الإيمان بعضهم لبعض؛ لأنّ ملك الشفاعة على وجهين: **أحدهما**: أن يشفع للغير. **والآخر**: أن يستدعي الشفاعة من غيره لنفسه، فبيّن سبحانه أنّ هؤلاء الكفّار لا تنفذ شفاعة غيرهم فيهم، ولا شفاعة لهم لغيرهم.

ثمّ إستثنى سبحانه، فقال: ﴿ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ أي: لا

يملكون الشفاعة إلّا هؤلاء. وقيل: لا يشفع إلّا لهؤلاء. والعهد: هو الإيمان، والإقرار بوحدانيّة الله تعالى، وتصديق أنبيائه. وقيل: هو شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن يتبرّأ إلى الله من الحول والقوّة، ولا يرجو إلّا الله، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: معناه: لا يشفع إلّا من وعد له الرحمن بإطلاق الشفاعة. كالأنبياء، والشهداء، والعلماء، والمؤمنين، على ما ورد به الأخبار.

وقال عليّ بن إبراهيم بن هاشم في تفسيره: حدّثني أبي، عن الحسن بن محبوب، عن سيلمان ابن جعفر، عن أبي عبد الله عليه السلام، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من لم يحسن وصيّته عند الموت، كان نقصاً في مروءته. قيل: يا رسول الله! وكيف يوصي الميّت؟ قال: إذا حضرته وفاته، وإجتمع الناس إليه، قال: أللهمّ فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، إنّي أعهد إليك في دار الدنيا، أنّي أشهد أن لا إله إلّا أنت، وحدك لا شريك لك، وأنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم عبدك ورسولك، وأنّ الجنّة حقّ، وأنّ النار حقّ، وأنّ البعث حقّ، والحساب حقّ، والقدر والميزان حقّ، وأنّ الدين كما وصفت، وأنّ الإسلام كما شرعت، وأنّ القول كما حدثت، وأنّ القرآن كما أنزلت، وأنّك أنت الله الحقّ المبين، جزى الله محمّداً عنّا خير الجزاء، وحيّا الله محمّداً وآله بالسلام. أللهمّ يا عدّتي عند كربتي، ويا صاحبي عند شدّتي، ويا وليّ نعمتي، وإلهي وإله آبائي، لا تَكِلْني إلى نفسي طرفة عين، فإنّك إن تكلني إلى نفسي أقرب من الشرّ، وأبعد من الخير، وآنس في القبر وحشتي، وإجعل لي عهداً يوم ألقاك منشوراً. ثمّ يوصي بحاجته.

وتصديق هذه الوصيّة في سورة مريم في قوله: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا

﴿ مَنْ إِتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً ﴾ فهذا عهد الميّت. والوصيّة حقّ على كل مسلم، وحقّ عليه أن يحفظ هذه الوصيّة ويعلمها. وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: علّمنيها رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال: علّمنيها جبرائيل عليه السلام.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً ﴾ هذا إخبار عن اليهود، والنصارى، ومشركي العرب، فإنّ اليهود قالوا: عزير إبن الله، وقالت النصارى: المسيح إبن الله، وقال مشركو العرب: الملائكة بنات الله. ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئاً إِدّاً ﴾ هيهنا حذف، تقديره: قل لهم يا محمّد: لقد جئتم بشيء منكر عظيم، شنيع فظيع. فلمّا حذف الباء، وصل الفعل إليه، فنصبه.

﴿ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أي: أرادت السماوات أن تنشقّ لعظم فريتهم؛ إعظاماً لقولهم، ومعناه: لو إنشقّت السماوات بشيء عظيم، لكانت تنشقّ من هذا ﴿ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ أي: وكادت الأرض تنشقّ، ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ ﴾ أي: كادت الجبال تسقط ﴿هَدّاً﴾ أي: كسراً شديداً، ـ عن ابن عباس ـ. وقيل: هدماً، ـ عن عطاء ـ.

﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَانِ وَلَداً ﴾ أي: لأن دعوا للرحمن ولداً، أو من أن دعوا للرحمن ولداً أي: بسبب دعوتهم، أو تسميتهم له ولدا.

﴿ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَانِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً ﴾ أي: ما يصلح للرحمن، ولا يليق به إتخاذ الولد: وليس من صفته ذلك؛ لأنّ إثبات الولد له يقتضي حدوثه، وخروجه من صفة الإلهيّة، وإتّخاذ الولد يدلّ على الحاجة تعالى عن ذلك، وتقدّس.

إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ
أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾
إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم
مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

(اللغة): اللدد: شدّة الخصومة. وفي التنزيل ﴿أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ أي: أشدُّ الخصام خصومة. وجمع الألد: لُدّ. قال الشاعر:

إنَّ تَحْتَ الأحجارِ حَزْماً، وَعَزْماً ... وَخَصِيماً أَلَدَّ ذا مِعْلاق[1]

أي: شديد الخصومة. والركز: الصوت الخفيّ. وأصل الركز: الحسّ. ومنه: الركاز؛ لأنّه يحسّ به مال من تقدّم بالكشف عنه. قال ذو الرمة:

وَقَدْ تَوَجَّسَ رِكْزاً مِنْ سَنابِكِها ... أو كانَ صاحِبَ أرْضٍ، أوْ بِهِ المُومُ[2]

الأرض: الرعدة. والموم: البرسام. وأصل الإحساس: الإدراك بالحاسّة.

(الإعراب): ﴿كُلُّ﴾: مبتدأ، و﴿مِنْ﴾: في موضع خبر، والجارّ والمجرور من صلته. و﴿آتِي الرَّحْمَنِ﴾: في موضع رفع، خبر ﴿كُلُّ﴾، وهو مضاف إلى المفعول،

---

(١) البيت لمهلهل يرثى جماعة من قومه. وتحت الأحجار أي: القبر.

(٢) يصف صائداً. والبرسام: مرض يوجب إختلال الحواسّ.

ووحد «كُلّا» على اللفظ. و﴿عَبْداً﴾: في موضع الحال من الضمير من ﴿آتِي﴾. و ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ﴾: من الأولى يتعلّق بـ«تحسّ»، والثانية مزيدة. ويجوز أن يكون تقديره هل تحس أحداً منهم، ويكون منهم في موضع الصفة لأحد، فلما قدم على الموصوف، إنتصب على الحال.

﴿المَعْنَى﴾: ثمّ قال سبحانه: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً﴾ أي: ما كل من في السماوات والأرض من الملائكة، والإنس والجنّ، إلّا ويأتي الله سبحانه عبداً مملوكاً، خاضعاً، ذليلاً. ومثله: قوله: ﴿وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾، والمعنى: إنّ الخلق عبيده، خلقهم وربّاهم، وجرى عليهم حكمه، وأنّ عيسى وعزيراً والملائكة من جملة العبيد. وفي هذا دلالة على أنّ البنوّة والعبوديّة لا يجتمعان، وأنّه إذا ملك الإنسان إبنه عتق عليه[1].

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً﴾ أي: علم تفاصيلهم وأعدادهم، فكأنّه سبحانه عدّهم؛ إذ لا يخفى عليه شيء من أحوالهم.

---

(١) البنوّة ـ بتقديم الباء على النون ـ لايجتمع مع العبوديّة، فالإبن لايكون عبداً. والظاهر من الآية الإستدلال بكونهم عبيداً على عدم كونهم ولداً، ولو كان إجتماعهما ممكناً لم يتمّ الدليل، وإستشكل في كنز العرفان في دلالة الآية بأنّ ذلك خاص به تعالى، وليس بجيّد، نعم إمتناع إجتماع الوصفين لا يستلزم إنعتاق [عتق] الولد، بل يحتمل عدم صحّة إشترائه، فيتمّ الدلالة بالإجماع على عدم إبطال البيع، وكذلك قلّما يكون دليل لايحتاج في إتمامه إلى الإجماع، والإجماع أهمّ الأدلّة، وأعمّها كما مرّ، وطريق الإستدلال به نظير الإستدلال في الشكل الأوّل، من إستخراج حكم الأصغر تفصيلاً من حكم الأوسط عليه إجمالاً، فإنّ العلم بأنّ المتغيّر حادث، علم إجمالي بأنّ العالم حادث، وكذلك العلم بإجتماع الأمّة علم بقول المعصوم فيهم إجمالاً، والعلم بإجتماع جميع الأمّة حاصل من العلم بأقوال جماعة تقضي العادة بأنّه لو كان بين من لم نرهم خلاف لظهر أنموذج منه في أقوال من رأيناهم، والمتأخّرون يستدلّون بالحدس من أقوال جماعة يحصلون فتاولهم على قول المعصوم عليه السلام بغير توسيط فتوى الجميع. والأوّل أظهر، وهو المسمّى بالدخولي.

﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً ﴾ أي: كل واحد منهم يأتي المحشر، والموضع الذي لا يملك الأمر فيه إلّا الله، فرداً وحيداً مفرداً، ليس له مال ولا ولد، ولا ناصر مشغولاً بنفسه، لا يهمُّه همّ غيره.

ثم ذكر سبحانه المؤمنين، فقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: إنّها خاصّة في عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فما من مؤمن إلّا وفي قلبه محبّة لعليّ عليه السلام، ـ عن ابن عباس ـ. وفي تفسير أبي حمزة الثمالي: حدّثني أبو جعفر الباقر عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: قل أللهمّ إجعل لي عندك عهداً، وإجعل لي في قلوب المؤمنين ودّا. فقالهما عليّ عليه السلام، فنزلت هذه الآية. وروي نحوه عن جابر بن عبدالله الأنصاري.

والثاني: إنّها عامّة في جميع المؤمنين، يجعل الله لهم المحبّة والإلفة والمقة في قلوب الصالحين. قال هرم بن حبان: ما أقبل عبد بقلبه إلى الله، إلّا أقبل الله بقلوب المؤمنين إليه، حتى يرزقهم مودَّتهم، ورحمتهم، ومحبّتهم. وقال الربيع بن أنس: إنّ الله إذا أحبّ مؤمناً، قال لجبرائيل: إنّي أحببت فلاناً فأحبّه، فيحبّه جبرائيل، ثمّ ينادى في السماء: ألا إنّ الله أحبّ فلاناً فأحبّوه، فيحبّه أهل السماء، ثمّ يوضع له قبول في أهل الأرض. فعلى هذا يكون المعنى يحبّهم الله، ويحبّبهم إلى الناس.

والثالث: إنّ معناه: يجعل الله لهم محبّة في قلوب أعدائهم ومخالفيهم؛ ليدخلوا في دينهم، ويتعزّوا [ويعتزّوا] بهم.

الرابع: يجعل بعضهم يحبّ بعضاً، فيكون كل واحد منهم عضداً لأخيه

المؤمن، يكونون يدا واحدة على من خالفهم. والخامس: إنّ معناه: سيجعل لهم ودّاً في الآخرة، فيحبّ بعضهم بعضاً، كمحبّة الوالد لولده. وفي ذلك أعظم السرور، وأتمّ النعمة، ـ عن الجبائي ـ. ويؤيّد القول الأوّل ما صحّ عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال: لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا، على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجملتها على المنافق على أن يحبّني ما أحبّني، وذلك أنّه قضى، فإنقضى على لسان النبيّ الأمّي أنّه قال: لا يبغضك مؤمن، ولا يحبّك منافق.

ثمّ قال سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وآله: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ أي: يسرّنا القرآن بأن أنزلناه بلسانك، وهي لغة العرب؛ ليسهل عليهم معرفته، ولو كان بلسان آخر، ما عرفوه، ـ عن أبي مسلم ـ. وقيل: معناه: يسّرنا قراءة القرآن على لسانك، ومكّناك من قراءته، ـ عن الجبائي ـ.

﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ ﴾ أي: لتبشر بالقرآن الذين يتّقون الشرك والكبائر أي: تخبرهم بما تسرّهم ممّا أعدّه الله لهم ﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُدّاً﴾ أي: شداداً في الخصومة، ـ عن ابن عباس ـ. يعني: قريشاً. وقيل: قوماً ذوي جدل، مخاصمين، ـ عن قتادة ـ.

ثمّ أنذرهم سبحانه، وخوّفهم بقوله: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أي: قبل هؤلاء من قرن، مكذّبين للرسل، وفيه تسلية للنبيّ صلى الله عليه وآله. والمعنى: لا يهمنك كفرهم وشقاقهم، فإنّ وبال ذلك راجع إليهم، وقد أهلكنا قبلهم من كان مثلهم ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ ﴾ أي: هل تبصر منهم أحداً ﴿ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً ﴾ أي: صوتاً، ـ عن ابن عباس، وقتادة ـ. وقيل: حسّاً ـ عن ابن زيد ـ. والمعنى: أنّهم ذهبوا فلا يرى لهم عين، ولا يسمع لهم صوت، وكانوا أكثر أموالاً،

وأعظم أجساماً، وأشدّ خصاماً من هؤلاء، فلم يغنهم ذلك؛ لمّا أردنا إهلاكهم، فحكم هؤلاء الكفّار حكم أُولئك، في أنّه لا يبقى منهم عين، ولا أثر، والحمد لله ربّ العالمين.

تمَّ الجزء السادس من كتاب

«مجمع البيان في علوم القرآن»

فهرس الكتاب

(١٣) سورة الرعد ـ مدنية ـ وآياتها ثلاث وأربعون ٧
(١٤) سورة إبراهيم ـ مكية ـ وآياتها ثنتان وخمسون ٧٧
(١٥) سورة الحجر ـ مكية ـ وآياتها تسع وتسعون ١٣٥
(١٦) سورة النحل ـ مكية ـ وآياتها ثمان وعشرون ومائة ١٨٧
(١٧) سورة الإسراء ـ مكية ـ وآياتها إحدى عشرة ومائة ٢٩٧
(١٨) سورة الكهف ـ مكية ـ وآياتها عشر ومائة ٤٢٧
(١٩) سورة مريم ـ مكية ـ وآياتها ثمان وتسعون ٥٥٥
فهرس الكتاب ٦٣٧